

المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومى للترجمة
552





Novelas ejemplares

by Miguel de Cervantes Saavedra

تضم هذه المجموعة اثنتى عشرة قصة اعتاد الشُرَّاح تصنيفها إلى قسمين رئيسيين: قسم تسيطر عليه النزعة المثالية ، وآخر يسيطر عليه التكنيك الواقعى . وعلى الرغم من أن الفاصل بين القسمين ليس واضحاً تماماً ،فإنه يمكننا القول بأن الحبكة القصصية أكثر تعقيداً فى القسم الأول الذى تنتمى شخصياته إلى الطبقة الأرستقراطية ، ويتميز أسلوبه بالرصانة والرُقى (وإن كان عارياً عن الحيوية) ، كما يعتمد تطور الأحداث فيه على المصادفات الغريبة والحلول السارة غير المتوقعة . أما قصص القسم الثانى فتتميز ببساطة الحبكة والموضوع ، وبالتوسع فى وصف الأجواء الاجتماعية وعرض مشاهد الحياة اليومية ، كما تعتمد على لغة بسيطة سريعة الإيقاع مفعمة باللمسات الساخرة .

ومن أبرز قصص القسم الأول نذكر: «السيدة كورنيليا» ، و«الفتاتان» ، و«الإسبانية الإنجليزية» و«العاشق السخى» . أما القصص المشبعة بخصائص القسم الثانى فهى: «رينكونيته وكورتاديو» و«زواج المصلحة» ، و«المحامى المزجج» ، و«حوار الكلبين» ، و«غيور إكستريمادورا» .



تصميم : وائل أحمد

قصص مثالية

تأليف

ميجيل دى ثربانتس سابدرا

ترجمة

على عبدالرءوف البمبى



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥٥٢
- قصص مثالية
- ميجيل دى ثربانتس سابدرا
- على عبد الرءوف البمبى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب

Novelas ejemplares
Miguel de Cervantes Saavedra

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel: 7352396 Fax: 7358084.

الـــفـــهـــرس

تقديم المترجم

على الرغم من أن " ثربانتس" يتربع فوق عرش الأدب الإسباني بلا منازع، ويعتبر أحد القمم الشامخة في الآداب العالمية، ولا يختلف اثنان على عبقريته الفذة في فن القص إلا أنه يكاد يكون مجهولاً في أدبنا العربي رغم مرور زهاء أربعة قرون على وفاته.. لقد كانت ترجمة الدكتور عبدالعزيز الأهواني للجزء الأول من "دون كيخوته" (المنشورة منذ حوالي خمسين عاماً في سلسلة "الألف كتاب" الرائدة) هي المحاولة الأولى لتعريف القارئ العربي بهذا الكاتب العملاق. وبعد ترجمة الأهواني الرائعة جفت الأقلام وطويت الصحف ؛ إذ لم يجرؤ مغامر آخر على سبر أغوار عالم ثربانتس الخصب ، المحفوف بالعقبات والأخطار ، للتنقيب عن كنوزه واستخراج نفائسه... ونقول "مغامراً" ؛ لأن هذا العالم تكتنفه صعوبات جمّة حار في تفسيرها الشرّاح ولم يهتدوا إلى مغزى الكثير منها.

ولا تقف هذه الصعوبات عند حد اختلاف عصر المؤلف أو المناخ الثقافي والسياسي والاجتماعي الذي عاش فيه ، بل تمتد لتشمل أسلوبه المعقد وطبيعة أداة التعبير المستخدمة آنذاك ؛ فلقد شهدت اللغة الإسبانية تطوراً ملموساً خلال تلك الحقبة الطويلة التي طوى فيها النسيان عدداً لا بأس به من الألفاظ والمصطلحات ، وتغيرت فيها مدلولات عدد آخر لا يحصى من المفردات ، ناهيك عن التراكيب اللغوية وشكل الكتابة والقواعد التي تحكم بناء الجمل ، هذا بالإضافة إلى الأسلوب المتفرد للكاتب وتشبعه بالثقافة اليونانية واللاتينية ، وإلى استخدامه للكثير من الاصطلاحات الكنسية والأحاجي اللغوية والتعابير المجازية ...إلخ.

ومن هنا يتبين أن اقتحام مثل هذه النصوص – لاسيما إذا كانت لعبقري مثل ثربانتس – أشبه بتسلق جبل وعْر غامض ، حادٍّ وسامقٍ ، تحتاج كل خطوة فيه إلى الاستكشاف المستمر والحرص الدائم واليقظة التامة ؛ لأن زلّة واحدة للقدم تعني

السقوط من حالق .. ولعلنا بهذه الكلمات القصار نكون قد أشرنا – ولو من بعيد – إلى سر انصراف المترجمين العرب عن ثربانتس رغم أن الأسباب التى تجعله جديراً بالترجمة تفوق الحصر، ومنها :

أن كتاباته تضم ألفاظاً عربية الأصل وأحاديث عن المسلمين ودينهم وبعض عاداتهم ، وأنه ينطق أبطاله بأمثال عامية وحكم ومواعظ ليست بعيدة عن تراثنا بل إن لتراثنا أثراً كبيراً فى إذاعتها بين أهل إسبانيا ، ولقدرة أعماله على الإيحاء وإثارة عواطف قرائها على اختلاف عصورهم وأوطانهم وحظوظهم من الثقافة ، ولأن أعماله تحوى بين جنبيها نزعة إنسانية تجعلها تتجاوز حدود الوطن الإسبانى وحدود عصرها لتصبح مشاعاً بين البشر جميعًا فى كل عصر ومِصْر ، ولأننا نستطيع من خلال كتاباته (التى تتسم بالواقعية المضخمة بالمثالية) التعرف على قسط كبير من ملامح الحضارة الغربية فى ذلك الحين (والإمبراطورية الإسبانية كانت الممثل الوحيد لها آنذاك) وعلى العلاقة الجدلية – أو التصادمية ، بمعنى أصح – بينها وبين الشرق الإسلامى ممثلاً فى الإمبراطورية العثمانية ...إلخ.

المؤلف وعصره :

إذا أردنا الاقتراب من عالم ثربانتس الأدبى وفهم سر طيران إبداعه بجناحى الواقعية والمثالية فلا مفر من التعرف على حياته وعلى العصر الذى كان يعيش فيه ؛ لأن بين ثلاثتهم ارتباطاً وثيقاً .

إن حياة ثربانتس تشبه إلى حدٍ كبير حياة بطله "دون كيخوته" ، مثيرة للأسى ومفعمة بالنوازل والحادثات ، تحلق فى سماء الفروسية المترعة بالمثاليات ، لكنها سرعان ما تصطدم بأرض الواقع المخيبة للآمال.

وُلِدَ ميجيل دى ثربانتس سابدرا فى قلعة هنارس أو "قلعة النهر" Alcalá de Henares عام ١٥٤٧م ، وكان الابن الرابع من سبعة أبناء لأسرة أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى. كان أبوه "رودريجو ثربانتس" طبيباً جراحاً ، وكان رزقه من مهنته ضئيلاً بحيث اضطره إلى الرحيل من بلدٍ إلى بلدٍ سعياً وراء القوت بما لم يتح لابنه استقراراً يمكنه من الدراسة المنتظمة ، وإنما هى فترات متفاوتة قضاها فى أماكن

يختلف فيها بين بلد الوليد وبين الآباء اليسوعيين فى إشبيلية أو تحت إشراف أستاذ له فى مدريد أو خلال فترة قصيرة فى جامعة شلمنقة.

وفى سنة ١٥٦٩ (أى وهو فى الثانية والعشرين من العمر) بدأت - مع رحيله فى حاشية الكاردينال "خوليو أكوابيبا" إلى إيطاليا - صفحة جديدة من حياته مترعة بالبطولات ومعبقة بالمثاليات. التحق بعد وصوله إلى إيطاليا بالجندية ، وهى مهنة كان لها شرف وشأن عظيمان فى عصره. وفى سنة ١٥٧١ اشترك - من على ظهر سفينة لا ماركيسا - فى معركة "ليپانتو" الشهيرة ضد الأسطول التركى الذى لاقى هزيمة منكرة على يد نظيره الإسبانى. وقد جرح فى تلك المعركة وأصيبت ذراعه اليسرى بحيث تعطلت عن الحركة - وإن لم تقطع - طوال حياته بعدها. وكان دائم الفخر بهذه الإصابة ويعتبرها وساماً رفيعاً وشرفاً عظيماً فى سبيل مجد إسبانيا والمسيحية ، ويقال إنه كان مريضاً وبه حمى ومع ذلك أبى إلا المشاركة فى القتال طلباً للموت فى سبيل الدين والوطن، لكن هذه الإصابة لم تقعده عن المشاركة فى حملات حربية أخرى فى نفارين وتونس وباليرمو.

عاد بعد ذلك إلى إيطاليا حيث أتقن لغتها واطلع على كبار كتابها وتشبع بأجواء نهضتها وزار مدنها الرئيسية [وقد وصف هذه المدن وصفاً دقيقاً فى العديد من قصص المجموعة التى بين أيدينا]. وبعد زيارته للمدن الإيطالية الهامة أبحر من نابولى (عام ١٥٧٥) عائداً إلى إسبانيا ، وكان يحمل توصيات مكتوبة من شخصيات إسبانية كبيرة فى إيطاليا يأمل من ورائها أن يلقى فى بلاده خيراً عميماً ، ولكن القراصنة من الأتراك هاجموا سفينته فى عرض البحر وأسروه - هو ومن معه - ثم حملوهم إلى الجزائر؛ وهكذا أصبحت التوصيات التى كان يحملها مصدر شر له إذ غالى فى فديته آسروه. ولما لم يتمكن أهله الفقراء من افتدائه ظل فى أسره أو استرقاقه لمدة خمس سنوات عانى فيها الكثير من الأهوال وتعرض للموت نتيجة لمحاولته الهرب أربع مرات واعترافه فى كل مرة بالتخطيط للفرار، متحملاً بذلك المسئولية عن زملائه. وقبل قليل من ترحيله إلى القسطنطينية افتدته إحدى الجمعيات الخيرية المسيحية Los Padres Trinitarios ليعود إلى وطنه وهو فى الثالثة والثلاثين من العمر.

وإلى هنا تنتهى المرحلة البطولية من حياته لتبدأ أخرى مليئة بالأشواك إذ لم يفده الماضى المشرف بشيء، ولم تفلح التوصيات ولا الإصابات الظاهرة والخفية ، وما

لبث أن وجد نفسه متعطلاً خالياً من العمل فقيراً، يطرق الأبواب فلا تُفتح له ، ولم يبق أمامه إلا القلم يريد أن يعيش منه ، لكن شق القلم - كما يقول كتّابنا القدماء - أضيق من أن يسمح بالثراء.

وبعد فك إساره استقر في مدريد ثم تزوج (عام ١٥٨٤) بشابة من إحدى القُرى تصغره بثمانية عشرعاماً كانت بمثابة هم جديد يضاف إلى همومه الثقال . وفى العام التالى لزواجه نشر باكورة إبداعه القصصى "لا جالاتيا" لكنها لم تلق رواجاً ، ولم يظفر من ورائها بالعائد المادى المنشود .. وبعد سعيٍ طويل وجد وظيفة خاملة بأجر زهيدٍ تتمثل في جمع القمح والأقوات للأسطول الإسبانى ، وقد اقتضت مهام وظيفته (محصلاً) التنقل بين مدن الأندلس المختلفة ، كما تسببت فى دخوله سجن إشبيلية مرتين لأخطاء نسبت إليه فى تأديته لعمله وإن كان قد تبين فيما بعد براءته منها. وبعد إعفائه من هذه الوظيفة النكداء رحل فى سنة ١٦٠٣ إلى بلد الوليد (وكانت العاصمة وقتذاك)، وهناك لاحقه السجن للمرة الثالثة للعثور على رجل مقتول أمام مسكنه ، لكنه لم يستمر فى الحبس طويلاً لثبوت براءته مما دار حوله من شبهات. ومن بلد الوليد شدّ الرحال مرة أخرى إلى مدريد ليقضى فيها بقية حياته وينشر الجزء الأول من "دون كيخوته" (عام ١٦٠٥)، ويقال إنه حاول السفر مرة ثانية إلى إيطاليا بصحبة "كونت دى ليموس" لكن رغبته لم تتحقق ، كما باءت بالفشل أيضاً محاولة أخرى له للذهاب إلى العالم الجديد [وقد أصابه رفض السلطات الإسبانية لسفره إلى العالم الجديد - والذى كان مباحاً للبر والفاجر - بحزنٍ عميق وأسى عميم].

وفى السنوات الباقية من عمره توالت أعماله الإبداعية ما بين شعر وقصة ومسرح. ورغم الشُهرة العريضة التى نالها بعد صدور الجزء الأول من "دون كيخوته" فإن آلامه لم تنته بسبب المتاعب المادية والعائلية ولحسد أبناء مهنته وكيدهم له ، وحسبنا أن نعلم أن واحداً من هؤلاء المعاصرين له قد أخرج قصة جعلها الجزء الثانى من "دون كيخوته" وصاحب الجزء الأول مازال حيا يرزق ، وقد أدى هذا الاجتراء الفاجر إلى إسراع كاتبنا بإخراج الجزء الثانى الحقيقى.

وإذا قارنا حياة ثربانتس بحياة المشاهير من معاصريه [أمثال : كيبيدو ، ولوبى دى بيجا، وكالدرون دى لا باركا] يتملكنا الأسى لما عاناه من بؤس وحرمان فى سنى

نضجه ، ولما تعرض له من أهوال ومحنٍ في ريعان شبابه. صحيح أنه اكتسب شهرة فى أخريات حياته ، لكنها لم تخفف من عوزه ، ولم تضعه فى المكانة التى يستحقها بين أدباء عصره ، وحسبنا فى هذا المقام الإشارة إلى سخرية "لوبى دى بيجا" القاسية منه حين قال : لا يوجد بين الشعراء من هو أسوأ من ثريانتس ، ولا من بين الحمقى أحمق ممن يثنى على "دون كيخوته" ، أو إلى هذا التشفى الواضح الذى ورد على لسان آخر : إذا كان ثريانتس يكتب من أجل كسب لقمة العيش فالأفضل أن يستمر فقيراً هكذا .

ورغم هذه السخريات والحظ المعاند لم تلن قناة كاتبنا ولم يخفت وهج إبداعه (بفضل روحه الوثابة وثقته فى موهبته واعتداده الشديد بالنفس وتفاؤله) وظل يكتب حتى وافته المنية عام ١٦١٦م.

لقد عابه معاصروه لأنه لم يحصل على شهادة دراسية ، ومع هذا فإن الدراسة المتأنية لأعماله تميط اللثام عن عمق ثقافته وقراءته الواعية للتراث الإسبانى ولإنتاج مؤلفى عصر النهضة الكبار ، كما تبرهن على مطابقة "أيديولوجيته" للروح السائدة فى القرن السادس عشر ، وخير دليل على ما تقدم إشاراته المستمرة إلى كل من أرسطو وأفلاطون وهوراسيو و "أريوستو" و "ليون إيبريو" ، فضلاً عن الكثيرين من الكتاب الإسبان. وعلى هذا فإن خلو سيرته الذاتية من شهادة مدرسية لا يعيبه فى شيء لأنه – كما يقول المؤرخ والناقد الفذ "أميريكو كاسترو" – : «لم يكن مثل جاليليو أو ديكارت بل عبقريا من معدن آخر ، استطاع – بوعى وإدراك عميقين – هضم المكونات الأساسية لثقافة عصره واتخاذها متكأ لصوغ أعماله الإبداعية».

وإذا كانت حياة ثريانتس موزعة بين شباب مفعم بالبطولة والمثاليات وبين نضج وهرم مترعين بالانتكاسات وخيبة الآمال فإن القرن السادس عشر الذى قضى فيه جل عمره قد بدأ بجملة انتصارات وانتهى بعدة هزائم وانكسارات.

لقد كانت إسبانيا حتى أواخر القرن الخامس عشر تتألف من ممالك متجاورة متنافرة ، وسادها التفرق السياسى والدينى واللغوى ما يقرب من ثمانية قرون (وهى فترة الوجود العربى على أرضها) ، وفى الربع الأخير من هذا القرن شهدت إسبانيا جملة من الأحداث غيرت وجهها التاريخى:

ففى عام ١٤٧٤م ارتبطت مملكتا «رَغُون» Aragón و«قشتالة» Castilla بالزواج الذى انعقد بين ملك الأولى (فرناندو) وبين ملكة الثانية (إيسابيل) ، وهما اللذان عرفا بالملكين الكاثوليكيين. قامت المملكتان بعد هذه الوحدة بالزحف على الجنوب والاستيلاء على آخر المعاقل العربية فى إسبانيا (مملكة غرناطة) عام ١٤٩٢ ؛ كما شاءت الأقدار أن تصل فى العام نفسه السفن الإسبانية بقيادة "كريستوفر كولمبس" (أو "كريستوبال كولون" ، كما يعرف فى الإسبانية) إلى الدنيا الجديدة، ثم تعود حاملة نبأ الاكتشاف العظيم الذى هز البلاد هزاً . وكان سقوط غرناطة واكتشاف العالم الجديد بمثابة حدثين خطيرين جعلا إسبانيا تشرئب بعنقها للقيام بدور تاريخى لم تفكر فيه من قبل. وفى ذلك العام أيضًا طردت إسبانيا اليهود من أرضها بعد أن شاركوا بأموالهم فى فتح غرناطة ، فاكتملت بذلك وحدتها الدينية ، إلا قلّة تكفلت بها محاكم التفتيش ، واكتملت لها معظم وحدتها السياسية إلا مملكة «نبَرَّة» Navarra التى ستنضوى تحت لواء الوحدة بعد قليل (فى عام ١٥١٢) ، ولم يكد ينتهى القرن الخامس عشر حتى أصبح العلم الإسبانى يرفرف على أجزاء من العالم الجديد وعلى جزر فى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى وعلى مدن إيطالية.

ولما دخل القرن السادس عشر كانت الجيوش الإسبانية تغزو المغرب ذاته ، حيث دخلت وهران واحتلت مواقع فى طرابلس ومراكش. وكانت هذه الحملات تحت قيادة رجل من أكبر من عرفتهم إسبانيا من رجال الدين فى ذلك العصر (وهو أيضاً رائد "الحركة الإنسانية" فيها) ،.ونعنى به: الكاردينال "ثيسنيروس" Cisneros ، وفى هذا رمز صريح الدلالة على طابع القرن كله : الحرب والدين أو السيف والصليب.

وبعد الملكين الكاثوليكيين اعتلى عرش إسبانيا (من ١٥١٧ إلى ١٥٥٦) ملك صار المثل الأعلى لهاتين القوتين ، فأصبح إمبراطوراً يجمع تحت حكمه إسبانيا والعالم الجديد وألمانيا والنمسا والبلاد الواطئة وبرجونيا وصقلية وسردينيا وأجزاء كبيرة من إيطاليا ، وأصبح يقاوم التوسع العثمانى فى أوروبا ويشن الغارات على تونس والمغرب الإسلامى كله ويثبّت أقدامه فيه ، ويحارب المذهب المسيحى الجديد [البروتستانتية التى روّج لها "إيراسمو" Erasmo بكتاباته وانتقاداته الحادة للكنيسة الرسمية ولرجال الإكليروس] ... نعم أصبح كارلوس الخامس يحمل أضخم تاج فى أوروبا بل وفى

العالم بأسره ، وغدت إمبراطوريته مترامية الأطراف لا تغيب عنها الشمس. وكان لهذا كله أثره فى الأمة الإسبانية وفى الكنيسة وفى الناس على اختلاف مشاربهم.

وبعد "كارلوس الخامس" تولى ابنه "فيليب الثانى" الحكم (وعمر ثربانتس تسع سنوات) ليواصل ما بدأه أبوه ، ويمضى فى حروبه شمالاً وجنوباً وشرقًا وغرباً ، وينشئ المعبد المسيحى الضخم الذى يعتبر الأعجوبة الثامنة من أعاجيب الدنيا وهو دير الإسكوريال تخليداً لانتصاراته على فرنسا ، وينتصر على الأسطول العثمانى فى موقعة "ليبانتو" التى شارك فيها ثربانتس .

مات "فيليب الثانى" عام ١٥٩٨ وثربانتس فى الحادية والخمسين، ثم قُدِّر لكاتبنا أن يعيش بعد حكم "فيليب الثانى" ثمانية عشر عاماً أخرى فى عصر "فيليب الثالث" الذى خلف أباه وبقى فى الحكم حتى عام ١٦٢١ . و قد شهد ثربانتس على عهد هذا الملك الأخير الانهيار السريع الذى كانت تسير نحوه إسبانيا بخطىً حثيثة ، بل إنه شهد بوادر هذا الانهيار فى أيام "فيليب الثانى" نفسه ، شهده ممثلاً فى تدمير الأسطول الإسبانى على يدِ نظيره الإنجليزى عام ١٥٨٨ ، فانتهت بذلك أسطورة هذا الأسطول البحرى الذى لا يقهر (كما كانوا يلقبونه) . ولئن كان ثربانتس قد شهد انتصار هذا الأسطول على الأتراك فى معركة "ليبانتو" المذكورة فإن تفريط إسبانيا فى هذا النصر الغالى وعدم استثمارها له حفز الأتراك على العودة إلى تهديد البحر والبر من جديد. لقد رأى ثربانتس أيضًا فى عهد "فيليب الثانى" ثورات الأراضى الواطئة على إسبانيا تتصل ولا تنقطع ، ومن ورائها التهديدات الفرنسية والإنجليزية. كما شاهد كثيراً من المعاقل الأفريقية التى احتلها الجيش الإسبانى تسقط واحداً تلو الآخر، وعاين فوق هذا وذاك الثورة داخل الأراضى الإسبانية نفسها تقوم بها تلك الجموع الصغيرة اليائسة من بقايا المسلمين والتى اعتصمت بالجبال [«البشرات» -Al pujarras متحدية سلطان الإمبراطورية ، (وإن كانت إسبانيا قد تمكنت فى النهاية من القضاء عليها وترحيل الموريسكيين من أرضها) .

أما فى عهد "فيليب الثالث" فقد لمس ثربانتس بنفسه فوضى الإدارة الداخلية وضعف النفوذ الخارجى بما أوشك معه أن ينطفئ مجد إسبانيا. وليس من شكٍ فى أن هذا الانهيار السياسى والعسكرى والاقتصادى كان له أبلغ الأثر فى نفس ثربانتس وفى كتاباته أيضاً.

إنتاج ثربانتس الأدبي:

إبداع ثربانتس موزعٌ بين الأجناس الأدبية الرئيسية في عصره: الشعر والمسرح والقصة، لكن شهرته قصاصاً طغت على الجانبين الآخرين وتسببت في عزوف الباحثين عنهما.

١ – اختلف النُقاد في تقييم ثربانتس شاعراً؛ فبينما يذهب البعضُ إلى حد إطرائه والثناء عليه، نجد آخرين يقللون من شأن أعماله الشعرية. ولتوخي الحقيقة نقول إنه شاعر متوسط المستوى، وإن موهبته الشعرية لا ترقى إلى براعته النثرية المتمثلة في فن القص. وقد اعترف ثربانتس بقدراته المحدودة في هذا المجال حين قال في قصيدته الطويلة "رحلة إلى البرناس" :

لا أكف عن العمل والمثابرة
لاجتلاء موهبتي شاعراً
وهي الملكة التي حرمتني منها السماء.

وجزء كبير من أشعار ثربانتس الغنائية (المتأثرة بنظائرها الإيطالية والإسبانية، لاسيما بشعر جارثيلاسو دي لا بيجا) مدرج في أعماله القصصية حيث يشتمل "دون كيخوته" و"بيرسيليس" على بعضه، بينما تحتوي "لا جالاتيا" و "قصص مثالية" على معظمه. كما أن له قصائد أخرى غير مدرجة في أعمال نثرية، مثل: السونيت الساخر الذي يحمل عنوان "إلى جثوة فيليب الثاني" Al túmulo de Felip II، وقصيدة "رسالة إلى ماتيو باثكيث"، وقصيدتان في الأسطول الإسباني قبل نكبته وبعدها.. وله أيضاً عمل شعري منفرد عبارة عن قصيدة مطوّلة بعنوان "رحلة إلى البرناس" (أو "رحلة إلى وادي عبقر") صدرت عام ١٦١٤ في مدريد، وفيها يتحدث عن شعراء عصره (واحداً بعد آخر) المجتمعين أمام أبوللو – إله الشعر والجمال – بعد استعانة الأخير بهم للدفاع عن جبل البرناس ضد الشعراء الدخلاء الذين يريدون اقتحامه. وتكمن أهمية هذه القصيدة الطويلة – المكتوبة في شكل ثلاثيات – في اشتمالها على كثير من المقطوعات الشعرية التي تتناول جوانب عدة من حياة مؤلفها وتميط اللثام عن مدى ما كان يكابده في خريف عمره من حزن وكآبة.

٢ - كانت الكتابة للمسرح خلال ذلك العصر تدر - علاوة على الشهرة - عائداً ماديامجزياً، وتكفى الإشارة فى هذا المقام إلى حظ لوبى الوافر منهما. وقد أدلى ثريانتس بدلوه فى هذا الجنس الأدبى ، لكنه لم يحظ فيه لا بالشهرة ولا بالمال.

أما بالنسبة للأعمال المسرحية التى كتبها فيمكن تقسيمها إلى مرحلتين مختلفتين : المرحلة الأولى وتتميز بالوفاء للقواعد الكلاسيكية (مثل : اقتصار المسرحية على خمسة فصول ، ووحدة الزمان والمكان، واستخدام لغة راقية رصينة) ، وقد كتب ثريانتس خلال هذه المرحلة العديد من المسرحيات التى عرضت فى حياته ولاقت نجاحاً ، ولم يصل إلينا من إنتاج هذه المرحلة سوى عملين فقط ، وهما: "معاهدة الجزائر El trato de Argel ، و"حصار نومانثيا" El Cerco de Numancia .

كان ثريانتس يتهكم خلال هذه المرحلة (كما جاء فى الجزء الأول من "دون كيخوته") من المسرح الشعبى للوبى دى بيجا الذى يتوخى البساطة والمرونة ، ناعتاً إياه بالابتعاد عن القواعد الكلاسيكية ، لكنه تراجع بعد عدة سنوات - إزاء النجاح الكبير للموجة الجديدة - عن أفكاره القديمة وأذعن فى النهاية للتجديد الذى أحدثه "لوبى "لأن مرور الأيام - حسب قوله - كفيل بتغيير الأشياء وإنضاج الفنون" . ومن ثمَّ فقد جاء إنتاج المرحلة الثانية مواكباً لتيار التجديد ومرتدياً عباءته ، وهو عبارة عن "ثمان مسرحيات كوميدية" Ocho comedias ، وثمان لوحات شعبية ذات طابع فكاهى ساخر Ocho entremeses ، نشرت جميعها فى سنة ١٦١٥ ولم تعرض على خشبة المسرح أبداً لموت صاحبها فى العام التالى. ومن بين المسرحيات الثمانى الكوميدية تبرز : "حمامات الجزائر" Los banos de Argel وبدرو دى أورديمالس"، و"تاجر الأعراض المحظوظ" El rufían dichoso . أما اللوحات المسرحية الهزلية ، المكتوبة نثراً Entremeses ، فهى أكثر ما عُرِفَ من مسرح ثريانتس وحظى بالتقدير والثناء من جانب النقاد ؛ إذ اعتبرها الكثيرون من أهم آثار المسرح الإسبانى على مر العصور. ويعتبر" لوب رويدا " Lope Rueda من أبرز الكتاب القدامى الذين أَلَّفوا فى هذا اللون المسرحى، ورغم هذا فإن مقطوعات ثريانتس الهزلية تفضل ما كتبه "رويدا" وتتفوق عليه فى الحيوية وخفة الظل والسخرية اللاذعة. وهذه اللوحات (التى كانت تعرض خلال فترة الاستراحة بين فصول المسرحية الطويلة) عبارة عن

مسرحية قصيرة (من فصل واحد) ذات حدث بسيط وموضوع فكاهى يدور حول شخصيات شعبية محددة بدقة.

ومن أهم مقطوعات ثربانتس الثمانية نذكر : «قاضى الطلاق» El Juez de los divorcios و «كهف شلمنقة» La cueva de Salamanca ، و «لوحة المعجزات» El retablo de las maravillas ، و «الحارسة اليقظة» La guarda cuidadosa . ويختلف مسرح ثربانتس عن مسرح لوبى دى بيجا فى أنه يركز على الجوانب النفسية للشخصيات وفحص دواخلها أكثر من اهتمامه بالحبكة الدرامية ، كما أن تطور الأحداث فيه يفتقر إلى المهارة ، وإن كانت طبائع الشخصيات ورغباتها وأحاسيسها مرسومة بعناية وإتقان شديد.

٣ – بدأ ثربانتس مشواره الأدبى بقصة «لا جالاتيا» La galatea ، المنشورة فى سنة ١٥٨٥ ، وهى تنتمى للون قصصى يعرف "بقصص الرعاة" وتشتمل على كل عناصره تقريباً : مثالية المناظر الطبيعية والأجواء التى تدور فيها الأحداث ، والحب الأفلاطونى (على شاكلة León Hebreo) ، والنكبات العاطفية والعقبات الوعرة التى تعترض طريق المحبين ، ورتابة الأحداث لطول الحوارات السقيمة بين الرُّعاة ، والنهايات غير المتوقعة نتيجة تدخل السَّحرة ، ... إلخ.

وقصة ثربانتس لا تضيف جديداً فى هذا المجال ولا تعتبر من أفضل ما كُتبَ فيه لأن أحداثها طويلة والشعر المدرج فيها زائد عن الحد وللصنعة المهيمنة على أسلوبها. ورغم ضآلة القيمة الفنية لهذا العمل فإنه يكشف لنا عن جانب مهم فى التكوين الثقافى والأيديولوجى للمؤلف ويتمثل فى : تشربه للأجناس الأدبية السائدة حينذاك وولعه بأفكار عصر النهضة واتجاهاته (مثل الأفلاطونية ، وتمجيد الطبيعة ، وإضفاء المثالية على عالم الرُّعاة ...) ، ومن هنا يتضح أن مثالية ثربانتس تنهل من معين عالمى الفروسية والرُّعاة . ومما يدل على شدة تعلق ثربانتس بهذا اللون القصصى [رغم تهكمه الساخر فى أخريات حياته من العالم الخيالى الذى يصوره الكتّاب للرعاة حين قال : "إنهم يقضون يومهم فى استخراج القمل والحشرات من أجسادهم وفى ترقيع ثيابهم المهلهلة"] ، أنه ظل يعد إلى ما قبل وفاته بقليل بإخراج جزء ثالث من القصة ، وأن رواية دون كيخوته تضم لوحات طبيعية مثالية على غِرار الموجود منها فى قصص

الرُعاة، وأن بطله دون كيخوته فكر - بعد عودته إلى قريته مهزوماً مكلوماً - فى تطليق الفروسية والاشتغال بالرعى.

وفى عام ١٦٠٥ صدر الجزء الأول "من دون كيخوته" بينما ظهر الجزء الثانى بعد عشر سنوات كاملة . ويدين ثربانتس - بشهرته الواسعة قصّاصاً - لهذه الرواية التى طبقت شهرتها الآفاق واعتلت عرش الفن الروائى فى العالم أجمع . ولما كان الحديث عن هذه الرواية الخالدة يفوق حدود هذه الإطلالة على الكنوز "الثربانتسية" فإننا نحيل القارئ إلى المقدمة المركزة التى استهل بها الدكتور الأهوانى ترجمته لها .

وفى عام ١٦١٣ شهدت الساحة الأدبية رائعة ثربانتس الأخرى التى تحمل عنوان "قصص مثالية" ، وفى مقدمتها يعلن على الملأ أنه أول من ألّف قصصًا فى اللغة الإسبانية، لأن الموجود منها قبله كان: إما مترجماً أو نابعًا من التراث الفلكلورى أو مستقى من الأدب الإيطالى "أما هذه - يقول ثربانتس - فتخصنى وحدى ، وليست مقلّدة أو مستعارة ، فهى من بنات أفكارى التى تمخض عنها قلمى ، وشبت بين ذراعى خيالى" . وإعلان المؤلف هذا ليس من قبيل الادعاء ولا يجافى الحقيقة لأن مصطلح "قصة" Novela كان يطلق حينذاك - طبقاً للمفهوم الإيطالى السائد - على "القصة القصيرة" فقط ، وعلى هذا فإن الموجود منها فى إسبانيا كان قبل ثربانتس إما ترجمات أو اقتباسات ملائمة للذوق المحلى ، ولهذا السبب نجد أن كثيراً من رجالات الأدب المنصفين قد اعترفوا - بعد قراءتهم لقصص مثالية - بأصالة ثربانتس فى هذا المجال حتى إن أحدهم (تيرسو دى مولينا) أطلق عليه لقب بوكاشيو الإسبانى . وخير دليل على ريادة ثربانتس فى هذا اللون القصصى هو اقتفاء كتاب القرن السابع عشر لأثره ومحاكاتهم لفنه وأسلوبه ، بل إن البعض منهم لم يتورع عن استعارة عنوان "قصص مثالية" لإصداراته.

أما عن وصف المؤلف لمجموعته القصصية بـ "مثالية" فقد برره فى المقدمة المشار إليها على النحو التالى : "لأنها لا تخلو من الأمثلة والنماذج المفيدة ، ولو لم أكن حريصًا على عدم الإطالة فلربما أوضحت لك - موجهًا كلامه إلى القارئ - الثمرة اللذيذة العفيفة التى يمكن استخلاصها منها مجتمعة أو من كل واحدة منها على حدة" .

وعلى الرغم من تفسير الكاتب لمعنى كلمة "مثالية" التى اختارها وصفًا لهذه المجموعة فإن النقاد اختلفوا ما بين مؤيد ومعارض لما ذهب إليه : فالبعض منهم يعتقد أنها [إذا ما قورنت بمثيلاتها من القصص الإيطالية خالعة العذار ، كما فى El Decamerón على سبيل المثال] ترمى حقا إلى تنقية الروح من شابها ، وتدعو إلى الطهارة والعفة ، وتنتصر للفطرة ، وتهدف – من خلال الأمثال والعظات – إلى تقويم السلوكيات والعادات الاجتماعية الخاطئة . أما البعض الآخر من النقاد فيرجع حرص ثربانتس فى المقدمة على إبراز الهدف التربوى والأخلاقى للعمل إلى خوفه من محاكم التفتيش التى قد تعثر فيه على ما يتعارض مع العقيدة أو القيم الاجتماعية السائدة وقتذاك.

وتضم هذه المجموعة اثنتى عشرة قصة اعتاد الشراح تصنيفها إلى قسمين رئيسيين : قسم تسيطر عليه النزعة المثالية ، وآخر يسيطر عليه التكنيك الواقعي. وعلى الرغم من أن الفاصل بين القسمين ليس واضحًا تمامًا فإنه يمكننا القول بأن الحبكة القصصية أكثر تعقيداً فى القسم الأول الذى تنتمى شخصياته إلى الطبقة الأرستقراطية ، ويتميز أسلوبه بالرصانة والرُّقى (وإن كان عاريًا عن الحيوية) ، كما يعتمد تطور الأحداث فيه على المصادفات الغريبة والحلول السارة غير المتوقعة. أما قصص القسم الثانى فتتميز ببساطة الحبكة والموضوع ، وبالتوسع فى وصف الأجواء الاجتماعية المتدنية وعرض مشاهد الحياة اليومية ، كما تعتمد على لغة بسيطة سريعة الإيقاع مفعمة باللمسات الساخرة .

ومن أبرز قصص القسم الأول نذكر : "السيدة كورنيليا" ، و"الفتاتان" ، و"الإسبانية الإنجليزية" و "العاشق السخى" . أما القصص المشبّعة بخصائصِ القسم الثانى فهى : "رينكونيته وكورتاديُو" و "زواج المصلحة" و"المحامى المزجّج" و"حوار الكلبين" و "غيور إكستريمادورا" .

والتصنيف السابق لقصص المجموعة لا يعتبر الوحيد بل إن هناك آخرين قد قسموها إلى ثلاثة أقسام: قسم واقعى ، وآخر مثالي ، وثالث بين بين (أى تختلط فيه الواقعية بالمثالية) .. ومن جانبنا نعتقد – كما سيتضح للقارئ – أنها جميعًا ترتكز على التكنيك الواقعى المشوب – فى عدد من القصص – بالمثالية ؛ لأن الأحداث فيها تدور داخل إطار جغرافى صارم وفى أزمنة محددة ، كما أن الشخصيات – حتى

الأرستقراطى منها – تنتمى إلى الشرائح الاجتماعية المعروفة آنذاك وقد زاد من التصاق هذه الشخصيات بأرض الواقع ولع المؤلف بوصف مظهرها الخارجى (من هيئة ولباس وسلاح وزينة ... إلخ) وتصوير ملامحها النفسية بما يتلاءم مع روح العصر وخصائصه . بالإضافة إلى الوصف الدقيق والمحايد للمناظر الطبيعية وللعادات الاجتماعية والدينية ، ووفرة الأمثال والحكم الشعبية ، وإشارات الكاتب المستمرة إلى الكثير من الشخصيات الحقيقية لذلك العصر ولأماكنه المعروفة ... إلخ.

ومن ثمّ فلن نكون مبالغين إذا قلنا إن هذه المجموعة القصصية تعتبر كتاباً مفتوحاً للمؤرخين وعلماء الاجتماع .. أما الملمح المثالى فيها فيتوقف عند حد اعتماد تطور بعض الأحداث على المصادفات الغريبة والنهايات السعيدة غير المتوقعة والقصائد الشعرية المدرجة.

أما القصة الأخيرة لثربانتس فهى بعنوان "أعمال بيرسيليس وسيخيسموندا" ، وقد كتب مقدمتها فى أيامه الأخيرة ولم تنشر إلا بعد وفاته. وهى عبارة عن سلسلة طويلة من المغامرات تقوم بها عدة شخصيات (ما بين رجال ونساء)، وفيها يتعرض الأبطال لأخطار لا حصر لها ، وبعد تنقلهم بين العديد من البلدان يصلون سالمين إلى روما حيث يتزوجون. والقصة وإن كانت تبدو مثالية الطابع فإنها تحوى أبعاداً مجازية اختلف النقاد فى تفسيرها.

ومن هذا العرض الموجز يتضح لنا أن حياة ثربانتس وأحداث عصره قد أثرا فى إشراقاته الأدبية تأثيراً بالغاً، وحددا قسمات أيديولوجيته التى تطير بجناحى الواقعية والمثالية ، شأنها فى ذلك شأن سنى حياته التى امتزج شبابها بأهازيج البطولة الشخصية والفخار القومى ، وخالطت نضجها وشيخوختها كآبة الواقع وصرامته .. ياله من فارس كسير الجناح ، وياله من مشوار مكلل بالأسى والعبوس !

لو اخترنا للحظ العاثر أنموذجاً سيكون ثربانتس هو فارسنا المختار دون منازع : فى ركابه يمضى الإقدام والفداء ، ومن يراعه يسيل أدب طازج شهى ؛ ورغم هذا ينكره معاصروه ، وتتعاون البلايا والأرزاء – من كل لون وجنس – على تطويقه بأغلال البؤس والنكران .. ألا يحق لنا ، إذن ، القول بأن روح كاتبنا المفعمة بالأمل هى التى خلصته من براثن القنوط ، وحولته من نكرة يبتلعها الفناء إلى قيمة خالدة يتيه

بإنجابها الزمان ؟ فها هو دون كيخوته مازال حتى يومنا هذا - رغم قواه الخائرة وفرسه الهزيل وسلاحه المعطوب - يجوب أرجاء المعمورة بحثًا عن مظلمة يردها أو ضعيف ينافح عنه أو جبار ينال منه .

وها هى قصصه المثالية التى نقدمها للقارئ العربى ، وفى واحاتها الاثنتى عشرة يجد الأريب بغيته ، والأديب متعته ، والناقد متسعًا للتنظير واستخلاص النتائج ، والمؤرخ نجيمات تضىء تلافيف حولياته المعتمة ، وعالم الاجتماع صورة نابضة لحيوات تمرح بين جنبات ذلك العصر ، والأخلاقى نماذج لعظاته وعِبره ...

على عبد الرءوف البمبى

صناديد فى أكتوبر ٢٠٠٣ م

مـــقـــدمـــة

إلى الـــقـــارئ الـــعـــزيـــز

أرجو من القارئ الحبيب أن يستميح لى العُذر فى كتابة هذا التقديم لأننى مازلت أشعر بعدم الرضا عن الكلمات التى قدمت بها لدون كيخوته ؛ ومن ثمّ فما زالت تعاودنى الرغبة فى تكملتها بملحق. والذنب فى هذا كله - وأنا منه براء - يتحمله واحد من الذين أنعمت علىّ الحياة بصداقتهم .. لقد أراد صديقى هذا رسم صورة شخصية لى لوضعها - كما جرت العادة - على الصفحة الأولى من هذا الكتاب ؛ ولو كان قد استعان فى ذلك بـ "دون خوان خورِيجى" (1) لما بدرت منى أية شكوى ولتمكن فى الوقت نفسه من إرضاء فضول البعض ممنْ يود التعرف على وجه وملامح ذلك الذى يتجاسر بعرض بنات أفكاره وثمرة إبداعه على عيون الناس فى مشارق الأرض ومغاربها .. ومن أجل تلك الصورة أتقدم بما يلى من كلمات حتى توضع تحتها : "الذى ترونه أمامكم - بوجه عقابى ، وشعر كستنائى ، وجبهة ملساء عريضة ، وعينين بهيجتين ، وأنف أقنى (وإن كان متناسقاً) ، ولحية فضية (كانت قبل عشرين عامًا ذهبية) ، وشارب طويل ، وفم صغير ، وأسنان لاهى بالكثيرة ولا بالقليلة (إذ لا يوجد لديه منها سوى ستة متناثرة فى أرجاء الفم وغير متقابلة) ، وجسد بين بيْن : لا هو بالضخم أو الصغير ، ولون نضر (كان قبل ذلك أقرب إلى البياض منه إلى الاسمرار) ، وظهر شبه مقوّس وقدمين مثقلتين بعض الشىء - هو مؤلف لاجالاتيا" و "دون كيخوته دى لا منتشا" ، وهو الذى كتب - مقتفيًا أثر ثيسار كابورالى دى بيروسا (2) - "رحلة إلى وادى عبقر" ، وأعمالاً أخرى كثيرة

---

(1) Juan de Jáuregui y Aguilar (١٥٨٣ - ١٦٤١) : شاعر ورسّام إسبانى اشتهر بعدائه وخصومته لجميع شعراء عصره (المترجم)

(2) Cesare Caporali de Perusa (١٥٣١ - ١٦٠١) : شاعر إيطالى ، من أهم أعماله "رحلة إلى البرناس" التى سار على نهجها مؤلفون كثيرون ومنهم ثربانتس فى عمله المشار إليه (المترجم)

ترتع – ربما دون اسم صاحبها – هنا وهناك ضالّة عن القطيع. إنه يدعى "ميجيل دى ثربانتس سابدرا"، وقد ظل جندياً ومحارباً لفترة طويلة وأسيراً لمدة خمسة أعوام ونصف تعلّم فيها الصبر على المكاره ... وفى معركة "ليبانتو" البحرية تلفت يده اليسرى من جرّاء طلقة مدفع (وبالرغم من أنها تبدو دميمة إلا أنه يراها مكتملة الحسن لأنها أصبحت هكذا فى مناسبة شريفة وملحمة رائعة قد لا يجود بمثلها الزمان) وهو يقاتل تحت الرايات المظفرة لابن شعاع الحرب كارلوس الخامس، خلّدت ذكراه... إذا لم يتيسر لذلك الصديق – موضع الشكوى – قول أشياء أخرى غير التى ذكرتها فإننى سأنصّب من نفسى العديد من الأشهاد وسأسرُّ لهم بما يذيع اسمى فى العالمين ويثبت عبقريتى. نحن لا شك واهمون لو تصورنا أن المدائح تسوق حقائق لاشية فيها؛ فالإطراء – مثل الهجاء – لا يعتمد على أرض صلبة أو قواعد رشيدة.

وبما أن هذه المسألة قد انتهت إلى لا شيء، وظللت دون إطراء أو صورة فلا مناص إذن من الاعتماد – رغم تلعثمى – على النفس، لا من أجل سوق الحقائق التى يمكن أن تفهم – كما جرت العادة – من مجرد التلميح. وهكذا أتوجه إليك ثانية، أيها القارئ الكريم، لأخبرك بأن القصص التى أقدمها لك هنا لن تستطيع أن تطهو منها طعاماً [٣] لأنها لا تحتوى على أرجل أو رءوس أو أحشاء أو على شيء آخر من هذا القبيل؛ ما أقصده هو أن طفرات الحب وتباريح العشق التى يمكن أن تجدها فى بعضها تمتاز بالعفة والاتزان ولا تتخطى المعيار المسيحى، ومن ثمّ فإنها لن تستثير الغرائز ولن تجنح بخيال قارئيها (سواء الذين يقرأونها بتمعن أو يمرون عليها مرور الكرام) عن جادة الصواب.

لقد اخترت لها عنوان "مثالية" لأنها لا تخلو من الأمثلة والنماذج المفيدة، ولو لم أكن حريصاً على عدم الإطالة فلربما أوضحت لك الثمرة اللذيذة العفيفة التى يمكن استخلاصها منها مجتمعة أو من كل واحدة منها على حدة.

---

(٣) الكلمة الموجودة فى الأصل الإسبانى هى : pepito ria ، وهى عبارة عن طبيخ كان يتم إعداده من رقاب وأحشاء وأجنحة الطيور (المترجم)

ما قصدت إلا وضع مائدة الألعاب هذه على خشبة مسرح جمهوريتنا لكى يتسلى بها ويلهو كل راغب دون أن تضيبه فخاخها بأذى - لا فى الروح ولا فى الجسد -؛ هذا لأن التمارين العفيفة الممتعة تنفع ولا تضر.

حقاً، لا يستطيع كائنٍ منْ كان ، مهما تفاوتت الأمزجة والصفات ، قضاء وقته كله فى دور العبادة أو بين ترديد الأذكار أو ممارسة الأعمال المختلفة ؛ ومن هنا دعت الضرورة لوجود ساعات للترفيه والتسلية تنعم فيها الأرواح المجهدة المحزونة بالراحة والبهجة.

فمن أجل الترويح عن النفس تصطف أشجار الحوَر ، ويتم الكشف عن الينابيع ، وتُسوّى المنحدرات وتزرع بالنباتات ، وتُنشأ الحدائق. وأنا ، أيها القارئ الكريم ، لا أتورع عن التصريح لك بأنه لو خامرنى أدنى شك فى إمكانية إثارة هذه القصص لنوازع الشر فى نفوس قارئيها لبادرت بقطع اليد التى كتبتها قبل أن يطلع عليها مخلوق. فسنوات العمر التى بلغت الثالثة والستين لا تحتمل العبث أو الهزء من يوم النشور الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا منْ أتى الله بقلب سليم.

وانطلاقاً من هذا المقصد الذى وظّفت من أجله عبقريتى لا أبالغ إن قلت إننى أول منْ كتب قصصاً باللغة الإسبانية لأن القصص الكثيرة التى طبعت بها وتجوب أنحاء البلاد مترجمة جميعها عن لغات أخرى ؛ أما هذه فتخصنى وحدى ، وليست مقلّدة أو مستعارة ، فهى من بنات أفكارى التى تمخض عنها قلمى وشبّت وترعرعت بين ذراعى خيالى. ولو كان فى العمر بقية سأقدم لك بعدها "أعمال بيرسيليس وسيخيسموندا" (٤) - وهو عمل يطاول ما جادت به قريحة "هليودورو" (٥) - مثلما سترى ، فى إيجاز مسهب ، مغامرات "دون كيخوته" وطرائف "سانتشو بانثا" ثم "أسابيع فى الجنة" .

كثير ما أعد به ، رغم قواى الواهنة ؛ لكن ، منْ ذا الذى يستطيع كبح جماح آماله ورغباته ؟ ... أود فقط توجيه عنايتك - أيها القارئ العزيز - إلى ما يلى : إذا كانت

---

(٤) نُشِر هذا العمل عام ١٦١٧ ، أى بعد وفاة الكاتب (المترجم) .

(٥) هليودورو Heliodoro : قصاص إغريقى كان يحتذى به ثربانس ويعتبره أنموذجه الأدبى (المترجم) .

الشجاعة قد واتتنى لإهداء هذه القصص إلى "كونت دى ليموس" (٦) فهذا لأنها تخفى فى طياتها أضعاف ما تبدى . ولا يسعنى فى النهاية سوى الدعاء بأن يحفظك الله ، وأن يلهمنى الصبر كى أتحمل بصدر رحب ما ستتقوله عنى ألسنة السوء...

(٦) "كونت دى ليموس" هو : "بدرو فرناندث دى كاسترو" (١٥٧٥ -١٦٢٢) ، الذى تولى حكم نابولى - نائبًا عن الملك- فى الفترة من ١٦١٠ إلى ١٦١٦ ، وقد أهداه ثربانتس العديد من أعماله . (المترجم)

الغجرية

يبدو أن الغجر - ذكوراً وإناثاً - جاءوا إلى هذا العالم ليكونوا لصوصاً: فهم ينحدرون من أصلاب وأرحام لصوص، يتربون بين اللصوص، يتعلمون فن اللصوصية، ويمارسون في النهاية - في كل وقت وتحت أي ظرف - ما يحيون لأجله. وشهوة السرقة عندهم لا تخبو جذوتها إلا مع انتزاع الروح من الجسد .. من بين هؤلاء كانت توجد في وطننا غجرية شمطاء، بلغت من العمر أرذله وانتهت بذلك صلاحيتها واستحقت الإحالة إلى التقاعد طبقاً لشريعة "كاكو" (١). التقطت هذه العجوز طفلة أسمتها "بريثيوثا" (٢)، احتضنتها على أنها حفيدتها، أشربتها خصال الغجر، وعلمتها فنون السرقة وكافة أساليب الغش والاحتيال. برعت "بريثيوثا" في الرقص والغناء وتفوقت فيهما على جميع أفراد عشيرتها، كما بزّت في الجمال والفطنة والأدب سائر بنات قومها؛ بل وكافة الشهيرات بتلك الصفات في عصرها. لم تفلح قسوة الشمس ولا تيارات الهواء ولا رداءة الطقس - التي يتعرض لها الغجر أكثر من غيرهم - في النيل من نضارة وجهها أو تشويه ودباغة بشرتها أو نعومة يديها؛ وعلاوة على ما تقدم فقد كانت حصيفة ومهذبة للغاية وكأنها نشأت في أرقى البيوتات لا داخل مضارب الغجر. كانت تتمتع أيضاً بشيء من الملاحة والظرف، لكن في غير تهتك أو استهتار، وتتميز بالعفة، إذ لم تكن تجرؤ غجرية - شابة كانت أم عجوزاً - على ترديد الأغاني الهابطة الخليعة أو النطق بكلمة خادشة للحياء في حضرتها. عندما أدركت أنثى الصقر العجوز قيمة الكنز الذي بين يديها قررت تسريح فرخها من قفصه كي يسبح طليقاً في الفضاء بعد أن علمته كيفية العيش معتمداً على مخالبه.

---

(١) يقال إن "كاكو" هذا هو ابن Vulcano. وهو شخصية أسطورية يضرب بها المثل في الإجرام بشتى أنواعه: السرقة والنهب وقطع الطريق والقتل والتخريب ... إلخ. وتقول الأسطورة إن زفيره كان ناراً ولهباً خالصين (المترجم)

(٢) "بريثيوثا" Preciosa من الأسماء الأعلام التي تستخدم أيضاً صفة، وتطلق في الإسبانية على كل شيء جميل ونفيس (المترجم)

تعلمت "بريثيوثا" كماً هائلاً من الأغانى الدينية والطقطوقات والأغانى الشعبية – لا سيما الرومانثية – التى كانت تصدح بها فى ملاحة منقطعة النظير. ولأن جدتها الداهية كانت متيقنة من أن تلك المواهب المصحوبة بجمال حفيدتها الفريد ستصبح خلال سنوات معدودات عوامل جذب سعيدة لكل ما من شأنه زيادة أرصدتها، فقد حاولت بشتى الطرق دعمها وصقلها ، ومنها الاستعانة بعدد من الشعراء فى تأليف الأغانى ؛ فمن المعروف أن هناك شعراءً يتعاملون مع الغجر ويبيعون لهم أشعارهم مثلما يفعلون مع العميان الذين يدعون الإتيان بالمعجزات بهدف توسيع أرزاقهم : فعالمنا الذى اختلط فيه الحابل بالنابل قد تهبط فيه العبقرية دون سابق إنذار – تحت وطأة الجوع – على رءوس أناس لا هم فى العير ولا فى النفير.

تربّت "بريثيوثا" فى أماكن عدّة من قشتالة ، ولما بلغت الخامسة عشرة أعادتها الجدة المزعومة إلى العاصمة ، إلى مضارب الغجر الواقعة فى فضاء "سانتا باربرا" [٣] ، عازمة على ترويج بضاعتها فى المدينة التى يباع فيها كل شيء ويشترى. دخلت بريثيوثا مدريد لأول مرة فى عيد "سانتا آنا" [٤] – راعية المدينة وحاميتها – وشاركت فى رقصة تضم ثمان غجريات (أربع شابات ومثلهن عجائز) علاوة على غجرى ضليع يقود الفرقة ، ورغم أنهن جميعًا كنّ فى أوج نظافتهن وزينتهن بيد أن نظافة "بريثيوثا" سحرت العيون التى كانت تنظر إليها ... ومن بين نغمات الطبول ونقر الأصابع واللفتات السريعة سرى حفيف الأصوات مشيداً بجمال وملاحة الغجرية الصغيرة ، فتجمع الناس من كل حدب وصوب لرؤيتها. لكن إعجابهم بها تعاظم عندما أخذت تشدو بصوتها العذب الذى نال رضا واستحسان القائمين على الاحتفال واعتبروا غناءها بمثابة الدرة الثمينة على صدر أفضل رقصة قدمت. انتقلت الفرقة بعد ذلك لأداء رقصتها المصحوبة بالغناء فى ساحة كنيسة

---

(٣) يقع فضاء Santa Bárbara فى شمال مدريد بالقرب من البوابة المعروفة بهذا الاسم فى نهاية شارع Hortaleza . وفى تلك المنطقة كان يوجد دير "سانتا باربرا " الذى تأسس عام ١٦١٢م ، وعلى أنقاض الدير والكنيسة أقيم بعد ذلك مصنع لصهر المعادن، وعندما اختفى المصنع تحولت المنطقة إلى حى سكنى . (المترجم)

(٤) صرح البابا "خوليو الثانى" عام ١٥١٠ بعيد "سانتا آنا" الذى يتم الاحتفال به فى السادس والعشرين من شهر يوليو، ولم تكن "سانتا آنا" قديسة المدينة وراعيتها فحسب ، بل كانت كذلك بالنسبة للغجر المقيمين بالمناطق المحيطة بها . (المترجم)

"سانتا ماريا" (٥) أمام صورة "سانتا آنا" ، وعندما جاء الدور على بريثيوثا تناولت دُفًّا، وعلى نغمات جلاجله غنّت الرومانث التالى ، وهى تدور حول نفسها دورات متسعة ، رشيقة ولطيفة :

شجرة رائعة فريدة
أَخَّرت ثمارها
سنوات عديدة
جلّلتها بالحداد ،
وتمكنت من جعل الرغبات
الشريفة الخالصة للقرين ،
تعصف بآمالها
العارية عن اليقين؛
ومن تأخرها الطويل
تولد ذلك الكدر
الذى أُلقي من المعبد
بالذكر الأشد صواباً وحنْكة :
أيتها الأرض الجِدباء المقدسة
لقد تمخضت فى النهاية
عن كل هذه الوفرة
التى يحيا عليها العالم ؛
أنت دار لسك العملة
فيها تشكل القالب
الذى سُكّت فيه
صورة الرب البشرية ؛

(٥) كنيسة "سانتا ماريا" من الكنائس القديمة جداً فى مدريد ، وتقع فى نهاية شارع "ألمودينا" ، وكانت فى ذلك العصر المكان المفضل لإقامة الاحتفالات الدينية والمناسبات السياسية الهامة. ويذكر أن الإمبراطور فيليب الثانى توجه – عند دخوله مدريد فى السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٥٦٩ م – لأداء القدّاس فى هذه الكنيسة بصحبة الكاردينال "إسبينوسا " ، وكانت مناسبة احتفالية ضخمة حضرها البارزون من رجال الكهنوت علاوة على الشخصيات الهامة فى الإمبراطورية . (المترجم)

يا أماً لابنة
استطاع الرب من خلالها
تسطير عظيم قدرته
على صفحة الزمان الأبدية.
إلى ساحتك وساحتها
أنت ، يا آنا الملاذ
حيث تتجـه أرزاؤنا
باحثة عن العلاج ،
على نحو ما ، لا شك عندى ،
لك فى إمبراطورية الحفيد
للرحمة والعدالة
حصة لا يستهان بها .
لأنك فى القصر الأعظم
تشاركين ، لابد أن بصحبتك هنالك،
عن بكرة أبيهم
آلافاً من الأقارب.
يالك من ابنة ، ياله من حفيد
وياله من صهـر ! فى الانتصار
لقضية الحق والعدالة
منجم ثرٌ لا ينضب.
أنت الآن إلى جـوار
الـرب المبدد للوحـشـة
تنعمين بجلال
بالكاد أتخيله.

أُعجب الحاضرون بشدْوها ، وتناثرت حولها التعليقات : منهم من قال : "بوركت، أيتـهـا الفـتـاة" ! ، بينمـا عـبّـر آخـرون عن أسفـهم قـائلين : "واحسـرتاه على الشـابة الغجرية ! لا تستحق أن تكون كذلك ، بل ابنة لسيد عظيم" . وفريق ثالث كان أشد

فظاظة حين ردد : "دعوا الصبية تكبر لتصبح على شاكلة ذويها. نُقسم أن بداخلها تتخلق حالياً شبكة مفعمة بالعقد لاصطياد القلوب الولهانة" . ولم يعدم المقام رجلاً أشيب تخلى عن وقاره عندما شاهدها ترقص بخفة ليغازلها قائلاً : "هلمى ، يابنية ، هلمى . ادعسى ، ياحبى ، ذرات التراب الدقيقة تحت قدميك" ، فردت عليه دون أن تمسك عن الرقص: "وسأدعس معه كلماتك السالخة" .

انتهى عيد "سانتا آنا" الذى رجعت منه بريثيوثا إلى مضارب الغجر مُنهكة بعض الشيء ، لكنها خلّفت وراءها أثراً طيباً فى النفوس ، وأصبح الناس فى المدينة يتحدثون فى حلقات عن جمالها وصرامتها واستقامتها. بعد مضى خمسة عشر يوماً عادت ثانية إلى مدريد بصحبة ثلاثِ فتيات وهن مستعدات بالدفوف وبرقصة جديدة وأغانٍ رومانثية وأخرى قصيرة مبهجة لكنها عفيفة ؛ هذا لأن بريثيوثا لم تكن تسمح لمنْ يرافقها بالغناء الهابط الخليع الذى لم تقربه أبداً ؛ ولهذا نالت إعجاب الجميع وأصبحت محطًا لأنظارهم . لم تكن عين الغجرية العجوز تغفل عنها لحظة واحدة - كأنها "أرجوس" (٦) - خوفاً من قيام أحدهم باختطافها : كانت تناديها بحفيدتى فترد عليها الصبية بجدتى .. شرعن فى الرقص فى الجانب الظليل من شارع طليطلة ، ولم يكدن يبدأن حتى أخذت العجوز فى الطواف على الحلقة لتلقى إحسانات المتفرجين التى كانتِ تنهمر عليها - فى شكل فلوس وأنصافها (٧) - كالمطر، ذلك لأن الجمال الأخّاذ يجبر الإحسان النائم على الاستيقاظ.

وعندما انتهت الرقصة قالت بريثيوثا :

- لو أعطانى كل واحدٍ منكم فلْساً سأغنى منفردة رومانثاً رائعاً للغاية يتناول قدّاس الرحيل الذى أدته صاحبة الجلالة الملكة "مارجريتا" قبيل مغادرتها "بلد الوليد" إلى "سان يورنتى" . إنه رومانث مشهور، من تأليف شاعرٍ فحل ، مكانته بين زملائه مثل مكانة قائد الفرقة بين الجنود.

لم تكد تُنهى جملتها الأخيرة حتى رد عليها المتحلقون فى صوتٍ واحدٍ :

- هيا ، يا بريثيوثا ، غنى ولكِ ما تطلبين .

---

(٦) "أرجوس" Argos : شخصية أسطورية ترى فى جميع الاتجاهات ، ويُقال إنها كانت مزودة بمائة عين . (المترجم)

(٧) الفلوس (مفردها : فلْس) : عُملة نحاسية قديمة . (المترجم)

وهكذا انهمرت الفلوس عليها كقطع الثلج الصغيرة لدرجة أن العجوز كانت بحاجة إلى أكثر من يدين لالتقاطها . بعد جمع المحصول قرعت بريثيوثا الدفّ وعلى نغماته السريعة الملتاثة غنّت ما يلى :

إلى قدّاس الرحيل خرجت
ملكة أوروبا العظيمة ،
فى الاسم والقدر
جوهرة غالية ثمينة.
تتجه إليها العيون
فتخطف ألباب الناظرين
المعجبين بورعها ،
ببهائها وموكبها الفخيم.
ولبيان أنها قطعة من السماء
تشغل الأرض بحذافيرها ،
على يمينها كانت "شمس النمسا"
و"الصبح الندى" على يسارها.
خلف ظهرها يتبعها
"فلك الزهرة" بازغاً
فى غير موعده ، ليل النهار
تبكيه الأرض والسماء.
لو كانت السماء تحظى
بعربات مضيئة من النجوم ،
فهناك عربات أخرى تزين
النجوم الحيّة سماءها.
"زحل" العجوز هنا
يصقل لحيته ويجددها ،
ورغم تأخره ، إلا أنه يمضى رشيقاً،
فالبهجة تشفى من النقرس.

الإله الثرثار يُلقى
بكلام معسول مداهنٍ ،
يرصع "كيوبيد" شفرات متنوعة
باللآلئ والياقوت الأحـمـر.
هناك يمضى "مارس" الغضـوب
فى هيئة طريفة نادرة
أكثر حيوية من شابٍ رشيق ،
تعلوه الدهشة من ظله .
إلى جِوار "بيت الشمس"
يمشى "جوبيتر" ؛ لا يوجد شىء
محال على الحظوة
القائمة على قواعد حصيفة .
يختال "القمر" على خدود
إلهات عديدة من البشر ؛
"فينوس" عفيفة ، تتراءى فى جمال
اللواتى صاغتهن يد القدر.
أطياف صغيرة لـ "جانيميدس" (٨)
تغدو ، تروح وتعبر
هذا المجال الأُسطورى
بأحزمة مزركشة بمسامير ذهبية.
ولكى يتم إعجاب الجميع
ويكتمل ذهوله ، لا يوجد شىء
قد يتصوره الخيال
إلا وهو موجود بسخاءٍ بالغ.

---

(٨) "جانيميدس" Ganimedes : أمير طروادى (من طروادة) يتفوق بجماله الفذ على سائر الكائنات البشرية . (المترجم)

"ميلان" بأقمشتها الوثيرة ،
الهند بلآلئها المثيرة ،
ويعطرها شبه جزيرة العرب
يخطرن هنالك فى مشهد عجب.
مع أصحاب النوايا السيئة
يمضى الحسد بأنيابه القواطع،
بينما تعشش الطيبة فى صدر
الإخلاص الإسبانى .
فرحة العالم بأسره ،
هاربة من الضيق والكدر ،
تجوب الشوارع والميادين ،
متجاسرة على حافة الجنون.
بآلاف التسابيح الخرساء
أنطق الصمت الأفواه ،
يردد الفتيان
ما لهجت به ألسن الرجال.
صوت ينادى: "أيتها الكرْمة الخصيبة
ازدهرى ، ارتقى ، عانقى وداعبى
درْدارك الحقلى
لتصبحى لألف قرن ظلاً
لعظمتك ومجدك ،
لخير إسبانيا وشرفها ،
لنجدة الكنيسة ودعمها ،
لدهشة دار الإسلام وعجبها" (٩) .

---

(٩) فى النص الأصلى (الإسبانى) توجد كلمة "محمد" (صلى الله عليه وسلم) ، وقد آثرنا فى الترجمة استبدال دار الإسلام بها ؛ لتفادى الزج باسم خاتم المرسلين فى سياق لا يليق بمكانته السامية . (المترجم)

صاح لسان آخر منشداً :

"انعمى بالحياة ، أيتها الحمامة البيضاء ،
لتلدى لنا من صلب تاجين صقوراً جارحة
بدلاً من الأولاد ،
يفزعون من الهواء
الخطافين الهائجين ؛
وينشرون أجنحتهم
على الفضائل الرعديدة" .
لسان ثالث ، أكثر فطنة ومهابة ،
أشد حدة وغرابة ،
قال ، ساكباً البهجـة
من الفم والعينين :
هذه الدرة التى أنعمت بها علينا ،
عرق اللؤلؤ للنمسا ، وحيدة فريدة ،
عليها تتحطم آلات الحرب
وتتهشم النوايا الخبيثة ،
تنسكب منها الآمال والأحلام
وتنمحى أمامها الرغبات الأثيمة ،
إنها تبعث المخاوف
وتجهض الأمهات الحوامل" .
فى أثناء هذا وصلت إلى معبد
"فينكس" المقدس الذى قضى نحبه
فى روما محترقاً ، لكنه ظل حياً
من خلال شهرته ومجده .
إلى رحيق الحياة ،
إلى راعية السماء ،
إلى من بتواضعها تدعس الآن

النجوم تحت قدميها .
إلى الأم والعذراء معاً،
إلى "الابنة" وزوجة الإله ،
تتجه "مارجريتا" بالصلاة
وهى جاثية على ركبتيها :
"أقدم لك ما وهبتِنى إياه ،
أيتها اليد المعطاءة ،
لو غاب إحسانك ومعروفك
يطفح البؤس دائماً والشقاء .
من فاكهتى ها هى الباكورة
أقدمها لك ، أيتها العذراء الجميلة :
أنت الراعية لأولئك وهؤلاء ،
تتلقفينهم ، تحمينهم وتدفعينهم إلى الأمام .
أعهد بك إلى أبيك وأوصيه بك ،
"عملاق بشرى" ، يحنى ظهره
ثقل ممالك كثيرة
وبلادٍ جدٌ سحيقة.
أعرف أن قلب الملك
فى يد الرب يقطن ،
وأن كافة طلباتك – أيتها الرحيمة –
تلقى من الرب استجابة" .
عندما انتهت هذه الصلاة
تلتها أخرى مشابهة تغنت بها
الأناشيد والأصوات التى توحى
بأن "المجدِ" على الأرض ماثل .
اختتمت الطقوس
بالمراسم الملكية ،

وإلى أدراجها عادتِ
صاحبة المنزلة العليّة (١٠).

لم تكد بريثيوثا تنتهى من غنائها حتى دوّى التصفيق وتعالت هتافات الجمهور فى صوتٍ واحدٍ :

- عودى للغناء فالفلوس معنا كثيرة ولن نضن بها عليكِ .

كان حاضراً هناك ما يزيد عن مائتى شخص يشاهدون الرقصة ويستمعون إلى الغناء.

تصادف هذا المشهد مع مرور أحد ضباط المدينة برتبة ملازم ، ولما رأى الجماهير المحتشدة سألٍ عن السبب فأخبروه أنهم يستمعون لغناء شابة غجرية جميلة. اقترب الملازم بدافع حب الاستطلاع ، ولما كان المقام لا يتناسب مع طبيعته الجادة لم يستمع للرومانث حتى آخره ، لكنه أمر خادمه - لشدة إعجابه بالفتاة - بالذهاب إلى الغجرية العجوز ليطلب منها زيارة الضابط فى بيته مع فرقتها لكى تستمع إليها زوجته "دونيا كلارا" . نفّذ الخادم أمر سيده فأبلغته العجوز أنها والفرقة رهن إشارتِهِ. انتهين من الرقص والغناء ، وأثناء انتقالهن إلى مكانٍ جديدٍ اقترب منهن أحد الوصفاء الشبان ثم اتجه نحو بريثيوثا وسلمها ورقة مطوية قائلاً لها :

- غنى الرومانث المدون فى هذه الورقة ، وسأمدك - من وقتٍ لآخر - بقصائد أخرى ستجعل منكِ أشهر وأفضل مغنية رومانث فى العالم.

- سأحفظه عن طيب خاطر ، وأرجو ألا تنقطع إمدادتك بشرط أن تكون عفيفة؛ ولو أردتَ لها مقابلاً سيكون الحساب بعد كل مجموعة من اثنتى عشرة قصيدة : أى بعد غنائها لأن مجرد التفكير فى ثمنها مقدمًا أحد ضروب المستحيل .

- سأكون سعيداً - رد عليها الوصيف - بأى مبلغ أتلقاه منك ؛ وعلاوة على هذا لو تبين أن الرومانث ردىء أو غير عفيف لن يدخل ضمن الحساب.

---

(١٠) الرومانث الذى بين أيدينا حافل بالعديد من الرموز : "فلك الزهرة" يرمز إلى الأمير " دون فيليب" (المولود بمدينة بلد الوليد فى الثامن من (أبريل عام ١٦٠٥) ؛ و "شمس النمسا" يقصد بها " فيليب الثالث" ؛ و"الصبح الندى" يرمز إلى الأميرة "دونيا آنا" (المولودة ببلد الوليد فى الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٦٠١) ؛ و "مارجريتا" هى "مارجريتا النمساوية" زوجة فيليب الثالث وابنة الأرشيدوق "دون كارلوس" ، أما "جوبيتر" فيقصد به "دوق ليرما" ... إلخ.

– أنا وحدى المعنية بالانتقاء وتحديد المناسب من عدمه – ردت عليه .

وفى أثناء سيرهن فى الشارع سمعن أصوات رجال تنادى عليهن من خلف قضبان إحدى النوافذ. أطلّت بريثيوثا من القضبان فشاهدت صالة فاخرة الأثاث منعشة الهواء وبداخلها رجال كثيرون : بعضهم يتسلى بالألعاب المختلفة ، والبعض الآخر يذرع الصالة جيئة وذهاباً .

– أتريدون أن أقوم بتوزيع ورق اللعب عليكم أيها "الثادة" ؟ [نطقت بريثيوثا "السين" ثاءً فى الكلمة الأخيرة لأنها غجرية ، والغجر اعتادوا ذلك رغم أنه ليس متأصلاً أو طبيعياً فيهم] (١١) .

على صوت بريثيوثا العذب ووجهها المضىء أمسك اللاعبون عن اللعب والمتجولون عن السير ، واتجهوا جميعاً صوب النافذة لرؤية الفتاة التى سمعوا عنها قبل أن يشاهدوها . قالوا لها :

– ادخلى ومعكِ زميلاتكِ لتوزعى علينا ورق اللعب ولكِ حصة معتبرة فى مكسب الفائزَ سعيد الحظ.

– سأدخل لو عاهدتمونى على التزام الأدب وعدم الإتيان بما يخدش الحياء.

– يمكنك الدخول ياصبية – قال أحدهم – وأنتِ مطمئنة إلى أنه لن يمس واحد من الموجودين شعرة من حذائكِ . أُقسمُ على هذا بشرفى كرجلٍ وبشرف شارة الفروسية التى أضعها علىَ صدرى. (نطق بالجملة الأخيرة وهو يضع يده اليمنى على شارة أخوية قلعة رباح المقدسة) .

– إذا شئتِ الدخول يا بريثيوثا فهنيئاً لكِ – قالت واحدة من الغجريات الثلاث المصاحبات لها – ؛ أما أنا فلن أضَع قدمى فى مكانٍ يعج بالرجال.

– اسمعينى يا "كريستينا" – ردت عليها بريثيوثا – ، ما عليك توخى الحذر منه بالفعل هو الانفراد برجل واحد وفى مكان منعزل لا بجماعة من

---

(١١) من سمات اللهجة المحلية لسكان "أندلوثيا" (جنوب إسبانيا) نطق حرف "السين" "ثاءً" ، و"الثاء" " سيناً" . وهذه الخاصية اللغوية متأصلة وغير مصطنعة فى أهل الجنوب ، لكنها ليست كذلك عند الغجر (كما يفهم من إشارة المؤلف) . (المترجم)

الرجال ، لأن كثرتهم تجعلك فى مأمن من تربصهم بك. وشيء آخر يجب ألا يغيب عن بالك : أن المرأة الحريصة على شرفها بوسعها الحفاظ عليه حتى لو كانت بين فرقة كاملة من الجنود. صحيح أن الابتعاد عن مواطن الخطر مطلوب ، وأن على المرأة تفادى المواقف التى تجعلها لقمة سائغة فى فم الغير ؛ لكن الخطر يكمن فى المواقف السرية المشبوهة لا فى المعلنة على رءوس الأشهاد.

– لندخل إذن يا بريثيوثا – قالت كريستينا – ، فأنتِ أفقه من حبْر علاّمة .

حمستهن العجوز فدخلن ؛ وفور دخول بريثيوثا لمح فارس قلعة رياح الورقة المطوية فى صدرها فاقترب منها واستلّها بخفة . صاحت فيه عندئذٍ :

– آى ، لا تأخذها بالله عليك ، إنها لرومانث أعطوه لى منذ قليل ولم أجد وقتاً لقراءته.

– وتعرفين القراءة أيضاً ، يابنية ؟ – سألها أحدهم.

– وتكتب كذلك – ردت العجوز – ؛ لقد ربيت حفيدتى كما لو كانت ابنة معلّم.

بسط الفارس الورقة فوجد بين طيّاتها إسكودو ذهبياً . قال :

– بالفعل ، الخطاب يحتوى على الأجرة ؛ مُدّى يدكِ ، يا بريثيوثا ، وتناولى الإسكودو الموجود بداخله.

– كفى – قالت – ، لقد عاملنى الشاعر كأننى فقيرة معدمة. غريب أمر هذا الشاعر ! ومع هذا فلو كانت الأمور ستسير على هذا المنوال فأهلاً بأغانيه ؛ بل إنى أتوسل إليه راجية أن يقدم لى مجموعاتِ الرومانث بأكملها ، واحدة تلْو أخرى ، ومن جهتى فلن أدخر وسعاً فى جسّ نبضها وإذا وجدتها صلبة سأتلقاها عندئذٍ بكل طراوة وليونة.

أُعجب الحاضرون بكلام الغجرية الصغيرة وبكياستها وظرفها.

– اقرأ ياسيدى – أردفت بريثيوثا – بصوت عالٍ ؛ لننظر ما إذا كانت إجادة الشاعر ترقى إلى مستوى كرمه.

قرأ الفارس ما يلى :

أيتها الغجرية الصغيرة ، جمالكِ الأخاذ
ينتزع التبريكات من الأفواه :
ولما يحتوى عليه تكوينك من حجر
أطلقوا عليكِ بريثيوثا (١٢) .
هذه حقيقة لاشية فيها،
سترين إذا نظرتِ إلى وجهكِ
أن الجمال صنْو دَائم
للصدود والإباء.
مثل القيمة المتعاظمة
تكبرين فى خيلاء ،
وهذا يستدعى الخوف
على سنوات عمركِ الغض ؛
"الباسيليسكو" (١٣) الذى ينمو
بداخلك ، يغتال ناظراً ،
والهيمنة الإمبراطورية ، رغم لدانتها ،
نراها مستبدة طاغية.
بين أنياب الفقر وفى ظل المخيمات ،
كيف يولد مثل هذا الجمال ؟
أو ، كيف ربى تلك الجوهرة
منثنارس (١٤) المتواضع ؟
لهذا سيكون شهيراً وبالنفس أكثر اعتداداً

---

(١٢) إذا جاءت كلمة بريثيوثا تالية (نعتاً) لكلمة حجر فإنهما يعنيان "الأحجار الكريمة" . (المترجم)

(١٣) "الباسيليسكو" Basilisco : أفعوان خرافى يقتل بمجرد النظر . (المترجم)

(١٤) "منثنارس" Manzanares : النهر الوحيد الذى يمر بالعاصمة مدريد ، وقد وصفه المؤلف بالتواضع لقلة المياه التى تجرى به. والشعر الإسبانى - لا سيما فى العصر الذهبى -حافل بالعديد من القصائد التى تسخر من النهر وتتهكم من ندرة مياهه. (المترجم)

لو قارناه بـ بريثيوثا
نهر التّاجه المذهب
لفيضانِ الماء عن شطآنه .
تنْبئين بحسن الطالع
وتجعلينه سقَماً بعد ذلك ؛
سوياً ، وفى طريق واحد
لا يمضى مقصدك وجمالك
فى النظر إليكِ أو تأملك
يتربص خطر داهمٍ ،
نواياكِ تستميح له العذر ،
ومن جمالك ينبعث الموت.
يقولون إنهن ساحرات
سائر بنات قومكِ :
لكن سحركِ ياصبية
أشد وقْعًا ومصداقية ؛
لأنكِ بحمل الأسلاب
من كافة النّاظرين إليكِ ،
جعلت ، آه ياصبية !
السحر كامناً فى عينيكِ.
إلى الأمام قدماً تدفعكِ قواكِ ،
فأنتِ راقصة محط إعجابنا
تجهزين علينا بسهام لحْظكِ ،
وتستولين على الأفئدة بجمال شدْوكِ .
لمئات ألوف أشكال السحـر :
كلام ، صمت ، غناء ، نظرات ،
نناشدك الاقتراب أو الاحتجاب
لأنكِ تؤججين نيران الحب فى القلوب.

على القلب الأكثر كمالاً
تملكين الولاية والزمام ،
وعلى هذا خير شاهد
قلبى السعيد فى جنانك.
"بريثيوثا" يا أيقَونة الحب ،
يكتب هذا بكل تواضع وخنوع
منْ يموت لأجلكِ ويحيا ،
بائساً رغم أنه عاشق.

– تتصدر البيت الأخير – عقبت بريثيوثا – كلمة "البائس" بما لها من دلالات سلبية. ومن وجهة نظرى فإنه لا يليق بالمحبين وصف أنفسهم بالبؤس لأن الحب والبؤس نقيضان لا يجتمعان.

– من علّمكِ هذا ، ياصبية ؟ – سأل أحدهم.

– وهل علىَّ انتظار أحد كى يعلمه لى ؟ أليس لى عقل ؟ ألم أُكمل الخامسة عشرة من عمرى ؟ وفوق هذا فلست كتعاء ولا عرجاء ولا سقيمة الإدراك. عبقرية الغجر تمضى فى اتجاه مخالف لبقية البشر : دائمًا يسبقون أعمارهم ، لا يوجد غجرى مغفّل ، ولا غجرية خرقاء ؛ وبما أن بقاءهم على قيد الحياة مرهون بحدة الذكاء والمكر والخداع فإنهم يشحذون قريحتهم كل آنٍ ولا يتركون الصدأ يعلوها بأى شكلٍ من الأشكال. ألا ترون هؤلاء الفتيات – صديقاتى – اللائذات بالصمت ، الفاغرات الأفواه كأنهن بلهاوات ؟ جربوا وضعوا أصابعكم فى أفواههن وسترون إلى أى حدٍّ سينطبقن ، تحسسوا ضروس عقولهن وستشاهدون الأعاجيب . إدراك فتياتنا فى الثانية عشرة يضارع إدراك غيرهن فى الخامسة والعشرين ، ذلك لأن معلمهن ومؤدبهن هو الشيطان نفسه – علاوة على الخبرة – وهما يعلمان فى ساعة ما يحتاج تعلمه إلى سنة.

سيطر الوجوم على الحاضرين لِما سمعوه من الغجرية الصغيرة ، وتبارى اللاعبون فى إعطائها بعضاً من مكاسبهم ، ولم يبخل عليها كذلك غير المشاركين فى اللعب. تلقى كيس العجوز ثلاثين ريالاً ، وعندئذٍ انفرجت أساريرها وبدت أشد ابتهاجًا من

"عيد الزهور" ، وقبل قيامها باقتياد نعاجها إلى بيت الملازم وعدت أولئك السادة الكرام بالعودة يوماً آخر بقطيعها لإدخال السرور عليهم.

كانت امرأة الملازم (دونيا كلارا) على علم مسبق بالزيارة ، ولذا كانت تنتظرهن على أحرَّ من الجمر بصحبة جارة لها وقد التفت حولهما الخادمات والوصيفات اللاتى تجمعن هنالك لرؤية بريثيوثا . عندما تخطت الغجريات عتبة البيت بدت بريثيوثا وسطهن كأنها وهج شعلة عظيمة بين أضواء أقل سطوعاً. وهكذا جرى الجمع نحوها : البعض يعانقها والبعض الآخر يتأملها مفتوناً ؛ فهؤلاء يباركنها وأولئك يثنين عليها ويمتدحنها . قالت "دونيا كلارا" :

- هذا ما يُصدق عليه المثل القائل : شعر من ذهب ، وعينان من زمرّد.

كانت الجارة - مختلجة الأعضاء والمفاصل - تدقق النظر فيها من أسفلها إلى أعلاها . استرعى انتباهها خال صغير على ذقن الفتاة فلم تتمالك نفسها وعبرت عن إعجابها بصوتٍ عالٍ :

- آى ، ياله من خال ! فى هذه الشّامة تتعثر كافة العيون ولا تستطيع النظرات تجاوزها بسهولة.

كان موجوداً على مقربة منها الطّواشى [١٥] (خادم دونيا كلارا ، وهو رجل مسن ذو لحية طويلة) فعلّق على ملاحظتها قائلاً :

- أتُسَمّين هذه شامة ، ياسيدتى ؟ ورغم أننى لا أفقه كثيراً فيها إلا أنها لا تبدو شامة عادية ، بل جدثًا للرغبات المتأججة. ياالله ، كم هى جميلة ! لو كانت مصنوعة من الفضة أو الحلوى لما بلغت ما هى عليه الآن . أتعرفين قراءة الكف ياصبية ؟

- بثلاثة طرق أو أربع - أجابته بريثيوثا .

- وهل هناك غيرها ! - ردت دونيا كلارا - ، استحلفك بحياة الملازم زوجى، اقرئيه لى ، يافتاة من الذهب ، من الفضة الخالصة ، من اللؤلؤ ، من الزمرد

---

(١٥) الطّواشى : العبد الخصى الذى يلازم النساء عند خروجهن من البيت ، ويتولى خدمتهن بداخله . (المترجم)

والياقوت ، بل ياقطعة من السماء ؛ ولا أدرى ما يمكننى مناداتك به بعد ذلك .

عندئذٍ تدخلت العجوز قائلة :

– سلمى راحتك للفتاة وأعطيها نقوداً كى تستخدمها فى الإشارة عليها بعلامة الصليب ، وسترين كمّ الرؤى التى ستنهال عليكِ ، إنها تفقه فى لوحة الحظوظ أكثر مما يعرفه دكتور فى الطب.

مدّت امرأة الملازم يدها إلى جيبها وفتشت فيه فلم تخرج بفلْس واحد. طلبت ربع ريال من خادماتها فلم تجد ريحه مع واحدة منهن ، ولا مع الجارة أيضاً.

كانت بريثيوثا ترقب عن كثب ما يجرى فانبرت قائلة:

– مهلاً ، سيداتى الفضليات ، الإشارة بعلامة الصليب محمودة بأية قطعة نقدية ، لكن الذهب يأتى فى المرتبة الأولى ومن بعده الفضة ؛ أما العملة النحاسية فإنها ، على الأقل فى قراءاتى ، تقوض الحظ وتفت فى عضده ، ومن ثمّ فإننى جدُّ راغبة فى استخدام إسكودو ذهبيًا فى الإشارة بالصليب الأول ، فإن تعذر فبريال صحيح ، فإنِ تعذر فبنصف ريالِ وهذا أضعف الإيمان. أنا ، أيتها المحترمات ، مثل سدنة الكنيسة : كلما ثمن القربان كلما أُجزل الثواب.

التفتت الجارة إلى الخادم وسألته :

– ألا أجد معك نصف ريال يا "كونتريراس" ؟ أعره لى ، وسأرده لك فور عودة الدكتور زوجى.

– نعم لدى – أجاب الخادم – ، لكنه مرهون باثنين وعشرين مرابطيًا [١٦] قيمة العشاء الذى تناولته ليلة أمس. أعطنى قيمة الرهن وسأحضر لك نصف الريال قبل أن يرتد إليك طرفك.

---

(١٦) المرابطى : مسكوكة عربية قديمة كانت متداولة فى عهد المرابطين خلال وجودهم بالأندلس . (المترجم)

– ما عهدناك إلا وقحاً يا كونتربراس – قالت دونيا كلارا – ، لا نملك نصف ريال وتطلب اثنين وعشرين مرابطياً . امش من هنا.

عندما لاحظت إحدى الفتيات الموجودات إفلاس الدار وشدة جدبها سألت بريثيوثا:

– اسمعى ، ياصبية ، أيصلح كُشْتبان [١٧] من الفضة لرسم علامة الصليب ؟

– فى الماضى – ردت بريثيوثا – كانت كشتبانات الفضة تستخدم فى رسم أفضل الصلبان فى العالم، ما دامت عديدة.

– لدى فقط واحد منها – ردت الفتاة من فورها – ، إذا كان يفى بالغرض فإليكِ به ، شريطة أن تقرئى لى طالعى أيضاً .

– بكُشْتبان واحد قراءات متعددة للكف ! – تعجبت الغجرية العجوز – . انتهِ سريعاً ياحفيدتى ، لقد أمسى النهار وظلام الليل يقترب.

أخذت بريثيوثا الكُشْتبان ومعه يد زوجة الملازم ثم قالت :

– أيتها الجميلة المتأنقة ،
يامنْ يداها من الفضة الخالصة ،
يهواك زوجكِ أكثر
من عشَق ملكَ البشُرات لإمارته.
أنت حمامة وادعة ؛
وعندما يساوركِ الغضب
تبدين مثل لبؤة "أوران" ،
أو مثل فهد "أوكانيا" .
لكن الغضب الذى انتابكِ
فى لحظة ينفك عنكِ ،
لتصبحى قطعة حلوى ،
أو نعجة أليفة مسالمة.

---

(١٧)الكشتبان : قمع الخياط . (المترجم)

تتشاجرين كثيراً وفى الطعام زاهدة :
تسيطر عليك بعض الغيرة
مما إذا كان الملازم عابثاً ،
وبالعصا تريدين إخافته.
أحبك عندما كنت آنسة
أحد أصحابَ الوجوه الصفيقة ؛
ما يجره الوسطاء من سوءٍ
يفوق ما عصفت به اللذات.
لو اخترت الدير بعدها
لأصبحت اليوم رئيسته ،
فمن صفات رئيسة دير الراهبات
تجمعت فيك ما يزيد عن أربعمائة.
لا أودَ الإفصاح عما أراه...
لضآلة أهميته ؛ ياللهول :
ستصبحين أرملة ، علاوة على مرة ثانية ،
ومرتين مثلهما ، تكونين متزوجة .
لا تبكى أيتها السيدة ؛
فنحن معاشر الغجريات
لا ننطق دوماً بالأخبار الطيبة ؛
كفكفى دمعك واصمتى.
لأنك ستقضين نحبك أولاً
قبل السيد الملازم ، يكفيك هذا
للعلاج من ضر الترمل
الذى يمسك بخناقك.
عما قريب ، سترثين دون شك ،
ثروة عظيمة هائلة ؛
سترزقين بابن كاهن ،
خامل الذكر فى الكنيسة.

يستحيل أن تكون من طليطلة.
ابنة شقراء وبيضاء
سيهبك الرب ، لو كانت متدينة
ستصبح راهبة ذات منزلة.
لو لم يمت زوجكِ
فى غضون أسابيع أربعةَ ،
سترينه مأموراً قضائياً
على برْغش ، وربما شلمنقة.
لديكِ خال ، ما أروعه !
آى ، يسوع ، ياله من قمرٍ وضّاء !
يالها من شمس ، تضىء هنالك فى الجهة المقابلة
من سطح الأرض الوديان المظلمة !
أكثر من ضريرين لرؤيتك
يدفعون ما يزيد عن فلوس أربعة ،
الآن وأنت غنية موسرة !
يالها من مَزْحة رائعة !
توخى الحذر من السقطات ،
على الظهر بصفة خاصة ؛
لأنها عادة ما تكون خطيرة
فى الهوانم المتأنقات.
مازال فى جعبتى الكثير ؛
لو انتظرتنى يوم الجمعة
سأسمعك فيضاً منه ، بعضه يسر الخاطر ،
وأغلبه كوارث ومحن.

عندما انتهت بريثيوثا تأججت الرغبة لدى الحاضرات لمعرفة حظوظهن ؛ لكنها أمهلتهن إلى يوم الجمعة ، فوعدنها بالانتظار فى الموعد المحدد ومعهن ريالات من الفضة للإشارة بعلامة الصليب.

فى تلك الأثناء وصل السيد الملازم فحكين له عن أعاجيب الغجرية الصغيرة ؛ جعلها ترقص بعض الوقت وتأكد من صدق ثنائهن عليها. دس يده فى جيبه - كأنه سيتحفها بشىء - ، لكنه بعد أن فتش فيه عدة مرات وقلبه بطناً لظهر أخرجها فى النهاية خاوية الوفاض . قال :

- ياإلهى ، لا يوجد فلْس واحد معى أعطها يا "دونيا كلارا" ريالاً وسأرده لكِ فيما بعد .

- ياله من طلب ! ــ ردت عليه ــ لقد حاولنا تجميع نصف ريال وباءت المحاولة بالفشل وتأتى الآن لطلب ريال صحيح !

- أعطها إذن سروالاً قديماً أو شيئًا آخر مما عندكِ ، عندما تعود پريثيوثا لزيارتنا فى يوم آخر سنجزل لها العطاء.

ردت "دونيا كلارا" على الفور :

- مادامت ستعود مرة أخرى فلنرجئ العطيّة لحين عودتها.

- إذا لم تقدموا إلىّ شيئًا لن أحلّ بهذه الدار ثانية ، ولن أتطوع بخدمة كبراء القوم أمثالكم حتى أوفر على نفسى عناء انتظار المقابل لمجهودى. مد يدك للرشاوى ياسيادة الملازم ، ارتشِ وستجد المال متوافراً لديك ، ولا داعى للتمسك بأهداب الفضيلة فتقضى نحبك جوعاً. لقد تناهي إلى سمعى هنا (وأعلم - رغم ضآلة سنى - أنها أقوال لا تمت إلى الحسن بصلة) أن الوظائف تفيد فى استخراج المال اللازم لرشوة القضاة من أجل الحصول على منصب أعلى.

- هذا ما يقوله ويفعله أصحاب الضمائر الخربة - رد الملازم بحدة - لكن الأداء الجيد للعمل هو الذى يرقى بصاحبه لا الرشوة والمحسوبية.

- تتحدث بشفافية ومثالية ياسيادة الملازم - قالت پريثيوثا - وكأنك لا تعيش فى عالمنا هذا.

- تعرفين الكثير ياصبية - قال الملازم - سأرفع أمركِ إلى صاحبى الجلالة لأن مكانكِ الطبيعى عندهما.

- لأصبح مهرجة هناك - ردت بريثيوثا - ؛ هذا ضد طبيعتى ، ولو فعلته خسرت كل شيء . لو أرادانى مستشارة فليعجلا بحملى إلى هناك ، علماً بأن الفلاح فى غالبية القصور يكاد يكون حكراً على المهرجين دون الحكماء. حالى يرضينى هكذا : غجرية فقيرة ، وليمض الحظ السعيد هانئاً إلى حيث شاءت له الأقدار.

- حذار ، أيتها الصبية - تدخلت العجوز - ، لا داعى للتمادى ؛ لقد تحدثت كثيراً ويبدو أنك تعلمين أكثر مما علمته لك . لا تسترسلى فى العميق من الأفكار حتى لا يوردك لسانك مورد الهلاك. تحدثى فيما يناسب سنك ولا تدسى أنفك فيما عظم من الأمور حتى لا تسقطى على أم رأسك من حالق.

- اللعنة ! - قال الملازم - ، إبليس نفسه يتلبس أجساد هؤلاء الغجريات .

أدت الغجريات التحية ، وعندما هممن بالانصراف قالت فتاة الكشتبان:

- اقرئى لى طالعى يا بريثيوثا أو ردى علىّ كشتبانى لأنى أعمل به .

- اعتبرينى قرأته لك - ردت بريثيوثا - ، وعليك بشراء آخر أو الامتناع عن التطريز حتى يوم الجمعة القادم لأننى سأعود فيه وأمطرك بوابل من الأخبار السعيدة والمغامرات التى لا نظير لها فى كتب الفروسية .

مشين ، انضممن بعد ذلك - توخيا للأمن والسلامة - إلى طابور الفلاحات وفتيات الخدمة اللاتى يغادرن مدريد عادة ساعة صلاة المغرب فى طريقهن إلى بيوتهن بالقرى المجاورة. (هذا لأن الغجرية العجوز كانت تعيش فى رعب مستمر من احتمال السطو على بريثيوثا واختطافها عنوة) .

ذات صباح ، وهن فى الطريق إلى مدريد لممارسة نشاطهن فى جمع الجباية [١٨] شاهدن - فى وادٍ صغير يبعد عن المدينة حوالى خمسمائة خطوة - فتى رشيقاً بهى

---

(١٨) الكلمة الموجودة فى النص الأصلى garrama «غرامة» (وهى كلمة عربية كما نرى) ، وكانت تستخدم فى عصر المؤلف للإشارة إلى الجزية التى يدفعها المسلمون لأمرائهم المسيحيين [وسبحان مغير الأحوال !] . (المترجم)

الطّلعة واقفاً فى منتصف الطريق بكامل عدته الحربية . كان يحمل سيفاً ودَرَقَة يلمعان بشدة وكأنهما - على رأى القائل - جذوة من الذهب ، ويضع فوق رأسه قبعة يتدلى منها شريط جميل ومزدانة بريش متعدد الألوان . تلكأت الغجريات لرؤيته وأنعمن فيه النظر مبهوتات من وقوف شاب جميل مثله فى ذلك المكان وفى تلك الساعة من الصباح .

اقترب منهن وتحدث إلى الغجرية العجوز قائلاً :

- أستحلفك بحياتك ، أيتها الصديقة ، أن تتكرمى وتعطينى الفرصة لأحدثك أنت و "بريثيوثا" على انفراد بكلمتين لصالحكما.

- إذا لم نبتعد كثيراً أو نتأخر فعلى الرحب والسعة - ردت العجوز.

نادت على حفيدتها ، ثم انتحوا جانباً لمسافة عشرين خطوة . وهكذا - وهم وقوف - أخبرهما الفتى بما يلى :

- لقد ملّكَ على زمام نفسى جمال بريثيوثا وحصافتها فبذلت قصارى جهدى لأتخلص من إسار هذا الهوى حتى لا أتلظى بنيرانه ؛ لكننى فشلت فى النهاية ولم أستطع التملص منه وأصبحت أكثر رضوخاً واستسلاماً عن ذى قبل . أنا ، ياسيدتىَ - وسأظل أناديكما هكذا إذا حققت السماء ما أصبو إليه - فارس كما تريان (وأزاح عندئذ عباءته فأبان على الصدر شارة للفروسية تعتبر من أفضل الشارات فى إسبانيا) ؛ أنا ابن فلان - ولاحترامى الشديد له لا أعلن الآن عن اسمه - ؛ أنا ابنه الوحيد الذى أوصى له بثرواته وأملاكه العريضة . والدى هنا فى العاصمة ، تقدم لمنصب كبير ، وينتظر قرار الملك الذى سيكون فى صالحه دون شك باستقراء كافة الدلائل . واعتماداً على هذه الصفة وتلك النبالة - ومن واجبى التطرق إليهما بتوسع فيما بعد - تنتظرنى مكانة عظيمة أود أن أرفع إليها أصول بريثيوثا المتواضعة وأجعلها مساوية لى وزوجة . أنا لا أطلبها للسخرية منها لأن الحب الذى أكنه لها لا يخامره أدنى شعور بالاستهزاء ، بل أريد خدمتها بالطريقة التى تعجبها ، فإرادتها هى إرادتى . ستكون روحى لها بمثابة الشمع الذى تطبع عليه كل ما يحلو لها ، ومن أجل الاحتفاظ بهذا

الختم والإبقاء عليه أبد الدهر سيكون مثل المنحوت على الرخام ، بصلابته التي تقاوم تواتر الأزمان . لو صدقتما كلامي سأوصد كافة الأبواب في وجه أي تردد أو انتظار ، أما إذا تطرق إليكما الشك فستظل ريبتكما تنغص عليّ حياتي. اسمي كذا - وأخبرهما به - ، وقد حدثتكما عن والدي. الشارع الذي نقطن فيه وعنوان بيتنا هو كذا وكذا ، ولدينا بالطبع جيران يمكن سؤالهم ، بل بإمكانكما سؤال من ليسوا لنا بجيران لأننا غير مجهولين ومعروفون في كل أنحاء المدينة وفي ردهات القصر الملكي ذاته. أحضرت لكما مائة إسكودو ذهبية عربوناً لنيتي الحسنة وفاتحة لما أفكر في تقديمه لكما بعد ذلك ، فمن يحب لا يضن بماله وضياعه على واهبة الروح .

كانت بريثيوثا تصغي باهتمام بالغ لحديث هذا الفارس الشاب ، ولابد أنها صدّقت كل كلمة تفوّه بها. وفور انتهائه من حديثه اتجهت نحو جدتها قائلة :

- معذرة ، ياجدتي ، لو سمحت لنفسي بالرد على هذا الصّب العاشق.

- لكِ ما تريدين ياحفيدتي، فأنتِ أهل لجميع المواقف.

قالت بريثيوثا:

- أنا ، ياسيدي الفارس ، رغم كوني غجرية فقيرة ، متواضعة النشأة إلا أن خيالي الخصب الموجود هنا بداخل رأسي يحملني إلى أجواء بعيدة وأشياء عظيمة. أنا لست ممنْ تحركهم الوعود ولا تضعفهم الهبات ولا تحنيهم العواصف ولا تقضّ مضاجعهم كلمات الحب المعسولة ، ومع أنني سأتم الخامسة عشرة في سان ميجيل القادم - طبقاً لحساب جدتي - إلا أنني أفكر مثل الطاعنين في السن وأصل بعقلي إلى أبعد مما تسمح به سنوات عمري ، وهذا مرده للفطرة أكثر من الخبرة. وبهذه وتلك معًا أدرك أن نزوات العشق في المحبين الجدد مثل الشطحات السائبة التي تجعل الإرادة تثب من مكمنها لتتخبط في غيّها وتنساق دون روية خلف رغبتها ، متوهمة أنها ستدرك النعيم المقيم في حين أنها ستتلظى بالهموم والأحزان. وعندما تظفر ببغيتها سرعان ما يفتر حماسها ويتراجع لامتلاكها للشيء المرغوب فيه ، وربما لوفتحت عينيها على صوت العقل لأدركت حينذاك

أنها تبغض ما كانت تتبتل فى محرابه. لقد جعلنى الخوف مما تقدم ذكره شديدة التحفظ لدرجة عدم تصديق أية كلمة والارتياب فى كثير من الأفعال. أنا لا أملك سوى جوهرة واحدة : العذرية وما تستوجبه من عفّة ، وهى عندى أغلى من الحياة ذاتها ، ومن ثمّ لاينبغى التفريط فيها مقابل الوعود أو الهبات لأنها لو أصبحت فى النهاية قيد البيع أو الشراء فقدت ما لها من قيمة ، ولذا فلن تسلبها منى المكائد ولا النزوات الطائشة : فأنا أفضل الذهاب سليمة معها إلى القبر - وربما إلى السماء - على جعلها عرضة لخطر الدّعس أو العبث من جانب الأشواق المتأججة والخيال الحالم. يمكن تخيل العذرية - مع الفارق الكبير فى التشبيه الذى ينتقص من قدرها - وردة رقيقة يانعة . لو قطفت من على غصنها الرطيب ، فبالسهولة وسرعة ذبولها ! يلمسها هذا ، وذاك يشمها ، وثالث يعبث بأوراقها ، وتكون المحصلّة : ضياعها بين الأصابع الخشنة القاسية. إذا كنت قادمًا ، أيها السيد ، من أجل هذه الدرّة ، فلن تحملها إلا مغلولة بقيد الزواج ، إذ لو كان على العذرية الانحناء فلا ينبغى أن يكون إلا لهذا النير المقدس ، لأنها لن تصبح مفقودة عندئذٍ ، بل مستخدمة فيما خلقت من أجله وفيما أحلّه الرب من بهجة. إذا كنت تنوى الزواج بى ، سأكون حليلتك ؛ لكن هذا لن يتم إلا بشروط واختبارات مسبقة : يجب التأكد أولاً مما إذا كنت بالفعل ذلك الشخص الذى تدعيه، وبعد التحقق من هذا عليك ترك منزل والديك والانتقال للعيش معنا فى مضاربنا ، وارتداء ملابسنا ، والدراسة سنتين فى مدارسنا ؛ وخلال هذه الفترة ستعرفنى أكثر ، كما سأعرفك. فى نهاية السنتين ، إذا أعجبتك خصالى وأعجبتنى خصالك أصبح زوجتك. وإلى أن يحين ذلك الوقت يجب أن تعاملنى كأختٍ لك ، وأنا من جهتى سأخدمك بعينىّ. ضع فى اعتبارك أن فترة الخطبة هذه يمكن أن ترد إليك رشدك المسلوب حاليًا - أو المشوش ، على الأقل - وتجعلك تولى الأدبار مما تتعقبه الآن بإصرار. وكما يقال : فإن استرداد الحرية السليبة بتوبةٍ نصوح يعفى من الذنوب الثقال. إذا كنت بهذه الشروط مستعداً للتطوع جندياً فى ميليشياتنا ، فالقرار لك ؛ أما الإخلال بواحدٍ منها فيعنى الفراق بينى وبينك.

بُهت الفتى وأطرق إلى الأرض فى ذهول محاولًا التفكير فيما سيُجيب به ، ولما لاحظت بريثيوثا ذلك واصلت حديثها قائلة :

- التفكير فى هذه المسألة الخطيرة يتطلب وقتًا طويلاً لا يتسع له المقام. عُدْ إلى المدينة وتدبر على مهل ما يناسبك ، وعندما تستقر على رأى يمكنك مقابلتى فى هذا المكان أثناء ذهابى إلى مدريد أو عودتى منها.

أجاب الفتى المهذب قائلاً :

- عندما أنعمت علىَّ السماء بنعمة حبك عقدت العزم ساعتها على الإتيان بكل ما يعنّ لكِ ؛ لكن لم يدر بخلدى إطلاقًا أنكِ ستقدمين على طلب شىء كهذا؛ ومع ذلك ، ولأن هواى يوافق ما تُمليه إرادتك ، بإمكانكِ اعتبارى غجريًا من هذه اللحظة ، وبوسعكِ اختبارى كافة ما شئتِ وستجدينني على العهد قائمًا فى ثبات . كما يمكنكِ من الآن تحديد موعد تغيير لباسى هذا لأننى بصدد الذهاب إلى "فلاندس" (Flandes) [١٩] وسأنتهز الفرصة لتغيير مسار رحلتى التى ستبدأ بعد ثمانية أيام دون علم والدى. سأقضى هذه الأيام فى المدينة دون إثارة الشبهات ، وسأرحل مع الذاهبين إلى الحرب لكننى سأخدعهم فى الطريق وأغيِّر وجهتى. كل ما أرجوه منكِ خلال هذه الفترة - إن جاز لى التجاسر وطلب شىء منكِ - هو التعجيل بالسؤال عنى وعن أهلى اليوم أو غداً ، وعدم الذهاب بعد ذلك لأبعد عن مدريد لأنى أخاف أن تواتيكِ فرصة عرض آخر فتنصرفين عنى وتتركيننى أزفر الحسرات.

- أما هذا فلا ، ياسيدى العاشق - ردت بريثيوثا - ، اعلم أننى مثل الطائر الذى يريد التنعم بحريته بعيداً عن طوفان الغيرة الحمقاء ، وعليك أن تفهم أننى لست بضاعة تباع وتشترى فى الأسواق ، ومن ثَمَّ فأول درس يجب أن تعيه هو ضرورة الثقة المطلقة بى ؛ فالمحبون الذين يستهلون سيرتهم بالغيرة إما أن يكونوا سُذّجاً أو مغفلين بسطاء.

---

(١٩) يُشير الكاتب هنا إلى حروب "فلاندس" الطويلة التى جرت وقائعها بين عامى ١٥٦٧ و ١٦٥٩ . (المترجم)

علّقت الغجرية العجوز على كلام حفيدتها بقولها:

- إبليس نفسه هو الذى يسكن جوانحكِ أيتها الفتاة : تتفوهين بأشياء لا تخطر ببال طالب علم فى شلمنقة ! تتكلمين بعمقٍ فى الحب والغيرة والثقة بالآخر: ألا ترين أنكِ بهذا تدفعيننى إلى الجنون وتجعليننى كالطرشاء فى الزّفة أو مثل شخص ممسوس يتشدق باللاتينية دون أن يعرفها ؟

- صه ، ياجدتى ، واعلمى أن ما سمعته منى حتى الآن مجرد سفاسف وقشور ، مقارنة بما ينطوى عليه صدرى من عظائم الأمور .

ما سمعه الفتى كان بمثابة إضافة المزيد من الحطب إلى النيران المستعرة فى قلبه. تواعدا فى النهاية على اللقاء بالمكان ذاته بعد ثمانية أيام : لكى يخبرها بعدها بقراره النهائى ، ولكى تتأكد خلالها من المعلومات التى أدلى بها عن نفسه. أخرج الفتى كيسًا من الاستبرق وأعطى المائة إسكودو المشار إليها للعجوز ؛ لكن بريثيوثا طلبت منها ردها إليه وعدم قبولها بأى شكل من الأشكال ، فما كان من العجوز إلا أن سلقتها بلسانها الحاد على النحو التالى :

- "نقّطينى" بسكوتكِ ، ياصبية ، فأبلغ دليل على استسلام هذا السيد هو تنازله عن سلاحه، واليد العليا تحت أى ظرف من الظروف خير من اليد السفلى ، وهى علامة ناصعة على أريحية صاحبها وسخائه. ولا تنسى المثل القائل : "إلى الله أبتهل ، وبالعمل الشاق أشتغل" . هذا بالإضافة إلى أننى لا أريد أن تفقد الغجريات بسببى شهرتهن التى اكتسبنها طوال قرونٍ عديدةٍ فى أنهن جشعات ونهّازات للفرص. أتريدين منى رفْس مائة إسكودو من الذهب الخالص قد يستعملها الموسرون فى تطريز تنّورة لا تساوى ريالين وأجدها ماثلة أمامى وكأن " طاقة" القدر قد فتحت لى ؟ وإذا سقط لجرم ما واحدمن أبنائنا أو حفدتنا أو عشيرتنا فى يد العدالة ، فهل سيشفع له القاضى وكاتب العدل كما ستشفع هذه النقود عندما تصل إلى كيسيهما ؟ لقد كنت ، لثلاث مرات ، على وشك امتطاء حمار فى طريقى إلى الجلد ، على ثلاث جرائم مختلفة ، وخلصتنى من الأولى "فازة" من الفضة ، ومن الثانية عقد من اللؤلؤ ، ومن الثالثة أربعون ريالاً غيرتها أنصافًا

وخسرت في التغيير عشرين ريالاً أخرى أخذوها عمولة. ياحفيدتي ، إننا نمارس مهنة محفوفة بالمخاطر ، مفعمة بالعثرات والمكدرات ، ولا توجد دفاعات تحمينا وتقيلنا من عثراتنا سوى أسلحة "فيليب" العظيم التي لا تقهر : فبواسطة " دبلون" [٢٠] ذي وجهين يبش لنا نائب القاضي العبوس وكل زبانية الموت الذين يكشرون لنا عن أنيابهم ويسلخون جلودنا ويبتزوننا أكثر من قطاع الطرق ؛ ومهما شاهدونا حفاة وعراة مترعين بالنوائب لا يعتبروننا أبداً فقراء ، فهم يقولون إننا مثل صديري سكان بلمونت من الجباتشو [٢١] : ممزق وملطخ بالشحوم لكنه مكتظ بالنقود.

- كفى ، ياجدتي ، فأنت لديك من الأسباب للاحتفاظ بالنقود ما يفوق الأباطرة . احتفظي بها، مع تمنياتي بحسن الاستفادة منها. ادفنيها في مكان آمن مع الابتهال للرب بألا تعود لرؤية ضوء الشمس ثانية ، وألا تدعوك ضرورة لاستخراجها. أما بالنسبة لزميلاتي فأرى أن الواجب يقتضي إعطاءهن شيئاً ، فقد تحملن طول الانتظار ولابد أنهن غاضبات.

- لن يروا وميضها - ردت العجوز بحدة - . سيتكرم هذا السيد المعطاء بتفتيش حافظته علّه يجد عملات فضية أوزعها عليهن ، فهي وإن كانت قليلة إلا أنها ستدخل السرور عليهن جميعاً.

- نعم معي - رد الفتى العاشق.

استخرج من حافظته ثلاثة ريالات قامت العجوز بتوزيعها على الغجريات الثلاث ففرحن بها فرحاً يفوق حبور ممثل كوميدي انتصر على منافس له وكافأه الجمهور بالهتاف والتصفيق الحاد.

---

(٢٠) "دبلون" Doblón : دوقية (مسكوكة ذهبية) تحمل نقوشاً على كلا وجهيها ، وكانت تسك في عصر الملكين الكاثوليكيين ، وظل يسكها بعدهما في القرن السادس عشر الميلادي كل من الإمبراطور كارلوس الأول وفيليب الثاني . (المترجم)

٢١ - "جباتشو" gabacho : لقب تحقيري للفرنسيين الذين يسكنون بعض القرى الموجودة في جبال البرانس. (المترجم)

لقد اتفقا - باختصار ، وكما وردت الإشارة - على اللقاء بعد ثمانية أيام ، وعلى تسمية الفتى العاشق: "أندريس كاباييرو" [٢٢]، إذ يوجد من بين الغجر أيضاً من يتحلى بهذا اللقب.

لم يجرؤ أندريس (وسنشير إليه من الآن فصاعداً بهذا الاسم) على معانقة بريثيوثا، واكتفى بتشييعها بروحه - إن جاز لنا استخدام هذا التعبير - ، ثم يمم وجهه شطر مدريد وتبعته الغجريات وهن فى غاية السرور. ولدماثة الفتى اهتمت بريثيوثا - من منطلق الاستلطاف لا الحب - بالتحقق من المعلومات التى ساقها عن نفسه. دخلت مدريد ، وبعد اجتيازها لعدة شوارع رآها الوصيف الشاب الذى أهداها القصيدة والإسكودو فاتجه نحوها ونادى عليها :

- أنعم الله عليك بالخير ، يا بريثيوثا: هل قرأت القصيدة التى سلمتها لك منذ عدة أيام ؟

- قبل أن أجيب بنعم أو بلا ، أستحلفك بحياة من تحب أن تخبرنى بالحقيقة.

- أحلف بكل الأيمان المغلظة أننى سأكون صادقًا ولن أخفى عنك شيئًا ولو كلفنى الصدق حياتى.

- ما أريد معرفته يتضمنه السؤال التالى: هل أنت ، حقا، شاعر ؟

- لو كنت كما تقولين ، فمن حُسن طالعى. أود أن تعرفى أن لقب الشاعر لا يستحقه إلا القليلون فقط ، وأنا - بحمد الله - لست منهم ، بل مجرد هاوٍ للشعر. ومع هذا أنا على استعداد لبذل قصارى الجهد حتى لا تلجئى لغيرى. ما أعطيته لك هو من نِتاج قلمى وما سأقدمه لك الآن أيضاً ، ورغم هذا لست شاعراً ، لا قدر الله.

- هل الشاعر سيء لهذه الدرجة ؟ - سألت بريثيوثا.

---

(٢٢) "كاباييرو" caballero ، تعنى فارس ، ولا يقتصر معنى الفروسية فيها على الصفة الحربية بل يمتد إلى كل ما هو جميل من الأخلاق والشمائل مثل الرجولة والمروءة والنبل والترفع عن الدنايا ... إلخ ، ومن هنا تكمن المفارقة فى خلع المؤلف لهذا اللقب على من سيكون غجرياً أو الإشارة إلى أن بعض الغجر يتلقبون به . (المترجم)

– ليس سيئًا – رد الوصيف الشاب – لكن ملكة الشعر الخالصة لا تتوفر لدىّ رغم إجادتى . فالشاعر الحق يصنع من اللغة جواهر نفيسة ، ولا يهبط عليه الإلهام على مدار الساعة ، ولا يعرض موهبته على الرائح والغادى ، بل فى الوقت والمكان المناسبين. الشعر ، ياصغيرتى ، مثل آنسة حسناء ، طاهرة الذيل ، عفيفة ، حصيفة ، حادة ومحتجبة عن العيون. الشعر توءم للوحدة : ترفّه عنه الينابيع، تسليه المروج ، تمحو غضبه الأشجار ، تبهجه الأزاهير ، وفى النهاية يتلذذ به ويعبّ من صفائه كل طاعم وشارب.

– أيتحلى الشاعر بهذه الصفات كلها، مع أنهم ينعتونه بالفقر والميل إلى التسوّل؟

– فيما مضى كان الوضع مختلفًا تمامًا ، فآنذاك لم يكن يوجد شاعرٍ واحد فقير ، بل يعيشون جميعًا هانئين فى كنف عبقرية الشعر التى لا تتاح إلا لعددٍ من المصطفين لكن ما الذى دفعك لطرح هذا السؤال ؟

– دفعنى إليه علمى بأن كافة الشُعراء معدمون ، ولذا تملكتنى الدهشة عندما عثرت على ذلك الإسكودو الذهبى قابعاً فى طيّات قصيدتك ؛ لكن بعد أن عرفت منك الآن أنك لست بشاعر وإنما مجرد هاوٍ فإننى أُرجع هذا التصرف من جانبك لاحتمال غناك ، وإن كان هذا موضع شك أيضاً لأن هوايتك فى تأليف القصائد كفيلة بإنضاب معين أية ثروة قد تكون لديك ، إذ لا يوجد شاعر – حسبما يقال – يعرف الحفاظ على ما لديه من أموال وعروض ، ناهيك عن الحصول على ما لا يمتلكه.

– أنا لست من هؤلاء : أقرض الشعر ولست غنيًا ولا فقيراً ، أى بين بين ، كحال أهل جنوة مع ضيوفهم: لا هم بالبخلاء ، ولا بالكرماء ؛ ومن هنا فبوسعى تقديم إسكودو أو اثنين لمن أريد. مدى يدك – أيتها اللؤلؤة الغالية – لتأخذى القصيدة الثانية ومعها الإسكودو الثانى ، ولا تشغلى بالكِ بما إذا كنتُ شاعراً من عدمه. أريد فقط أن تكونى على ثقة من أن الذى يفعل هذا معكِ يتمنى لكِ كل ما فى هذا العالم من خير.

أعطاها ورقة مطوية ، فتحسستها بريثيوثا وعثرت على إسكودو بداخلها . قالت له:

– لابد أن تتمتع هذه الورقة بعمرٍ مديد لأن بها روحين: روح الإسكودو وروح

الشعر. ليعلم السيدالوصيف أننى لا أحب أرواحاً كثيرة معى : إذا لم يسترد الأولى فلا داعى للحزن إن ردت إليه الثانية. يسرنى التعامل معك كشاعر لا متصدق ، وبهذا الشكل ستمتد صداقتنا وتدوم ؛ فالحياة ممكنة بدون الإسكودو مهما كانت الحاجة إليه، لكنها شبه مستحيلة إذا خلت من الرومانث.

– لك ما تريدين. احتفظى بالروح الكامنة فى الورقة وناولينى الإسكودو لأننى عازم على الاحتفاظ به – بعدما لمسته يدك – كرقْية لسنوات عمرى الباقية.

أخرجت پريثيوثا الإسكودو من الورقة ودسّت القصيدة فى جيبها لأنها لم ترد قراءتها فى الشارع. ودعها الوصيف الشاب ومضى فى طريقه مسروراً ، معتقداً من حديثها الودى أنها وقعت فى غرامه. مضت الغجرية فى طريقها دون أن تتوقف للرقص فى أى مكان لأنها كانت متجهة للبحث عن منزل والد أندريس ، وبعد وقت قصير وجدت نفسها فى الشارع الذى تبحث عنه: مشت حتى منتصفه ورفعت رأسها فرأت – حسب الوصف – شرفات من الحديد المذهب ؛ كما شاهدت بداخل إحداها فارساً ذا مهابة ووقار فى الخمسين من العمر يرتدى ملابس حربية مزدانة على الصدر بشارة ملونة للصليب. التقت نظرتها بنظرة الفارس الذى نادى عليهن:

– اصعدن ، يافتيات ، وستجدن ما تطلبن من الصدقات.

دخل الشُرفة ، على صوته ، ثلاثة فرسان آخرون بينهم العاشق أندريس الذى امتقع لونه فور رؤيته "پريثيوثا" وكان على وشك فقدان الوعى للمفاجأة غير المتوقعة التى اصطدمت بها عيناه. صعدت الغجريات فيما عدا العجوز التى فضلت البقاء فى الدور الأرضى للاستفسار من الخدم عن حقيقة أندريس.

عندما دخلت الغجريات القاعة وجدن الفارس المُسِنّ يقول للآخرين:

– لاشك أن هذه هى الغجرية الفاتنة التى تجوب مدريد ويتحدث عنها الجميع.

– إنها هى – أجاب أندريس – ، أجمل مخلوقة رأتها العين.

– هذا ما يدعونه – قالت پريثيوثا التى استمعت لحوارهما السابق أثناء دخولها – لكنهم مخدوعون فى نصف الحقيقة على الأقل : جميلة نعم ؛ أما رائعة الجمال – كما يقولون – فهذا محض افتراء.

– وحياة ابنى "دون خوانيكو" [٢٣] – رد الفارس العجوز – أنتِ فى الحقيقة أكثر جمالا من الوصف وأشد فتنة.

– ومنْ يكون "دون خوانيكو" هذا ؟ – سألت بريثيوثا .

– هذا الفتى الواقف إلى جوارك – أجاب العجوز.

– لقد حسبت أن صاحب السعادة يحلف بحياة طفل لا يتعدى الثانية من العمر. ياله من "دون خوانيكو" وبالطوله الفارع ! أظنه الآن متزوجاً، وإن لم يكن فلن تمضِ – كما تشير خطوط جبهته – ثلاث سنوات حتى يكون كذلك وعلى هواه ، هذا إذا لم يطرأ عارض جديد خلال هذه المدة يجعله يغيّر رأيه أو يفقد هواه.

– أتفقه الغجرية أيضاً فى لوحة الحظوظ ؟ – سأل أحد الحاضرين.

كانت الغجريات الثلاث اللاتى جئن معها قد انتحين – أثناء ذلك – ركناً من الصالة وأخذن فى التهامس ، ملتصقات الرءوس – حتى لا يسمعهن أحد. قالت كريستينا لزميلتيها :

– ألا تعرفان هذا الفارس ؟ إنه الذى أعطانا الريالات الثلاثة صباح اليوم.

– إنه هو – ردت الأخريات – ؛ لكن حذار من التفوه بكلمة أو التطوّع بالفتنة عليه إذا لم يقدم هو أولاً على ذلك : ربما يكون راغباً فى التستّر.

بينما كان هذا الحديث الجانبى يدور بين الفتيات الثلاث أجابت بريثيوثا على سؤال الحظوظ قائلة :

– ما أراه بعينىّ أخمنه بإصبعى : أرى أن السيد "دون خوانيكو" متيماً بعض الشىء ، مندفعاً وعجولاً ، متسرعاً فى الوعد بأشياء تبدو مستحيلة ؛ أتضرع إلى الرب ألا يكون كذوباً لأن آفة الكذب مفسدة لكل شىء . إنه يتأهب للقيام برحلة إلى مكانٍ بعيد جداً ؛ واحد يفكر فى الطُّعم والآخر فيمنْ

---

(٢٣) "خوانيكو" تصغير للاسم العلم Juan «خوان» . (المترجم)

سيُسرجه له ؛ العبد يرتب والرب يُدبر ؛ ربما يظن أنه ذاهب إلى Ónez فيجد نفسه في Gamboa [٢٤] .

– لقد أصبت كبد الحقيقة في كثير مما قلته عني ؛ لكنكِ جافيتها بادعائكِ كذبي لأنني أتحــرى الصدق في جميع المواقف مهما كانت العواقب. أصبت في خبر سفري لأنني بالفعل راحل إلى "فلاندس" – خدمة للرب – خلال أربعة أو خمسة أيام ، ومع أنك تلقين بظلال الشك على مسار هذه الرحلة إلا أنني أود ألا أصطدم بأية بليّة تَعرقل طريقي.

– مهلاً ، أيها السيد – ردّت بريثيوثا – وتوجه إلى السماء بالدعاء لكي تكلل مساعيك بالنجاح. واعلم أنني لا أفقه شيئاً فيما يردده لساني ، ولا يعد من قبيل الإعجاز إذا تمخض الكلام الكثير عن الإصابة في أمر من الأمور. ما أردت بكلامي السابق سوى تهدئتك وإقناعك بالبقاء مع والديك لرعايتهما في الشيخوخة ؛ فأنا لا أحبذ عدوى الرّواح إلى فلاندس والعودة منها ، لاسيما للشباب الغضّ من أمثالك. اصبر حتى تشب قليلاً عن الطَوْق لتتمكن من تحمل أعباء الحرب ومخاطرها ، ولديك منها ما يكفي وزيادة وأنت قابع في أعماقِ دارك : فمعارك الهوى تحدق بك من كل جانب. اهدأ ، أيها المفزّع المستثار ، وعليك بالنظر أولًا في أمر زواجك وفي إعطائنا صدقة ، حبًا في الله وفداء لك ، لا يساورني أدنى شك في طيب منبتك. ولو خاب ظني واجتمع إلى عراقة الأصل صدق الطويّة لغنيَّت ساعتها ابتهاجًا بالهزيمة فيما وصمتك به

– أخبرتكِ من قبل – قال "دون خوان" أو "أندريس كابابيرو"المنتظر – إنكِ محقّة في كل شيء فيما عدا هاجس الخوف من عدم صراحتي وسلامة نيتي ؛ وأنتِ بلا شك مخدوعة في هذا المنطق. كلمتي في الخلاء أحافظ عليها – دون حاجة إلى توجيه من أحد – في المدينة أو في أية بقعة أخرى على ظهر الأرض : إذ لا يمكن لمنْ تخالط روحه آفة الكذب الادعاء

(٢٤) Gamboa , Ónez كانتا إمارتين في "بيثكايا" وظلتا لفترة طويلة منفصلتين عنها ، وعندما تولى الملك إنريكي الرابع الحكم عــهــد بمهــمــة ضــمــهــمــا إلى مملكتــه إلى "دون بدرو فــرناندث دي بلاسكو"[كونت Haro] . (المترجم)

للفروسية بنسب. سيعطيك والدى صدقة تقرباً إلى الله ومحبة لى ، فما كان معى هذا الصباح قدمته لبعضِ السيدات ، ولروعة جمالهن وعذوبة ألسنتهن - لاسيما إحداهن - لم يبقَ فى كيسى فلْس واحد.

عندما سمعت كريستينا هذا قالت لزميلتيها :

- أعدم روحى لو لم يكن يقصد ثلاث الريالات التى وزّعها علينا هذا الصباح!

- استنتاجك فى غير محلّه - همست واحدة من الاثنتين - لأنه تحدث عن سيدات ولَسنا كذلك ؛ وبما أنه يتحرى الصدق فيما يقول - كما سمعنا - فإنه يعنى ما قاله.

- إنها كذبة بيضاء كما يقولون - ردت عليها كريستينا - : لا تضر أحداً وذات نفع لناطقها . ومع هذا لا أرى أنهم سيجودون علينا بفلس إلا إذا طلبوا منا الرقص.

صعدت الغجرية أثناء ذلك ونادت :

- هيا ، ياحفيدتى ، لقد أمسى النهار وأمامنا الكثير مما يجب عمله وقوله.

- ماذا هناك ، ياجدتى ؟ ابن أم ابنة ؟

- إنه ذكر جميل الخِلْقة. تعالى وستستمعين إلى حقائق مدهشة.

- تضرعى إلى الخالق ألا أموت من شدة الانفعال.

- سنتحدث على مهل وبكل روية. لقد كان وضْعاً طبيعيا حتى الآن ، والأمير الوليد مثل الذهب (٢٥) .

- هل وضعت إحدى السيدات مولوداً ؟ - سأل والد أندريس.

- نعم ، ياسيدى - أجابته العجوز - ؛ لكن هذا الأمر سرى للغاية ولا يعرف خبيئته إلا أنا وحفيدتى بالإضافة إلى شخص آخر لا يمكن إماطة اللثام عنه.

---

(٢٥) لجأت العجوز وحفيدتها (المزعومة) إلى التورية والتعمية فى حديثهما حتى لا يفتضح سرهما ، وقد تحقق لهما ما أرادتاحسبما يتضح من التعليقات التالية للحاضرين والتى تنم عن الجهل التام بالمغزى الحقيقى للحوار بين الغجريتين . (المترجم)

- ولا نريد معرفة شيء عنه هنا - تدخل أحد الحاضرين - . تعيسة تلك ومحزونة التى تضع على ألسنتكن سرها وتستجير بحماكن لشرفها.

- لسنا جميعًا سيئات - ردت بريثيوثا بانفعال - ، وربما توجد من بيننا من هى أحفظ للسر من أطول رجل بهذه القاعة. نحن لا نستجدى ، ولسنا لصّات أو متسولات.

- لا تغضبى ، يا بريثيوثا - قال والد أندريس - ، فأنا لا أعتقد أن مِثلكِ يحوى بين جنبيه مثقال ذرة من سوء . وجهكِ خير دليل على حسن طويتك. أستحلفك بحياتكِ أن ترقصى لنا قليلاً مع زميلتيكِ ، فلدىّ هنا دبلون من الذهب لا يستحقه أحد غيركِ.

قالت العجوز فور سماعها لهذا العرض المغرى :

- هيا ، يابنات ، تحزمن وأمتعن هؤلاء السادة.

أخذت بريثيوثا الصناجات ، والتفّت حولها زميلاتها وانتظمن فى الرقص. كانت أربطة الأحزمة المتدلية على خواصرهن تتطاير وتنثنى تبعاً لدورانهن الرشيق حول أنفسهن ، وخلف أرجلهن كانت تجرى ملتاثة عيون الحاضرين ، خاصة عينى أندريس اللتين كانتا معلقتين بقدمى محبوبته وكأنهما تبصران مركز فردوسه ؛ لكنهما سرعان ما تعكرتا وتحولت الجنة إلى جحيم عندما سقّطت فى إحدى اللفتات السريعة ، القصيدة التى أعطاها الوصيف لبريثيوثا فتلقفتها يدٌ قاسية لا تعبأ بمشاعر الغجريات وقرأت على الفور ما يلى :

- عندما تقرع "بريثيوثا" الدُّف
وتجرح الهواء الخامل بنغمه العذب ،
تنثال اللآلئ من بين يديها ،
ومن فمها تنسكب الأزاهير .
من حلاوة أعمالها الخارقة،
المفعمة بالصفاء والعفة والحيوية ،
تصاب الروح بالذهول ، الرزانة بالجنون ،
وتطاول شهرتها السماء العالية.

بأدق شعرة من جـدائلِها مُعلّقة
ألف مهـجـة ، وتحت قدميها يلقى
"كيوبيد" بسهـامـه مستسلماً.
عمياء وبشموسها الجميلة
تضيىء ممالك الحب وتمسك بقواعدها ،
وما أظن أن جعبتها فرغت من المعـجـزات.

- تفوح من هذا السونيت رائحة شاعرٍ أصيل - قال الذى قرأه .

- ليس شاعراً - ردت بريثيوثا - بل وصيفاً فى غاية التهذيب والدماثة.

(أنعمى النظر يا بريثيوثا فيما جرى على لسانك وفيما سينطق به لأنه ليس ثناءً على الوصيف بل رماحًا ماضية تخترق حشاشَة قلب أندريس. إذا كنتِ لا تصدقين ، ياصبية ، أرجعى رأسكِ إذن وستجدينه طريحًا على كرسى ، تدور به الأرض ، يتصبب عرقاً كعرق من يعانى سكرات الموت. ألم تضعى فى اعتبارك ، يا آنسة ، أنه يحِبك لدرجة الجنون ، وأن أىّ تهاونٍ - ولو طفيف - من جانبك يقَضُّ مضجعه ويصيبه فى مقتل ! تقدمى منه بضع خطوات واسرى فى أذنه بكَلمات موجهة مباشرة إلى القلب لكى تعيده من إغماءته. احضرى كل يوم سونيتات فى إطرائك وسترين شدة وقْعها عليه) .

وكما أسلفنا القول فهذا بالضبط ما حدث : تملكت "أندريس" أثناء سماعه للسونيت آلاف من خيالات الغيرة المفزعة. لم يكن قد فقد الوعى كلية ، بل امتقع لونه بشكلٍ لافتٍ للنظر مما جعل والده يسأل :

- ماذا جرى ، يابنى ؟ أراكَ ممتقع اللون وعلى وشك الدخول فى إغماءة.

- دعنى - قالت بريثيوثا - أُسِرُّ فى أذنيه ببضع كلمات ، وسترى كيف يثوب إلى رشده سريعاً.

اقتربت منه ، وقالت له محركة بالكاد شفتيها:

- يالها من بِداية رائعة لغجرى المستقبل ! أيمكنك ياأندريس تحمل عذاب الخنْق وأنت لا تقوى على ورقة ؟!

قالت له هذا وأشارت عدة مرات بعلامة الصليب على موضع قلبه ثم ابتعدت. أخذ أندريس شهيقاً عميقاً ثم زفَر ببطء متظاهراً بأن كلمات بريثيوثا قد شفته من وعُكته.

تلقت بريثيوثا ، في النهاية ، " دُبلون" الذهب فسلمته من فورها إلى صويحباتها وطلبت منهن توزيعه عليهن بالتساوى .. أصرّ والد أندريس على معرفة كلمات الرُقْية التى استخدمتها فى علاج ابنه ، وأبدى رغبته فى تدوينها . ردت عليه قائلة إنها ستطلعهم عليها بكل سرور ، لكنها حذرتهم من عدم أخذ كلماتها – التى قد تبدو تافهة – على محمل السخرية لأن فائدتها فى الوقاية من أوجاع القلب ودوار الرأس مؤكدة. وبعد هذا التحذير رددت على مسامعهم الآتى :

"أيتها الرأس ، أيتها الرأس ،
تماسكى ، لا تتزعزعى ،
واستمدى دعامتين
من الصبر اللوذعى.
انشدى
الثقة
الجميلة
لا تميلى
نحو الخواطر الدنيئة
ستبصرين رؤى
تطاول المعجزات
الرب فى المقدمة
و "سان كريستوبال" من الجبابرة" .

– بنصف هذه الكلمات – أردفت بريثيوثا – ، مع الإشارة بعلامة الصليب عدة مرات على محل قلب الشخص المصاب بدوار الرأس ينهض سليماً معافى كالحصان.

بُهتت العجوز عند سماعها كلمات الرُقية وفهمها لخدعة ، كما اعترى أندريس الذهول من قدرتها الفائقة على التصرف وعبقريتها الحادة. تركت لهم بريثيوثا السونيت ولم تطالب به حتى لا تزيد الطين بلّة : إذ كانت تدرك بفطرتها – دون تعلُم – ما يعنيه إذكاء نيران الغيرة فى نفوس المحبين الخانعين.

استأذنت الغجريات ، وعندما هممن بالانصراف قالت بريثيوثا لدون خوان :

- جميع أيام هذا الأسبوع مباركة للسفر ، ولا يوجد بينها يوم واحد مشئوم . تنتظرك حياة عريضة ، لذيذة ومفعمة بالحرية ، فعجل بالرحيل قدر ما تستطيع طالما قررت اتخاذها.

- حياة الجندية لا تتسم بالحرية المطلقة كما تظنين - رد عليها " دون خوان" - بل إن أهم بنودها يكاد يكون مقصوراً على ما فيها من قيود ، ومع هذا سأعمل بمشورتكِ .

- الأفضل - قالت بريثيوثا - الاعتماد على ما يهديه إليكَ تفكيرك ، تصحبك السلامة ، ذهاباً وعودة ، لأن مثلك يستحقها.

أدخلت الكلمات الأخيرة السرور على أندريس ، كما مضت الغجريات ووجوهن مشرقة بالبهجة .. قمن بعد ذلك بتبديل "دبلون" الذهب إلى وحدات نقدية أصغر ووزعنها بينهن بالتساوى ، باستثناء العجوز التى تزيد حصتها دائمًا بمقدار النصف عن الأخريات نظراً لكبر سنها ولأنها ضابطة إيقاع أنشطتهن حتى ما يتعلق منها بالاحتيال والخديعة.

وفى صبيحة أحد الأيام ظهر "أندريس كابييرو" - بمفرده ، دون خادم - على ظهر بغلة مكتراة فى مكان اللقاء الأول. استقبلته "بريثيوثا" وجدتها - اللتان كانتا تنتظرانه هنالك ، حسب الاتفاق - بحفاوة بالغة . استحثهما على اقتياده إلى وكر الأخوية قبل أن يتقدم النهار وينتبه رفاقه فى السفر لغيابه فيجدوا فى طلبه.. رجعتا معه ، وبعد وقتٍ قصير تراءت لهم الأكواخ الصفيح.

أدخلا أندريس أكبر كوخ فى المعسكر ، وعلى الفور حضر لرؤيته حوالى اثنى عشر شاباً رشيقًا كانت الغجرية العجوز قد أبلغتهم نبأ الوافد الجديد الذى سينضم إليهم ، لكنها لم تنبس ببنت شفة عن السر الكامن فى صدرها وتحافظ عليه - ومعها بريثيوثا وأندريس - بدهاء وحِنكة منقطعتى النظير. عندما شاهدوا البغلة انبرى أحدهم قائلاً:

- يمكننا بيع هذه فى سوق الخميس بطليطلة .

- أما هذا فلا - رد أندريس - فهى مكتراة وسيتعرف عليها بسهولة كل البغّالين الذين يجوبون إسبانيا .

- يالسلامة نيتك ، ياسيد أندريس ! - أضاف غجرى آخر - لو كانت هذه البغلة تحمل جميع العلامات التى يمكن اختراعها إلى يوم القيامة فباستطاعتنا تغيير شكلها بحيث لا تتعرف عليها أمها التى ولدتها أو صاحبها الذى رباها.

- ومع هذا - رد أندريس - ينبغى هذه المرة تنفيذ ما أراه ، ألا وهو قتلها ودفنها بمكانٍ آمنٍ لا تظهر فيه حتى عظامها.

تدخل عندئذٍ غجرى ثالث قائلاً :

- ذنبٌ عظيم ! أتُزهق روحاً بريئة ؟ لا يقول بمثل هذا الصالح أندريس ، بل يتفضل بعمل شيء آخر: يتأملها جيداً ، على مهلٍ ، حتى تنطبع صورتها وكل علاماتها فى ذاكرته ، وبعد ذلك يتركها لى ، ولو عرفها بعد ساعتين من الآن فلتنبح علىَّ الكلاب مثل زنجى آبق.

- مازلت أصرُّ - قال أندريس - على ضرورة مغادرة البغلة للحياة مهما اجتهدتم فى سَوْق التأكيدات بتغيير هيئتها. أخاف اكتشافها إذا لم يوارها التراب. لو كنتم تفعلون هذا طمعًا فيما ستربحونه من وراء بيعها فأنا لم آت عارياً تماماً (خاوى الوفاض) إلى هذه الأخوية بحيث لا يمكننى تقديم ما يزيد على أربعة أمثال ثمنها رسم دخول [٢٦] إلى مضاربكم.

- إذا كان هذا ما يريده السيد أندريس - قال أحدهم - فلتمت المسكينة إذن دونما ذنب أوٍ جريرة، ويعلم الله مدى أسفى على مصيرها الظالم ، فهى ماتزال غضة فتية : لم يذهب نور بصرها (وهذا شيء غير معتاد فى البغال المخصصة للإيجار) رغم غشيانها المستمر للطرق ، ولم تظهر على خاصرتيها أية بثور أو تقرحات تحت المهمازين.

أجّلوا موت البغلة لحلول الليل ، وفيما بقى من النهار أقاموا احتفالاً بمناسبة تعميد أندريس غجرياً: أخلوا أفضل كوخ عندهم ، ونظّفوه من المخلفات ثم زينوه بالأغصان

---

(٢٦) فى زمن المؤلف (وفى العصور السابقة واللاحقة أيضاً) كانت تُحصّل على بوابات المدن - خاصة الكبيرة - رسوم دخول على البضائع والأفراد ، كما كان يتم فى بعض الأحيان تحصيل رسم مغادرة كذلك . (المترجم)

ونباتات السُعْد العطرة. أجلسوا أندريس على نصف جذع شجِرة سنديان وهو يمسك مطرقة بإحدى يديه، وبالأخرى كماشة؛ وعلى نغمات دفين شرع في قرعهما غجريان جعلوه يثب "متشقلباً" مرتين في الهواء. قاموا بعد ذلك بتعرية أحد ذراعيه ورسموا عليه وشْماً خفيفاً بنبتة من شجر الزيتون ثم لفّوه بشريط جديد من الحرير.

شهدت بريثيوثا جميع وقائع الاحتفال بصحبة غجريات أخريات - شابات وعجائز - كان البعض ينظر إليه مفتوناً والبعض الآخر بحب وشغف، ذلك لأن وسامة أندريس كانت كفيلة بسحر ألباب الجميع حتى الغجريات.

عندما انتهت مراسم الاحتفال تقدم غجري طاعن في السن وأخذ بريثيوثا من يدها ثم وقف معها قبالة أندريس وألقى بالكلمات التالية:

- هذه الفتاة، التي تُعد بحق أيقونة الجمال الغجري في طول البلاد وعرضها، نقدمها لك كزوجة أو صديقة، وفي كلتا الحالتين لك عليها ما شئت من السلطان؛ هذا لأن الحرية المطلقة لحياتنا لا تعبأ بأغلال التصنّع أو المراسم والطقوس المضجرة .. تأملها جيداً، وانظر فيما إذا كانت تعجبك، إذا رأيت فيها شيئاً لا يروقك فإليك عنها واختر غيرها من بين الحاضرات هنا. منْ تختارها سنعطيها لك، لكن يجب أن تعلم أن التي سيستقر عليها رأيك الآن لا يمكنك استبدالها بعد ذلك أو الجمع بينها وبين أخرى، متزوجة كانت أم آنسة. نحن نحافظ على قانون الصداقة ولا نتخطاه: لا يرتع أحدنا في حمى غيره، ونعيش - بهذا الشكل - متخففي الكواهل من وباء الغيرة البغيض. بيننا - رغم انتشار غشيان المحارم - لا توجد حالة خيانة واحدة. لا نذهب للعدالة طلبًا للقصاص عند اكتشاف خيانة الزوجات أو الصديقات لأننا القضاة والجلادون: نقتلهن دونما عناء وندفن جثثهن في الجبال والفلوات مثل الحيوانات الضارة، مطمئنين لعدم سعي قريب للأخذ بثأرهن أو مطالبة الآباء بدمائهن. وتحت وطأة الخوف من هذا المصير يتوخين العفة، ونعيش نحن بالتالي - كما سبق وذكرت - مطمئنين مرتاحي البال. قليل مما نملكه ليس مشاعاً بين الجميع، وفي مقدمته تأتي الزوجة والصديقة. لا يوجد بيننا طلاق أو انفصال اللهم إلا ما تحتمه الشيخوخة أو الموت. منْ لديه امرأة عجوز، بإمكانه - لو أراد - تغييرها

بأخرى تناسب طموحات سنّه. بهذه اللوائح والأعراف، وبغيرها، نحافظ على كياننا ونعيش سعداء.. نحن سادة الفيافي والقفار والأراضي المزروعة، الغابات والأحراج، الجبال، الينابيع والأنهار: الجبال تقدم لنا حطبها مجاناً، والأشجار فاكهتها، ومزارع الكروم عنبها، والبساتين خضرواتها، والينابيع ماءها، والأنهار أسماكها، والقمم العالية ظلالها، والعواصف هواءها المنعش؛ ومن الأحراش والغابات نتزود باللحوم، ومن الكهوف نتخذ البيوت. بالنسبة لنا: اكفهرار السماء وعبوسها نسائم عليلة، الثلوج راحة من العمل، المطر استحمام، الرعود موسيقى جيّاشة، العواصف والبروق فلوس قواطع. الأرض الصلبة - بالنسبة لنا - حشيّات وثيرة من ريش النعام، وجلودنا المدبوغة بمثابة الدروع الواقية. خفّة حركتنا لا تعوقها الجداجد [٢٧] ولا توقفها الوهاد ولا تصدها الحوائط. عزائمنا لا تثنيها القيود، لا تفت في عضدها "لاس جارُوتشاس" [٢٨]، لا يغرقها الخنْق ولا تروضها المهور الخشبية [٢٩]. ننتقل في سهولة ويسر من قول "لا" إلى "نعم" أو العكس، تبعاً للظروف ولما تمليه المصلحة؛ هذا لأن قيمتنا الحقيقية نستمدها من الاستشهاد لا من الجلوس على كرسي الاعتراف.. من أجلنا تربى المطايا وحيوانات الجرّ في المزارع والحقول؛ وفي المدينة تخاط من أجلنا الجيوب في الملابس. لا يوجد من بين العقْبان أو الطيور الجارحة الأخرى منْ يتفوق علينا في الانقضاض على الفريسة عند سنوح الفرصة؛ وعلاوة على هذا وذاك نتمتع بالمؤهلات والمهارات العديدة التي تكفل لنا الخواتيم السعيدة: فنحن في السجن نغني، على مهر التعذيب نصمت ولا نقول آه، بالنهار نعمل وبالليل نسرق، أو بمعنى أصح: نحرص على ألا يعيش أحد قرير العين مطمئنا على ثروته. لا يتعبنا الخوف من فقدان الشرف ولا يؤرقنا الطمع في الارتقاء به؛ لا نأوي قطّاع الطرق ولا نبكر

---

(٢٧) الجداجد (جمع جُدْجُد): صراصير تطير في الظلام. (المترجم)

(٢٨) Las garruchas: التعذيب بـ "الجارُوتشا" يتمثل في تعليق الشخص من رجليه مع وضع أحمال ثقيلة على ظهره وساقيه. (المترجم)

(٢٩) Potro: آلة تعذيب خشبية على شكل مُهر. (المترجم)

إلى المحاكم لتقديم العرضحالات ؛ لا نخالط علية القوم ولا نطلب معروفًا من أحد. نفضل أكواخنا الصفيح ومضاربنا المتنقلة على العيش في أفخم القصور. لا نقايض ما حبتنا به الطبيعة من جروف عالية وقمم صخرية مثلجة ومروج ممتدة وغابات كثيفة بالحجرات الضيقة حتى لو كانت في "فلاندس" ذاتها. في الفلك نحن علماء بالفطرة ؛ ننام غالبًا في الخلاء تحت سماء مكشوفة ، نرقب النجوم على مدار الساعة ونعلم ما يخص منها الليل وما يتبع النهار. نشاهد كيف يزوى السحر النجوم ويمحوها من السماء، وكيف تمتد بعده يد الصبح لتبهج الهواء وتبرد الماء وترطب أديم الأرض ، ثم تأتي الشمس لتذهب القمم وتمشط الجبال (كما يقول أحد الشعراء) ، لا نخشى البرودة عندما تجرحنا بأشعتها المائلة ، ولانرهب الاحتراق بقرصها عندما تتوسط كبد السماء: فإرادتنا واحدة في مواجهة الشمس أو الجليد، الخصوبة أو الجدب. نحن - باختصار - أناس نعيش من كدنا وعرقنا ، دون الدخول في متاهة المثل القائل : "كنائس أو بحار أو أمور سلطانية (سياسية)" .. لدينا كل ما نريده لأننا نرضى مسرورين بما تحت أيدينا. أخبرتك بكل هذا ، أيها الفتى الكريم ، حتى تكون على علم بما أنت مقبل عليه من حياة وبما يتعين عليك التصرف بموجبه ومن خلاله ، وأنا لم أقدم لك إلا طرفًا منه وبإيجاز شديد ، إذ هناك أمور أخرى كثيرة ستكتشفها أنت وحدك بمرور الأيام ، وهي لا تقل خطراً وأهمية عما سمعته أذناك .

سكت الغجري العجوز عند هذا الحد ، فما كان من المستجد إلا الإعراب عن سروره بتلك اللوائح والأعراف الجديرة بالثناء ، وعن عزمه على ترسم خطاها واتباع منهاجها القائم على الحكمة والقواعد الرشيدة ، وعن أسفه العميق لتأخر معرفته لهذا النمط السعيد من العيش. كما أعلن تنازله منذ تلك اللحظة عن صفة الفروسية وعن الخيلاء بأصوله العريقة ، وأنه يضعهما راضياً مختاراً تحت نير هذه الحياة أو - بمعنى أصح - تحت القوانين والنظم التي توجه دفتها ، وذلك في مقابل إنعامهم عليه ببريثيوثا الرائعة التي يتخلى من أجلها عن العروش السامقة والإمبراطوريات العريضة .

ردت بريثيوثا على ما تقدم بقولها :

- إذا كان هؤلاء السادة المشرعون قد وجدوا فى لوائحهم ما يخوّل لهم تقديمى إليك طالما صادف هذا هوى فى نفسك ، فإن قانون إرادتى - وهو أقوى من سائر القوانين - يأبى علىّ الانصياع لما ذهبوا إليه إلا بالشروط التى اتفقنا عليها سوياً قبل مجيئك إلى هذا المكان ؛ ومن ثمّ يتعين عليك البقاء فى مضاربنا سنتين كاملتين قبل ابتنائك بى لكى لا تندم بعد ذلك على نزقك ولا ألعن تسرعى الذى غرّر بى. الشروط تحطم إسار القوانين ، وأنت تعرف جيداً ما اتفقنا عليه : لو قبلتها ربما أكون لك وتكون لى ، أما إذا كانت الشكوك مازالت تساورك فها هى بغلتك لم تمت بعد ، ولم يمس طاقمها ، ونقودك ستعود إليك كاملة غير منقوصة. أما بالنسبة لغيابك فإنه لم يطل ولم يستغرق حتى الآن إلا شطراً من النهار ، وما تبقى منه يمكنك استغلاله فى التفكير بروية فيما يناسبك .. بإمكان هؤلاء السادة تسليمك جسدى ، أما روحى، فكلا وألف كلا ، لأنها ولدت حرة وستظل كذلك طيلة الوقت الذى أريده. لو بقيت سأحترمك كثيراً وأقدرك ، ولن أنتقص من قدرك هذا لو قررت العودة . أنا على يقين من أن رغبات المحبين تجرى دائمًا ملتاثة دون عنان حتى يلجمها ويكبح جماحها صوت العقل أو خيبة الأمل ، وأنا لا أريد أن يكون حالى معك مثل الصياد مع الأرنب البرى : يظل يطارده بحمية واندفاع حتى يوقعه فى شراكه ، وبعد أن يمسك به يتركه ليجرى وراء آخر يفرّ منه. غالبية العيون لا تميز عند النظرة الأولى بين صفرة النحاس والذهب ؛ لكنها لو أنعمت قليلاً فيهما لأدركت الفارق بين الأصلى منها والمزيف. وهذا الجمال الرائع الذى تنعتنى به وتدعى أنه عندك أعلى من الشمس منزلة وأغلى من الذهب قيمة ، ما الذى يدرينى أنك لن تراه على القرب وهمًا ، وأنه بعد اللمس مصطنع وغير حقيقى ؟ أعطيك سنتين لتراجع فيهما نفسك وتختار الأفضل لك ، لأن رباط الزواج المقدس لا فكاك منه إلا بالموت، ولذا يجب أن يكون مسبوقًا بوقت كاف يسمح بالنظر ثمّ إعادة النظر لاكتشاف ما به من عيوب ومحاسن. أنا لست ممن ينصاع للمبدأ الهمجى المتجبر الذى أقره أهلى هؤلاء بشأن الانفصال

عن النساء أو معاقبتهن بالطريقة التى تحلو لهم ؛ وبما أننى لا أفكر فى الإتيان بشيء يستوجب العقاب ، لا أريد اتخاذ شريك يتركنى وقتما يشاء.

- لديك كل الحق فيما تقولينه يا بريثيوثا - قال أندريس معقبًا -، وإذا أردت أن أهدئ من روعك وأبدد مخاوفك بالحلف على التزام كل الضوابط التى ترينها ولا أخرج عنها قيد أنملة فاَختارى نوع القسم الذى تريدين أو أىّ ضمان آخر وستجديننى رهن إشارتك.

- نادراً ما يفى الأسير بالأيمان المغلظة أو بالعهود التى يقطعها على نفسه لكى يردوا عليه حريته - قالت بريثيوثا - ، وما أظن أن الأمر يختلف بالنسبة للعاشق: إنه ، من أجل إشباع رغبته ، على استعداد للوعد بأجنحة "ميركوريو" (٣٠) وأشعة "جوبيتر" (٣١) - كما وعدنى ذات مرة أحد الشعراء-، وعلى الحلف بنبع "إستخيا" (٣٢) . لا أريد منك أيماناً ولا وعوداً ، ياسيد أندريس ، بل ادخار كل هذا لفترة التجربة والاختبار التى سأتولى فيها مهمة الدفاع عن نفسى ضد أية بادرة إهانة من جانبك.

- لك ما تريدين - أجاب أندريس - ؛ لكن لى طلبًا واحداً عند هؤلاء السادة أصَدقائى : إعفائى من ممارسة النشل لمدة شهر على الأقل ، لأن ذلك يتطلب - حسبما أعتقد - دروساً كثيرة .

- لا عليك ، يابنى - قال الغجرى العجوز - ، فنحن سنتكفل بتدريبك التدريب الكافى حتى تصبح مثل الصقر فى المهنة ، وعندما تتقنها ستشعر بلذة عارمة وستلعق أصابعك بعد كل عملية نشل تقوم بها . لا توجد متعة تعدل الخروج صباحاً صفر اليدين والعودة ليلاً محملاً بالعديد من الأشياء.

---

(٣٠) ميركوريو Mercurio : هو رسول الآلهة فى الأساطير الإغريقية أو المَلك المكلّف بحمل الأرواح إلى أعلى عليين . (المترجم)

(٣١) جوبيتر Júpiter: من أهم الآلهة اللاتينية ، ويتولى شأن التصرف فى الظواهر المناخية مثل الضوء والأشعة والرعود والأمطار...إلخ . (المترجم)

(٣٢) إستخيا Estigia : فى التراث الغربى نبع سام يتدفق من صخرة وتتوارى مياهه بسرعة تحت الأرض . ويقال إن درجة تركيز السم به تصل إلى حد صهر المعادن والخزف ، وإنه فرع لنهر فى الجحيم . (المترجم)

- قد يعود البعض ولا يحمل على ظهره سوى آثار السياط ، كما شاهدت - قال أندريس .

- نحن لا نلهو ولا نلعب - رد العجوز - ، وكل نشاط فى هذه الحياة محفوف بجملة من المخاطر ، وما يخص النشل منها يتمثل فى التجديف علي السفن والجلد ، وأحياناً الشنق ؛ لكن هذا لايعنى التوقف عن العمل ، إذ لا يعقل أن تكف السفن عن الإبحار لأن إحداها تعرضت للغرق أو داهمتها عاصفة هوجاء. وهل يقلع الناس عن الانخراط فى سلك الجندية لأن الحروب تأكل الرجال والخيول ؟ قَدْرنا يزداد علواً كلما كثرت آثار سياط العدالة على ظهورنا ، فهى عندنا أفضل من النياشين وشارات الفروسية على الصدور .. خلاصة القول إن كراهيتنا الشديدة للجلد على الظهور أو لضرب صفحة المياه بالمجاديف لا تدفعنا ، ونحن فى ريعان الشباب ، إلى النكوص على أعقابنا يائسين عند ارتكاب الجرائم الأولى. استرح الآن فى العش تحت أجنحتنا يابنى ، وثق تمامًا أننا لن نطلقك للطيران إلا فى الوقت المناسب وإلى حيث لا تعود إلا والفريسة بين مخالبك. وكما أخبرتك آنفًا : لن تقاوم - من فرط المتعة واللذة - لعق أصابعك بعد كل سرقة.

- وبمثابة التعويض من جهتى - قال أندريس - عما كان بإمكانى سرقته خلال فترة التدريب، أود توزيع مائتى إسكودو على كافة الموجودين بالمضارب.

فور انتهائه من هذا التصريح اقترب منه شباب الغجر وحملوه على الأعناق وأخذوا يهتفون : "يعيش ، يعيش أندريس العظيم ! تحيا بريثيوثا، حبيبته وجوهرته المصونة ! " .

لم تقف الغجريات مكتوفات الأيدى بل فعلن الشيء نفسه مع بريثيوثا دون أن يخلو المشهد من الغيرة التى كانت تتلبس "كريستينا" وأخريات غيرها ؛ فالغيرة تعشش أيضاً فى مخيمات البرابرة وأكواخ الرعاة مثلما تسكن قصور الأمراء ، ورؤية الجار ينعم بما يبدو لى أنه لا يستحقه أكثر منى تتعب وتضنى.

بعد انتهاء الحفل الرائع بالوافد الجديد أقبلوا على تناول غذائهم بشهية ونهم ، ولما فرغوا منه وزعوا مائتى الإسكودو بينهم بالعدل والقسطاس لتنهال المدائح من جديد على أندريس و بريثيوثا.

ولمّا جَنّ الليل ذبحوا البغلة ودفنوها فى مكانٍ آمن ، كما دفنوا معها - مثلما يفعل الهنود مع موتاهم - طاقمها المكون من سرج ومهمازين وخِطام ورَسَن. أُعجب أندريس بما سمعه ورآه من إشراقيات الغجر ، وعزم على اتباع سبيلهم مع التخلّى تماماً عن عاداته القديمة أو التخفف - على الأقل - منها قدر استطاعته ، وإن كان قد عقد النيّة فى الوقت نفسه على التملّص - بمساعدة حافظة نقوده - من ارتكاب الأفعال الظالمة التى يأمرونه بها.

رجاهم أندريس فى اليوم التالى تغيير محل إقامتهم والابتعاد عن مدريد حتى لا يتعرف عليه أحد لو ظلّ بالقرب منها. أخبروه أنهم كانوا قد قرروا قبل حضوره الذهاب إلى جبال طليطلة لممارسة نشاطهم فى المناطق المحيطة بها.

لملموا حاجياتهم وحمّلوها على الدواب والعربات ثم قدّموا لأندريس جحشاً ليركبه ، لكنه أبى وفَضّل السير على قدميه ليتعهد الجحش الذى تمتطيه بريثيوثا ؛ وهكذا سارت المحبوبة مزهوّة بتابعها الأنيق الرشيق ، وهو مغتبط برؤية من نصّبها قلبه مليكة لمشيئته تمضى إلى جواره.

[آه ، أيتها القوة القاهرة لما يسمونه بـ "معبود المرارة العذب" (والتسمية من بنات أفكارنا) . بأىّ منطق تخضعيننا ، وتعامليننا بغير احترام ؟ فهذا أندريس - الفتى الرزين والفارس المغوار الذى قضى شطراً كبيراً من حياته بالعاصمة يتقلب بين أحضان النعيم - قد تحول من النقيض إلى النقيض بين عشيّة وضحاها : خدع خدمه وأصدقاءه ، أطاح بآمال والديه فيه ، ترك الطريق إلى "فلاندس" حيث كان باستطاعته التعبير عن نفسه وتسجيل المزيد من صفحات المجد والفخار فى سجل آبائه وأجداده ، وكل هذا فى مقابل الركوع تحت قدمى فتاة والعمل سائساً لها. صحيح أنها رائعة الجمال ؛ لكنها غجرية . إنها حقاً لإحدى معجزات الجمال تلك المتمثلة فى القدرة على إخضاع الإرادة العصيّة الشاردة وإحضارها قَسْراً لترتمى تحت قدميه] .

بعد أربعة أيام من السير المتواصل ألقوا بعصا الترحال عند قرية تبعد فرسخين عن طليطلة . وقبل أن ينصبوا عششهم وخيامهم سلّموا عمدتها بعض المشغولات الفضية كضمان على عدم مزاولتهم لأنشطتهم بالقرية أو المنطقة التابعة لها .. انتشروا بعد ذلك فى جماعات لممارسة نشاطهم فى كافة الأنحاء التى تبعد عن مضاربهم بمسافة لا تقل عن أربعة فراسخ أو خمسة .. انضم أندريس إلى إحدى المجموعات وذهب معها ليتلقى درسه العملى الأول فى النشل ؛ ورغم أنهم لقنوه العديد من الدروس إلا أنه لم يستوعب واحداً منها ؛ وفى مقابل هذا كانت كل عملية نشل ينفذها أساتذته تحز فى نفسه وتوجعه فى الصميم ، وغالباً ما كان يرق لدموع المخدوعين ويرد إليهم – من ماله الخاص – ما سلبه زملاؤه منهم. يئس منه الغجر وأفهموه أن سلوكه هذا يناقض قوانينهم ولوائحهم التى تتصدى بكل حزم لأية بادرة إحساس بالشفقة ، لأنها لو تسللت إلى قلوبهم ستطمس هويتهم ولن تقوم لهم بعدها قائمة.

عندما أدرك أندريس قنوطهم منه أخبرهم برغبته فى ممارسة النشل بمفرده دون وصاية من أحد ، فهو لا تنقصه الخفّة ليهرب أو الحافز ليسرق ، وبهذا الشكل يتحمل وحده نتيجة عمله : خيراً أو شراً.

عبثاً حاول الغجر إقناعه بالعدول عن رأيه : أفهموه أنهم يتعرضون فى عملهم هذا لمواقف تحتاج – سواء بالنسبة لإنجاز المهمة أو للدفاع عن النفس – لمعونة الغير ، وأن شخصًا بمفرده لا يستطيع القيام بمهام ذات شأن ؛ لكنه أصر – رغم الحجج الكثيرة التى ساقوها – على الانفصال عن المجموعة لتبييته النية على شراء أية سلعة وادعاء سرقتها ، وبهذا الشكل يتخفف قدر استطاعته من عبء تأنيب الضمير.

بعد تنفيذ أندريس لحيلته تلقت منه الأخوية فى أقل من شهر ما يفوق جملة ما أحضره أربعة من أمهر لصوصها. كانت بريثيوثا شديدة الزّهْو باستواء عود خطيبها الغض على ساقه وبتحوله إلى لص بارع ؛ ومع هذا كان يقلقها ويقض مضجعها الخوف من إيقاعهم به ذات يوم وتجريسه. لم تكن ترضى له بهذا المشهد المخزى ولو فى مقابل كنوز "فينيسيا" جميعها. (لابد أن هذا الشعور الطيب من جانبها كان مبعثه تفانيه فى خدمتها والهدايا الكثيرة التى تتلقاها منه).

أمضوا فى نواحى طليطلة ما يزيد على الشهر بقليل ، ولما حلّت البرودة بانقضاء سبتمبر شدّوا الرحال ويمموا شطر إقليم "إكستريمادورا " المشهور بدفئه وغناه . كان

أندريس يتبادل أحاديث الغرام العفيفة مع بريثيوثا، وشيئاً فشيئاً أخذت الفتاة تتعلق به وتفتن بأدبه الجم ومعاملته اللطيفة. أما كأس الهوى الذى كان مترعاً عنده وليس بحاجة إلى المزيد فقد فاضت حوافه بفعل طهارة حبيبته وفطنتها ومتعة النظر إليها عن قرب.. كان يلفت إليه الأنظار فى أى مكان يحلون به: فهو يعدو ويقفز كالظباء، يلعب الصولجان والكرة بخفة ومهارة، يرمى الزانة بقوة وإتقان لا نظير لهما..

خلاصة القول أن شهرته حلقت فى مدة وجيزة - بالتوازى مع شهرة خطيبته - فى جميع أجواء "إكستريمادورا"، وأن الناس فى كل مكان كانوا يتحدثون عن رشاقة ومهارة الغجرى أندريس كاباييروا وعن ظرفه ومواهبه، وعن جمال وسحر الغجرية الصغيرة. ومن هنا حرص سكان الإقليم - سواء فى المدن أو القرى أو النجوع - على توجيه الدعوة إليهما لإضفاء البهجة والحبور على أعيادهم الدينية أو احتفالاتهم الخاصة. وهكذا بدأ الغنى والازدهار يدبان فى أوصال مخيمات الغجر وترفرف فوقها أجنحة السعادة، بينما اكتفى العاشقان بتبادل النظرات.

عندما كانت خيامهم منصوبة - فى إحدى المرات - بين أشجار البلوط فى مكان بعيد بعض الشيء عن الطريق العمومى سمعوا، ذات ليلة، فى منتصفها تقريباً، نباح الكلاب يتعالى بإصرار وحمية أكثر من المعتاد. خرج بعض الأفراد - بينهم أندريس - لاستطلاع الخبر، فوجدوا شاباً يرتدى ملابس بيضاء يحاول إبعاد الكلاب عنه والتخلص من اثنين منهم تمكنا من الإمساك بإحدى ساقيه. هرعوا إليه وبعد تخليصه سأله أحدهم:

- ما الذى رمى بك إلى هذا المكان البعيد عن الطريق وفى تلك الساعة؟ أجئت لتسرقنا؟ لو كنت قادماً لهذا الغرض فنعم الاختيار.

- ما قدمت للسرقة - أجاب المعضوض - ولا أدرى ما إذا كنت أسير على الطريق أو خارجه، وإن تبين لى الآن أننى ابتعدت عنه بالفعل؛ لكن، بربكم أيها السادة، ألا يوجد خان قريب من هنا آوى إليه هذه الليلة لأضمد الجراح التى أحدثتها كلابكم؟

- لا يوجد بالجوار خان واحد ندلك عليه - أجاب أندريس - لكن مادام الأمر يتعلق بالليلة ومداواة جراحك فلن نعجز عن توفير فراش مريح لك داخل مخيمنا. تعال معنا، فنحن معاشر الغجر نعرف أيضاً الرحمة.

– يرحمكم الله أيها السادة – رد الشاب – ، احملونى إلى حيث تريدون لأن آلام ساقى أنهكتنى.

اقترب منه أندريس وغجرى آخر – فمن بين الشياطين يوجد من هو أسوأ من الآخر ، ومن بين حشد الرجال الأشرار يمكن العثور على واحد طيب – وتعاونا سوياً على حمله.

كانت الليلة صافية مقمرة مما جعلهم يرونه بوضوح : كان شابا جميل الخلْقة ، رشيق القدّ ، يرتدى ملابس بيضاء من الكتّان . فور وصولهم به إلى كوخ أندَريس أضاءوا المصباح وأوقدوا النار وأرسلوا فى طلب جدة بريثيوثا التى حضرت على جناح السرعة لتطبيبه. انتزعت الغجرية العجوز بعض الشعور من الكلبين العاقرين وقلتهم فى الزيت. غسلت بالنبيذ مكان العضتين على الساق اليسرى ووضعت فوقهما الشعور المقلية فى الزيت ثم أضافت قليلاً من نبات القرْمان المطحون. قامت بعد ذلك بإحكام ربْط الجرحين بقطعة قماش نظيفة ثم أشارتِ عليهما بعلامة الصليب. ولما فرغت من عملها قالت :

– نم أيها الصديق ، وستصبح بعون الله وكأن شيئاً لم يكن.

كانت بريثيوثا تسترق النظر إلى الشاب أثناء قيام جدتها بتطبيبه ، ولم يمسك هو الآخر عن إنعام النظر إليها . استرعى هذا انتباه أندريس ؛ لكنه أرجعه إلى جمال بريثيوثا الخلاب الذى يستولى على العيون ويجبرها على التوجه إلى صاحبته. المهم أنهم فى النهاية تركوا الشاب بعد تضميد جراحه ليستريح فوق سرير من القش الجاف وآثروا عدم إزعاجه فى تلك الظروف بالسؤال عن هويته أو وجهته أو أى شىء آخر.

أخذت بريثيوثا أندريس من يده وانتحت به جانباً فور ابتعادهما عن الكوخ لتقول له :

– ألا تذكر تلك الورقة التى سقطت منى عندما كنا نرقص أنا وزميلاتى فى بيتكم ، واغتظت بسببها ؟

– نعم أذكرها. لقد كانت تحتوى على "سونيت" لا بأس به ، يمتدح جمالك.

- لا تنزعج إذن لو علمت أن الذى ألّف هذا السونيت هو الشاب المعضوض الذى تركناه راقداً فى الكوخ. لاشك أنه هو ، فقد كلمته فى مدريد مرتين أو ثلاثا سلمنى خلالها قصيدة أخرى رائعة. إنه يعمل وصيفاً فى مدريد ، لا لرجل عادى بل لأحد الأمراء على ما أظن. إنه - حقّا - شاب مهذب ، راجح العقل وفى منتهى العفة ، ولا أدرى ما الذى ساقه إلى هذا المكان.

- وما ظنك أنت ، يا بريثيوثا ؟ لم يأت بهذا الشاب فى ثياب الطحّان إلى هنا إلا الذى أحضرنى قبله وجعلنى غجريًا . لقد بات واضحًا للعيان أن من دواعى سعادتك رؤية نفسك محاطة بالعديد من المعجبين الخانعين. لو كنت فعلاً هكذا ، اقتلينى أولاً ثم ألحقى بى هذا الآخر ؛ هذا إذا لم تكونى تضمرين التضحية بنا سوياً على عتبات وهمك ، حتى لا أقول جمالك.

- عفوك ياإلهى ! - قالت بريثيوثا - أيمكن أن يصل بك الطيش إلى هذا الحد وأن تجعل سمعتى وآمالك فى مهب الريح معلقتين بخيط رفيع ! لقد تمكن سيف الغيرة الصلد من اختراق روحك فى سهولة ويسر. قل لى ، ياأندريس، هل قلبت النظر ووجدت شائبة اصطناع أو خداع فيما أخبرتك به ؟ ألم يكن بمقدورى الصمت وإخفاء حقيقة هذا الشاب ؟ أم تظننى - على سبيل المصادفة - حمقاء لدرجة إعطائك الفرصة كى تضع طيبتى وحسن نيتى موضع الشبهات ؟ اصمت ياأندريس، بالله عليك ، وحاول من الآن وحتى انبلاج الصباح اقتلاع هذه الوساوس والأوهام من صدرك ،ربما يكشف لك عقلك عن بطلان هواجسك. ولكى أرضيك وأقطع دابر الشك عندك - مادامت المسألة قد وصلت إلى الحد الذى يستدعى استرضاءك - أطلب منك طرد هذا الشاب دون انتظار للبحث عن الدوافع التى ألقت به إلى هذا المكان. اطرده ولن يمانعك أحد ، فجميع منْ بالمخيم لا يعصون لك أمراً . ولو فرضنا أن هذا لن يحدث أتعهد لك بعدم مغادرة مسكنى من هذه اللحظة وألا أمكنه من رؤية ذيل ثوبى ، لا هو ولا غيره ممنْ لا تروقك رؤيتهم لى. أتعرف ياأندريس أنه لا يحزننى البتة رؤيتك غيوراً ؛ لكن يحز فى نفسى ويوجعنى كثيراً أن أخالك نزقاً أو غير بصير.

- إذا لم يعترني الجنون – رد أندريس – فأيّ عارض آخر يُعد تافهًا أو لا وجود له نظراً لما يمكن أن تحدثه الغيرة المريرة القاسية من أضرار جسيمة. ورغم كل هذا فلا مانع لدى من مسايرتك ومحاولة الوقوف – إن تيسر هذا – على حقيقة ما يريده هذا الوصيف الشاعر ، وإلى أين هو ذاهب وعن ماذا يبحث ؛ فبالإمكان التقاط خيط قد يظهر منه على حين غفلة يقود إلى استخراج البكرة المخبوءة ، وإن كنت أخشى أن تطوقني بلفائفها.

- الغيرة على ما أظن – قالت پريثيوثا – لا تترك العقل حراً طليقًا لكي يزن الأمور بميزانها الصحيح ، فالغيورون ينظرون دائمًا من خلال عدسات مكبرة بعيدة المدى تجعل الأشياء الصغيرة كبيرة والقزْمة عملاقة ، وتقلب الشكوك حقائق. أستحلفك بحياتي وحياتك، يا أندريس ، أن تتصرف في هذا الأمر وفي كل ما يعنّ لنا من أمور بحنكة ورويّة ، لو فعلت هذا فأنا على يقين من أنك ستسلم وتقرّ – دون تحفظات – بعفافي وصوْني ومصداقيتي.

ودّعته پريثيوثا بعد ذلك وعادت إلى كوخها بينما ظل هو منتظراً (عكر المزاج ، تتناوشه آلاف التخيلات السقيمة) انبلاج الصباح ليتلقى اعترافات الجريح. لم يستطع تخيل سبب آخر لمجيء ذلك الوصيف سوى افتتانه بجمالها ، فاللص يتصور الناس جميعاً على شاكلته. ومن جهة أخرى ، بدا له أن اجتهاد پريثيوثا في استرضائه بهذا الشكل يجبره على العيش هانئًا قرير العين وعلى أن يسلم ، مطمئناً، دفة حظه إلى يدها الأمينة.

أخيراً طلع النهار، ومع طلعته اتجه أندريس إلى كوخ المعضوض وأخذ يمطره بوابل من الأسئلة: عن اسمه ووجهته ومغزى سيره في وقت متأخر من الليل بعيداً عن الطريق العمومي ، وإن كان قد سأله أولاً عن حاله وآلام جراحه. أجابه الشاب عن السؤال الأخير قائلاً : إنه بخير ولم يعد يشعر بأي ألم مما يجعله قادراً على مواصلة طريقه. أما بالنسبة لاسمه ووجهته فلم يجب بأكثر من أنه يدعى "ألونسو أورتادو" ، وأنه ذاهب في مهمة إلى "نويسترا سنيورا دي لا بينيا دي فرنسا" (٣٣) ، وأن حرصه

---

(٣٣) يقع هذا المكان بين مدينتي "شلمنقة" و "ثيوداد ريال" ، وقد أُطلقت عليه هذه التسمية عام ١٤٩٠م عندما عثر فيه على تمثال مهيب للعذراء Nuestra Senora ، وقد أقيمت كنيسة في موضع اكتشاف التمثال ثم ألحق بها بعد ذلك دير للرهبان من طائفة "الدومينيكان" . (المترجم)

الزائد على الوصول بسرعة إليها هو الذى اضطره إلى السير ليلاً ، ولهذا السبب ضل الطريق واقتادته قدماه إلى هذا المخيم حيث هاجمته الكلاب وأحدثت به ما شاهدوه بأعينهم.

بدا واضحاً لأندريس شدة زيف هذه التصريحات الملفقة ، ومن ثَمَّ عادت الهواجس لتؤرق روحه من جديد. قال له منفعلاً :

– يأخى ، لو كنت أنا القاضى وجئت إلى ساحتى متُّهمًا بجرم ارتكبته ووجَّه إليك ممثلو الادعاء الأسئلة التى طرحتها عليك الآن ، فإن إجاباتك الحالية ستضطرنى لأن آمرهم بتكثيف الضغط عليك بالقيود والحبال. لا يهمنى معرفة منْ تكون ولا حتى اسمك أو وجهتك ، إنما أريد أن تسمع منى هذه النصيحة : إذا كنت بحاجة إلى الكذب فافعل بشكل لا يسترعى الانتباه. تدَّعى أنك ذاهب إلى "بينيا دى فرنسا" بينما هى وراءك بما لا يقل عن ثلاثين فرسخًا ، وأنك تسير ليلاً لضيق الوقت بينما تترك الطريق وتتخبط فى الغابات بين أشجار البلوط حيث لا توجد دروب ولا حتى مسالك . لكن ألا يستحق تنبيهك إلى خطئك الاعتراف ولو بحقيقة واحدة ؟ ألست – على سبيل المصادفة – ذلك الوصيف الذى رأيته عدة مرات فى مدريد ؛ ذلك الشاعر المشهور الذى ألَّف قصيدتين فى غجرية حسناء كانت تجوب شوارع العاصمة منذ بضعة أشهر ؟ أخبرنى بالحقيقة ، وأعدك بحفظ السر وعدم البوْح به. لو لم تعترف لى بأنك الشخص الذى أحدثك عنه فلن تبرح هذا المكان ، لأن الوجه الذى أراه أمامى هو نفسه الذى شاهدته من قبل فى مدريد. لقد حملنى ذيوع صيتك وغرابة أمرِك على التدقيق فيك وقتها، وهكذا انطبعت صورتك فِي مخيلتى ، ومن ثَمَّ لم أجد صعوبة فى التعرف عليك فور رؤيتك رغم تخفيك فى هذه الثياب. لا ترتبك ، تشجع ولا تظن أنك بين براثن مجموعة من اللصوص، بل فى ملجأ آمن يعرف الذود عنك وحمايتك من العالم بأسره . اسمع ، نفسى تحدثنى بشىء ، ولو صدق حدْسى يكون حسن طالعك هو الذى جعلك تعثر فىّ : أظن أنك وقعت فى غرام پريثيوثا – تلك الغجرية الجميلة التى كتبت فيها شعراً – ولذلك أتيت للبحث عنها ، ومثل هذا الأمر لا يعيبك بل يزيد من قدرك ، فأنا – رغم

غجريتى - قد علمتنى التجارب أن يد الحب تفعل الأعاجيب بمن يقعون تحت إمرتها أو يتقلبون فى ساحتها. لو كان ظنى فى محله - وأعتقد أنه كذلك - فالغجرية المقصودة موجودة هنا.

- أعرف أنها هنا لأننى رأيتها ليلة أمس - قال المعضوض، وبقوله هذا امتقع لون أندريس وتأكدت شكوكه - ؛ لكننى لم أجرؤ على الكشف لها عن شخصيتى حتى لا تتفاقم الأمور.

- أنت إذن الشاعر الذى أعنيه .

- نعم أنا، فلم يعد بالإمكان الإنكار. ربما ينتظرنى الخير فى المكان الذى حسبت أننى ضعت فيه، هذا إذا سلمنا جدلاً بأن فى الغابات يمكن أن يتوافر الأمان أو الترحاب فى الجبال.

- يتوافر بالتأكيد - قال أندريس -، وعلى وجه الخصوص فى مضارب الغجر. والآن بوسعك أيها السيد - انطلاقًا من الثقة المتبادلة - الإفصاح عن مكنون صدرك وستجدنى نعم الناصح الأمين. الغجرية قريبتى، وولايتى عليها تخول لى أن أفعل بها ما أريد. لو كنت تريدها زوجة لا يسعنا إلا مباركة اختيارك، ولو أردتها خليلة فلن نمانع مادامت حافظتك عامرة بالنقود، فالجشع يعتبر إحدى شيمنا الأصيلة.

- المال موجود والحمد لله - رد الشاب - ، ففى كمى قميصى هذا توجد أربعمائة إسكودو ملفوفة حول ساعدى.

نزل هذا الخبر على أندريس كالصاعقة، إذ تصور أن الشاب لم يحضر معه كل هذا المبلغ الضخم إلا لاستهواء حبيبته أو لشرائها ؛ ومع هذا تمالك نفسه ليواصل معه الحديث وإن كان بلسان متلعثم مرتجف :

- إنه حقاً لمبلغ كبير. لم يبق إذن إلا الكشف عن هويتك والشروع فى العمل.. الفتاة ليست بلهاء وستسعد أيما سعادة بالاقتران بشاب مثلك.

- آه، ياصديقى ! - قال الشاب -. أود أن تعرف أن القوة القاهرة التى أجبرتنى على ارتداء هذه الثياب المستعارة لا صلة لها بالحب الذى تتفنن

في الحديث عنه ، ولا حتى بالرغبة في بريثيوثا، فالعاصمة مدريد تعج بالفاتنات اللاتى يأسرن القلوب ويخطفن الألباب ، وجمال قريبتك وإن كان يبزهن جميعاً إلا أنه في نهاية المطاف على غجرية. ما ألقى بى إلى هذا المكان في هذه الثياب ، سائراً على قدمى ومعضوضاً من الكلاب ليس سببه الحب ، بل طامة كبرى ومصيبة عظيمة هبطت على أم رأسى.

استعاد أندريس بعد سماعه الكلمات السابقة قواه الخائرة ، وبدا له أن الأمور تمضى في اتجاه مغاير لما ذهب إليه تفكيره ، وللهفته الشديدة للخروج من تلك البلبلة عاود الضغط على الشاب لكى يكشف عن أبعاد نكبته ، وقد تحقق له المأمول لأن المعضوض واصل حديثه قائلاً :

- في مدريد كنت أعمل وصيفًا لأحد حاملى الألقاب الذى لم يكن يعاملنى بهذه الصفة ، بل كفرد من أهل بيته. كان لسيدى هذا ابن وحيد يماثلنى فى العمر ويشبهنى فى معظم الصفات ، ومن ثمَّ فقد كانت تربطنى به علاقة أخوّة وصداقة . حدث أن أحبَّ هذا الابن فتاة من أحد البيوتات العريقة ، وكان من الممكن أن يختارها عن طيب خاطر لتكون زوجته لو لم يكن قراره متوقفاً - كالحال فى الأبناء المؤدبين الذين لا يفعلون شيئاً إلا بموافقة أولياء أمورهم - على تصريح والديه اللذين كانا يرغبان فى تزويجه من عروس تنتمى لطبقتهم الاجتماعية الراقية. المهم أن صديقى هذا وابنٍ سيدى كان يتودد إلى فتاته سراً ، بعيداً عن كافة العيون فيما عدا عينىَّ هاتين اللتين شهدتا محاولاته المتكررة لإرضائها. وذات ليلة، يبدو أن القدر المشئوم قد اختارها لحدوث المصيبة التى ألخص لك وقائعها على النحو التالى: فى أثناء طوافنا بشارع تلك الفتاة لمحنا رجلين ، حسنىْ المظهر ، يحومان حول بيتها . أراد صديقى معرفة من هما ، ولم يكد يخطو بضع خطوات - وأنا إلى جواره - حتى امتشق كل واحد منهما حساماً بيد وبالأخرى أشهر مسدسه واتجها نحونا. اضطررنا اضطراراً لفعل الشيء نفسه لتجرى معركة لم تدم طويلاً ؛ هذا لأن روحى الخصمين فارقتا جسديهما سريعًا من جراء طعنتين : سددت الأولى بسيف صديقى المدفوع بالغيرة ، بينما وقع على عاتقى تسديد الثانية دفاعًا عن النفس ؛ وهكذا

انتهى المشهد بسرعة نادرة وغير معهودة . بعد انتصارنا الذى لم نكن نريده ولا نطمع فيه عدنا أدراجنا إلى البيت وأخذنا - دون أن يشعر بنا أحد - ما طالته أيدينا من نقود ، ثم غادرناه ولجأنا إلى دير "سان خيرونيمو" للاحتماء به ، فى انتظار ما سيسفر عنه التحقيق عندما تكتشف الجريمة فى الصباح. علمنا بعد ذلك أن المحققين لم يستدلوا على أىّ أثر للجناة ، وعندئذٍ نصحنا الرهبان بالعودة إلى البيت حتى لا يثير غيابنا الشكوك.. اقتنعنا بوجهة نظرهم ، وحين هممنا بالانصراف علمنا أن قضاة العاصمة احتجزوا الفتاة ووالديها وخدمهم للاستجواب ، وأن خادمة الفتاة أخبرتهم أن صديقى كان يحوم ليل نهار حول بيت سيدتها. قامت قوات الشرطة - بناءً على هذه القرينة - بمداهمة المنزل للقبض علينا فلم تجد سوى آثار هروبنا مبعثرة فى أرجاء المكان ؛ وبهذا الشكل أدركت العاصمة بأسرها أننا منفذا الجريمة التى راح ضحيتها رجلان من علية القوم .. ظللنا مختبئين خمسة عشر يوماً، وفى نهايتها ارتأى صديقى الكونت والرهبان ضرورة مغادرتنا للدير : بصحبة أحدهم خرج زميلى متخفياً فى ثياب كاهن قاصدين إقليم "رغون" . كان ينوى مواصلة الهرب إلى إيطاليا ثم إلى "فلاندس" حيث يمكنه متابعة تطور الأحداث من بعيد . لم أشأ مرافقته حتى لا أربط مصيرى بمصيره ، ولذا أخذت طريقاً مغايراً : فى ثياب خادم قسيس خرجت - على قدمىّ - بصحبة راهب آخر ظل ملازماً لى حتى وصلنا إلى "طلبيرة" ومنها سرت بمفردى خارج الطريق العمومى حتى وجدت نفسى داخل هذا الدغل من أشجار البلوط حيث جرى لى ما عاينتموه. وإذا كان قد ورد على لسانى ذكْر "بينيا دى فرنسا" فهذا لأننى أردت الإجابة بشيء عما سألتنى عنه ؛ فأنا لا أعرف حقيقة موقعها بالتحديد ، وغاية علمى بها أنها تقع خلف مدينة "شلمنقة" بمسافة كبيرة.

- إنها بالفعل هكذا - رد عليه أندريس - لو سرت فى الطريق العمومى ستجدها على يمينك بعد حوالى عشرين فرسخاً من هنا (٣٤) .

---

(٣٤) يبدو أن أندريس ليس متأكداً من المسافة التى تفصله عن "بينيا دى فرنسا" ، فهو يقول هنا إنها حوالى عشرين فرسخاً بينما صرح قبلها أنها تزيد عن الثلاثين . (المترجم)

– لا أنوى الذهاب إليها – قال الشاب – بل إلى إشبيلية لمقابلة تاجر إيطالى من جنوة تربطه صداقة حميمة بالكونت قريبى ، وهو متخصص فى تجارة الفضة التى يرسل منها شحنات ضخمة وبصفة دورية إلى مسقط رأسه. آمل أن يخبئنى فى أحد الصناديق لأتمكن من الوصول إلى ميناء قرطاجنة (فى مملكة مرسية) ، ومنه إلى إيطاليا على متن سفينة من السفينتين المنتظر قدومهما قريباً إلى هذا الميناء لتحميل شحنات الفضة.. هذه هى حكايتى باختصار ، أيها الصديق ، وهى كما ترى مترعة بالمآسى والمصائب ولا تمت بصلة إلى لواعج الحب أو تباريح الهوى. ومن هنا إلى إشبيلية أتعشم أن يقبلنى هؤلاء السادة الغجر ضمن قافلتهم إن كانوا قد أزمعوا الرحيل إليها ، فأنا أظن أن السفر بصحبتهم سيبدد الخوف الذى يقضّ مضجعى وسيجعلنى أشعر بالأمان.

– لست أدرى إذا كان الغجر بمخيمنا سيشدون الرحال فى القريب العاجل إلى " أندلوثيا" أم لا ؛ لكنى أعتقد أننا سنمر بعد يومين على مخيم آخر للغجر ذاهب إلى هناك ولا أظن أنهم سيمانعون فى انضمامك إليهم مادمت ستعطيهم فى المقابل بعض ما لديك من مال.

تركه أندريس وعاد إلى الغجر ليخبرهم بحقيقة الشاب وبرغبته فى البقاء معهم للسفر إلى إشبيلية نظير مبلغ كبير من المال. رحب الجميع به فى المخيم فيما عدا بريثيوثا وجدتها. لم تفصح الأولى عن سبب رفضها ، أما الجدة فقد أرجعت استحالة اقترابها من إشبيلية أو نواحيها إلى مِزْحة من النوع الثِقيل جرت منذ عدة سنوات مع صانع قبعاتٍ وأغطية للرءوس مشهور بتلك المدينة ويدعى " تريجيُوس" [٣٥] . قالت إنها جعلته يدخل نفسه – عارياً كما ولدته أمه وعلى رأسه إكليل من أفرع شجر الصفصاف – فى خابية كبيرة مملوءة عن آخرها بالماء فى انتظار انتصاف الليل لكى يخرج من محبسه ويحفر بهمة لاستخراج كنز عظيم كانت العجوز قد أوهمته بأنه مدفون فى أحد أركان بيته ولا توجد طريقة لاستخراجه سوى الموصى بها.

---

(٣٥) تحقق النقاد والمؤرخون من شخصية "تريجيّوس" هذا ، وأثبتوا أنه كان يعيش فعلاً فى مدينة إشبيلية ويمارس صنعته المذكورة بها عام ١٥٩٩م . (المترجم)

عندما سمع صانع القبعات أجراس الكنيسة تعلن انتصاف الليل ، دفعته لهفة الخروج في الوقت المناسب إلى الارتطام بأحد جوانب الخابية فسقطت وهو بداخلها على الأرض. تناثرت الخابية أشلاءً مفْرغة محتواها على الأرض و "تريجيّوس" وسط الماء يسبح مشوشًا – من هوْل السقْطة ومن آلام الرضوض التى أحدثتها الشظايا بجميع أجزاء جسده – ويصرخ مستغيثاً لينقذوه من الغرق.

حضرت زوجته على الصراخ ولحق بها الجيران وبأيديهم القناديل فوجدوه منهمكاً فى تأدية حركات العائم : يشهق ويزفر بعمق ، يجرجر بطنه على الأرض وهو يحرك بأقصى سرعة ساعديه ورجليه وينادى بأعلى صوته : "النجدة ، النجدة ، إنى أغرق" .. لقد بلغ به الذعر مبلغاً جعله يتصور أنه يغرق بالفعل. أمسكوا به وانتشلوه من بين براثن ذلك الخطر ، وعندئذ ثاب إلى رشده وقص عليهم تعليمات الغجرية. ومع أنهم أخبروه أنها مجرد مزحة سخيفة إلا أنه نهض من فوره وشرع يحفر بهمة فى المكان الموصى به ، ولو لم يتداركه أحد الجيران ويمنعه بالقوة من مواصلة الحفر فى الأساسات لانهار البيت بكامله فوق رءوسهم جميعاً. انتشرت أنباء تلك الواقعة فى كافة أنحاء المدينة لدرجة أن الصبيان كانوا يشيرون إليه بأصابعهم حين يرونه ويتعجبون من حمقه ومن شدة دهائى وخبثى.

ما روته الغجرية العجوز كان عذراً أكثر من مقبولٍ لعدم الذهاب إلى إشبيلية ؛ ومن جهة أخرى فقد أسال المبلغ الكبير الذى يحمله الشاب لعاب الغجر ، ومن ثمّ فقد أعربوا دون تردد عن الترحيب به ضيفاً على مخيمهم ، وأبدوا استعدادهم لضمان سلامته وإخفائه طيلة الوقت الذى يريده ، بل إنهم تطوّعوا بتغيير مسار رحلتهم والانحراف جهة اليسار لاختراق إقليم "لامنتشا" والوصول به إلى مملكة مرسية.

نادوا بعد ذلك على الشاب وأخبروه بما سيفعلونه من أجله ، فشكرهم على حسن صنيعهم وأعطاهم على الفور مائة إسكودو لاقتسامها فيما بينهم.

كان لهذه المنحة مفعول السحر فى نفوس الغجر فأصبحوا يعاملونه بكل لطف ولين ولا يدخرون وسعاً فى العمل على راحته.. أما پريثيوثا فلم تكن مستريحة لوجود هذا الشاب الذى تبين أنه يدعى "دون سانتشو" ، لكن الغجر أطلقوا عليه "كليمنتى" وظلوا ينادونه به. أندريس أيضاً لم يسرّ كثيراً ببقاء كليمنتى لاعتقاده أنه لم يبرأ تماماً من إعجابه القديم ولم يتخلص من كافة رواسبه. كان كليمنتى من الذكاء بحيث أدرك

ما يعتمل فى صدر أندريس ، ومن ثمّ فقد انتهز فرصة حديث مطوّل معه ليصرح له وسط الكلام بأن غاية همّه هو الذهاب إلى مملكة مرسية ليستقل من مينائها فى قرطاجنة سفينة من السفينتين المتجهتين إلى إيطاليا. ومع هذا لم يسكن روع أندريس ولذا حرص على أن يكون زميله المصاحب له فى الحلّ والترحال حتى لا يغيب عن عينيه ويستطيع مراقبة حركاته وسكناته. شكر له كليمنتى هذا الصنيع دون أن يفطن إلى دواعيه. المهم أنهما أصبحا متلازمين منذ تلك اللحظة : كانا ينفقان بسخاء ويتصدقان عن سعة، يشتركان معاً فى الرقص وفى مسابقات العدْو والوثب ورمى الزّانة التى أظهرا فيها براعة منقطعة النظير ، ولهذه الأسباب مجتمعة هفت إليهما قلوب الغجريات واستأثرا باحترام رجالهن.

تركوا إقليم "إكستريمادورا " ودخلوا إقليم " لامنتشا" ، وبين توقّف وسَيْر على الطريق المؤدى إلى مملكة مرسية أخذوا يقتربون منها رويداً رويداً . وفى جميع القرى والأماكن التى يمرون بها كانت المسابقات تعقد (فى لعب الكرة والمبارزة بالشيش والعدْو والقفز وبقية ألعاب القوى التى تتطلب مهارة وخفّة) التى بات الفوز فيها حكراً على أندريس وكليمنتى (مثلما كانت من قبل حكْراً على أندريس) .. لم يجد كليمنتى طوال تلك الفترة التى زادت عن شهر ونصف أية فرصة (والحق يقال إنه لم يسع أيضاً لاختلاقها) للكلام مع بريثيوثا أو التوجه إليها بالحديث. وبينما كانت واقفة ذات يوم مع أندريس نادى عليه الأخير عندما شاهده يمر على مقربة منهما. لبّى كليمنتى النداء ، وعندما وصل إليهما قالت له بريثيوثا:

- عرفتك ياكليمنتى أول مرة رأيتك فيها داخل مضاربنا وتذكرت أشعارك التى كتبتها لى فى مدريد، وإذا كنت لم أقل عنك كلمة ساعتها فهذا لأننى لم أكن أعرف ما وراءك. آلمنى فى الصميم خبر نكبتك وإن كان قد أعاد الطمأنينة إلى قلبى الذى سيطر عليه الفزع لاعتقاده أن بإمكان "دون سانتشو" انتحال شخصية أخرى مادام "دون خوان" قد تحول قبله إلى أندريس. دفعنى لقول هذا علمى من أندريس أنه كشف لك عن حقيقته وعن الدافع لاتخاذه حياة الغجر ، ويبدو أنه أطلعك على سرّه ليستطيع التشاور معك وتبادل الأفكار حول هذا الموضوع. لا تظن ياكليمنتى أن معرفتى السابقة بك ضاعت هباءً ، يكفى أن احترامى لك وما أثنيت به عليك كان

سبباً فى بقائك بين ظهرانينا ، وإنى لأضرع إلى الله بأن توفر لك الإقامة فى مضارينا الحماية التى تنشدها وتحقق من خلالها أمانيك وما تسعى جاهداً إليه. وفى مقابل هذا الشعور الطيب من جانبى أتوسل إليك ألا تسفه أحلام أندريس وألا تعكرعليه صفو استمرار وضعه الحالى ، فأنا رغم اعتقادى أن إرادته ترزح مستكنة تحت أقفال إرادتى إلا إنه يحزننى أن أرى منه بادرة – ولو يسيرة – تنم عن إحساسه بالندم.

قال كليمنتى عندئذٍ :

– لا تظنى ، أيتها الجوهرة الفريدة ، أن أندريس كشف لى عن هويته لتخاذل اعتراه : هذا لأننى الذى تعرفت عليه أولاً ، ومن عينيه قرأت ما يرمى إليه. أنا الذى بادرت بإخباره من يكون ، وتكهنت بالغل الذى يطوق إرادته، وقد تصرف هو طبقًا لما يمليه العقل والمنطق وأصدقنى الجواب ، فما كان منى إلا أن قمت – وهو على هذا خير شاهد – بالثناء على قراره واختياره. أنا – آه ، يا بريثيوثا! – لست من السذاجة بحيث لا أدرك إلى أى مدى يمكن أن تتسع سطوة الجمال ونفوذه ؛ وجمالك يعتبر – لتجاوزه أقصى الحدود الممكنة للجمال – أشد الأعذار قبولاً لارتكاب أعتى الأغلاط، هذا إن حق لنا إطلاق لفظ أغلاط على التصرفات التى تفرضها الأسباب القهرية .. أشكر لك ، ياسيدتى ، ما قلته فى حقى ، ولا أملك الآن لرد هذا الجميل سوى أخلص الأمانى بالخاتمة البهيجة لقصة حبكما المعقدة ، وأن تسعدى بأندريس كما يسعد بك فى ظل موافقة ورضا والديه ؛ فتزاوج الجمال بنظيره يعنى إمداد العالم بأجمل الأفراخ (الأطفال) ، وهكذا تنعم الطبيعة بما تنشده من حسن وبهاء. هذا ما أتمناه لكما يا بريثيوثا ، وهذا ما سأقوله دومًا لأندريس ، ولن يرد على لسانى شىء يعكر صفو نواياه الرائعة الراسخة.

ساور الشك أندريس فى كلام كليمنتى السابق ، ولم يعد يدرى إذا كان قد تفوه به من منطلق هيامه أم من منطلق فطنته وتهذيبه ، ذلك لأن آفة الغيرة الجهنمية غاية فى الدقة بحيث تلتصق بذرات أشعة الشمس ، وعندما تسقط هذه الذرات على الشىء المحبوب تصيب من يقترب منه بالإجهاد والقنوط. ورغم ما تقدم ذكره إلا أن غيرة أندريس لم يكن لها ما يبررها ؛ لكن هذا هو حال العاشقين الذين يعتبرون أنفسهم

تعساء دائمًا طالما أنهم لم يظفروا بما يلهثون وراءه. خلاصة القول أن أندريس وكليمنتى أصبحا زميلين وصديقين عزيزين ، وهذا بفضل نوايا كليمنتى الحسنة وخفر بريثيوثا اللذين تكفلا بوأد أية فرصة يمكن أن توقظ الغيرة فى صدر حبيبها.

كانت موهبة الشعر ترفرف بجناحيها على كليمنتى (كما تشهد بذلك القصيدتان اللتان أهداهما لـبريثيوثا) وتداعب أندريس من عل ؛ لكن الاثنين كانا مغرمين بالموسيقى وعازفين ماهرين على آلاتها. ذات ليلة ، بينما كان أندريس جالسًا على جذع شجرة فلّين وكليمنتى على جذع شجرة بلّوط ، ساهرين يتجاذبان أطراف الحديث فى مخيمهم المنصوب بوادٍ يبعد أربعة فراسخ عن مرسية ، دعاهما صمت الليل وسكونه إلى أن يمسك كل منهما بـ " جيتار" والتغنى – على التوالى- بهذه الأشعار :

أندريس

تأمل ، ياكليمنتى ، الطُرحة المنجومة
التى ينافس بها النهار
هذه الليلة الباردة
فى ترصيع السماء بالأضواء المتلألئة
لو شحذت قريحتك البارعة ،
لرأيت على هذا الأنموذج ،
ذلك الوجه يظهر
على ديباجة الجمال الأمثل.

كليمنتى

على ديباجة الجمال الأمثل
حيث توجد بريثيوثا الشهيرة ،
العفة الأثيرة
فى سخاء تنقّى وتطهر ،
لو اتسعت لمثلها جنبات كائن حى ،
لن توفيها حقها من المديح عبقرية بشرية

ما لم تطلق لنفسها العنان
لتخوض فى الأعالى ، فى الغرائب والأعاجيب.

أندريس

لا يخوض فى الأعالى ، فى الغرائب والأعاجيب
إلا أسلوب لم يطرق بعد ،
ممتداً إلى عنان السماء ،
فى صراط لم يشهده العالم أجمع ،
اسمك ، آه يا بريثيوثا ! ،
يثير الدهشة والفزع والإبهار ،
أتمنى أن تحمله الشهرة
إلى السماء السابعة .

كليمنتى

حَمْلُه إلى السماء السابعة
مناسب وعادل ،
فعندما يتردد هنالك
يفيض الحبور على ما تحتها من سماوات ،
وفى الأرض أينما يسمع صداه ،
تنساب المتعة
موسيقى فى الآذان ،
سكينة فى الأرواح ونعيماً فى الحواس.

أندريس

سكينة فى الأرواح ونعيم فى الحواس
هكذا الإحساس عندما تصدح بالغناء
جنّية البحر ، التى تسحر الألباب
وتخدّر الجفون الأشد سهاداً
هكذا تكون بريثيوثتى ،

جمالها بعيض ما عندها :
عطيتى اللذيذة ،
إكليل للملاحة ، إجلال للحماسة.

كليمنتى

إكليل للملاحة ، إجلال للحماسة
تكونين ، غجرية جميلة ،
نضارة الصباح ،
فى الصيف القائظ النسائم العليلة
شعاع به يحول الحب الأعمى
برودة الصدور إلى غليان القدور
القوة التى صاغتها على هذا المنوال
تميت برفق وتبعث السرور .

لم يكن يبدو أنهما سينتهيان سريعًا لو لم يسمعا صوت بريثيوثا يجلجل خلف ظهريهما. توقفا وأصاخا السمع للقصيدة التى تتدفق على لسانها العذب. ولأن موضوع القصيدة كان مناسباً للموقف ويعتبر رداً على أشعارهما السابقة ، فلا أدرى إذا كانت مرتجلة أم أنها حفظتها من قبل عن شاعر آخر. وسواء كان هذا الأمر أو ذاك فها هى القصيدة التى تغنت بها :

-فى قضية الحب تلك
التى نلهو بها ونتسلى ،
عفا فى لحسن طالعى
أعلى شأناً من جمالى.
فالنبتة الأشد ضعفاً
لو نمت فى استقامة دون اعوجاج ،
بفضل الله أو الطبيعة
سترقى يوماً إلى عنان السماء.
معدنى النحاسى المتواضع
مادامت العفة طلاءه

لم تعد تنقصه الأمانى
ولا هو بحاجة إلى الثروات.
لا يسبب لى أدنى كدر
ألا يهوانى أحد أو يقدرنى حق قدرى
لأننى على يقين أن الذى صاغنى
هو نصيبى وحظى الأسعد.
أهتدى بما هو مكنون بداخلى
لأنه إلى جادة الصواب سيرشدنى
وليس لى بعد ذلك الاعتراض
على تدبير السماء وما تخطُّه الأقدار.
ليتنى أعرف وأتحقق
مما إذا كان بمقدور الجمال
حملِى إلى القمة العالية
حيث تشرئب النفس إلى المنزلة السامية.
إذا كانت الأرواح فى الخلق متساوية ،
فلن تعجز الكائنة فى صدر الفلاّح
عن الرقى فى الفضل والقيمة
إلى مصاف أرواح الأباطرة .
أحس بأن روحى توّاقة
للسموّ إلى الدرجة العليّة
والحب والجلال
على مقعد واحد لا يستويان.

عندما انتهت بريثيوثا نهضا لاستقبالها ، وأمضى ثلاثتهم بعض الوقت فى تبادل الأحاديث المتزنة المتعقلة. ومن مداخلات بريثيوثا التى تنم عن الفطنة والعفة وحدّة الذكاء وضح لكليمنتى سر تمسك صديقه بها والتمس له العذر فيما عقد عليه العزم ، وقد كان حتى تلك اللحظة متحيراً من مسلكه هذا ويظنه استجابة لطيش الشباب لا لنداء العقل والحكمة.

لملموا حاجياتهم فى صباح اليوم التالى ويمموا شطر قرية من أعمال مرسية ولا يفصلها عنها سوى ثلاثة أميال ، وبها حلّت بأندريس كارثة كادت تودى بحياته .. حدث بعد قيامهم - كما جرت العادة - بتقديم عدد من الأكواب والتحف الفضية لإقامة مضاربهم بالقرية أن توجهت مجموعة تضم بريثيوثا وجدتها وكريستينا وغجريتين أخريين علاوة على أندريس وكليمنتى إلى خان أرملة غنية لها ابنة وحيدة تبلغ من العمر سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً على الأكثر وتُدعى "خوانا" . كانت الفتاةقليلة الحياء بعض الشيء ولا تنعم بحظ من الجمال ، وفوق هذا عجفاء ولذا استحقت بجدارة لقب "كاردوتشا" (٣٦) الذى أطلقوه عليها..حين شاهدت الفتاة الغجر يرقصون عشقت أندريس وجن جنونها به. زين لها الشيطان ضرورة الانفراد به للإفصاح عما يعتمل بصدرها من أشواق ولطلب الزواج منه ، إذ كانت تنوى المضى قُدمًا فى تنفيذ رغبتها رغم أنف أهلها ؛ وهكذا انتهزت فرصة دخوله الحظيرة لإحضار جحشين منها وتسللت خلفه لتعرض عليه دون مقدمات - خوفاً من اقتحام أحد خلوتهما - ما يلى :

- أندريس (نادته باسمه مجرداً) ، أنا آنسة غنية ، وحيدة أمى التى تمتلك هذا الخان فضلًا عن مزارع عديدة من الكروم وبيتين آخرين. أرغب فى الزواج منك لو وافقت. أريد الرد حالاً إن تيسر، أما إذا كان حياؤك يمنعك الآن من التصريح بالموافقة فإننى سأعتبر اختيارك للبقاء وعدم الرحيل بمثابة موافقة ضمنية ، وثق تمامًا أنك لن تندم طيلة حياتك على اتخاذك مثل هذا القرار الإيجابى.

بُهت أندريس من جرأة الفتاة ورعونتها ، وفضّل الإجابة عليها بالسرعة التى تنشدها:

- أنا ، أيتها الفتاة ، عازف عن الزواج ، وحتى لو لم أكن كذلك فنحن معاشر الغجر لا نتزاوج إلا فيما بيننا . أما المعروف الذى تتفضلين به علىّ ولا أستحقه فلا أملك حياله سوى التوجه إلى الله بالدعاء لكى يجزلك عظيم ثوابه.

---

(٣٦) "كاردوتشا " Carducha تعنى مِمْشطة أو مِنْدفة من الحديد . (المترجم)

صعقتها إجابة أندريس وكانت على وشك الرد عليه لو لم تدخل عليهما الحظيرة طائفة من الغجريات. انسحبت وهى تشتاط غضباً وفى نيتها الانتقام للإهانة ..

أملت الحكمة على أندريس ضرورة الفرار على جناح السرعة وحثّ جن سليمان على حمله إلى أرض غير الأرض لأنه قرأ فى عينى "كاردوتشا" عزمها على تسليم نفسها له حتى بدون عقد زواج ؛ ومن ثمّ فقد أزمع ترك ساحة النزال والنكوص على عقبيه موليًا الأدبار.. طلب من قومه فى تلك الليلة ضرورة مغادرة المكان ، فلم يعصوا له – كالعادة – أمراً. وعلى هذا استعدوا صبيحة اليوم التالى للرحيل بعد استردادهم للرهن الذى قدموه نظير إقامتهم بتلك القرية المشئومة .

ولما أبصرت "كاردوتشا" أحلامها تتهاوى ورغباتها تتبخر برحيل أندريس قررت العمل على إبقائه بالقوة مادامت لم تستطع بالطرق الودية. وهكذا استعانت بكل ما أسعفها به خيالها المريض وهدتها الحيلة إلى دسّ بعض حليّها (خرز ، دبابيس وخلخالين من الفضة) فى رحْل أندريس. لم يكد الغجر يغادرون الخان حتى زعقت بأعلى صوتها متهمة إياهم بسرقة أغراضها الشخصية ؛ وعلى صراخها تجمع رجال العدالة وجميع منْ بالقرية من سكان.

أمسك الغجر عن السير ، وأقسموا جهد أيمانهم بالبراءة وطهارة اليد ، كما أعربوا عن استعدادهم لتفتيش رحالهم وكافة متعلقات المخيم. اغتمت الغجرية العجوز لخوفها من أن تظهر عملية التفتيش حاجيات بريثيوثا الخاصة وملابس أندريس وقد اجتهدت فى إخفائهما عن كافة العيون .. كانت "كاردوتشا" تنتظر متوثبة ، وعندما وصلوا إلى الرَّحْل الثانى طلبت من المفتشين السؤال عن صاحبه لأنها رأت مرتين ذلك الرّاقص الرشيق يتسلل خارجًا من غرفتها ومن المحتمل أن يكون هو الفاعل . عندما أدرك أندريس أنها تقصده ضحك قائلاً:

– أيتها الآنسة الموقرة ، هذا هو رَحْلى وهذا حمارى ، لو عثرت على ما ينقصك سأعوضك بسبعة أمثاله نقداً وسأتقبل بصدرٍ رحب العقَوبة التى يوجبها القانون على اللصوص.

قلّب مسئولو العدالة رحْل أندريس ، وما هى إلا لحظات حتى عثروا على المسروقات. ألجمت الدهشة لسان أندريس وبدا مثل تمثال من الحجارة الصماء.

- ألم تكن شكوكى فى محلها ؟ - قالت كاردوتشا فى نبرة تهكم - من كان يظن أن هذا الوجه البرىء يخفى وراءه لصاً مخضرماً!

انبرى العمدة - الذى كان حاضراً - فى سب أندريس وبقية الغجر بأقذع الشتائم ونعْتهم باللصوصية وقطع الطريق . لم يكن أندريس قد أفاق بعد من دهشته ، وظل مطرقاً يفكر دون أن يفطن إلى الخديعة. تقدم ابن أخت العمدة - وهو شرطى عبوس متين البنيان - ليدلى بدلوه هو الآخر . قال :

- ألا ترون ما حل بهذا الزنيم حين بانت فعلته الكريهة ؟ ومع أننا ضبطناه متلبساً أراهن على أنه لن يتورع عن الحلف بأغلظ الإيمان نافياً التهمة عن نفسه ؛ ما خلق هؤلاء إلا للعمل على مجاديف السفن. أليس من الأفضل لمثل هذا الوغد الخدمة على سفن صاحب الجلالة بدلا من التسكع بالرقص وممارسة هوايته فى النشل هنا وهناك ؟ إن شرف الجندية يحتم علىّ أن أصفعه صفعة تكومه تحت قدمىّ.

قال ذلك ثم رفع - دون مقدمات - كفه الضخم وهوى به على وجه أندريس الذى أعادته اللطمة من شروده وجعلته يتذكر أنه "دون خوان" الفارس المقدام ، لا ذلك الغجرى المدعو "أندريس كابابيرو" . هجم حانقًا على الشرطى ، وفى طرفة عين امتدت يده لتستل سيف غريمه من غمده وتطعنه به طعنة أسقطته على الأرض ميتاً.

حدث هرج ومرج شديدان : تكهرب العمدة (خال القتيل) ؛ سقطت بريثيوثا مغشياً عليها وأربكت بإغمائها حبيبها ؛ أخرج الناس أسلحتهم وطاردوا القاتل .. زادت البلبلة ؛ تعالى الصياح ؛ ولانشغال أندريس ببريثيوثا أهمل الدفاع عن نفسه ، وشاء حظه العاثر ألا يكون كليمنتى حاضراً لأنه كان قد سبقهم إلى الخروج ومعه بعض الحاجيات.. تكاثر المتحمسون على أندريس المرتبك وأوقعوا به فى النهاية وقيدوه بسلسلتين غليظتين . لو لم تكن القرية واقعة فى دائرة مرسية القضائية لأشفى العمدة غليله وشنق القاتل بيديه. لكنهم لم يحملوه إلى مرسية فى اليوم نفسه بل فى اليوم التالى ، وخلال تلك الفترة التى ظل فيها محجوزاً بالقرية ذاق - على يد العمدة المتوثب وزبانيته وكافة السكان - شتى صنوف التعذيب والإهانات .. قبض العمدة

على منْ طالته يده من الغجر بينما تمكن آخرون (من بينهم كليمنتى الذى خاف من افتضاح أمره لو أمسكوا به) من الفرار بجلودهم..

فى اليوم التالى ، وفى حراسة العمدة ومساعديه ومتطوعين مسلحين ، اتجهت إلى مدينة مرسيه قافلة [٣٧] تضم المقبوض عليهم من الغجر تتوسطهم بريثيوثا وأندريس الذى كان ممتطياً حماراً ومطوقًا بالأغلال والسلاسل. خرجت المدينة عن بكرة أبيها لرؤية السجناء بعدما وصلها خبر جريمتهم ، ولم يشاهد فرد فيها جمال بريثيوثا إلا ولهج بالثناء على قدرة الخالق وبديع صنعه.. دفع الفضول امرأة القاضى لرؤية الفتاة التى يسبح الناس بحمد جمالها ، ومن ثمّ فقد طلبت من زوجها عدم الزج بها فى السجن مع الآخرين وإحضارها إلى بيته .. حبسوا أندريس فى زنزانة ضيقة مظلمة تصور أنه لن يخرج منها إلا إلى مثواه الأخير فى لحدٍ تحت الأرض. حملوا بريثيوثا وجدتها إلى امرأة القاضى التى استقبلت الفتاة بقولها:

– لديهم كل الحق فى الإشادة بهذا الجمال الرائع.

احتضنتها زوجة القاضى وظلت تحدق فيها لفترة طويلة ، ثم التفتت إلى جدتها وسألتها عن عمرها:

– خمسة عشر عاماً – أجابت العجوز –، قد تزيد شهرين أو تنقص مثلهما.

– إنه عمر ابنتى كوستانثا لو كانت على قيد الحياة. آى ، صديقاتى ! لقد أثارت هذه الفتاة شجونى وجددت أحزانى – قالت زوجة القاضى.

أخذت بريثيوثا يديها وغمرتهما بالقبلات راجية متوسلة :

– سيدتى الفاضلة ، الغجرى السجين لا ذنب له ، الآخر هو الذى استثاره : ناداه باللص وهو ليس كذلك ، صفعه على وجهه فتحركت نخوته ولم يتمالك نفسه. استحلفك بالله ياسيدتى أن تطلبى من القاضى تأجيل محاكمته وعقابه. إذا كان لجمالى شفاعة عندكِ لا تجعليه يعجل بالخلاص منه لأن حياتى مرتبطة بحياته. كان سيصبح زوجى لولا بعض العوائق

---

(٣٧) قافلة Cáfila من المفردات العربية التى احتفظت بها اللغة الإسبانية ، وقد استخدم الكاتب الكثير من هذه المفردات فى جميع أعماله مما يشير إلى ذيوعها فى عصره ، ولذا نوجه عناية الدارسين إلى أهمية هذه الظاهرة فى مؤلفات كاتب كبير مثل ثربانتس. (المترجم)

التى منعتنا حتى الآن من تتويج تعاهدنا بالزواج. لاشك أنك تعرفين ، ياسيدتى ، معنى الحب ولوعة الفراق ، فأنتِ زوجة وكنت خطيبة ، ولذا ستأخذكِ الشفقة بى لو عرفتِ أننى أحب السجينَ حباً طاهراً عَفيفاً .

كانت بريثيوثا تقول لها هذا وهى متشبثة بيديها ، تحملق فيها والدموع تنساب بغزارة من مقلتيها ؛ ولم تكن امرأة القاضى أقل منها تشبثًا وتحديقًا ودموعاً . فوجئ القاضى عند دخوله عليها بهذا المشهد الحزين الباكى وبجمال الغجرية الصارخ فاعترته الدهشة. سأل عن سر هذه المناحة ، فما كان من بريثيوثا إلا أن تركت يدى امرأته لتمسك بقدميه وهى تقول له :

– الرحمة ياسيدى، الرحمة ! لو مات الغجرى ستُقبض روحى معه إلى بارئها. إنه برىء. أنا المذنبة ، وإذا لم تستطع محاكمتى بدلاً منه فلترجئ النظر فى قضيته لعل السماء تأتى بالفرج ونتمكن من الاهتداء إلى الوسائل الناجعة لتبرئته.

تجددت دهشة القاضى من جراء كلامها الرشيد الموجِع ، ولو لم يتمالك نفسه لاعتراه الضعف وشاطرها البكاء. كانت الغجرية العجوز مطرِقة الرأس ، تناوشها الأفكار ، وبعد كثير من إعمال الفكر والتدبر خرجت من صمتها المطبق بقولها:

– على رسلكم أيها السادة ، فلربما كان بوسعى – رغم احتمال خطورته على حياتى – تحويل هذا البكاء المرّ إلى بهجة وسعادة.

خرجت متعجلة وتركت الحاضرين مشوشين ، يضربون أخماسًا فى أسداس. لم تكف بريثيوثا عن البكاء والتوسل بإرجاء محاكمة أندريس ، وفى نيتها إبلاغ والده بما حدث واستعجال قدومه.. عادت العجوز وهى تتأبط صندوقًا صغيراً وطلبت الانفراد بالقاضى وزوجته لاطلاعهما على سرٍّ خطير. ظنّ القاضى أنها تريد الكشف عن بعض المسروقات التى تفيد فى نظر قضية السجين ، وما إن خلَت بهما العجوز فى غرفة مستقلة حتى جثت على ركبتيها أمامهما وقالت :

– إذا لم يكن السر الذى أبوح به الآن يستحق إعفائى من الجُرم الذى اقترفته ذات يوم فأنا على أتم الاستعداد لقبول العقوبة التى ترونها ؛ لكن قبل هذا ، ألا يمكنكما التعرف على محتويات هذا الصندوق ؟

وضعت الصندوق الخاص بـپـريثيوثا بين يدى القاضى ، وعندما قام بفتحـه لم يجد سوى بعض الحلىّ الصغيرة التى تخص البنات حديثات العهد بالولادة . لم يفطن إلى العلاقة بين محتوياته وبين السرّ الذى تتحدث عنه. نظرت إليها زوجته ولم تدرك هى الأخرى ما وراءها من أسرار ، ولذا لم تُعلّق على ما رأته بأكثر من الآتى :

– إنها تخص طفلة صغيرة .

– إنا حقًاكذلك ياسيدتى – ردت العجوز –؛ لكن عن أية طفلة تتحدث هذه الورقة المطوية ؟

تناولها القاضى بسرعة وقرأ ما يلى :

"اسم الطفلة : دونيا كوستانثا دى أثبيدو إى دى مينيثيث. الأم : دونيا جيومار دى مينيثيث. الأب: دون فرناندو دى أثبيدو ، فارس أخوية قلعة رباح. اختفت الطفلة من بيت أبويها ومعها صندوق حليّها يوم صعود الرب ، فى الثامنة صباحًا ، عام ألف وخمسمائة خمس وتسعين" .

تعرفت امرأة القاضى – فور سماعها للمدون فى الورقة – على الحلى الصغيرة. رفعتها عندئذٍ إلى فمها وراحت تقبلها آلاف المرات ، ثم سقطت على الأرض مغشياً عليها. خفّ القاضى لنجدتها ونسى سؤال الغجرية عن ابنته ، وعندما ثابت الزوجة إلى رشدها سألت :

– أيتها المرأة الطيبة والملاك الهابط من السماء ، أين صاحبة هذه الحلىّ ؟

– وأين ستكون ياسيدتى ؟ – ردت الغجرية – إنها هنا ، فى بيتكم : الغجرية الصغيرة التى انتزعت منكم الدموع هى صاحبة الحلىّ وابنتكم دون أدنى شك ، لقد سرقتها من بيتكم فى مدريد فى التاريخ الموضح بالورقة.

حين سمعت هذا السيدة المضطربة المشوشة قفزت حافية إلى الصالة حيث تركت پريثيوثا فوجدتها محاطة بوصيفات البيت وخادماته ، مازالت تبكى. اقتربت منها، ودون أن تنطق بكلمة كشفت – فى لهفة – عن صدرها وبحثت تحت نهدها الأيسر عن علامة صغيرة ، على شكل شامة بيضاء كانت مولودة بها ، فوجدتها فى مكانها كبيرة ومنبسطة بفعل مرور الزمن. قامت بعد ذلك – وباللهفة نفسها – بخلع الفردة

اليُمنى من حذائها فكشفت عن قدم من الثلج والعاج ورأت فيه ما كانت تبحث عنه : لحْمة تصل بين الإبهام والسبّابة كانوا قد تركوها هكذا ، دون إزالة ، حرصاً منهم علي عدم إيلامها بجراحة فى تلك السن الصغيرة.. من توافر كل هذه الأدلة (الشّامة، اللُحْمة، الحليّ الصغيرة ، اعتراف الغجرية ، الورقة التى تِشير إلى تاريخ سرقتها ، وفوق هذا وذاك الإحساس بالفزع والنشوة عند رؤيتها) وقَر فى قلب امرأة القاضى وعقلها أن پريثيوثا هى ابنتها دون شك ؛ وهكذا قامت على الفور باحتضانها والعودة بها إلى حيث ينتظر القاضى والغجرية العجوز.

مشت پريثيوثا مع امرأة القاضى ذاهلةٍ : من التفتيش الغريب الذى خضعت له ، ومن تأبطها لذراعها، ومن غمرها بآلاف القبلات. وصلت "دونيا جيومار" بالحمولة الرائعة الجميلة إلى زوجها وألقتها بين ذراعيه قائلة:

– استلم ابنتك "كوستانثا " . إنها هى ، لا جدال ، لا يخامرنى أدنى شك فى تلك الحقيقة لأننى شاهدت الإصبعين الملتصقين وشامة الصدر ، ناهيك عما تحدثنى به نفسى منذ اللحظة التى وقعت فيها عيناى عليها.

– لا أشك فى هذا – أجاب القاضى و پريثيوثا بين ذراعيه – فقد خامرنى الإحساس نفسه ، لكن كيفٍ يمكن للعديد من البراهين والأدلة القطعية الاجتماع فى وقتٍ واحدٍ ، ألا يعتبر هذا من قبيل المعجزات ؟

أُشكل على جميع أهل الدار وطفقوا يسألون بعضهم البعض عن حقيقة ما يجرى حولهم ، لكن تفسيراتهم كانت جميعها طائشة ومجافية للصواب. أكان باستطاعة أحد تصور أن تلك الغجرية الباكية ما هى إلا ابنة صاحبىَ الدار ؟ !

طلب القاضى من امرأته وابنته والغجرية العجوز كتمان السر حتى يتولى هو الكشف عنه ، كما هدّأ من روع العجوز وأخبرها بتغاضيه عن الضر العميم الذى ألحقته به نتيجة لِسرقتها حشاشة قلبه، لأنه وإن كان بالغاً إلا أن الفرحة بعودتها إليه قد تَعْدِله ، لكنه وبّخها على تزويجها من غجرى لص وقاتل وهى تعلم طيب منبتها وعراقة أصلها.

– آه ، ياسيدى – قالت پريثيوثا – ، ما هو بلص ولا غجرى ، وإن كان قاتلاً فلأن الآخر هو الذى اعتدى على شرفه ودفعه دفعاً لرد اعتباره.

– كيف لا يكون غجرياً ، يابنتى ؟ – سألت "دونيا جيومار" .

تصدت الغجرية العجوز للإجابة وروت بإيجاز حكاية "أندريس كابابيرو" وقالت إن اسمه الحقيقى "دون خوان دى كاركامو" ، ابن "دون فرانثيسكو دى كاركامو" ، وأنه مثل أبيه فارس فى أخوية "سنتياجو" المقدسة ، وأنها مازالت تحتفظ بملابسه الأصلية. كما أشارت إلى الاتفاق المبرم بين بريثيوثا وبين "دون خوان" بشأن فترة الاختبار التى تمتد سنتين ، وعلى ضوئها يقرران الزواج من عدمه. ولم تغفل إبراز عفّة الاثنين وطهارتهما وسعة ثراء "دون خوان" وكرم أصله.

أثارت القصة دهشتهما مثلما أثارتها من قبل كيفية العثور على ابنتهما. أمر القاضى العجوز بإحضار ملابس "دون خوان" . خرجت ثم عادت بصحبة غجرى آخر يحمل الملابس.

فى الفترة التى قضتها العجوز بالخارج لإحضار الملابس تلقّت بريثيوثا من والديها أسئلة لا تحصى. كانت إجاباتها الفطنة الذكية كفيلة بأن تجعلهما يحبانها ويتعلقان بها حتى ولو لم يكتشفا أنها ابنتهما. سألاها – على سبيل المثال – عن شعورها تجاه "دون خوان" فقالت إنها تقدّر فيه سلوكه الرشيد وتفانيه فى خدمتها وتحوّله (على ما فيه من إهانة لشخصه الكريم) إلى غجرى من أجل إرضائها ، وبرغم كل هذا فإنها ستذعن ممتنة لإرادة والديها ولما يقررانه بشأنها.

– كفى يا بريثيوثا يابنتى – قال أبوها – أريد أن تحتفظى بهذا الاسم تخليداً لذكرى فقْدك والعثور عليكِ ، ولن أدخر وسعًا من جهتى لتعويضك عما فاتك.

تنهدت بريثيوثا ، فأدركت أمها – بحسها الأنثوى – أنها تنهيدة حب لدون خوان ، وعندئذٍ قالت لزوجها :

– إذا كان "دون خوان" سيداً من السادة ويحب ابنتنا بهذا الشكل ، فما المانع من تزويجها له ؟

ردّ عليها القاضى بقوله :

– أتريدين أن نفقدها ثانية يوم عثورنا عليها ؟ دعينا نستمتع بها لبعض الوقت. لو زوجناها الآن لن تكون لنا ، بل لزوجها.

- معك الحق كله - قالت زوجته - لكن مُرْ - على الأقل - بإخراج "دون خوان" ، لابد أن المسكين يعاني داخل زنزانة كريهة.

- صدقت ياأماه - قالت بريثيوثا - ، فلن يُنزلوا لصًا قاتلاً ، وفوق هذا غجرياً ، إلا أحقر المنازل وأبشعها.

- سأذهب لرؤيته بحجة أخذ اعترافه - قال القاضى -، وإياكم وإفشاء مضمون هذه القصة قبل أن آذن لكم.

عانق ابنته ثم ذهب إلى السجن ، دخل بمفرده زنزانة "دون خوان" فوجده مقيّد اليدين والرجلين بالسلاسل والأصفاد والطوْق الحديدى مازال جاثمًا حول رقبته.. كانت الزنزانة مطبقة الظلام فأمر - حتى يراه - بفتح كوّة عالية كانت بها. عندما شاهده على الضوء الخافت المتسلل من الكوّة قال له :

- كيف حال الزنزانة الطيبة ؟ لو حبستِ فيها الغجر الموجودين بإسبانيا لتخلصت منهم جميعًا دون جهد أو عنت مثلما أراد "نيرون" أن يفعل بمدينة روما. اعلم ، أيها اللص القاتل، أننى قاضى المدينة وقد أتيت لأعرف منك إذا كانت إحدى الغجريات التى قدمت معكم هى فعلًا زوجتك.

حين سمع هذا أندريس ظنّ أن القاضى وقع فى غرام بريثيوثا ، هذا لأن الغيرة كائن دقيق بإمكانه التسلل إلى بقية الأجساد دون تحطيمها ، والحلول بها دون تفتيتها ، ورغم هذا أجابه:

- لو قالت إنها زوجتى فهى صادقة ، ولو قالت غير هذا فهى أيضًا صادقة ، فمن المستحيل أن يجرى الكذب على لسان بريثيوثا.

- أهى صادقة إلى هذا الحد ؟ - سأل القاضى - أليس هذا بكثير على غجرية مثلها ؟ حسناً، أيها الفتى ، لقد أخبرتنى أنها زوجتك لكنها لم تعطك يدها، ولذا طلبت منى إتمام زواجكما بعدما أيقنت أنك ستموت عقاباً على جريمتك. يبدو أنها تريد أن تنعم بشرف الترمُّل من لص كبير مثلك.

- أتوسل إليك أن تلبى رغبتها، فلو تزوجتها سأرحل سعيداً إلى العالم الآخر.

- أتحبها كثيراً ؟

- نعم – أجاب السجين –وإن كانت كلمة كثيراً لا تفى بالمعنى هنا. حقا، أيها القاضى ، إن نهايتى غدت وشيكة. لقد قتلت ذلك الشرطى الذى اعتدى على شرفى ، ولا أنكر هيامى بتلك الغجرية ، ولذا سأموت راضياً مسروراً لو فارقت الحياة ونحن موثقون برباط الزواج المقدس الذى ستباركه السماء دون شك ، لأن كلينا حافظ بعفة وطهارة وإخلاص على ما سبق وتعاهدنا عليه.

- سأجعلهم – قال القاضى – يحضرونك هذه الليلة إلى بيتى لأزوجك ، وغداً فى منتصف النهار ستكون معلقًا فى حبال المشنقة ، وبهذا الشكل أكون قد أوفيت للعدالة حقها ونفذت – فى الوقت نفسه – رغبتكما.

ـ شكره أندريس ، وعاد القاضى إلى بيته ليُخبر زوجته بما فعله مع السجين وبأشياء أخرى ينوى إخراجها إلى حيز التنفيذ.

روت بريثيوثا لأمها – خلال الوقت الذى تغيبه القاضى – تفاصيل كثيرة عن حياتها السابقة ، وكيف أنها ظلت تعتقد طوال تلك السنوات أنها غجرية وحفيدة للعجوز ، وأنها رغم هذا كانت حريصة على تغيير الصورة الكريهة التى يختزنها الناس فى مخيلتهم عن الغجر.

سألتها والدتها إذا كانت تحب فعلاً "خوان دى كاركامو" . أجابتها – خجلة، مطرقة الرأس – إن اهتمامها بتحسين وضعها الاجتماعى والمعيشى بالزواج من فارس حسيب نسيب مثل دون خوان جعلها تنظر إليه بعين الرضا، خاصة بعد التجربة التى أثبتت لها حسن شمائله وعفته فى التعامل ؛ ومع هذا فلن تتعارض إرادتها بأى حال – كما سبق وأعلنت – مع إرادة والديها، وإنها ستقبل راضية ما يقررانه بشأنها.

حلّ المساء، وفى حوالى العاشرة أخرجوا أندريس من السجن بعد أن نزعوا الطوق الحديدى من على رقبته، وإن كانوا قد تركوا سلسلة كبيرة تبدأ من رجليه وتلتف حول جسده بأكمله. وصل على هذه الصورة – دون أن يراه أحد سوى الذين أحضروه – إلى دار القاضى حيث أدخلوه فى هدوءٍ وحذرٍ إحدى الغرف ثم تركوه فيها وحيداً وانصرفوا. دخل بعدهم بفترة وجيزة قسيس وطلب منه الاعتراف لأنه سيلقى حتفه فى اليوم التالى. رد عليه أندريس :

- سأعترف عن طيب خاطر ، لماذا لا تزوجوننى أولاً ؟ فأنا – وأسفاه – لن أنعم مثل بقية الأزواج بليلة دخلتى .

نصحت "دونيا جيومار" زوجها بعدم التمادى فى ترويعه حتى لا يودى الفزع بحياته. عمل القاضى بمشورتها ودخل على القسيس ليطلب منه عقد قران السجين على بريثيوثا أولاً ثم يتلقى اعترافه بعد ذلك ، كما أوصاه بالدعاء الخالص له لأن رحمة الله واسعة وفى كثير من الأحيان تغمر بفيضها العباد فى أوقات اليأس والقنوط التى جفّ فيها نبع الأمل.

خرج أندريس إلى الصالة حيث ينتظر القاضى وزوجته وبريثيوثا وخادمان آخران من العاملين بالبيت .. حين رأته بريثيوثا مطوقًا بالسلسلة الضخمة ، شاحب الوجه وعلى عينيه آثار الدموع ، وضعت يدها على قلبها وألقت بنفسها بين ذراعى أمها التى كانت واقفة إلى جوارها. احتضنتها الأم وقالت لها:

– عودى إلى رشدكِ ياصبية ، لا تنزعجى لأن ما ترينه سيتساقط عليكِ فى النهاية رطباً جنيًا.

لم تجد العزاء والسلوى فى كلمات أمها لجهلها بمغزاها.. كانت الغجرية العجوز مشوشة مضطربة، وباقى الحاضرين ينتظر على أحرّ من الجمر ما سيسفر عنه هذا المشهد الرهيب.

تدخل القاضى قائلا :

– نيافة الضابط القسيس ، هذا الغجرى وهذه الغجرية هما اللذان ستتولى عقد قرانهما.

– لا يمكننى القيام بهذا العمل ما لم تُستَوفَ الإجراءات الضرورية لذلك. فأين إعلان الكنيسة برغبتهما فى الزواج ؟ وأين تصريح رئيسى بعقد القران ؟

– لقد فاتنى هذا – أجاب القاضى – لكنى أعدك بأن أجعل القاضى الكنسى يزودك فيما بعد بالمستندات اللازمة.

– قبل رؤيتها لا يمكننى عمل شىء – ردّ القسيس الضابط – ومن ثمّ ليأذن لى السادة الحضور بالانصراف.

ودون إضافة كلمة أخرى ، حتى لا تحدث فضيحة ، خرج من الدار لا يلوى على شىء وتركهم فى حيْص بيْص.

- خيراً فعل أبونا – قال القاضى – ربما شاءت العناية الإلهية إطالة فترة تعذيب أندريس لأن الإعلان عدة مرات فى الكنيسة عن رغبة شخصين فى الزواج يتطلب وقتًا ليس بالقصير ، وطول الوقت يتمخض عادة عن نهاية سعيدة للأحداث المريرة ، لكن ما يهمنى الآن هو معرفة رد أندريس على ما يلى : لو كان زواجه سيتم فى ظروف عادية دون مسلسل الرعب هذا ، فهل كان سيسعد به أكثر لو كان "أندريس كابابيرو" أو "دون خوان دى كاركامو" ؟

حين سمع أندريس اسمه الحقيقى رد قائلاً :

- بما أن پريثيوثا قد تجاوزت حدود الصمت وكشفت عن هويتى ، فلا مفر من الاعتراف بأننى سأكون فى كلتا الحالتين راضياً وسعيداً بقسمة السماء مادامت ستبلغنى منتهى أملى.

- لا يسعنى إزاء هذه الروح الأبيّة الشريفة – قال القاضى – إلا أن أعدك يا "دون خوان دى كاركامو" بالزواج فى حينه من بريثيوثا ، وأن أعلن عن قبولى بتسليمك الآن أغلى جوهرة فى حياتى ، وعليك أن تقدرها حق قدرها لأننى أعطيك من خلالها "دونيا كوستانثا دى مينيثيث" ابنتى الوحيدة ، فهى وإن كانت تعدلك فى الحب فإنها لا تقل عنكَ أصلاً ولا نسباً .

دُهشَ أندريس لما سمع، لكن "دونيا جيومار" قصّت عليه بإيجاز حكاية ضياع ابنتها والعثور عليها، فضاعفت القصة من دهشته الممزوجة هذه المرة بالفرحة الغامرة.. عانق حمويه مخاطباً إياهما بوالدىّ وسادتى ثم قبل يد پريثيوثا وطلب – والدموع تنهمر من عينيه – موافقتها على الزواج منه.

انفرط السر ، وخرج النبأ من الدار بخروج الخدم الذين شاهدوا ما جرى. عندما عرف العمدة – خال القتيل – أدرك أن جميع طرق الانتقام قد سدت فى وجهه لأنه من غير المعقول التوجه إلى العدالة بطلب القصاص من صهر القاضى.

ارتدى "دون خوان" ملابسه الأصلية التى أحضرتها الغجرية ، وتحول السجن والأغلال الحديدية إلى حرية وأساور ذهبية ، كما تحول حزن الغجر السجناء إلى

فرحة لأنهم استردوا - بكفالة - حريتهم فى اليوم التالى .. تلقى خال القتيل وعداً بألفى دوكادوس مقابل تنازله عن الدعوى والعفو عن "دون خوان" . لم ينس الأخير فى غمرة الأحداث المتلاحقة زميله كليمنتى وأرسل فى طلبه ؛ لكنهم لم يعثروا له على أثر حتى جاءهم بعد أربعة أيام خبر يفيد ركوبه من ميناء قرطاجنة سفينة من السفينتين المنطلقتين صوب إيطاليا.

قال القاضى لدون خوان إن خبراً مؤكداً وصله يفيد بتعيين والده قاضيًا على مرسية ، وسيكون من الأفضل انتظاره للحصول على موافقته ومباركته لعقد القران.

ردّ عليه " دون خوان" قائلاً إنه لا يستطيع الاعتراض على ما يراه أو عصيان أوامره ؛ لكن تباريح الهوى أضنت فؤاده وجعلته لا يقوى على الانتظار.

استخرج القاضى تصريحًا من الأسقف بعمل إعلان واحد فى الكنيسة عن الزواج بدلاً من الإشهارات المتعددة المتعارف عليها.. ولأن القاضى كان محبوباً جداً فى المدينة فقد وعده أهلها بإقامة احتفال ضخم يوم الزفاف يتضمن الصواريخ النارية ومصارعة الثيران والعديد من الألعاب مثل لعبة التحطيب. ظلت الغجرية العجوز فى الدار لأنها لم ترد مفارقة حفيدتها بريثيوثا.

وصلت أخبار عقد قران الغجرية الصغيرة إلى العاصمة ، وعندئذٍ أدرك "دون فرانثيسكو دى كاركامو" أن ابنه هو العريس وأن بريثيوثا الغجرية الجميلة هى العروس. غمرته الفرحة لأنه كان قد تصور ضياع ابنه لعدم ذهابه مع رفاقه إلى " فلاندس" ، ومن جهة أخرى فقد حمله الجمال الباهر للعروس ومكانة صهره المرموقة على الصفح عن الهفوة التى بدرت من ابنه.. عجّل بالرحيل لكى يرى فلذة كبده وزوجته ، ولم تكد تمر عشرون يومًا حتى كان فى مرسية. وبقدومه تجددت الأفراح وأقيم حفل الزفاف ، وامتدت المسامرات والحكايات ، وعلى طريقتهم احتفل شعراء المدينة– التى تحفل بالعديد من المجيدين - بالحدث السعيد والفريد .

ومن بين هؤلاء نخص بالذكر "دل بوثو" [٣٨] الذى كتب قصيدة عصماء تخلد شهرة پريثيوثا أبد الدهر.

نسينا الإشارة إلى أن الابنة الولهانة لصاحبة الخان قد أماطت اللثام عن كيدها للغجرى أندريس ، واعترفت للعدالة بذنبها وهيامها الشديد الذى دفعها لاتهامه ظلماً بالسرقة ؛ لكنها لم تنل أية عقوبة على جريمتها لأن الفرحة الغامرة بالعثور على الزوجين السعيدين كانت قد طمست على شهوة الانتقام وأرخت العنان للرحمة والتسامح.

***

(٣٨) أثبت النقاد وجود هذا الشاعر (فرانثيسكو دل بوثو) فى مدينة مرسية خلال عصر ثربانتس ، إذ ذكر أحدهم أنه قام فى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٦٠٢م بإجازة أحد الأعمال المسرحية للكاتب "لوبى دى بيجا ." (المترجم)

العاشق السخي

وَيْح لك ، أيتها الأطلال الحزينة لنيقوسيا المنكوبة، إلى الآن لم تجف دماء محاربيك الأشاوس تعساء الحظ ! لو كنت تنعمين بما تفتقدينه من حس ومشاعر، فى هذه الوحدة التي تلفنا وتؤلف بيننا، لاستطعنا سوياً رثاء مصائبنا، ولربما وجدت فى الصُحْبة ما يسرى عنا ويخفف عذابنا • قد يراودك الأمل، أيتها الأبراج المتهدمة، فى إمكانية الارتفاع ثانية إلى عنان السماء وتجاوز الظروف التى حرمتك من فرصة الدفاع عن نفسك، لكن محنتي ليس لها مثيل ؛ فهل هناك من خير يمكننى انتظاره وسط هذه الضائقة الكريهة المحْدِقة بى حتى لو قُدر لى العودة إلى الحالة التى كنت عليها من قبل ؟ وهذا هو سرّ بلواى : فى الحرية معدوم الحظ ، وفى أغلال الأسر لا أشم ريحه ولا أمل لى فيه .

بهذه الكلمات كان يتفوه أسير مسيحى وهو ينظر من على سفح إلى أسوار "نيقوسيا" المخربة، وهكذا كان يتحدث معها كما لو كانت قادرة على فهمه والتجاوب معه، وهذا هو حال المكروبين حين يستسلمون لشطحات الخيال فيأتون بما لا يقره عقل ولا يستوى مع المنطق القويم .

وفيما هو غارق فى مناجاته وبثّ شكواه خرج من إحدى الخيام الأربعة المنصوبة فى المعسكر فتى رشيق القدّ حسن المظهر يرتدى ثياباً تركية واقترب من المسيحى قائلاً له:

– أراهن ، يا صديقى "ريكاردو" RICARDO ، أن هذا يثير لوعتك ويشحذ تأملاتك .

– نعم يثيرها – أجاب الأسير، "ريكاردو" – لكن ما الفائدة التي تُرجى من وراء هذا وكل مكانٍ أحلُّ به لا سبيل لى فيه إلى الراحة والطمأنينة، وتلك الأطلال الماثلة أمامى تَزيد من همى وشجوى ؟

– أطلال نيقوسيا تقصد ؟ سأل التركى .

– وهل هناك غيرها والعين لا تبصر فى المكان سواها ؟

- عليك، إذن، بذرف الدموع مدراراً إذا استسلمت لهذه الهواجس؛ فقد رأيت هذه الجزيرة القبرصية، طوال السنتين اللتين قضيتهما فيها، ترفل فى ثياب الدّعة والطمأنينة وينعم قاطنوها بكل ألوان البهجة والسرور؛ لكنهم الآن تفرقوا أيدى سبأ ما بين أسير تعس ومنفى هائم على وجهه فى بلاد الله الواسعة بعيداً عن أرضه وخلانه، أَبَعْد هذا يمكن تفادى غصة الألم من جرّاء هذا الواقع البائس وتلك المحنة الدامية ؟ ... لكن دعنا من هذه الأنواء التى لا قبل لنا بها، وهيا بنا ندلف إلى همومك التى لابد أن لها مخرجًا ، ولذا أتوسل إليك - من منطلق رباط الصداقة ومما يحتمه واجب الانتساب لموطن واحد والترعرع سويا فى مرحلة الصبا - لكى تطلعنى على سر حزنك العميم، وإن كان الأسر فى حد ذاته كفيلاً بجلب الهمّ والضيق لأسعد القلوب فى العالم، لكننى أعتقد أن معين تعاستك يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك لأن الهمم الوثّابة - مثل همتك - لا تعرف الاستسلام أو الخور فى الأزمات الطارئة الشائعة بل تتجاوزها فى صمود وتحدٍّ: يحملنى على هذا الاعتقاد علمى أنك لست فقيراً يصعب عليك الوفاء بما طلبوه ثمناً لحريتك، كما أنك لست نزيلاً بأبراج البحر الأسود شأن الأسرى ذوى المراتب العالية والمقام الرفيع الذين لا يستردون حريتهم إلا متأخراً أو يفقدونها إلى الأبد ، وبناء على ما تقدم فأنت لم تفقد الأمل فى استرداد حريتك السليبة، ومع هذا أجدك مستسلماً يائساً تبكى حظك العاثر مما يعنى أن مصدر همومك يعود لشىء آخر غير الحرية الضائعة، ومن ثمّ أتوسل إليك أن تحيطنى علمًا به، ولن أدخر وسعًا فى مد يد العون لك وربما ساعدتنى فى هذا تلك الثياب البغيضة التى أرتديها. أنت تعرف - يا ريكاردو - أن مولاى هو قاضى المدينة، وهو بمثابة المطْران فى المدن المسيحية. تعرف أيضاً منزلتى عنده وأنه لا يرد لى طلباً أو نصيحة. وفوق هذا وذاك فأنت لا تجهل رغبتى المتوقدة فى الخلاص مما أنا فيه حتى لا يدركنى الموت وأنا على هذه الحالة، وتعلم مدى شوقى للاعتراف تكفيراً عن خطاياى ولنشر الدين المسيحى بأعلى صوتى، هذا الدين الذى انتزعت منه انتزاعًا وأنا غض الإهاب قاصر الإدراك ، وإن كنت متأكداً

من أن مـثل هذا الاعـتراف سيكلفنى حيـاتى، ومع هذا فـأنا على اسـتعـداد للتضحية بالجسد إنقاذاً لروحى . أريد بما سردته عليك جعلك تثق بى وتأمن جـانبى ولكـى أُدخل فى روعك أن صـداقـتى لك يمكن أن تكون ذات نفع. وللاهتداء لأنجع الوسـائل والحلول لنكبتك من الضرورى التعرف أولا على أسبابها ، شأنها فى ذلك شأن الطبيب الذى يحتاج لمعرفة موطن العلة كى يتمكن من وصف العلاج المناسب ، وكن على يقين من أننى سأطوى سرّك فى أغوار الصمت .

ظل "ريكاردو" صامتاً إلى أن اضطره الإلحاح أخيراً إلى الإجابة بهذه الكلمات:

- آه، يا صديقى "محمود" !- هكذا كان يسمى التركى - لقد أصبت كبد الحقيقة فى تقديرك لأبعاد نكبتى، لكنها مثل الداء العضال الذى يستعصى على أمهر الأطباء، وأكثر من هذا فأنا على قناعة تامة بأن العالم بأسره لو علم بمصدرها لن يقدر أحد فيه على الاهتداء إلى العلاج الناجع، فضلاً عن مجرد التخفيف منه. ولكى تقنع بهذه الحقيقة سأقص عليك بإيجاز أسباب بلواى، وقبل التسلل إلى تلك المتاهة المستغلقة لأرزائى أريد أن تخبرنى أولا بسر أمر مولاى "حِسَّان باشا" بضرب الخيام فى هذا المعسكر قبل دخوله "نيقوسيا" التى عيِّن عليها والياً أو باشا، كما يطلق الأتراك على ولاتهم .

- سأجيب باختصار على استفسارك _ قال محمود _ اعلم أنه جرت العادة بين الأتراك أن الوالى المعيَّن على إحدى الولايات لا يدخل العاصمة التى يقطنها سلفه إلا بعد خروج الأخير منها ، وذلك لإفساح المجال أمام الوالى الجديد كى يقوم بعملية جرد- فى حضرة القاضى - للفترة التى قضاها سلفه فى الحكم، وبينما يقوم الباشا الجديد بهذه المهمة ينتظر القديم نتيجة الجرد الذى يجرى دون استطاعته توجيهه أو التدخل فيه- سواء عن طريق الأصدقاء أو الرشاوى - هذا إن لم يكن قد أحكم مسبقاً تدبيره واستعد لذلك. وبعد إتمام الجرد تسجل نتيجته فى "كشف حساب" ويوضع فى مظروف يتم غلقه بعناية وختمه ثم يسلم للوالى الراحل لكى يقدمه بدوره إلى الباب

العالى التركى [وهو شىء أشبه بالمجلس الأعلى للبلاط الملكى] حيث يتم عرضه على لجنه تتألف من الباشا الوزير ومساعديه الأربعة [وهى تماثل المجلس الملكى المكون من رئيس ومساعدين] لكى تتخذ قراراً بشأن عقابه أو مكافأته تبعاً للتقرير الوارد بكشف الحساب ، وإذا اتجهت النية لإدانته فإنه يستطيع بالمال افتداء نفسه من العقاب . وإذا لم يكن مذنباً ولا يستحق فى الوقت نفسه المكافأة- كما يحدث عادة- فإنه يتمكن بالهدايا والرشاوى من الحصول على المنصب الذى يروق له، ذلك لأن المناصب والوظائف الهامة لا تمنح استناداً إلى الكفاءة بل فى مقابل ما يقدم من مال: كل شىء يباع ويشترى . من بيدهم تقليد المناصب يسرقون الطامعين فيها، والمال الناجم عن هذه العملية يستخدم فى شراء منصب آخر يدرّ عائداً أكبر. على هذه الوتيرة تمضى الأمور فى تلك الإمبراطورية العنيفة المتوحشة ؛ والعنف سمة من سمات فناء الدول وقصر آجالها• إن القائمين على تلك الإمبراطورية هم السبب فيما نحن فيه من مصائب، ولذا أعتقد أنهم يحملون أوزارنا على أكتافهم .. ما أريد قوله إن هؤلاء الذين يتطاولون بوقاحة على الرب دون رادع يردعهم قد جرّوا أمثالى إلى فلكهم بيْد أن الرب مطّلع على السرائر ولن يخذلنى أو ينسانى . ولهذا السبب الذى قدمته لك ظل مولاك (حسّان باشا) منتظراً فى هذا المعسكر أربعة أيام، وإذا كان والى نيقوسيا المخلوع لم يغادرها بسرعة كما ينبغى فهذا يعود بالتأكيد لشدة سوئه ومن هنا لزمه كل هذا الوقت لتدبير أموره قبل القيام بعملية الجرد المنتظرة، لكنه لن يتأخر - على أى حال - عن الخروج اليوم أو غداً والتوجه للإقامة فى عدد من الخيام المضروبة خلف هذا المرتفع الذى لم تشاهده، وبعدها سيدخل مولاك المدينة .

- اسمعنى إذن- قال "ريكاردو" - وإن كنت لا أدرى هل سأستطيع حقاً الوفاء بما وعدتك به من سرد حكايتى بالإيجاز المطلوب ؛ ذلك لأنها فى غاية الطول ومتشعبة وتحتاج لفيض من الكلمات، ومع هذا سأبذل قصارى جهدى فى الإلمام بأطرافها بقدر ما يسمح به الوقت، وقبل أن أبدأ دعنى

أسألك إذا كنت قد سمعت فى "ترابانا" TRAPANA [١] عن آنسة طبقت شهرة جمالها آفاق "صقلية" ؛ آنسة تلهج الألسن بذكر محاسنها ويتناقل القاصى والدانى خبر فتنتها التى لم ير لها مثيل لا فى الماضى أو الحاضر ولا يتوقع أن تتمخض الأجيال القادمة عن واحدة تضارعها. فتاة تغنت قصائد الشعراء بجدائلها الذهبية وخديها المتوردين وأسنانها اللؤلؤية وجيدها المرمرى، وشبهت عينيها بشمسين نيرتين وشفتيها بالياقوت، وأفاضت فى الإشادة بتناغم وتناسق كل ملمح فيها وبنعومة امتزاج الألوان الطبيعية المتقنة التى تنعكس على محيّاها، ولا تجد فيها عيون القادحين والحسّاد عيباً ولا خللاً . إن لم يكن قد تناهى إلى سمعك، يا محمود، خبرها فإما إنك لا تعى قولى أو أنك أمضيت الوقت فى ترابانا عبثًا وكنت فاقداً للإدراك بحيث لا تعرف حدثاً فى غاية الأهمية مثل هذا .

– أوصاف الجمال الصارخ التى ذكرتها تنطبق على "ليونيسا" (LEONISA) ابنة "رودولفو فلورنسيو" لا أعرف من تكون لكنها الوحيدة التى تشتهر بما تقول .

– آه يا صديقى محمود! إنها الباعث الوحيد لكل أفراحى وأتراحى هى – وليست الحرية الضائعة – التى ذرفت من أجلها عيناى الدموع مدراراً وستظل تنهمر بلا انقطاع ، ومن أجلها تحرق زفراتى الهواء، وأتعبت توسلاتى السماء وآذان السامعين ، هى التى جعلتك تصمنى بالعته أو، على الأقل، بضعف الإرادة وخور العزيمة . "ليونيسا" ، وحشى المفترس وبالنسبة لغيرى الحمل الوديع، هى التى ألقت بى إلى التهلكة وأوردتنى هذا المورد البائس . اعلم، يا صديقى، أننى منذ نعومة أظفارى أو، على الأكثر، منذ أن بدأت أعى لم أحبها فحسب بل تفانيت فى عبادتها وبذلت لها خانعاً مهجتى بشكل لم يعهده معبود فى الأرض ولا فى السماء . عرف والداها وأهلها شدة هيامى بها ولم يمانعوا لثقتهم فى غايته النبيلة الموقرة، وهكذا

---

(١) "ترابانا" Trapana تقع فى الطرف الغربى من جزيرة صقلية، وكان فى ذلك الوقت ميناء تجاريا هاماً . (المترجم)

فقد حاولوا مراراً توجيه نظرها إلىّ وإقناعها بقبولي زوجاً لها• لكن عينيها كانتا تلهثان خلف "كورنيليو" ، ابن "أسكانيو روتولو" ، وأنت تعرفه جيداً: فتى ممشوق القدّ، "دون جوان" ، حسن الهندام، رخْو اليدين، مسترسل الجدائل، مخنث الصوت ومعسول الكلمات، إنه - باختصار - مثل تمثال مصنوع من الحلوى والعنبر ويرتدي أفخر الثياب الموشاة بالقصب • استنكفت مدّ ناظريها إلى وجهي الأقل صقلاً وبهاءً من وجه"كورنيليو" ، ولم يدر بخلدها شكر إخلاصي وخدماتي العميمة الدائمة، وقابلت مشاعري نحوها بالازدراء والكراهية• أدّى نفورها مني وميلها - وإن كان شريفًا - إلى "كورنيليو" إلى إثارة غضبي وتفجير ينابيع الغيرة في صدري ، ولك أن تتصور مدى وقْع هذين الشعورين على النفس ! بارك والداها ميلها إلى "كورنيليو" على أمل أن يجرّه جمالها الفتّان إلى الزواج منها، وبهذا الشكل يكسبان صهراً أوسع ثراءً مني• إنه هكذا حقًا، لكنه لا يدانيني في المكانة ولا في المشاعر السامية التي أحملها بين جوانحي ولا في الشجاعة أو الرجولة • المهم أنني في تلك الأثناء علمت أن "ليونيسا" وأبويها و"كورنيليو" ووالديه قد تواعدوا للذهاب - بصحبة أقاربهم وخدمهم - في يوم من أيام شهر مايو الماضي [وقد مرّ عليه الآن سنة وثلاثة أيام وخمس ساعات] إلى حديقة "أسكانيو" ، التي تقع في طريق "لاس ساليناس" القريب من البحر، بغرض النزهة والتسلية •

- أعرف هذا المكان جيداً - قال محمود - ، فقد أمضيت فيه أوقاتاً هنيئة لما يزيد عن أربعة أيام • استمر يا "ريكاردو" •

- فور معرفتي للخبر ماجت روحي واضطربت وسيطر عليها الغضب والغيرة بشكل أفقدني توازني - كما ستدرك مما أقصه عليك - إذ سارعت بالذهاب إلى تلك الحديقة التي كانت تكتظ بجموع غفيرة من البشر، ووجدت "ليونيسا" وحبيب القلب جالسين في ركن قصيّ تحت شجرة جوز• لا أدري من منهما رآني أولاً، كل ما أتذكره أن عيني غامتا عندما التقت بنظرته وبقيت صامتًا بلا حراك كتمثال• لم يتوان السخط في إيقاظ الغضب، والغضب في إثارة الدم في العروق ، والدم في إذكاء روح الهياج

والثورة، والهياج والثورة فى تحريك اليدين واللسان، وإن كانت اليدان قد أصيبتا بالشلل من جرّاء جمال الوجه الماثل أمامى . لكن اللسان هتك ستْر الصمت بهذه الكلمات: "سعيدة أنت، يا عدوة راحتى اللدود ، بإضفاء الراحة الغامرة على من سيكون السبب فى تقرح عينى بالنحيب المؤلم المستمر . هلمى ، هلمى ، أيتها القاسية ، اقتربى قليلا لتلقى حول هذا الجذع الخامل الذى ينشدك أفرعك الدقيقة، مشّطى أو جلّلى بالأساور جدائل "جانيميدس" (٢) الجديد الذى يتحرق شوقاً إليك ؛ تملصى الآن من السِّنىّ الفاتنات لهذا الشاب الذى تتأملين،لأن فقدانى الأمل فى الوصول إليك جعلنى أمقت الحياة التى أعيشها . أتحسبين – أيتها الآنسة المتعجرفة، سقيمة الخيال – أنك فوق المعمول به فى العالم أجمع من قوانين وأصول ؟ أتظنين أن هذا الفتى المتعالى بثروته، المتكبر ببهاء طلعته، الأخرق بسنوات عمره القصير، المتواكل على حسبه ونسبه، بإمكانه صيانة العهود وتقدير ما بين يديه من كنز ثمين ، أو أنه يعى ما يدركه الناضجون الذين عركتهم خبرات السنين الطوال ؟

لا تحسبى شيئاً من هذا لأنه لا يحوى بين جنبيه مثقال ذرة من خير هذا العالم، بل تُرّهات وأوهام برّاقة لا يخدع بها سوى نفسه. ففى السنوات القصار يكمن السّقم؛ وفى الأغنياء الخيلاء؛ وفى المتكبرين الزّهْو؛ وفى الجمال الازدراء؛ وفى كل ما تقدم تكمن الحماقة وهى رأس الشرور ومنبت الآثام . وأنت، أيها الفتى، الذى يوهمك خيالك السقيم بأحقيتك فى الحصول على عطيّة أولى بها هيامى من حاجتك لإزجاء أوقات فراغك، لماذا لا تنهض من على بساط الورود حيث تقبع وتأتى لتقتلع مهجتى التى تمقتك مقتاً شديداً ؟ .. لا أطلب منك هذا لشعورى بالإهانة مما تفعل، بل لأنك لا تستطيع تقدير المنّة التى حباك بها حسن الطالع؛ ومن الواضح استهانتك بها إذ لا تحرك ساكناً للدفاع عنها حتى لا تتلف زينتك ولا تبعثر جمال

(٢) يدّعى " أوفيد" وبعض الشعراء أن عقاباً اختطف " جانيميدس" من على الأرض وحمله إلى السماء ليكون ساقياً للإله جوبتر بدلا من Hebe ابنة Iuno ، بينما يرى "أبولونيو" Apolonio أنه ذهب إلى السماء لكى ينعم فيها ويظل حياً بين الآلهة . (المترجم)

هندامك• اغرب عن وجهي وعد إلى بيتك كي تتسلى هناك بين وصيفات أمك، وحيث يمكنك العناية بجدائلك ويديك المدربتين على العبث بخيوط الحرير بدلاً من الإمساك بالسيوف البواتر" .

مع كل هذا السيل من الشتائم لم ينهض "كورنيليو" من المكان الذى وجدته جالسًا فيه، بل ظل قابعًا ينظر إلىّ مسلوب اللبّ دون أن يحرك ساكنًا؛ وعلى الأصوات المرتفعة التى كلّت له بها ما سمعته أذناك ، أخذ الموجودون بالحديقة يتقاطرون لسماع إهانات أخرى وجهتها لكورنيليو الذى تشجع وحاول النهوض لأن المتحلقين أو غالبيتهم كانوا من بين أقربائه وخدمه وأصدقائه، لكننى سحبت سيفى من غمده قبل أن يستوى على قدميه وأشهرته، ليس فى وجهه فقط بل فى وجوه الحاضرين جميعًا . لم تكد "ليونيسا" تلمح بريق حسامى حتى راحت فى إغماءة بلا قرار، مما أثار حفيظتى وفجّر هياجى . لا أدرى ما إذا كان الكثيرون المتحلّقون حولى كانوا يحاولون فقط الدفاع عن أنفسهم كمن يتحرز من مخبول هائج مغتاظ أم أن حسن طالعى أو العناية الإلهية هى التى أرادت الحفاظ علىّ وإبقائى لمكدرات مستقبلية أنكى وأقسى . هذا لأننى أثخنت بالجراح سبعة أو ثمانية ممن كانوا فى متناول يدى . نفع "كورنيليو" شدة حرصه وخفّته، إذ أخذت قدماه المشحونتان بهما تسابقان الريح فرارًا من بطشى . أسعفنى الحظ – وأنا بين براثن هذا الخطر الداهم، محاط بأعدائى الذين يحاولون الانتقام لما أنزلته بهم من خسائر – بطوق نجاة كان من الأفضل لى التخلص من الحياة هناك بدلاً من فقدانها الآن بسببه آلاف المرات كل ساعة، إذ ظهرت فى الحديقة بغتة أعداد كبيرة من قراصنة "بنزرت" (٣) الأتراك كانوا على متن سفينتين راسيتين على مقربة من الشاطئ وقد نزلوا إلى البرّ دون أن يحس بهم حراس أبراج المراقبة البحرية أو يكتشفهم العسس المكلفون بالتصدى للمتسللين إلى المدينة . حين شاهدهم خصومى تركونى وحيداً ولاذوا بالفرار . لم يتمكن الأتراك إلا من أسر ثلاثة من جملة من

---

(٣) "بنزرت" : ميناء على الساحل الشمالى لتونس . (المترجم)

كانوا بالحديقة، فضلاً عن "ليونيسا" التى لم تكن قد أفاقت بعد من الإغماءة التى راحت فيها . أما أنا، فلم يتمكنوا من القبض علىّ إلا بعد أن أصابونى بأربعة جراح مختلفة الأشكال والأحجام كنت قد انتقمت لهم مسبقاً بطرح أربعة منهم على الأرض فاقدى الحياة . وكعادة الأتراك، فقد كان هجومهم خاطفًا ، وغير مسرورين بنتائجه انسحبوا إلى سفينتيهما وانطلقوا بهما مسرعين إلى عرض البحر، وخلال فترة وجيزة وصلوا إلى جزيرة " فبيانة"(٤) . تمهلوا لحصر ما لديهم من رجال، ولما وجدوا أن عدد قتلاهم وصل إلى أربعة مِن خيرة القراصنة المهرة المدربين عزموا على الانتقام منى، وهكذا أمر ريس البارجة (القبطان) بإنزال خشبة الشراع المثلث لكى يشنقونى عليها .

إلى كل هذا كانت تنظر "ليونيسا" التى - بعد أن أفاقت من الإغماءة الطويلة ووجدت نفسها فى قبضة القراصنة - أخذت الدموع تنسال من عينيها بغزارة وترتجف يداها الرقيقتان، دون أن تنبس ببنْت شفة . كانت تركز انتباهها - صامتة - فيما يقوله الأتراك فى محاولة منها لفهمه . لكن واحداً من المسيحيين العاملين بالتجديف أخبرها، فى لكنة إيطالية، أن الريس أمر بشنق ذلك المسيحى- مشيراً إلىّ - لأنه أودى بحياة أربعة من خيرة جنود البارجتين قبل تمكنهم من إلقاء القبض عليه. حين سمعت " ليونيسا" هذا وأدركت فحواه أخذتها - لأول مرة - الشفقة بى وطلبت من الأسير المسيحى إبلاغهم بضرورة نبذ فكرة شنقى لأنهم لو فعلوا يكونون قد أهدروا أموالاً طائلة تنتظرهم من فديتى، ومن ثمّ فإن عليهم العودة إلى " ترابانا" لطلب الفدية هناك . ومما يزيد من تعاستى الآن أن تلك المرة كانت الأولى، وربما الأخيرة، التى أظهرت فيها معذبتى حدبها علىّ وأخذتها الشفقة بى . وما إن سمع الأتراك كلام الأسير المسيحى حتى صدقوه، وعندئذ أزاحت المصلحة شهوة الانتقام لديهم وحلّت محلها. فى صباح اليوم التالى، رفعوا راية السلام البيضاء ويمموا شطر "ترابانا" ثانية .

---

(٤) جزيرة "فبيانة" أو "فبيجنانة" Favignana تقع بالقرب من الساحل الغربى لجزيرة صقلية . (المترجم)

قضيت تلك الليلة والآلام التى لا تخطر ببال تهتصرنى، ولم يكن مبعثها ما أعانيه من جراح بل من استحضارى للخطر الداهم الذى يحدق بعدوتى اللدود وهى بين براثن أولئك البرابرة المتوحشين .

عادت السفينتان – كما ذكرت – إلى المدينة، ودخلت إحداهما الميناء بينما ظلت الأخرى منتظرة في عرض البحر . تجمع المسيحيون من كل حدب وصوب حتى امتلأ بهم الميناء والساحل ، و "الحليوة" "كورنيليو" كان يرقُب من بعيد ما يدور على ظهر السفينة . جاء بعد ذلك وكيل أعمالى (القهرمان الخاص بى) ليتفاوض بشأن فك أسرى، وعندما التقيت به طلبت منه نسيان أمرى تمامًا والعمل على إطلاق سراح "ليونيسا" حتى لو كلفه هذا تبديد كل ممتلكاتى، كما أمرته بالعودة إلى اليابسة ليطلب من والدىّ "ليونسيا" إلقاء مسئولية تخليص ابنتهما من الأسر على عاتقه وألا يشغلا بالهما بهذا الأمر . طلب الريس الأكبر – وهو يونانى مرتد عن المسيحية يدعى "يوسف" – ستة آلاف "إسكودو" (٥) فى "ليونيسا" وأربعة آلاف أخرى مقابل فك أسرى، وأضاف محذراً بعدم تسليم أحدنا دون الآخر . علمت بعد ذلك أنه طلب هذا المبلغ الكبير لشدة ولعه بليونيسا ولعزوفه عن التفريط فيها آملاً أن تكون من نصيبه عند اقتسام الغنيمة مع قبطان السفينة الأخرى، فقد أضمر التنازل عنى بالإضافة إلى ألف "إسكودو" يدفعها من جيبه للقبطان الثانى مقابل الاحتفاظ بليونيسا. لم يحرك والدا "ليونيسا" ساكنًا اعتماداً على الوعد الذى قطعه وكيل أعمالى على نفسه؛ و"كورنيليو" من جهته لم يكلف نفسه عناء تحريك شفتيه بكلمة واحدة فى صالحها . وهكذا وبعد الكثير من المساومات والأخذ والرّد عرض وكيل أعمالى دفع خمسة آلاف إسكودو مقابل إطلاق سراح "ليونيسا" وثلاثة آلاف أخرى فدية لى .

قبل يوسف العرض مرغمًا لأن زميله وجنوده جميعًا وافقوا عليه وأعلنوا رضاهم به. ولما كان هذا المبلغ الكبير ليس جاهزاً مع وكيل أعمالى فقد

---

(٥) "الإسكودو" Escudo عملة ذهبية قديمة (المترجم).

طلب إمهاله ثلاثة أيام لجمعه، وفى نيته التصرف فى كل ممتلكاتى لتدبير المال اللازم . فرح يوسف وتهللت أساريره لاعتقاده أن الفرصة أصبحت سانحة لإفساد الأمر برمّته خلال هذه الفترة. أخبر الحاضرين أنه عقد العزم على العودة إلى جزيرة "فَبيانة" لقضاء ثلاثة أيام المضروبة للمهلة هناك والرجوع ثانية فوْر انتهائها لاستلام النقود . لكن القدر العاتى، الذى لا يمل من تسديد الضربات إلىّ، جعل الجندى التركى، المكلف بمراقبة أعالى البحر، يكتشف قدوم ست سفن شراعية لاتينية، وتوقع – صادقًا فى ظنه – أن تكون تابعة لأسطول مالطة أو للقطع البحرية الصقلية . هبط مسرعًا ليعلن النبأ، وفى لمح البصر صعد السفينة الأتراك الذين كانوا على البرّ تاركين ما بأيديهم من إعداد طعام أو غسل ثياب؛ وبسرعة خاطفة رفعوا المراسى وفتحوا الأشرعة للهواء وأعملوا المجاديف ووجهوا الدّفة صوب بلاد البربر، وفى أقل من ساعتين كانت السفن اللاتينية قد اختفت من أمام نواظرهم . وهكذا ذهب عنهم الخوف الذى ارتعدت له فرائصهم من قبل وعاودتهم الطمأنينة خاصة بعدما استتروا بالجزيرة واحتموا بظلمة الليل الذى اقترب . ولك أن تتصور حالى، يا صديقى محمود، فى تلك الرحلة المعاكسة لأحلامى والمخيبة لآمالى، عندما وصلت السفينتان ظهر اليوم التالى إلى جزيرة "بنتنالية" ونزل منهما الأتراك للتزود بالمؤن، وعندما شاهدت الرّيسين يهبطان إلى البرّ لتوزيع الغنائم بينهما. كل حدث من هذه الأحداث كان بمثابة احتضار بطىء وطويل بالنسبة لى . عندما جاء الدور علينا فى القسمة – أنا و "ليونيسا" – قدمنى يوسف علاوة على ستة مسيحيين آخرين [أربعة للعمل على المجاديف بالإضافة إلى شابين جميلين] إلى قبطان السفينة الأخرى (ويدعى " فتح الله") مقابل احتفاظه بليونيسا؛ وقد أثلجت هذه القسمة صدر الأخير. كنت أشاهد ما يجرى أمامى، وبالرغم من معرفتى لما يفعلون إلا أننى لم أفهم حديثهم ولم أفطن إلى ما اتفقوا عليه إلا بعد أن اقترب فتح الله منى وقال لى بلكنة إيطالية : "يا مسيحى ، أنت الآن ملكى، تنازلوا عنك مقابل ألفى إسكودو ذهبًا؛ لو أردت استرداد حريتك يلزمك تسديد أربعة آلاف، وإلا ستظل رهين

الأسر حتى تقضي نحبك هنا" . سألته إذا كانت المسيحية أيضاً من نصيبه، فأجابني بالنفي لأن يوسف احتفظ بها بقصد تحويلها للإسلام والابتناء بها. وبالفعل كانت هذه الحقيقة لأن أحد الأسرى العاملين بالتجديف والعارفين باللغة التركية سمع تفاصيل الاتفاق بين يوسف وفتح الله وأخبرني بها .

ناشدتُ مولاى البحث عن وسيلة للاحتفاظ بالمسيحية ووعدته بعشرة آلاف إسكودو من الذهب الخالص فدية لها . أخبرني بصعوبة ذلك لتمسك يوسف بها، لكنه قال إنه سيجرب معه التلويح بالمبلغ الكبير المرصود لفديتها لعله يثنيه عن قراره بشأنها . بعد فشل محاولته أمر طاقم سفينته بسرعة الصعود إليها لأنه ينوى الذهاب إلى موطنه في "طرابلس" البربرية . قرر يوسف - فى الوقت نفسه - التوّجه إلى "بنزرت" ؛ وهكذا صعد الأتراك إلى السفينتين بسرعتهم المعهودة عند اكتشافهم سفناً معادية أو مراكب يريدون مباغتتها والاستيلاء عليها . أدّى تغير الجو وتَجمُّع نذر عاصفة فى الأفق إلى زيادة إيقاع سرعتهم . كانت ليونيسا على اليابسة، لكنها لم تكن فى مكان أستطيع رؤيتها فيه، ولما اتجهت نحو البحر وشرعت في الصعود إلى سفينتها التقينا .كان سيدها الجديد وغرامها المنتظر يمسك بيدها، وعندما دلفت إلى السلّم التفتت لتنظر إليّ . لم تنزل عيناى من عليها؛ كانتا تنظران إليها بحنان وألم بالغين ، وفجأة - دون أن أدرى كيف - حجبت نظرتى غمامة من الدموع ، ولما توارت غبت عن الوعى وسقطت ممدداً على الأرض . علمت بعد ذلك أن ليونيسا جرى لها الشيء نفسه، فقد شاهدوها وهى تسقط من على سلم السفينة إلى البحر، وعندئذ ألقى يوسف بنفسه خلفها وانتشلها من الماء . أخبرونى بهذا فى سفينة مولاى التى حملونى إليها وأنا فاقد الوعى؛ لكننى بعد أن أفقت من الإغماءة ووجدتنى بدونها وحيداً على السفينة بينما تأخذ الأخرى اتجاها مغايرا وتبتعد عنا حاملة على متنها نصف مهجتى - أو على الأصح، مهجتى كلها - أصابنى الهلع والكدر من جديد ، وعاودت لعْن حظى وتمنى الموت بأصوات عالية . حين سمعنى مولاى وأنا أهذى وسط هذه المشاعر الأليمة انتابه الغضب وتوعدنى وهراوة غليظة فى يده بسحق عظامى إن لم ألزم الصمت . كبحت جماح

دموعى وابتلعت زفراتى الحارة معتقداً أن شدتها ستمزق جزءاً منى لتفسح المجال لخروج الروح التى كنت شغوفًا بتركها لهذا الجسد البائس ، لكن الحظ العاثر – وكأنه لم يكتف بإلقائى فى هذا المأزق الخطير – أطاح بكل شىء وسلبنى ما تبقى من أمل فى الخلاص ، إذ كشَّرت العاصفة عن أنيابها بغتة وأخذت الرياح التى كانت تهبّ على مقدمة السفينة خلال ذلك الوقت من الظهيرة فى الاستئساد والتنامى بحمية منقطعة النظير وأصبح من الضرورى تحويل الدفة إلى الاتجاه المعاكس وترْك السفينة تجرى حيث شاءت لها الأمواج . عزم القبطان على الاقتراب من شمال الجزيرة والاحتماء بها ، لكن الرياح تجرى بما لا تشتهى السفن ؛ لأنها زمجرت غاضبة وما أبحرناه فى يومين كاملين رجعناه فى أقل من أربع عشرة ساعة ، ووجدنا أنفسنا على مسافة ستة أو سبعة أميال من الجزيرة التى شددنا منها الرحال وعلى وشك الاصطدام بصخور عالية كنا نشاهدها على مرمى البصر ودون أمل على الإطلاق فى الفرار من براثن موت محقق . وعلى مقربة رأينا سفينة "ليونيسا" وجميع مَنْ فيها من أتراك وأسرى على المجاديف يبذلون قصارى جهدهم للتخفيف من اندفاعها نحو الصخور . جهد مماثل كان يبذله رجال سفينتنا لكن بفاعلية أكبر على ما يبدو لأن رجال السفينة الأخرى نال منهم التعب وإصرار الرياح والعاصفة فاستسلموا وتركوا المجاديف مما جعل السفينة تندفع نحو الصخور وترتطم بها – أمام أعيننا – ارتطامًا هائلاً تطايرت على إثره أشلاؤها . كان الليل قد أرخى سدوله ، ومن هوْل صراخ المفقودين ومن الفزع واليأس اللذين تسربا إلى من كانوا على سفينتنا ضاعت تعليمات قبطاننا سدى ولم تجد آذاناً صاغية ؛ الشىء الوحيد الذى جال بخاطر الجميع هو محاولة تعديل وضْع السفينة بجعل مقدمتها فى مواجهة الرياح وإلقاء المرساتين فى الماء لعلهم بهذا يبعدون لبعض الوقت شبح الموت الذى يطاردهم . وبالرغم من أن الخوف من الموت كان هو الشعور المسيطر على الجميع إلا أننى كنت منشرح الصدر ؛ إذ كان يحدونى الأمل فى لقاء مَنْ رحلت منذ قليل إلى جنبات العالم الآخر ، و لذا فكل دقيقة كانت تتأخرها السفينة عن الغوص فى

الأعماق أو الارتطام بالصخور كانت بالنسبة لى دهراً من العذاب المرير. كنت أرقب الأمواج العالية الهوجاء وهى تندفع نحو السفينة وتمر فوق رأسى علّنى أرى بين براثنها جثة "ليونيسا"التعيسة .

آه، يا محمود !، لا أريد التوقف الآن لأصف لك بالتفصيل مشاعر الهلع والخوف والجزع والرهبة التى أَلَمّت بى فى تلك الليلة الليلاء الطويلة حتى لا أنكث بعهدى السابق لك من عرض أبعاد محنتى بإيجاز . يكفى إخبارك بأنها كانت جِمّة لا يطيقها بشر لدرجة أن الموت لو كان قد تسلل معها لما وجد أدنى عنت فى سلّب ما بقى لدىّ من حياة .

جاء النهار حاملاً معه بوادر عاصفة أشد هياجًا من التى مضت، جعلت السفينة تنحرف بشدة وتبتعد كثيراً عن الصخور إلى أن وصلت إلى أحد أطراف الجزيرة؛ ولما وجد الأتراك والمسيحيون العاملون على المجاديف أن الفرصة أصبحت سانحة للالتفاف حولها عاودهم الأمل واستعادوا نشاطهم من جديد، ولم تكد تمضى سويعات ست حتى استطعنا الالتفاف حول هذا الطرف من الجزيرة، وهناك وجدنا البحر أملس كالحرير وهادئاً مما ساعد على إيجابية عمل المجاديف . وبعد الاحتماء بالجزيرة وجد الأتراك متسعًا من الوقت للنزول إلى اليابسة للبحث عما تبقى من حطام السفينة التى ارتطمت الليلة الماضية بالصخور، لكن السماء استنكفت – كديدنها معى – التخفيف عنى والتفريج عن همّى برؤية جسد ليونيسا بين ذراعىّ حتى ولو كان جثة هامدة وموزعًا إلى أشلاء ، فقدكان هذا بمثابة كسْرٍ لطوْق الطالع التعس المستحيل الذى لازمنى وبدد نواياى الحسنة فى الانفراد بها وهى على قيد الحياة ، ولذا ناشدت واحداً من المسلمين كان يهمُّ بالنزول إلى البرّ بالبحث عنها بين الحطام الذى حمله اليمُّ إلى الشاطئ ؛ لكن السماء أنكرت علىّ هذا أيضاً – كما سبق وأخبرتك – لأن الرياح نشطت من عقالها مجدداً فى تلك اللحظة مما جعل الاحتماء بالجزيرة أمراً لا جدوى منه . حين أحس "فتح الله" بهذا لم يرد معاندة سوء الحظ الذى يتعقبه وأمر بنشر الشراع الأمامى قليلاً ؛ جاعلاً مقدمة السفينة فى اتجاه البحر ومؤخرتها فى اتجاه الريح ؛ وبعد إمساكه بالدفّة ترك السفينة تنطلق صوب البحر الخضم

وكله أمل فى عدم الاصطدام بعائق يفسد عليه الطريق . كانت المجاديف على جانبى السفينة تعمل بحركات توقيعية متساوية وكل رجل فيها مستقر فى مكانه ، سواء على المقاعد أو بالقرب من الفتحات والمزاغل لسدها ؛ ولا يظهر منهم سوى قائد فريق التجديف الذى احتاط بربط نفسه فى العمود الموجود بين مؤخرة السفينة وصفّى المجاديف. كانت السفينة تنزلق بسرعة على صفحة الماء وخلال ثلاثة أيام بلياليها مررنا من بعيد على "ترابانا" و " ميلاثو" (٦) و " باليرمو" إلى أن دخلنا مضيق " مسينا" وسط دهشة من كانوا على متن السفينة ومن كانوا على اليابسة يتطلعون إلينا .

خلاصة القول، حتى لا أطيل عليك فى حكاية تفاصيل العاصفة الهوجاء التى داهمتنا، إننا وصلنا بعد لأْى منهكين جوعى إلى طرابلس " البربرية" حيث لم يمهل مرض الجنْب سيدى ليقدم كشفاً بغارته وما حققه فيها من أسلاب وغنائم – وللملك فيها الخمس كما جرت العادة لديهم – إذ برّحت به الآلام ولم تكد تمضى ثلاثة أيام حتى فاضت روحه لتأخذ مكانها فى سقر. وزّعت ثروة "فتح الله" بالتساوى بين والى "طرابلس" وصاحب الموتى الذى يمثل الباب العالى هناك، وهو – كما تعرف– يرث من لا ورثة له ؛ وكنت من نصيب والى "طرابلس" الذى وصله بعد خمسة عشر يوماً أمر تعيينه على جزيرة قبرص ، وأتيت معه إلى هنا راسفًا فى أغلال العبودية دون أن أحاول افتداء نفسى من الأسر علماً بأنه أعرب لى مرات عديدة عن رغبته فى إطلاق سراحى مقابل فدية لأنه علم بأهميتى من رجال فتح الله، لكننى لم أستجب له وقلت له إنهم خدعوك بمبالغتهم فى تقدير منزلتى وإمكانياتى المادية . ولو أردت أن أفضى إليك – يا محمود – بما يعتمل فى صدرى سأعترف لك بأننى لا أود العودة إلى أية بقعة على ظهر الأرض أجد فيها ما يسرّى ويخفف عنى ؛ وعلى خلاف هذا ، أتوق باقترانى بحياة الأسر أن تلاحقنى دائماً وأبداً أحزان وذكريات موت "ليونيسا" حتى تصبح

(٦) ميلاثو أو MILAZZO: ميناء على الساحل الشمالى الشرقى لجزيرة صقلية . (المترجم)

جزءاً منى . ولو كانت الآلام المستمرة تقضى - حقًا - قضاءً مبرمًا على من يكابدها ، فإن آلامى لن تتمكن من الانحراف عن هذه الجادة لأننى أفكر فى إطلاق العنان لها حتى تنال فى بضعة أيام من الروح البائسة التى ترفرف بين جنبىَّ رغماً عنى .

آه ، يا أخى محمود !، هذه هى حكايتى التعيسة، وهذا سر زفراتى ودموعى؛ ولتحكم أنت إن كان كافياً لانتزاعها من أعماق حشاشتى وضخها فى جفاف صدرى الموجوع . ماتت "ليونيسا" ومعها دفنت آمالى التى كانت تتغذى حال حياتها على شعيرة رفيعة . أما الآن ، أما الآن ....

وعند وصوله إلى "أما الآن" التصق لسانه بسقف حلقه ولم يقو على إضافة كلمة أخرى أو إمساك الدموع التى أخذت تنسال - كما يقال - خيوطاً غزيرة على وجهه حتى بللت الأرض من تحته . كان محمود شاهداً ، ولما مرت فترة التوقف التى تسببت فيها الذكرى المتجددة للقصة المريرة حاول التخفيف بكل ما فى جعبته من وسائل عِذاب عن "ريكاردو" لكن الأخير قاطعه قائلاً :

- ما عليك أن تفعله ، يا صديقى ،وتجتهد فيه هو إرشادى إلى ما يستوجب غضب وسخط مولاى وكل المحيطين بى لكى أفعله بغرض شحن قلوبهم بالعداوة والبغضاء وجعل هؤلاء وأولئك لا يدخرون وسعًا فى الإساءة إلىَّ والتنكيل بى ؛ وبهذا الشكل تتجمع الآلام والكروب ويتراكم بعضها فوق بعض وأبلغ فى أمد قصير مرادى فى التخفف من عبء الحياة .

- الآن - قال محمود - تحققت من صدق المثل القائل بأن حرارة الكلام مرهونة بكم المشاعر التى يعتمل بها صدر الإنسان، مع أن الأحاسيس قد تُلْجم فى بعض الأحيان اللسان ؛ وفى كافة الأحوال - سواء كان ألمك هو الذى يفجر كلماتك أو كانت هى التى تسبقه وتتفوق عليه - لابد أن تعتبرنى صديقك الصدوق وناصحك الأمين . وبالرغم من أن حداثة سنى وارتدائى لهذا الزىّ قد يغريان بفقدان الثقة فيما أعدك به إلا أننى سأحاول بشتى السبل تبديد تلك المخاوف والشكوك ؛ ومع أنك لا تريد قبول نصحى ولا يدى الممتدة إليك فلن أتراجع عن عمل ما يناسبك ويخرجك من ورطتك ،

مثلما يحدث بالضبط مع المريض الذى يطلب ما يمنعونه عنه ويقدمون إليه ما يرفضه. اعلم أنه لا يوجد فى طول هذه المدينة وعرضها رجل - دون استثناء لمولاك القادم والياً عليها - يدانى القاضى نفوذاً وسلطة؛ وانطلاقاً من هذه الحقيقة التى لا مِراء فيها لا أبالغ إن صرحت لك بأننى الأعلى مقدرة فيها ، هذا لأن سيدى لا يرفض لى طلباً ولا يرد لى مشورة نظراً لمكانتى السامية عنده . أقول لك هذا كى تنعم فيه النظر وتلزم جانبى ، وسيفصح لنا الزمن عما يجب عمله لصالحنا نحن الاثنين : لجلب السلوى لك إن أردتها أو أمكنك تقبلها ، وللخروج - بالنسبة لى - من هذه الحياة إلى ما هو أفضل منها أو - على الأقل - إلى مستقر آمن لروحى عندما تحين ساعتى .

- أشكر لك، يا محمود ، عرض الصداقة هذا ، وإن كنت على يقين بأنك مهما فعلت فلن تستطيع تحقيق شيء ذى نفع لى ، لكن دعنا الآن من الكلام وهلم بنا إلى الخيام لأنى أشاهد لمة كبيرة قادمة من المدينة وأغلب الظن أنها الحاشية المصاحبة للوالى المخلوع فى طريقها إلى مقر إقامتها بالمعسكر المضروب لها حتى يتسنى لسيدى دخولها وإعداد مسكنه الجديد بها .

- هيا بنا، إذن ، يا "ريكاردو" لتشاهد مراسم حفل الاستقبال الذى سيعجبك دون شك .

- على بركة الله يا محمود، ربما أحتاج إليك لو افتقدنى الجندى المكلف بحراسة الأسرى، وهو قرصان كافر قاسى القلب لا يعرف الرحمة .

أمسكا عن الحديث ووصلا إلى مضارب الخيام مع وصول الباشا القديم وخروج الجديد لاستقباله على باب الخيمة .

كان على باشا [الوالى المخلوع] قادماً بصحبة جميع رجال الإنكشارية حامية نيقوسيا بعد سقوطها فى أيدى الأتراك ، ويصل تعدادها إلى حوالى [خمسمائة] . تراصت الحامية فى صفين على باب خيمة الوالى الجديد حسان باشا : صف يحمل البنادق والآخر سيوفا مُستلّة من أغمادها . أدى على باشا التحية منحنياً لحسان ، وردّ عليه الأخير تحيته بانحناءة أقل . دخل علىٌ بعد ذلك الخيمة الكبيرة ؛ وقدّم الأتراك

لحسان جواداً قوياً مطهماً بأفخر السروج ليركبه ثم طافوا به على الخيام التى تعالت منها الأصوات والصرخات لتملأ المعسكر والفضاء المحيط به هاتفة باللغة التركية : "يعيش السلطان سليمان، يعيش حسان والى السلطان" . كرروا الهتافات ، رافعين فى كل مرة صراخهم وجؤارهم بصورة أشد ، وبعد إتمام الطواف بجميع بقاع المعسكر أعادوه إلى الخيمة التى كان ينتظر فيها على باشا بصحبة القاضى ، ثم اجتمع ثلاثتهم لمدة ساعة .

أخبر محمود "ريكاردو" أنهم انفردوا ببعضهم ليتفقوا على كيفية إنجاز المشروعات التى بدأها على فى المدينة ولم تنتهِ . بعد فوات ما يزيد قليلاً عن ساعة خرج القاضى إلى باب الخيمة ونادى بأعلى صوته – باللغة التركية أولاً ثم العربية ثم اليونانية – قائلاً : من له حاجة أو مظلمةٍ عند الوالي القديم يمكنه التقدم للمطالبة بها دون خوف أو رهبة لأن حسان باشا المُعيَّن من قِبل الباب العالى والياً على قبرص يكفل العدالة لكل ذى حق . عند سماع هذا التصريح أخلى رجال الإنكشارية الباب أمام الراغبين فى الدخول . استأذن مِحمود فى إدخال "ريكاردو" معه ، ولما كان الأخير أحد موالى الوالى الجديد فقد صرَّح له بالدخول .

دخل لطلب العدالة مسيحيون يونانيون وبعض الأتراك ، وكانت مطالبهم تافهة استوفاها لهم القاضى فى الحال بدون محلِّفين أو سماع لدفاع ، هذا لأن كافة القضايا عندهم – ماعدا الزوجية منها – تنظر ويفصل فيها على الفور استناداًإلى وجهة رجل كفء لا إلى قانون محدد . ومن بينِ هؤلاء البرابرة – وهم كذلك بالفعل فيما يخص تلك المسائل – فإن القاضى هو المخوَّل بالنظر فى كافة القضايا التى تعرض عليه فى لحظة ليصدر فيها حكمه فى أقل من طرفة عين ، ولا يستطيع أحد الاستئناف أمام هيئة قضائية أخرى [٧] .

وفى أثناء شغلهم بهذا دخل الحاجب ليعلن أن بالباب يهودياً يريد بيع مسيحية رائعة الجمال . أذن له القاضى بالدخول وعندئذ خرج الحاجب ثم عاد بصحبة

---

(٧) لاشك أن المؤلف إما أن يكون على جهل تام بمنهاج وإجراءات وأسس القضاء فى الإسلام ، أو أنه يحاول بخبث النيْل منه ؛ ولذا جاء رأيه هذا مجافياً للحقيقة . (المترجم)

يهودى وقور يمسك بيد امرأة ترتدى ثياباً بربرية محتشمة موشاة بالقصب تبز أفخر ما تتحلى به مسلمات أغنى بيوتات فاس والمغرب اللاتى تتميزن من بين كافة نساء شمال إفريقيا - دون استثناء للجزائريات بلآلئهن التى لا تحصى - بولعهن الشديد بالملابس الفاخرة المرصعة بالأحجار الكريمة . كان وجهها مغطى بخمار قرمزى ، وعلى عرقوبيها يتأرجح خلخالان لا تخطىء العين فى أنهما من الذهب الخالص ، وتحت كميّ قميصها الحريرى الرقيق الشفاف تلمع أساور ذهبية مرصعة باللؤلؤ . لقدكانت - باختصار - ترتدى ثياباً فاخرة، مزينة - فى تناسق خلاب - بالأحجار النفيسة .

سُرَّ القاضى وصاحباه بجمال الطَّلْعة وبراعة الاستهلال، وقبل أن يتفوهوا بكلمة أو يتوجهوا بسؤال أمروا اليهودى برفع الخمار من على وجه المسيحية . امتثل لأمرهم وكشف عن وجهٍ أعشى بريقه أبصار الحاضرين وأسعد قلوبهم، كالشمس التى تتراءى للعيون العاشقة لها بين طيات السحب الكثيفة بعد ظلمة مطبقة . لكن وقع النور الرائع الوضّاح الذى كشفت عنه الحجب لم يؤثر فى أحد مثل تأثيره فى الموجوع "ريكاردو" لأنه لم يكنٍ سوى نور حبيبته القاسية ليونيسا التى جرت دموعه أنهاراً حسرة على موتها . بهت على باشا وظل مسلوب اللبّ مستسلم القلب بعد النظرة الفجائية التى وجّهها لجمال المسيحية الفريد، وبالكيفية نفسها وبالجرح ذاته أصيب قلب حسان باشا، ولم يسلم القاضى أيضاً من سهام الحب الجارحة وظل يحملق فاقد الوعى فى مفاتن ليونيسا . ولتأجج وهج قوى الحب القاهر، تولد فى قلوب ثلاثتهم فى آن واحد أمل راسخ فى إمكانية امتلاكها والاستمتاع بها؛ وهكذا ودون رغبة فى معرفة كيف ولا أين ولا متى وقعت فى يد اليهودى، سألوه عن المبلغ المطلوب فيها .

طلب اليهودى الجشع ألفى اسكودو ذهبية، ولم يكد يتم كلامه حتى أخبره على باشا بموافقته وطلب منه مرافقته إلى خيمته لينْقُده إيّاها ؛ لكن حسان باشا، الذى بدا وكأنه لن يفرط فيها ولو أضاع من أجلها حياته ، رَفع صوته قائلاً :

- أنا أيضًا على استعداد لدفع ما طلبه اليهودى، ولا أقصد بهذا التعدى على حق عليّ باشا أو منافسته بل لأحقية السلطان وحده فى الظفر بهذا الجمال؛ ومن ثمّ أعلِن على الملأ أننى أشتريها له: ولننظر الآن من سيجرؤ على انتزاعها منى .

– أنا بها أولى – رد علىّ بحدّة – لأننى للغرض نفسه أشتريها، ولأننى ذاهب بعد أيام قلائل لتقديم كشف حساب للباب العالى ولذا فمن المناسب أن أكون المنوط بتوفير سبل الراحة لها لحين حملها بعد ذلك إلى القسطنطينية لكى أكسب رضا عظمته، فأنا، يا حسان، قد أصبحت، كما ترى، رجلاً عادياً، دون ولاية أو وظيفة، ومن حقى استخدام كافة الوسائل للحصول على غيرها؛ أما أنت فقد أمّنت نفسك لثلاث سنوات قادمة وستبدأ من اليوم تولّى سلطة مملكة قبرص الغنية . لهذه الأسباب مجتمعة ولأسبقيتى فى شراء الأسيرة أطالبك بالتعقل وتركها لى.

– إننى أستحق – رد حسان – الشكر العميم لاجتهادى فى شرائها دون مطمع فى مقابل أو انتظار لقضاء مصلحة، أما بالنسبة لمسألة تدبير سبل الراحة لها فإننى سأجهز سفينة عظيمة تحملها وحدها ولن يرافقها سوى موالىّ وطاقم الخدمة .

تغير وجه علىّ ؛ انتفض واقفاً ثم استلّ سيفه وصاح قائلاً :

– بما أننى أريد حمل هذه المسيحية وتقديمها للسلطان ولأننى تقدمت أولاً لشرائها أطالبك – من منطلق العدل والحكمة – بنسيان أمرها؛ لو راودتك نفسك بغير هذا سيتكفل السيف الذى أقبض عليه بالدفاع عن حقى ووأد تطاولك .

أما القاضى الذى كان يقظاً لكل ما يدور حوله ولا يقل عن الاثنين تلظيًا لشدة خوفه من ضياع المسيحية منه ، فقد اختمرت فى رأسه فكرة يستطيع بمقتضاها إخماد النيران المندلعة والظفر فى الوقت نفسه بالأسيرة دون إثارة الشبهات حول مقصده الخبيث ؛ وهكذا فقد نهض واقفاً وحال بين الخصمين المتواجهين صارخاً فيهما :

– هدئ من روعك يا حسان، وأنت يا علىّ أمسك عليك نفسك؛ أنا هنا ولن أعدم وسيلة لرأب الخلاف بينكما وتحقيق أهدافكما فى خدمة الباب العالى .

أذعنا لكلامه؛ ولو أمرهما بما هو أعظم لفعلا .. كثير من التجلّة يكنها أهل تلك الطائفة المعيبة لشيوخهم . تابع القاضى كلامه:

– تقول يا على إنك تريد هذه المسيحية للباب العالى، ويدّعى حسان الشيء نفسه، وتستند فى أحقيتك بها إلى أسبقيّتك فى تقديم ثمنها ، وحسان

ينازعك هذا الحق • وبالرغم من أن حساناً لا يستطيع تعضيد دعواه إلا إننى أجده متساوياً معك فى الحق لتزامن نوايا كما فى شراء الأسيرة للغرض ذاته ؛ تمتاز عنه فقط بأسبقية الإعراب عن رغبتك وإن كان هذا لا يعنى الإطاحة كلية برغبته الحميدة ؛ وبعد الإحاطة بملابسات القضية أرى أن حلها الأمثل كالتالى: تشتركان فى شراء الأسيرة وتتركان أمر التصرف فيها للباب العالى لأنها اشتريت من أجله ، ومن هنا عليك ياعلىّ تسديد نصف ثمنها وحسان النصف الثانى وتبقى الأسيرة فى حوزتى حتى أرسلها معززة مكرمة - باسميكما - إلى الباب العالى ، ولأن من واجبى المساهمة بشىء ما دمت حاضراً فسأتطوع بإرسالها على نفقتى الخاصة محاطةً بأسمى آيات التبجيل والتكريم الواجبة لشخص المرسل إليه , وأعدكما بكتابة كل ما جرى هنا للباب العالى وإبراز حرصكما على التفانى فى خدمته .

أُسقط فى يدىّ العاشقين التركيين ولم يجرؤا على مخالفته، ومع أنهما لم يتمكنا من تحقيق ما يصبوان إليه من هذا الطريق ولم يكن أمامهما غير موافقة هوى القاضى إلا أن كلاً منهما لم يفقد الأمل فى الاهتداء إلى وسيلة أخرى لإشباع رغباته المتأججة• فكر حسان - الذى سيبقى فى قبرص والياً - فى إمطار القاضى بوابل من العطايا تثنيه عن عزمه وتجبره على تسليم الأسيرة له . وعلىٌ بدوره ، لمعت فى رأسه حيلة محكمة اعتقد أنها ستوصله لا محالة إلى الظفر ببغيته . ولما اطمأن كل منهما لفاعلية التدبير الذى أضمره لتحقيق غرضه أقدما - طواعيةً ودون تلكؤ - على تنفيذ حكم القاضى ، إذ سلما له الأسيرة بعد تسديد ثمنها مناصفة بينهما . قال اليهودى إن الثوب والحلىّ لا يندرجان فى الصفقة لأنهما كلّفاه ما لا يقل عن ألف إسكودو . لم يكن اليهودى يكذب لأن خصلات شعرها المنسابة على ظهرها أو الملفوفة على جبهتها كانت مجدولةً - فى روعة وإتقان بالغين - بعناقيد من اللؤلؤ . كما كانت الأساور والخلخالان مُطعَّمة أيضًا بفصوص كبيرة من اللؤلؤ . أما الثوب الحريرى الأخضر السادة الذى يغطيها من الرأس حتى أخمص القدمين فقد كان مشغولاً بضفائر ذهبية : ونظراً لفخامة الثوب وكمّ الأحجار الثمينة فقد بدا واضحًا للعيان تفاهة المبلغ الذى طلبه اليهودى فيهما . بادر القاضى - حتى لا يكون أقصر

باعًا من صاحبيه - بعرض تسديد قيمة الثوب والجواهر لكى تظهر الأسيرة أمام السلطان بنفس صورتها الحالية . قبل غريماه عرضه بامتنان وفى مخيلة كل منهما أن الأسيرة وما عليها سيئولان إليه فى نهاية المطاف .

تبقى الإشارة إلى إحساس "ريكاردو" وهو يرى حشاشة قلبه قيد البيع والشراء، والخواطر التى اعترته آنذاك ، والمخاوف والآلام التى اهتصرته وهو يشاهد - مغلول اليدين - الضياع المؤكد لكنزه الثمين ساعة العثور عليه . اختلط عليه الأمر فلم يعد يدرى إن كان نائمًا أو مستيقظًا؛ لم يصدق ما تراه عيناه إذ تصور استحالة أن يجدا أمامهما - هكذا بغتة - من ظن أنه أطبقهما عليها إلى الأبد . اقترب وسط هذه المشاعر التى تصطرع فى نفسه من صديقه محمود وسأله:

- ألا تعرفها، يا صديقى ؟

- لا أعرفها.

- اعلم، إذن ، أنها ليونيسا .

- ماذا تقول، يا ريكاردو ؟

- ما سمعته أذناك .

- اصمت، إذن ولا تُفْصِح عن هويتها - قال محمود - يبدو أن الأقدار قد صالحتك لأنها ستكون فى حوزة مولاى .

- ألا ترى أنه من الصواب الوقوف بمكان ترانى فيه ؟

- لا تفعل - أجاب محمود -حتى لا تضطرب عند رؤيتك وعندئذ تخور قواك ويكشف المستور، واجتهد فى عدم الإتيان بإشارة تنمُّ عن معرفتك إياها لأنك لو ارتكبت هذه الحماقة ستفسد على تدبيرى .

- سأنفذ تعليماتك وأتبع نصائحك .

اجْتَهَدَ بعد ذلك فى تفادى التقاء نظرته بعينيها اللتين ظلتا طوال المشهد السابق مُسمَّرتين فى الأرض ومآقيهما مغرورقتان بالدموع . اقترب منها القاضى وأمسك بيدها ثم أسلم قيادها لمحمود آمرًا إيَّاه باصطحابها إلى المدينة وتسليمها لسيدته حليمة مع توصيتها بإكرام وفادتها ومعاملتها المعاملة اللائقة بجارية الباب العالى . انصرف

محمود لشأنه وترك "ريكاردو" يتتبع بعينه نجمته الشاردة إلى أن توارت خلف سحابة أسوار نيقوسيا . اقترب "ريكاردو" من اليهودى وسأله عن المكان الذى اشترى منه الأسيرة المسيحية وعن كيفية وقوعها فى يده ؛ أخبره اليهودى أنه اشتراها من بعض الأتراك فى جزيرة "بنتنالية" ، ولم يكمل حديثه لأن نداء صدر إليه من الواليين _الجديد والمخلوع - اللذين كانا يريدان الاستفسار عما أراد "ريكاردو" سماعه ، ولذا فقد تركه واتجه إليهما . فى الطريق إلى المدينة انتهز محمود الفرصة وسأل ليونيسا - باللغة الإيطالية - عن المكان الذى تنتمى إليه . أجابته "ليونيسا" إنها من "ترابانا" . سألها ثانية إذا كانت تعرف فى تلك المدينة نبيلاً ثرياً يدعى "ريكاردو" ، تنهدت بحرقة وقالت :

- نعم أعرفه ، لسوء حظى .

- لسوء حظك ، كيف ؟

- لأن إصراره على اقتحام حياتى هو السبب فيما أنا فيه .

- وعلى سبيل المصادفة ، ألا تعرفين بالمدينة ذاتها شابًا حسن الهندام ،بهى الطلعة ، وشديد الحرص والخوف على نفسه ، له أبوان ثريان ثراءً فاحشاً ، يدعى "كورنيليو" ؟

- أعرفه هو الآخر ، لكن مَنْ أنت أيها السيد كى تعرفهما بهذا الشكل وتسألنى عنهما ؟

- أنا من مواليد "باليرمو" وبعد سلسلة من الأحداث وجدت نفسى فى هذا الزىّ المختلف عما اعتدت ارتداءه ، وأعرفهما لأنهما كانا فى حوزتى منذ أيام قلائل : "كورنيليو" أسره نفر من "طرابلس" البربرية ثم باعوه لرجل تركى من "رودس" أحضره مع بضائعه إلى هذه الجزيرة ، وقد عهد إليه بجميع ممتلكاته .

- إنه يعرف كيف يحافظ جيداً عليها مثل حرصه على ماله ؛ لكن أخبرنى أيها السيد كيف ومع مَنْ أتى "ريكاردو" إلى هذه الجزيرة ؟

- أتى مع قرصان قال إنهم أوقعوا به فى حديقة على ساحل "ترابانا" ، كما أفاد عن أسر آنسة معه ، لكنه لم يفصح عن اسمها . أمضى هنا عدة أيام

برفقة مولاه الذى كان فى طريقه إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ، ولما حان موعد السفر مرض "ريكاردو" مرضاً أقعده عن النهوض ولم يعد فى حالة تسمح له بالرحيل ، عندئذ تركه لى سيده – بعدما عرف أننى من بنى وطنه – لكى أشرف على علاجه وعهد إلىّ بأمر الاحتفاظ به لحين عودته من رحلته أو إرساله على العنوان الذى سيخبرنى به إذا قرر الاتجاه من الأراضى الحجازية إلى القسطنطينية . لكن "ريكاردو" لم يسْلم من الدّاء وقضى نحبه فى أيام قلائل وكان يهذى وهو فى سكْرة الموت ويغمغم باسم "ليونيسا" ويقول إنه يحبها أكثر من حياته وروحه . ذكر أيضاً أن تلك الآنسة غرقت بعد ارتطام السفينة التى كانت تقلها بشواطئ جزيرة "بنتنالية" . البائس ظل يبكيها ويتحسر عليها حتى أودت الأحزان بحياته فى النهاية ؛ لأنى – والحق يقال – لم ألاحظ عليه أعراض علّة جسمانية وأغلب الظن أن آلام الروح هى التى عجّلت بنهايته المفجعة .

– هذا الشاب الذى تتحدث عنه (كورنيليو) ، ألم يذكر ذات مرة فى الأحاديث التى جرت بينكما ، وأظنها كثيرة ومطولة لانتسابكما إلى موطن واحد ، عن كيفية وقوع "ريكاردو" و "ليونيسا" فى الأسر ؟

– نعم تكلم ، وسألنى إذا كانت قد نزلت بهذه الأرض مسيحية تدعى "ليونيسا" أوصافها كذا وكذا لأنه ينوى شراءها إشباعًا لنزوة أَلَمّت به فى الماضى ، ولأن الثمن الذى سيطلبه مالكها لن يزيد بأى حال عن ثلاثمائة أو أربعمائة إسكودو خاصة إذا تبين له أنها ليست غنية كما ظن فى البداية وبعد أن يكون قد قضى وطره منها وزهدها .

– لابد أنها تافهة جداً إذ لا تتجاوز قيمتها أربعمائة إسكودو ، "ريكاردو" أشد أريحية إذن وأكثر شجاعةً وسخاءً وأعظم قدراً : غفر الله لمن كانت سبباً فى هلاكه ، أى لى أنا لأننى التعيسة التى بكى موتها ، ويعلم الله كم كنت سأسدد دين الشقاء الذى كابده من أجلى لو ظل على قيد الحياة . أنا – أيها السيد –كما سبق وأعلنت ، مَنْ لم يقدرها "كورنيليو" حق قدرها وبكاها "ريكاردو" بحرقة ، وقد تعاورتنى أحداث جِسام حتى أوصلتنى لهذا الوضع

البـائس ، وبالرغم من خطورته إلا أننى مـازلت - بفـضل الله وعنايتـه - مـحافظة على شرفى وطهارتى ، وهذا مصدر سعادتى الوحيد وسط محيط تعاستى وشقائى . الآن ، لا أدرى أين أنا ، ولا من هو مولاى ، أو إلى أين يمضى بى حظى العـاثر ، ولذا أتوسل إليك بحق الدم الذى يجـرى فى عروقك -أن تمد لى يد العون وترشدنى فيما يعن لى من أمور لأنها من كل لون وجنس، وكثرتها تشوش عقل اللبيب وتثير الحيرة فى كيفية التعامل معها .

أجابها محمود قائلاً إنه سيبذل قصارى جهده ولن يدخر وسعًا فى خدمتها ونُصْحها وتقديم العون لها، وأخبرها بما دار فى خيمة الوالى الجديد وبالخلاف الذى دبّ بينه وبين الوالى القديم بسببها،وكيفية انتقالها إلى عهْدة سيده القاضى تمهيداً لإرسالها إلى السلطان سليم الثانى بالقسطنطينية ؛ كما حاول طمأنتها قائلاً إنه رغم ضعف مسيحيته إلا أن أملاً كبيراً يراوده فى الرب الحقيقى بإسباغ نعمته عليها وتخليصها من هذا المأزق ، ونصحها بالتودد إلى حليمة -زوجة القاضى - التى ستظل فى كنفها لحين سفرها إلى القسطنطينية وأخبرها بطباعها وأقصر الطرق للوصول إلى قلبها ؛ وظل يوصيها بأشياء أخرى حتى وصلا إلى البيت وعندئذ سلّمها لزوجة القاضى بعد إبلاغها برسالة سيده وتعليماته .

استقبلتها المسلمة استقبالاً حسناً ورحبت بها حين شاهدت جمالها الفتّان وثيابها الأنيقة الرائعة . عاد محمود إلى المعسكر ليقص على "ريكاردو" ما جرى بالتفصيل مع " ليونيسا" فى الطريق إلى بيت القاضى، وعندما وصف له مشاعرها نحوه بعد سماعها خبر موته المختلق اغرورقت عيناه بالدموع . كما أخبره باختلاقه لقصة أسر "كورنيليو" ليتعرف على رد فعلها ، وأنها تحدثت عنه بفتور وبكثير من الغمز واللمز . أثلج كل هذا صدر "ريكاردو" الذى التفت إلى محمود قائلاً له :

- جعلتنى أتذكر - ياصديقى محمود - حكاية قصها علىّ والدى ، وأنت تعرف ما كان يتمتع به من كياسة وسعة أفق ، وسمعت عن تكريم الإمبراطور "كارلوس الخامس" له نظراً لتفانيه فى خدمته ولوفائه بالمسئوليات الجسام فى جميع الحروب التى خاضها إلى جواره . أخبرنى

والدى أن الإمبراطور ، بعد هجومه المظفر على تونس واستيلائه عليها بأسطوله البحرى ، كان جالساً ذات يوم داخل سرادقه عندما ساقوا إليه أسيرة مسلمة رائعة الحسن والجمال . كانت أشعة الشمس تتسلل من بعض فتحات السرادق ولما دخلت الأسيرة وسقطت تلك الأشعة على جدائلها امتزج لوناهما ولم يعد بالإمكان التمييز بين شقرتيهما ؛ وهذا أمر غريب فى المسلمات المعروفات بالشعر الأسود الفاحم . كان حاضراً بالسرادق إلى جوار الإمبراطور عدد غير قليل من الفرسان والنبلاء الإسبان ، من بينهم شاعران مطبوعان : أحدهما أندلسى والآخر قطلونى . ولما شاهدها الأندلسى أكبرها وفجر جمالها ينابيع الشعر على لسانه فطفق ينشد فيها على طريقة التوشيح، ولما وصل إلى نهاية البيت الخامس أرتج عليه ولم يكمل الأنشودة لعصيان قافيتها وصعوبتها على الارتجال ؛ لكن الآخر ، الذى كان إلى جواره منصتاً، حين لاحظ توقفه وكأنهم سرقوا من على لسانه النصف الباقى من الأنشودة تدخل وأكملها دون تغيير فى الوزن والقافية . جالت هذه الحكاية بخاطرى حين وقعت عيناى على ليونيسا وهى تتهادى إلى خيمة الباشا ، وجمالها الأخاذ لا يكسف أشعة الشمس فحسب بل سماء بكامل نجومها .

– مهلاً ، يا صديقى ريكاردو توقف ولا تتقدم خطوة أخرى لأنى أخشى عليك تجاوز الحد فى الثناء على جمال محبوبتك وبشكل تبدو فيه وكأنك لست مسيحياً بل صباً متهالكاً . أعد علىّ أبيات هذه الأنشودة حتى ألتقط أنفاسى ، وبعدها نواصل الحديث فيما هو أجدى وأنفع .

– بكل سرور يا صديقى محمود. ها هى الأبيات العشرة التى ارتجلها الشاعران:

مثلما تشرق الشمس،
صبيحة يوم صافٍ ،
وعلى غرّة تأخذنا ،
وبطلعتها تخطف منا
الأبصار ، وتهدهدها .
درّة من ياقوت أملسٍ ،
لا تسمح بنمش أو بعفص ،

هكذا منها الوجه ،
رمح محمد بنصله الصلب
يفلق أحشائى ويمزقها .

– وَقْع هذه الأبيات يُسعد القلب ويُشنِّف الآذان ؛ يبدو أنك خُلقت من أجل إنشاد الشعر لأن إنشاده وتأليفه يتطلبان مهجاً رقيقة مفعمة بالأشواق .

– إن رثاء الأحوال يا صديقى مثل التغنى بالقصائد لأن كليهما أشعار ؛ لكن دعنا من هذا وأطلعنى على ما يدور بخلدك لحل مشكلتنا ، لقد كنت حاضراً ولم أفهم كلمة مما دار بين الواليين فى الخيمة ، وفى أثناء غيابك أفهمنى مولى لسيدى – وهو مرتد من "فينسيا" يعرف التركية – تفاصيل الحوار بينهما ، وما علينا الآن عمله قبل أى شىء آخر يتمثل فى البحث عن وسيلة للحيلولة بين "ليونيسا" والوقوع فى يد السلطان التركى .

– يجب السعى أولاً لنقلك من ملكية حسان إلى حيازة سيدى القاضى ، وبعدها نفكر سوياً فى الحلول المناسبة .

وفى أثناء حديثهما هذا قَدِم الحارس المكلف بأسرى حسان باشا المسيحيين واقتاد "ريكاردو" . رجع القاضى بصحبة الوالى الجديد إلى المدينة ، وفى أيامٍ قلائل انتهى من إعداد كشف الحساب الذى وضعه فى مظروف ثم سلمه بعد غلْقه وختْمه – لعلى باشا كى يحمله إلى القسطنطينية . طلب على باشا من القاضى توَخِّى السرعة فى إرسال الأسيرة إلى الباب العالى ومعها كتابه الذى وعد به حتى يتمكن من تحقيق ما يصبو إليه قبل فوات الأوان . وعده القاضى اللئيم المتيم بتنفيذ طلبه فى أقرب فرصة. انصرف علىٌّ مفعماً بالآمال الخادعة التى لا يخلو منها أيضاً قلب حسان ، ونجح محمود فى مسعاه ونقل "ريكاردو" لحيازة سيده . كانت رغبة "ريكاردو" فى رؤية " ليونيسا" تزداد بمرور الأيام وتقضّ عليه مضجعه . غيّر "ريكاردو" اسمه واستبدله بـ "ماريو" لتفادى سماع "ليونيسا" لاسمه الحقيقى قبل رؤيتها له ، ولم يكن لقاؤها بالأمر الهين ذلك لأن المسلمين شديدو الغيرة على نسائهم اللاتى يغطين وجوههن فى حضرة الغرباء ، وإن كنّ لا يعبأن بتنفيذ هذا الالتزام أمام الأسرى المسيحيين ، وربما يرجع هذا لاعتبارهم ناقصى الرجولة .

ذات يوم ، تقابلت حليمة مع "مارِيو" ودققت فيه النظر فانطبعت عندئذ صورته في قلبها . قارنت بين فتوته وبين وهن ذراعي زوجها فمالت إليه وكلفت به . أسرت بمكنون صدرها إلى "ليونيسا" التي أحبتها لجمالها وخفرها وحسن تصرفاتها ، وكانت تعاملها باحترام جمّ على اعتبار أنها جارية السلطان المعظم ، أخبرتها أن زوجها أحضر إلى الدار أسيراً مسيحياً جميل الطلعة حلو الشمائل لم تقع عيناهامن قبل على رجلٍ مثله ، وعلاوة على هذا فهم يقولون عنه إنه عريق الأصل ومن مسقط رأس محمود ، ولا تدرى كيف تطلّعه على مكنون صدرها دون أن تجعله يحتقرها أو يستصغر شأنها لعرض نفسها عليه . سألتها "ليونيسا" عن اسمه فقالت لها "ماريو" ؛ عندئذ أجابتها "ليونيسا" قائلة :

- إن كان رجلاً أصيلاً نسيباً ومن المكان الذى أخبروكِ به فلابد أننى أعرفه ، وإن كنت لا أذكر أحداً بهذا الاسم فى "ترابانا" ، وعلى أى حال دعينى أره وأكلمه وساعتها سآتيك بالخبر اليقين وأعرفك بما يمكن انتظاره منه .

- لكِ عليّ هذا - قالت حليمة - عندما يذهب القاضى لأداء صلاة الجمعة بالمسجد سآذن له بالدخول هنا حتى تتمكنى من التحدث إليه على انفراد ، ولو وجدتِ الفرصة سانحة للتلميح له برغبتى فافعلى بحذر وكياسة .

لم تكد تمضى ساعتان على هذا الحوار بين حليمة وضيفتها حتى نادى القاضى علي محمود و "ماريو" وكاشفهما بأمر مشابه : لقد أفضى العاشق العجوز بلواعجه لمولّيه وطلب منهما إسداء النصح فى كيفية التمكن من الاستمتاع بالمسيحية والوفاء - فى الوقت نفسه - بعهده فى إرسالها إلى الباب العالى ، كما اعترف لهما بتفضيله للموت آلاف المرات على تسليمها طاهرة الذيل للسلطان . أفصح لهما رجل الدين المسلم عن رغبته ، وأخذ كل طرف منهما يفكر لحسابه الخاص . أقنعاه بضرورة قيام "ماريو" - لأنه من بلدها وأقدر الناس على التعامل معها رغم عدم معرفته السابقة بها - بمفاتحتها فى الأمر ونقل رغبة سيده إليها ، فإن لم تستجب وترضخ يستخدم عندئذ القوة معها ، وساعتها لن يجيرها أحد منه لأنها فى حوزته ونزيلة داره . وبعد أن يقضى منها وطره يدّعى موتها ، وبهذا الشكل يتحلل من التزام إرسالها إلى القسطنطينية . سرّ القاضى بنصيحتهما وحملته البهجة المتخيلة على وعد محمود

بالحرية والتوصية له بنصف ثروته بعد مماته ، كما وعد "ماريو" بالعتق وبالأموال الكثيرة التى تساعده على العودة إلى وطنه غنياً مكرماً . إذا كان القاضى سخيًا فيما وعدهما به ، فإن الأسيرين كانا أسخى منه عندما أوهماه بإمكانية الارتقاء إلى القمر المنير فى عليائه ، ولقد طلبا منه – من أجل تحقيق رغبته – ضرورة عمل الترتيبات المناسبة ليتم اللقاء بين "ماريو" و "ليونيسا" دون أية منغصات .

– سأتكفل بهذا الأمر – قال القاضى – سأرسل حليمة إلى بيت أبويها (وهما مسيحيان من أصل يونانى) لقضاء بضعة أيام هناك ، وفى أثناء غيابها سآمر البوّاب بالسماح لماريو بدخول البيت وقتما يشاء ، ومن جهة أخرى سأخبر "ليونيسا" أن بوسعها الجلوس إلى ابن بلدها والتحدث معه كلما رغبت فى ذلك .

وهكذا بدأ الحظ يبتسم لريكاردو وتهب الرياح لصالحه بعد طول غياب وإن كان لايدرى ما ستسفر عنه المحاولة .

بعد اختمار الأفكار فى ذهن كل طرف من الأطراف الثلاثة كانت حليمة _ لطبيعتها النسوية وشدة تهالكها فى إشباع رغبتها – هى الأسبق فى إخراجها لحيز التنفيذ . أخبرها القاضى فى ذلك اليوم بإمكانية الذهاب لبيت أبويها للاستراحة والاستجمام الوقت الذى تريده . ولما كانت مفعمة بالآمال العريضة التى منّتها بها "ليونيسا" للانتقال إلى الفردوس الأعلى فقد أجابته بعدم رغبتها فى الذهاب حالياً ، وبأنها عندما تحس بالحاجة للترويح عن نفسها بالذهاب إلى بيت والديها ستحيطه علماً بذلك وساعتها ستصطحب معها "ليونيسا" .

– أما هذا فلا – رد القاضى بحدّة – فهى جارية الباب العالى ولا ينبغى أن يراها أو يتحدث معها أحد قبله ، خاصة إذا كان هذا الأحد مسيحيًا ، وأنت تدركين تمام الإدراك أنها فور وصولها للسلطان ستعتنق الإسلام – طَوْعاً أو كَرْهاً – وتصبح تركية .

– ستكون معى ، ولن تتعرض لأى خطر نتيجة لوجودها فى بيت أبوىّ لأننى أتعامل معهما وأتحدث إليهما دون أن يؤثر هذا على صدق إسلامى ؛ وبالإضافة إلى ما تقدم فإننى لا أنوى البقاء مدة طويلة عندهما ولن تزيد

إقامتي في ضيافتهما عن أربعة أيام أو خمسة لأن حبي الشديد لك وشغفي الجم بك لا يسمحان بفراقك أكثر من ذلك .

لم يتمادَ القاضي في اعتراضه حتى لا يثير شكوكها فيما حزم عليه أمره .

جاء يوم الجمعة الموعود وانصرف القاضي إلى المسجد ليمكث فيه ما لا يقلُّ عن أربع الساعات ؛ وفور تخطيه لعتبة الدار أمرت حليمة بإحضار "ماريو" . لم يسمح له القرصان المسيحي المكلف بحراسة بوابة الفناء بالدخول إلا بعد سماعه لصوت حليمة، وهكذا دخل "ماريو" مشوشاً يرتعد فرَقاً وكأنه مقبل على الالتحام بكتيبة من جيش الأعداء .

كانت "ليونيسا" على الهيئة ذاتها وبالثياب نفسها التي دخلت بهما خيمة الباشا جالسة عند مطلع سلم رخامي كبير يفضي إلى ممرات جناح الحريم . كانت رأسها منحنية ومستقرة على كفها الأيمن الذي يعتمد ذراعه على ركبتها ، وعيناها تتطلعان إلى الجهة المقابلة للباب الذي دلف منه ماريو ؛ وبهذا الشكل فإنها لم تره عندما توجه إلى حيث تجلس . مسح "ريكاردو"بعينيه أرجاء المكان الصامت صمتاً أخرس مهيباً حتى استقرتا أخيراً على البقعة التي تجلس فيها "ليونيسا" . حين أحس بأن عشرين خطوة ، أو ما يزيد قليلاً ، تفصله عن مصدر سروره وسعادته ، وأنه أسير تقبض يد غريبة على مفتاح مجده، انبثقت في رأسه على التو أفكار متناقضة وخواطر ألجمته وأبهجته في آن واحد . كان يتحرك آلياً ونفسه تصطرع بهذه الأشياء ، رويداً رويداً ، بسرور وألم ، خائفًا يترقب ، حينما التفتت " ليونيسا" بغتة والتقت عيناها بنظرته الفاحصة المتمعنة . تباينت أحاسيس كل منهما عند التقاء النظرات . توقف "ريكاردو" ولم يقو على إضافة خطوة أخرى إلى الأمام ، أما " ليونيسا" التي كانت تعلم بخبر موته من محمود فقد انتابها ذعر شديد ، ودون أن يطرف لها جفن أو تدير ظهرها له ارتقت متقهقرة أربع درجات أو خمسًا من السلم وأخرجت من صدرها صليباً صغيراً وراحت تقبله بلا انقطاع بينما تشير على نفسها مرات ومرات بعلامة الصليب وكأنها أمام شبح أو كائن لا ينتسب لهذا العالم .

ثاب "ريكاردو" إلى رشده وفهم الدافع الحقيقي لذعر"ليونيسا" منه ، ولذا قال لها:

– يؤسفني عدم صدق خبر موتي الذي سمعته من محمود لأنه حرك الآن مخاوفك مني . هدئي من روعك ، اهبطي وتسلحي بالشجاعة لفعل ما لم

تفعليه من قبل ، وهو الاقتراب منى ، تعالَىْ وسترين أننى لست شبحاً . أنا " ريكاردو " يا " ليونيسا" ،" ريكاردو" الذى أصابه ما لا تتصورين من ضر.

وضعت " ليونيسا" إبهامها على فمها المغلق ، وفهم " ريكاردو" من الإشارة ضرورة الإمساك عن الكلام أو خفض الصوت على الأقل • تسلَّح ببعض العزم واقترب لمسافة أتاحت له سماع هذه الكلمات :

– اخفض صوتك يا " ماريو" فهذا هو اسمك هنا ولا تتفوه بكلمة خارج نطاق ما أنا مقبلة عليه حتى لا يكون حديثنا – لو سمعه أحد – سببًا فى الفراق ثانية . حليمة ، وأعتقد أنها تسترق السمع ، ذائبة فى هواك وقد جعلتنى سفيرة لغرامها . إذا كنت لا تمانع فتحرَّ ألا يتعدى هذا نطاق المتعة الجسدية وألا يكون له تأثير على الروح ، أما إذا أبيت فعليك التظاهر بالموافقة لأنه من العته جَرْح كرامة امرأة كشفت النقاب عن لواعجها وأشواقها الملتهبة.

أجابها "ماريو" :

– لم أتصور مطلقاً ولم يدُر بخلدى ، أيتها الجميلة " ليونيسا" ، أن تطلبى شيئاً يشق علىَّ تلبيته، لكن ما تطلبينه قد خيَّب ظنونى . هل إرادة الإنسان تافهة إلى الحد الذى يمكن فيه للآخرين تحريكها والعبث بها كيفما شاءوا ؟ أو أنه من السهل على رجل مكتمل الرجولة ومحترم التظاهر فى أمور جليلة وخطيرة؟ لو كنت تعتقدين فى إمكانية أو ضرورة القيام بمثل هذه الأمور ، فافعلى ما يحلو لك لأنك مليكة مشيئتى ، وإن كنت لا تعرفينها بالقدر الكافى ولن تدركى بالتالى ما يناسبها . وحتى لا تدَّعى أننى عصيتك فى أول شيء تأمرينني به سأخالف طبيعتى وألبى رغبتك وأتظاهر بقبول مراودة حليمة حتى لا أُحرم من متعة رؤيتكْ ، ومن ثَمّ يمكنك صياغة الإجابات التى تروقك ، وأنا من موقعى هنا أبصم مقدمًا عليها • وفى مقابل هذا الذى أفعله من أجلك – وهو أقصى ما يستطاع من وجهة نظرى – أرجوك وأستحلفك بالروح التى وهبتها لك مرات عديدة وعلى استعداد

لأن أهبـهـا لكِ من جـديد ، أن تقـصى علىّ بإيجـاز كـيف انتـقلت من يد القراصنة إلى ملكية اليهودى الذى باعك مؤخراً.

- حكايتى المأساوية تحـتاج لفـرط ما بهـا من أحداث لوقت طـويل ، ومع هذا سأقص عليك أهمها . تعرف أنه فى نهاية اليوم الذى افترقنا فيه أعادت الرياح الهوجاء سفينة يوسف إلى جزيرة "بنتنالية" حيث شاهدنا سفينتكم هى الأخـرى هناك ، لكننا لم نتمكن من تفادى الصـخور واصطدمنا بـها . عندما أيقن يوسف من هلاكنا المحقق أفرغ بمهارة فائقة برميلين من الماء وأحكم غلقهما ثم ربطهما ووضعنى فوقهما ، تجرد بعد ذلك من ثيابه و أخذ بين ذراعيه برميلاً آخر وربط نفسه بطرف حبل وثبّت الطرف الآخر فى برميلىّ . قـفز إلى البـحر غـيرِ هيّاب وحـاول جذبى وراءه . لم تكن لدى الشجاعة لإلقاء نفسى مما حدا بتركىٍّ كان حاضراً لدفعى خلفه إلى البحر حيث سقطت فاقدة للوعى ولم أفق إلا عندما وجدت نفسى على البرّ بين تركيين منكفئة على وجهى وأفرغ من جوفى كميات كبيرة من الماء الذى ابتلعته . فـتحت عينىّ مـذهولة فـزعـة ووجـدت يوسف إلى جـوارى وقـد تمزقت رأسه إرباً . علمت بعد ذلك أنه عندما اقترب من الشاطئ الصـخرى ارتطمت رأسه به ولقى مصرعه فى الحال . أخبرنى التركيان أنهما جذبانى من طرف الحبل الذى كان ملفوفًا حول وسط يوسف وأخرجانى إلى البرّ و أنا شبه ميتة . لم ينج من سفينة الموت التعيسة غير ثمانية أفراد.

مكثنا فى الجزيرة ثمانية أيام بلياليها عاملنى الأتراك خلالها وكأننى أخت لهم . ظللنا مختبئين فى مغارة لخوفهم من الوقوع فى أسر الحامية المسيحية المكلفة بحراسة الجزيرة ، ولم نكن نقتات إلا على ما تقذف به الأمواج من خـبـز السـفينة الغـارقـة ويتـسلل الأتراك فى جنح الظلام لجـمـعـه من على الشاطئ . شاء حظى العاثر أن يموت قائد الحامية المسيحية بعد عدة أيام من احتمائنا بالمغارة مما أدى إلى هرب أفراد القوة التى لم يبقَ منها سوى عشرين جنديا . عرفنا هذه المعلومات من أحدهم ، وهو فتى تمكن الأتراك من أسره أثناء قيامه بصيد المحار من البحـر . بعد ثمانية أيام شاهد الأتراك

سفينة تجارية للمسلمين تقترب من الشاطئ وعندئذ خرجوا من مكمنهم وراحوا يرسلون بالإشارات التى تمكن الآخرون من التقاطها وفهمها نظراً لقرب المسافة . قصوا عليهم تفاصيل كارثتهم فاستقبلوهم بالترحاب على متن سفينتهم التى كانت تقلُّ تاجراً يهوديا ثريا يحمل منسوجات وفرشاً وحاجيات أخرى ليبيعها فى الغرب . غيرت السفينة اتجاهها لتنقل الأتراك إلى "طرابلس" وفى الطريق اشتـرانى منهم اليـهـودى بألف إسكودو، وهو مبلغ كبير حمله على دفعه وقوعه فى غرامى، كما اتضح لى فيما بعد .

بعد وصول الأتراك إلى "طرابلس" استأنفت السفينة رحلتها، وعندها حاول اليهودى – بوقاحة – الإيقاع بى . قاومته بشراسة ورددت على رغباته الخرقاء بما تستحق ، ولما يئس من الظفر ببغيته قرر التخلص منى فى أول فرصة تتاح له . عندما علم بوجود الباشا على والباشا حسان على أرض هذه الجزيرة وأدرك أنه يستطيع أن يبيع لهما بضاعته بغالى الثمن أحجم عن الذهاب إلى جزيرة "إكسيو" الكبيرة ليعرضنى هناك وقرر المجىء إلى هنا وألبسنى على النحو الذى تراه الآن لكى يغريهما بشرائى . وهذا ما حدث، لكن ما يقلقنى ويقضّ مضجعى أنهما اشتريانى لحساب الباب العالى وتَعَهُّد القاضى بإرسالى إليه .

لقد علمت بخبر موتك الزائف، ولن تصدق إن قلت لك إن هذا الخبر الذى زلزل كيانى قد أثار حسدى أكثر من حسرتى عليك ، ولا يعود هذا لإضمارى الشر لك أو الجحود أو نكران جميل بل لتمكنك من التخلص من مأساة حياتك .

– لا تتفوهى بمثل هذا الكلام يا سيدتى – أجاب ريكاردو – لأن الموت كان سيحرمنى من رؤيتك التى لا يعادلها شىء آخر فى هذه الحياة ٠ لقد كلفنى القاضى – الذى انتقلت إلى ملكيته بعد المرور بسلسلة من الأحداث لا تقل خطراً عما عانيت منه – بالمهمة نفسها التى أرسلتك حليمة من أجلها : أى أنه جعلنى سفيراً لغرامه . قبلت المهمة على مضض ، لا بقصد إشباع

نهمه بل لأتمكن من الجلوس إليكِ وتجاذب أطراف الحديث معك . ألا ترين عبث الأقدار ، يا ليونيسا ، حينما تَرسلك للوساطة فى طلب المستحيل منى ، وعندما تلقى – فى الوقت نفسه – على عاتقى بأمر لم يخطر لى أبداً على بال وأنا على أتم الاستعداد لبذل حياتى ثمناً لتفاديه ؛ ورغم كل هذا فأنا مدين لهذا القدر لأنه أتاح لى فرصة لقائك.

-لا أدرى ماذا أقول لك ، يا "ريكاردو" ، لأننى لا أدرى باباً لهذه المتاهة التى أوقعنا فيها قدرنا العاتى ؛ ما يدور بخاطرى الآن يتلخص فى ضرورة اللجوء فى موقفنا الحالى إلى أساليب المراوغة والخداع البعيدة كل البعد عن أخلاقياتنا وما درَجْنا عليه ؛ وبناءً على ما تقدم سأنقل لحليمة ما يجعلها تصبر وتنتظر ولا تفقد الأمل . ومن جانبك تستطيع إخبار القاضى بما يسليه ويخدعه ويحافظ فى الوقت نفسه على شرفى الذى أضعه أمانة فى عنقك ، وعليكِ أن تعلم أنه حقيقة مثل ضوء النهار ولم ينل منه مخلوق بالرغم مما قد تلقيه من ظلال للشك كثرة الدروب والأهوال التى تجشمتها . ستتعدد بيننا اللقاءات وتسهل ، ومن كل شغاف قلبى يسعدنى تلبيتها لكن بشرط ألا تدفعك طموحاتك المعلنة على ارتكاب حماقة من أى نوع لأننى سأتركك ساعتها إلى غير رجعة . لا تظن أن قيمتى قد هبطت وبإمكانك الحصول فى الأسر على ما لم تستطعه أيام الحرية : فأنا – بعون السماء – مثل النّضار كلما ازداد صقله كلما تضاعفت طهارته ونقاوته . يكفيك من الآن – ويجب أن يكون هذا مدعاة لسرورك – أننى لم أعد أشعر بالسأم من رؤيتك كما اعتدت فى الماضى حين كنت أجدك سالخًا وقحًا متظاهراً بما ليس فيك. لا أستنكف الآن عن الاعتراف بأننى كنت مخدوعة وأن التجارب قد أزاحت الغشاوة من على عينى . امضِ على بركة الله ، فلشدة ما أخشاه أن تكون حليمة قد سمعت ما دار بيننا من حديث ، وهى تلمُّ بطرَف من اللغة الإسبانية أو على الأقل بخليط اللغات الذى يستخدمه ويفهمه الجميع هنا .

– لا فُضَّ فوك ، يا سيدتى ، وأشكرك لمراجعة أفكارك السابقة عنى ولتفضلك بالتنازل والسماح لى برؤيتك ، وكما أشرتُ آنفاً فلربما تفصح التجارب عن

بساطتى وتواضعى وتذللى فى هواك ، وحتى لا تتعالى وتضعى العراقيل التى تعطل التعامل بيننا وما يستوجبه من لقاء ، أعدك بأننى سأكون شريفاً ومهذباً بشكل لا يمكنك تخيله . أما بالنسبة لما سأنقله للقاضى ، فاطمئنى وقرى عيناً ، ولا تنسى فعل الشيء نفسه مع حليمة . ما أريد أن تعرفيه الآن هو أننى بعد رؤيتك أصبح يراودنى أمل كبير فى اقتراب حصولنا على الحرية المنشودة . أتركك فى رعاية الله وحفظه ، وفى المرة القادمة سأقص عليكِ كيف ألقت بى المقادير إلى هذه الجزيرة بعد ترككِ ، أو – على الأصح – بعدما أبعدونى عنك .

افترقا والبهجة ترفرف بجناحيها فوقهما : سعدت "ليونيسا" بسلوكيات "ريكاردو" المهذبة ، وأثلجت صدر الأخير الكلمات الرقيقة التى نطقت بها محبوبته .

كانت حليمة عاكفة فى جناحها الخاص تدعو الله بأن يُكلّل مساعى "ليونيسا" بالنجاح ، بينما كان القاضى فى المسجد مشغول الفكر يمنى نفسه بالرد المنتظر من عبده "ماريو" بعد لقائه بليونيسا والذى هيأ له محمود – تنفيذاً لأمر سيده – الجو المناسب رغم وجود حليمة بالبيت . أذكت "ليونيسا" نيران الرغبة الخرقاء فى نفس حليمة وأفعمت صدرها بالآمال العريضة عندما أخبرتها بموافقة "ماريو" ، لكنها طلبت منها الانتظار شهرين حتى يحقق لها "ماريو" ما يتحرق إليه شوقاً أكثر منها ؛ ذلك لأن "ماريو" كان قد نذر الانقطاع لعبادة ربه طوال هذه المدة من أجل أن ينعم عليه بالخلاص من الأسر . سعدت حليمة بموافقة "ماريو" وباعتذاره المسبب وأعلنت استعدادها لعتقه قبل اكتمال مدة اعتكافه إذا لبّى رغبتها ؛ ولهذا فقد طلبت من "ليونيسا" إقناعه بالتحلل من نذره لأنها ستدفع للقاضى كل ما يطلبه فيه من مال .

قبل أن يرد "ريكاردو" على سيده تشاور مع محمود ، واتفق الاثنان على نصحه بالتعجيل بحملها إلى القسطنطينية ، وفى الطريق يحقق ما يصبو إليه ؛ ولكى يعفى نفسه من مسئولية تسليمها للباب العالى يقوم بشراء جارية أخرى ويدعى أثناء الرحلة أن "ليونيسا" مرضت مرضاً شديداً ، وفى إحدى الليالى يقوم بإلقاء الجارية فى البحر متظاهراً أنها "ليونيسا" التى فارقت الحياة ؛ ويمكن إتمام هذا الأمر بسهولة دون اكتشاف مخلوق ، وبهذه الطريقة يتحلل من الوفاء بالتزامه أمام الباب العالى . أما بالنسبة لمسألة دوام استمتاعه بالأسيرة فإنهما سيهتديان إلى حيلة مناسبة . أعمى

القاضيَ العجوزَ البائسَ هيامَه وشدة شغفه ، ولو قَصًا على مسامعه آلاف الترهات الأخرى لسارع إلى تصديقها ما دامت ستوصله في النهاية إلى مبتغاه ؛ وقد كانت كذلك حقا لأن الناصحيْن كانا قد أضمرا الاستيلاء على السفينة وقتله عقاباً على رغباته الآثمة . تطرق القاضى بعد ذلك إلى مشكلة أخرى حسبها شديدة الخطورة ، إذ أشار إلى أن حليمة لن تدعه يذهب بمفرده إلى القسطنطينية وستصر على مرافقته ، لكنه بادر بحلها مقترحاً إمكانية استبدال الجارية المزمع شراؤها بزوجته ، لتموت بدلاً من "ليونيسا" . راقت له الفكرة وانفرجت أساريره لأن رغبته في التخلص منها كانت أشد من رغبة الموت ذاته .

شهد له الناصحان (محمود وريكاردو) بعبقرية الفكرة التي وردت ببساطة على ذهنه ؛ وفى اليوم نفسه أخبر القاضى زوجته بعزمه على شد الرحال إلى القسطنطينية لتقديم المسيحية للسلطان التركى الذى لن يبخل عليه بمكافأة سخية مثل التعيين قاضياً للقضاة على حاضرة كبيرة فى حجم القاهرة أو القسطنطينية ذاتها . أثنت حليمة على قراره الصائب معتقدة أنه سيترك "ماريو" لكنها ما لبثت أن عدلت عن رأيها ونقَضَت ما سبق وأبرمته عندما تشبث القاضى بحاجته إلى مرافقة "ماريو" ومحمود معاً . وبعد أخذ وردٍّ أعلنت فى النهاية أنها لن تدعه يذهب لأى مكان ما لم تكن بصحبته . ابتهج القاضى لقرارها الأخير لأنه كان قد عقد العزم على التخلص من حِملها الباهظ الذى يطوق عنقه .

وفى تلك الأثناء لم يكف حسان باشا عن حثّ القاضى على تسليمه الأسيرة المسيحية عارضًا عليه فى المقابل قناطير مقنطرة من الذهب ومذكراً إياه بإعطائه "ماريو" مجاناً وفديته لا تقل عن ألفى إسكودو . وبقصد تشجيعه وتسهيل الأمر عليه اقترح الفكرة التى اختمرت فى ذهن القاضى من قبل ألا وهى التظاهر بموت الأسيرة عندما يرسل الباب العالى فى طلبها . وهكذا فقد تضافرت عدة عوامل جعلت القاضى يعجل بالرحيل : تلبية لنداء الرغبة المتوقدة لديه، وللفرار من ملاحقة حسان ومن مطاردة زوجته حليمة التى كانت هى الأخرى تنسج آمالاً مزيفة فى الهواء . وفى عشرين يوما فقط جهز القاضى سفينة شراعية بساريتين [8] وعلى متنها أطواق نجاة

(8) نوع من السفن ، مزوّد بعشرة مجاديف أو اثنى عشر ، ولكل مجداف مقعد لجلوس صاحبه. ويحتوى أيضاً على ساريتين وعدّة أشرعة . (المترجم)

ممتازة وبحارة مسلمون بالإضافة إلى عدد من اليونانيين المسيحين . حمل القاضى كل ثروته إلى السفينة ، ولم تترك حليمة بالبيت شيئًا ذا نفع وطلبت من زوجها السماح لأبويها بمرافقتها لزيارة القسطنطينية. لقد كانت تضمر فى نفسها فكرة مشابهة لما بيت عليه محمود النيّة : الاستيلاء على السفينة فى الطريق بمعاونة أهلها وحبيبها ، لكنها أرجأت اطلاعهم على مكنون صدرها لما بعد إبحار المركب . كانت تريد الذهاب إلى أية أرض مسيحية والعودة سيرتها الأولى والزواج من "ماريو" ، إذ اعتقدت أنه لن يمانع عندما تصبح مسيحية مثله وتحت يدها أموال طائلة .

خلال فترة الإعداد للسفر التقى "ريكاردو" بمحبوبته للمرة الثانية وأطلعها على تدبيره ، كما أطلعته بدورها على نوايا حليمة التى تحدثت معها ، واتفق الاثنان على كتمان السر وعدم البوح به انتظاراً ليوم الرحيل . عندما أشرقت شمس اليوم الموعود أقبل حسان محاطاً بجنوده لمرافقتهم إلى الميناء ، ولم يتركهم إلا بعد نشْر القلوع ، ولم ينزل عينيه من على السفينة حتى توارت فى عرض البحر ، ويبدو أن الزفرات الحارقة التى كان يرسلها العاشق المسلم وهو يرى السفينة تبتعد حاملة مهجته عبّأت القلوع بلفحها وجعلتها تندفع مسرعة إلى الأمام . كان الباشا قد فكر طويلاً وأمعن التفكير فى وسيلة تقربه من المراد وتطفئ لهيب أشواقه حتى لا يموت متلظيًا بها. هداه تفكيره إلى إعداد سفينة أخرى كبيرة بها سبعة عشر مقعداً ، جعلها على أهبة الاستعداد فى مرفأ بعيد ، ووضع على متنها خمسين جنديا من خيرة أتباعه وخلصائه وأغدق عليهم العطايا وأسرف لهم فى الوعود . لم تكد سفينة القاضى تتوارى من أمام عينيه حتى شرع فى تنفيذ مخططه وأعطى الأمر لرجاله الخمسين بالإقلاع ومهاجمة سفينة القاضى فى عرض البحر وإعمال السيف فى رقاب منْ عليها باستثناء الأسيرة المسيحية ؛ لأنه يريدها وحدها ولا يطمع فى شىء سواها ، ومن ثمّ فإنه يتنازل لهم مقدماً عن الأسلاب الأخرى التى لا تقدر بثمن . كما أمرهم بإغراق سفينة القاضى بعد ذلك والتأكد من استقرارها فى الأعماق بشكل لا يبقى معه أثر يستْدلُ منه على مكان فقدها. أيقظ الصيد الثمين عزائم رجال حسان وألهب حماسهم ضعْف المقاومة المنتظرة من بضعة أفراد عزّل لايتوقعون هجوماً من أ ى نوع فى حالتهم تلك .

مَرّ يومان على سير السفينة حسبهما القاضى قرنين من الزمان ، ذلك لأنه أراد تنفيذ الخطة من أول يوم ، لكن "ريكاردو" ومحمود أشارا عليه بضرورة التظاهر أولاً

بمرض "ليونيسا" والانتظار عدة أيام بعدها وذلك لإضفاء المصداقية على خبر موتها. أما هو ، فقد كان يريد إعلان نبأ موتها فجأة ليعجل بالخلاص من زوجته وإخماد اللهب الذى يأكل أحشاءه رويداً رويداً ، لكنه لم يجد فى النهاية بداً من النزول على رغبة ناصحيه وقبول مشورتهما .

وأثناء جريان السفينة فى عرض البحر أفصحت حليمة عن نواياها لكل من محمود و "ريكاردو" فما كان منهما إلا أن وعداها بالشروع فى تنفيذ تدبيرها عند اجتياز ممر "طراودة" أو عند المرور بقلاع "ناتوليا" . أما القاضى فقد كان فى عجلة من أمره ، ولذا فقد أوهماه بأنهما على أهبة الاستعداد وينتظران أول فرصة تلوح لهما. ولما انقضت ستة أيام على إبحارهم اعتبر القاضى أن المدة أصبحت أكثر من كافية للتظاهر بمرض "ليونيسا" ولذا فقد أمر غلاميه بضرورة القيام فى اليوم التالى بقتل حليمة وإلقائها فى عرض البحر بعد تكفينها مدّعين أنها أسيرة الباب العالى .

ومع إشراقة اليوم التالى الذى حدده محمود و "ريكاردو" للخلاص – سواء بفقد الحياة فى حالة الإخفاق أو بتحقيق الآمال إذا قدر لهما النصر – شاهدوا سفينة فى وضع قتال تتجه نحوهم بأقصى سرعة . خشوا أن تكون لقراصنة مسيحيين لأنهم وبال على الجميع : على المسلمين لأن مصيرهم سيكون الأسر ، وعلى المسيحيين أيضا لأنهم رغم عدم فقدانهم الحرية سيجردون من كل ما يملكون ولن تترك لهم الملابس التى تستر أبدانهم . لم يكن محمود و "ريكاردو" و "ليونيسا" بمنأى عن هذه المشاعر لأن سعادتهم بالتخلص من الأسر قد خالطها الرعب والفزع من عتو القراصنة وفظاظتهم ، الذين لا يرعون حرمة لقانون أو جنسية أو حتى لعقيدة، ولذا فقد استعد الجميع للدفاع دون أن يتركوا المجاديف . لم تكد تمضى بضع سويعات حتى رأوا القادمين رأى العين ، وعندئذ أطلقوا قذائف المدفعية نحوهم ، ثم خففوا سرعتهم والتقطوا أسلحتهم وانتظروهم متأهبين . حاول القاضى تهدئتهم وبثّ الطمأنينة فى نفوسهم قائلاً لهم إن السفينة القادمة تركية ولن تصيبهم بأذى ، ثم أمر برفع راية السلام البيضاء على مقدمة سفينته ، لكن هذا لم يحلْ دون الاندفاع الغاضب للسفينة الأخرى وهى تنطلق بسرعة للاصطدام بهم . وفى أثناء شغلهم بهذا التفت محمود صوْب الغرب فرأى سفينة ضخمة تحتوى – حسب تقديره – على ما لا

يقل عن عشرين مقعداً تتجه نحوهم . أخبر القاضى بما رأى ، وأكد المسيحيون العاملون على المجاديف على الهوية المسيحية للسفينة القادمة من بعيد . ضاعف كل هذا من حيرة وخوف الجميع وأسقط فى أيديهم ووقفوا منتظرين قضاء الله فيهم .

لا شك أن القاضى كان على استعداد وقتها للتخلى عن كل ما فى الأرض من متع مقابل البقاء بنيقوسيا متمتعاً – قرير العين – بنعمة السلامة : كان فى منتهى الحيرة والاضطراب وسرعان ما أخرجه من هذه الحالة الارتطام الرهيب للسفينة التركية – دون احترام لراية السلام المرفوعة ولا للأخُوّة فى الدِّين – بسفينته التى أوشكت على الغوص فى الأعماق . تعرف على القادمين عليها وتنبأ بمصيره الدامى واعتبر نفسه فى عِدادِ الأموات . لو لم يرجئ الجنود إعمال السيف ولم يتجهوا أولاً إلى السلب والنهبَ لمَا بقَى على ظهر السفينة من أحياء . وفى أثناء شغلهم بجمع الأسلاب والغنائم زعق تركيٌ بأعلى صوته منادياً :

– السلاحَ ، السلاحَ ، أيها الجنود ، سفينة مسيحية تدهمنا .

وبالفعل ، كانت السفينة القادمة تحمل الأعلام والبيارق المسيحية ، وقبل اصطدامها – فى غيظ – بسفينة حسان سأل واحد يقف على مقدمتها باللغة التركية عن هوية السفينة الأخرى فأجابوه بأنها لحسان باشا والى قبرص .

سأل التركى بِحِدّة :

– كيف تستبيحون عندئذ حُرمة هذه السفينة العزلاء ونحن نعلم أن على متنها قاضى نيقوسيا ؟

أخبروه أنهم لا يعرفون شيئاً سوى الأوامر الصادرةإليهم بمداهمتها والاستيلاء عليها ، والجندى ينفذ الأوامر وليس معنيا بمناقشتها.

ابتهج قائد السفينة المتخفية وراء الأعلام والبيارق المسيحية بما كان يود سماعه وتركها تصطدم بسفينة حسان ليجتازها مع جنوده إلى سفينة القاضى التى اقتحمها ببراعة وشجاعة فائقة وقتل ، فى أول كرّة له ، عشرة رجالٍ ممن كانوا على متنها . تعرف عليهم القاضى بمجرد أن وطئت أقدامهم سطح سفينته وأدرك الهوية الحقيقية للسفينة المهاجمة وأنها لعلى باشا الذى دفعه هيامه الشديد بليونيسا إلى التفكير فيما

تفتق عنه ذهن حسان باشا ، ولذا فقد كَمِنَ لهم فى الطريق ، ولكى لا يفتضح أمره جعل جنوده يرتدون الملابس المسيحية . بعد أن وضحت للقاضى نوايا العاشقيْن الغادريْن أخذ يلعنهما بأعلى صوته قائلاً :

– ما هذا أيها الخائن على باشا ؟ كيف تكون مسلماً وترضى لنفسك التخفى فى هيئة مسيحى لكى تغير عليَّ ؟ وأنتم ياجنود حسان ، ما الذى يدفعكم لارتكاب هذه الفعلة الشنعاء ؟ أمن أجل إشباع النزوة الداعرة لمن أرسلكم تستبيحون مهاجمة قاضيكم وسيدكم الشرعيّ ؟

هدأت قعقعة السلاح . نظروا إلى بعضهم وتعرف كل فريق على الآخر ، فقد كانوا جميعًا جنوداً لقائد واحد وخدموا تحت راية واحدة. تناوشتهم الأحاسيس وأسكتت – مؤقتًا – كلمات القاضى نوازع الشر لديهم ، وعندئذ استاءت نِواصل السيوف وتراخت العزائم . الوحيد الذى أصمَّ أذنيه كان على باشا لأنه حمَلَ على القاضى وضربه على رأسه ضربة لو لم تتحملها الخوذة المتينة لشجّته نصفين ؛ ورغم افتداء الخوذة له فقد سقط من هوْل الضربة متدحرجاً بين مقاعد السفينة . ومن موقعه على الأرض صاح قائلاً :

– آه منك يا عدو الله ، يا كافر ! أتظن أن حماقتك وسفاهتك بمنأى عن العقاب؟ كيف تجرؤ ، أيها اللعين ، على التطاول باليد والسلاح على قاضيك، حامل كتاب الله وسنة رسوله ؟

أثارت هذه الكلمات حماسة جنود حسان الذين دفعهم الخوف من سلب الآخرين للفريسة التى كانوا على وشك الظفر بها للمخاطرة بكل ما لديهم : بدأ واحد لكى يتبعه الباقون ، وحملوا بحقد وهمّة على جنود الباشا عليٍّ الذين يفوقونهم عدداً ، وفى فترة وجيزة أجهزوا على معظمهم ولم يتبق منهم غير نفر قليل ، لكن هؤلاء النفر سرعان ما ثابوا إلى رشدهم وامتلكوا زمام المبادرة من جديد واستطاعوا الانتقام لزملائهم ولم يتركوا على قيد الحياة من جنود حسان سوى أربعة مثخنين بالجراح .

كان محمود و "ريكاردو" يُطلان برأسيهما بين الفَيْنَة والفينة من فتحة خزانة المؤخرة ليستطلعا نتائج المذبحة المثيرة ، ولما وجد " ريكاردو" أن الأتراك قد فنوا وأن من بقى منهم لم يعد يقوى على الحركة من وطأة الجراح وبإمكان أى فرد

الإجهاز عليهم نادى على محمود ووالد حليمة وابنى أختها اللذين أتت بهما للاستيلاء على السفينة ، وانتزع كل منهم سيفاً من أيدى القتلى ، وبمساعدة النوتية اليونانيين الذين أخذوا يتصايحون "الحرية ، الحرية" ، ذبحوا الجرحى الأتراك ولم يتركوا أحداً منهم على قيد الحياة ، ثم انتقلوا إلى سفينة على باشا واستولوا على ما تحمل من متاع ومؤن . كان على باشا طريحاً على الأرض بعد أن مزقه تركيٌ بالسكين انتقاماً من تعديه على القاضى .

قاموا بعد ذلك – وبناءً على نصيحة "ريكاردو" – بنقل الأشياء ذات القيمة من سفينتى القاضى وحسان إلى سفينة على باشا لكبر حجمها ورفاهية تجهيزاتها وقدرتها الفائقة على تحمُّل الرحلات الطويلة والأحمال الثقيلة ، هذا بالإضافة إلى مسيحية العاملين على مجاديفها . عرض هؤلاء على "ريكاردو" – اعترافاً منهم بجميل حصولهم على الحرية وللعطايا والهبات التى وزعها عليهم – استعدادهم لحمله إلى "ترابانا" أو إلى أى مكان آخر يريده حتى ولو كان نهاية العالم . اتجه "ريكاردو" ومحمود والغبطة تسيطر عليهما ، إلى حليمة وعرضا عليها العودة إلى قبرص وأخبراها باستعدادهما لإمدادها بالبحارة وتجهيز سفينتها بكل ما تحتاجه علاوة على نصف الثروة التى أتت بها ؛ لكنها رغم المصائب الجمّة – كانت ما تزال متعلقة بريكاردو ، ولذا اختارت الذهاب معهما للأراضى المسيحية . سُرَّ والداها بهذا الاختيار الموفق.

استرد القاضى وعْيه بعدما قاموا بتطبيبه حسب الإمكانيات المتاحة ، وعندها خيّروه بين شيئين : إما الذهاب معهم إلى أراضى المسيحيين أو العودة على سفينته إلى نيقوسيا . قال لهم بما أن الحظ قد قلب له ظهر المجن وهوى به إلى تلك الحالة الأليمة فإنه يشكر لهم الإبقاء على حريته وأخبرهم بنيته فى التوجه إلى القسطنطينية ليشكو للباب العالى الضرَّ الذى أصابه على يد حسان وعلى ؛ لكنه عندما علم أن حليمة ستتركه وترتد إلى المسيحية كاد يفقد صوابه . وفى النهاية جهزوا له سفينته وزودوها بما تحتاجه الرحلة وأعطوه بعضاً من مسكوكاته الذهبية. ولما تهيأ لوداعهم رجاهم السماح لليونيسا بمعانقته مدعياً أن هذا سيسرى عنه ويجعله ينسى ما لحق به من مصائب . توسَّل الحاضرون إلى "ليونيسا" كى تسدى له هذا المعروف الذى لاينتقص من وقارها وعفتها . بعد تلبيتها لرغبتهم طلب منها القاضى ثانية وضع

راحتها على رأسه بحجه التفاؤل بسرعة برئه من جراحه . استجابت "ليونيسا" ولم تكسر بخاطره . قاموا - بعد انتهاء هذا المشهد - بإحداث ثقب كبير فى سفينة حسان ثم نشروا قلوعهم للهواء العليل الرطب القادم من الجنوب ، وما هى إلا سويعات قليلة حتى توارت عن نواظرهم سفينة القاضى الذى كان يرقب - بعينيه المغرورقتين بالدموع - الرياح وهى تحمل ممتلكاته وزوجته وحشاشة قلبه بعيداً عنه.

بأحاسيس مختلفة عن القاضى كان يبحر "ريكاردو " ومحمود ؛ وهكذا تجاوزوا بسرعة فائقة - دون التعريج على يابسة - ممر "طروادة"، ودون إرخاء القلوع أو الحاجة لاستخدام المجاديف وصلوا إلى جزيرة "كورفو" الحصينة حيث تزودوا بالمياه ثم واصلوا تقدمهم ، دون هوادة ، فمروا على جبال "أكروثيرأونس" -ACROCERAU NOS القبيحة (٩) . وفى اليوم التالى لاحت لهم من بعيد "باتشينو" و "تيناكراثيا" بجبلها الممتد داخل البحر ، وفى طيرانهم وعلى مرمى البصر تراءت لهم جزيرة مالطة الشهيرة . لقد كانت السفينة السعيدة تبحر بخفة ورشاقة .

بعد أربعة أيام من المرور بمالطة شاهدوا جزيرة "لمبادوسا" ثم الجزيرة التى تحطمت عندها سفينتهم وعندئذ ارتعدت فرائصهم من مرارة الذكرى . فى اليوم التالى رأوا أمامهم الوطن الحبيب المبتغى ؛ تجددت فى قلوبهم البهجة وتماوجت أنفسهم بشتى ألوان السعادة . [من أعظم النعم التى يمكن أن يحظى بها الإنسان فى هذا الوجود الوصول سليمًا معافى إلى أرض الوطن بعد معاناة الأسر الطويل ، ولا يوجد شيء آخر يعدلها سوى حلاوة النصر على الأعداء] .

كان "ريكاردو" قد عثر على صندوق مملوء بالأعلام الصغيرة والرايات المثلثة المصنوعة من الحرير متعدد الألوان فقام على الفور بتزيين السفينة وتجميلها بها . والسفينة التى طويت أشرعتها واكتفوا بتشغيل مجاديفها بالتناوب كانت تتهادى صوب الميناء وتتعالى منها الأصوات المرحة من حين لآخر . حين شاهد الناس تلك السفينة الجميلة المزركشة تتهادى فى طريقها إلى اليابسة تركوا ما بأيديهم وخرجوا عن بكرة أبيهم إلى الساحل .

---

(٩)خلع "هوراثيو" [فى الأنشودة الثالثة] صفة القبح على هذه الجبال، وقد اقتدى به "ثريانتس" فى العبارة السابقة. (المترجم)

طلب "ريكاردو" من "ليونيسا" التزين لتكون على تلك الهيئة التى دخلت بها خيمة الباشا لأنه ينوى مداعبة والديها دعابة ظريفة . أسرفت فى الزينة والتحلى باللآلىء فتألق جمالها ، الذى يتضاعف مع البهجة ، وأثارت الإعجاب والانبهار من جديد . وفى الوقت نفسه ارتدى "ريكاردو" ومحمود والمسيحيون العاملون على المجاديف الملابس التركية ، فقد كان يوجد ما يكفيهم وزيادة من ملابس القتلى الأتراك .

دخلوا الميناء فى حوالى الثامنة من صباح ذلك اليوم الوضاح الهادئ الساكن الذى بدا وكأنه قد تهيأ لمشاهدة هذا الرسو السعيد . وقبل دخول الميناء كان "ريكاردو" قد أطلق المدافع الموجودة على ظهر السفينة وردت عليه المدينة بطلقات أخرى عديدة .

ساد الهرَج والمرَج بين الخلائق التى تنتظر السفينة المزركشة ، وعندما شاهدت العمائم البيضاء تتوج رءوسًا تبدو وكأنها مسلمة اعترتها الريبة وخافت أن تكون هدفًا لمكيدة مدبرة . وعلى الفور تأهبت مليشيات المدينة فحملت أسلحتها وحاصرت الميناء بينما انتشر الفرسان على طول الساحل . أسعد هذا الظن منْ كانوا يقتربون ببطء ، وعلى مقربة من الشاطئ ألقوا المرساة وتركوا المجاديف واصطفوا طابوراً ثم نزلوا واحداً واحداً إلى الأرض التى راحوا يقبلونها والدموع تنهمر مدراراً من عيونهم . عندما رأتهم الحشود وهم يفعلون هذا أدركت أنهم مسيحيون تمكنوا من الاستيلاء عنوة على تلك السفينة . خرجت حليمة بعد ذلك مع عائلتها (أبيها وابنى أختها) ؛ وأخيراً جاء الدور على الجميلة "ليونيسا" التى خرجت ووجهها مغطى بنسيج قرمزى شفاف. كانت تتوسط "ريكاردو" ومحمود ، وخلب المشهد عيون الجموع الغفيرة التى كانت تتطلع إليهم .

جثوا على الأرض مثل الذين سبقوهم وراحوا يقبلونها بشغف . اقترب منهم حاكم المدينة وقائدها فعرفهم فى الحال ، وللتعبير عن سعادته الغامرة برؤية "ريكاردو" جرى نحوه فاتحًا ذراعيه لكى يعانقه . كان برفقه الحاكم "كورنيليو" وأبوه ، والدا "ليونيسا" وأقاربها ، عائلة "ريكاردو" ، لأنهم جميعاً سادة المدينة وأشرافها .عانق "ريكاردو" الحاكم وبادله التحية ، ثم قبض بيمناه على يد "كورنيليو" ، الذى امتقع لونه وارتعدت فرائصه بعد تعرفه على غريمه ، وباليسرى أخذ يد "ليونيسا" وقال :.

– أرجو أن تتسع صدوركم – أيها السادة – لسماع هذه الكلمات قبل دخول المدينة والتوجه إلى أقرب كنيسة لشكر الرب الذى نجانا من الهلاك وأيدنا بنصره .

أجابه الحاكم أنهم جميعًا آذان صاغية لسماع كل ما يعتمل بصدره . التف وجهاء المدينة وسادتها حول ريكاردو الذى علا صوته قليلاً بهذه الكلمات :

– لابد أنكم ما زلتم تذكرون المصيبة التى حاقت بى عند اختطاف ليونيسا منذ شهور مضت من حديقة "لاس سالييناس" ؛ ولم يغب عن بالكم أيضاً ما فعلته لاسترداد حريتها حين تناسيت نفسى وقدمت كل ما أملك محاولاً فك إسارها ، وبرغم ما ينطوى عليه هذا العمل من أريحية وسخاء إلا أننى لم أبتغ به مدحاً ولا ثناءً لأننى كنت أقوم ساعتها بافتداء روحى. أما بالنسبة لما حدث لكلينا بعد ذلك فإنه يتطلب وقتاً طويلاً ومقامًا غير هذا ولساناً زلقاً غير لسانى المتلجلج ، ولذا أكتفى الآن بالإشارة إلى أنه بعد العديد من الأحداث الغريبة ، وبعد فقدان الأمل آلاف المرات فى الاهتداء إلى وسيلة تنقذنا من محنتنا ، فإن عناية السماء – التى لا نستحقها – قد أعادتنا فى النهاية إلى الوطن الحبيب طافحى السرور مترعين بالثروات . مصدر هناءتي ورضاى لا يعود لتلك الثروات أو للحرية المستردة بل لرؤية معذبتى وهى ترفل فى ثياب الحرية وروحها مشرقة بالبهجة . ويزداد شعورى بالرضا لرؤية السعادة ترفرف بجناحيها على الذين رافقونى واقتسموا معى الأوقات العصيبة البائسة . جرت العادة على تغيير المصائب والأحداث للطباع وزلزلة الأفئدة والقضاء على الهمم الوثابة ؛ لكن المعدن الأصيل لا تنال منه الأهوال ولا توهنه الخطوب ، من هنا تتجلى هيمنة الإرادة السماوية على ما عداها من قدرات وطاقات بشرية . أود الإشارة – من خلال ما عرضته آنفًا – إلى أننى لم أكتف بتقديم ممتلكاتى لفديتها بل بذلت روحى أيضًا قرباناً لهواها، فلم أترك وسيلة أو حيلة إلا ولجأت إليها وخضت الأهوال واضعًا رأسى على كفى من أجل استرداد حريتها ؛ وإذا كان عمل مثل هذا جديراً بالشكر والامتنان والمكافأة فى مقام غير هذا المقام فإن حسبى الآن منه ما سترونه بأعينكم .

قام عندئذ برفع إحدى يديه وأماط اللثام من على وجه ليونيسا فكان مثل من أزاح سحابة كانت تحجب ضوء الشمس الجميل . ثم أردف قائلاً :

- آه ، يا كورنيليو ! هلم لأسلمك الجوهرة التى يجب أن تحتفى بها وتقدرها أكثر من كل نفيس وغالٍ ؛ وأنت - أيتها الجميلة " ليونيسا" - اقتربى كى أقدمك لمن حملته دائمًا فى ذاكرتك . نعم ، من أجل هذه لا يدخر المرء وسعًا فى البذل والعطاء لأن الحياة والثروة والجاه لا يساوون شيئًا إذا ما قورنوا بها . استلمها - أيها الفتى المحظوظ - وإذا كان بمقدورك الذهاب بخيالك بعيداً فاعلم أنها ذات قيمة عظيمة ، أثمن من كل ما فى الأرض من كنوز . ومعها أعطيك نصيبى الذى أتحفتنى به السماء وهو يزيد عن ثلاثين ألف إسكودو . تمتع بكل هذا فى هدوء وراحة وطمأنينة ، وارفع يديك إلى السماء داعيًا الرب بأن يكون هذا لسنوات مديدة عامرة بالسعادة . فلا حاجة لى بالغنى بعد أن أصبحت بدونها ، فمن تنقصه "ليونيسا" لا معنى لحياته .

صمت عند هذا الحد وكأن لسانه قد التصق بسقف فمه بيْد أنه استطاع بعد قليل إضافة ما يلى قبل تدخل الحاضرين :

- عفوك يا إلهى ! كم تشوش الأعمال المضنية الذهن وتربك العقل ! أيها السادة ، لقد دفعتنى الرغبة فى تقديم الخير إلى إهمال إعمال الفكر فيما أقول، فمن غير المعقول أن يبدى أحد كرمه فى شىء لا يخصه : بأية سلطة أستبيح لنفسى تقديم " ليونيسا " لآخر؟ أو كيف يمكننى التنازل عن شىء بعيد المنال ؟ "ليونيسا" وليّة أمرها ، وفيما عدا والديها - أنعم الله عليهما بالسعادة وطول العمر - لا يحق لأحد إلزامها بشىء أو إملاء إرادته عليها. وإذا كان ما تقدم قوله ينطوى على أى التزام يسىء إليها فإننى أمحوه وأعتبره كأن لم يكن ؛ ومن ثمّ فإننى أسحب كلامى السابق ولا أعطى لكورنيليو شيئاً لأننى ، ببساطة ، لا أستطيع ؛ أقر فقط بما سبق وأعلنته بخصوص تنازلى عن ثروتى لليونيسا ولا أطمع فى مكافأة على هذا سوى حسن تفهمها لنواياى الشريفة التى لم تتجه مطلقًا إلى طريق يخالف ما تقتضيه عفتها الفريدة وجمالها الخلاّب وقيمتها العظيمة .

لاذ "ريكاردو" بالصمت وعندئذ أمسكت "ليونيسا " بطرف الحديث :

– لو أننى أسديت معروفاً لكورنيليو وقت هيامكَ بى ، يا "ريكاردو" ، وغيرتك علىّ فإنه كان شريفًا ولم يتعدّ حدود المألوف وجاء تلبيةً لرغبة والدىّ وامتثالاً لأوامرهما لأنها اختاراه ليكون زوجًا لى. لابد أن يهدئ هذا من روعك ويرضيك خاصة بعد ما أثبتت لك التجارب طهارة ذيلى وعفتى . أخبرك بهذا ، يا "ريكاردو" ، لتعلم أننى كنت دائمًا ملك نفسى ولم يكن لأحد علىّ ولاية سوى أبوىّ اللذين أتوسل إليهما الآن ، بكل ما يقتضيه الواجب من تواضع وتقدير ، بالإذن لى كى أتحدث عما لمسته فيك من سخاء وشجاعة منقطعة النظير .

أجابها والداها بعدم ترددهما فى إعطائها الإذن لثقتهما الكبيرة فى رجاحة عقلها وحصافتها اللتين تستثمرهما دائماً فيما يعلى قدرها ويعود عليها بالخير .

بهذا التصريح واصلت الحصيفة "ليونيسا" حديثها :

– أتمنى ألا آتى بما يجعلنى أبدو طائشة. أيها الشجاع "ريكاردو" ، ينبغى أن تعرف أن إرادتى التى كانت مشوشة ومتشككة حتى الآن قد حزمت أمرها لصالحك ، وهذا لكى يعلم الرجال – على الأقل من اعترافى لك بالجميل – أن النساء جميعهن لسن جاحدات. أهبك نفسى وأعدك بألا أكون لغيرك ما حييت ، هذا إن لم يكن لديك مانع يحول بينك وبين اليد الممدودة إليك بطلب الزواج .

بدا "ريكادو" غائبًا عن الوعى ولم يهتد إلى طريقة يرد بها على " ليونيسا" إلا بالجثوّ على ركبتيه أمامها وتقبيل يديها [وكثيراً ما جاهد لأخذهما عنوة مرات عديدة سابقة] وذَرْف الدموع الحنونة الولهانة مدراراً . سالت دموع "كورنيليو" غمّاً وكدراً ، ودموع والدى "ليونيسا" بشْراً وسروراً ، ومن فرط التقدير والبهجة دموع الحاضرين . كان أسقف المدينة حاضراً فلم يضيعوا الوقت وانطلقوا مسرعين إلى الكنيسة حيث تم زواجهما على يد الأسقف وبمباركته . عمت الفرحة أرجاء المدينة وظلت الصواريخ النارية ترتفع إلى عنان السماء طوال تلك الليلة ، واستمرت الاحتفالات والألعاب التى أعدها أقارب العروسين عدة أيام .. قنعت حليمة بالزواج من محمود بعدما أيقنت من استحالة تحقيق رغبتها فى اتخاذ "ريكاردو" زوجاً ،

وشهدت الكنيسة أيضاً مراسم عقد قرانهما . تجلى كرم "ريكاردو" وسخاؤه عندما تنازل عن جزء من نصيبه فى الغنيمة لوالدى حليمة وابنى أختها ، وهو مال كثير يكفيهم جميعاً للتمتع بحياة كريمة . بقى الجميع فى النهاية أحراراً سعداء ، وتجاوزت شهرة "ريكاردو" حدود صقلية ووصلت إلى إيطاليا وأصقاع أخرى عديدة تحت اسم "العاشق السخِى" ، وامتدت إلى يومنا هذا فى أبنائه الكثيرين من "ليونيسا" التى أصبحت مثلاً يحتذى فى الحصافة والعفة والخفر والجمال .

* * *

" رينكونيته " و كورتاديو"

في يوم شديد القيظ من أيام الصيف التقى ،عند خان" ألمولونيّو" الرابض بين حقول" ألكاديا" الشهيرة المترامية الأطراف – الواقعة على الطريق المتجهة من قشتالة إلى أندلوثيا –فتيان يتراوح عمراهما بين أربعة عشر وخمسة عشر ربيعاً ، ولا يزيدان بحال عن السابعة عشرة .على قسمات وجهيهما تبدو أمارات الظّرْف ولا يستر جسديهما غير أسمال بالية : لا يوجد عليهما أىّ نوع من المعاطف ، وسروالاهما من نسيج الكتان الخشنِ ، ولا تقعِ العين على أثر للجوارب . كان أحدهما ينتعل بقايا حذاء ممزق من الحلْفاء بينما تغطى ظاهر قدميّ الآخر أشلاء حذاء بلاِ نعل ؛ وبهذا الشكل فقد كان ما ينتعلان أقرب إلى القيد الخشبى للعبد الآبق إلى ما يشبه الحذاء . على رأس الأول تظهر قلنسوةخضراء مما يستخدمه صيادو الجبال ، بينما تتوج رأس الثانى قبعة بلا شريط متهدلة الحواف غِائرة الوسطِ . على صدرِ الأول وظهره يتدلى قميص بلون الماعز الجبلى قريب الشّبه من الحشيّات التى يفتح طرفاها ويغلقان بالحبال ، بينما يأتى الآخر شبه عارٍ اللهم إلا من نتوء ضخم جاثم على صدرِه ، سيتضح فيما بعد أنه زينةِ لطوق قميص منشّاة بالشحوم ومبعثرة الخيوط كأنها نسالة. بداخل ذلك النتوء كانت تحفظ بعناية أوراق لعب أخذت شكلاً بيضاوياً لكثرة تعامل المقص مع أطرافها التى تهرأت نتيجة لطول الاستخدام.كان الفتيان ملوّحى الوجه بفعل أشعة الشمس الحارقة ، طويلى الأظفار متسخى الأيدى ، يحمل أحدهما نصف حسام والثانى سكيناً ضخماً مما يستخدم فى المجازر .

تسلل الاثنان إلى إحدى السقائف الموجودة أمام الخان لتمضية القيلولة وبعد أن جلس كل منهما قبالة الآخر خاطب كبيرهما الأحدث سناً قائلاً له :

– هل أسمح لنفسى بالتوجه بالسؤال لفخامتكم عن الأرض التى تنتسبون إليها ، وعن الطريق الذى سيشرف بوجهتكم ؟

أجاب الصغير :

– لن تصدقوا ، نيافة السيد المبجل ، لو أخبرتكم أننى لا أعرف لى أرضًا وليست لدى أدنى فكرة عن الطريق التى سأسلك .

رد الكبير :

– بالطبع أنتم لم تهبطوا فجأة من السماء ؛ ولما كان هذا المكان مما لا يُلقى فيه بعصا الترحال فلا بد أنكم ستخلّفونه وراء ظهركم .

اعتدل الصغير ليقول له :

– معكم الحق كله ، ومع هذا فلم أورد على مسامعكم غير الحقيقة لأن أرضى ليست لى بأرض ، فليس لى بها سوى أب يجحد بنوتى وزوجة أب تتفنن معي فى تطبيق قاموس معاملة الربائب . أما طريقى فتتحكم فيه يد القدر ولا أذيع سراً إن أخبرتكم باستعدادى لإلقاء مرساتى عند أول مرفأ أجد فيه من يسبغ على بالضروريات اللازمة لاجتياز هذه الحياة البائسة .

سأله الكبير حينئذ :

– ألا تؤدون عملاً ما ؟

– لا أعرف شيئاً– أجاب الصغير – سوى الركض مثل أرنب برىٍّ والقفز مثل الظباء واستعمال المقص بدقة متناهية .

– شيء رائع ، وفى الوقت نفسه نافع ومفيد لأنكم لن تعدموا قساً يتحفكم بما تجود به سلة القرابين (من نبيذ وخبز) مقابل استخدامكم لمهارتكم فى قص الأزاهير الورقية لتزيين كنيسته يوم الخميس المقدس .

ردّ الصغير :

– لكن رغبتى فى القصّ لا تسير فى هذا الاتجاه ، فأبى – باركته العناية الإلهية – خياط وصانع جوارب ، وقد علمنى كيفية قص الأُنتيبارّاس وهى ، كما تعلم ، جوارب تغطى ظواهر الأحذية ، فأتقنت الصنعة وكنت موشكاً على بلوغ درجة معلم بها لولا معاندة الحظ وإصراره على بقائى مهمّشاً مغموراً .

– مثل هذا وأكثر يحدث للطيبين من الناس – ردّ عليه الكبير – ولطالما سمعت أن أصحاب المهارات الجيدة يصيبون أردأ الحظوظ ، وإن كنت لا أرتاب فى أنكم ما زلتم فى سنّ تسمح لكم بإمكانية تعديل مسار حظكم. وإن كانت فراستى لا تغرر بى أو تخدعنى عيناى فإنكم تمتلكون مواهب سرية أخرى لا تودون إماطة اللثام عنها .

- لقد أصبت كبد الحقيقة ، لكننى لا أستطيع المجاهرة بها لكل عابر سبيل .

خاطبه الكبير قائلاً:

- لو فتشت فى كثير من الأصقاع لن تجد فتى أصلح لكتمان السر منى ، ولكى أجبرك على الإفصاح عن مكنون صدرك و أجعلك تأمن جانبى سأطلعك أولاً على أحوالى و أنبئك بخبرى لأنى أعتقد أن الأقدار لم تجمعنا هنا عبثاً بل لغاية سامية ، ألا وهى توثيق عرى الصداقة بيننا حتى آخر العمر . أنا ، أيها الفارس النبيل ، من بلدة " فوينفريدا" (١) وهى مكان معروف ومشهور بكثرة المترددين عليه من المسافرين المحترمين . اسمى "بدرو دل رينكون" ، وأبى رجل ذو شأن لأنه وزير للصليبية المقدسة أو مسوّق للشفاعات البابوية إن أردت استخدام التسمية التى تطلقها العامة عليه عادة. ومن صحبتى القصيرة له بلغت مرتبة عالية من البراعة فى عقد صفقات بيع الشفاعات بحيث قلَّ من تفوق علىّ فى هذا المضمار.وبما أننى كنت مولعاً بمال الشفاعات أكثر من الشفاعات ذاتها فقد عانقت ذات يوم كيساً طويلاً مترعًا بذلك المال وانطلقنا سوياً صوب مدريد بغواياتها السهلة المتعددة ، وما هى إلا بضعة أيام حتى برزت أحشاء كيسى ، ولكثرة ما عبثت أصابعى بداخله فقد تركَت به طيّات تفوق ما يوجد منها على منديل سجين مصفد اليدين .. تبعنى من تقع مسئولية المال على عاتقه .. أوقعوا بى.. لم أجد آذانًا صاغية ، وإن كان السادة القضاة قد رقوا لحداثة سنى واكتفوا بعقوبة الربط فى العمود والجلد والتغريب أعوامًا أربعة بعيداً عن العاصمة .. تجملت بالصبر وزممت كتفىّ لأعانى الجلد والإهانة؛ وفى لهفة الخروج إلى المنفى لم ألتفت - نظراً للسرعة التى خففت بها - لمسألة البحث عن مطيّة . التقطت ما وصلت إليه يداى من متعلقاتى الشخصية وما بدا لى أكثر أهمية ، ومن بينها أوراق اللعب هذه [وفى تلك الأثناء كشف

---

(١) توجد فى إسبانيا عدة قرى بهذا الاسم ،لكن العبارة اللاحقة (مكان معروف ومشهور بكثرة المترددين عليه ..) تقطع بأن القرية المقصودة هى "فوينفريدا" الواقعة فى "وادى الرملة" Guadarrama والتى تبعد عن مدينة "شقوبية" بحوالى ثلاثة فراسخ . (المترجم)

عن مـخبـأ الأوراق فى النتوء المتـدلى من صـدره] التى كـسبت بهـا لقـمة العيش من الطواف بالخانات المتناثرة على طول الطريق من مدريد إلى هنا واللعب مع نزلائها لعبة الواحد والعشرين . ومع أنك تراها معطوبة بائسة إلا أنها تحسن جيداً لمن يفهمها ؛ ولو كنت متمرساً فى هذا النوع من اللعب لعلمت أن منْ يتحفه الحظ بالآس فى الورقة الأولى يضمن الفوز فى لعبة الواحد والعشرين. وعلاوة على ذلك فقد علمنى طبّاخ أحد السفراء فنون اللعب المختلفة فحذقتها كما تحذق فن قص الجوارب . وهكذا فقد أبْعدتْ عنى هذه اللعبة شبح الهلاك جوعاً ، فأينما أحلُّ لا أعدم أبداً من يهوى تمضية الوقت فى لعب الأوراق. والآن دعنا–على سبيل التجربة –ننصب الشّباك وننظر ما إذا كان سيقع بها عصفور من هؤلاء البغّالين الموجودين بالمكان :أردت أن أقول هيا بنا نجلس ونتظاهر بلعب الواحد والعشرين ، وإذا خطر ببال أحدهم الانضمام إلينا ثالثاً سيكون أول منْ يفرغ محتوى كيسه.

رد عليه الثانى قائلاً :

– لقد غمرتنى بفيض كرمك وأسرتنى بجميل صنعك عندما أطلعتنى على خبايا حياتك ، وهذا يضطرنى بالطبع للإفصاح عما يخصنى منها ولو فى كلمات معدودة : أنا–يا سيدى الفاضل–من مواليد بقعة مباركة [2] بين "شلمنقة" و "مدينة الكامبو" ، ووالدى خياط علمنى صنعة استعمال المقص فصرت أقص الجيوب بدلاً من الأقمشة . ضقت ذرعاً بضيق سبل العيش فى القرية وبالمعاملة البغيضة لزوجة أبى . تركت بلدتى ويممت شطر "طليطلة" لأمارس نشاطى ، وفيها أطلقت لمواهبى العنان ، فلم أدع كيساً متدليا ولا جيباً متخفيا إلا زارته أصابعى أو عمل فيه مقصى حتى ولو كان محروساً بعيون "أرجوس" [3] ذاته ... وطوال أربعة الأشهر التى أمضيتها فى تلك المدينة تمكنت من تفادى كل ما يعكر الصفو ، فلم يضيّق علىّ

---

(٢) يقول النقاد إن المقصود "بالبقعة المباركة" هنا غرفة نوم أسقف "شلمنقة" . (المترجم)

(٣) "أرجوس" Argos شخصية أسطورية تتسم باليقظة التامة وإمكانية الرؤية فى جميع الاتجاهات نظراً لتمتعها بأكثر من عين فى منتهى الحدّة ، كما أخبر البعض بأنها مزودة بمائة عين . (المترجم)

الخناق أبداً فى مكان ما ولم تفزعنى الشرطة أو يَش بى مخبر سرّى. حقيقة أنه منذ ثمانية أيام وصل خبر مهارتى - عن طريق أحد العملاء السريين - إلى "صاحب الشرطة" فأراد رؤيتى لولهه الشديد بأصحاب المواهب مثلى ، وبما أن تواضعى الجمّ يمنعنى من التعامل مع شخصيات خطيرة ومهمة فقد قررت عدم تلبية رغبته ، وهكذا تركت المدينة على عجل دون أن يسمح لى الوقت بحمل مال أو امتطاء ركوبة أو احتلال مقعد على مركبة المسافرين المغادرين أو ملء فراغ على عربة كارّو .

علّق "رينكون" قائلاً :

- حقّا إنها لسيرة مدهشة . أما الآن وقد تعارفنا كما ينبغى ، فمن رأيى أن نترك المجاملة ونعترف دون أدنى خجل أننا لا نملك فلساً واحداً ولا ما هو أدنى من ذلك .

- كما تشاء -أجاب "دييجو كورتادو" [وهذا هو اسم الصغير طبقاً لاعترافه] - وبما أن صداقتنا لا بد أن تكون أبدية فمن المستحسن أن نبدأها الآن بما تستحقه من الطقوس المعتادة المحمودة .

وعندئذ نهض الاثنان وتعانقا بحرارة وودّ ثم جلسا ليلعبا لعبة الواحد والعشرين بالأوراق المشار إليها آنفاً بعد أن أزالا ما عليها من قشّ وغبار ، مهملين ما علق بها من شحوم وعلامات غشّ فارقة ، وما هى إلا لحظات حتى تبين أن "كورتادو" لا يقل براعة فى اللعب عن أستاذه "رينكون" .

خرج أثناء ذلك بغّال إلى السقيفة لينعم بالهواء المنعش وعندما وجدهما يلعبان استأذنهما للاشتراك ثالثاً فرحبا به ، ولم تكد تمرُّ نصف ساعة حتى ربحا منه اثنى عشر ريالاً علاوة على اثنين وعشرين مرابطياً [٤] فكأنما أصابته للخسارة اثنتا عشرة طعنة برمح متوّجة باثنتين وعشرين كآبة.

---

(٤) الريال والمرابطى من المسكوكات الإسبانية القديمة ، وهما - كما نرى - من المفردات العربية التى احتفظت بها اللغة الإسبانية وإن كانت قيمتهما فيها تختلف عن نظائرهما من المسكوكات الأندلسية . (المترجم)

ولما رأى البغّال أن خصميه صبيان خُيِّل إليه أن باستطاعته استرداد ما خسره من مال ، لكنه فوجئ بامتشاق أحدهما لنصف سيفه وبإمساك الآخر لمقبض سكينه الضخم ، ولو لم يخف لنجدته زملاؤه لأصابه منهما مكروه ولا ريب.

كانت تمر فى تلك الساعة جماعة من المسافرين على صهوات الخيول فى طريقها، لتمضية القيلولة ، بخان "ألكالدى" الذى يبعد عن خان " ألمولونيّو" بما لا يزيد عن نصف فرسخ ؛وعندما شاهد المسافرون الصبيين يتشاجران مع البغّال ترجلوا وهدّأوا من ثورتهم ، ثم سألوا الصبيين إذا كانا ذاهبين إلى إشبيلية فبإمكانهما مرافقتهم حتى هناك .

أجاب "رينكون" :

- نعم ، نحن ذاهبان إلى هناك ، ويسرنا خدمتكم فى الطريق وتلبية كافة أوامركم .

لم ينتظرا دعوة ثانية وقفزا أمام الدواب مخلّفين وراءهما البغّال فى حالة نفسية لا يحسد عليها ، وصاحبة الخان فى إعجابها الشديد بحسن تربية الصعلوكين ، وكانت قد استرقت السمع لحديثهما دون أن يفطنا إليها. وعندما أخبرت البغّال بما دار بينهما من حديث حول ورق اللعب المغشوش طار صوابه وطفق ينتف لحيته وأراد اللحاق بهما ليسترد ما خسره ؛ لأنه من العار - حسب قوله - وقوع رجل ناضج راشد مثله فى شرك متشردين صغيرين . عمَدَ رفاقه إلى تهدئته ناصحين إيّاه بعدم الذهاب حتى ولو كان من أجلِ عدم انتشار خبر سذاجته وغفلته بين الناس مما سيجعله مدعاة للهزء والسخرية . لم تُعزِّه كلمات زملائه ولم تقنعه ، لكنها كانت كفيلة بإجباره فى النهاية على البقاء .

وفى الطريق أظهر "رينكون" و "كورتادو" تفانيهما البالغ فى خدمة المسافرين فوثقوا بهما وسمحوا لهما بالارتقاء على عجزى بغلين . كان بوسعهما اغتنام العديد من الفرص لجسٍ دواخل حقائب أنصاف سادتهما ، لكنهما أحجما حتى لا يُحرما من الرحلة الهنيئة إلى إشبيلية التى يتحرقان شوقًا لرؤيتها .

وبرغم ذلك ، فعندما دخلا المدينة بصحبة الرّكْب ساعة الصلاة من باب "الجمرك" (٥) لم يتمكن "كورتادو" من مقاومة رغبته فى شقّ حقيبة رجل فرنسى كان ضمن المجموعة ، وهكذا أعمل فيها سكينه الضخم وأصابها بجرح بالغ وعميق تبدّت على إثره أحشاؤها ، وبخفة أخرج منها قميصين جيدين وساعة شمسية ، علاوة على دفتر مذكرات . لم تقنعهما هذه الأشياء عندما تبيناها وفكرا بأن الفرنسى لم يكن بحاجة لظهر بغل لحمل هذا المتاع القليل التافه .. أرادا العودة إلى استكشاف بطن الحقيبة من جديد ، لكنهما لم يفعلا نظراً لغياب الحافز ولرضاهما بقسمة الحظ والنصيب .

كانا قد ودّعا قبل إغارتهما على الإفرنسى مَنْ قاموا بإعالتهما وإطعامهما حتى ذلك المكان ، وفى اليوم التالى باعا القميصين بعشرين ريالاً فى السوق المقام خارج باب "أرينال" . قاما بعد ذلك بالتجول فى المدينة ، فزارا الكاتدرائية الرئيسية وأعجبا بضخامتها وفخامة معمارها ، ودهشا عند النهر لرؤية الخلائق الكثيرة المنهمكة فى شحن أسطولٍ يتألف من ست سفن ضخمة . انتزعت منهما رؤية السفن تنهيدة عميقة، وسرت فى أوصالهما رعْدة من احتمال أن ينتهى بهما المطاف ذات يوم للاستقرار إلى الأبد فى قاع إحداها عقاباً لهما على ما يقترفانه من أعمال أثيمة . أثار دهشتهما أيضًا رؤية أعداد كبيرة من الأولاد الذين يحملون السلال ويعرضون خدماتهم على الناس ، فاتجها إلى واحد منهم وسألاه عن طبيعة عمله وما يتطلبه من مشقة وجهد وعما يدره من عائد يومىّ.

كان الفتى الذى توجها إليه بالسؤال من مقاطعة "أشتوريش" ، وقد أخبرهما أن العمل مريح ولا يستوجب دفع "قبالة" (٦) أوضماناً من أحد السادة ويصل ريعه فى بعض الأيام إلى خمسة وستة ريالات يستطيع المرء أن ينفق منها– كملك – على مأكله ومشربه ومتعه وأن يتناول الطعام وقتما يريد ، وذلك لتوافره على مدار الساعة حتى فى أصغر حانوت بالمدينة.

---

(٥) يقع هذا الباب بالقرب من ترسانة بناء السفن فى إشبيلية ، وقد تم بناؤه عام ١٥٨٧م مكان الباب القديم المواجه لقوس "سان ميجل" . (المترجم)

(٦) "قبالة" alcabala كلمة عربية يراد بها نوع من الرسوم يتم سداده للمتقبل ، أى الذى يحتكر أنشطة السوق . (المترجم)

ارتاح الصبيان لتقرير الأشتوريشي عن العمل ، لأن فكرة حمل بضائع الناس تتلاءم كثيراً مع أهوائهما وتعتبر غطاء آمنا لأنشطتهما وستسمح لهما بدخول المساكن دون عقبات ؛ ولذا قررا شراء ما تتطلبه المهنة من أدوات إذ لم يكن العمل الجديد يقتضى الخضوع لاختبار مسبق أو امتحان فى القدرات . سأل الولد الأشتوريشى بعد ذلك عن الأدوات المطلوبة فأخبرهما أن على كل واحد منهما شراء كيس صغير – نظيف أو جديد – وثلاث سلال ، اثنتان كبيرتان والثالثة صغيرة : السلة الأولى لحمل اللحوم ، والثانية للأسماك ، والثالثة للفاكهة ؛ أما الكيس فيستعمل لحمل الخبز . ثم اقتادهما إلى مكان بيع هذه الأشياء فقاما بشرائها على الفور من النقود التى توفرت لديهما من ثمن بيع ما استوليا عليه من الفرنسى ، وما هى إلا ساعتان فقط حتى نالا إجازة العمل الجديد كما تشهد بذلك طريقة حملهما للأكياس والسلال . لم ينس الدليل إخبارهما بالأماكن التى يتعين عليهما الوقوف بها ومواقيت كل منها : فى المجزر وميدان "سان سلبادور" كل صباح ، فى شادر السمك أيام تفريغ شحناته من نهر الوادى الكبير ، فى ميدان "كوستانيا" كل مساء ، وفى السوق الكبير الذى يقام بالمدينة كل خميس .

وعيا الدرس جيداً وحفظاه فى الذاكرة ، ومع إشراقة صباح اليوم التالى كانا واقفين بميدان "سان سلبادور" ، وكان ظهورهما فى هذه الساحة مثار اهتمام زملائهما فى المهنة فطفقوا يمطرونهما بوابل من الأسئلة كان الصبيان يجيبان عنها بما يتوقع منهما من فطنة وتحفظ. وأثناء ذلك مرّ جندىّ وطالب لاهوت فاسترعى انتباههما نظافة سلال المستجدين . نادى الطالب على كورتادو واستدعى الجندىّ "رينكون" .هرع الصبيان مرددين فى صوت واحد :

– رهن إشارتكما ، أيها السيدان .

ثم أضاف "رينكون" :

– افتتاح مبارك ، بإذن الله ، لأننى سأبدأ مزاولة المهنة على يديكم .

أجابه الجندى :

– لن يخيب ظنك ، لأنى بصدد إقامة حفل اليوم لعدد من صديقات محبوبتى ويلزمنى الكثير من الحاجيات .

– فى هذه الحالة أتوسل إليكم بشراء كل ما يحلو لكم ، فلدى من العزم والقوة ما يجعلنى أحمل هذا الميدان بكامله ، ولو اقتضى الأمر المساعدة فى طهيه سأفعل عن طيب خاطر .

سر الجندىّ من خفة ظل الصبى وعرض عليه الالتحاق بخدمته وترْك هذا العمل المضنى ، فأجابه "رينكون" قائلاً : لما كان هذا أول يوم لى فى العمل الجديد فإننى جدّ راغب فى اختبار حظى فيه وعدم تركه سريعاً ، ومع هذا أُعطيك كلمتى من الآن أنك ستكون أول من التحق بخدمته عندما أزهد عملى ولن أقدم عليك إنساناً آخر حتى ولو كان الكاهن ذاته.

تبسم الجندى ضاحكًا من قوله وحمّله أشياء كثيرة ثم أرشده لبيت سيدته بغرض التعرف عليه والتمكن من الذهاب إليه مستقبلاً بمفرده دون حاجة إلى مرشد .وعده "رينكون" بأنه سيكون عند حسن ظنه . أنقده الجندى ثلاثة فلوس (٧) وبعدها رجع "رينكون" بأقصى سرعة إلى الميدان حتى لا تفوته فرصة ما ، عاملاً فى ذلك بنصيحة الولد "الأشتوريشى" الذى أوصاه بتوخى السرعة فى العودة إلى نقطة الانطلاق ، ولم يغفل أيضًا نصيحته الأخرى المتعلقة باختلاس كمية لا تسترعى الانتباه من الأسماك صغيرة الحجم مثل السردين وأم الخلول لكى يتبلّغ بها ويتمكن ، بالتالى ، من تقليص مصروفاته الشخصية لذلك اليوم ، على أن يتم هذا بكياسة وحذر حتى لايفقد الثقة التى تعتبر بمثابة الركيزة الأساسية لمهنتهم تلك .

ورغم السرعة التى عاد بها "رينكون" إلا أنه وجد صاحبه منتظراً فى المكان الذى انطلقا منه . اتجه إليه "كورتادو" وسأله عن حظه مع الجندى ففتح "رينكون" يده وأبان عن الفلوس الثلاثة ، عندئذ أدخل "كورتادو" يده هو الآخر فى عبّه وأخرج كيساً أثرياً منتفخاً بعض الشىء وقال له :

– قدم لى الطالب المحترم هذا الكيس علاوة على الأجرة وقدرها فلسان . خذ الكيس واخْفِه تحسباً لما قد يحدث.

لم يكد "رينكون" يخفى الكِيس حتى شاهدا الطالب مقبلاً وهو ممتقع اللون وعليه أمارات الاضطراب الشديد ، توجه إلى "كورتادو" وسأله إذا كان قد رأى –مصادفة –

---

(٧) فلوس (مفردها : فلس) وهى عملة نحاسية قديمة . (المترجم)

كيساً أوصافه كذا وكذا يحتوى على خمسة عشر إسكودو ذهبية بالإضافة إلى ثلاثة ريالات وبعض العملات المرابطية الأخرى ،ضاع منه أثناء تجواله بالسوق للشراء .
ردّ عليه "كورتادو" بمداراة مدهشة ودون اختلاج عضلة واحدة من وجهه :

- كل ما أستطيع قوله عن هذا الكيس يتلخص فى أنه كان سيسلم حتماً من الضياع لو توخيت الحذر وحفظته فى موضع آمن لا تصل إليه الأيدى.

ردّ عليه الطالب قائلاً :

- لم تنطق بغير الحق ، وأعترف بذنبى لأننى لو حفظته فى مكان آمن لما تمكنوا من سرقته.

قال "كورتادو" عندئذ :

- أُثنى على شجاعتك فى الاعتراف بذنبك ، ولما كانت لكل علّة فى هذه الحياة دواء إلا الموت فإننى أنصحك بأن تفيد نفسك من أمر يدعونا الربّ بالركون إليه ألا وهو الصبر ، فالأيام تتعاقب وكما تعطى تأخذ ، وما يدريك لعل الشخص الذى سرق منك الكيس يثوب إلى رشده ذات يوم ويندم على فعلته ويعيده إليك بعد أن يكون قد تلظى بنيران جرمه.

قال الطالب :

- يكفينى منه عودة الكيس ، وأتنازل له عن حرقة العقاب وعذاب الضمير.

تابع "كورتادو" حديثه:

- أما أنا ، ياحضرة المحترم ، فلا يمكن أن تسوّل لى نفسى الاعتداء على هذا الكيس لأن انتماءكم إلى "أخوية مِقدسة" يجعل من مجرد التفكير فى هذا الجرم كبيرة من الكبائر وانتهاكاً لحرْمة المقدسات.

- وكيف يكون انتهاكاً للمقدسات –رد الطالب الموجوع–وأنا لست بقسيس ، بل سادناً لأحد أديرة الراهبات. أما المال الذى كان بالكيس فهو حصة من عوائد الوَقْف على الدير وقد سلّمه لى صديق كاهن ، وهو مال مقدس ومبارك.

- كما تصنع خبزك تأكله - قال "كورتادو" معزياً - غير أن يوم الحساب آتٍ ولا ريب وفيه يظهر المستور ، وسترى ما سيحل بذلك الخبيث الذى تجرأ وبدّد حصّة الوقف ، لكنى أستحلفك بحياتك ، أيها السّادن ، أن تحيطنى علماً بجملة عوائد هذا الوقف فى السنة.

أجابه السّادن وهو يشتاط غضباً :

- لتذهب جميع أموال الوقف إلى الجحيم! أيسمح ما أنا فيه بحساب ريع هذا الوقف! لو كنت تعرف شيئاً عن الكيس أخبرنى به ، وإذا كنت لا تعرف أستودعك الله ، أما أنا فعلىّ أن أذهب وأُعلن عنه.

- عين الصواب - قال "كورتادو" - وكن حريصاً على الإدلاء بالأوصاف الكاملة للكيس ومحتوياته لأنك لو أخطأت قيد شعرة فلن تراه فى هذا العالم ثانية ، أقول لك هذا على سبيل النصح فقط .

- كن مطمئناً - قال السّادن - فأوصاف الكيس مطبوعة فى ذاكرتى بصورة تفوق قرع الأجراس ، ولن أُخطئ فى خيط واحد منه.

قال هذا وأخرج من جيبه منديلاً مزركشاً ليجفف عرقه الذى كان يتساقط على وجهه مثل قطارة وعندما لمحه "كورتادو" قرر الاستيلاء عليه.

انصرف السّادن لحال سبيله ، لكن "كورتادو" تبعه ولحق به عند الرصيف المنحدر المخصص لبناء السفن . نادى عليه ثم انتحى به جانباً وأخذ يقصّ على مسْمعَيْه العديد من الترّهات حول موضوع سرقة الكيس وإمكانية استعادته ، محملاً إيّاه بالآمال العريضة ، لكن كلامه كان غامضاً ومبتوراً مما جعل السّادن ينصت إليه مذهولاً وقد أُشكل عليه ، ونظراً لعدم قدرته على فكّ طلاسم ما يسمعه فقد كان يطلب من محدّثه تكرار ما يقول مرتين أوثلاثاً.

كان "كورتادو" يصوب - أثناء حديثه - إلى عينىّ السّادن نظرات مباشرة ، مسترسلة وحادة ، ويبادله الآخر - مشدوهاً بكلامه -نظرات مماثلة. انتهز "كورتادو" فرصة هذا الذهول لكى يسرق المنديل من جيب السّادن ، وبعد إتمام عمله بخفة وبراعة ودّعه مواسياً معزياً ، وقال له إنه سيحاول رؤيته مساء ذلك اليوم بالمكان ذاته

لأنه يشك في زميل له بالمهنة ، في مثل حجمه وعمره تبدو عليه أمارات اللصوصية وأنه سيضيق عليه الخناق ويضطره ، إن آجلاً أو عاجلاً ، للاعتراف بالسرقة.

خففت كلمات "كورتادو" بعض آلام السّادن وواسته قليلاً ، لكنه سرعان ما ودّعه ليعود أدراجه حيث ينتظر زميله "رينكون" الذى كان يشاهد من موقعه القريب ما يجرى بينهما. كان موجوداً بالمكان أيضاً أحد حاملى السّلال يراقب ما يحدث ، ولم يكد "كورتادو" يفرغ من إعطاء المنديل لرينكون حتى اقترب منهما وسأل :

– أيسمح لى السيدان الفاضلان بالسؤال عما إذا كانا قد دخلا المدينة من بابها المشروع [٨].

– إننا لا نفهم ما تعنيه أيها السيد المبجل – أجاب رينكون.

– ألا يفهم السيدان "المُرْسيّان" [٩] ما أقول حقاً ؟

– لسنا من طيبة ولا من "مرسية" – رد "كورتادو" –. إذا كنت تريد قول شيء آخر فهاتِ ما عندك ، وإلا فامضِ على بركة الله واتركنا وشأننا.

قال لهما الحَدَث حينئذ :

– أما زلتما لا تفهمان قصدى ؟ ينبغى إذن إفهامكما الأمر على مهل وصبّه فى حلقيكما بمجدرة من فضة : أريد أن أعرف ، يا صاحبيّ السعادة إذا كنتما من طائفة اللصوص ، ولِمَ السؤال وأنا بالإجابة عليم! لكن أخبرانى : هل مررتما بجمارك السيد "مونيبوديو" ؟

– أيدفع اللصوص مُكوساً فى هذه الأرض ، ياسيدى ؟ – سأل "رينكون".

– إن لم يدفعوا الضرائب – فإنهم على الأقل يسجلون أسماءهم عند السيد "مونيبوديو" لأنه أبوهم ومعلمهم وملاذهم ؛ ولذا أنصحكما بالذهاب معى

---

(٨) المقصود هنا– كما سيتضح فيما بعد – إذا كانا يمارسان النشل بتصريح ومباركة زعيم اللصوص والمتشردين بالمدينة . (المترجم)

(٩) نسبة الى مدينة "مرسية" ؛ لكن المقصود بها – طبقًا للغة اللصوص الخاصة – مَنْ يحترف النشل والسرقة . (المترجم)

لتقديم فروض الطاعة والولاء له ، لأنكما لو لم تفعلا لن تجرؤا على النشل دون تصريحه ، ولو سوّلت لكما نفساكما المخالفة ستعضان أنامل الندم .

- كنت أظن - قال "كورتادو" -أن اللصوصية مهنة حرة مُعفاة من الضرائب والقبَالة وما يُدفع فيها يكون فقط لإسكات الوشاة والبصّاصين، أما إذا كانت لكل مَحلة نظمها الخاصة فلا مناص من الرضوخ للمعمول به فى أرضكم لأنه سيكَون بالتأكيد أصوب من غيره نظراً لما تتمتع به مدينتكم من مكانة سامية فى العالم أجمع. والآن لو تفضل صاحب السيادة وتشرف باقتيادنا إلى مقر هذا السيد المحترم الهمام الذى أتوقع - حسبما سمعت منك -أن يكون محنكاً وبارعاً فى فنه براعة لا تخطر لأحد على بال.

- إن براعته وحنكته لا حدود لهما- ردّ الحدَث - ، ويكفى أنه منذ أن تولى قيادنا وأصبح كبيرنا (أى منذ أربع سنوات) لم ينفذ حكم الإعدام إلا فى أربعة منّا، ولم يتعرض للجلد غير ثلاثين ، أما عقوبة العمل بالتجديف فى باطن السفن فلم تنفذ إلا فى اثنين وستين فقط.

عقَّبَ "رينكون" على كلام الحدث قائلاً :

- إنه بالفعل يستحق الإشادة وأن يُدوى اسمه فى العالمين.

لم يهتم الحدث بالتعليق على العبارة السابقة وقال لهما :

- والآن هيا بنا ، وسأشرح لكما فى الطريق ما يتعين عليكما معرفته وما ينبغى جريانه على لسانيكما من مفردات ومصطلحات خاصة.

وهكذا أخذ يلقنهما فى الطريق الطويل دروساً كثيرة ومتشعبة من معجم لغة اللصوص.

سأل "رينكون" الدليل :

- بالمناسبة ، هل صاحب السعادة لص أيضاً؟

- نعم ، من أجل خدمة الرب والناس الصالحين ، وإن كنت لست ضالعًا فى المهنة لأننى ما زلت مبتدئاً فى السنة الأولى التمهيدية.

لم يطق : "كورتادو" صبراً وقال :

- أرجو منكم المعذرة لهذه الملاحظة التى أبديها لكم : لقد رأيت كثيراً وسمعت أكثر لكننى لم أسمع أبداً عن لصوصية فى العالم من أجل خدمة الرب وعباده الصالحين.

فقال الحدَث :

- لستُ ، ياسيدى ، ممن يُقحمون أنفسهم فى اللاهوت ، لكننى أعرف أن بإمكان أى إنسان - من خلال عمله - حمد الله وشكره والثناء عليه بل وإسداء العون - وفقاً لقواعد الأخوية التى سنّها السيد مونيبوديو - لجميع إخوته فى العماد.

- لاشك أنها أخوية صالحة ومقدسة - رد "رينكون" - لأنها تحمل اللصوص على شكر الرب والتوجه إليه بخالص الأعمال.

- إنها صالحة ومقدسة - أضاف الدليل بحدّة - إلى أبعد الحدود. فتعليمات كبيرنا تقضى باقتطاع جزء من المسروقات للصدقة أو لشراء الزيت لإضاءة القناديل للقديسين المشهود لهم بالتقوى والصلاح فى المدينة ، وقد لمسنا آثاراً جليلة وجليّة لهذا المسلك الطيب ، فقد حوكم زميل لنا منذ أيام قلائل بتهمة سرقة حمارين وتعرض لشتى ألوان التعذيب دون أن يبوح بكلمة واحدة رغم هزاله وشدة ضعفه. ونحن أصحاب المهنة نعزى هذه المكرُمة لصدق إيمانه وتقواه ، ذلك لأن قُواه لم تكن كافية لتحمل أول كرّة للجلاد [ثم أخذ يشرح لهما ما استغلق عليهما من معنى المفردات الخاصة بلغة اللصوص والواردة بكلامه السابق] ، وعلاوة على ما تقدم فلنا صلواتنا وتسابيحنا التى نؤديها بانتظام على مدار الأسبوع ، والكثيرون منا لا يمارسون السرقة يوم الجمعة ولا يتحدثون يوم السبت مع أية سيدة تدعى "ماريا".

- كل هذا جميل ورائع -عقّب "كورتادو" -، لكن ، ألا تُقدمون هبات أو كفّارات أخرى غير التى ذكرت ؟

- هبات وكفارات ! -تعجّب الدليل - هذا مستحيل لأن المتبقى بعد الاستقطاعات التى تخصم من المسروقات وتوزع على بعض الجهات الأمنية والمرشدين لا يمكّن السارق من تقديم هبة أو كفّارة خاصة إذا لم يكن هناك أمر صريح قد صدر بها ، وهذا لأننا لا نذهب إلى الكنيسة أبداً للاعتراف ، وعندما تتلى منشورات التجريم الكنسى على رءوس الأشهاد فإننا لا ندرى عنها شيئاً لسبب بسيط وهو عدم وجودنا هناك ، فنحن لا نؤم الكنيسة إلا أيام الأعياد والاحتفالات حيث يجتمع الناس بكثرة وتكون الفرصة مواتية للعمل.

سأل "كورتادو" متعجباً:

- وبهذا فقط تدّعون أنكم من الأتقياء الصالحين ؟

- وما وجه الغرابة فى ذلك - أجاب الحدث - ألسنا أفضل من الهراطقة المرتدين ، ومن قتلة آبائهم وأمهاتهم ، أو من اللوطيين ؟

- هؤلاء جميعًا فى الإثم سواء - رد "كورتادو" - لكن مادامت الأقدار قد رتبت لنا الانضمام لهذه الأخوية فهيا بنا نستحث الخطى لأننى جد مشتاق لرؤية السيد "مونيبوديو"الذى كثرت الأحاديث حول فضائله الجمّة.

- ستلبى رغبتكم حالاً -ردّ الدليل - ذلك لأننا أصبحنا على مرمى حجر من داره. ستنتظران لدى الباب وسأدخل أنا أولاً لأرى إن كان مشغولاً أو غير مشغول لأنه يجتمع عادة بأعضاء أخويته فى مثل هذه الساعة.

- آمل أن تكون ساعة مناسبة ومباركة -رد عليه "رينكون" .

سبقهما الدليل ودلف إلى دار متواضعة سيئة المظهر ، ووقفا ينتظرانه خارج الباب. ظهر ثانية ونادى عليهما فدخلا ثم أشار إليهما بالانتظار فى فناء الدار المعبد بالآجر الأحمر اللامع ، الممسوح والنظيف. فى جانب من الفناء كان يوجد مقعد بثلاثة قوائم ، وفى الجانب الثانى جرّة مكسورة العنق فوقها إبريق فى مثل حالها ، وفى الجانب الثالث حصيرة من الخيزران ، بينما يتوسط الفناء إصيص من أصص الحبق التى تشتهر بها إشبيلية .

كان الفتيان يفحصان باهتمام أثاث الدار ، ولما وجد " رينكون" أن السيد "مونيبوديو" قد تأخر فى المجىء منح نفسه حرية ولوج صالة واطئة فشاهد فيها – معلقًا على أوتاد – سيفين للمبارزة وترسين صغيرين من الفلّين ، بالإضافة إلى صندوق كبير دون غطاء وثلاث حصر أخرى من الخيزران مفروشة على الأرض. كما شاهد صورة للعذراء ساذجة الصنع معلقة على أحد الحوائط وتحتها تتدلى سلّة صغيرة من السعف وإلى جوارها طاسة كبيرة مثبتة فى الحائط ، فأدرك "رينكون" بفطنته (وكان صادقًا فيما ذهب إليه) أن السلة لتلقى الصدقات والطاسة للمياه المقدسة .

وأثناء تجولهما بالدار دخل شابان فى العشرين من عمريهما يرتديان ملابس الطلاب ، ثم دخل بعدهما اثنان من حاملى السلال بصحبة رجل ضرير ، ودون أن يتفوه أحدهم بكلمة أخذوا يجوسون فى الفناء .. بعد لحظات دخل رجلان مسنّان يرتديان ملابس سوداء وبيد كل منهما مسبحة كبيرة ، وعلى وجهيهما تبدو – من آثار الوحم عليها – أمارات الخطورة والمهابة .. وفى إثر هذين الأشيبين المتجهمين دخلت امرأة عجوز ترتدى ملابس فضفاضة ، وقبل أن تنطق بكلمة اتجهت من فورها إلى الصالة واغترفت بورع شديد كمية من الماء المقدس ثم جثت على ركبتيها أمام صورة العذراء واسترسلت فى صلاة عميقة لفترة ليست بالقصيرة قبّلت الأرض خلالها عدة مرات ورفعت كفيها ورأسها إلى السماء مرات أخرى ،ثم نهضت وأودعت صدقة فى السلّة وانضمت بعد ذلك إلى القوم الذين تجمعوا فى فناء الدار .ودون حاجة إلى التعريف بمن حضر بعد ذلك فقد وصل إجمالى الذين تجمعوا بفناء الدار أربعة عشر شخصًا متنوعى الملابس والمهن .. وفى النهاية زيّن المحفل رجلان شريرا المنظر تبدو عليهما أمارات البسالة والإقدام ، لهما شاربان طويلان ويغطيان رأسيهما بقبعتين عريضتى الحواف ويطوقان عنقيهما بياقتين خشنتين مثنيتين ويرتديان جوربين ملونين . كانا مسلحين بسيفين طويلين وبطبنجتين تتدليان من جرابين مشدودين إلى زناريهما ، وما إن لمحا "كورتادو" و "رينكون" حتى توجها إليهما بعد تدقيق النظر فيهما وسألاهما إذا كانا من الأخوية ، وعندئذ رد "رينكون" بالإيجاب فى إيماءة مصطنعة بالاحترام الشديد .

في تلك الأثناء نزل السيد "مونيبوديو" من الطابق العلوي فاستقبله الحشد المتحرق شوقًا لرؤيته بحفاوة بالغة . كان يبدو في الخامسة أو السادسة والأربعين من العمر ، طويل القامة ، قمحي اللون ، غائر العينين ، حاجباه متصلان في المنتصف ولحيته كثّة سوداء .كان يرتدي قميصاً مفتوحاً يكشف عن صدر غزير الشعر كغابة مورقة، وفوق القميص معطف طويل تبلغ أطرافه قدمين ينتعلان حذاء بلا كعب ، ويغطي رجليه إلى العقبين سروال فضفاض طويل من نسيج الكتان ، ما قبعته فكانت مما يرتديه السّوقة : مرتفعة الوسط عريضة الحواف ، وعلى صدره وظهره يمتد سيْر من الجلد يتدلى منه - على الطريقة الموريسكية - سيف عريض وقصير ، وينتهي ذراعاه القصيران المشعران بيدين سميكتين وأصابع مفلطحة . لم يكن يظهر من ساقيه شيء ، لكن حجم حذائه يوشي بقدمين هائلتين .. لقد كان حقاً ، أنموذجاً متفرداً للبربري الأشد جلافة وفظاظة في العالم أجمع . نزل بصحبة الدليل الذي أمسك بيدي الوافدين الجديدين وقدمهما إليه قائلاً :

- هذان هما الفتيان الطيبان اللذان أحضرتهما لك يا صاحب السعادة ، فهل تتكرم بفحصهما للحكم على جدارتهما بالانخراط في سلك الأخوية ؟

- هذا ما سأفعله بكل سرور - أجاب "مونيبوديو" .

نسينا الإشارة إلى أن "مونيبوديو" تلقى من الحشد فور ظهوره التحيات العميقة الحارة عدة مرات ، في حين اكتفى الرجلان المسلحان العابسان بخلع قبعتيهما له من خلف ستارة الملابس والأسلحة التي تطوق جسديهما ثم عادا إلى التجوّل في ركن من فناء الدار ، وفي الركن الآخر تفقد "مونيبوديو" (أوالزعيم) زائريه ثم اتجه إلى المستجدين وسألهما عن عملهما ومسقط رأسيهما واسميهما .

أجابه "رينكون" :

- الأمر بالنسبة للعمل لا يحتاج إلى إيضاح خاصة وأننا نمثل الآن أمام حضرتكم ، أما مسقط الرأس فلا أهمية لذكره وكذلك الأبوان لأن المناسبة غير مشرفة حتى تعلي من قدريهما .

فرد عليه الزعيم قائلاً :

- إنك على حق يا فتى ، لأنه من المستحسن أن تظل هذه الحقائق طيّ الكتمان ، فلو عاند الحظ وجرى بما لا نشتهي فمن المستقبح أن يرد على لسان قاضٍ أو يجرى قلم كاتب عدل ليسجل فى المنشور العام "أن فلاناً بن فلان، من بلدة كذا قد تم شنقه أو جلده يوم كذا" أو شيئًا من هذا القبيل ، فهذا مما لا تود الأذن سماعه على الأقل ، ومن ثمّ أعود وأكرر أنه من الأفضل عدم الإفصاح عن الموطن أو ذكر الوالدين بل إن الاحتياط يقتضى تبديل الاسم الأول للشخص باسم آخر وإن كان لا خوف من الإفصاح عن مثل هذه الأشياء بيننا ، وبناء على ما تقدم ذكره لا أريد سوى معرفة اسميكما فقط .

نطق "رينكون" باسمه وكذلك "كورتادو" .

- اسمحا لى - قال الزعيم - بأن أخلع عليكما من الآن فصاعداً اسم "رينكونيته" و "كورتاديّو" (١٠) لأنهما يتلاءمان جداً مع عمريكما ومع نظامنا الخاص بتحوير أسماء الأعضاء ، وإلى جوار هذين الاسمين المعدلين نحتاج لمعرفة الاسم الحقيقى لوالد كل منكما لأننا اعتدنا إقامة العديد من القدّاسات سنوياً على أرواح الهالكين منّا بقصد افتدائها من العذاب ، ولكى يصل ثواب تلك الصلوات إلى الأرواح المعنية ولا يخطئها ينبغى ذكر من تؤدى لهم على الوجه الصحيح . وتكاليف هذه القدّاسات نحصل عليها من صندوق الأخوية الذى يتم تمويله من الاستقطاعات المفروضة على الأشياء المسروقة . كما يغطى الصندوق أيضًا بند الهبات والرشاوى التى نقدمها لأصحاب الفضائل علينا وهم كثيرون ، من بينهم أذكر على سبيل المثال لا الحصر : المحامى الذى يتولى الدفاع عنا ، رجل الشرطة الذى يحذرنا من مكامن الخطر ، الجلاد الذى تأخذه الشفقة بنا ، ومن يقوم باعتراض الجماهير الثائرة وهى تركض خلف أحدنا فى الشارع صائحة : "اللص ،

---

(١٠) رينكونيته" و "كورتاديّو" هما التصغير فى اللغة الإسبانية لكلمتى "رينكون" و "كورتادو" . (المترجم)

اللص ، أمسكوه ، ، اقبضوا عليه" ويحاول تفرقتها قائلاً: "اتركوا البائس المسكين لقدره التعس ، يكفيه ما ناله من فزع ، سيظل ذنبه يلاحقه وينغص عليه حياته أينما ذهب" . ومن أصحاب الفضائل أيضًا: من يغيث لهفتنا وراء قضبان السجن أو خلف مجاديف السفن ، وأرواح آبائنا وأمهاتنا اللاتى قذفن بنا إلى هذا العالم ، وكاتب العدل الذى لو راق مزاجه لجعل الجريمة بلا ذنب وما حَمَّل الجرم الواضح غير عقوبة تافهة . ومن أجل هؤلاء جميعاً تقيم أخويتنا سنوياً حفلاً باذخاً مهيباً بقدر ما تسمح به إمكانياتنا .

- حقا - قال "رينكونيته" بعد تأقلمه مع الاسم الجديد - إنه لنظام رائع تفتقت عنه عبقريتكم الفذة الراسخة يا سيد "مونيبوديو" ، لكن أبويْنا ما زالا ينعمان بحظ العيش فى هذه الدنيا ، ولو هيأت لنا الأقدار اللقاء بهما ثانية سنحيطهما علمًا بهذه الأخوية السعيدة العطوفة التى لا تدخر وسعًا فى الاهتمام بالآباء بعد موتهم وتقيم على أرواحهم القُدَّاسات المهيبة الباذخة تكفيراً عما اقترفوه من ذنوب .

- وسأظل وفياً لهذه السُنة ما حييت - ردّ "مونيبوديو" .

ثم أومأ إلى الدليل الذى أحضر الصبيين وسأله :

- "جانشويلو" ، هل الرُقباء فى أماكنهم ؟

- نعم يا سيدى فهناك ثلاثة منهم يراقبون المكان حتى لا نُوخذ على غِرَّة .

- نعود إذن لموضوعنا -قال الزعيم - أريد يا أبنائى التعرف على ما تبرعان فيه حتى أرشدكما إلى المهنة الملائمة لميولكما ومهارتكما .

- إننى يا سيدى - رد "رينكونيته" - أجيد إلى حد ما فن اللعب بالورق فى جميع أشكاله وصوره ، وأحوّل عند اللزوم "الآس" إلى ملك ، وأقوم بمناورات شتى من هذا القبيل تجعل الخصم مهما كانت مهارته يستسلم يائسًا مقهوراً . . وعلى الجملة فإننى أفقه فى لوحة الحظوظ أكثر مما أفقه فى الوصايا العشر .

ردّ عليه "مونيبوديو" :

– ما ذكرته يعتبر مجرد أساسيات فقط ، وعليك أن تدرك أن مثل هذه المناورات ما هى إلا أحابيل قديمة ومطروقة لا يوجد مبتدئ واحد لا يعرفها، وبمثلها لا ينخدع إلا غرّ ساذج تسيطر عليه روح الهزيمة ، لكننى آمل مع الوقت وبعد عدة دروس لا تتعدى أصابع اليدين أن أصيرك بعون الله فارساً صنديداً فى هذا الميدان وربما معلّما وفناناً قديراً .

ردّ "رينكونيته" :

– سمعاً وطاعة ، وستجدوننى دائماً عند حسن ظنكم وظن الزملاء فى الأخوية .

ثم استدعى الزعيم "كورتاديُو" وسأله عن كفاءاته فأجابه قائلاً :

– لقد تعلمت يا سيدى حيلة مفادها : ضع اثنين واستخرج خمسة [١١]، وتعلمت الغوص بمهارة فى الجيوب والعودة منها سالماً .

فسأله "مونيبوديو" :

– أهذا كل ما تعرف؟

– نعم – لسوء حظى – أجاب "كورتاديّو" .

– لا تجعل اليأس يتسرب إلى نفسك يا بنىّ ، فأنت فى مدرسة تُذكى المواهب وتنميها ، ولا تدع وسيلة من وسائل التقدم والنهوض إلا وأخذت بها . ومادمنا نتحدث عن العزيمة ، ما نصيبكم منها يافتى ؟

– لدىّ منها – ردّ "كورتاديّو" – ما يكفى وزيادة للقيام بأيّة مهمة فى مجال تخصصى .

– حسناً – قال الزعيم – لكننى أود أن أعرف منك إذا كنت قادراً ، لو اقتضى الأمر ، على تحمل ألوان التعذيب المختلفة دون أن تتحرك شفتاك بكلمة ، بل ودون أن تقول هذا فمى .

---

(١١) المقصود بعبارة "ضع اثنين واستخرج خمسة" : التسلل بإصبعين فى جيب الضحية والخروج منها بالنقود . (المترجم)

فأجاب "كورتاديّو" :

- لا أحد منّا ، يا سيد " مونيبوديو" ، يجهل معنى التعذيب ، ولا يوجد من تعوزه الإرادة لتحمُّل كافة ألوانه .كما أننا لا نجهل أن ما يقرضه اللسان تدفعه الرقبة ، ولترحم السماء أولئك الذين لا يجدون سهولة فى قول "لا" بدلاً من "نعم" أو العكس .

- كفى يافتى -ردّ "مونيبوديو" -لقد تبين لى أنك شاب ذكى ، وما سمعته منك أقنعنى بضرورة ضمك إلى الأخوية كعضو عامل مثل الكبار ، إذ اتضح أنك لست بحاجة إلى السنة التمهيدية التى نجرب فيها المبتدئين .

تدخل عندئذ واحد من الرجلين المسلحين وأعلن ضمّ صوته إلى صوت الزعيم ، وبادر الحاضرون الذين استمعوا إلى الحوار كاملاً بالتأكيد على ما ذهب إليه الرجل ، بل إنهم طالبوا الزعيم بإعطاء العضو الجديد كافة الحقوق والمميزات وإعفائه من الرسوم والضرائب لأن حضوره اللطيف المبهج ولسانه العذب يستحقان هذا وزيادة .

أخبرهم الزعيم أنه بقصد إدخال السرور على قلوبهم جميعاً فإنه سيتفضل بإعفائه من الرسوم المقررة على أول عملية نشل يقوم بها ، ولن يكلفه طيلة عامه الأول فى الأخوية - مثل غيره من المبتدئين -بالأعمال التافهة قليلة الشأن مثل حمل الأعطيات والهبات التى يقدمها المساهمون لشد أزر إخوانهم بالسجون ، أو التى يرسلونها إلى بيوتهم فى حالة قعودهم عن العمل ، وأنه يصرح له بتناول النبيذ المعتق، وإعداد المآدب والولائم فى المكان والوقت الذى يحلو له دون حاجة إلى إذن مسبق من كبيره ، وحضور اجتماعات الكبار ولقاءاتهم كأنه فرد منهم ، هذا بالإضافة إلى مميزات أخرى خلعهاعليه الزعيم ولاَقت استحسان الحاضرين الذين عبروا عن شكرهم العميق له بكلمات معبرة متزنة .

وبينما هم فى ذلك دخل أحد الرُّقباء وهو يلهث من العَدْو وقال :

- حاجب المتشردين يتجه نحو الدار ، لكنه قادم بمفرده دون أعوانه من رجال الشرطة .

قال الزعيم لأصدقائه وقد ارتسمت علامات الحيرة والاضطراب على وجوه بعضهم :

- لا داعى للقلق ، إنه صديق ولم يأت إلينا بقصد إلحاق الضرر ، سأخرج إليه لمعرفة ما وراءه .

عادت الطمأنينة إلى النفوس التى ساورها الفزع ، وخرج الزعيم للقاء الحاجب عند الباب . وبعد أن تحدث إليه بعض الوقت رجع إلى القوم وسألهم بصوت عالٍ :

- مَن كان منكم صبيحة هذا اليوم بميدان "سان سلبادور" ؟

فأجابه الدليل :

- كنت هنالك .

فسأله الزعيم :

- لماذا لم تُطلعنى ، إذن ، على كيس أثرى تمت سرقته هذا الصباح بذلك المكان وبه خمسة عشر إسكودو ذهبية علاوة على عدد من الريالات والعملات الصغيرة الأخرى ؟

ردّ الصبى :

- لقد سُرق هذا الكيس حقاً ، لكننى لم آخذه ولا علم لى بمن استولى عليه .

انتهره الزعيم بحدّة:

- لا تحاول خداعى ، لابد من ظهور الكيس لأن الحاجب يريده ، وهو - كما تعلم - صديق عزيز ويقدم لنا آلاف الخدمات سنوياً ومن المستحيل ردّه خاوى الوِفاض .

أقسم الصبى أنه لا يعرف عنه شيئًا ، وعندئذ هاج الزعيم وماج وصاح قائلاً والشرر يتطاير من عينيه :

- لن يجرؤ أحد مهما كان على العبث بمبادئ الجمعية ، وإذا كانت نفسك قد سوّلت لك إخفاء الكيس تهرباً من الرسوم المستحقة عليه للأخوية فإنى سأعطيك نصيبك كاملاً من جيبى الخاص لأن الحاجب لن يرجع بِخفى حنين مهما كانت الظروف .

أخذ الصبى يلعن نفسه وعاد لتبرئة ذمته مقسماً بأغلظ الأيمان أنه لم يسرق الكيس ولم يره بعينيه ، فما كان ذلك إلا ليزيد من حنق الزعيم ويثير سخط سائر أعضاء الأخوية إزاء هذا التجاسر والاعتداء على لوائح الجمعية ومبادئها الحميدة .

وحينما رأى "رينكونيته" أن المسألة ستفضى إلى بلبلة خطيرة تقدم إلى "كورتاديُو" وتشاورا معًا فى الأمر ، وقرّ رأيهما على ضرورة تهدئة خاطر الزعيم الذى يتميز غيظاً، وعلى هذا فقد تقدّم نحو الجمع الغاضب وقال :

- أرجوكم بالتزام الهدوء يا سادة ، ها هو الكيس الذى تحدث عنه الحاجب كاملاً غير منقوص ، لقد اضطر زميلى إلى استقراضه صبيحة هذا اليوم - علاوة على منديل - من طالب اللاهوت الفاضل .

دسّ "كورتاديو" عندئذ يده فى عبِّه وأخرج منه الكيس ، وما إن رآه الزعيم حتى تألقت أساريره وقال :

- "كورتاديّو الطيب" ، ليكن هذا اسمك ولقبك من الآن فصاعداً ، احتفظ بالمنديل، أما مكافأتك على هذه الخدمة الجليلة فتقع على عاتقى شخصياً . لقد تبين أن طالب اللاهوت قريب لصديقنا الحاجب ومن المناسِب العمل بالمثل القائل " ليس بالكثير على من يقدم لك دجاجة كاملة أن ترسل إليه بساق واحدة منها" ، وحاجبنا العزيز يتغاضى فى اليوم الواحد عما لا يمكن أن نشكره عليه فى مائة يوم .

أعرب الجميع عن ارتياحهم لما بدر من الوافدين الجديدين ، وعن رضاهم التام لحكم كبيرهم وحسن تصرفه. خرج الزعيم لتسليم الكيس للحاجب بينما بقى "كورتاديُو" لينعم بلقبه الجديد وكأنه "دون ألونسو بيريث دى جوثمان" (الملقب بالطيب) الذى ألقى بسكينه من فوق سور جزيرة "طريف" ليذبح بها الأعداء ابنه الوحيد أمام عينيه (١٢) .

---

(١٢) يشير الكاتب إلى إحدى وقائع "حرب الاسترداد" التى فقد فيها الفارس النبيل " ألونسو بيريث دى جوثمان" ابنه الوحيد فى حصار جزيرة طريف Tarifa ، وكانت هذه الحادثة سبباً فى خلع لقب "الطيب" عليه . (المترجم)

عندما رجع الزعيم إلى الدار كان بصحبته امرأتان تغطيان كتفيهما بشالين ينسابان حتى خصريهما ، شفتاهما ملونتان بأحمر الشفاه، وتغطى الأصباغ وجهيهما وصدريهما المرتفعين ، ومن تثنيهما وجرأتهما استنتج "رينكونيته" و "كورتاديو" أنهما تنتميان لإحدى دور البغاء فى المدينة ، وقد كان ظنهما فى محله . اتجهت المرأتان وذراعاهما مفتوحتان نحو الرجلين المسلحين : "تشيكيزناكى" و "مانيفيرو" (وقد أطلق على الأخير هذا اللقب - وهو يعنى اليد الحديدية - لأن العدالة عاقبته ذات مرة بقطع إحدى يديه فاستبدل بها عندئذ يداً أخرى من الحديد) . عانقهما الشقيان بغبطة شديدة وسألاهما إذا كانا قد أحضرا شيئاً لتليين المعدة .

- وهل عندك شك فى هذا يا فارسى الحبيب؟ - ردت إحداهما وتدعى لاجانتثيوسا - لن يتأخر سيلباتيو ، صبى غانيتك ، عن القدوم حاملاً السلة المترعة بما أفاء الله به من خيرات .

حدث بالفعل ما أخبرت به لأنه لم تكد تمضى سوى دقائق معدودة حتى دخل صبى ومعه سلة كبيرة مغطاة بقطعة من القماش .

ابتهج الجمع لمجيء "سيلباتيو" ، وعلى الفور أمر الزعيم بإحضار حصيرة خيزران من المستودع وبسطها فى منتصف الفناء . دعاهم بعد ذلك إلى التحلق حولها وإسكات صرخات الجوع المنبعثة من أعماقهم : كلّ بقدر استطاعته .

قالت العجوز التى صلّت للعذراء فور دخولها :

- أرجو إعفائى ، يا بنى ، من الدعوة لأن رأسى فارغة من الأرواح الطيبة ومشحونة منذ يومين بالأطياف الشريرة ، ويجب أن أؤدى قبل انتصاف النهار عدداً من الطقوس الدينية وإضاءة بعض الشموع لعذراء الماء (١٣) ولصليب "سان أجوستين" المقدس ، وهذا أمر لا يحتمل التأخير ويلزمنى القيام به حتى لو كانت الثلوج تتساقط كسفاً من السماء .. لقد جئت لأخبرك أن "رينيجادو" و "ثينتوبيس" مرّا بدارى ليلاً وهما يتصببان عرقاً من شدة

---

(١٣) صورة عذراء الماء موجودة بكنيسة "سان سلبادور" . وسر التسمية يكمن فى أن الناس تتوسل بها أيام الجفاف والقحط لكى ينعم الله عليهم بالمطر. (المترجم)

الركض ، وتركا عندى سلّة كبيرة مشحونة عن آخرها بمجموعة من الملابس البيضاء . سلما لى السلّة دون أن يخطر ببالهما تفتيشها أوعدّ ما بها من ملابس ، ثقة منهما فى أمانتى وتعففى ، ثم انطلقا مسرعين فى إثر تاجر مواشٍ باع فى المذبح عدة رءوس من الضأن وأرادا جس نبض كيسه الضخم المتخم بالريالات. يعلم الله أن السلة على حالها ولم تعبث بها يد مخلوق .

– أصدقك ياأماه –قال "مونيبوديو" – عندما يجنّ الليل سأمرّ عليكِ من أجل فحص السلة وحصر ما بها تمهيداً لتوزيعه – كما جرت العادة – بالعدل والقسطاس على أعضاء الجمعية .

– أمرك ، يابنى – ردت العجوز – وحتى لا يدهمنى الوقت ألا أجد عندكم مشروباً أنعش به معدتى التى ينتابها الدّوار باستمرار هذه الأيام .

فأجابتها "إسكالنتا" (زميلة "جانتثيوسا") :

– خير ربنا كثير ، يا أماه ، وطلباتك عندنا أوامر .

قالت هذا وأزاحت غطاء السلة وأخرجت زِقًا من الجلد يحتوى على خمسين رطلاً من النبيذ ، ثم أحضرت كوباً مطاطيًا يتسع لأكثر من لترين وملأته عن آخره . قدمته للعجوز الورعة التى أخذته بكلتا يديها ثم نفخت فى زبده وأردفت قائلة :

– صببت كثيراً ، يا بنتى ، لكن الله لا يبخل بعونه على عباده الصالحين .

وضعته على فمها وصبّته دفعة واحدة فى جوفها دون أن تأخذ نفساً ، ثم رفعت رأسها قائلة :

– إنه من "وادى القتال" Guadalcanal المشهور بطيب نبيذه ، أذهب الله عنك الهمّ والحزن كما أذهبتموهما عنى يا بنتى ، وإن كنت أخشى أن يصيبنى منه مكروه لأنه نزل على معدة خاوية .

– لا تخشى شيئًا يا أماه – قال لها "مونيبوديو" –لأنه نبيذ معتّق مضت على صنعه ثلاث سنوات على الأقل .

ردت عليه العجوز قائلة إن هذا هو أملها فى العذراء ، ثم سألت المرأتين :

– ألا أجد معكما فلسا لشراء الشموع اللازمة للقديسين والقديسات لأن لهفتى فى المجىء إلى هنا أنستنى كيس نقودى .

أجابتها "جانثيوسا" :

– لا عليك يا سيدة "بيبوتا" (هكذا كانت تسمى العجوز) ، تفضلى فلسين بدلاً من فلس ، وبالثانى أرجوك أن تشترى لى شمعتين : واحدة لسان ميجيل والأخرى لسان بلاس لأن حمايتى ورعايتى منوطتان بهما ، ولو استطعت شراء ثالثة فقدميها لصورة القديسة "لوثيًا" فهى التى تحمينى من قذى العينين ، وفى يوم آخر سأفى للجميع بنذورهم لعدم وجود "فكّة" معى حالياً .

– حسناً تفعلين يا بنتى ، وأوصيك بأمر فى غاية الأهمية ما دامت حالتك المادية تسمح : من الأفضل للإنسان تقديم شموعه حال حياته قبل أن يدركه الموت ويصبح الأمر فى أيدى الورثة والأوصياء ، قدّموها أو منعوها عنه .

– لا فُضّ فوك يا أماه – قالت "لا إسكالنتا" – ثم وضعت يدها فى كيسها وأخرجت فلسًا آخر وطلبت منها شراء شمعتين وتقديمهما لمن تراهما أهلاً من القديسين المنتشرين بالمدينة . تأهبت العجوز للرحيل قائلة لهم :

– استمتعوا ياأبنائى ، ما وسعكم ، فالعمر يمضى والشيخوخة قادمة لا محالة وفيها ستذرفون الدمع مدراراً – كما أذرفه – على الأوقات التى ضاعت سدى أيام الشباب ، وادعوا لى الرب فى صلواتكم ، كما سأدعوه لكم ولى ، بأن يباعد بيننا وبين بطش العدالة وفزعها وأن يمكّن لنا فى أعمالنا المحفوفة بالمخاطر .

قالت هذا ثم ذهبت لحال سبيلها .

بسطت "جانثيوسا" ، فور خروج العجوز ، ملاءة كبيرة على حصيرة الخيزران التى جلس حولها الحاضرون ، ثم شرعت فى إخراج محتويات السلّة : أخرجت أولاً حزمة كبيرة من الفجل وما يقرب من اثنى عشر زوجًا من البرتقال والليمون ، ثم طاسة كبيرة مليئة بشرائح سمك "البكلاو" المقلى. أخرجت بعد ذلك نصف قرص

من الجبن الفنلندى وآنية مترعة بأفخر أنواع الزيتون ثم صَحْفَةً مليئة بالجمبرى الصغير ، فضلاً عن كمية كبيرة من سرطان النهر المتبل بثمار الكبر والفلفل الحار ، وثلاثة أرغفة طويلة بيضاء .أخرج كل واحد من الأربعة عشر الجالسين سكينه العريضة ذات المقبض الأصفر ، بينما أخرج "رينكونيته" نصف السيف الذى معه . أما الرجلان اللذان يرتديان الملابس السوداء الخشنة فقد فضلا ، ومعهما الدليل ، احتساء النبيذ بالكوب المطاطى . لم يكادوا ينعمون بالهجوم على البرتقال حتى تملكهم الفزع من طرقات عنيفة على الباب . أمرهم الزعيم بالتزام الهدوء ثم دخل الصالة الواطئة واستل سيفًا من جرابٍ معلق على حائط منها واتجه به صوب الباب ، وبصوت أجشّ مفزع سأل :

– مَنْ الطارق ؟

– إنه أنا ، يا سيد "مونيبوديو" ، "تاجاريتى" أحد أفراد المراقبة الصباحية ، أتيت لأخبرك أن "خوليانا" أو "لاكارى أرتا" – كما يلقبونها – آتية تبكى ، مشعثة الرأس مغبّرة وكأن حادثاً جللاً ألمّ بها .

لم يكد يتم كلامه حتى سمع "مونيبوديو" (الزعيم) نُواح المرأة ففتح لها الباب وأمر "تاجاريتى" بالانصراف إلى موقعه وبتوخى الحرص فى المرات القادمة بعدم إحداث جلبة وصخب عند قدومه للإخبار بشىء مما يراه . وعده الفتى بالامتثال لجميع أوامره ثم عاد من حيث أتى. دخلت "لاكارى أرتا" ، وهى زميلة لـ "إسكالنتا" و "لاجاننثيوسا" فى المهنة وترتدى ثياباً مشابهة لهما. كان شعرها مشعثاً ووجهها مغطى بالسجحات ، وبمجرد أن دلفت إلى الفناء سقطت على الأرضِ مغشياً عليها . اقتربت منها زميلتاها وفتحتا القميص من على صدرها فوجدتاه أزرق مملوءاً بالكدمات. ألقيتا ببعض الماء على وجهها فثابت إلى رشدها وأخذت تولول قائلة :

– لتحلّ نقمة الرب والملِك على ذلك اللص الوقح ، على ذلك النذل الجبان ، على ذلك الصعلوك المقْمل الذى خلّصته من حبل المشنقة مرات تربو على عدد شعر لحيته ! يالبؤسى وشقوتى ! انظروا لمن أضعت نفسى وأفنيت زهرة شبابى وأجمل سنوات عمرى من أجله ، وهو مجرد نذل متحجر القلب ومجرم لا يرجى بِرؤه!

- هدِّئى من روعك يا "كارى أرتا" - قال لها الزعيم - أنا هنا لأقتص لك وأرد لك حقك .حدثينا بوجيعتك وسترين أن انتقامى لن يطول عن الوقت الذى تستغرقه حكايتك. أخبرينى بما فعله بك حاميك [١٤] لأن الانتقام منه مرهون بكلامك .

- أىّ حامٍ ! - تعجبت "خوليانا" - وأية حماية تلك وأنا فى أتون الجحيم ، إنها أشبه بحماية الأسد الجائع للنعاج المسالمة ، أوالرجال الجوعى لخروف الأضحية.

رفعت تنّورتها حتى ركبتيها ، أو أعلى قليلاً منهما ، فظهرت آثار الضرب على ساقيها ، ثم واصلت حديثها :

- هذه مُخلّفات الجاحد "ريبوليدو" الذى يدين لى بالفضل أكثر من أمه التى ولدته . أتدرون لماذا ؟ لا لشىء إلا لأنه كان يلعب الورق ويخسر كعادته فأرسلنى إلى ديّوثه "كابريّاس" لأُسرّى عنه مقابل ثلاثين ريالاً، لكن الأخير لم يعطنى سوى أربعة وعشرين - أتوجه إلى الله بالدعاء أن تكون فى ميزان حسناتى يوم القيامة نظراً للمجهود الذى بذلته لكى أخلعها منه- لكنه بدلاً من شكرى على حسن صنيعى ظن أننى اختلست الريالات الستة المكملة لما اعتقد أننى حصلت عليه ، وعلى هذا فقد جرجرنى خلفه هذا الصباح وانطلق بى خارج أسوار المدينة ، وهناك خلف بساتين الملك وبين أشجار الزيتون جردنى من ملابسى وخلع حزامه ، ودون أن ينطق بكلمة أو ينتزع ما فى الحزام من حدائد - وأظنها كثيرة - أوسعنى ضرباً وجلداً ولم يتركنى إلا شبه ميتة. وعلى صدق كلامى تشهد هذه الآثار الدامية التى ترونها .

ارتفع صوتها بالعويل عندئذ وعادت تطلب القصاص ، فما كان من "الزعيم" والفارسين المتجهمين إلا تجديد وعدهم بتحقيقه لها .

---

(١٤) المراد بالحامى هنا : البلطجى الذى يفرض الإتاوة على من تمارس البغاء مقابل ما يوفره لها من حماية إجبارية -. (المترجم)

أخذتها "لاجانتثيوسا" من يدها بقصد مواساتها ، وقالت لها إنها ستطلعها على آثار مشابهة – تعتبرها نفائس– تركها صديقها على جسدها ، ثم أردفت قائلة :

– إذا كنت لا تعرفين ، ياأختاه ، فعليكِ أن تعلمى أنه بقدر الحب يكون العقاب، وعندما يضربنا هؤلاء الأوغاد ويَجلدوننا ويتمادون فى عقابنا فلأنهم يذوبون عشقاً فينا ، وبالمناسبة ، ألم يقم "ريبوليدو" بعد ضربك وإهانتك بملاطفتك ومداعبتك ؟ بالله عليك ، أخبرينى بالحقيقة .

– مداعبة واحدة؟ بل قولى ألفًا . لقد بسط لى يده كى أصحبه إلى مسكنه ، وعلاوة على هذا يبدو لى أن الدموع طفرت من عينيه بعد أن طحننى .

قالت لها "لاجانتثيوسا" عندئذ :

– لا شك فى هذا . وسيبكى غمًّا وكدراً لما أحدِثه بك من ضررٍ : فأمثال هؤلاء الرجال يعاودهم الندم على ما اقترفوه من جرم . وسترين ، يا أختاه ، كيف سيأتى للبحث عنك قِبل مغادرتنا هذه القاعة ويطلب منك –خانعاً كحمل وديع – الصفح عما بدر منه .

– هذا بيت القصيد – أضاف مونيبوديو – لن يدخل الجبان السكير من هذا الباب قبل إعلان توبته عن الجرم الذى اقترفه . كيف يتجاسر ويمدّ يده عليكِ وأنا لا أقوى على مجرد النظر فى وجه لاجانتثيوسا الواقفة أمامى ، وأنت لا تقِلين عنها جمالاً وشطارة !

قالت له "خوليانا" :

– لا تذْكر هذا الملعون بسوء يا سيد "مونيبوديو" لأننى أحبه أكثر من روحى التى ترفرف بين جنبىّ رغم إجرامه. كلام صديقتى "لاجانتثيوسا" أزال الغشاوة من على عينى وحفّزنى على العودة إليه دون قيد أو شرط .

– لا تفعلى هذا إن أردتِ نصيحتى – قالت "لاجانتثيوسا" – لأنه سيتمادى عندئذ ويسومك سوء العذاب وكأنك بلا حس أو شعور .. اهدئى ، يا أختاه ، فعما قريب ستجدينه أمامك يعض أنامل الندم كما أخبرتك ، وإذا لم يأتِ سنكتب فيه مقطوعات شعرية موجعة يتناقلها القاصى والدانى .

– لكِ هذا، ياأختاه– ردت "لاكارى أرتا" – وكيسى مترع بآلاف المواد التى تستحق الكتابة .

– سأتكفل أنا بهذه المهمة – قال الزعيم – ورغم أنى لست بشاعر إلا إن المرء عندما يشمر عن ساعد الجِد ويشحذ قريحته يمكنه دون عناء تأليف مقطوعات شعرية لا تَعد ولا تحصى . أما إذا استعصت عليَّ القوافى أولم تخرج بالشكل المطلوب سألجأ حينئذ إلى صديق حلاَّق ، وهو شاعر فحل سيمدنا على مدار الساعة بالمقطوعات التى نريدها. والآن هيا بنا نكمل غداءنا وبعده سيصبح كل شيء على ما يرام .

صدعت " لا خوليانا" لأمر كبيرها ممتنة ، وهكذا عادوا إلى الطعام وما هى إلا لحظات حتى ظهر قاع السلة وتبدّت أحشاء زق النبيذ الذى احتسى منه العجوزان دون ارتواء وشرب الغلمان منه الكثير وأُترعت منه السيدات .. طلب العجوزان الإذن بالانصراف فسمح لهما الزعيم مكلفاً إياهما بعدم التوانى فى إخباره بكل المعلومات المفيدة للأخوية. أفاداه بشدة حرصهما على ذلك الأمر ، ثم انصرفا .

توجه "رينكونيته" – بعد طلبه الإذن ، وفى لهجة اعتذار – بسؤال للزعيم عما يمكن أن تفيده الأخوية من شخصين أشيبين ، خطرين قبيحى الهيئة .أجابه الزعيم بأن هذين الرجلين يسميان فى لغة اللصوص "كشفان" ، ومهمتهما تكمن فى الطواف نهاراً بكل أرجاء المدينة لتحديد البيوت التى يمكن السطو عليها ليلاً ، كما أنهما يتبعان .من يسحبون أموالاً من البنوك لمعرفة إلى أين يذهبون بها ، بل وأين يضعونها إن سمحت لهما الظروف بذلك ، وبعد معرفتهما لهذه الأشياء يفحصان جدران البيوت بعناية لتحديد المكان المناسب للاختراق ويضعان عليها علامات ، كما يقومان بإحداث عدد من الثقوب بتلك الأماكن لتسهيل عملية الاقتحام الليلية.

إنهما – باختصار – من أنفع وأجدى الرجال بالنسبة للأخوية ، ونصيبهما من المسروقات التى تحدث نتيجة لعملهما هو الخمس ، مثلهما فى ذلك مثل صاحب الجلالة الذى يفرض له الخمس على الإيرادات العامة للدولة. وبالإضافة إلى ما تقدم فهما يتمتعان بمصداقية وثقة لا حدود لهما ، وفى غاية الشرف والاستقامة والتدين والخوف من الله ، ويحرصان يومياً على سماع القداس بورع شديد .

ومن بين هذا الصنف من الرجال يوجد من يمتازون بالقناعة الشديدة وعلى رأسهم هذان الرجلان ، فهما يرضيان بأقل القليل من حصتهما المفروضة لدى الجمعية. كما يوجد لدينا أيضاً لصّان آخران يراقبان البيوت التى يغيّرها ساكنوها ويتعرفان على مداخلها ومخارجها .

– شيء جميل ورائع – قال رينكونيته – ، وأتمنى أن أكون نافعاً لهذه الأخوية المحترمة .

– السماء تستجيب دائماً للأمنيات الصادقة الصالحة – رد عليه "مونيبوديو" .

وفى أثناء حديثهما هذا سُمعت طرقات على الباب فخرج الزعيم ليرى من القادم ، وبعد سؤاله أجابه الطارق :

– افتح ، يا سيد "مونيبوديو" ، إنه أنا : "ريبوليدو" .

عندما سمعت "لاكارى أرتا" صوته صرخت قائلة :

– لا تفتح له ، يا سيد "مونيبوديو" . لا تفتح لهذا الأفّاق ، لهذا النمر المفترس.

لم يستجب لها الزعيم ، وعندما رأته يفتح الباب جرت نحو الصالة الواطئة ودخلتها ثم أغلقت الباب خلفها وأخذت تصيح :

– لا أريد رؤية جلاد المسالمين ومفزع الحمائم الوادعة .

اتجه "ريبوليدو" إلى الباب المُغلق ، لكن "مانيفيرُو" و "تشيكيزناكى" أمسكا به ومنعاه من اقتحامه ، ولما وجد نفسه محصوراً بينهما أخذ ينادى عليها من الخارج :

– كفى ، أيتها الغضوب ، أستحلفك بالله يا زوجة المستقبل أن تهدئى .

– زوجة المستقبل ! على أى وتر تعزف ؟ الموت علىّ أهون من الذهاب معك.

– هيا ، أيتها البلهاء – قال ريبوليدو – لنفرغ الآن من هذا فالوقت متأخر ، ولا تتمادى لأنى أتيتك مذعناً خاضعًا وأحسن إليكِ فى الحديث لأنه ، ورب العزة ! ، لو صعد الغضب إلى رأسى ستكون الخاتمة أسوأ من الفاتحة . اكظمى غيظك ، بل لنكظمه سويا لنقطع على الشيطان طريقه ونفسد عليه تدبيره .

– لكننى أقول للشيطان على الرَّحْب والسعة ، بل وأدعوه لحملك إلى حيث لا أراك أبداً .

– ألم أقل لكم إنهـا من النوع الذى لا يأتى بالمعاملة الحسنة ؟ إذا لم تخرجى حالاً ، بالله العظيم سأجعلك فُرْجة لمن لا يشترى .

تدخل "مونيبوديو" عندئذ بقوله :

– فى حضرتى لا داعى للمزيد ، ستخرج "لاكارى أرتا" ، لا خوفاً من التهديد بل محبة لى ، وسيكون كل شىء على ما يرام : فكم تكون جميلة مشاجرات العاشقين عندما تنتهى بالتصالح . هيا ، يا "خوليانا" ! هيا ، ياصبية ! هيا، يا "كارى أرتى" ! اخرجى من أجلى وسأجعل "ريبوليدو" يطلب منك المغفرة جاثياً على ركبتيه .

– لو فعل هذا – قالت " لاإسكالنتا" – سنكون جميعًا فى صفه ونطالبها بالخروج.

– لو كان فى هذا شبهة تحقير لشخصى ما فعلته ولو أمام كتيبة من الصعاليك ، أما وإنه من أجل إرضاء "لاكارى أرتا" وتطييب خاطرها فلن أكتفى بالركوع أمامها بل سأغرس مسماراً كبيراً فى جبهتى حتى تقرَّ عيناها .

ضحك "مانيفيرو" و "تشيكيزناكى" فاكفهر عندئذ "ريبوليدو" لاعتقاده أنهما يسخران منه .. قال وأمارات الغضب بادية على وجهه :

– مَنْ يضحك على ما يجرى أو سيجرى بينى وبين "كارى أرتا" لا يهزأ إلا من نفسه .

تبادل "تشيكيزناكى" و "مانيفيرو" نظرات نارية ، وعندما أدرك "مونيبوديو" أن الأمور يمكن أن تتطور إلى ما لا تحمد عقباه إذا لم يقض عليها فى مهدها تدخل قائلاً :

– لا داعى للمزيد ، أيها الرجال ، لنمسك أفواهنا عما يلى من كلمات أكبر لأن ما قيل حتى الآن مجرد سفاسف و لا ينبغى لأحد الظن بأنها موجهة إليه .

- نحن على يقين من أننا لسنا المقصودين بهذه الترهات-ردّ "تشيكيزناكى"- وليس بوسع أحد توجيهها إلينا لأنه يعرف أن الدف بالأيدى المدربة على قرعه.

- وأنا أيضًا لدىّ دفٌ - أجاب "ريبوليدو" بجِدّة - وأُحسن كذلك دق الجلاجل إذا اقتضى الأمر ، وأنا قلت وكلامي واضح : إن مَنْ يسخر على ما سمعه أو يسمعه فسخريته على نفسه ، ومَنْ لديه أدنى شك فى هذا عليه أن يتبعنى ، وأنا بسيفٍ أقصر شِبراً من سيفه سأجعله يعى هذه الحقيقة تماماً .

قال هذا ثم يمَّمَ وجهه شَطْر الباب ليخرج منه .

كانت "لاكارى أرتا" تنصت لما يجرى فى الخارج من نقاش ، ولمّا أَحَسّت بصعود الغضب لرأس صديقها خرجت مسرعة لتقول :

- أمسكوا به ، لا تتركوه يخرج ، ألا ترون غضبه ! الغضب يطمس على عقله ويلهب حماسه ويحوله إلى مقاتل شرس غير هيّاب . عدْ إلىّ ، ياأشجع فرسان العالم ويافارسى المقدام .

جرت نحوه وأمسكت بعباءته وتمكنت - بمعاونة "مونيبوديو" - من إيقافه . أُشكل على "مانيفيرو" و "تشيكيزناكى" ولم يدريا أيصعدان الأمور أم يقفان بها عند هذا الحد ، ولذا فقد ظلا صامتين فى انتظار رد فعل "ريبوليدو" ، لكن الأخير رجع ليقول وسط توسلات "لاكارى أرتا" :

- الأصدقاء لا يُقدمون أبداً على إثارة غضب الصديق أو السخرية منه ، لا سيما إذا كانوا يدركون مدى حساسيته المُفرطة لكل ما يعكر الصّفو .

- لا يوجد بيننا هنا من يتعمد استثارة صديقه - رد مانيفيرّو - وبما أننا جميعاً أصدقاء هيا بنا نتصافح ونتصافى كما يفعل هؤلاء .

اتجه إليهما "ريبوليدو" وقال :

- لقد تحدثتما كصديقين حميمين فعلاً ، ومن المفروض التصرف تبَعًا لما يُمليه واجب الصداقة .

بعد أن تصافح المتخاصمون خلعت "لا إسكالنتا" فردة من حذائها وأخذت تقرع نعلها الفلينى السميك الخالى من الكعب قرعات توقيعية كما لو كان دفًا ، وامتدت يد " جاننثيوسا" إلى مقشة من سعف النخيل وجدتها على مقربة منها وشرعت فى حكّها فصدر عنها رنين خشن أجش لكنه متناغم مع صوت فردة الحذاء . أما "مونيبوديو" فقد قام بكسر طبق نصفين واتخذهما كصناجتين بين أصابعه وراح يطرقهما بخفة فأصدر نغمة معاكسة للنغمتين الصادرتين عن المقشة وفردة الحذاء .

علت الدهشة المصحوبة بالإعجاب وجهى "رينكونيته" و "كورتاديّو" من جرّاء الاستخدام الجديد للمقشة الذى لم يشاهدا له مثيلاً من قبل .عندما لاحظ ذلك مانيفيرّو اقترب منهما وقال :

– أراكما معجبيْن بهذا الاختراع الجديد . معكما كل الحق ، فموسيقى المقشة مباشرة ، ثرية ومبهجة وليس لها نظير فى كل بقاع العالم . لقد سمعت منذ أيام قلائل تعليقًا لأحد الطلاب أسعده الحظ بالاستمتاع بهذا النوع من الموسيقى يقول فيه بالحرف الواحد : لم يستطع "أورفيوس" الذى أنقذ "يوريديكى" من الجحيم ، ولا "أريون" الذى امتطى ظهر حوت وخرج به من اليمّ وكأنه وجيه قادم على متن بغلة مكتراة ، ولا حتى الموسيقار الكبير " أنفيون" (Anfion) الذى شيد مدينة لها مائة باب علاوة على عدد آخر لا يحصى من الخوْخات ، اختراع آلة موسيقية سهلة التعلم ولا تحتاج لأيْدٍ رقيقة مدربة وبدون أعتاب أو مسامير أو أوتار مثل هذه الآلة ، وأزعم أن الذى اخترعها – ويقال إنه واحد من أبناء هذه المدينة – لا يقل حنكة وبراعة عن "هيكتور" [١٥] نفسه .

– لا ريب أننا فى غاية العجب – أجابه "رينكونيته" – ، لكن هيا نُصخ السمع إلى ما سيصدح به موسيقيونا . يبدو أن "لاجاننثيوسا" قد تفلت ، وهذا مؤشر على استعدادها للغناء .

كان "مونيبوديو" قد طلب منها بالفعل غناء إحدى المقطوعات الشائعة ، لكن "لاإسكالنتا" سبقتها وأخذت تشدو بصوت رقيق متموج :

---

(١٥) الأسماء الواردة بالفقرة السابقة تخص شخصيات أسطورية : إغريقية ولاتينية . (المترجم)

بإشبيلى صعلوك ، رثّ الثياب
قلبى مفعم بالأشواق .

تبعتها لاجانتثيوسا قائلة :
مِنْ أجل أسمرٍ ، عسلى العينينِ
مَنْ العاشقة التى لا يجافى مرْقدها النوم !

أضاف "مونيبوديو" وقرعاته على الشّقفتين تزداد سرعة :
ليتشاجر الحبيبان ما أرادا ، لكن الصلح أبقى :
مهما استعرت نيران الغضب ، فمذاق الوصل أشهى .

أبت "لاكارى أرتا" أن تمر لحظات المتعة وهى صامتة ، فالتقطت فردة حذاء أخرى وانضمت إلى حلبة الرقص وأخذت تنشِد :
توقفت أيها الغضوب ، لا تتمادَ فى جلدى :
لو فكرت ملياً ، لأدركت أن لحمك هو الذى يمزقه السوط .

تدخل "ريبوليدو" وقال :

– غنَوا شيئاً بسيطاً بعيداً عن التورية والإسقاط ، ولا داعى للنّبْش فى حكاية انتهت لأن الأمر لا يستحق : ما فات مات ، ولتَنْحوا نَحْواً آخر وكفى .

لم يكن حفل الغناء لينتهى بهذه السرعة لو لم يسمعوا طرقات عنيفة على الباب خرج على إثرها "مونيبوديو" لتقصى الخبر . لقد جاء أحد أفراد المراقبة ليخبره أنه شاهد فى نهاية الشارع القاضى يتقدمه حارسان من الدَّرَك . ساد المكان – بعد سماع كلام الكشّاف – هرج ومرج شديدان لدرجة أن "كارى أرتا" و "إسكالنتا" لبستا حذاءيهما بالمقلوب ، وألقت " لاجانتثيوسا" بالمقشة ورمى "مونيبوديو" الشّقفتين من يده ، وبهذا الشكل تحولت الموسيقى إلى صمت عكِر . انعقد لسان " تشيكيزناكى" وأصيب "ريبوليدو" بالذهول وأسقط فى يدىّ "مانيفيرّو" . بعد أن أفاقوا من هول الصدْمة استجمعوا ما بقى من قواهم وحاول البعض التخفى هنا وهناك ، بينما صعد البعض الآخر إلى السطح للهرب منه إلى الشارع المجاور . لقد أفزع خبر قدوم القاضى وأعوانه هذا الجمع الطيب فزعاً يفوق بكثير ما يمكن أن تحدثه طلقة مدفع

مباغتة أو رعد مفاجئ فى سرب من الحمائم الوادعة . أما المستجدان (رينكونيته وكورتاديّو) فقد تسمّرا فى مكانيهما ، لجهلهما أين المفر ، منتظرين ما ستسفر عنه هذه العاصفة المفاجئة التى لم تنقشع إلا بعد عودة الكشّاف ليطمئن الجمْع قائلاً : إن القاضى ومرافقيه اتجهوا إلى مكان آخر دون أن يصدر عنهم ما يعكر الصفو .

بعد رحيل الكشّاف بقليل وصل إلى باب الدار رجل فى منتصف العمر يرتدى ثياباً عادية، فأدخله "مونيبوديو" معه ثم نادى على "تشيكيزناكى" و "مانيفيرّو" و"ريبوليدو" وأمر الباقين بعدم اقتحام المكان عليهم . ولما كان "رينكونيته" و"كورتاديّو" قد بقيا فى مكانهما بالقاعة ولم يغادراها كالآخرين فقد تمكنا من سماع الحديث الذى جرى بين الزعيم وضيفه . سأل الزائر "مونيبوديو" عن عدم إتمام الأمر الموصى به حسب الاتفاق ، فأجابه "مونيبوديو" إنه لا يعرف حتى تلك اللحظة ما جرى فى الموضوع ، لكن المكلّف به موجود وسيعرف منه التفاصيل حالاً.

لم يكد ينهى جوابه حتى نزل "تشيكيزناكى" فسأله "مونيبوديو" إذا كان قد خلص من مهمة ضربة السكين ذات الأربع عشرة غرزة التى أوكلت إليه . استفسر "تشيكيزناكى" :

– أية ضربة، أليست المخصصة لذلك التاجر الذى يسكن عند مفرق الطرق ؟

– نعم هى – أجاب الزائر .

قال "تشيكيزناكى" :

– آه .. لقد تربصت به الليلة الماضية عند باب داره ، وعندما مرّ قبيل الصلاة اقتربت منه وأنعمت النظر فى وجهه فوجدته صغيراً لا يتسع بأى حال لضربة بهذا الطول ، ولأننى لا أهمل واجباتى وأنفذ ما يوكل إلىّ فقد قررت – حتى لا يضيع المشوار سدى – أن أهوى بها على وجه خادمه. وأستطيع التأكيد لك أن أثر السكين على وجهه يزيد عن عدد الغرز المطلوبة .

قال الشّاب :

– وما فائدة ذلك .. لقد كنت أفضل أن يتلقى التاجر ضربة طولها سبع غُرز على أن تصيب خادمه بضربة مضاعفة . وعلى هذا فقد جاء التنفيذ مخالفاً

للاتفاق ، لكن لا يهم لأن الثلاثين دوقية التى أعطيتها لكم عربوناً ليست بالمال الكثير .. أسعد الله صباحكم أيها السادة .

قال هذا وخلع قبعته وأومأ بالتحية ثم استدار فى طريقه للانصراف ، لكن مونيبوديو أمسكه من عباءته وقال له :

- رجائى إلى سيدى أن يقف ولا يتعجل الذهاب ، نحن نفذنا مهمتنا بشرف وعلى الوجه الأكمل و نتوقع منك الوفاء مثلنا بما وعدت . لقد بقيت لنا فى ذمتك عشرون دوقية أخرى ، تفضل وادفعها نقداً أو عيناً قبل مغادرتك هذا المكان .

رد عليه الشّاب :

- أتعدّ سعادتكم ضَرْب الخادم بدلاً من سيده وفاءً بالوعد ؟

- يبدو أن صاحب السعادة - قال تشيكيزناكى - لايتذكر المثل القائل : "مَنْ يحب "بِلتران" يحب كلبه معه" .

فسأله الشّاب :

- وما علاقة هذا المثل بالقضية ؟

أجاب تشيكيزناكى :

- هل يتغير المعنى لو قلبنا المثل وقلنا : من يكره "بلتران" يكره كلبه معه" ؟ وفى قضيتنا هذه " بلتران" هو التاجر الذى تريد إلحاق الأذى به ، والخادم هو كلبه ، وضرْب الكلب يعنى ضرب "بلتران" . وبهذا الشكل نكون قد أوفينا بالوعد ونفذنا المهمة الموكلة إلينا ، ومن واجبك ، إذن ، دفع الباقى دون مساومة .

تدخل "مونيبوديو" وقال :

- لا فُض فوك ، يا "شيكيزناكى" ، لقد سبقتنى إلى ما كان على طرف لسانى، وعلى هذا لا داعى - ياصاحب السعادة - للدخول فى نقاش مع أصدقائك ومنفذى رغباتك حول أمور تافهة ، واتبع نصحى وسدد ما تم عمله ، وإذا أردت تسديد ضربة أخرى للتاجر بالقدر الذى يتسع له وجهه فاعتبر أنه تلقاها بالفعل وأنهم يطببونه من آثارها حالياً .

- إذا كان الأمر كذلك - ردّ الشّاب - يسرنى تسديد أتعاب الضربتين الآن .

- مادمت مسيحياً مؤمناً بالله - قال له " مونيبوديو" - يجب ألا يتطرق إليك أدنى شك فى أن "تشيكيزناكى" سيترك على وجه التاجر علامة لا تنفكُّ عنه وكأنه مولود بها .

- انطلاقًا من هذا الوعد - قال الشاب - ولثقتى الكاملة فيكم أقدم لكم هذه السلسلة لسداد العشرين دوقية المتأخرة علاوة علي أربعين دوقية أخرى مقابل ضربة السكين المتفق عليها الآن . إنها تزن ألف ريال وبالتأكيد ثمنها يزيد عن الستين دوقية لكننى أدخر الزيادة لديكم كعربون لطعنة سكين ثالثة من ذوات الأربع عشرة غرزة أفكر فى تكليفكم بها قريباً .

ثم خلع من عنقه سلسلة ذهبية وأعطاها للزعيم الذى تلقاها بكثير من الحبور والتجلّة (نظراً لأدبه الجمّ وحسن تربيته) ثم فحصها بعناية وتبين له من وزنها ولونها أنها من الذهب الخالص غير المصطنع. أما "تشيكيزناكى" - الذى وقعت على عاتقه المهمة - فقد قطع على نفسه عهداً بالتربص بالتاجر مساء اليوم ذاته.

انصرف الشاب مغتبطاً ، وبعدها نادى " مونيبوديو"على باقى أعضاء الجمعية ودعاهم للاجتماع به . بعد أن تحلّقوا حوله أخرج من جيبه دفتر مذكرات وطلب من "رينكونيته" تلاوة ما به لأنه لا يحسن القراءة.

فتح "رينكونيته" الدفتر ليجد فى صفحته الأولى ما يلى :

" بيان بضربات السكين المطلوب تنفيذها خلال هذا الأسبوع"

"الأولى : للتاجر الذى يسكن عند مفرق الطرق . القيمة الإجمالية : خمسون إسكودو . المدفوع تحت الحساب : ثلاثون . المكلف بالتنفيذ : تشيكيزناكى" .

- لا أعتقد أن هناك عمليات أخرى مدونة بهذا الباب يا بنى - قال "مونيبوديو" - اقلب الصفحة وانظر أين يوجد باب الضرب بالنبابيت .

قلّب "رينكونيته" الصفحة وطالعه في صدر التالية لها عنوان يقول : "باب الضرب بالنبابيت" ، وتحت العنوان بقليل قرأ ما يلى :

"تُسدد إلى صاحب حانة ميدان "ألفلفا" اثنتا عشرة ضربة من العيار الثقيل . ثمن الضربة : إسكودو . المدفوع تحت الحساب : ثمانية .المهلة : ستة أيام . المكلف بالتنفيذ : مانيفيرُو" .

– من الأفضل غلق ملف هذه القضية – قال مانيفيرّو – لأننى سأفرغ منها الليلة .

– عندك شيء آخر ، يابنى ؟ – سأل الزعيم .

– نعم ، يوجد بيان آخر يقول :

"إصابة الخياط الأحدب المسمى "سيلجيرو" بست ضربات ممتازة ، والموصى بذلك سيدة مقابل عقد ثمين . المكلف بالتنفيذ : ديسموتشادو" .

– إنى لأعجب حقًا – قال الزعيم – كيف لا يزال هذا التكليف مُدْرَجًا بالمذكرات وقد انقضى يومان على المهلة المضروبة له . لا بد أن ظرفًا قهرياً هو الذى حال بين "ديسموتشادو" وبين إتمام المهمة .

تدخل "مانيفيرّو" عندئذ بقوله :

– قابلته أمس ، وأخبرنى أن الخياط الأحدب مريض وملازم لبيته ، ولهذا لم يتمكن من إصابته بالضربات الموصى بها .

– هذا ما توقعته – قال الزعيم – لأن ثقتى فى " ديسموتشادو" لا حدود لها ولا يمكن أن يقعده عن تنفيذ واجبه إلا عذر قهرى ، فكثيراً ما عهدت إليه بالمهام الثقال وكان عند حسن الظن به . أهناك شيء آخر ، يا بنى ؟

– لا – يا سيدى – أجاب "رينكونيته" .

– انتقل ، إذن ، لباب "الاعتداءات العامة" واقرأ لنا ما فيه .

أخذ "رينكونيته" يفتش فى المذكرات حتى عثر بإحدى الصفحات على العنوان التالى:

"باب الاعتداءات العامة وتتضمن : الضرب بعنق الزجاجة ، التلطيخ بالقاذورات ، لصق " السامبينيتوس" ودق القرون على الأبواب [١٦] ، الشتائم والسّباب ، الإصابة بالهلع ، إثارة الذعر و"التهويش" بالسكين ، نشر الهجائيات وقصائد الذم ...إلخ"

---

(١٦) " السامبينيتوس" Sambenitos عبارة عن ثوب تحقيرى كانت محاكم التفتيش تجبر كل من تثبت عليه تهمة الانتساب لليهودية بارتدائه قبيل تنفيذ حكم الإعدام فيه · أما "دق القرون" فيقصد به الاتهام بالزنا أو بعدم الغيرة على الأهل. (المترجم)

أمره الزعيم بقراءة الموجود تحت العنوان فقرأ التالى :

"إلقاء الوساخ والقاذورات على دار ..."

- لا تُكمل - قاطعه الزعيمِ - لأننى المسئول عن هذه العملية التافهة وأعرف الدار وصاحبها ، وقد سدَّد الذى أوصى بالمهمة أربعة إسكودو وباقى عليه أربعة أخرى أُرجئت لما بعد التنفيذ .

- ما تقوله صحيح - عقَّب "رينكونيته" - لأنه مدوّن هنا بالحرف الواحد ، وما زال تحت هذا البند آخر يقول : "دقّ القرون" ...

- لا تقرأ هذا أيضًا - قاطعه الزعيم - لا الدار ولا مكانها ، يكفى إلصاق الوصمة بها دون داع لإذاعتها على الملأ : إنها مسئولية كبيرة تتعلق بالضمير . ومع هذا فأنا على استعداد لدقّ مائة قرن ولصْق عدد مماثل من "السامبينيتوس" على أى باب حتى لو كان لدار أمى التى ولدتنى شريطة أن يدفعوا لى قيمة عملى ومجهودى .

- المكلف بهذا - أضاف "رينكونيته" - "الناريجيتا" .

ردّ عليه الزعيم قائلاً :

- لقد تمت هذه العملية بالفعل وسُدِّدَت أتعابها بالكامل ، لكن ألا ترى عندك شيئاً آخر ؟ لأننى أعتقد - إن لم تخنى الذاكرة - أن هناك عملية لإثارة الشغب والفوضى، تكلفتها عشرون إسكودو ، منها عشرة مقبوضة ، وتقع على عاتق جميع أفراد الجمعية ، ولوتمت بالشكل المطلوب دون خلل ، كما هو مخطط لها ستكون واحدة من أهم الأحداث التى تشهدها المدينة خلال فترة طويلة من الزمن. أعطنى المذكرات يا فتى لأنى أعلم أنه لم يبق فيها المزيد من المهام ، و أدرك أيضاً أن المهنة تعانى حالياً من الركود الشديد ، لكننى آمل أن يخلف هذا الزمن آخر وعد نجد فيه أكثر مما نريد : فالأرزاق بيد الله وحده ولا نستطيع من موقعنا هنا إجبار أحد على تكليفنا بفعل شيء يكون هو قادراً على تحقيقه بيديه دون حاجة لإنفاق مليم واحد من جيبه .

- لقد أصبت كبد الحقيقة - قال " ريبوليدو" - ، لكنى أرجوك ، يا سيد " مونيبوديو" - نيابة عن الحاضرين - بالتفضل بإصدار أوامرك وتعليماتك إلينا لأن الوقت تأخر وحرارة الشمس ترتفع.

- آمركم - قال الزعيم - بالعودة إلى مواقعكم وعدم مغادرتها حتى يوم الأحد القادم ، وهو موعد اللقاء المرتقب بهذا المكان لكى أحصى ما وقع فى أيديكم وأوزعه عليكم بالعدل والقسطاس . أما " رينكونيته" "الطيب" وصاحبه "كورتاديُو" فقد عينتهما على المنطقة الواقعة بين "برج الذهب" -عند النهر، من خارج المدينة - وباب "القصر" لكى يمارسا عملهما على راحتهما بين المسافرين القادمين إلى المدينة والرّاحلين منها. لقد رأيت بتلك البقعة آخرين أقلّ كفاءة منهما فى لعب الورق ، ويكسب الواحد منهم ما لا يقل عن عشرين ريالاً من النحاس أو الفضة يوميـًا. سيصحبكما " جانتشوسو" ليدلكما على القسم المخصص لكما ، ولا مانع لدىّ من اتساع دائرة نشاطكما لتصل إلى "سان سبستيان" أو "سان تيلمو" لأن هذه المنطقة مشاع مشترك ولا تخص أحداً بعينه.

قبّلا يده شكراً على حُسن صنيعه وتَعَهَّدَا له بالقيام بعملهما على أكمل وجه . أخرج " مونيبوديو" عندئذ ورقة مطوية من جيب سترته ، وهى عبارة عن قائمة بأسماء أعضاء الأخوية ، وطلب من " رينكونيته" إضافة اسمه واسم زميله إليها، ولما لم تكن عنده محْبرة فقد أمره بحمل القائمة وتسجيل بياناتهما فيها عند أول مكتبة تصادفهما على النَحو التالى :

"رينكونيته" و "كورتاديو" : عضوية كاملة .. مبتدئ : لا أحد ..مهنة رينكونيته : الغش فى ورق اللعب .. مهنة "كورتاديو" : النشل ..

هذا بالإضافة إلى تاريخ اليوم والشهر والسنة ، لكنه أمره بغض الطّرْف عن ذكره الوالدين أو مسقط الرأس .

وبينما هم فى ذلك دخل أحد المسنّين الوقورين وقال :

- أتيت لأخبر سعادتكم أننى قابلت "لوبى" المالقى عند المدرجات منذ قليل ، وقد أفادنى بتقدمه الكبير فى فنه لدرجة أنه يستطيع بورق اللعب النظيف

سلب مال الشيطان نفسه ، وقد منعه ظرف قهرى ألمّ به من الإتيان لتسجيل اسمه وتقديم فروض الطاعة كما جرت العادة ، لكنه لن يتأخر عن اجتماع الأحد القادم .

– لم تخطئ فراستى إذن – قال " مونيبوديو" – كان لدىّ إحساس قوىّ بأن "لوبى" هذا سيكون أوحد في فنّه لأنه يتمتع بيدين ماهرتين ومواهب عظيمة، فالبراعة فى العمل تتطلب أمرين أساسيين : الأدوات الجيدة والاستعداد الفطرى .

– قابلت أيضاً– أضاف العجوز– بأحد خانات شارع "تينتيروس" اليهودى فى ثياب كاهن . لقد ذهب ليقيم هناك لأنه علم – من مصادره الخاصة – أن ثريين من أثرياء العالم الجديد سينزلان بالخان نفسه ، وسيسعى لاستخدام بعض حيله معهما للخروج بفائدة ولو يسيرة . أفادنى أيضاً بحرصه على المثول بين يديكم فى اجتماع الأحد القادم .

– حقاً – ردّ الزعيم – إن هذا اليهودى لمنافق أثيم ومراوغ عتيد . لم أره منذ أمد بعيد وهذا ليس فى صالحه ، وأقسم إن لم يحسن تصرفاته معى ويعتدل لأجردنه من قميصه، لا ينصاع هذا اللص لأمر كالأتراك ولا يعرف من اللاتينية أكثر مما تعرفه أمى . ألديك أخبار جديدة أخرى ؟

– لا – ردّ العجوز – مما وصل إلى سمعى على الأقل .

قال لهم "مونيبوديو" عندئذ :

– أراكم ، إذن ، على خير الأحد القادم ، ورجائى ألا يتأخر أحد . وقبل أن ترحلوا تقبلوا منى هذا المبلغ البسيط ، ووزع عليهم أربعين ريالاً .

شكره الحاضرون وأثنوا على كرمه .عانق "ريبوليدو" "لاكارى أرتا" ، وحذا حذوه "مانيفيرّو" مع "لا إسكالنتا" ، و"تشيكيزناكى" مع "لاجاننثيوسا" . وبعد فضّ الجلسة تواعدوا على اللقاء فى دار "لا پيپوتا" لأن الزعيم سيذهب إلى هناك لفحص محتوى سلة الملابس قبل قيامه بمهمة تلطيخ إحدى الدور بالأوساخ . عانق الزعيم "رينكونيته" و "كورتاديو" ، وقبل وداعهما أوصاهما بتغيير محل إقامتهما باستمرار

لأن هذا فى صالح الجميع . اصطحبهما بعد ذلك " جانتشوسو" ليطلعهما على الموقع المحدد لهما ، وفى الطريق شدّد عليهما بضرورة حضور اجتماع الأحد القادم لأن الزعيم سيلقى عليهما محاضرة فى كيفية النهوض بفنهما وتطويره .. بعد إطلاعهما على البقعة المخصصة لأنشطتهما عاد " جانتشوسو" وترك الصديقين وهما فى أشد العجب لما رأيا وسمعا .

كان "رينكونيته" – لما يتمتع به من دقة ملاحظة وخبرة اكتسبها من طوافه بصحبة والده بكثير من الأنحاء لبيع الشفاعات البابوية – هو الأكثر تعجباً وبهْتاً لما رأى من أفعال أعضاء الأخوية المباركة ولما سمع من الألفاظ والمصطلحات المتداولة بينهم . لقد بهتته التصرفات الشاذة لتلك الطائفة فأخذ يقلب فيها ، ولم يتمالك نفسه من الضحك – ملء شدقيه – عندما استرجع عدداً من المواقف التى جرت فى الاجتماع المشهود ، وخاصة ما تحدثت به "لاكارى أرتا" حين جاءت شاكية من ضرب "ريبوليدو" لها وقولها إنها تحتسب عند الله الأربعة والعشرين ريالاً التى كسبتها من البغاء وأعطتها له وعن أملها فى أن تكون بميزان حسناتها يوم القيامة. كما تعجب أشد العجب من راحة الضمير التى تتمتع بها تلك الشرذمة من البشر ، ومن ثقتها العمياء فى ولوج الفردوس الأعلى من أوسع أبوابه مكافأة على حرصها الدائم على تأدية الطقوس الدينية رغم أنها تعيش على اللصوصية وإراقة الدم الحرام والإفساد فى أرض الله . ولم تقلّ ابتسامته اتساعًا عندما تذكّر تلك العجوز "لاپيپوتا" وهى تترك فى دارها سلّة مترعة بالملابس المسروقة وتتجه قريرة العين إلى أضرحة القديسين والقديسات للصلاة وتقديم الشموع ، معتقدة أنها بهذا سترفع إلى الجنة بالهيئة التى هى عليها (بملابسها وحذائها) وكأنها شهيدة من الشهداء . واشتد عجبه أيضاً من طاعة الجميع واحترامهم للزعيم ، وهو مجرد جلف متشرد لا يعرف الرحمة (كما يتضح من دفتر المذكرات وما يحتوى عليه من أعمال مزرية) .. وأخيراً ضرب كفًا بكفَ – حسرة وكمداً – على تساهل الشرطة والعدالة فى حاضرة كبيرة مثل إشبيلية مع أناس خطرين يمارسون الإجرام على رءوس الأشهاد دون خوف ، ولذا فقد قرر بينه وبين نفسه مفاتحة صديقه فى أمر الانسحاب سريعًا من ذلك المستنقع الآسن ومن تلك الحياة الآثمة ، المضطربة والمتحررة . لكن هواجسه لم

تمنعه – لحداثة سنّه – من السير قُدُماً فِي ذلك الطريق المحفوف بالمخاطر عدة شهور أخرى جرت له فيها وقائع مثيرة – نعِد بسردها فى مناسبة أخرى – مع الأخوية الشائنة وزعيِمِها "مونيبوديو" ؛ ومن جِهتنا ، لا يعنينا من ذكر ما تقدم إلا تحذير القارئ من مغبَّة الاقتداء بمثل هذه الطغمة من البشر ...

* * *

الإسبانية / الإنجليزية

من بين الأسلاب والغنائم التى حملها الإنجليز إلى لندن بعد غارتهم البحرية على مدينة "قادس" (Cadiz) الإسبانية [1] طفلة صغيرة، عمرها سبع سنوات تقريبًا. لقد أخذها كلوتالدو، قائد أحد أسراب السفن الإنجليزية، دون علم كونت "إسيكس" – القائد العام – وضد إرادته لأن الأخير كان قد أمر بتكثيف البحث عنها وإعادتها إلى والديها بعد أن جاءا إليه شاكيين ضياع ابنتهما الوحيدة علاوة على فقدهما ما كان لهما من ثروة على السفن الإسبانية المنهوبة، فأصابتهما من جرّاء ذلك نكبتان فى آن واحد : نكبة الفقر ونكبة ضياع فلذة الكبد.. ذرفا الدموع مدرارًا وأخبراه أنهما إن كانا يصبران على ضياع الثروة إلا أنهما لا يتحملان العيش دون قرة أعينهما التى لا يوجد لجمالها مثيل فى المدينة.

أصدر الكونت مرسومًا صارمًا إلى جميع وحدات أسطوله يقضى بإعدام كل من تسول له نفسه الاحتفاظ بالطفلة ومنع عودتها لأبويها، لكن تهديدات الدنيا بأسرها لم تكن لتكفى حتى يرهبها "كلوتالدو" ويرضخ لها نظرًا لانبهاره الشديد (وإن كان من منظور مسيحى عفيف) بجمال "إيسابيل" الذى لم يشاهد له مثيلاً طول حياته.. وعلى هذا فقد بقى والداها فى النهاية بدونها– تعيسين محزونين– و "كلوتالدو" هانئًا بكنزه الثمين الذى تفنن فى صونه وإخفائه عن العيون حتى عهد به إلى زوجته فور وصوله إلى لندن.

من حسن الطالع أن أهل بيت كلوتالدو كانوا يدينون سرًا با لكاثوليكية ويتظاهرون فى العلن باتباع ملة ملكيتهم. كان لـ كلوتالدو ابن وحيد (ريكاريدو) يبلغ من العمر اثنى عشر ربيعًا، وقد ربّاه أبواه على طاعة الله وخشيته، وأشرباه منذ نعومة أظفاره تعاليم الدين الكاثوليكى. أما "كاتالينا" –زوجته – وهى سيدة مسيحية نبيلة فى غاية

---

(١) فى عام ١٥٩٦ هجم أسطول إنجليزى تحت إمرة كونت "إسيكس" Essex والأدميرال "هوارد" على مدينة "قادس" بهدف الاستيلاء على الأسطول الإسبانى الرابض فى مينائها والذى كان على أهبة الإبحار إلى العالم الجديد (المكسيك حاليًا) وعلى متنه شحنات لا تقدر بثمن لكثير من التجار الإسبان .. وفى القصة كان والد "إيسابيل" أحد هؤلاء التجار الذين فقدوا ثروتهم فى الهجوم. (المترجم)

الفطنة والورع ، فقد أحبت "إيسابيل" فور رؤيتها وتفانت فى تربيتها كما لو كانت ابنتها التى ولدتها. لم تضنّ عليها بشيء تعرفه، وأغرقتها بالهدايا، والطفلة من جانبها تشربت فى سهولة ويسر- لما تتمتع به من ذكاء فطرى- كل ما علمته لها. كاد دوران عجلة الزمن وحسْن المعاملة وكثرة الهدايا ينسيها غرس أبويها الحقيقيين، لكن ذكراهما كانت تعاودها باستمرار وتنتزع منها التنهيدات الحارة . ورغم تعلمها للغة الإنجليزية إلا أنها لم تفقد لغتها الأصلية، والفضل فى ذلك يرجع لـ"كلوتالدو" الذى حرص على إحضار إسبانيين ممن يثق فيهم إلى داره سراً لكى يتحدثوا معها، وبهذا الشكل لم تنس لغتها وأصبحت تجيد الإنجليزية كما لو كانت مولودة فى قلب لندن.

بعد تعلمها جميع الواجبات التى لا غنى عنها لآنسات البيوتات الكريمة أتقنت القراءة والكتابة، لكن الشيء الذى برعت فيه وتفوقت كان العزف على الآلات الموسيقية المباحة للمرأة العفيفة، وزان كمال عزفها صوتٌ رقراق كأنه قيثارة السماء يسحر الألباب عندما يشدو بالغناء .

وشيئًا فشيئًا أخذت هذه المواهب- الفطرىّ منها والمكتسب- بمجامع قلب "ريكاريدو" وجعلته يهيم بها هياماً عفيفاً ويتبتل فى محرابها. فى البداية أسره جمالها الفتّان الذى يثير البهجة فى نفس كل من ينظر إليه والإعجاب بمواهبها الجمّة وخفّة ظلها فأحبها وقتئذ كأخت له دون أن تتخطى رغباته حدود الشرف والنزاهة. لكن الإعجاب بالجمال الفائق وبهجة النظر إليه، الذى سيطر على "ريكاريدو " عندما كان عمره اثنتى عشرة سنة، سرعان ما تحول إلى رغبة متحرقة فى الاستئثار بالفتاة والاستمتاع بها بعد أن كبرت وترعرعت، وإن كان السبيل الأوحد إلى ذلك يتمثل فى الزواج لأن عفاف "إيسابيلا" - كما ينادونها فى الإنجليزية- وأصول "ريكاريدو" الطيبة لا يتفقان مع أية نوازع خبيثة يمكن أن تخالط روحيهما. حاول "ريكاريدو" آلاف المرات الإفصاح عن رغبته لوالديه، وأحجم فى الوقت نفسه مرات تقاربها عدداً عن البوح بمكنون صدره لعلمه أن والديه قرّرا منذ فترة تزويجه من آنسة إسكتلندية ثرية، أصيلة وكاثوليكية فى السر مثلهما. ومن هنا فقد كان يدرك تمام الإدراك أنهما لن يوافقا على استبدال أمةٍ بسيدة حرة ذات حسب ونسب (إن صلح هذا الوصف على

من كانت فى مثل حالة إيسابيلا) . وبهذا الشكل تنازعته الحيرة ولم يعد يدرى أىّ طريق يسلك، وأطبق عليه الفكر والهمّ لينغصا عليه حياته التى كادت تتفلت من بين أصابعه. ولما رأى أنه من الجبن ترْك نفسه فريسة سهلة للموت كمداً دون أن يحاول التماس دواء لعلّته، تشجع واستجمع ما بقى لديه من قوة ليفاتح "إيسابيلا" فى هذا الأمر الذى يعذبه .

كان "ريكاريدو" محبوباً من جميع الأهل، ولهذا فقد استبدّ بهم الحزن والقلق لمرضه، وكان أبواه أشدهم حزناً وغمّا لأنه ابنهما الوحيد ولما يتمتع به من أخلاق فاضلة وشمائل رائعة. لم يهتدِ الأطباء لتحديد سبب علّته، ولم يجرؤ المريض على البوْح به، لكنه استجمع شتات نفسه أخيراً وقرر تحطيم إسار العقبات التى كبلته بها الظنون، وهكذا فعندما دخلت عليه إيسابيلا بمفردها ذات يوم لرعايته والاطمئنان عليه قال لها بصوت واهن ولسان متلعثم:

- أيتها الجميلة، إيسابيلا ، فضائلك الجمّة ومواهبك العديدة وجمالك الفتّان هما السبب فيما أنا فيه. إن كان يهمك أمرى، ولا ترضين أن تودى بى الأحزان ، هلمى إلىّ ولبىّ رغبتى العفيفة فى الارتباط سرّاً بكِ كزوج لأنى متأكد أن والدىّ سيضنان علىّ بهذا الزواج الذى أعتبره أغلى شىء فى حياتى. لو عاهدتنى الآن أن تكونى لى زوجة، أعاهدك- كمسيحى كاثوليكى صادق الإيمان- ألا أكون لأحد سواك. ورغم علمى أن الابتناء بك لن يتم إلا عن طريق الكنيسة وبمباركة أبى وأمى إلا إن هذا العهد الذى لا تنفصم عراه سيكون كافيًا لرد عافيتى ولشفائى من علتى، ويجعلنى أعيش هانئاً قرير العين فى انتظار تحقيق الأمل السعيد المرتجى .

كانت إيسابيلا تنصت لما يقول مطرقة الرأس، فى خفَر وعفة يضارعان ما تتمتع به من جمال ، ولمّا سكت ردت عليه بفطنة وأدب:

- تنتابنى الحيرة فى رد انتزاعى من حضن أبوىّ وانتقالى إلى والديك إلى نقمة السماء أو إلى رحمتها، لكن الشىء المؤكد أن الأفضال التى لا تحصى لوالديك وحدبهما علىّ قد أنسيانى همومى وجعلانى أعيش قريرة العين كأننى بين أهلى وعشيرتى، وأنا لست جاحدة ولا ناكرة للجميل حتى أقدم

على ما يغضبهما أو يخالف إرادتهما، ومن ثمَّ فإن عرضك الذى تشرفنى به ولا أستحقه سيسعد قلبى أيّما سعادة لو كان مصحوباً بموافقتهما واقتناعهما بجدارتى بك، وإلى أن يحين وقت تحقيق هذا الأمل أعدك بألا أكون زوجة لأحد غيرك، فاطمئن واعلم أننى أريد لك كل ما فى هذا العالم من خير .

إلى هنا انتهى الحديث العفيف الرزين لإيسابيلا لكى يفتح الباب أمام عودة الصحة إلى جسد "ريكاريدو" الواهن، ولسريان دبيب الحياة فى آمال والديه بعدما أصابها الشلل لمرضه.

افترق الحبيبان بكل أدب وتهذيب: كانت عيناه مغرورقتين بالدموع، وهى حفيّة وممتنة من سويداء قلبها لهذا الحب الطاهر . فور تماثل "ريكاريدو" للشفاء وتَركه لفراش المرض– وهو ما اعتبره والده بمثابة معجزة– قرر إماطة اللثام عما يعتمل بصدره مِن مشاعر وأفكار وعدم تركها حبيسة أكثر من ذلك. وهكذا، وفى نهاية حديث مطوّل أجراه ذات يوم مع والدته أفصح عن رغبته العارمة فى الاقتران بإيسابيلا، ورجاها بتحقيق ما يصبو إليه لأن الرفض يعنى الحكم عليه بالموت.. تحدثت أمه كثيراً عن محاسن "إيسابيلا" وفضائلها وبالغت فى مدحها والثناء عليها لدرجة جعلته يتخيل أنها تضن بها عليه، لكنها طمأنته فى النهاية ووعدته بمفاتحة والده فى الموضوع والحصول على موافقته. وفى أول لقاء لها مع زوجها لم تجد صعوبة تذكر– نظراً لمعرفتهما الجيدة لشمائل "إيسابيلا" وأخلاقها– فى إقناعه بتحقيق أمل ابنه، ومن ثمَّ فقد أخذ الاثنان يفكران فى اختلاق عذر لفسخ خطبة الفتاة الإسكتلندية .

لم يكن عمر "إيسابيلا" فى ذلك الوقت يتعدى الأربعة عشر ربيعًا ولا يتجاوز "ريكاريدو" العشرين، وبرغم هذينِ العمرين الغضّين فقد كانا يتمتعان بكياسة وفطنة أصحاب الأعمار المديدة . لم يبقَ سوى أربعة أيام على الموعد الذى حدده الأبوان لوضع نير الزواج المقدس على عاتق ابنهما ولاقترانه بمن أسعدها الحظ لتكون شريكة حياته ومهرها وإن كان عبارة عن جمْلة من الفضائل إلا إنه يفوق بكثير الثروة العريضة التى كانت ستقدمها الإسكتلندية .كانت الأفراح على وشك الانطلاق، وتمت دعوة الأهل والأصدقاء، ولم يعد ينقص شىء سوى الحصول على تصريح الملكة لأن

الزيجات بين أ صحاب الدم الأزرق النبيل لم تكن تتم إلا برضاها وموافقتها؛ وعلى هذا فقد استعدا لطلب الإذن الذى لم يشكّا لحظة واحدة فى الحصول عليه .. لكن الرياح قد تجرى بما لا تشتهى السفن: ففى مساء اليوم ما قبل الأخير من الأيام الأربعة جاء رسول من الملكة حاملاً رسالة عكرت صفو الأفراح . تطلب الرسالة من "كلوتالدو" المثول أمام صاحبة الجلالة صباح الغد ومعه الأسيرة الإسبانية التى أحضرها من "قادس" . ذهب الرسول حاملاً إجابة "كلوتالدو" بالإذعان والطاعة ، وترك أهل الدار نهباً للخوف والفزع والاضطراب .

قالت السيدة "كاتالينا" :

– آه لو عرفت صاحبة الجلالة أننى ربيت هذه الصبية تربية كاثوليكية، لن تتردد لحظة فى إلصاق تهمة اتباع المسيحية بأهل الدار جميعاً ! لو سألتها الملكة عما تعلمته فى أعوام أسرها الثمانية ، فهل ستجيب المسكينة – رغم ذكائها وفطنتها – إلا بما يديننا ؟

حين سمعتها إيسابيلا قالت على الفور:

– لا تحملى هماً يا سيدتى، فأنا على ثقة من أن رحمة السماء ستلهمنى فى تلك اللحظة الرد المناسب الذى لا يبعد عنكم الشبهات فحسب بل يزيد من رصيد ثقتها بكم .

كان "ريكاريدو" يرتعد فَرَقَاً من حدوث أمر جلل لا تحمد عقباه . أما "كلوتالدو" فكان يقلب فكره فى كافة الاتجاهات باحثاً عن شيء يستمد منه العون للتخفيف من شدة فزعه، ولم يجد سنداً إلا فى شيئين لا ثالث لهما: الثقة فى عدم خذلان الله لهم، وفطنة "إيسابيلا" التى كان يعوّل عليها كثيراً فى عدم افتضاح أمر انتسابهم للكاثوليكية والنجاة – بالتالى – من عقوبة الإعدام والتمثيل بالجثة لأن الروح إذا كانت ستنعم فى هذه الحالة بالشهادة إلا إن ضعف الجسد لن يقوى على تحمل آلام التعذيب والصلب .كانت "إيسابيلا" تؤكد لهم المرة تلْو الأخرى أنها لن تكون بأى حال سبباً فى حدوث ما يخشونه ويرتابون فيه ، فهى وإن كانت لا تدرى شيئًا عما ستجيب به على الأسئلة التى ستوجه إليها إلا إن أملها كبير فى أن إجاباتها ستكون – كما ذكرت من قبل – فى صالحهم جميعاً.

أمضوا تلك الليلة تتناوشهم الخواطر والظنون: استبعدوا فكرة اكتشاف الملكة لاعتناقهم الكاثوليكية لأنها لو كانت تعرف لما أرسلت إليهم بهذه الرسالة الوادعة المهذبة، ومن ثمّ فقد رجح لديهم الظن أنها تريد فقط رؤية "إيسابيلا" لأن خبر جمالها الفتان ومواهبها الفائقة طار إلى قصرها مثلما حلّق فوق سماء المدينة، ومع ذلك فقد انتابهم الخوف من هذا الخاطر لأنه يعنى اتهامهم بالتقاعس عن تقديمها إلى الملكة حتى ذلك الوقت، واستقر رأيهم على دفع هذا الاتهام متعللين بأنهم اختاروها منذ وقوعها فى حوزتهم لتكون زوجة لريكاريدو . وأسقط فى أيديهم مرة أخرى لأن اتخاذ قرار الزواج دون تصريح الملكة يعنى أيضاً أنهم مذنبون، لكنهم لم يقيموا وزناً كبيراً لذلك لأن الذنب الأخير لا يستوجب عقوبة مغلظة .

بعد ائتناسهم بالخاطر السابق اتفقوا على ألا تمثل "إيسابيلا" أمام الملكة كأسيرة متواضعة الثياب، بل فى مظهر يليق بزوجة نبيل إنجليزى ذى حسب ونسب . وعلى هذا، ففى صبيحة اليوم التالى ألبسوها على الطريقة الإسبانية : ارتدت ثوباً طويلاً يلامس الأرض من الحرير الأخضر المقصب، مبطّناً بقماش خيوطه من الذهب وموشّى بقطع من اللؤلؤ تحلّت بعقد وحزام من الماس، وأمسكت بمروحة مثل الهوانم الإسبانيات. أما خصلات شعرها الطويل الغزير فقد تم تضفيرها باللؤلؤ والماس.. وبهذه الزينة الطاغية والحضور العذب والجمال الفتان أشرقت "إيسابيلا" ذلك اليوم على لندن فى عربة فارهة جميلة لتسلب أرواح الناظرين إليها وتخطف أبصارهم. إلى جوارها فى العربة ركب "كلوتالدو" وزوجته وابنه، بينما أحاط بهم على ظهور الخيل جمع غفير من علية القوم أقاربهم.. لقد أراد "كلوتالدو" لأسيرته الظهور بهذا المظهر الرائع أمام الملكة لكى يجبر الأخيرة على معاملتها كزوجة لابنه .

وصل الرّكب إلى القصر، وإلى البهو الكبير والفسيح حيث تجلس الملكة دلف الزائرون ومعهم "إيسابيلا" بجمالها الذى يفوق التصور، لكنهم توقفوا بعد خطوتين من باب البهو بينما تقدمت "إيسابيلا" وحدها فبدت مثل نجمة تتحرك فى سماء ليلة صافية ساكنة أو شعاع لشمس أطلّ فى وضح النهار بين جبلين. أشعل سحرها – وهى تخطر نحو الملكة – النار فى نفوس الموجودين بالمكان وكأن إله الحب قد ذاب فى أشعة شموسها الجميلة. تقدمت بكل أدب وتواضع لتحية الملكة، وقالت لها بلسان إنجليزى مبين:

– أتتكرم الملكة وتمد يدها لخادمتها التى أسعدها الحظ بالتملى بنور جلالها ؟

شُغلت الملكة بالنظر إليها ولم توجه إليها كلمة خلال وقت طويل، فقد بدالها- كما أخبرت وصيفاتها فيما بعد- أنها أمام سماء مرصعة بنجوم من الماس واللؤلؤ، أمام وجه كالشمس وعينين يطل منهما القمر، أمام تحفة رائعة للجمال لم تقع العين على مثلها من قبل. أما النساء اللواتى كن مع الملكة فقد تركزت حواسهن جميعاً فى حاسة النظر حتى لا يفوتهن رؤية شىء فى "إيسابيلا" : منهن من استهواها لون وجهها، ومن طربت لحيوية عينيها، ومن سحرت برشاقة قدّها، ومن فتنت بعذوبة لسانها، ومن دفعتها الغيرة العمياء لتقول:

- جميلة هى الإسبانية ، وإن كان لا يعجبنى ثوبها .

بعد تجاوز الملكة للدهشة التى عقدت لسانها، أشارت إلى "إيسابيلا" بالنهوض وقالت لها :

- حدثينى بالإسبانية ، أيتها الفتاة، فأنا أفهمها جيداً ويطربنى سماعها .

ثم التفتت إلى "كلوتالدو" وقالت له:

- ألحقت بى الضرر لإخفائك هذا الكنز الثمين عنى طيلة السنوات الماضية ، صحيح أنه يغرى بالطمع غير أنك ملزم برده إلىّ لأنه قانوناً ملكى .

- جلالتكم محقة فيما تقولين- ردّ "كلوتالدو" - أعترف بذنبى فى إخفائه دون قصد عنكم، وإن كنت قد احتفظت به فلكى أصقله وأجعله يصل إلى مرتبة الكمال كما ترون، والآن أنتهز الفرصة لطلب الإذن فى تزويج ابنى "ريكاريدو" من "إيسابيلا" وأنا على أتم الاستعداد لتقديم كل ما فى وسعى لجلالتكم من أجل تحقيق هذا الطلب .

- حتى اسمها يطربنى- قالت الملكة - لا ينقصه سوى إلحاق نعت "الإسبانية" به لكى يكتمل عندى كل ما أرغبه فيها.. لكن ألا تعلم يا "كلوتالدو" أنك خطبتها لابنك دون موافقتى ؟

- ما فعلت هذا يا مليكتى إلا ثقة منى فى أنكم لن تضنوا علينا بمثل هذا الفضل بل وبما هو أكبر منه وأعظم اعتماداً على رصيد الخدمات الجليلة والخطيرة التى قدمتها ، أنا وأسلافى لتاج إنجلترا العزيزة، هذا بالإضافة إلى أن ابنى لم يتزوجها بعد .

- ولن يكون لها زوجاً - قالت الملكة - حتى يكون جديراً بها . ما أردت قوله هو أن رصيدك الكبير أو رصيد آبائك من الخدمات لا يشفع عندى فى هذا الأمر، بل عليه هو أن يبرهن بخدماته الشخصية لمليكته أنه يستحق فعلاً هذه الدرّة التى أحببتها كما لو كانت ابنتى .

جثت "إيسابيلا" على ركبيتها ثانية أمام الملكة فور سماعها للجملة الأخيرة وخاطبتها باللغة القشتالية (الإسبانية) قائلة:

- يشرفنى ويثلج صدرى، يا صاحبة الجلالة، اعتباركم لى مثل ابنة لسموّكم. لقد محا شعوركم تجاهى ما شهدته من نوازل وخطوب . أبعد فضلكم هذا يوجد شىء أرهبه أو أمل أرجوه !

أنصتت الملكة بشغف وحب للكلام الجميل العذب الذى أتمت به " إيسابيلا" حديثها، وعندما انتهت منه أمرت الملكة ببقائها فى القصر وسلمتها لكبيرة الوصيفات كى تعلمها نظم وقواعد العيش فى القصر الملكى .

عندما أدرك "ريكاريدو" أن محبوبته ستتركه أحس وكأن روحه تُستل منه، وكان على وشك فقدان العقل . تقدم إلى الملكة - مضطرباً مذعوراً - ثم ركع أمامها وقال:

- أنا لا أريد التمسح فيما أدّاه آبائى وأجدادى من واجب نحو ملوكهم، ولذا فأنا على استعداد للقيام بأية مهمة فى خدمة مليكتى لكى أثبت لها أننى لست أقصر منهم باعاً ولا أقل شأناً .

- حسناً - قالت الملكة - توجد سفينتان حربيتان على وشك الإقلاع فى مهمة قرصانية تحت إمرة بارون " لنساك" ، سأجعلك قائداً على واحدة منها لأننى متأكدة أن نبالة دمك هى بمثابة تعويض لحداثة سنك . ضع فى اعتبارك أننى أتفضل عليك بهذه الفرصة لكى تثبت أنك بالفعل شبل لأولئك الأسود أسلافك، ولكى تخدم مليكتك وتظهر براعتك وقوة شخصيتك ولتظفر فى النهاية بالمكافأة السخية التى تتمناها . سأحتفظ لك بإيسابيلا وإن كان عفافها ونقاء معدنها هما خير حافظ لها امض على بركة الله، فأنا أتوقع منك بطولات مجيدة لأنك صبّ عاشق. مرحى لملك محارب تنتظم فى صفوف جيشه عشرة آلاف من الجنود العاشقين، يخوضون غمار الوغى

وقلوبهم تهفو لنشوة اللقاء بمحبوباتهم ، مكافأة لهم على النصر الذى سيحرزونه فى ساحة القتال. انهض، ياريكاريدو وانظر إذا كنت تريد قول شىء لإيسابيلا لأنك راحل غداً.

قبّل "ريكاريدو" يد الملكة معرباً لها عن امتنانه للفضل الذى أنعمت به عليه، ثمّ توجه إلى "إيسابيلا" . ركع أمامها وأراد أن يحدثها بشىء فلم يقدر لغصّة صعدت إلى حلقه وانعقد بها لسانه. سالت الدموع منه فحاول جاهداً كبت مشاعره وإخفاءها عن عيون الحاضرين لكن الملكة شاهدتها وقالت له:

- لا تخجل من البكاء يا "ريكاريدو" ولا تُهوِّن من شأن نفسك لأنك عبَّرت عن مشاعرك الرقيقة فى هذا الموقف الصعب، فنزال الأعداء شىء ووداع الأحبة شىء آخر. هلمى "يا إيسابيلا" وعانقى "ريكاريدو" ، أعطيه مباركتك فهو يستحقها لما أبداه من مشاعر طيبة.

كانت " إيسابيلا" مسلوبة اللبّ شاردة لفَرْط تأثرها بما تراه من تذلل ومعاناة "ريكاريدو" الذى تحبه كزوج لها، ولذا لم تسمع نداء الملكة ولم تفطن إليه. ظلت جامدة فى مكانها، ذاهلة متألمة، تنحدر الدموع من على وجنتيها فبدت مثل تمثال من الرخام ناصع البياض يجهش بالبكاء .

انتزع المشهد الشجىّ للعاشقين دموع معظم الحاضرين، ودون أن تصدر عن "ريكاريدو" كلمة واحدة ولا حتى لمحبوبته ، أدى التحية للملكة بصحبة والده وذويه ثم غادروا القاعة الفسيحة يعتصرهم التأثر والغيظ وتبلل مآقيهم الدموع.

كانت "إيسابيلا" كاليتيمة التى فرغ الناس من دفن والديها، يتملكها الخوف من قيام سيدتها الجديدة بتغيير العادات التى تربّت عليها . خلاصة القول أنها بقيت فى القصر الملكى، أما "ريكاريدو" فقد أبحر بعد يومين تتنازعه جملة من الخواطر والأفكار، من بينها خاطران جعلاه يفقد صوابه: لقد كان يعلم أن الظفر بإيسابيلا مرهون بما سيحققه من بطولات وأمجاد، ومن جهة أخرى كان يدرك أن كاثوليكيته تمنعه من إشهار سيفه فى وجه كاثوليكى مثله وتحول- بالتالى - دون تحقيقه لأية مفخرة حربية، وفى هذه الحالة سيتهمونه باعتناق الكاثوليكية أو بالجبن - على أقل تقدير - وإلصاق تهمة واحدة من السابقتين كفيل بهدم حياته وضياع حبيبته . أخذ

يقلب هذين الخاطرين فى رأسه واستقر رأيه أخيراً على تقديم حبه على مسيحيته وإن كان قد دعا الرب من شغاف قلبه أن يمنّ عليه بفرصة يبرهن من خلالها على شجاعته ولا تتنافى مع مبادئه المسيحية ، وبهذا الشكل يتمكن من إرضاء الملكة ويصبح جديراً بالزواج من "إيسابيلا" .

انطلقت السفينتان تشقان عباب المحيط (الأطلسى) فى اتجاه الطريق الذى تسلكه السفن البرتغالية والإسبانية القادمة أو الذاهبة إلى العالم الجديد [٢] ونعمتا خلال ستة أيام برياح طيبة ، وفى نهاية اليوم السادس هبّت على جانبيها ريح عاصف يطلق عليها بحارو المحيط "ميديو ديّا" (وهى تسمية مغايرة لما تعرف به فى البحر المتوسط) .كانت ريحاً شديدة متصلة لم تمكنهم من اللحاق بإحدى الجزر للاحتماء بها ودفعتهم دفعاً نحو سواحل إسبانيا ليكتشفوا على مقربة من مضيق جبل طارق ثلاث سفن : اثنتين صغيرتين والثالثة كبيرة محصّنة . أمر "ريكاريدو" طاقم سفينته بالاقتراب من سفينة القائد العام لاستطلاع رأيه فى مهاجمة السفن التى اكتشفوها ، لكنه شاهد قبل الوصول إليها علماً أسود مرفوعاً على ساريتها . اقترب أكثر فسمع الأبواق والطبول تصدر أصواتاً وقرعات جنائزية، وهى بمثابة إعلان عن موت القائد أو إحدى الشخصيات المهمة على السفينة. ووسط مشاعر الفزع التى تملكته تمكن من إجراء أول حوار له مع أفراد السفينة الرئيسية منذ مغادرتهم لميناء لندن. أخبره الذين كانوا على ظهرها بموت القائد العام ليلة أمس بسكتة دماغية وطلبوا منه الانتقال إليهم. حزن الجميع لموت القائد العام باستثناء "ريكاريدو" الذى أثلج صدره الخبر: لا لبغض لقائده أو تشفياً فيه بل لانتقال القيادة العامة إليه– تنفيذاً لأوامر الملكة– وتمكنه حينئذ من التصرف بحرية وبما لا يخالف مبادئه الكاثوليكية. لم يضع الوقت وسارع بالانتقال إلى سفينة القيادة فوجد على ظهرها فريقاً يبكى القائد المتوفى وفريقاً آخر يعرب عن فرحته بالقائد الحى، لكن هؤلاء وأولئك بادروا فى النهاية بالإعلان عن طاعتهم للقائد الجديد لكى تبدأ بعدها مراسم العزاء التى لم تستمر طويلاً

(٢) يطلق "ثريانتس" – مثل أهل عصره – مسمى "جزر الهند الغربية" أو "بلاد الهند" على الأراضى التى اكتشفها كولومبس ومن جاءوا بعده فى الأمريكتين، ذلك لأنهم كانوا يظنونها تابعة للهند ولم يدر بخلدهم أنهم اكتشفوا "عالماً جديداً" لا يمت للهند بصلة.. وهذه التسمية تتكرر كثيراً فى القصة التى بين أيدينا، بل وفى مواضع أخرى من بقية القصص. (المترجم)

لأنهم شاهدوا انحراف سفينتين من السفن الثلاث التى اكتشفوها من قبل عن البارجة الكبيرة واتجاههما نحوهم.

تعرفوا على الهوية التركية للسفينتين القادمتين من الأَهِلَّة المرسومة على أعلامهما. ابتهج "ريكاريدو" لاعتقاده أن السماء استجابت لدعائه وساقت إليه هذه الفريسة حتى لا يعتدى على مسيحى مثله. اقتربت السفينتان التركيتان من السفينتين الإنجليزيتين اللتين كانتا ترفعان الأعلام الإسبانية لإخفاء هويتهما القرصانية، ولهذا اعتقد الأتراك أنهم أمام سفينتين إسبانيتين قادمتين من العالم الجديد وبإمكانهم الاستيلاء بسهولة عليهما. تركهما "ريكاريدو" يقتربان وعندما أصبحتا فى مرمى مدفعيته أمر بإطلاق النيران عليهما فأصابت خمس قذائف منتصف إحداهما وأحدثت بها فجوة كبيرة. مالت السفينة المصابة على جنبها وشرعت فى الغرق، ولما رأت السفينة الأخرى ما حلّ بزميلتها ألقت إليها بمرساة وحاولت جرّها نحو البارجة الكبيرة المنتظرة بعيداً ، لكن "ريكاريدو" أمر جنوده المتوثبين بشحن المدفعية من جديد وتبعهما وهو يمطرهما بوابل من القذائف فأصابهما إصابات بالغة. عندما وصل من كانوا على السفينتين الموشكتين على الغرق إلى البارجة الكبيرة غادروهما وحاولوا الاحتماء بالبارجة: لامن أجل الدفاع عنها بل فراراً بجلودهم من براثق موت محقق. ولما وجد "ريكاريدو" أن البارجة الكبيرة مشغولة بالموشكتين على الغرق حمل عليها قبل تمكنها من الدوران أو استعمال المجاديف وحاصرها بسفينتيه. فى تلك الأثناء انتهز الأسرى المسيحيون العاملون على المجاديف الفرصة وحطموا السلاسل والقيود واختلطوا بالأتراك المتدافعين لارتقاء حائط البارجة الكبيرة، وبما أنهم كانوا يصعدون من أحد جوانبها فقد كانت ظهورهم مكشوفة للرماة الإنجليز الذين استتروا خلف أسوار سفينتيهما وأخذوا يصوبون بنادقهم على الصاعدين من الأتراك دون المسيحيين– تنفيذاً لأوامر ريكاريدو– فأصابوا معظمهم..أما الأتراك النّاجون من القذف المباشر فقد كانوا على موعد – فى البارجة الكبيرة– مع الشراسة الوليدة للأسرى المسيحيين الذين أعملوا فيهم القتل بالأسلحة التى استولوا عليها: ذلك لأن القوة التى يفقدها المحاربون الأشاوس تنتقل إلى خَور وضعف الناهضين وتجعلهم يستأسدون. لقد هبطت على الأسرى الإسبان شجاعة منقطعة النظير لاعتقادهم أن المهاجمين إسبان مثلهم، وبهذا

الشكل فقد سوّوا الأهاويل من أجل استرداد حريتهم. بعد موت غالبية الأتراك صعد إلى سطح البارجة نفر من الأسرى الإسبان ونادوا على من كانوا يحسبونهم إسباناً مثلهم وطلبوا منهم الانتقال إلى البارجة للاحتفال سوياً بالنصر والاستمتاع بحلاوته .

سألهم "ريكاريدو" باللغة الإسبانية عن هوية البارجة التى يقفون عليها فأخبروه بأنها برتغالية كانت قادمة من العالم الجديد وعلى متنها شحنات ضخمة من الماس واللؤلؤ والأفاويه يزيد ثمنها عن مليون إسكودو ذهبية، وأن العاصفة جرفتها إلى هذه الأنحاء شبه محطمة وبدون مدفعية لأن بحارتها ألقوا بمعداتها الحربية فى عرض المحيط بعد أن تمكن منهم المرض وكاد يفتك بهم الجوع والعطش .أما السفينتان الصغيرتان فكانتا للقرصان الألبانى "أرناؤط مامى" الذى استولى يوم الخميس على البارجة دون مقاومة من بحارتها ، كما أخبروه بسماعهم للأتراك يقولون إنه عندما لم يتمكن من نقل ما بها من كنوز إلى سفينتيه لصغر حجميهما قرر سحبها إلى نهر لاراتشى (Larache) القريب من هنا .

أخبرهم "ريكاريدو" عندئذ أنهم ليسوا إسبانيين كما يظنون بل تابعين لتاج ملكة إنجلترا . نزل عليهم الخبر كالصاعقة إذ اعتبروا أنفسهم – ومعهم الحق فى ذلك – مثل الذى تخلّص من وهْدة ليسقط فى حفرة بلا قرار، لكن " ريكاريدو" طمأنهم قائلاً إنه لن يصيبهم بأذى ولن يسلب حريتهم المستردة بشرط ألا يلجأوا إلى المقاومة وإشهار السلاح .

– وما لنا والمقاومة – رد عليه أحد الإسبان – وليس بالبارجة مدفعية ولا بأيدينا سلاح ، ولم يبق لنا، بالتالى، سوى الركون إلى كرم وأريحية قائدكم الهمام الذى خلصنا من ربْقة أسر الأتراك، ونحن نناشده بإتمام حسن صنيعه وإطلاق سراحنا، وثِق تماماً أنه لن يندم على هذا لأن خبر شهامته سيطير إلى كافة الأنحاء وسيجلّل نصره المؤزر بأكاليل الغار .

استحسن "ريكاريدو" كلام الإسبانى وصادف هوى فى نفسه، فقام على الفور بعقد اجتماع مع رجاله وسألهم عن الطريقة المثلى التى تضمن لهم إرسال هؤلاء المسيحيين إلى إسبانيا دون متاعب أو قلاقل، وتجنبهم فى الوقت ذاته المخاطر التى

ينطوى عليها هذا الإجراء . ردوا عليه قائلين إنه من الأفضل تدبير مكيدة لقتلهم، وذلك بجعلهم ينتقلون فرادى إلى سفينتنا وعندما يصل الواحد منهم إلى ظهرها نتلقاه بسيوفنا ونرميه فى البحر من الجهة الأخرى، وبهذا الشكل نقضى عليهم جميعًا ونتمكن من قيادة البارجة إلى لندن دون خوف.

ردَ "ريكاريدو" على هذا الاقتراح بقوله :

- ألا تتفقون معى أنه من قبيل إساءة الأدب مع الرب مقابلة ما أنعم به علينا من ثروة طائلة ونصر مظفر بالجحود والنكران، وأنه من المستقبح اللجوء إلى السيف فى أمر يمكن حلّه سلمًا عن طريق التدبير المحكم والتصرف الواعى. وبناء على هذا لا أجد ضرورة فى قتل أىَ مسيحى كاثوليكى، لا لحب فيهم بل حفاظاً على سمعتنا جميعاً لأنى لا أريد تلويث العمل المجيد الذى شاركتمونى فى القيام به اليوم، ولا أريد لأسماء الشجعان الاقتران بصفة القساة لأن الشجاعة لا تنسجم أبداً مع القسوة ولا تتفق معها . ومن هنا أرى إخلاء سفينة من سفينتينا مما تحمله من رجال وعتاد وأسلحة باستثناء بعض المؤن والزاد ونَقْلَه إلى البارجة البرتغالية الكبيرة، ثم ننقل إلى السفينة التى أخليناها الأسرى المحررين لكى يبحروا بها إلى وطنهم ونبحر نحن بالبارجة والسفينة الأخرى إلى لندن .

لم يجرؤ أحد على مخالفة هذا الرأى الذى اعتبره البعض صائبًا وشجاعًا، بينما أَرْجَعه البعض الآخر إلى كاثوليكية صاحبه. شرع "ريكاريدو" فى تنفيذ ما عقد عليه العزم فانتقل بصحبة خمسين من حاملى البنادق إلى البارجة، وهم على أهبة الاستعداد واليقظة . وجد على ظهر البارجة نحو ثلاثمائة شخص، وهم جملة الناجين من سفينتى القرصان الألبانى. أمر بتفتيش البارجة وإحضار سجلات الحمولةالتى عليها، وعندئذ أخبره الرجل - الذى تحدث معه من قبل من على ظهر السفينة المعادية - أن السجلات التى أعدها القرصان الألبانى قد غاصت معه فى أعماق المحيط.. تمكن فى لحظات معدودات من فرض النظام على مَنْ حوله، وجعل إحدى سفينتيه تقترب بجانبها من البارجة، وبعد نجاح هذه المناورة البحرية مدّوا السقالات الضخمة بينهما، ومن فوقها نقلوا بمهارة وحنكة المدفعية والعتاد الحربى من السفينة

الصغيرة إلى البارجة ولم يتركوا على متنها سوى زاد ومئونة يكفيان الأسرى المحررين لمدة لا تقل عن الشهر. تحدث "ريكاريدو" بعد ذلك حديثًا قصيراً مع المسيحيين وأمرهم بالانتقال- فرداً فرداً - إلى السفينة التي تم إخلاؤها ، وهكذا، وكلما مرّ واحد منهم أمامه فى طريقه لعبور السقّالة، كان يسلّمه- من المال الذى أحضره من سفينته-أربعة إسكودو ذهبية لكى يستعين بها على قضاء حوائجه عندما يصل إلى اليابسة القريبة؛ فقد كانت تبدو من هنالك - حيث يقفون - جبال "أبيلا" الإفريقية وأسوار مدينة "كالبى" المواجهة لجبل طارق . عبّر له الجميع - على لسان آخر رجل منهم - عن خالص امتنانهم لحسن صنيعه . وقف الرجل قبل اجتيازه المعْبر وخاطبه قائلاً :

- أستحلفك بالله، أيها الفارس الشجاع، أن تحملنى معك إلى إنجلترا ولا تردنى إلى إسبانيا لأنها وإن كانت وطنى الذى لم يمض على مغادرتى له سوى ستة أيام إلا إنه لا يوجد ما ينتظرنى فيه غير الأحزان والهموم. عندما استولى الإنجليز منذ خمسة عشر عامًا على "قادس" (٣) فقدت ابنتى الوحيدة فى الهجوم على المدينة ، وأغلب الظن أن المغيرين حملوها معهم إلى إنجلترا. لقد فقدت بضياعها الراحة فى شيخوختى ، وانطفأ نور عينىّ اللتين لم تعودا بعدها لرؤية شىء يسر الخاطر أو يبهج الفؤاد. حزن عميم أناخ علىّ بكلكله بعد ضياعها منى، أفقدنى التوازن وجعلنى أُهمل تجارتى التى كنت بسببها أغنى تاجر فى المدينة. وهكذا تحالفت علىّ مصيبتان فى آن واحد: مصيبة ضياع فلذة الكبد ومصيبة ضياع الثروة العريضة التى تتعدى صكوكها وبضائعها فى الأسواق مئات الآلاف من الإسكودو، فضلاً عن أصول تجارية لا تقل قيمتها بأى حال عن خمسين ألف دوكادوس. كل هذا توارى فى غمضة عين وإن كان لا يساوى شيئاً بالمقارنة بفقدان الابنة الوحيدة. ضاقت بنا الحال بعد ذلك وأصبحت أنا وزوجتى- السيدة الحزينة

---

(٣) تعنى إشارة "ثريانتس"هذه أن مدينة "قادس" قد سقطت فى أيدى الإنجليز عام ١٥٨٧م ، "لكنهم (أى الإنجليز) - طبقًا لما أورده فرانثيسكو دراك - لم ينزلوا المدينة العام المذكوربل اكتفوا بحرق بعض السفن الإسبانية الرّاسية فى خليجها" . وعلى هذا فتاريخ الحادث الذى يشير إليه والد "إيسابيلا" يتعلق بعام ١٥٩٦م ، أو عام ١٥٩٨م. (المترجم)

الجالسة هناك- من المعدمين، وعندما أمسكت الحاجة بخناقنا ولم نستطع قهرها قررنا الرحيل إلى العالم الجديد، ملاذ الطيبين الذين مال عليهم الزمان أمثالنا. وبعد مغادرتنا لميناء "قادس" بستة أيام أدركنا القراصنة وأسرونا، فتجددت نكبتنا وتأكد سوء حظنا. وكان من الممكن أن يصبح هذا الحظ أشد سوءاً لو لم يتوقف القراصنة للاستيلاء على البارجة البرتغالية، فقد أدى تأخرهم إلى إدراككم لهم وحدوث ما عاينتموه بأنفسكم .

سأله "ريكاريدو" عن اسم ابنته، وعندما سمعه تأكد له ما حسبه في البداية:أن مُحدِّثه هو والد حبيبته "إيسابيلا" . لم يُعْلِمه "ريكاريدو" بأمرها، واكتفى بالترحيب به وبزوجته لنقلهما إلى حيث يستطيعان تلمُّس أخبارها في لندن. أنزلهما معه في سفينة القيادة، وحشد البارجة البرتغالية بالبحارة ومعظم الجنود.

في تلك الليلة نشروا القلوع وأسرعوا للابتعاد عن السواحل الإسبانية التي اتجهت إليها في الوقت نفسه سفينة الأسرى المحررين، وعلى متنها أيضاً حوالي عشرون تركياً كان "ريكاريدو" قد أعتقهم كذلك حتى ينفي عن نفسه شبه الانحياز للكاثوليكيين، وأوصى الإسبان قبل إبحارهم بضرورة إطلاق سراح هؤلاء الأتراك في أول فرصة تلوح لهم.

لم تلبث الرياح التي نشطت في البداية أن تراخت وهدأت مما أثار الرعب في نفوس الإنجليز الذين أخذوا ينحون باللائمة على كرم "ريكاريدو" وسخائه قائلين له إن الأسرى المحرَّرين يمكن أن ينشروا الخبر على الأرض الإسبانية فيصل إلى أسماع قطع الأسطول الرَّاسية في الموانئ القريبة فتقوم بملاحقتهم والقضاء عليهم. كان "ريكاريدو" يعلم جيداً أنهم على حق ، لكنه حاول تهدئتهم بما يملك من قوة بيان وحجج دامغة ، وبعد وقت قصير عادت الرياح أشد قوة لتملأ القلوع وتدفع السفينتين إلى الأمام، وما هي إلا أيام تسعة حتى تراءت لهم لندن على مرمى البصر.

لم يعمد "ريكاريدو" إلى دخول الميناء وسط مظاهر الفرح والابتهاج نظراً لموت القائد العام، ولذا فقد أمر العازفين بمزج إشارات البهجة بأخرى حزينة: وهكذا فمن بين عزف النوافير للنغمات السَّارة كانت تخرج الأبواق بأصوات أجشة حزينة، وعلى الدَّقات السعيدة للطبول والفرقعات المبتهجة للصواريخ النارية كانت ترد النايات

بصوتها الشجى الحزين . أما وضْع الأعلام فقد كان يرسل هو الآخر بالإشارة المبهمة ذاتها:فبينما يتدلى من على أحد الصوارى علم مقلوب تزينه الأهلّة (العلم التركى) كـان يرفرف على صار آخر علم من الحرير الأسود تلامس أطرافه صفحة الماء . ووسط هذه الإشارات المتباينة دخل " ريكاريدو" نهر لندن بسفينته، بينما ظلت البارجة الكبيرة منتظرة فى عرض البحر لعدم اتساع النهر لها .

أثارت الإشارات المتضاربة البلبلة فى صفوف الجماهير الغفيرة التى تجمعت على الشاطئ . لقد تعرفت – من بعض العلامات – على سفينة بارون " لنساك" للقيادة، لكنها لم تستوعب كيف تحولت السفينة الأخرى الصغيرة إلى تلك البارجة العملاقة الواقفة فى عرض البحر. تلاشت الحيرة بعض الشىء عندما هبط "ريكاريدو" من سفينة القيادة ونزل إلى رصيف الميناء وهو فى كامل عدّته الحربية ثم اتجه – دون مرافق – والجماهير فى إثره نحو القصر حيث تجلس الملكة منتظرة أخبار سفينتيها .

كـانت "إيسابيلا" تجلس مع الملكة والسيدات الأخريات وهى ترتدى الملابس الإنجليزية التى لم تغير كثيراً من طبيعتها الإسبانية . قبل وصول "ريكاريدو" كان قد سبقه إلى الملكة – عن طريق أحد أعوانها – خبر الهيئة القادم عليها . اضطربت "إيسابيلا" وتململت فى مكانها عند سماعها لاسم حبيبها، وحدثها قلبها فى تلك اللحظة بانطواء قدومه على أحداث سعيدة ومحزنة فى آن واحد .

كان "ريكاريدو" فارغ الطول، ممشوق القوام، متناسق الأعضاء. وبما أنه كان يرتدى درعاً إيطالية تغطى صدره وظهره، وطوقًا حول رقبته، وأساور عريضة حول ذراعيه– وكلها مذهبة ومنقوشة– فقد بدا عظيم الهيئة لكل من رآه. لم يكن يحمى رأسه بمِغْفر بل بقبعة عريضة الحواف يعلوها ريش متعدد الألوان، وحول خاصرته يلتف حزام بحمالات رائعة يتدلى من إحداها سيف عريض، وفى قدميه حذاء سويسرى طويل. ولهذه الفخامة الحربية ، ولخطواته الواثقة الرشيقة فقد شبهه البعض بإله الحرب "مارْس" بينما شبهه البعض الآخر– لجمال وجهه–بـ" فينوس" متخفية فى هذا القناع الحربى لتسخر من "مارْس" . المهم أنه وصل أخيراً – على هذه الصورة – إلى حيث تجلس الملكة فانحنى أمامها وخاطبها قائلاً:

– صاحبة الجلالة ، فى أثناء المهمة التى كلفتمونا بها مات بارون " لنساك" بسكتة دماغية، ولما أخَذْت مكانه – تنفيذاً لأمركم الكريم – أتحفنى الحظ

بسفينتين تركيتين كانتا تقطران خلفهما تلك البارجة الضخمة الراسية هناك. حملْنا عليها، وحارب جنودك البواسل بضراوة كعهدهم دائماً، واستطعنا إغراق سفينتى القراصنة. وفى سفينة من سفينتينا- وباسم مليكتنا- وهبت الحرية للمسيحيين الذين تخلصوا من أسر الأتراك. لما أحضر منهم سوى رجل إسبانى وامرأته، جاءا بمحض إرادتهما وبعد كثير من الإلحاح والرجاء للتشرف برؤية فخامتكم. أما البارجة البرتغالية فكانت قادمة من العالم الجديد، لكن عاصفة هوجاء جعلتها لقمة سائغة للأتراك الذين استولوا عليها دون عناء، وعلى متن البارجة توجد كميات كبيرة من اللؤلؤ والماس والأفاويه والبضائع النادرة تزيد قيمتها - طبقًا لما ذكره بعض البرتغاليين - عن المليون إسكودو. لم تمتد يد إلى تلك الثروة- ولا حتى أيدى الأتراك- وكأن عناية السماء قد ادخرتها لجلالتكم وساقتنى للحفاظ عليها حتى تصل إليكم كاملة غير منقوصة. أضعها الآن بين أيديكم من أجل الظفر بجوهرة واحدة وعدتمونى بها قبل رحيلى: إنها حبيبة القلب "إيسابيلا"، فهى وحدها جائزتى التى سأغتنى بها، وأنا لا أطلبها مقابل هذا العمل بل نظير خدمات أخرى قادمة أجد نفسى ملزماً بتقديمها لجلالتكم للوفاء ولو بجزء ضئيل من قيمة هذه الدرّة الغالية.

- انهض يا "ريكاريدو" - أمرته الملكة- واعلم أننى لو فكرت فى إعطائك "إيسابيلا" بمقابل فلن تكفينى فيها هذه البارجة ولا كل ما فى العالم من كنوز. أنا أعطيها لك وفاءً لوعدى، ولأنك أيضاً جدير بها كما هى جديرة بك. وإذا كنت قد احتفظت بكنوز البارجة لتقدمها لى، فأنا احتفظت بجوهرتك لأقدمها لك.ربما تظن أننى بهذا لا فضل لى عليك، وهذا غير صحيح لأننى أسلمك شيئاً أنت على استعداد لبذل الروح من أجل الحصول عليه ، والروح - كما نعرف - لا يعدلها ذهب الأرض جميعًا. ها هى " إيسابيلا" ، إنها لك. قدّم لها التحية وحدثها بما شئت، ثم اذهب إلى بيتك لتنال قسطاً من الراحة لأنى أريدك هنا غداً لتقصّ علىّ بالتفصيل بطولاتك ومآثرك، ولا تنس إحضار من قدما معك لرؤيتى كى أوجه لهما ما يستحقانه من الشكر .

قبّل "ريكاريدو" يدها شكراً على أفضالها الكثيرة. انصرفت الملكة ودخلت إحدى صالات القصر وتركت "ريكاريدو" محاطاً بالسيدات . خاطبته إحداهن وتدعى "تانسى" المشهورة بالكياسة والظرف من بينهن جميعًا ، والتى تربطها بإيسابيلا صداقة حميمة :

– ما هذا، يا سيد "ريكاريدو" ؟ لمَ كل هذه الأسلحة ؟ أتظن أنك قادم هنا لنزال الأعداء ؟ أنت تعرف أن الموجودات هنا صديقاتك، ولا أدرى إذا كانت الآنسة "إيسابيلا" بصفتها إسبانية، مرغمة على ألا تكنّ لك مشاعر طيبة .

– بما أننى فى ذاكرتها، يا سيدة "تانسى" فأنا على يقين من طيب مشاعرها نحوى، ومن جهة أخرى لا يعقل أن يخالط الجمال النادر والقلب الطاهر المحب قبح النكران والجحود.

تدخلت "إيسابيلا" عندئذ وقالت:

– لأننى سأكون لك، يا سيد "ريكاريدو" ، فلن ترى منى إلا كل ما يرضيك ويثلج صدرك ، وهذا فى مقابل ثنائك علىّ ولما ستقدمه لى مستقبلاً من رعاية واهتمام.

استمر تبادل مثل هذه الأحاديث الودية بين "ريكاريدو" و "إيسابيلا" والسيدات الموجودات بالمكان. كانت هناك فتاة صغيرة لم يكن يشغلها سوى النظر إلى البزّة العسكرية لريكاريدو ولما يحمله من سلاح . كانت تتأمل–مفتونة–بريق السيف والدروع وكأنها تنظر فى مرآة ، وعندما ذهب "ريكاريدو" التفتت إلى النسوة وقالت لهن :

– لابد أن الحرب شىء جميل، فالرجال المسلحون يتألقون دائمًا بين النساء ويظهرون فى أبهى صورة.

– ويالها من صورة ! – أضافت السيدة "تانسى" – يكفى النظر إلى "ريكاريدو" الذى يبدو مثل شمس هبطت إلى الأرض وتتجول فى الشارع بهذا الزى العسكرى.

ضحكت السيدات من تعليق الفتاة ومن التشبيه العجيب الذى ساقته السيدة "تانسى" ، ولم يخل المقام من الحاسدات اللاتى انتقدن مجىء "ريكاريدو" بكامل

عُدّته الحربية إلى القصر الملكى، لكن الأخريات استمحن له العذر لأن من حقه كعسكرى التباهى بما يوحى ببسالته وقوة شكيمته.

ذهب "ريكاريدو" لرؤية والديه وأهله وأصدقائه الذين استقبلوه بسعادة غامرة ومشاعر فياضة. وفى تلك الليلة احتفلت لندن احتفالاً كبيراً بالحدث العظيم . كان "ريكاريدو" قد أمر بإنزال والدى "إيسابيلا" ضيفين على بيت أبيه (كلوتالدو) بعد أن قصّ عليه خبرهما، وطلب منه ومن والدته- السيدة "كاتالينا" - وجميع من بالدار من خدم وحشم عدم البوح لهما بسر ابنتهما لأنه سيتولى هذا الأمر بنفسه. كما بدأت فى تلك الليلة اللنشات والزوارق والسفن الصغيرة فى تفريغ باطن البارجة البرتغالية مما يحويه من كنوز وفلفل وبضائع أخرى، واستمر عملها تحت سمع وبصر الكثيرين من محبى الاستطلاع أيام بطولها.

فى الليلة التالية اصطحب "ريكاريدو" والدىَ "إيسابيلا" إلى القصر بعد أن ألبسهما على الطريقة الإنجليزية وأخبرهما برغبة الملكة فى رؤيتهما . وصلوا جميعاً إلى حيث تنتظرهم الملكة بين وصيفاتها، وإلى جوارِهن كانت تقف "إيسابيلا" فى أبهى صورة. عقدت مظاهر العظمة والأبهة لسانىْ الضيفين وأثارت إعجابهما الشديد.. دققا النظر فى "إيسابيلا" ولم يتعرفا عليها وإن كان قلباهما قد شرعا فى الخفقان بسعادة لم يستطيعا تفسيرها. لم تقبل الملكة بركوع "ريكاريدو" أمامها، وأمرته بالنهوض والجلوس على كرسى واطئ مستدير أعدله سلفاً. جعل هذا الشرف النادر المنال أحد الحاضرين يهمس فى أذن آخر قائلاً له:

- "ريكاريدو" لا يجلس اليوم على الكرسى الذى أعدّوه له، بل على كومة الذهب والفلفل التى جلبها.

انضم إلى المتهامسين ثالث وقال:

- الآن يتحقق المثل القائل: كثرة الهبات تلين الحجر الصلد ، ألا ترون أن ما أحضره "ريكاريدو" قد ألان قلب مليكتنا الصخرى !

وسرعان ما انضم إلى الجوقة رابع ليضيف قائلاً:

- بعد هذا التشريف لا يوجد الآن من يستطيع التعرض له.

حقًا، لقد أثار هذا التشريف الذى أنعمت به الملكة على "ريكاريدو" الحسد فى نفوس الحاضرين، فمن المعروف أن الفضل الذى يجود به الأمير على أحد خلصائه ما هو إلا نصل يخترق قلوب الحسّاد. طلبت الملكة سماع تفاصيل المعركة التى دارت مع سفينتى القراصنة، فقص عليها "ريكاريدو" ماجرى ونسب النصر إلى إرادة الله ثم إلى شجاعة جنودها وتحدث عن بسالتهم وإقدامهم مما جعل الملكة تثنى عليهم جميعًا ، وعندما وصل فى حديثه إلى عفوه- باسم الملكة - عن المسيحيين والأتراك وإطلاقه سراحهم قال:

- وهذا الرجل وتلك المرأة - وأشار إلى والدىّ "إيسابيلا" - هما اللذان أخبرت جلالتكم أمس بشوقهما لرؤيتكم وإلحاحهما فى القدوم معى إلى لندن من أجل هذا الغرض.إنهما من "قادس" - كما علمت منهما - ومن أفاضل الناس بتلك المدينة وأعلاهم قدراً.

أمرت الملكة باقترابهما..صوّبت "إيسابيلا" عينيها إليهما، يحدوها الأمل فى معرفة شىء عن والديها من هذين الضيفين اللذين ينتميان لمدينتها. التقت عيناها بعينىّ والدتها التى أبطأت خطواتها لتدقق النظر فيها. وفى تلك اللحظة انبثقت فى ذاكرة "إيسابيلا" بعض الومضات الغامضة التى ذكرتها برؤية هذه المرأة من قبل، لكنها لم تفلح فى توثيق إحساسها. تملكت والدها الحيرة نفسها، ولم يجرؤ على إثبات حقيقة ما تراه عيناه. كان "ريكاريدو" يرقب عن كثب ردود أفعال الأرواح الثلاثة الحائرة التى يتنازعها الشك بين تصديق ونفى هواجسها. لاحظت الملكة ارتباكهما، كما فطنت لاضطراب "إيسابيلا" من حبات العرق المتساقطة على وجهها ومن رفْع يدها عدة مرات لتسوية شعرها بحركات خرقاء.

تمنت "إيسابيلا" لو تكلمت تلك المرأة التى تظنها والدتها، لعل الأذن تُخرجها من الحيرة التى أوقعتها فيها عيناها. طلبت الملكة من "إيسابيلا" سؤال الرجل والمرأة بالإسبانية عن السبب الذى دفعهما لرفض الحرية التى وهبها لهما "ريكاريدو" رغم أنها غاية ما يتوق إليه الإنسان والحيوان على السواء.

وَجّهت "إيسابيلا" سؤال الملكة السابق إلى والدتها، لكنها لم تجب بكلمة، ودون خوف أو مراعاة لبروتوكول اتجهت - متخبطة تكاد تتعثر - إلى "إيسابيلا" ثم مدت

يدها إلى أذنها اليمنى وكشفت عن شامة سوداء خلفها. بددت هذه العلامة شكوكها، ولما كانت قد تحققت جيداً من "إيسابيلا" فقد سارعت إلى احتضانها وهى تقول بصوت عالٍ:

– آه، يابنتى، يا حبة قلبى !يا مهجتى الغالية !

قالت ذلك ثم سقطت مغشياً عليها بين ذراعى "إيسابيلا" .

أما أبوها فعبر عن إحساسه بالدموع التى انهمرت لتبلل وجهه الوقور ولحيته. أسندت "إيسابيلا" رأسها إلى رأس والدتها ثم التفتت إلى أبيها بنظرة فهم منها سرورها وعذابها لرؤيتهما فى ذلك المكان. قالت الملكة – التى كانت تتابع فى دهشة وإعجاب ما يجرى أمامها – لريكاريدو:

– لابد أن تفكيرك هو الذى هداك لترتيب هذا المشهد ، ولا أعتقد أنه كان صائباً؛ فالسعادة المفرطة المفاجئة يمكن أن تودى بحياة الإنسان مثلما تفعل الأحزان الشديدة.

قالت هذا ثم التفتت إلى "إيسابيلا" وأومأت لها بالابتعاد عن أمها التى كانت قد ثابت إلى بعض رشدها عندما صبوا الماء على وجهها.

بعد إفاقتها ركعت أمام الملكة وخاطبتها قائلة:

– معذرة، جلالة الملكة، لأن الفرحة طمست على حواسى كلها وجعلتنى لا أشعر بنفسى.

قَبلت الملكة عذرها. وبعد قيام "إيسابيلا" بقص حكايتها باختصار أمرت الملكة ببقاء أبويها في القصر ليتمكنا من الجلوس إلى ابنتهما واستكمال الفرحة بالحديث إليها على مهل . سر "ريكاردو" بما جرى وتوسل إلى الملكة من جديد بالوفاء بوعدها وتزويجه إيسابيلا إذا كانت تراه جديراً بها، أما إذا كانت ترى أن ما فعله حتى الآن لا يؤهله لذلك فإنه على استعداد للقيام بأية مهام أخرى تكلفه بها من أجل تحقيق ما يصبو إليه. تأكدت الملكة حينئذ من ثقة "ريكاريدو" بنفسه ولم تعد فى حاجة لاختبار ولائه ثانية، ومن ثمّ فقد وعدته بتسليم "إيسابيلا" له وزفّه إليها بعد أربعة أيام وذلك لإقامة احتفال كبير للزفاف يشرفها ويليق برعايتها.

ودعهم "ريكاريدو" قرير العين، مطمئناً لانتقال حبيبته لعش الزوجية دون خوف من ضياعها؛ وهذا منتهى أمل العشاق.

كان الوقت يمر ثقيلاً على "ريكاريدو" ؛ ذلك لأن الذين يعيشون على أمل تحقيق أمنية عزيزة يتخيلون دائمًا أن الزمن لا يمضى بسرعته المعهودة بل يتحرك على أرجل الكسل ذاته. فى تلك الفترة القصيرة التى ظن فيها "ريكاريدو" أن سفينة حظه تسوقها الرياح المواتية نحو المرفأ الآمن،كان الحظ العاثر يدبر له فى الخفاء عاصفة هوجاء كفيلة بإرسال سفينة طموحاته إلى الأعماق آلاف المرات .

لقد كان لكبيرة الوصيفات- المكلفة بالإشراف على إيسابيلا والعناية بها - ابن فى الثانية والعشرين من العمر يدعى الكونت "أرنستو" . كان هذا الكونت- الذى يستمد عظمة مكانته من نبالة الدم ومن خدمات أمه للملكة- متعجرفاً وشديد الزهو والاعتداد بالنفس. وقع هذا الكونت- أثناء غياب "ريكاريدو" - فى غرام "إيسابيلا" وأحبها حباً جمّا ملك عليه مشاعره، لكن هذا الحب كان من طرف واحد فقط لأن "إيسابيلا" لم تعره اهتماماً وقضت في المهد على محاولاته للتقرب منها.. من المعروف أن سير الحب تنتهى عادة عندما يبدى أحد الطرفين ازدراءه للآخر ونفوره منه، لكن ازدراء إيسابيلا ونفورها هنا أججا نيران الغيرة فى صدر "أرنستو" وجعلاه يزداد إصراراً على التمسك بها. وبما أنه وجد غريمه "ريكاريدو" على وشك الظفر بمحبوبته تحت سمع الملكة وبمباركتها التامة فقد عقد العزم على الانتحار . لكنه قبل أن يقدم على هذه الفعلة النكراء والجبانة كشف لأمه عن مكنون صدره وتوسل إليها كى تطلب يد "إيسابيلا" من الملكة. أنصتت الوصيفة باهتمام بالغ لحديث ابنها، ولما كانت تدرك مدى شططه وشدة تهالكه وعناده فقد تملكها الخوف من انتهاء الأمر بحادث كريه. وعدته- مثل كل أم حريصة على إرضاء أولادها- باللجوء إلى حيلة تجعل الملكة ترجئ تنفيذ وعدها لريكاريدو حتى تتمكن بعد ذلك من إزاحته من طريقه.

فى اليوم الرابع والأخير من المهلة المضروبة ارتدت "إيسابيلا" ثياباً موشّاة فاخرة لا يجرؤ القلم على وصفها، وتكفى الإشارة إلى أن الملكة أهدتها- من الكنوز التى كانت تحملها البارجة البرتغالية - عقداً من اللؤلؤ الثمين يقدر بعشرين ألف "دوكادوس" بالإضافة إلى خاتم من الماس لا يقل عن ستة آلاف أخرى. وبينما كانت

الوصيفات منهمكات فى الإعداد للعرس المرتقب دخلت كبيرتهن على الملكة وركعت أمامها ثم توسلت إليها- بحق السنوات الطويلة التى قضتها فى خدمتها- كى تؤجل الزفاف يومين فقط .

دهشت الملكة لغرابة الطلب وسألتها عن سرّ تهافتها عليه برغم تناقضه الصريح مع الكلمة التى أعطتها لريكاريدو ، لكن كبيرة الوصيفات استأذنتها فى عدم الإفصاح عنه إلا بعد الحصول على موافقتها . وهكذا، وبعد نيلها لما أرادت أخبرتها أن ابنها غارق حتى أذنيه فى حب "إيسابيلا" وأنها خائفة من إلحاقه الأذى بنفسه أو إقدامه على عمل أرعن عندما يراها تزفُّ إلى غيره، ولذلك طلبت المهلة حتى يتسنى لها – بمساعدة الملكة – الاهتداء إلى حلّ يثنيه عما اعتزمه أو يفكر فيه.

أخبرتها الملكة أنه كان بإمكانها إيجاد مخرج لهذه المتاهة المستغلقة لو لم تكن أعطت كلمتها، ومن هنا فإنها لا تستطيع العدول عما وعدت به وتحطيم آمال "ريكاريدو" مهما تكن الأسباب ومهما عظم المقابل.. حملت كبيرة الوصيفات ردّ الملكة إلى ابنها الذى غلت دماء الحب والغيرة فى عروقه فور سماعه، وقام دون رويّة بحمل ما استطاع من سلاح ثم امتطى صهوة جواد قوى وذهب فوقه إلى بيت "كلوتالدو" وأخذ ينادى بأعلى صوته على "ريكاريدو" الذى كان يرتدى فى تلك اللحظة ملابس الزفاف وعلى وشك الخروج إلى القصر الملكى فى معيّة الرّكب المعدّ للمناسبة السعيدة، لكنه عندما سمع تلك الأصوات وتعرّف على صاحبها أطلّ بفزع من إحدى نوافذ البيت. عندما رآه أرنستو صاح فيه قائلاً:

– ريكاريدو، أنصت جيداً لما ستسمعه منى: كلّفتك جلالة الملك بالخروج فى مهمة حربية لتبرهن من خلالها على استحقاقك لإيسابيلا التى لا نظير لها. رحت ورجعت بسفن محملة بالذهب، وظننت أنك بهذا قد قدمت مهر "إيسابيلا" وأصبحت جديراً بها. وإذا كانت جلالة الملكة قد وعدتك بها اعتقاداً منها أنه لا يوجد فى بلاطها أحد يخدمها أفضل منك أو من هو أحق منك بزواجها فإنها مخدوعة – ولا ريب – فيما ذهبت إليه. ولأننى أعتقد اعتقاداً جازماً أننى على صواب أبادر بالإعلان على الملأ أنك لم تفعل شيئاً تستحق به "إيسابيلا" ولن تفعل مستقبلاً ما يجعلك جديراً بها، وإن تطرق إليك شك فيما أسمعتك إيّاه فإننى أتحداك فى نزالٍ حتى الموت.

انعقد لسان "كلوتالدو" ولم يقوَ على الكلام، لكن لسان ابنه انبرى بهذا الرد البليغ الواثق:

- لا أخالفك الرأى، يا سيادة الكونت، وأعترف لك بأننى لست جديراً بإيسابيلا وحسب، بل إننى لا أبالغ إن قلت إنه لا يوجد فى العالم أجمع رجل يستحقها، ورغم أن اتفاقى معك فيما ذهبت إليه يعفينى من قبول التحدى إلا إننى سألبيه فقط لتجاسرك وتطاولك علىّ.

قال هذا ثم ابتعد عنِ النافذة ونادى على غلمانه آمراً إياهم بإحضار سلاحه وعدته الحربية. ساد هرج ومرج بين أهله وبين الذين كانوا متجمعين هناك انتظاراً لمرافقته إلى القصر. فى تلك الأثناء انطلق واحد ممن شاهدوا "أرنستو" وسمعوا كلامه إلى القصر ليخبر الملكة بما حدث ، فما كان منها إلا أن أمرت قائد حرسها الخاص بسرعة القبض على "أرنستو". ذهب القائد ومعه جنوده إلى بيت" كلوتالدو" فوصلوه عندما كان "ريكاريدو" يتهيأ للخروج منه معتلياًجواده.

عندما شاهد الكونت قائد الحرس وأدرك أنه مقبوض عليه لا محالة اتجه إلى "ريكاريدو" قائلاً بصوت عالٍ :

- ها أنت ترى ما يحول بينى وبينك. لو لديك رغبة فى الانتقام منى ستفتش على كما سأبحث عنك، ومن اليسير التقاء اثنين يجدّ كل منهما فى البحث عن الآخر. لندع إذن تصفية الحساب للقاء المنتظر.

- بكل سرور- أجابه "ريكاريدو" .

وصل قائد الحرس عندئذ وقال للكونت أنت مقبوض عليك بأمر صاحبة الجلالة. أذعن للأمر مشترطاً ذهابه إلى الملكة لا إلى مكان آخر . قال له القائد : لك هذا، ثم التفّ حوله الجنود واصطحبوه إلى الملكة التى كانت على علم بأمر وقوعه فى حب "إيسابيلا". توسلت كبيرة الوصيفات لكى تعفو الملكة عن ابنها الكونت لأن الجرم الشنيع الذى ارتكبه يرجع لحداثة سنّه وشدة تعلقه بإيسابيلا.

عندما وصل إلى القصر أمرت الملكة- دون الدخول فى نقاش معه- بتجريده من سلاحه وحبسه فى أحد الأبراج.

حزنت "إيسابيلا" حزناً شديداً واغتم والداها لاضطراب الأحوال بسرعة لم تكن في الحسبان.. أما كبيرة الوصيفات فقد نصحت الملكة بإزالة سبب الخلاف حتى لا تتفاقم الأمور بين أهل ابنها و"ريكاريدو" ، وذلك بإرسال "إيسابيلا" إلى وطنها (إسبانيا)، ومن بين الأسباب التي أضافتها لتعضيد وجهة نظرها اتهام الفتاة بأنها على دين أبويها: أي أنها مسيحية كاثوليكية .. ردت عليها الملكة قائلة إن وفاءها للعقيدة التي تعلمتها من ذويها يعلي من قدرها، أما بالنسبة لترحيلها إلى وطنها فغير وارد على الإطلاق ولا يمكن التفكير فيه لأنها شديدة الإعجاب بحضورها السّار ومواهبها الرائعة وأخلاقها الحميدة، وعلاوة على هذا فإنها ستزف- إن لم يكن اليوم فغداً - إلى "ريكاريدو" حسب ما وعدت.

لم تعقب كبيرة الوصيفات بكلمة على رد الملكة القاطع، لكنها أضمرت إزاحة "إيسابيلا" من على مسرح الأحداث لتنْهي بذلك سبب الخلاف بين ابنها و"ريكاريدو" ، وقررت ارتكاب جريمة نكْراء لا تليق بامرأة في مثل مكانتها العالية، ويتمثل القرار في قتل "إيسابيلا" بالسم. ولأن النساء لا يتورعن عن تنفيذ ما يدور برءوسهن حتى ولو كان بغيضًا، فقد بادرت مساء ذلك اليوم بدسّ السمْ في الطعام الذي قدمته لإيسابيلا وأجبرتها علي تناوله بحجة فائدته في علاج ما تحس به من غثيان.. بعد تناوله بوقت قصير تورم لسان "إيسابيلا" وحلقومها واسودت شفتاها وتحشرج صوتها وزاغت عيناها وانقبض صدرها وضاق: إنها أعراض السم اللعين كما يعرفها الجميع . هرعت الوصيفات فزعات إلى الملكة يخبرنها بما جرى، وشهدن أمامها بتورط كبيرتهن في تلك الفعلة المرعبة . لم تكذب الملكة الخبر وسارعت بالذهاب إلى "إيسابيلا" التي كانت تعاني سكرات الموت .

أمرت الملكة باستدعاء أطبائها على وجه السرعة، وقامت في الوقت نفسه بإعطائها مسحوق وحيد القرن علاوة على أنواع متعددة من الترياقات التي يحتفظ بها الأمراء عادة تحسبًا لحالات الطوارئ المماثلة . حضر الأطباء وحاولوا بشتى الوسائل علاجها، ولما استعصت عليهم الحالة طلبوا من الملكة سؤال كبيرة الوصيفات عن نوعية السم الذي قدمته لها . عندما عرفوا نوعيته قدموا لها العلاج الناجع ، وهكذا ظلت "إيسابيلا" على قيد الحياة - أو متشبثة، على الأقل ، بأمل البقاء عليها - بفضل الله وعونه ولما بذله الأطباء من جهد - أمرت الملكة بالقبض على كبيرة

الوصيفات وإيداعها إحدى زنازين القصر الضيقة تمهيداً لمحاكمتها على جرمها الشنيع . كانت كبيرة الوصيفات تهذى قائلة إنها أرادت بقتل "إيسابيلا" التقرب إلى الله بإزاحة كاثوليكية من على وجه الأرض وحِفْظ مستقبل ابنها وصيانته من الضياع .

كادت هذه الأحداث المؤسفة أن تودى بعقل "ريكاريدو" وتدفعه إلى الجنون . لم تفقد "إيسابيلا" الحياة فى النهاية، لكنها أصبحت بلا أهداب ولا حاجبين ولا ضفائر، واختفى بريق بشرتها وترهّل جلدها وأُترعت مقلتاها بالدموع . لقد تحولت - باختصار - من صورة رائعة للجمال الصارخ إلى مسْخ للدمامة والقبح . ومما يُرثى له أن من يعرفونها كانوا يفضلون موتها بالسم على بقائها فى تلك الصورة الشائهة . استأذن "ريكاريدو" الملكة فى حمْل "إيسابيلا" لبيته لأن حبه لها يتجاوز الجسد الفانى إلى الروح الخالدة، ولأن جمالها الذاهب لا يعنى ضياع مواهبها الرائعة وخِصالها الحميدة التى لا تحصى .

- لك ما تريد -أجابته الملكة - ولتكن واثقًا من أنك تحمل جوهرة ثمينة فى صندوق من الخشب المتواضع . يعلم الله أننى كنت أود تسليمها لك كما أحضرتها من قبل، ولأن هذا أصبح مستحيلاً الآن أرجو منك المعذرة، ربما يشفى العقاب الذى سأنزله بمقترفة الجرم بعض غليلك ويعوض ولو جزءاً من رغبة الانتقام لديك .

أبان "ريكاريدو" عن أصالة معدنه عندما ناشد الملكة العفو عن كبيرة الوصيفات وتمادى فى توسله . قبل مغادرة "إيسابيلا" للقصر مع والديها إلى بيت "ريكاريدو" أهدتها الملكة - بالإضافة إلى اللآلئ والماس الذى قدمته لها بمناسبة الزفاف الذى لم يتم - حلياً جديدة وملابس غالية الثمن، تعبيراً عن شدة شغفها بها وحبها الجمّ . ظلت "إيسابيلا" شهرين فى بيت "ريكاريدو" دون أن يطرأ على حالتها أى تحسّن لكن جلدها أخذ يتساقط بعد هذه الفترة لتبزغ تحته بشرتها الجميلة .

عندما لم يلمس والدا "ريكاريدو" تحسناً ملموساً على صحتها خلال الشهرين المذكورين قررا استدعاء الفتاة الإسكتلندية التى كانت مخطوبة لابنهما قبل تعلّقه بإيسابيلا، ومن ثمّ فقد أرسلا فى طلبها- دون استشارة "ريكاريدو" - لاقتناعهما بأن جمال الزوجة الجديدة سينسيه الجمال الضائع لحبيبته .كما قررا فى الوقت نفسه

ترحيل "إيسابيلا" ووالديها إلى وطنهم بعد تعويضهم عن ثروتهم الضائعة. لم يكد يمر شهر ونصف على الاستدعاء حتى مثلت الفتاة الإسكتلندية- دون علم "ريكاريدو" - يصحبها جمالها الفتّان الذى لم يكن يفوقه فى سائر لندن غير الجمال الضائع للتعيسة "إيسابيلا". تملك "ريكاريدو" الفزع عندما شاهد الإسكتلندية تقتحم باب البيت على حين غرّة منه، وخشى أن يودى حضورها المفاجئ بحياة "إيسابيلا". ولكى يخفف من وقع المفاجأة عليها ذهب إلى حيث ترقد وتحدث بما يلى أمامها وأمام والديها اللذين كانا إلى جوارها:

- "إيسابيلا"، يا قرة العين، قام والداى - مدفوعين بحبهما لى، وغير مقدرين لمدى ما أكنّه لك من مشاعر- بإحضار فتاة إسكتلندية كانا قد خطباها لى قبل وقوعى فى هواك متصورين بذلك أن الجمال الطاغى لتلك الفتاة باستطاعته محو صورتك الجميلة المطبوعة فى فؤادى. لكن تعلقى بك من الوهلة الأولى لم تكن غايته الوحيدة تلبية غريزة الجسد؛ فجمالك الحسى وإن كان قد ملك علىّ حواسي إلا إن فضائلك التى لا تعد قد ملكت قبله روحى، ولهذا السبب فإذا كنت قَبْلاً متيّما بجمالك فإننى الآن متبتّل فى محراب صورتك الحالية، ولتأكيد هذه الحقيقة أرجوك أن تبسطى إلىّ يدك.

مدت له يدها اليمنى فقبض عليها وتابع حديثه قائلاً:

- بحق الكاثوليكية التى تشربت تعاليمها - على يد والدىَّ - منذ الصغر وبدين بها قلبى، أشهد الرب الحقيقى المطّلع علينا الآن بأن أكون لك زوجاً، يا توءم روحى، من هذه اللحظة لو تكرمت على بهذه المنزلة الرفيعة.

تسمّرت "إيسابيلا" فى مكانها واعترى والديها الذهول مما سمعا، لم تجد "إيسابيلا" شيئًا تنطق به ولم تفعل سوى تقبيل يد "ريكاريدو" مرات عديدة لكنها تحاملت على نفسها فى النهاية وأخبرته بكلمات ممزوجة بالدموع أنها تقبله زوجاً وسيداً إلى الأبد. قبّل "ريكاريدو" عندئذ وجهها القبيح الذى لم يكن يجرؤ على الاقتراب منه حال جماله.

توّجت الدموع الغزيرة والحنونة لوالدى "إيسابيلا" مراسم الزواج بهالة من المهابة والشجن. أخبرهم "ريكاريدو" أنه اهتدى لتدبير سيعينه على التملص من الزواج

بالإسكتلندية الموجودة بالبيت، وطلب منهم الإذعان لاقتراح والده بإرسالهم إلى إسبانيا لأنه سيعمل جاهداً على اللحاق بهم هناك- إما فى إشبيلية أو قادس- خلال سنتين من الآن، وإذا انقضت هذه المدة ولم يروه بينهم فليتأكدوا عندئذ من موته لأن الموت وحده هو القادر على الحيلولة بينه وبين تحقيق حلمه.

ردت عليه "إيسابيلا" بقولها إنها لن تنتظره سنتين فقط بل سنوات عمرها القادمة إلى أن يتوفاها الله ، ألهبت هذه الكلمات مشاعر الجميع وأخذت دموعهم فى الانهمار من جديد . خرج " ريكاريدو" من عندهم ليبلغ والديه وأهله وأقارب الإسكتلندية "كليسترنا" الذين أتوا معها أنه لن يتزوج ولن يعطى يده لزوجته قبل تأديته فريضة الحج إلى روما لتطهير روحه وتنقية عقيدته وتأصيلها فى نفسه. ولما كان الجميع يدين بالكاثوليكية فلم يعترض أحد منهم على رغبته ولم يتشكك فيها. أما "كليسترنا" فقد ابتهجت ببقائها فى دار حماها لحين عودة "ريكاريدو" التى حدّد لها سنة .

أفصح "كلوتالدو" بعد ذلك لابنه عن نيته فى استئذان الملكة لإرسال "إيسابيلا" ووالديها إلى إسبانيا: ربما يعجل هواء الوطن وأجواؤه – قال له- باكتمال شفائها واستردادها لصحتها. لم يمانع "ريكاريدو" وقال له بفتور- حتى لا يفتضح أمره – افعل ما تراه صواباً، لكنه توسل إليه بألا يأخذ شيئاً من الهدايا أو المجوهرات التى قدمتها صاحبة الجلالة لإيسابيلا. وعده أبوه بذلك، واتجه فى اليوم نفسه إلى قصر الملكة لطلب الإذن بترحيلهم وبعقد قران ابنه على "كليسترنا" ، سرّت الملكة لما سمعته وأثنت على حسن تصرف "كلوتالدو"وأصدرت حكمها غداة ذلك اليوم على كبيرة الوصيفات بالفصل من عملها وبتغريمها عشرة آلاف إسكودو تعويضاً لإيسابيلا، كما قضت على الكونت "أرنستو" بالنفى من انجلترا ست سنوات كاملة ، لم تكد تمر أربعة أيام حتى تهيأ "أرنستو" لمغادرة البلاد وتمكنت والدته من تجميع الغرامة وتسليمها للملكة التى أمرت على الفور بإحضار تاجر فرنسى غنى يقيم فى لندن وله أنشطة تجارية ومعاملات مالية فى كلٍ من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وطلبت منه تسليم عشرة آلاف إسكودو لوالد "إيسابيلا" بمدينة إشبيلية أو بأى ميناء إسبانى آخر.بعد حساب التاجر لعمولته وأتعابه أخبر الملكة أن التسليم سيتم فى إشبيلية عن طريق تاجر فرنسى آخر وأخذ يشرح لها تفاصيل عملية التحويل على النحو التالى: سيطلب من

ذلك التاجر المقيم فى باريس الاتصال بزميل له فى إشبيلية وتكليفه بتسليم قيمة الحوالة للشخص المعنى ، وبهذا الشكل تبدو عملية التحويل وكأنها صادرة من فرنسا وليس من انجلترا (عدوة إسبانيا اللدود وغريمتها الحقود) . خلاصة القول إن الملكة أخذت من التاجر الفرنسى كافة الضمانات لإيصال المبلغ كاملاً غير منقوص إلى الجهة المتفق عليها؛ ولم يقف اهتمامها عند هذا الحد بل قامت باستدعاء صاحب مركب فرنسى كان سيغادر لندن صبيحة اليوم التالى إلى فرنسا لينطلق من أحد موانئها صوب إسبانيا وكلفته بحمل "إيسابيلا" ووالديها على متن سفينته وإيصالهم- معززين مكرمين- إلى أول ميناء إسبانى يصادفه فى طريقه.

طمأن القبطان الملكة وتعهد لها بإيصالهم سالمين إلى لشبونة أو قادس أو إشبيلية. بعد استلام الملكة صكاً بالمبلغ من التاجر الفرنسى أرسلت إلى "كلوتالدو" تأمره بألا يأخذ شيئاً من المجوهرات أو الملابس التى أعطتها لإيسابيلا.

حضرت "إيسابيلا" ووالداها فى اليوم التالى لوداع الملكة التى استقبلتهم بكل ترحاب وودّ، وقدمت لهم الصك الذى أخذته من التاجر علاوة على المزيد من الهدايا والأموال اللازمة للرحلة. شكرتها "إيسابيلا" بكلمات رقيقة عذبة زادت من رصيد محبتها لها، ثم قامت بعد ذلك بوداع الوصيفات فطلبن منها- مدفوعات بتحررهن من نيران الغيرة التى كانت تنهش قلوبهن من جمالها الأخّاذ- البقاء وعدم الرحيل للاستمتاع بحديثها العذب ومواهبها الرائعة وتصرفاتها المهذبة . عانقت الملكة ثلاثتهم وتمنت لهم – ولصاحب السفينة- رحلة طيبة، وطلبت من "إيسابيلا" إخبارها- عن طريق التاجر الفرنسى – بسلامة وصولها، وإطلاعها باستمرار على حالتها الصحية . وفى مساء ذلك اليوم، ووسط مظاهر الحزن والدموع المنهمرة من عيون "كلوتالدو" وزوجته وأهل بيته، ركبت "إيسابيلا" مع والديها السفينة الراسية بميناء لندن.. أما "ريكاريدو" فقد آثر الذهاب للصيد مع ثلة من الأصدقاء تفادياً لمشهد الوداع الذى سيجبره حتماً على الإعراب عن مشاعره الحنونة ، كانت السيدة "كاتالينا" قد قدمت كثيراً من الهدايا لإيسابيلا وغمرتها بالقبل والأحضان وذرفت الدمع مدراراً وأوصتها بالكتابة مراراً وتكراراً ، وعلى كل هذا رد الراحلون بفيض من الشكر و الامتنان. لحسن الحظ أن المرتحلين كانوا مسرورين رغم الدموع.

أقلعت السفينة تلك الليلة تدفعها الرياح الطيبة المواتية ووصلت إلى فرنسا ، ومن هناك حصلت على الوثائق اللازمة لدخولها إسبانيا، وبعد ثلاثين يومًا وصلت إلى ميناء "قادس" حيث غادرتها "إيسابيلا" بصحبة والديها، ولما كان أهل المدينة يعرفونهم جيداً فقد استقبلوهم استقبالاً رائعًا يفيض بهجة وسروراً ، تلقى والدا "إيسابيلا" لتهانى بمناسبة عثورهما على ابنتهما الوحيدة وبمناسبة استرداد ثلاثتهم للحرية السليبة ، سواء على أيدى القراصنة الأتراك (وكانت المدينة على علم بهذا الخبر من الأسرى الإسبان الذين أطلق "ريكاريدو" سراحهم) أو على أيدى الغزاة الإنجليز.

فى تلك الآونة أخذت صحة "إيسابيلا" فى التحسن بشكل ملحوظ، وظهرت عليها بوادر استردادها لجمالها القديم. أمضوا فى "قادس" ما يزيد عن الشهر بقليل للاستراحة من عناء الرحلة الطويلة وتوابعها ثم سافروا إلى إشبيلية ليقفوا على إمكانية صرفهم لعشرة الآلاف إسكودو من التاجر الفرنسى المقيم بها ، بحثوا عنه بعد يومين من وصولهم وأعطوه الصكَ الذى حرّره زميله فى لندن ، تعرّف التاجر على خطّ صديقه وتوقيعه ولم ينكر صلته الوثيقة به، لكنه أخبرهم أنه لا يستطيع صرف المبلغ لهم إلا بعد وصول أمر الدفع الصادر من باريس.

استأجر والد "إيسابيلا" بيتًا كبيراً بالقرب من" سانتا بوْلا" [٤] الذى ترهبنت فيه ابنة أخت له مشهورة بجمال الصوت ، هذا لأن "إيسابيلا" كانت قد أخبرت "ريكاريدو" أن بإمكانه- عند وصوله إلى إشبيلية- معرفة عنوانها من ابنة عمتها الراهبة فى "سانتا بوْلا" ، ولكى تعطيه علامة لا ينساها وتسهل عليه الاهتداء إلى ابنة عمتها فى أقصر وقت ، قالت له: عليك بالسؤال عن الراهبة الأجمل صوتاً فى الدير ولن تعدم هناك من يدلك عليها.. بعد أربعين يوماً وصل أمر الدفع من باريس، وبعد يومين من وصوله سلم التاجر الفرنسى عشرة الآلاف إسكودو لإيسابيلا التى سلمتها بدورها لأبويها، وبهذا المبلغ- بالإضافة إلى ثمن جزء ضئيل من المجوهرات الكثيرة التى تمتلكها "إيسابيلا" - استأنف والدها نشاطه التجارى القديم وسط إعجاب وحفاوة من يعرفون ماضيه المجيد. لم تكد تمر بضعة أشهر حتى استعاد الأب شهرته الضائعة

(٤) يقع دير "سانتا بولا" للراهبات شمال مدينة إشبيلية، وقد كان للمؤلف (ثربانتس)- طبقًا لـ "نورينتو جونالث أو ريولس" - ابنتى عم التحقتا بهذا الدير فى مطلع القرن السابع عشر. (المترجم)

واستردت الابنة جمالها السابق لدرجة أن الناس عندما كانوا يتحدثون عن الجمال فى مدينتهم لا يترددون فى توجيه جلّ إطرائهم للإسبانية / الإنجليزية، لقد أصبحت "إيسابيلا" تعرف فى المدينة إما باللقب السابق أو بصاحبة الجمال الباهر. كان التاجر الفرنسى المقيم فى إشبيلية قد طلب منهم سرعة الكتابة إلى ملكة انجلترا وإحاطتها علماً باستلامهم لقيمة الحوالة، فبادروا إلى ذلك وضمّنوا خطابهم شكرهم العميق للملكة وامتنانهم الجمّ لحسن صنيعها، كما وجهوا أيضاًرسالة لكلوتالدو والسيدة "كاتالينا" خاطبتهما فيها "إيسابيلا" بوالدىّ العزيزين..لم يتلقوا رداً من الملكة، لكنهم – فى المقابل– تلقوا من "كلوتالدو" وزوجته خطاباً يتضمن التهنئة بسلامة الوصول وخبراً يفيد برحيل ابنهما– فى اليوم التالى لمغادرتهم لندن– إلى فرنسا التى سينطلق منها إلى أماكن أخرى [٥]. كما تضمن الخطاب أشياء أخرى تنمّ عن حبهما الشديد وودهما الخالص. ردت "إيسابيلا" ووالداها على هذا الخطاب بآخر لا يقل عنه تهذيباً ومودة، حافلاً بأسمى آيات الشكر والعرفان.

عندما علمت "إيسابيلا" بأمر مغادرة "ريكاريدو" لانجلترا وقَر فى قلبها أنه فعل هذا من أجل القدوم للبحث عنها فى إشبيلية، أمدّها هذا الاعتقاد بسعادة غامرة وانتهجت أسلوب حياة يجعل فضائلها تصل إلى مسامع حبيبها حين قدومه قبل اهتدائه لعنوان بيتها، لم تكن تغادر عتبة الدار، وإذا خرجت فمن أجل الذهاب إلى الدير حيث لا توجد تسلية إلا بالمباح من الأشياء. ومن بيتها إلى كنيسة الدير – سواء فى أيام الجُمع التى تتخلل موسم الصوم الكبير أو خلال الأيام السبعة السابقة لعيد الروح القدس–لم يكن يشغل بالها سوى الأذكار والصلوات الدينية. لم تزر النهر مطلقاً، ولم تذهب إلى "طريانة" (Triana) ، ولم تشاهد الاحتفالات الشعبية المقامة فى فضاء "تابالد" [٦] أو عند بوابة "شريش" (Jerez) أو "سان سبستيان" التى يؤمها خلق

---

(٥) يقصد والدا "ريكاريدو" بـ "الأماكن الأخرى": الدروب والمسالك المؤدية إلى روما (عاصمة الكاثوليكيين الروحية) . وعدم تصريحهما بهدف الرحلة (الحج إلى روما) يرجع – كما يتضح من فحوى القصة – إلى عداء الإنجليز ومقتهم الشديد، بل وتكفيرهم لكل من يعتنق المذهب الكاثوليكى. وسترد هذه العبارة أيضاً فى موضع آخر من القصة. (المترجم)

(٦) يقع فضاء "تاباالدا" TABALDA بالقرب من قناة ألفونسو الثامن، على الضفة الأخرى لنهر الوادى الكبير وإلى جوار الجزيرة التى كانت تحمل هذا الاسم فى الماضى، لكنها اختفت حالياً . (المترجم)

كثير. خلاصة القول أنها لم تشهد احتفالاً أو مهرجاناً شعبياً فى إشبيلية، بل كانت تقضى الوقت فى خلْوتها بين الصلوات والأذكار وأمل انتظار حبيبها القادم . أضرمت هذه العزلة الصارمة النيران فى قلوب الشبّان خالعى العذار الموجودين بالحى الذى تسكنه، كما أيقظت رغبات من رآها ولو مرة، ومن هنا اعتاد شارعها على موجات الشبان التى تطوف به نهاراً وعلى اندلاع الموسيقى فى جميع أركانه ليلاً، ونظراً لاحتجابها عن الجميع ولرغبة الكثيرين فى رؤيتها ظهرت مجموعة من الوسيطات اللاتى ادّعين قرابتها ومقدرتهن على التوسط فى خطب ودّها، ولم يخل الأمر كذلك ممن حاول اللجوء إلى السحر والشعوذة – على ما فيهما من زيف ودجل – كى ينال مراده . وأمام كل هذا كانت "إيسابيلا" مثل صخرة راسخة فى عرض البحر : تلامسها الأمواج والرياح من جميع الجوانب لكن لا تستطيع تحريكها.

بعد مضىّ عام ونصف من مهلة السنتين التى قطعها "ريكاريدو" على نفسه أخذ الضّنى يستبد بقلب "إيسابيلا" وتعتريه التخيّلات ، كانت تتخيل وصول زوجها ووقوفه أمامها فتبادره بالسؤال عن الموانع التى أخّرته كل هذه المدة، وفوْر سماعها منه تغفر له وتعانقه كأنها تضم إلى صدرها نصف روحها الغائب، كانت هذه الأفكار والتخيّلات تدور برأسها عندما تلقّت من السيدة "كاتالينا" خطاباً باللغة الإنجليزية مؤرخاً من خمسين يوماً مضت . تقول كلمات الخطاب بعد ترجمتها إلى الإسبانية : "ابنتى العزيزة ومهجة قلبى.. لا شك أنك تعرفين "جيّارتى" – غلام ريكاريدو – تمام المعرفة. تعلمين أيضاً – مما ذكرته لك فى خطاب سابق – أن "ريكاريد" شدّ الرحال – فى اليوم التالى لسفرك – إلى فرنسا بقصد مغادرتها إلى أماكن أخرى، لكن الشىء الذى لم أخبرك به – لعدم أهميته – هو اصطحاب "ريكاريدو" غلامه فى تلك الرحلة . وبعد مرور ستة عشر شهراً انقطعت فيها أخبارهما، عاد إلينا أمس "جيّارتى" هذا ليلقى علينا بالصاعقة التالية: لقد تمكن "أرنستو" من قتل "ريكاريدو" غيلة فى إيطاليا. ولك أن تتصورى، يا بنتى، حالنا – أنا وأبيه وزوجته – بعد سماع هذا الخبر المشئوم. إننى أتوجه إليك بالكتابة عن هذه الفاجعة التى هزّت كياننا لأتوسل إليك مرة أخرى بالصلاة على روحه وطلب المغفرة له، فأنت أحقنا جميعاً بهذا العمل للحب الكبير الذى أكنّه لك الفقيد .. نسألك أيضاً الدعاء بأن يلهمنا الله الصبر والسلوان

وأن يحسن خاتمتنا، ونحن من جهتنا ندعوه بأن ينعم عليك وعلى والديك بالصحة وطول العمر" .

من حيثيات الخطاب وملابساته تأكدت "إيسابيلا" من صدق الخبر، فالخط هو خطّ السيدة "كاتالينا" والتوقيع توقيعها، ومن جهة أخرى فهى تعرف "جيّارتى" جيداً وما جرّبت عليه كذباً قط، ومن ثمّ يستحيل اختراعه لحكاية موت سيده. وعلاوة على ما تقدم فلا توجِد مصلحة للسيدة "كاتالينا" فى ترويعها بخبر مزيف يمسّ حياة ابنها الوحيد. لقد خلصت فى النهاية إلى صدق الخبر المشئوم، ولم يعتورها أدنى شك فى الحقيقة المفزعة.

أكملت قراءة الخطاب دون أن تذرف دمعه واحدة أو تصدر عنها لمحة أَلَم، وبوجه صارم ورباطة جأش ظاهرية نهضت من على أريكة كانت جالسة عليها ودخلت مُصَلاّها ثم جثت على ركبتيها أمام صليب تعلوه صورة للعذراء ووهبت نفسها للدّير، إذ يحق لها الانخراط فى سلك الرّهبْنة ما دامت قد أصبحت أرملة، اجتهد والداها فى مداراة مشاعرهما لمؤازرة ابنتهما فى المحنة الكبرى التى هبطت على رأسها. كشفت "إيسابيلا" لوالديها عن نيتها بينما كانت تتمايل من فرْط تأثرها بالقرار المسيحى المقدس الذى اتخذته. نصحاها بتأجيل تنفيذه لحين فوات مهلة السنتين التى ضربها "ريكاريدو" للاجتماع بهم، وبهذا الشكل تتحقق من مصرعه وتستطيع تغيير مجرى حياتها دون تردد. قبلت مشورتهما وأمضت الأشهر الستة والنصف الباقية فى العبادة والرياضة الروحية وفى إنهاء إجراءات التحاقها بدير "سانتا بولا" ، الذى وقع اختيارها عليه لوجود ابنة عمتها فيه .

انتهت السنتان وحلّ اليوم الموعود الذى ذاع خبره فى جميع أرجاء المدينة. فى ذلك اليوم تجمّع الناس من كل حدب وصوْب لتكتظ بهم المسافة القصيرة التى تفصل بين بيتها والدير. ولأن والديها كانا قد استدعيا أصدقاءهما ومعارفهما فقد أحاط بإيسابيلا موكب ضخم لم تشهده المدينة فى ظروف مماثلة. كان الموكب يضم – بالإضافة إلى سادة وسيدات المجتمع الإشبيلى – مندوب الدير وممثلين للكنيسة ونائب الأسقف العام ، فقد كان الجميع يتحرق شوقًا لرؤية شعاع الشمس الجميل الذى احتجب عنهم شهوراً عديدة. وبما أن العادة قد جرت على ذهاب الفتيات إلى الدير وهن فى

كامل زينتهن وعليهن أفخر ما لديهن من ثياب – كإحدى العلامات الفارقة بين حياة الدَّعة وحياة التقشف والزهد – فقد تجمَّلت "إيسابيلا" قدر ما تستطيع ، ارتدت الثوب المطرز الفاخر الذى قابلت فيه ملكة انجلترا، وتحلَّت باللآلئ والماسة الشهيرة والعقد والحزام النفيسين. وبهذه الزينة الفاخرة والجمال الساحر والرشاقة الآسرة (التى جعلت كل من يراها يسبح بجمال صنع الله) خرجت "إيسابيلا" من بيتها على قدميها، غير عابئة بمطيَّة أو عربة، نظراً لقصر المسافة إلى الدير. لقد كان قرار السير على الأقدام صائباً لأن العربات لم تكن لتجد لنفسها طريقاً وسط تلك الأمواج المتلاطمة من البشر. بعض الأصوات كان يتعالى بالدعاء لوالديها، والبعض الآخر يلهج بالثناء على السماء التى سوَّت كل هذا الجمال وأنعمت به على صاحبته. ومن شدة الزحام لجأ الكثيرون إلى التمطى بأعناقهم لكى يظفروا بنظرة إليها، بينما حاول البعض الجرْى إلى الأمام بعد رؤيتها مرة لكى يراها ثانية. ووسط هذا التدافع المحموم بالمناكب كان هناك شخص واحد لم يلجأ إلى مزاحمة الآخرين. كان عليه رداء الأسرى المفتدين، وعلى صدره علامة التثليث التى تومئ إلى فك أسره من صدقات المحسنين. عندما مدَّت "إيسابيلا" إحدى قدميها فى الدير، الذى كانت على بوابته– كما جرت العادة – الراهبات بالصلبان تتقدمهن كبيرتهن، نادى عليها هذا الأسير المفْتَدى بأعلى صوته:

– مكانك يا "إيسابيلا" ، قفى حيث أنت ، فما دمت حيًا لا يحق لكِ الانخراط فى سلك الرهبنة.

التفتت "إيسابيلا" ووالداها ومن كانوا معهم إلى مصدر الصوت فوجدوا شاباً عليه ثياب الأسرى المفْتَدين يشقّ الجموع نحوهم. من بشرته البيضاء ووجهه الأشقر وخصلات شعره الذهبية التى تتدلى من تحت قبعته الزرقاء المستديرة أدركوا على الفور أنه أجنبى.

كان يتعثر وينهض وهو يركض بين الزحام حتى وصل أخيراً إلى حيث تقف "إيسابيلا" فأمسك بيدها و قال :

– ألا تعرفيننى يا "إيسابيلا" ؟انظرى إلى، إنه أنا : "ريكاريدو" زوجك .

– نعم أعرفك، ما أنت إلا شبح يريد تعكير صفو التحاقى بالدير .

أمسكه والداها وتفحصاه برويّة فتحققا عندئذ من شخصيته . جثا "ريكاريدو" على ركبته أمام "إيسابيلا" والدموع تبلل مقلتيه، وتوسل إليها أن تتأمله جيداً وألا يؤثر ثوبه الغريب على تعرّفها عليه وألا يحول حظه العاثر بينها وبين الوفاء بالعهد الذى قطعاه سوياً على نفسيهما، تماسكت "إيسابيلا" ، استطاعت أن تطرد من مخيلتها فحوى خطاب السيدة "كاتالينا" بموت ابنها، وعندئذ فقط صدّقت عينيها والحقيقة الماثلة أمامها . لم تتمالك نفسها واحتضنت الأسير وهى تقول له:

- أنت، يا سيدى، ولا أحد غيرك من بيده إلغاء قرارى، فأنت نصف روحى وزوجى الحبيب، أنت يا من صورته مطبوعة فى ذاكرتى ومحفوظة فى كيانى، إذا لم تكن الأخبار السيئة التى عرفتها من خطاب واندتكم قد أودت بحياتى وقتها فإنها جعلتنى أختار حياة الرهبنة التى كنت موشكة على الدخول فيها الآن، وبما أن الرب قد قضى بغير هذا- وقضاؤه الحق- فليس بوسعنا الاعتراض على مشيئته، تعالَ معى إلى بيت أبوىّ لأنه أيضاً بيتك، وهناك سأتحلل على يديك من نذرى كما توصى بذلك عقيدتنا الكاثوليكية الغرّاء.

سمع الموجودون- بما فيهم نائب الدير وممثلا الكنيسة ونائب الأسقف- ما قالته "إيسابيلا" ، وبعد سماعهم له أكبروه وعطّلوا المراسم وسألوها من يكون ذلك الأجنبى، وعن أىّ زواج تتحدث، وما هى الحكاية؟.. على جميع هذه الأسئلة رد والدها قائلاً بأن القصة تحتاج لمكان آخر ومقام غير هذا المقام، ومن ثمّ فقد دعا من يريدون معرفتها بتشريفه بالتوجه معه إلى بيته القريب، وهناك سيرضى فضولهم ويخبرهم بالحقيقة التى هى أغرب من الخيال، وفى أثناء ذلك علا صوت أحد الحاضرين بالآتى:

- أيها السادة: أنا أعرف هذا الشاب، إنه قرصان إنجليزى عظيم ، لقد استولى منذ عامين من القراصنة الأتراك على بارجة برتغالية كانت قادمة من العالم الجديد ، أنا أعرفه جيداً لأنه هو الذى وهبنى الحرية وأعطانى المال اللازم لرحلتى إلى إسبانيا، ولم يفعل هذا معى وحدى بل مع أكثر من ثلاثمائة أسير آخر.

أسهمت الكلمات السابقة فى تفاقم حالة الهرج والمرَج بين الناس، وفى إذكاء فضولهم للوقوف على حقيقة الأحداث التى تزداد تشابكاً وغموضاً ، فى النهاية، رافق "إيسابيلا" فى العودة إلى بيتها من كان حاضراً من سادة المدينة علاوة على مندوب الدير ونائب الأسقف وعضوين كنسيين، مخلّفين وراءهم الراهبات محزونات مشوشات وباكيات، يندبن حظهن للحرمان من صحبة الجميلة "إيسابيلا" ، بعد عودة الأخيرة إلى بيتها دخلت صالة فسيحة وأجلست فيها هؤلاء الضيوف، وبرغم أن "ريكاريدو" كان مستعداً لسرد حكايته بنفسه إلا إنه تراجع وفضل أن يعهد بها إلى لسان " إيسابيلا" وفطنتها ، خاصة وأنه لم يكن متمرسًا بما فيه الكفاية فى اللغة القشتالية.

ران الصمت على الحاضرين وتعلقت نواظرهم وأفئدتهم بلسان "إيسابيلا" التى شرعت فى سرد الحكاية بأكملها، من اليوم الذى اختطفها فيه "كلوتالدو" من مدينة "قادس" حتى لقائها الأخير الذى شاهدوه بريكاريدو. تحدثت أيضاً عن المعركة التى خاضها "ريكاريدو" ضد الأتراك، وعن كرمه مع الأسرى الإسبان، وعن تعاهدهما على الزواج ومهلة السنتين، وعن خبر موته الذى تلقّته من والدته وجعلها تقرر الانخراط فى سلك الرهبنة، كما أشادت فى حديثها بكرم ملكة انجلترا وسخائها وحسن ضيافتها، ولم تنس إبراز مسيحية (كاثوليكية) "ريكاريدو" ووالديه. توقفت عند هذا الحد وقالت إنها ستترك لريكاريدو تكملة الحكاية بقصّ ما جرى له منذ مغادرته لندن حتى لحظة لقائه بهم عند باب الدير وهو يرتدى تلك الثياب التى تشير إلى افتدائه من الأسر على يد المحسنين المسيحيين.

– وهو كذلك– قال "ريكاريدو"– سأقدم لكم موجزاً مختصراً للأحداث الطويلة التى جرت لى خلال تلك الفترة:

" بعد رحيلى من لندن فراراً من الزواج الوشيك بـ "كليسترنا" (تلك الفتاة الإسكتلندية الكاثوليكية التى اختارها أبواى زوجة لى) ومصطحباً معى جيّارتى" (خادمى الذى حمل إلى والدتى فى لندن نبأ مصرعى) اتجهت إلى فرنسا، ومنها إلى روما حيث ابتهجت روحى وقوى إيمانى . قبّلت قدمىّ البابا واعترفت بذنوبى و آثامى لأحد القساوسة الكبار فمحاها عنى وأعطانى صكًا صادراً عن الكنيسة الأم لكل مسيحيى العالم، قمت بعد ذلك

بزيارة الأماكن المقدسة العديدة بتلك المدينة الطاهرة، ومن الألفى إسكودو الذهبية التى كانت معى أعطيت ألفًا وستمائة منها لتاجرٍ فلورنسى يدعى "روكى" بهدف تحويلها إلى إسبانيا واستلامها فيها، وقد حرّر لى التاجر أمر دفع على زميل له فى إشبيلية .

عقدت العزم بعد ذلك على المجىء إلى هنا بأربعمائة الإسكودو الباقية، ولهذا الغرض شددت الرحّال إلى "جنوة" لأن أخباراً وصلتنى تفيد بوجود سفينتين فى مينائها على وشك الإقلاع إلى إسبانيا . وصلت مع خادمى (جيّارتى) إلى مدينة صغيرة تسمى "أكوابندنتى" [٧] وهى آخر محلّة تابعة للبابا على الطريق من روما إلى فلورنسا. دخلت نزلاً بتلك المدينة الصغيرة فلمحت فيه عدوى اللدود "أرنستو" بصحبة أربعة من خدمه، كان متخفياً وفى ملابس مستعارة ليعطى الانطباع لكل من يراه بأنه كاثوليكىّ فى طريقه إلى روما، ظننت أنه لم يشاهدنى ولم يتعرف علىّ . دخلت، ومعى الخادم، وأخذت كافة الاحتياطات حتى لا يرانى، ومع هذا نويت مغادرة الخان عندما يرخى الليل سدوله، لكننى لم أفعل لأن عدم اكتراث الكونت أو خدمه بالبحث عنى جعلنى أعتقد أنهم لم يرونى ، تناولت العشاء فى حجرتى وأحكمت غلق بابها، ووضعت سيفى على مقربة منى - مفوضًا أمرى إلى الله - وفضّلت البقاء مستيقظاً، نام الخادم بينما تمددت على كرسى وظللت جالسًا عليه حتى غفوْت . بعد انتصاف الليل بقليل جعلنى أصحو لكى أنام نومًا أبديًا صوت أربع طلقات صوّبهم نحوى- كما عرفت فيما بعد - الكونت وخدمه من مسدساتهم، عندما تيقنوا من إصابتى وموتى امتطوا جيادهم التى كانت جاهزة للرحيل، وقبل فرارهم أوصوا صاحب الخان بدفنى لأننى رجل من خيار الناس وسادتهم.

استيقظ خادمى - حسبما روى لى بعد ذلك صاحب الخان - على دوىّ الطلقات وألقى من الخوف بنفسه من النافذة فسقط فى البهو وهو يصيح

---

(٧)"أكوابندنتى" Aquapendente : مدينة إيطالية تابعة لمحافظة روما، اسمها مأخوذ من شلالات شهيرة بالقرب منها، كان تعداد سكانها عام ١٦٥٦ يصل إلى ١٤٠١ نسمة . (المترجم)

بأعلى صوتـه : "يا لنكبتى ! لقد قتلوا سيدى" ، ثم جرى مغادراً المكان . لا شك أن الخوف ظل يطارده وجعله لا يتوقف ولا ينظر خلفه حتى وصل إلى لندن حـاملاً إليهـا نبأ مـصـرعى . صـعـد الذين كـانوا بالخـان إلى غـرفـتى ووجـدونى مـصـابـاً بأربـع رصـاصـات عـلاوة على شظايا لا تحـصى من البارود، لكن جراحـها جميعًا لم تكن مميتة. طلبت الاعتراف – مثل كل مسيحى كاثوليكى – فلبوا طلبى ثم شرعوا على الفور فى علاجى. ظللت طريح الفراش لمدة شهرين ذهبت بعدهما إلى "جنوة" فلم أجد فى مينائها سوى زورقين صغيرين فابتعت تذكرة ، وفعل مثلى إسبانيان آخران كانا هنالك، ثم ركبنا – نحن الثلاثة– فى زورقين بينما تقدمنا الآخر لاستكشاف الطريق وتأمين الرحلة. أبحـــرنا لا نلوى على شىء ؛ ومن أرض إلى أرض– دون أن يخطر ببالنا النزول للتسكع فى أىّ ميناء يصادفنا – حتى وصلنا إلى ميناء يسمى "لاس ترس مارِيّاس" (٨) على الساحل الفرنسى. توقف الزورق الذى يقلّنا فى عـرض البـحـر وتقدمنا الثـانى لاستكشـاف الطريق. وفجأة، خرجت من كمين سفينتان تركيتان وأطبقتا علينا: واحدة من جهة البحر والأخرى من جهة اليابسة وتمكنتا من أسرنا. حملونا إلى إحداهما وجردونا من ملابسنا وتركونا شبه عرايا، كما نهبوا ما على زورقينا من أمـتـعـة وتركـوا الزورقين بعد ذلك يصطدمـان باليـابسـة دون مـحـاولة إغراقهما قائلين إنهم سيتركونهما هكذا بمثابة طعم لغنيمة قادمة. فهم يطلقـون مـصطلح "غنيـمـة" على كل مـا ينهبـونه ويسـتـولون عليـه من المسيحيين . لن تصدقوا إن قلت لكم إن جـرح الأسْر كان أشد وْقعًا على نفسى من جـراحى السابقة، خاصة أننى فقدت معه صكّ رومـا للغفران الذى كان "محفوظاً" فى علبة من الصفيح، علاوة على إذن صرف ألف وستمائة دوكـادوس ، لكنهـمـا وقـعـا– لحسن الحظ– فى يد أسيـر إسـبـانى

(٨) Las Tres Marías : ميناء صغير على مقربة من مرسيليا • يرى بعض النقاد أن ثربانتس نفسه قد تم أسره فى هذه المكان عام ١٥٧٥ م ، بينما يرى البعض الآخر أنه أسر بالقرب من سواحل قطلونية بإسبانيا . (المترجم)

فحفظهما لى؛ لأنهما لو وصلا إلى أيدى الأتراك لغالوا فى فديتى ولما قَنعوا بأقل من المبلغ الموجود فى إذن الصرف ، حملونا إلى الجزائر فوجدت فيها ممثلين لـ "منظمة فكّ الأسرى من الصدقات" يتفاوضون بشأن إطلاق سراح عدد من آباء مذهب التثليث المقدس ، تحدثت معهم وأخبرتهم من أكون، فأخذتهم الشفقة بى وافتدونى – رغم أننى أجنبى ومن بلد لا يدين بالمسيحية (الكاثوليكية) – على هذا النحو: اتفقوا على دفع ثلاثمائة "دوكادوس" فدية لى، منها مائة مقبوضة ومئتان مؤجلة لحين عودة سفينة الصدقات التى رحلت لإحضار المزيد من الأموال لافتداء أب المنظمة الذى أنفق كل ما كان معه واستدان عليه أربعة آلاف "دوكادوس" أخرى من أجل تحرير أكبر عدد من الأسرى، ولهذا السبب تحفظوا عليه فى الجزائر لحين عودة السفينة بالمال اللازم لسداد مديونيته ، هؤلاء الآباء لا يداينهم أحد فى الشفقة والرحمة ، إنهم من أولئك الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، إذ يقبلون أغلال الأسر طائعين نظير فكّ قيود الآخرين، ولأن الخيرات تأتى مجتمعة فقد سلمنى الأسير الإسبانى بعد إطلاق سراحى صك الغفران وإذن الصرف . أطلعت الأب الذى افتدانى (الفكاك)عليهما ، ووعدته بخمسمائة "دوكادوس" كمساهمة متواضعة فى مهمته النبيلة .. تأخرت سفينة الصدقات عن العودة ما يقرب من العام ، جرت لى فيه أحداث غريبة لا أستطيع سردها عليكم الآن لكثرتها ، ولذا أعدكم بالعودة إليها فى مناسبة أخرى ، سأخبركم فقط أن واحداً من الأتراك العشرين الذين أعتقتهم مع الإسبان المسيحيين قد تعرّف علىّ هناك وشكرنى كثيراً وأسدى إلى معروفًا عندما لم يقم بكشف هويتى، لأن الأتراك لو عرفوا أننى الذى أغرقت لهم سفينتين من قبل وانتزعت من أيديهم البارجة البرتغالية لحكموا علىّ بشىء من اثنين : الإعدام أو الترحيل إلى مقر الباب العالى فى تركيا حيث لا أسترد حريتى مطلقًا، اتجه "الأب الفكّاك" بعد ذلك بسفينة الصدقات إلى إسبانيا لتوصيلى إليها بالإضافة إلى خمسين مسيحيًا آخرين كان قد افتداهم من الجزائر . نزلنا فى مدينة "بلنسية" ، وبعد الطواف

بمزاراتها المقدسة رحل كل واحد منا - وعليه هذه الثياب - إلى المكان الذى يبغيه. طرت إلى إشبيلية على جناحى الشوق لرؤية زوجتى "إيسابيلا" فوصلتها اليوم فقط، ودون أن ألوى على شيء بادرت بالسؤال عن دير "سانتا بولا" للراهبات لكى أعرف منه أخبارها وعنوانها . وما حدث لى بعد ذلك تعرفونه جيداً لأنكم عاينتموه بأنفسكم .. بقى أن أعرض عليكم صك الغفران وأمر الدفع لكى تتأكدوا من صدق حكايتى المترعة بالأخطار والمعجزات" .

وفور انتهائه من الجملة الأخيرة امتدت يده إلى علبة من الصفيح كانت معه فأخرج منها الأوراق المشار إليها ثم أعطاها لمندوب الدير الذى تفحصها بمشاركة نائب الأسقف ولم يجدا فيها شيئاً يخالف ما رواه، ولتأكيد كلامه أكثر وأكثر شاءت إرادة السماء أن يكون التاجر الفلورنسى المحوّل عليه أمر الدفع حاضراً فى المجلس . طلب التاجر رؤية أمر الدفع، ولما قرأه تعرف عليه وأبدى استعداده لصرف المبلغ فوراً لأن الإخطار الذى أرسله زميله الإيطالى كان قد وصله منذ عدة أشهر، زاد الحدث الأخير المعجز من دهشة الحضور وشدة تعجبهم. طلب "ريكاريدو" من التاجر خصم الخمسمائة " الدوكادوس" التى وعد بها "الأب الفكّاك" وسرعة تحويلها إليه، عانق نائب الأسقف "ريكاريدو" ووالدىّ "إيسابيلا" ، وردت عليه الأخيرة التحية بأحسن منها . فعل ممثلا الكنيسة الشيء نفسه وطلبا من "إيسابيلا" تدوين تلك القصة لكى يقرأها الأسقف فوعدتهما بذلك .

انفجر الصمت الذى أولاه الحضور لسماع أحداث هذه القصة العجيبة فى التهليل والتكبير والثناء على قدرة الله ومعجزاته الخارقة ، وقبل مغادرتهم المكان لم يتركوا كبيرة ولا صغيرة من كلمات التهانى إلا وأتحفوا بها "ريكاريدو" و"إيسابيلا" ووالديها. لم ينس هؤلاء دعوة مندوب الدير ونائب الأسقف وممثلى الكنيسة ووجهاء المدينة الحاضرين بتشريف حفل الزفاف الذى سيعقد بعد ثمانية أيام .

وهكذا عادت إلى الوالدين قُرّة أعينهما، واستردا ثروتهما الضائعة، وحبَت السماء الجميلة الخلوقة "إيسابيلا" - رغم الخطوب والعراقيل الجمّة- بزوج حسيب نسيب مثل ريكاريدو ، وما زال الاثنان ينعمان حتى يومنا هذا بالحياة سوياً تحت سقف منزلهما

القريب من "سانتا بولا" الذى اشترياه بعد ذلك من ورثة أحد نبلاء "برغش" ويدعى إرناندو دى ثيفوينتس [٩] .

ترشدنا هذه القصة إلى ما فى الجمال والفضيلة من أهمية وقدر، وكيف أنهما مجتمعين- بل كل صفة منهما على حدة - قادرة على إشاعة الحب والوئام حتى بين الأعداء الألدّاء.. كما تبين ما للسماء من قدرة على تحويل نكباتنا الجسام إلى خير عميم.

***

(٩) أشار بعض النقاد إلى أن هذا المنزل الذى خلّده " ثربانتس" بقصته الحالية كان يخص ماركيز "كاسترومونتى" Castromonte وقد عاش فيه "دون خوان دى لارا"عام ١٦٥٢ م . (المترجم)

المحامي المُزَجَّج

بينما كان يتنزه طالبان من جامعة شلمنقة Salamanc على شاطئ نهر "تورمس" عثرا فى أثناء عودتهما على غلام فى الحادية عشر من العمر نائمًا تحت شجرة وعليه ما يشبه ملابس المزارعين، أمرا خادمهما بإيقاظه، وعندما استيقظ سألاه عن بلده وعن سرّ نومه فى ذلك المكان النائى، أخبرهما أنه لم يعد يذكر اسم بلدته وأنه فى الطريق إلى "شلمنقة" للبحث عن سيد يخدمه مقابل التكفل بنفقات دراسته فى جامعتها، سألاه عندئذ إذا كان يعرف القراءة فأخبرهما أنه يجيدها كما يجيد الكتابة أيضاً.

– ما دام الأمر كذلك – قال أحدهما – فلا أظن أن نسيان اسم الموطن له علاقة بضعف الذاكرة.

– بغض النظر عن السبب– رد الغلام– فأنا لا أريد معرفة شيء عن موطنى ولا عن والدىّ حتى أحقق أملى فى تشريفه وتشريفهما.

– وما هى الطريقة التى تفكر فى تشريفهم بها ؟– سأله الطالب الثانى.

– من خلال الدراسة التى تُعلى من قدر الإنسان، وكما يقول المثل فإن عظماء القساوسة عادة ما يخرجون من تحت عباءة الرجال.

أغرتهما ردوده الواعدة بإلحاقه بخدمتهما وإتاحة فرصة الدراسة له طبقًا للنظام المعمول به فى الجامعة بالنسبة لطائفةالخدم. ومن اسمه الذى أخبرهما به (توماس روداخا) ومن ملابسه استشف سيداه الجديدان أنه ينتمى لأسرة من المزارعين الفقراء، وفى غضون عدة أيام أصبح يرتدى الملابس السوداء [(١)] ، ولم تكد تمضى سوى أسابيع قليلة حتى ظهر ذكاء "توماس" الحاد.. لم يكن يدخر وسْعًا فى القيام بمهامه الخدمية بمهارة وإتقان لدرجة أنه بدا وكأنه – دون إهمال، ولو طفيف، لواجباته

(١) كان طلاب جامعة "شلمنقة" يرتدون فى ذلك العصر زياً خاصاً لونه أسود، وهو يشبه إلى حد كبير ملابس القساوسة . (المترجم)

الدراسية- منقطع تماماً لخدمة سيديه، ولأن التفانى فى الخدمة يُسعد المخدوم ويبعث فى نفسه الرضا فلم يكن سيداه يعاملانه كخادمٍ بل كزميل فى الدراسة. وفى السنوات الثمانية التى قضاهامعهما لدراسة القانون اشتهر بالعبقرية والذكاء الخارق وكان محطَّ إعجاب وتقدير الذين التقوا به كافة ، سواء داخل الحرم الجامعى أوخارجه. كانت دراسته الأساسية للقانون- كما أسلفنا القول-، ومع هذا فقد برع فى الآداب والعلوم الإنسانية وامتاز بذاكرة حديدية أدهشت الجميع، وبعقل راجح ورأى سديد طبقت شهرتهما الآفاق.

عندما انتهى سيداه من دراستهما عادا - بصحبة توماس- إلى مسقط رأسيهما بإحدى مدن أندلوثيا الجميلة. قضى " توماس" عدة أيام معهما، لكن شغفه بمواصلة الدراسة جعله يتعجل العودة إلى "شلمنقة" - تلك المدينة التى تسحر لبَّ كل من يستمتع بحلاوة العيش تحت ظلال مبانيها الوقورة إلى جوار جامعتها العريقة - ومن ثمَّ فقد استأذن زميليه فى الرحيل . لم ينكرا عليه رغبته، وتصرفا معه بأريحيَّة وسخاء إذ أعطياه ما يكفى لإعاشته ثلاث سنوات كاملة.

ودعهما ولسانه يلهج بعبارات الشكر والثناء ثم غادر " مالقة" (مسقط رأس سيديه وزميليه)، وعند هبوطه منحدر " ثمبرا" - على الطريق المؤدى إلى " أنتقيرة" - التقى برجل مهيب الطّلعة بصحبة خادمين، وثلاثتهم على ظهور الخيل ، كان الرجل يرتدى الملابس الزّاهية الملونة التى يستخدمها الفرسان عادة فى السفر. انضم " توماس" إليهم عندما عرف أن وجهتهم واحدة. تعارفا، ومن الأحاديث القليلة التى دارت بينهما ظهر ذكاء "توماس" الحاد، كما بدت مروءة الفارس ودماثة خلقه. أخبره الفارس أنه قائد (نقيب) فى سلاح المشاة بجيش صاحب الجلالة وأن حامل الراية الذى يتبعه موجود بنواحى شلمنقة فى مهمة لتجميع الرجال اللازمين لتكوين فرقة من الجنود ، أشاد الفارس بحياة الجندية، ورسم له صورة حيّة لجمال مدينة "نا بولى" واتساعٍ "باليرمو" وغنى " ميلان" واحتفالات "لومبارديا" الصاخبة وروعة الأطعمة التى تقدم فى الفنادق والخانات وما تمتاز به إيطاليا من أكلات شهية ونساء متحررات.. لقد رفع له إلى عنان السماء الحرية فى حياة الجندى، وتغنى بانفتاح الحياة فى إيطاليا، لكنه لم يذكر شيئاً عن قسوة البرودة خلال نوبات الحراسة، ولا عن

الخطر الماثل فى هجمات الأعداء أو الرعب والفزع فى ساحات القتال أو الجوع تحت الحصار أو تهدّم المعاقل و الحصون... إلى ما عدا ذلك من أعباء حياة الجندية وتبعاتها الرئيسية التى يحفظها كل من تمرس عليها عن ظهر قلب. المهم أنه روى له أشياء كثيرة وبطريقة مغرية محببة جعلته يفقد توازنه المعهود وينحاز إلى تلك الحياة المرادفة للموت.

سُرَّ النقيب- الذى اتضح أنه يُدعى: دون دييجو بالديبيًا - بصحبة "توماس" وعبقريته وحسن تصرفه وحضوره الشيّق، ولذا رجاه بالسفر معه إلى إيطاليا إذا كانت لديه الرغبة فى رؤيتها والتعرف عليها،كما أخبره أنه فى حال موافقته سيكون رفيقه فى الطعام والشراب والمأوى وأنه سيتيح له - إذا لزم الأمر- الانضواء تحت الراية التى سيتسلمها فور وصوله من الملازم المكلّف بها (٢) .

لم تلق الدعوة مقاومة تذكر من جانب "توماس" الذى أعمل فكره للحظات ووجد أنها فرصة طيبة لزيارة إيطاليا وفلاندس وبلدان أخرى كثيرة ، لأن الرحلات الطويلة بها العديد من المنافع مثل زيادة رصيد الخبرة لدى الرجال وتعميق معارفهم وتوسيع آفاقهم، ومن جهة أخرى فإن ثلاث أو أربع السنوات التى تتطلبها الرحلة لو أضيفت إلى سنوات عمره القصير لن تشكل عائقاً أمام عودته لاستكمال الدراسة، وكما لو كان كل شيء لابد أن يسير على هواه أخبر النقيب بقبوله العرض عن طيب خاطر، لكن بشرط ألا ينخرط فى سلك الجندية حتى لا يكون ملزماً بعد ذلك باتباع رايته وعدم تخلّيه عنها، حاول النقيب إقناعه بتسجيل اسمه فى قائمة الجند لأنه سيتمتع حينئذ براتب شهرى وهبات وبدلات أخرى، كما أفهمه أنه لن يضن عليه رغم ذلك بالأجازات التى سيطلبها أو بالانعتاق من ربقة الجندية فى أى وقت يشاء.

- سيكون هذا ضد طبيعتى ولما جبلت عليه من التزام - قال له توماس- كما أنه سيكون مخالفًا لما يمليه الضمير على السيد النقيب ، ومن ثم أفضّل التصرف من منطلق الحرية غير المقيدة بالتزام .

---

(٢)فى عصر المؤلف كانت الطريقة المتبعة فى تجنيد الرجال كالآتى: يقوم الضابط المكلف بحمل الراية [alferez، والكلمة من أصل عربى كما نرى] بالطواف بها بصحبة مجموعة من المنادين على العديد من الأماكن. وبعد انتهائه من الطواف يقوم بتثبيت الراية أمام بوابة مركز التجنيد (عادة ما يكون أحد البيوت الشاغرة) لكى يعرفه ويتجه إليه بعد ذلك الراغبون فى التطوع . (المترجم)

- لا شك أنك تقدر المسئولية حق قدرها وأنك صاحب ضمير حي- قال له دون دييجو- يتناسب مع رجل دين لامع جندي في الجيش، ومع هذا فمهما كان الوضع الذي تختاره ثق تماماً بأننا سنكون زملاء في الحلّ والترحال وأصدقاء على الدوام .

أمضوا تلك الليلة في "أنتقيرة" ، وبعد عدة أيام من السير وصلوا إلى مكان الفرقة المجمّعة حديثاً. اتجهت الفرقة- التي انضمت إليها بعد ذلك أربع فرق أخرى- صوب ميناء قرطاجنة، وكانوا جميعاً يستريحون في الخانات والقرى التي تصادفهم على الطريق، لاحظ "توماس" أثناء الرحلة إلى قرطاجنة أشياء كثيرة كانت خافية عليه، ومنهما: السلطة الغاشمة التي يتمتع بها رؤساء إدارات التموين والإمداد ، سطوة وعبث بعض القادة، إذعان واستسلام أصحاب الخانات والنُّزل، دهاء ومكر المكلفين بصرف أرزاق الجند، كيفية دفع البدل للتخلص من التجنيد، سفاهة وسفالة العساكر المستجدين والمشادات المستمرة بينهم أثناء الاستراحات المتكررة، والإسراف في طلب الأعلاف للدواب، وباختصار شديد: كيف يفعل الجند كل ما يحلو لهم على حساب الأهالي ودون مراعاة لمشاعرهم (٣) .

كان "توماس" قد خلع زيّ الطلبة وارتدى الملابس الزاهية الملونة، إشارة إلى اختياره المضي قدماً في طريق يسوع (كما يقولون) .. ولم يأخذ من الكتب الكثيرة التي كانت بحوزته سوى كتابين ("ساعات في حضرة العذراء" و "مع جارثيلاسو") احتفظ بهما في رحلْه..وصلوا بأسرع مما كانوا يريدون إلى قرطاجنة، هذا لأن الاستراحات على الطريق كانت حافلة بشتى ألوان المتع والأطعمة، وللطرائف والمستجدات اليومية •

ومن ميناء قرطاجنة استقلوا أربع سفن إيطالية، وفي عرْض البحر تعرف "توماس روداخا" أيضاً على الحياة الغريبة في تلك الدور البحرية التي ينقضي الوقت فيها ما بين الصراع مع الحشرات (من بقّ وقمل وبراغيث ... إلخ) وقتل الفئران وسخْط البحارة وسبابهم والتعب من دوار البحر والذعر من الموجات العالية. أخافت "توماس"

(٣) يشير المؤلف إلى ما كانت تفعله قوات الجيش حينذاك عند مرورها بالقرى والخانات على الطرق، وإلى اعتداء الجنود وبعض قادتهم على الأهالي واستيلائهم عنوة على ما يملكون. (المترجم)

الرعود والعواصف لاسيما فى خليج "ليون" الذى هاجمتهم فيه عاصفتان: ألقت بهم الأولى إلى شواطئ جزيرة "كورسيكا" ، بينما أعادتهم الثانية إلى " تولون " الفرنسية. وأخيراً - وهم بلا نوم، مبتلون وعيونهم متقرحة - وصلوا إلى مدينة "جنوة" الجميلة حيث ألقوا مراسيهم فى مينائها الصغير . وبعد زيارة قصيرة لإحدى كنائسها، يمم القائد- بصحبة زملائه- شطر أحد الفنادق حيث حاولوا نسيان العواصف والرعود وإلقاء مآسى البحر وراء ظهورهم بالانخراط فى بهجة الحفل الكبير الذى أقاموه.

وهناك تذوق "توماس" أنواعًا لا تحصى من النبيذ مثل : "التربيانو" و" الأسبيرينو" و"كانديا" و "سوما" و" جوارنتشا" و "شينتولا" و "الرومانيسكو" و" مادريجال" و" توكا" و "ألا إيخوس" و" إمبريال" و "أسكيبياس" و "الانيس" و"كاثيًا" و "وادى القنال" و"ميمبريًا" و " ريبادابيا" و "ديسكرجا ماريا" ، ووجد جميع الأنواع التى خطرت بباله وكأنه فى حانة إله الخمر "باكو" .

أُعجب توماس كذلك بالجدائل الشقراء لنساء "جنوة" وبظرف وملاحة رجالها، وبجمال المدينة المطعّمة صخورها العالية بالبيوت مثلما يرصع الذهب بالماس. وفى اليوم التالى استقلت الفرق جميعها السفن المتجهة إلى "بيامونتى" ، لكن توماس لم يشأ مرافقتهم واتفق مع "دون دييجو" على اتخاذ طريق مغاير لزيارة روما ونابولى وفينسيا ولوريتو وميلان واللحاق بهم بعد ذلك فى "بيامونتى" .

ودّع توماس صديقه النقيب، وبعد خمسة أيام كان فى "فلورنسا" التى مرّ قبلها على "لوكا" ، وهى مدينة صغيرة تنعم بالحسن والبهاء وتمتاز عن سائر بقاع إيطاليا بحب سكانها للإسبان. بهرته " فلورنسا" بنظافتها ومبانيها الفخمة ونهرها الرقراق المنعش وشوارعها الغنّاء، ظل فيها أربعة أيام ثم غادرها إلى روما، زهرة المدائن التى زار معابدها وتبرّك بأضرحة أوليائها وقديسيها وافتتن بجمالها ، تعرف على عظمة روما ومجدها التليد من رخامها العتيق، والتماثيل وأنصافها، ومن أقواسها التى أناخ عليها الزمان ، وعيون الماء الحارّ المتهدمة، وأروقتها المدهشة ومسارحها الضخمة المدرّجة، ونهرها المقدس الشهير بمياهه الفيّاضة المباركة الممزوجة برفات القديسين والشهداء، وقناطرها العديدة التى تبدو كل واحدة منها وكأنها تنظر إلى الأخريات،

وشوارعها التى تتسيد بمسمياتها فقط ما عداها من شوارع العالم أجمع: طريق "أبيا"، شارع "فلامينيا" ، شارع "خوليا" ... إلى غيرها من الشوارع الكثيرة. انتابه إعجاب مماثل بتقسيم المدينة وتوزيع مساكنها على جبالها السبعة [٤] : "الثيليو"، و "الكيرينال"، و"الفاتيكان" ، بالإضافة إلى الجبال الأخرى التى تشير أسماؤها إلى الأمجاد الرومانية القديمة ، لاحظ أيضاً ما تتمتع به "مدرسة الكاردينالات" من نفوذ وسلطة، وما يتمتع به المقر البابوى من مهابة وجلال، وأدهشه اكتظاظ الشوارع بالأجناس البشرية المتعددة ، شاهد هذا كله ووعته ذاكرته. وبعد طوافه بمنطقة الكنائس السبعة [٥] واعترافه وتقبيله لِقدمىّ قداسة البابا عزم على الرحيل إلى نابولى. ولما كانت تلك الفترة من السنة مما يتطير فيها بدخول روما أو مغادرتها عن طريق البر قرر ركوب البحر إلى نابولى ، وبوصوله إليها أضاف إلى إعجابه السابق إعجاباً آخر برؤية المدينة التى بدت له - ولكل من شاهدها - كأجمل مدينة فى أوروبا، بل وفى العالم بأسره .

ومن نابولى شد الرحال إلى جزيرة صقلية حيث زار "باليرمو" و"ميسينا" : أعجبه فى الأولى موقعها وجمالها، وفى الثانية ميناؤها، وفى الجزيرة ككل وفرة خيراتها وغزارة إنتاجها ، ولهذا السبب فإنهم يطلقون عليها "مخزن غلال إيطاليا" . عاد إلى نابولى ثانية، ومنها إلى روما، ومن الأخيرة اتجه إلى "نويسترا سنيورا دى لوريتو" التى لم يشاهد فى كنيستها جدراناً ولاحوائط لأنها كانت مغطاة بالعكاكيز والأكفان والسلاسل والقيود والشعور وكميات ضخمة من الشموع، فضلاً عن اللوحات والصور، وأصناف شتى من القرابين التى قدمها جمهور غفير من المريدين ،اعترافاً منهم بعظم الفضائل التى منّ بها الرب عليهم نتيجة لوساطة وشفاعة الأم الربانية بمساندة وتأييد صاحبة المقام. كما شاهد ضريح القديسة التى تلهج الألسن بالثناء عليها وذكْر نعمائها التى حارت فى فهمها السماوات والأرضون، كما حار فى تفسيرها الأحياء والأموات .

---

(٤) جبال روما السبعة - دون عدّ الفاتيكان - هى: كابيتوليو، وبالاتينو، وثيليو، وبيميتال، وكيرينال، وأبينتينو، وإسكيلينو. (المترجم)

(٥) الكنائس السبع المقصودة هى: سان بدرو، وسان بابلو، وسان لورنثو، وسان خوان دى ليتران، وسان سبستيان، وسانتا ماريا لا مايور، وسانتا كروث . (المترجم)

ذهب بعد ذلك إلى "فينيسيا" التى لو لم يولد فيها "كريستوبال كولون" (كولمبس) لما عرف العالم لها شبيهًا : فبفضل الله ثم "إرنان كورتيس" – مكتشف المكسيك – وجدت على ظهر اليابسة مدينة أخرى يتنقل السكان فى شوارعها وممراتها المائية على متون المراكب واللنشات، ولذا يقال إن "فينيسيا" أوروبا هى أيقونة العالم القديم و"فينيسيا" أمريكا هى لؤلؤة العالم الجديد . أعجبه فى المدينة العائمة غناها الواسع، وخيراتها الوفيرة، وموقعها الفريد، وحنكة حكومتها وشهرة ترسانتها التى تصنع أعداداً هائلة من السفن والبواخر والزوارق .

كادت وسائل الترفيه العديدة والمتع اللا محدودة فى المدينة العائمة تنسيه مهمته الأساسية ، وبعد أن أمضى فيها وفى "فيرّارا" و"بارما" و"بلاسنثيا" شهراً كاملاً عاد إلى "ميلان" – مركز صناعة السلاح وعدوة فرنسا اللدود – التى أعجبه كل شيء فيها لاسيما كاتدرائيتها الرائعة وإشتمالها على كل ما يحتاجه الإنسان من سلع وبضائع وخدمات، ومن ميلان رجع إلى "أستى" ليلحق بكتائب الجيش قبل رحيلها إلى "فلاندس" بيوم واحد .

استقبله صديقه النقيب بحفاوة بالغة، وفى معيّته انطلق مع الكتائب العسكرية إلى "فلاندس" ليرى فى الطريق "أمبيريس" – التى لا تقل جمالاً وروعة عن المدن الإيطالية – ثم "جانتى" و"بروكسل" ، واسترعى انتباهه استعداد كافة أنحاء البلاد للمشاركة فى حملة الصيف القادم .

بعد أن حقق "توماس" أمله فى زيارة الأماكن التى كان يحلم بها قرر العودة إلى إسبانيا لاستكمال الدراسة فى شلمنقة . لبىّ صديقه النقيب رغبته ورجاه – عند وداعه – بالكتابة إليه مطمئناً إيّاه على أحواله وسلامة وصوله. وعده بذلك ، وعن طريق فرنسا عاد إلى إسبانيا دون أن يتمكن من رؤية باريس لاستعدادها للحرب آنذاك [٦] . المهم أنه وصل أخيراً إلى شلمنقة حيث رحّب به أصدقاؤه القدامى وهيأوا

---

(٦) يرى "ألونسو كورتيس" أن العبارة المذكورة تشير إلى عام ١٥٦٧م الذى تمردت فيه البلاد الواطئة على الهيمنة الفرنسية ، وأن فرنسا كانت – لهذا السبب – تستعد للحرب؛ ومن جهة أخرى فقد شهدت باريس خلال سبتمبر من العام المذكور قلاقل وأحداث شغب قام بها أتباع "كالفينوس" . ويذهب الناقد إلى أبعد من ذلك حينما يقرر أن ثربانتس نفسه هو الذى كان عائداً إلى وطنه فى التاريخ المذكور بعد رحلة قام بها إلى كل من إيطاليا و"فلاندس" . (المترجم)

لـه الجو المناسب لاستكمال الدراسة والحصول على الإجازة العالية (الليسانس) فى القانون .

فى تلك الآونة كانت قد استقرت بمدينة شلمنقة إحدى السيدات المتحررات . ومثلما تتداعى دواهى الطير على الحمامة الأليفة التى يستخدمها الصياد كطعم، لم يبقِ طالب واحد فى المدينة إلا ووقع فى شراك تلك السيدة المصونة . أخبروا "توماس" بادعائها زيارة إيطاليا و" فلاندس" وطلبوا منه مرافقتهم إلى بيتها للوقوف على حقيقة ما تدعيه. رفض "توماس" الإذعان لطلبهم، لكنهم ألحوا فى الطلب وساقوه سوقاً إلى حيث تسكن . حين رأته السيدة فتنت بحديثه وأحبته حباً جمّاً ، ولم تجد حرجاً فى البوْح له عن مشاعرها ، بل إنها عرضت عليه كل ما تملك من ثروة مقابل تحقيق ما تصبو إليه . ولما كان "توماس" متيماً فقط بكتبه ودراساته ولا يحفل بالتسلية أو العبث فلم يعرها أدنى اهتمام مما أطار صواب المرأة وجعلها تشعر بوخز الإهانة، ومن ثمّ فقد عمدت إلى الاستعانة بالوسائل التى بدت لها فعّالة وكافية للظفر ببغيتها ما دامت قد أخفقت بالطرق المألوفة فى إلانة إرادته الصخرية . وهكذا – وبناءً على نصيحة امرأة موريسكية – أودعت خلْطة سحرية فى إحدى ثمار السفرجل الطليطلى ، معتقدة أنها بذلك ستخضع إرادته لمشاعرها المتأججة، وبالطبع فإن هذه الأعمال مجافية للصواب لأن التجارب العديدة أثبتت أن سحر العالم كله وأعشابه وطلاسمه لا تقوى على إخضاع الإرادة الحرة أو تعديل المشيئة الإلهية، وعلى هذا فإن من يقدّم مثل هذه المأكولات والمشروبات الممزوجة بالسحر والشعوذة على أنها عقاقير الهوى وترياق المحبة إنما يقدم سماً زعافاً لكل من يتناولها .

بمجرد أن أكل "توماس" السفرجل المسحور شرع فى خدْش يديه ورجليه كما لو كان مريضاً بالصرع ثم دخل فى إغماءة طويلة استمرت عدة ساعات ، وعندما أفاق منها تحدث بلسان متلعثم ثقيل – وأمارات الجنون بادية على وجهه – عن السفرجل الذى تناوله من يد تلك السيدة، بحثت العدالة عن الجانية ولم تعثر لها على أثر، ذلك لأن المرأة كانت قد لاذت بالفرار فور رؤيتها لنتيجة فعلتها الشنعاء.

ظل "توماس" طريح الفراش ستة أشهر كاملة هزُل فيها وجفّ عوده حتى أصبح– كما يقال– جلداً على عظم، وفوق هذا مشوّش الحواس . وبرغم أنهم لجأوا إلى

كافة الوسائل العلاجية فلم يتمكنوا إلا من شفائه من العلل الجسمانية دون العقلية التى برّحت به وبلغت مداها .كان التعيس يتصور أن جسده كله من الزجاج، وسيطرت عليه تلك الفكرة لدرجة أنه كان كلما اقترب منه أحد يصيح فيه متوسلاً بالابتعاد حتى لا يتهشم، لأنه – كما ينبرى موضحاً– ليس مثل بقية خلق الله بل من الزجاج الهش القابل للكسر.

ولإخراجه من هذا التصور العجيب الشاذ كان الكثيرون– فى محاولة منهم لإثبات عكس ما يتوهمه– لا يعيرون توسلاته اهتماماً ويقتربون منه محتضنين إيّاه بكل ما أوتوا من قوّة، كان المسكين هو المتضرر الوحيد من هذا المشهد إذ كان يتمرغ بعده على الأرض ولا يكف عن الصراخ ثم يدخل فى إغماءة لا تقل عن أربع ساعات، وعندما يفيق منها تتجدد توسلاته ونداءاته وكأن شيئًا لم يكن، كان يطلب منهم مخاطبته من بعيد وسؤاله كافة ما يعنّ لهم من أمور لأن طبيعته الزجاجية كفيلة بتقديم الإجابات الشافية : فالزجاج مادة شفافة رقيقة وعمل الذهن فيها يكون أكثر دقة وفعالية وسرعة من العمل فى الجسد الترابى المعتم.

حاول البعض اختبار ما يدعيه وأمطروه بوابل من الأسئلة الصعبة فأجابهم على الفور بإجابات تنمُ عن عبقرية حادة وفهم عميق. أثار هذا غير قليل من الدهشة بين رجالات الأدب وبين أساتذة الطب والفلسفة فى الجامعة ، وطفق الجميع يضربون كفاً بكف من شدة العجب: إذ كيف يمكن لشخص، ضالع فى الجنون، الإجابة بدقة وذكاء على أىّ سؤال يطرح عليه؟!

طلب منهم أن يعطوه كيسًا واسعًا لارتدائه لأن الملابس الضيقة ستتسبب فى تحطيمه. استجابوا له وأعطوه عباءة حائلة اللون وقميصاً فضفاضاً قام بارتدائهما فى حيطة وحذر بالغين ثم أحاطهما بزنار من القطن. لم يستجب لاقتراحات وضع حذاء من أىّ نوع فى قدميه ، ولإطعامه، طلب أن يقدموا له الفواكه التى يجود بها الموسم على طرف آنية مسطحة. لم يكن يتناول اللحوم أو الأسماك، ولا يشرب الماء إلا بكفّيه ومن عيْن جارية أو من النهر، وعندما كان يمشى فى الشوارع يلزم السير فى وسطها متطلعًا إلى الأسقف خوفًا من سقوط شىء عليه. وفى الصيف ينام فى العراء تحت سماء مكشوفة ، وفى الشتاء يأوى إلى مخزن قشّ بأحد الخانات ويغوص حتى عنقه

فى القشّ مدعياً أن هذا هو السرير الأمثل لمن هم على شاكلته من الرجال المزججين. عندما كانت تبرق أو ترعد كانت تتملكه قشعريرة مثل التى تتملك العاملين بمناجم الزئبق ويهرول خارجًا من العمران ولا يعود لأية بقعة سكنية إلا بعد فوات العاصفة.

عمَدَ أصدقاؤه إلى الإبقاء عليه حبيسا لأطول فترة ممكنة ، ولما وجدوا أن انتكاسته لابرْء منها نزلوا على رغبته وأطلقوا سراحه فانطلق يجوب شوارع المدينة مسبباً الأسى والأسف فى نفوس من يعرفونه.

كان الصبيان يلتفون حوله، لكنه كان يبعدهم عنه بعصا رفيعة فى يده متوسلاً إليهم بمخاطبته من بعيد لأنه من الزجاج الهش القابل للكسر. لم يكن الصبيان- التوّاقون إلى العبث والدعابة- يحفلون بنداءاته المتكررة، بل يندفعون بحماس لاختبار صدْق ما يدعيه وذلك بإلقاء المخلّفات عليه، فضلاً عن الرّشْق بالحجارة. كان يصرخ فيهم ويتوجع بحرْقة ومرارة يرقّ لهما من يصادفه من الرجال فيقوم بنهْر الصبيان وتفريقهم.

وفى يوم من الأيام التى طارده فيها الصبية بإلحاح التفت إليهم قائلاً:

- ماذا دهاكم، أيها الملاعين، المتسخون كالبق، المتجاسرون كالبراغيث؟ أتظنوننى جبل " تيستاتشو" (٧) بروما لكى ترمونى بكل ما تصل إليه أيديكم من طوب وقرميد!

ولأنه كان لا يكف عن الشّجار ويجيب فى الوقت نفسه على ما يوجه إليه من أسئلة فقد تبعه الكثيرون، وفضّل الصبيان- فى النهاية - سماعه على رشْقه بالحجارة. وعند مروره ذات يوم بسوق الملابس الجاهزة بالمدينة قالت له إحدى البائعات :

- مصيبتك تحزّ فى نفسى وتوجعنى فى الصميم، لكن، ماذا أفعل وليس فى مآقىّ دموع أبكيك بها؟

---

(٧) "تيستاتشو" Testacho : جبل من الجبال الصناعية الخمسة بروما، وهو مكون من مخلفات القرميد والآجر والخردة. (المترجم)

التفت إليها، وبصوت وقور قال لها:

- "لاداعى للبكاء علىّ، يانساء أورشليم، بل اذرفن الدمع مدراراً على أنفسكن وعلى أولادكن" (٨) .

كان زوج البائعة حاضراً فلم يتمالك نفسه بعد فهمه للسخرية وسلقه بلسانه الحاد قائلاً:

- ما أنت إلا وغد، أيها المزجج، وأغلب الظن أن ما بك من ضِعة ولؤم يفوق ما تختزنه من جنون.

- كل ما ذكرته يهون ما لم تخالطه الحماقة- رد عليه المزجّج.

وعندما مرّ على دار للبغاء ووجد ساكنيها واقفين على الباب قال إنهم أعوان إبليس ويقيمون فى نزل من منازل الجحيم .

سأله أحد الأشخاص عن النصيحة أو العزاء الذى يمكن تقديمه لصديق استبد به الحزن لأن زوجته تركته وهربت مع آخر، فأوصاه بالتالى:

- على صديقك التوجه إلى الخالق بالشكر لأنه منّ عليه بترحيلها من بيته إلى دار عدّوه .

- ألا يجدّ فى البحث عنها؟ - سأله الرجل.

- مطلقًا، لأنه لو عثر عليها ستكون بمثابة الدليل الحىّ والدائم على فقدانه للشرف.

- إذا كان الأمر كذلك، فبماذا تنصحنى لأعيش فى سلام مع زوجتى؟

- لا ترفض لها طلباً، واجعلها الآمرة الناهية فى بيتك، ولا تتذمر بعد ذلك إن امتدت أوامرها إليك.

وذات مرة قال له صبى:

- سيدى المحامى المزجج، طفح بى الكيل وأرغب فى الفرار من قبضة أبى لأنه لا يكف عن ضربى بالسوط.

---

(٨) العبارة (المدونة فى النص الأصلى باللاتينية) وردت على لسان السيد المسيح (إنجيل لوقا XXIII, 28)، وهى للتعريض بسلامة نسب أولاد النسوة اللاتى تبعنه مولولات عليه. (المترجم)

فرد عليه قائلاً:

- اعلم، أيها الصبى، أن سياط الآباء تُزين وأن سياط الجلاد تُشين.

وعندما كان على باب إحدى الكنائس وشاهد فلاحًا من هؤلاء الذين يتباهون بأصولهم المسيحية العريقة يستعد للدخول ومن خلفه رجل من أصل يهودى مشكوك فى صدق اعتناقه للمسيحية، نادى على الفلاح بصوت جهورى:

- انتظر أيها الأحد حتى يمر السبت أولاً (٩).

كان يقول عن المعلمين فى المدارس إنهم محظوظون لأنهم يتعاملون دائمًا مع ملائكة، وأن نصيبهم من الحظ كان سيزيد بالتأكيد لو لم يكونوا يتعاملون مع تلاميذ أقذار تلمع أنوفهم بالمخاط السائل منها. وعندما سأله آخر عن رأيه فى القوّادات قال إن البعيدات منهن لسن كذلك لأنهن لا يشكلن خطراً، لكن الخوف كله من القريبات لأنهن بمثابة التهديد المباشر.

سرت أنباء جنونه وإجاباته المدهشة وأقواله المأثورة فى سائر أنحاء قشتالة، ولما وصلت إلى أسماع أحد الأمراء أو السادة المقيمين فى العاصمة أراد إحضاره وكلف بهذه المهمة واحداً من أصدقائه المقيمين فى مدينة شملنقة ، عندما عثر عليه هذا الرجل قال له:

- ثمة شخصية عظيمة فى العاصمة تود رؤيتك وقد كلفتنى بمهمة حَمْلك إليها.

أجابه المزجج، حامل الإجازة العالية فى القانون، بقوله:

- أرجو أن تطلب لى المعذرة من هذا السيد لأن حياة القصور لا تناسبنى، كما أننى خجول ولا أعرف المداهنة.

ورغم هذا استطاع الرجل حَمْله إلى العاصمة مستخدمًا الوسيلة التالية: جعلهم يضعونه فى سلة كبيرة من سلال نقل الزجاج المملوءة بالقش، ووضعوا فى الجهة

---

(٩) لكل من كلمتى "السبت" و "الأحد" فى العبارة معنيان: أحدهما قريب، ويقصد به اليوم المعروف بهذا الاسم من الأسبوع، والآخر بعيد وهو المراد، إذ يقصد بالسبت يهودية الرجل وتظاهره باعتناق المسيحية، بينما يقصد بالأحد صدق مسيحية الفلاح . (المترجم)

المقابلة للحمولة – كثُقْل مضاد– بعض الحجارة، كما وضعوا بجانبه عدداً من الأوانى الزجاجية لإيهامه بسلامة النقل وبأنهم يعاملونه مثلها، وصلوا به "بلد الوليد" (١٠) ليلاً، وفى قصر ذلك السيد– الذى أمر بإحضاره– أنزلوا السلّة برفق . استقبله صاحب القصر بحفاوة بالغة وقال له:

– حللت أهلاً ونزلت سهلاً ، يا حامل الإجازة العالية المزجّج ، كيف كانت الرحلة؟ وما أخبار صحتك؟

رد عليه المزجج قائلاً :

– لا يوجِد طِرِيق واحد سيئ ما دام لا يُفضى إلى المشنقة. أما عن الصحة فهى بيْن بيْن.

وعندما شاهد فى اليوم التالى أعداداً غفيرة من الصقور والبُزاة والطيور الأخرى المدربة على الصيد جاثمة فوق عصيِّها قال إن صيد طيور الأعالى يليق بالأمراء والسادة العظماء ، لكن بشرط ألا تقَل حَصيلة الواحد منهم عن ألفين فى اليوم ، وعن صيد الأرانب البرية قال إنه يبعث السرور والغبطة لاسيما إذا كان بكلاب مستعارة من الغير.

أُعجب صاحب القصر بجنونه وجعله يخرج إلى شوارع العاصمة بعد أن كلّف رجلاً برعايته وحمايته من الصبية العابثين، وفى ستة أيام ذاع صيته فى المدينة وتبعه الكثيرون الذين كانوا يلاحقونه بالأسئلة مع كل خطوة يخطوها ، وعلى سبيل المثال فقد سأله طالب عما إذا كان شاعراً لأن عبقريته المتوهجة توحى بذلك. أجاب المزجج قائلا:

– إلى الآن لم تتملكنى الحماقة المفرطة ولم يحالفنى الحظ السعيد.

– لا أفهم ما تقصده – رد الطالب.

– أقصد أننى لست فى غاية الحمق لأكون من أدعياء الشعر، ولا سعيد الحظ لأكون شاعراً حقيقياً.

سأله الطالب عما يحترمه ويقدره فى الشعراء فقال إن احترامه مُوَجَّه فقط إلى فنّ القريض لا إلى الشعراء. وعندما سأله لماذا؟ أجاب قائلاً: إن هناك عدداً لا يحصى

(١٠) كانت مدينة "بلد الوليد" عاصمة إسبانيا فى الفترة من ١٦٠١م إلى ١٦٠٦. (المترجم)

من أدعياء الشعر بينما لا يتجاوز الشعراء الحقيقيون أصابع اليد الواحدة، ومن ثَمَّ فلا تقدير لمن لا وجود له ، لكنه يحترم- فى المقابل - فن الشعر لاشتماله على كافة العلوم والمعارف الأخرى; فهو يمتص رحيقها ويتزين بها ويستخلص عصارتها المدهشة ثم يقدمها للعالم ليضفى عليه المتعة والبهاء والازدهار . ثم أضاف قائلاً :

- أنا أدرك جيداً ما يجب تقديره فى الشاعر الحقيقى الموهوب لأن ذاكرتى مازالت تعى هذه الأبيات الرائعة التى تغنى بها "أوفيد" :

الشعراء فى الأزمنة الغابرة
كانوا بهجة الآلهة والأباطرة،
وكانت القصائد القديمة
تستحق الأعطيات الثمينة.
كان الشعراء حينذاك
أهلاً للتوقير والإعجاب
ولما ينهمر عليهم من ثروات.

وإن نسيت فلن أنسى المكانة المرموقة التى كان يحتلها الشعراء الذين لقبهم أفلاطون بألسنة الآلهة، وقال عنهم "أوفيد" :

الإله يتقمصنا، وبإشراقاته تجيش صدورنا،
لهذا يطلقون علينا:
العرفاء المصطفين من الآلهة (١١)

هذا ما يُقال عن الشعراء الخُلّص، أما عن الأدعياء المزيفين فماذا يمكن أن يُقال سوى أنهم يمثلون بلاهة العالم وعجرفته!

ثم تابع حديثه قائلاً:

- حين ترى واحداً من هؤلاء الأدعياء تعرفه للوهلة الأولى من سلوكياته. فهو عندما يريد إلقاء "سونيت" (قصيدة) على من حوله يقول لهم:

"سأُلقى على مسامعكم بقصيدة كتبتها ليلاً فى ساعة إلهام، وهى وإن كانت لا تساوى خردلة إلا إنها لا تخلو من لمحات جمالية" . وبعد ذلك يمطُ

(١١) جميع أبيات "أوفيد" الشعرية مدونة فى النص الأصلى باللغة اللاتينية. (المترجم)

شفتيه، يُقوِّس حاجبيه ويفتش فى جيبه، ومن بين آلاف الأوراق المتسخة ونصف الممزقة يستخرج ما يسميه قصيدة ويشرع فى إلقائه بنغمة رقيقة معسولة ، وإذا لم ينبرِ أحد السامعين – جهلاً أو سخرية – بالثناء عليه فور انتهائه يقول: "إما أنكم لم تفهموا القصيدة وإما أننى لم أُحسن إلقاءها، ولذا يتعين إعادتها عليكم مع مطالبتكم بالمزيد من التركيز والانتباه لأن القصيدة تستحقها بالفعل" . وعندئذ يعود لقراءتها بحركات وإيماءات جديدة . فما الذى يمكن قوله إذن عن نباح الجراء حديثةِ العهد بالولادة على كلاب الحراسة الضخمة العتيقة ؟ وماذا يمكن أن يُقال عن الذين يثيرون الأقاويل والافتراءات على الأُصلاء الممتازين ممن تتوافر فيهم موهبة الشعر ، وعندما يلجأون إليها للاسترواح من عناء أعبائهم الجِسام يميطون اللثام عن خصوبة قريحتهم وعلوّ كعبهم رغم أنف الجاهل المتربص الذى يهْرِف بما لا يعرف ويبغض ما لا يفهم ، ورغم أنف الطامع فى التوقير والتقدير مقابل الحماقة القابعة بين طيّات ملابسه والجهل الملاصق لمقعده ؟

سأله الطالب مرة أخرى عن السبب فى فقر وعَوَز معظم الشعراء، فقال إن باستطاعتهم أن يكونوا أغنى الأغنياء لو أرادوا، وذلك باستغلال ما يمتلكونه من بنات أفكار وملّكات (شعرية) رائعات الجمال: فجدائل ملّكاتهن من الذهب وجباههن من الفضة المصقولة، عيونهن من الزمرد الأخضر وأسنانهن من العاج ، شفاههن من الياقوت ورقابهن من الزجاج اللامع الشفافِ ودموعهن من اللؤلؤ المذاب، أنفاسهن مسك وعنبر ، والأرض التى تطؤها أقدامهن تنبت – مهما كان جدبها وشدة صلابتها – الورود والياسمين . أليس هذا كله بمثابة معين لا ينضب للجاه العريض والثروات الممتدة ؟ ! .. بمثل هذه الأشياء وغيرها كان يتحدث عن الشعراء ويمتدح الحقيقيين منهم رافعاً إياهم إلى عنان السماء .

وعندما شاهد على رصيف "سان فرانثيسكو" عدداً من اللوحات التى لم تَرُقْه قال إن الرسامين الموهوبين يحاكون الطبيعة بينما يتقيؤها المزيفون .

مرّ ذات يوم على إحدى المكتبات فاقترب منها بحذر بالغ - خوفًا من سقوط كتاب عليه- وقال لصاحبها:

- يعجبنى هذا العمل كثيراً لو لم يكن ينطوى على عيب خطير.

سأله البائع عن العيب فقال له:

- تتزلفون لشراء حقوق نشر الكتاب وتسخرون بعد ذلك من مؤلّفه - لاسيما إذا كانت نفقات الطبْع على حسابه - لأنكم بدلاً من طباعة الألف وخمسمائة نسخة المتفق عليها تطبعون ثلاثة آلاف، وهكذا تغررون بصاحبه الذى يعتقد أن نسخه هى التى تباع فى حين أن المباعة هى نسخ الغير .

وفى اليوم نفسه تصادف أن مرّ بالميدان العام ستة من مرتكبى الجرائم وعلى ظهورهم آثار السياط، وعندما قال المنادى المصاحب لهم: "تم جلد الأول لأنه لص" صاح المزجّج فيمن كانوا أمامه:

- ابتعدوا، أيها الرّفاق، حتى لا يُكمل العدّ بواحد منكم .

وعندما أشار المُنادى إلى عجَز آخر قال المزجج:

- لابد أن هذا هو كفيل الصبيان المشردين.

أخبره فتى أنهم سيحضرون غداً "قوّادة" لجلدها فى السّاحة العامة فقال له:

- لو أنك غيّرت نوع الكلمة من المؤنث إلى المذكر لأفادت بجلد ممثل مسرحى (١٢) .

قابله هناك واحد من حاملى المحفّات فسأله:

- ألا يوجد لديك ما تقوله عنّا، أيها الحقوقى المزجج؟

- شىء واحد فقط وهو أن الواحد منكم يعرف من الآثام والذنوب أكثر مما يعرفه متلقى الاعترافات بالكنيسة، بيْد أن الفارق بينكم وبينه يكمن فى أن

---

(١٢) الكلمة الإسبانية alcahueta (مفردة مؤنثة) ومعناها: قوّادة، لكن المفرد المذكر منها alcahuete يتضمن العديد من المدلولات: قوّاد، ونمّام، وستارة ترخى فى المسارح بين الفصول ... إلخ ، وقد استخدم المؤلف المدلول الأخير للكلمة (فى حالة التذكير) استخداماً مجازياً . (المترجم)

متلقى الاعترافات لا يبوح بها بينما تقومون بنشرها بين الخلائق فى الحانات.

عندما سمع هذا منه سائس بِغال (إذ كان يتبعه بصفة مستمرة خليط من البشر) قال له :

– لن تجد شيئًا تقوله عنا، أيها السيد الماكر، لأننا من الأخيار النافعين للجمهورية.

رد عليه المزجج قائلاً:

– شرف السيد ينمّ عن شرف الخادم، وانطلاقاً من هذه القاعدة أستطيع القول: انظر إلى من تخدم وسترى مقدار ما أنت عليه من شرف . إنكم أحطّ من يسير على ظهر البسيطة من أوغاد . ذات مرة– قبل أن أصبح من الزجاج – ركبت بغلة مكتراة وعددت بها أكثر من مائة وعشرين عيبًا جوهرياً . السوّاس جميعهم محتالون ومحترفو نصْب وإجرام. إذا كان أسيادكم (هكذا يطلق السوّاس على الذين يحملونهم على دوابهم) ممن يسهل خداعهم تفعلون معهم أكثر مما فعلوه بالمطرودين من هذه المدينة فى السنوات الماضية [١٣]: إذا كانوا غرباءً تسرقونهم، طلاباً تلعنونهم، رجال دين تكفرونهم ، وإذا كانوا جنوداً تجعلونهم يرتعدون فرَقًا، البحارة والحوذيّة والبغّالون يعيشون حياة خاصة وغريبة: يقضى الحوذيّ الشطر الأعظم من حياته فى مكان لا تزيد مساحته عن متر و ربع، ثِقْله موزّع مناصفة بين مقْود الدّواب وبين الاستواء على مقدمة العربة، يمضى نصف وقته فى الغناء والنصف الثانى فى السبّ واللّعن، وإذا طلب من ركاب عربته الجلوس فى مؤخرتها فإنه يعنى الجهة المقابلة، وإذا غاصت إحدى العجلات فى أرض موحلة فإن شتيمتين من قاموس شتائمه تصبحان أشد عوْناً له فى إخراجها من الاستعانة بثلاثة بغال، أما البحّارة فهم قوم ظرفاء، لا يعرفون

---

(١٣) تشير العبارة إلى عملية الطرد الجماعى للموريسكيين من مدينة بلد الوليد بعد تعذيبهم وإذ لا لهم والاستيلاء على ممتلكاتهم. وقد تم طرد الموريسكيين من إسبانيا على مراحل كان آخرها عام ١٦٠٩ م . (المترجم)

حياة الحضر على اليابسة ولا لغة أخرى غير المستخدمة فى السفن، نشطاء عند سكون البحر وكسالى عند هياجه، أوامرهم كثيرة أثناء العاصفة وطاعتهم شبه معدومة، فلكهم هو ربهم المعبود، والمسافرون المصابون بالدوار هم قطعانهم ومثار سخريتهم وتسليتهم ، أما البغالون فهم أناس قد طلقوا الأسرة والملاءات وتزوجوا البراذع، تراهم فى غاية العجلة والتسرع لدرجة أن خوفهم من فوات النهار يجعلهم يفقدون آدميتهم، الخوض فى الملاط موسيقاهم، الجوع صلصتهم، صلواتهم للفجر هى تبكيرهم لتقديم الأعلاف ، وأداؤهم للقداس يكمن فى الإعراض عنه.

انتهى من كلامه السابق وهو واقف على باب صيدلية فالتفت إلى صاحبها وقال:

– لديك مهنة محترمة ومفيدة لو تخلصت من عدائك التقليدى للقناديل.

سأله الصيدلانى عن معنى هذا فأجاب:

– لأن الصيدلى يستعيض عن الدواء الناقص فى صيدليته بزيت القنديل القريب جداً من يده، وهذا فى حد ذاته سبب كافٍ لسحب الثقة من أمهر الأطباء والتشكيك فى قدراتهم .

ولما سأله عن علاقة هذا بقدرات الأطباء قال:

– عندما لا يقر الصيدلانى بعدم توافر الدواء الموصوف لديه، ويستبدله بتركيبة يعتقد أنها تتمتع بنفس الخواص والفعالية– وهى ليست كذلك – فإن دواءه المغلوط يؤدى إلى نتائج عكسية ويلحق الأذى بالمريض.

سأله أحد الموجودين عن رأيه فى الأطباء فقال:

– " الطبيب أهل للتشريف لشدة الحاجة إليه ولتولى العلىّ العظيم تربيته. الله سبحانه مصدر كل دواء وشفاء، وما على الملوك إلا تلقى المنح والهبات. علْم الطبيب يرفع رأسه عاليًا ويحوطه بالمديح والثناء من الأعيان والوجهاء. تفضل الرب بخلق كافة الأدوية من الأرض، وألهم الطبيب الصالح حسن الاستفادة بها وعدم تبديدها" . هذا ما أورده الكتاب المقدس

في أسفاره [١٤] عن الطب والأطباء المهرة المخلصين ،أما ما عداهم من البلداء معدومي الضمير فيصدق عليهم خلاف ما تقدم ذكره ، لأنه لا يوجد في كافة أنحاء الجمهورية من يطاولهم في إلحاق الأذى والضرر: فالقاضي يستطيع إطالة النظر في القضية أو ليّ عنق الحقيقة، وبإمكان المحامي تحقيق الفائدة الشخصية من الدعاوى الظالمة، كما أن باستطاعة التاجر نهب ثرواتنا وابتلاعها، خلاصة القول إن كافة الأشخاص الذين تضطرنا الظروف للتعامل معهم يمكنهم إلحاق الأذى بنا بأي شكل من الأشكال ، لكن ليس من بينها جميعًا سلْب الحياة مع التحرر من غلّ الخوف من رادع أو عقاب، الأطباء وحدهم هم الذين يستطيعون قتلنا دون خوف أو عناء لأنهم لا يستلّون من الغمد سيفًا آخر سوى الروشتة ، وجرائمهم لا يتم اكتشافها لأنها تتوارى على الفور تحت الأرض ويهال عليها التراب.. عندما كنت من اللحم وليس من الزجاج ،كحالي الآن ،أذكر أنه اجتمع مريضان عند طبيب من أولئك الأطباء الحمقى، ولما انتهى الطبيب من فحص الأول صَرَفَه من العيادة ليتفرغ للثاني. وبعد أربعة أيام دخل المريض الأول – مصادفة – الصيدلية المعنية بصرف روشتة المريض الثاني فسأل الصيدلي عن حال زميله وعن الدواء الموصوف له. عندما أخبره الصيدلي أن الروشتة بالوصفة التي سيتناولها ذلك المريض في اليوم التالي موجودة عنده طلب منه إطلاعه عليها، وبعد أن قرأها ووجد فيها الدواء نفسه الموصوف له قال : يعجبني كل ما جاء في هذه الوصْفة ماعدا الجملة الأخيرة التي تنبه إلى "ضرورة تناوله مبكرًا" [١٥] دون مراعاة منها لبرودة الجو في مثل هذا الوقت.

لمثل هذه الأشياء وغيرها مما يذكره عن المهن والحرف كان يتبعه الكثيرون دون إيذائه أو تركه يلتقط الأنفاس من كثرة الأسئلة. أما الصبيان فكان

---

(١٤) السِّفْر الرابع (XXXVIII,I) ، والفقرات الواردة منه في النص مكتوبة باللغة اللاتينية. (المترجم)

(١٥) لجأ الكاتب هنا إلى التورية للإعراب عن سخريته• فالعبارة في النص الأصلي لها معنيان: قريب (الوارد في الترجمة) وهو غير مراد ، أما المعنى البعيد المقصود فهو "غسل العجز في الصباح الباكر". (المترجم)

يتكفل بهم حارسه . سأله رجل عما يفعله للتخلص من الغيرة فأوصاه بالتالى :

– نم، لأنك ستكون مماثلاً لمَنْ تغار منه طيلة الوقت الذى تقضيه فى النوم .

وفى أحد الأيام مرّ عليه قاضٍ على رأس لجنة مكونة من اثنين من الأعوان فى طريقهم للتحقيق فى جريمة وقد تجمع حولهم خلْق كثير فسأل من يكون هؤلاء وعندما أخبروه قال:

– أراهن أن ذلك القاضى يحمل فى عبّه حيّات وفى وسطه مسدسات وفى يديه صواعِق لتدمير كل ما تصل إليه أيادى لجنته. ما زلت أذكر قاضياً صديقاً لى عرضت عليه قضيةجنائية فأصدر فيها حكماً قاسياً مبالغاً فيه لا يتناسب مع حجم الجريمة، ولما سألته عن الداعى لذلك الحكم الجائر قال إنه وضع فى اعتباره الاستئناف الذى سيلجأ إليه المتهمون ومن ثمّ فقد راعى إمداد زملائه فى محكمة الاستئناف بهامش كبير يسمح لهم بإظهار الشفقة والرحمة من خلال تخفيف العقوبة والنزول بها إلى الحد المناسب. عندما أخبرنى بهذا رددت عليه قائلاً: لقد كان من الأفضل توقيع العقوبة المستحقة فى البداية لتوفر على المتهمين عناء إجراءات الاستئناف ولكى تنفى عن نفسك شبهة التخبط والظلم.

كان يتبعه ويحرص على سماعه ضمن اللُّمة الكبيرة من الناس زميل دراسة له مرتدياً ملابس الخريجين من الجامعة، عندما سمع المزججٌ أحد الأشخاص ينادى على هذا الزميل– الذى لم يوفق فى الحصول على الإجازة العالية ولا حتى المتوسطة– بحامل الليسانس اتجه نحوه قائلاً:

– لُذْ بالفرار، أيها الإ شبين، حتى لا يكتشف الرهبان فكّاكو الأسرى فقدانك للشهادة فيصادروك عندئذ كما يصادرون العقارات والمنقولات التى ليس لها صاحب.

رد عليه الصديق بقوله:

– لا داعى للسخرية، أيها المزجّج، فأنت أول من يعلم أننى رجل المعارف والآداب السامقة العميقة.

ردّ عليه المزجّج:

– حقاً إنها كذلك بالنسبة لك: سامقة لأنها تمر من فوقك و لا تبلغ لها رِكاباً، وعميقة لأنك لا تستطيع الوصول إلى باطنها.

اقترب ذات مرة من محل للخياطة فوجد صاحبه جالساً وهو يضع إحدى يديه على الأخرى فقال له:

– لاشك أنك، يا سيدى المعلّم، على جادّة طريق الخلاص والنجاة .

– وكيف ترى ذلك؟ سأله الخياط .

– بما أنك لا تجد ما تفعله فلن تواتيك الفرصة للكذب.

ثم أضاف قائلا :

– بائس ذلك الخياط الذي لا يكذب ، لاسيما فى المواسم والأعياد . وهناك شيء آخر غريب حِرْت فى تفسيره: أننا لا نكاد نجد من بين العاملين بهذه المهنة واحداً يخرج من تحت يديه ثوباً مضبوطاً متْقن الصنعة ، فى حين أن معظمهم قد درج على حياكة الثياب المفعمة بالذنوب والأخطاء.

وعن صانعى الأحذية كان يقول إنهم لا يصنعون – طبقًا لادعائهم–حذاءً واحداً معيبا: لو جاء ضيقًا يقولون لصاحبه هذه هى "الموضة" أو أنك بعد المشى فيه ساعتين فقط سيصبح مثل شباشب الحلّفا، وإذا جاء واسعًا يقولون إنه يجب أن يكون هكذا حتى لا يصيب القدمين بأذى .

من بين مريدى المزجّج كان يوجد فتى ألمعى يعمل فى مصلحة إقليمية للوثائق، وكان هذا الفتى يلاحقه دائماً بالأسئلة والاستفسارات كما كان يخبره بما يحدث فى المدينة أولا بأول . أخبره ذات مرة بما يلى:

– الليلة الماضية توفى فى السجن بنك (موظف) [١٦] كان محكومًا عليه بالإعدام شنقاً.

(١٦) كلمة Banco لها معنيان فى الإسبانية : بنك (مصْرِف)، ومقعد . والتلاعب بمدلولى الكلمة هو مصدر الفكاهة فى الجملة التالية [قبل أن يجلس ...] . (المترجم)

رد عليه المزجج قائلاً:

- أحسن صُنعاً بإسراعه فى الموت قبل أن يجلس فوقه الجلاّد.

وعلى رصيف "سان فرانثيسكو" مرّ على مجموعة تجار من "جنوة" فنادى عليه واحد منهم:

- تعالَ ، يا سيدى المزجّج، لتحكى لنا "حكاية" (١٧)

- لا أريد ، لكى لا تحولونى إلى جنوة.

وعندما رأى صاحبة حانوت تمشى فى الشارع وأمامها ابنة لها غاية فى الدمامة ، لكنها مزينة بكمية ضخمة من الحلى واللآلئ قال للأم:

- فعلت خيراً بإحاطتها بالأحجار الكريمة وعدم إظهار شيء منها حتى تتمكن من المشى فى الَشارع .

وعن بائعى الحلوى كان يقول إنهم يلعبون منذ سنوات لعبة التضعيف دون رادع يردعهم: فهم يبيعون- على هواهم- القطعة التى تساوى فلْسين بأربعة، والتى تساوى أربعة بثمانية، والتى لا يزيد سعرها عن ثمانية بنصف ريال.

أما عن سيئات البهلوانات فقد أحصى منها الكثير. وعلى سبيل المثال كان يقول: إنهم صعاليك أفّاقون، يتعاملون بفحش واستهجان مع التصاوير المقدسة حينما يعرضونها بشكل غير لائق لاستجداء الضحكات، وإنهم يعبئون جميع صور العهد القديم والجديد فى جوال مزرى ويجلسون فوقه داخل الحانات والمواخير، كما كان يختم كلامه عنهم قائلاً: إنه سيكون فى غاية السرور لو استطاع أحد نفيهم من المملكة.

مرّ إلى جواره ذات يوم ممثل كوميدى مرتدياً ملابس أمير فقال:

- أذكر أننى رأيت هذا الرجلِ داخل المسرح مرتدياً فرْوة خروف ووجهه ملطخ بالدقيق، ورغم هذا فهو يقسم - بعيداً عن خشبة المسرح- بأغلظ الأيمان على أنه كريم الأصل ، شريف النسب .

---

(١٧) كلمة Cuento فى النص لها معنيان: حكاية، ومليون . وقد تلاعب الكاتب بمدلولى الكلمة بهدف التعريض بتفريغ إسبانيا - فى عصره - من رؤوس الأموال الضخمة وتحويلها إلى المدن الإيطالية خاصة مدينة "جنوة". (المترجم)

– وما وجه الغرابة فى ذلك! – ردّ أحد الموجودين–، أنا أعرف عدداً لا بأس به من ممثلى الكوميديا الذين ينحدرون من أصول عريقة.

– هذا صحيح – رد المزجج– لكن العمل المسرحى لا يحتاج إلى عراقة الأصل وشرف النسب قدر حاجته إلى رجال ظرفاء، طلقاء اللسان، حاضرى البديهة، وأضيف قائلاً : إنهم يكسبون لقمة العيش بعرق جبينهم، ويؤدون عملاً صعباً يتطلب ذاكرة قوية وتفرغًا تامًا وتنقلاً مستمراً– مثل الغجر– وعزيمة صلبة لتحمل الأرق والسُهاد من أجل إضفاء البهجة والحبور على الآخرين، هذا لأن استمرارهم بالمهنة مرهون بمتعة الغير وسعادته. وعلاوة على ما نقدم فإنهم لا يخدعون أحداً بعملهم لأنهم يعرضون بضاعتهم فى الميدان العام وعلى رءوس الأشهاد. أما مديرو (أصحاب) الفرق المسرحية فإنهم يقومون بأعمال خارقة ويبذلون جهداً مضاعفًا لتحقيق أكبرِ عائد ممكن حتى لا تتكاثر عليهم الديون فى نهاية الموسم ويصبحون عرضة للإفلاس والتلظى بنيران الدعاوى القضائية. خلاصة القول إن الفرق المسرحية لاغنى عنها فى الجمهورية، شأنها فى ذلك شأن المتنزهات والغابات والأحْراج والمناظر الخلابة وكافة وسائل اللهو المباح والتسلية البريئة... أخبرنى أحد الأصدقاء عن رأيه فى الممثلة الكوميدية فقال إنها بمثابة مجموعة من النساء فى امرأة واحدة، فهى تتقمص شخصيات متعددة: تارة تصبح ملكة أو حورية أو إلهة، وتارة أخرى تصبح خادمة أو راعية؛ بل إنها تقوم أحياناً بأدوار الرجال فتصبح غلامًا أو صعلوكًا أو تابعاً...إلخ .

وعن مدربى المبارزة بالسيف كان يقول: إنهم أساتذة فى التدريب على فنّ لا يمت إلى أرض الواقع بصلة، وإنهم غير مبرئين من الغرور و الحمق عندما يتوهمون أنه بالإمكان اختزال حنْق الخصم واندفاعاته الغضوبة إلى حركات رياضية ونظريات واجبة الحدوث.

كان ينْفر بصفة خاصة من المولعين بصبغ لحاهم ويناصبهم العداء. فعندما شاهد لحية مجزّعة متعددة الألوان ، لسوء صباغتها، شبهها بمقلب القمامة . وقال لرجل

ذهبت الصبغة من على لحيته المدببة المهملة فأصبح نصفها أبيضَ والآخر أسودَ: تجنب ما استطعت الخصومة والشجار مع الغير حتى لا يصفك بأنك صِنْو للكذب والنفاق الظاهرين على لحيتك.

قصَّ ذات مرة ما جرى لفتاة مؤدبة مطيعة أحضر لها أبواها عريساً أشيبَ طاعناً فى السنّ فلم تشأ مخالفتهما ووافقت عليه. وفى الليلة السابقة ليوم الزواج لم يذهب العريس للاستحمام فى نهر الأردن - كما تدعى العجائز [١٨] - بل لجأ إلى صبغ لحيته بمحلول مكثف جعلها تبدو كالحِراب السوداء . عندما شاهدته الفتاة قبيل عقد القران خطرت ببالها فكرة تخلصها من ربقة هذا الزواج، ومن ثمّ فقد أنكرت الرجل وقالت لوالديها إنها لا تريد شخصاً مغايراً للشخص الذى قدماه لها. أخبراها أن الرجل الماثل أمامها هو نفسه الذى عاينته من قبل ووافقت عليه. أشيبَ برأيها وأحضرت شهوداً اعترفوا بأن الرجل الذى شاهدوه من قبل كان أشيبَ ذا مهابة، لكن الواقف أمامهم الآن لا توجد فى لحيته شعرة واحدة بيضاء، وفوْر قولهم هذا تعالى الصياح: خدعة، خِدعة، أمسكوا المخادع . ارتعدت فرائص المصبوغ وأطلق ساقيه للريح كاللص المطارد.

ولم يكن بغضه للهوانم المتصنعات يقل عن كِراهيته لأصحاب اللّحى المصبوغة . كان يقول أشياء كثيرة ومدهشة عن ثقوب طرحهن وتصنعهن وتزلفهن وترددهن، وعن بؤسهن الشديد وفقرهن المدقع. كما كان يستثيره كلامهن الرقيع، وحساسية معداتهن ورهافتها المفرطة، ودوار رءوسهن، وأخيراً قلة فائدتهن وعدم جدواهن.

توجّه إليه- ذات مرة - أحد أفراد بطانته قائلاً :

- لقد خُضت فى كثير من المهن لكنك لم تذكر إلى الآن شيئًا عن وظيفة كاتب العدْل مع أن هناك الكثير مما يمكن قوله عن القائمين بها.

ردّ المزجج:

- رغم أننى من الزجاج فلست من الهشاشة إلى الحدّ الذى يجرفنى فيه تيار العامة المخدوعين فى معظم الأحيان. فبمثل الدندنة التى يستهلّ بها

(١٨) من الاعتقادات السائدة فى ذلك الوقت أن مياه نهر الأردن تعيد الشباب وتضفى الصحة والحيوية على الأجساد التى أوهنها الكبر . (المترجم)

المغنّون ألحانهم يبدأ هُواة القيل والقال مُوشّح الاغتياب بالتشكيك في نزاهة كاتب العدل والشرطى وأعوان العدالة الآخرين، علماً بأن مهنة الكتبة لو لم تكن موجودة لتوارت الحقيقة عن الأنظار- مهانة وخزياً- ولما قامت لها فى العالم قائمة، ورغم أن الكتاب المقدس قد كرّم هذه الفئة في محكم أسفاره حين قال: "مصائر البشر وأقدارهم فى يد الرب الذى أمدّ الكاتب منهم بقبس من نزاهته وشرفه" [١٩]، فكاتب العدل لا غنى عنه لعموم الأمة، إذ لا يمكن للقاضى النهوض بمسئولياته فى غيابه. ولخطورة هذه الوظيفة وأهميتها لزم أن يكون القائم بها حراً، لاعبداً ولا ابناً لعبد، وأن يكون نسبه شرعيًا ومعلومًا، فلا يصح أن يكون مشكوكًا فى نسبه أو من سلالة منحطّة. إن الكتبة يقطعون على أنفسهم العهد-حتى دون التلفّظ به- بمراعاة الأمانة وعدم استغلال مهنتهم لتحقيق المنافع الشخصية: إذ لا تدفعهم الصداقة أو العداوة لجلب الخير لهذا أو لإلحاق الأذى بذاك ، لأن ضميرهم المسيحى الحيّ هو الرقيب والموجه . فإذا كانت المهنة تتطلب مواصفات وخصالاً على هذا القدر من الجودة، فبأى حق تلوك الألسن سيرة أكثر من عشرين ألف كاتب عدل فى إسبانيا، وتصورهم بمخالب الشر فى مملكة إبليس وبتلبّس الشياطين لهم ؟! أنا لا أريد تصديق هذه الافتراءات، ولا ينبغى لغيرى تصديقها، ولا يسعنى فى النهاية إلا الاعتراف بشدة حاجة الجمهوريات المنظمة والدول المتقدمة لأمثالهم.. صحيح أنهم يتمتعون بامتيازات وحقوق زائدة عن الحد ، لكنهم- فى المقابل- هدف لاتهامات وشائعات لا حدود لها أيضاً.

وعن رجال الشرطة قال إن طبيعة عملهم هى المسئولة عن كثرة من يناصبونهم العداء: فهم إما يتولون القبض عليك ، أو انتزاع الأموال والمنقولات من بيتك ، أو تحديد إقامتك وتشديد الرقابة المستمرة عليك مع الأكل والشرب على حسابك. ولا يتورع الناس أيضًا عن وصْم وكلاء العدالة ونوّابها بالتهاون والجهل ، وتشبيههم

---

(١٩) السفر الخامس (X) من الكتاب المقدس. وقد وردت العبارة فى النص الأصلى باللغة اللاتينية . (المترجم)

بالأطباء الذين لا يتنازلون عن أجرهم- مُقدمًا - سواء شُفى المريض أو ساءت حالته (٢٠).

سأله واحد من بطانته عن أفضل أرضٍ فى نظره، فقال: الأرض المبكرة الممتنة. أضاف السائل عندئذ:

- ما إلى هذا قصدت، بل المفاضلة بين بلد الوليد ومدريد.

- أفضل ما فى مدريد طرفاها، وما فى بلد الوليد وسطها- قال .

- مازلت فى حاجة إلى مزيد من الإيضاح- رد السائل.

- طرفا مدريد: سماؤها وأرضها، ووسط بلد الوليد: سحبها والبقعة الموحِلة تحتها.

وعندما سمع ذات مرة رجلاً يشتكى لآخر سقوط زوجته فريسة للمرض فور مجيئها للعيش معه فى بلد الوليد، قال:

- قد يكون ما حدث لها سببه الغيرة من أرض بلد الوليد، وفى هذه الحالة كان الأحْرى بالأرض ابتلاع ضرتها فى جوفها.

وعن عازفى الموسيقى وسعاة البريد الذين يسيرون على أقدامهم كان يقول إن طموحاتهم محدودة وأحلامهم قصيرة: فمنتهى أمل السُعاة يتمثل فى تزويدهم بالخيل لأداء مهمتهم، بينما يبلغ الآخرون مرادهم ويحققون ما يصبون إليه بالعزف أمام الملك .

وعن السيدات اللاتى يعُرفن بجليسات الملكات والأميرات Cortesanas كان يقول: إن لديهن من المجاملة والمؤانسة Corteses ما يفوق بكثير سلامة نواياهن Sanas (٢١).

---

(٢٠) دفاع ثريانتس عن كاتب العدل ورجال الشرطة ووكلاء العدالة تفوح منه رائحة التهكم والسخرية، وهناك كتّاب آخرون يلجأون إلى السخرية بهذه الطريقة وعلى رأسهم يأتى "كيبيدو". (المترجم)

(٢١) ويمكن أن يتغير معنى الجملة بالكامل لو أخذنا بالمدلول الثانى لكلمة Cortesanas أى البغايا، وعندئذ ستصبح الترجمة كالتالي: وعن السيدات اللاتى يعرفن بالبغايا كان يقول: إن لديهن من اللطف والحنان ما يفوق بكثير سلامة الأبدان . (المترجم)

كان فى إحدى الكنائس ذات مرة ودخلها البعض حاملين عجوزاً ميتًا للصلاة عليه، وبعد لحظات دخل آخرون بطفل صغير لتعميده، ثم لحق بهم فريق ثالث بصحبة امرأة لعقد قرانها، فقال معلّقًا: إن دور العبادة أشبه بساحات الوغى، فيها يقضى العجائز نحبهم وينتصر الأطفال وتقام الاحتفالات للنساء كقادة الحرب المظفرين.

وفى إحدى المرات وقف زنبور على رقبته فلم يقوَ على هشّه حتى لا يحطم نفسه، لكنه كان يتوجع من لدغاته، وعندئذ سأله أحد الموجودين: كيف تشعر بلدغاته وأنت من الزجاج؟ فرد عليه قائلاً: لابد أن هذا الزنبور ينتمى لفصيلة المغتابين وهواة القيل والقال، وألسنة هؤلاء ومناقيرهم تستطيع الفتْك بأبدان من البرونز، فما بالك إذا كانت من الزجاج !

مرّ على حلقته رجل دين سمين جداً فقال أحد الظرفاء فيها:

– أبونا لا يقوى على الحركة من شدة الهزال.

غضب المزجج ورد بانفعال:

– لا تنسوا ما أوصانا به الروح القُدُس فى قوله: "لا تمسوا أوليائى بسوء، ولا تصيبوا أنبيائى بأذى" .

ثم علَت نبرة انفعاله وهو يضيف: لو فتشتم فى قائمة القديسين العريضة التى صدّقت عليها الكنيسة فى العقود الأخيرة واعترفت فيها بصلاح هؤلاء وقدسيتهم لن تجدوا من بينهم واحداً يسبق اسمه لقب وزير أو قائد أو كونت أو دوق أو ماركيز، بل "فراى" (fray) أى: الأخ الراهب، فهذا "فراى دييجو" وذاك "فراى خاثينتو" والثالث "فراى رايموندو" ... إلخ، أى إنهم جميعًا رهبان ورجال دين، فالأديان للسماء بمثابة البساتين، وأفضل ما فى الأخيرة من ثمار يوضع– عادة– على مائدة الرحمن.

كان يقول إن ألسنة الوُشاة والمغتابين مثل أجنحة الصقور: تُضعضع ريش الطيور المجاورة لها ، وتوهن قدرتها على الطيران.

وعن أصحاب أو كار القمار والمقامرين اللصوص تحدث بالعجيب من الأشياء ، ومنها قوله: إن أصحاب أوكار القمار يخِلُّون دائماً بواجباتهم ويتعدون حدودهم، فهم لا

يقنعون بالرسوم التى يحصلونها على كل لاعب ، بل يتآمرون مع بعض الأشخاص مقابل اقتسام الغنيمة معهم. وكان يثنى [٢٢] على صبر اللص المقامر الذى يظل الليلة بطولها يلعب ويخسر، ولأنه ذو طبيعة شيطانية حادة لا يفكُ وِثاق فمه بكلمة عندما يهمُّ منافسه بترك اللعب، بل يتمرغ فى التراب متوجعًا كأنه خرّ صريعًا فى وادى الظلمات، كما كان يمتدح [٢٣] ضمائر بعض أصحاب أوكار القمار الذين يسمحون- عن عمد – بممارسة كافة الألعاب المشروعة وغير المشروعة لكى تمتلئ خزائنهم فى النهاية بالمال الحرام.

خلاصة القول إنه لو لم يكن يصرخ بأعلى صوته مستغيثًا إذا لمسه أحد أو اقترب منه، ويعتمد فى طعامه على قائمة محدودة، وفى شرابه على طريقة غير معهودة، ويحرص على النوم صيفاً فى العراء، وشتاءً فى مخازن القش... إلى ما غير ذلك من أمارات الجنون التى أشرنا إليها آنفًا، لعَدَّه كل من سمع آراءه السديدة وتعليقاته الحصيفة الرشيدة من أعقل العقلاء فى العالم .

استمر مرضه هذا سنتين أو ما يزيد عنهما بقليل، ذلك لأن رجل دين من أخوية (رهبانية) "سان خيرونيمو" كان يتمتع بعلم لدُنِّى وموهبة خاصة فى جعل البُكم يفهمون ويتحدثون بطريقة معينة ، وفى العلاج من الجنون [٢٤] أخذته الشفقة بالمزجج فحمله إلى مقر الأخوية وتمكن من علاجه وإعادته إلى سيرته الأولى: صحةً وعقلاً. وبعد تأكد الراهب من شفائه ألبسه زىّ المحامين وأشار عليه بالعودة إلى العاصمة حيث يمكن أن يمارس مهنته ويسطع نجمه مثلما أبان فيها من قبل – حال سقَمَه – عن أمارات حكمته واتزانه.

امتثل للمشورة ، وبعد تغيير لقبه من "روداخا إلى رويدا " عاد إلى العاصمة فعرفه الصبيان فور رؤيته، لكنهم لم يجرؤوا – بسبب الملابس الجديدة التى

(٢٣،٢٢) استخدم الكاتب كلمتى "الثناء والمدح "فى موقف يدعو للذم بقصد التهكم والسخرية .(المترجم)

(٢٤) طبقا لـ "ألونسو كورتيس" فهذا الراهب ليس شخصية خيالية بل حقيقية، ويدعى "فراى بدرو بونثى دى ليون". (المترجم)

كان يرتديها – على معابثته أو توجيه الأسئلة إليه ، بل ظلوا يتبعونه قائلين لبعضهم :

– أليس هذا هو المجنون المزجج؟ لاشك أنه هو. إنه يبدو سليمًا معافى، لكن ربما لم تتغير حالته رغم اختلاف ملابسه. لماذا لا نسأله شيئاً حتى نبدد شكوكنا ونخرج من حيرتنا؟

كل هذا كان يسمعه دارس القانون وحامل إجازته العالية وهو صامت، ولذا كان يمشي أكثر خجلاً وتشوّشاً عن ذي قبل.

ذاع الخبر في المدينة على لسان الصبية، وقبل أن يصل إلى الساحة الخارجية لمجلس الشورى الملكي كان يسير خلفه ما يزيد عن مائتي شخص من مختلف الأعمار والمهن، وفي ظل هذه الصُحْبَة التي تفوق لُمّة أستاذ الجامعة عدداً وصل إلى السّاحة، وعندما رآها تحدق به من كل جانب رفع صوته قائلاً :

– أيها السادة: كنتم تعرفونني بحامل الإجازة العالية المزجج، أما الآن فأنا المحامي "رويداً" . لا يحدث شيء في هذا العالم إلا بإرادة الله، وقد قضت مشيئته أن أفقد عقلي إثر نكبة تعرضت لها، لكن الله شملني برحمته ولطفه وردّه إلى ثانية، كنتم تسمعون مني– كما تقولون– مأثورات وتعليقات لمّاحة حال جنوني، ولن يختلف الحال لو لجأتم إليّ بعد استرداد رشدي . أنا – يا سادة – خريج جامعة شلمنقة، وقد درست فيها القانون وبرعت فيه رغم فقري ورقّة حالي، وأهّلتني مواهبي وكفاءتي– بعيداً عن المجاملة– على أن أكون الثاني على دفعتي لأن المركز الأول يحتله دائمًا– كما تعلمون – واحد من أصحاب النفوذ والجاه، وها أنذا قد أتيت إلى بحر العاصمة الخضمّ لأكسب لقمة العيش من ممارسة المحاماة، وإذا لم تتركوني وشأني لكي أتفرغ لمهام عملي تكونون كمن أصدر حكمه عليّ بالموت جوعاً... أتوسل إليكم وأستحلفكم بكل عزيز لديكم ألا يتحول اتباعكم لي إلى مطاردة لأنني سأحرم بهذا الشكل وأنا عاقل مما سبق وتوصلت إليه وأنا مجنون: ألا وهو الحصول على المتطلبات الضرورية للحياة. ما اعتدتم

توجيهه إليّ من أسئلة فى الميادين وعلى قارعة الطريق اسألوه لى الآن فى بيتى، وسترون أن الذى كان يردّ عليكم – بداهة ودون تفكير – بإجابات ممتازة سيقدر على الإجابة بأحسن منها من خلال الرويّة وإعمال الفكر .

سمعه الجميع ولم يتركه سوى البعض . اتجه للإقامة فى أحد الخانات وبصحبته عدد أقل ممن تبعوه فى البداية .

خرج اليوم التالى ليتكرر معه ما حدث فى اليوم السابق، ألقى خطبة أخرى على الجموع ولم تفده بشىء. وبهذا الشكل لم يكسب شيئاً ذا بال يسدد ولو جانباً من نفقاته، ولما وجد نفسه على وشك الموت جوعاً قرر مغادرة العاصمة والرحيل إلى "فلاندس" ، لعله يستطيع فيها الحصول بقوة ساعديه على ما لم يفلح فى بلوغه بعلمه الواسع وعبقريته الفذة •

وعندما جاوز بوابة العاصمة التفت وراءه وقال:

– تباً لك، أيتها العاصمة: تحققين الأحلام اللا محدودة للمتجاسرين الطامعين وتجتثين من الجذور آمال القانعين المنكسرين، تكفلين بسخاء اللصوص المحتالين عديمى الحياء وتقتلين– جوعًا وكَمَداً – الفطناء المخلصين الخجولين.

ألقى بهذه الكلمات ثم ذهب إلى " فلاندس" حيث أنهى الحياة– التى أراد أن يخلدها فى البداية بالعلم والأدب– شاكي السلاح إلى جوار صديقه العزيز "بالديبيّا" ، ولمآثره الحربية فى ساحات الوغى خلدت ذكراه بعد موته كجندى باسل شجاع لا تعوزه الحصافة و الفطنة.

* * *

نـــــداء الـــدم

فى ليلة من ليالى الصيف الحارة كان عائداً من نُزهة على نهر طليطلة رجل عجوز من أوساط الناس بصحبة عائلته المكوّنة من الزوجة وابن صغير وابنة شابة فى السادسة عشرة من عمرها ، فضلاً عن الخادمة. كانت الليلة صافية ، والساعة تقترب من الحادية عشرة ، والطريق خالياً، والخطوات بطيئة حتى لا يضيع سدى رصيد الاسترواح على شاطئ النهر أو فى الغوْطة الطليطلية.

لم يكن يخطر ببال الرجل الطيب- وهو عائد مع أسرته الشريفة - إمكانية حدوث أمر جلّل فى ظل الأمان الذى تنعم به المدينة وتكفله عيون الشرطة اليقظة ووداعة السكان ولين عريكتهم. ولأن غالبية المصائب تأتى - عادة - من حيث لا تحتسب، فقد نزلت به واحدة أطاحت باستجمامه وأمدته بسبب كافٍ للبكاء سنين عديدة.

فى تلك المدينة كان يوجد شاب يناهز الثانية والعشرين من العمر، أعانه الثراء الفاحش والدم النبيل والميول المنحرفة والحرية الزائدة و البطانة الفاسدة على ارتكاب الأفعال الطائشة الماجنة التى تتنافى مع أخلاقيات نسيجه الاجتماعى؛ ولذا استحق عن جدارة لقب المستهتر الوقح الذى أُلصق به.

من سوء حظ الرجل أنه كان يصعد المنحدر الذى يهبط منه ذلك الشاب [وسنكتفى هنا - احتراماً لشخصه - بتسميته "رودلفو" ، دون إماطة اللثام عن اسمه الحقيقى] مصحوباً بأربعة فتيان من أصدقائه المستهترين والسكارى مثله.

التقى الجمعان: الذئاب والحملان، وفى تصرف وقح ، هجم الذئاب الملثمون وأنعموا النظر فى وجه الزوجة والابنة والخادمة . هاج العجوز وماج ، مقبحاً سلوكهم المشين . ردوا عليه بإيماءات بذيئة، ولم يتطور الأمر إلى أبعد من ذلك لأنهم مضوا فى طريقهم مواصلين السير. لكن الجمال الطاغى لوجه الابنة - التى سنطلق عليها، بعد إذنكم، ليوكاديا- كان قد انطبع فى ذاكرة "رودلفو" وأيقظ فيه رغبة عارمة للاستمتاع بها مهما كان الثمن . لم يكد يخبر أصدقاءه بما يعتمل فى صدره حتى أتاه قرارهم الفورى بالعودة لاختطافها إرضاءً له: فالأغنياء المتحررون يجدون دائماً من

يُسبغ رداء الشرعية على نزواتهم المُحَرَّمَة ويكيل الثناء لرغباتهم الأثيمة. وهكذا انبثق الهاجس المأفون وتم الإفصاح عنه و الموافقة عليه واتُّخذ بشأنه القرار فيما لا يزيد – تقريباً – عن طرفة عين. غطوا وجوههم واستلوا سيوفهم ثم عادوا أدراجهم ليلحقوا بالأسرة التى لم تنته بعد من شكر ربها على تخليصها من براثن الفئة الضالة.

هجم "رودلفو" على "ليوكاديا" وحملها بين ذراعيه وفر هارباً. لم تقوَ الفتاة على الدفاع عن نفسها وألجم الفزع لسانها، ولأن هوْل الصدمة كان قد أدخلها فى غيبوبة تامة فلم تشاهد خاطفها ولا المكان الذى حملها إليه. زعق أبوها بما يشبه الجؤار، صرخت أمها مولولة، بكى أُخَيُّها بحرقة، لطمت الخادمة وجهها وشقَّت جيبها ، لكن الصياح لم يسمع ولا الصراخ، ولم يسترحم البكاء، ولم يفد فى شىء لطم الخدود ولا شق الجيوب؛ لأنه انطمر كله تحت وحشة المكان وبعده، هدأة الليل وصمته، قسوة قلوب المجرمين .

لقد أسفر اللقاء فى النهاية عن حزن فريق وسعادة آخر، فها هو "رودلفو" يعدو آمناً إلى بيته دون أية عوائق، وها هما الوالدان يصلان إلى دارهما منهكين يائسين: لا يبصران دون عينىّ الابنة وكانتا لهما الضياء، وحيدين بعد فقدهما للصحبة اللطيفة والمؤانسة الودودة، حائرين لا يدريان ماذا يفعلان: أيبلغان الشرطة بأمر نكبتهما ؟ أم أنهما لو فعلا يكونان مثل الذى يتولى بنفسه نشر فضيحته والتغنى بعاره ؟ ! .. لم يكونا من علية القوم حتى يسمع صوتهما، بل من الشرفاء الفقراء قصيرى الباع والحيلة، ولم يكونا يعرفان ممن يشكوان سوى من قلّة الحظ وسوئه . أما " رودلفو" – الماكر، واسع الحيلة – فقد قام بتغطية عينى "ليوكاديا" بمنديل فور حملها وإحساسه بإغماءتها ، وذلك حتى لا ترى – إن أفاقت – الشوارع التى تجتازها أو البيت الذى ستدخله . ولأن الآباء المتهاونين لا يعترضون على استقلالية أبنائهم، فقد كانت لرودلفو حجرة مستقلة ومعزولة عن بيت والده، ولذا لم يشاهده أحد عندما دخلها وألقى فيها بحمولته، وقبل أن تفيق "ليوكاديا" من غيبوبتها كان قد قضى وطره، هذا لأن الأجساد الفتية لا تحفل عند إشباع رغباتها المتأججة المحرمة بانعدام وسائل الراحة أو سلبية الطرف الآخر . لقد فقد نور بصيرته ليسلب فى الظلام شرف الفتاة،

ولأن الشهوات الحسية وقتية وتفتر – غالباً – فور إشباعها فقد أراد " رودلفو" بعد قضاء وطره التخلص من الفتاة بإلقائها فى عرْض الطريق وهى فاقدة للوعى .

عندما همّ بإخراج فكرته إلى حيز التنفيذ أحسّ أنها ثابت إلى رشدها وأخذت تغمغم:

– أين أنا ؟ وما هذه الدياجير والغياهب التى تلفنى ؟ أأنا فى فردوس العفّة أم فى جحيم الآثام ؟ ياليسوع ! من الذى عبث بملابسى ؟ هل أصابنى الضرّ على هذا السرير حيث أستلقى ؟ أين أنتِ يا أمى الحبيبة ، أتسمعيننى ؟ وأنت يا أبى العزيز، هل يصلك ندائى ؟ ياَ لنكبتى وشقوتى ! لا أسمع لكما جوابًا ، لا بد أن أعدائى قد تمكنوا منى .سأكون محظوظة إذا استمرت هذه الظلمة إلى الأبد ولم تصافح عيناى ثانية ضوء النهار، وإذا تحول هذا المكان– أيًا كان – إلى مقبرة توارى شرفى المسلوب : فالعار المجهول أهون بكثير من شرف تلوكه الألسن . ما زلت أذكر أننى كنت منذ قليل فى صحبة والدىّ وأنهم اختطفونى، يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا . آه، يا هذا، يا من ترافقنى هنا – كائناً من كنت – [كانت قد أمسكت فى تلك اللحظة بيد رودلفو] لو فى قلبك ذرة من رحمة أرجوك أن تقتلنى ما دمت قد سلبتنى أعزّ ما أملك . أزهِق روحى الآن، إذ لا ينبغى لمِن فقدت شرفها الاحتفاظ بها، فلربما تخفف الشفقة التى ستنتابك حينما تقدم على قتلى بعضًا من طوفان القسوة الذى استعنت به على إذلالى، وبهذا الشكل تكون قد جمعت فى آن واحد بين صفتين متناقضتين: القسوة والرحمة .

أغرقت شكوى الفتاة المكلومة "رودلفو" فى بحر من الحيرة، ولأنه فتى، قليل الخبرة، لم يدر ماذا يصنع أو يقول ، وظل ساكناً صامتًا مما زاد الهلع فى نفس "ليوكاديا" فصارت تتحسسه بكلتا يديها لتعرف إذا كان شبحًا أو طائفًا من الجن . وبما أنها كانت تتحسس جسد إنسان وما زالت تتذكر القوة التى انتزعها بها من والديها فقد أيقنت من المصيبة التى حلّت بها، وعندما أدركت هذه الحقيقة المرّة استأنفت حديثها الذى قطعه النحيب والأنين:

– أيها الفتى المتهور– كما توحى بذلك أفعالك– اعلم أن بإمكانى الصفح عما ألحقته بى من أذى بشرط أن تسدل عليه سِتْر الصمت ولا تحدث به أحداً

مثلما غطيته من قبل بسترْ الظلمة. لاشك أن ما أطلبه منك يعتبر غاية فى التفاهة مقارنة بالنكبة الفادحة التى ألمّت بى، وبرغم هذا فأنا أعدُّه عظيماً لأنه أقصى ما يمكننى طلبه منك وما يمكنك الوفاء به إن شئت . أنا لم أر وجهك، ولا أود رؤيته لأنه سيذكرنى بجرحى الغائر ويجعل صورة قاتلى تنطبع فى مخيلتى. سأشكو بثّى وحزنى إلى الله، ولا أريد أن تصل شكواى إلى أسماع العالم الذى يحكم على الحادثات بظواهرها ليرسخها- ظالمة - في الأذهان. لا أدرى كيف ينطلق لساني- رغم حداثة سنّي- بمثل هذه الأشياء التى تتطلب تجارب عديدة وسنين مديدة، ربما لأن الألم العميق إما أن يؤدى إلى فك وثاقِ الألسن الواهنة الذليلة أو إلى عقدها فهى - أى الألسن - إما أن تنشط مبالغة فى بثّ شكواها حتى يصدقها الآخرون، أو تصبح ملجمة تجتر أوجاع ضيمها عندما توقن أن أحداً لن يحرك ساكناً لرفعه عنها. وسواء فعلت هذا أو ذاك لا تظن أن مرور الأيام سيداوى جراحى، وإذا تمكنت من التعايشِ معها فمن منطلق التصور بأننى لست موجودة فى هذا العالم ، أو أننى ولدت فيه لأكون تعيسة منكوبة. أتوسل إليك كى تطلق سراحى . اتركنى فى الشارع أو إلى جوار الكنيسة الكبيرة لأننى أعرف كيف أعود منها إلى منزلى، ولا تحاول اقتفاء أثرى لتعرف مسكنى، ولا تسألنى من أكون أو ابنة من ، عدْنى بهذا، وإذا كنت تخشى الحديث حتى لا أستدل عليك بعد ذلك من صوتك، فاعلم أننى لم أسمع رجالاً من قبل سوى أبى والقسيس الذى يتلقى الاعترافات بالكنيسة، وبالتالى لا أستطيع التمييز بين أصواتهم .

لاذ "رودلفو" بالصمت ، وبدل أن يجيب قام باحتضانها قاصداً استمالتها وتأكيد عارها بمواقعتها ثانية، لكنها انتفضت كالمارد، وعلى خلاف ما توحى به سنوات عمرها الغضّ دافعت بشراسة عن نفسها مستخدمة اليدين والرجلين والأسنان واللسان الذى صرخ قائلاً:

- اعلم أيها الشاب الخائن المتحجر القلب - أياً كانت صفتك - أن ما سلبته منى هو ما استطعت أخذه من جذع مقطوع أو كتلة مُمدَّدَة دون حسّ أو

شعور، وأن انتصارك عليه لا يمجدك بل يخزيك ويحقرك. أما ما ترمى إليه الآن فالموت دونه لأنك لن تظفر به إلا على جثتى الهامدة . لقد دعستنى وأهلكتنى عندما كنت مسلوبة الإرادة فاقدة للوعى، أما الآن، وبعد استعادتى لقواى، فلا سبيل لانتصارك علىّ إلا إذا أزهقت روحى، إن استسلمت لك – حال يقظتى – لإشباع تلك النزوة البغيضة فمن حقك أن تتصور أن إغماءتى كانت مصطنعة حينما تجرأت وحطمتنى.

قاومت "ليوكاديا" بإصرار وحميّة فتراخت عندئذ عزيمة "رودلفو" وخفتت حدة الرغبة لديه، ذلك لأن الهجوم الذى شنّه لم يكن له من باعث سوى إشباع الشهوة المحتدمة التى لا تتمخض مطلقاً عن الحب الدائم الحقيقى، والشهوة حينما تزول، إذا لم يعقبها الندم فإنها– على الأقل– لا تجد مساندة إلا من إرادة فاترة. وهكذا ، وبعد أن بردت حرارة الرغبة انسحب "رودلفو" متعباً وترك " ليوكاديا" فى السرير، ودون أن يتفوه بكلمة أغلق باب الحجرة بالمفتاح ثم انصرف قاصداً زملاءه للتشاور معهم فيما ينبغى عمله للتخلص من ورطته.

عندما أحست " ليوكاديا" أنها أصبحت بمفردها حبيسة، نهضت من السرير وطافت بالحجرة تتحسس الحوائط بيديها لعلها تجد باباً تخرج منه أو نافذة تقفز منها . وجدت الباب، لكنه كان محكم الإغلاق، عثرت بعد ذلك على نافذة استطاعت فتحها فتسلل عندئذ ضوء القمر صافيًا، شاهدت على ضوئه الوضّاح طنافس دمشقية تزين أرضية الحجرة وجدرانها، رأت السرير مذهبًا وعليه فرش وثيرة غالية تليق بأمير لا برجل عادى، عدّت الكراسى والمناضد ثم أنعمت النظر فى جدار الباب، ورغم أنها شاهدت بعض اللوحات معلقة عليه إلا إنها لم تستطع تمييز الرسومات والمناظر الموجودة بها، عندما وجدت النافذة مجصّصة ومغطاة بشبكة معدنية غليظة، ووجدت الحديقة التى شاهدتها من خلال النافذة محاطة بسورٍ عالٍ أدركت على الفور استحالة تنفيذ فكرة الهرب التى راودتها... ومن الأثاث الفاخر والفرش الغالية والتحف الثمينة التى شاهدتها فى الغرفة تأكد لها أن صاحبها شخصية مهمة يتمتع بثراء عريض ... رأت على المنضدة القريبة من النافذة صليبًا صغيراً من الفضة الخالصة فأخذته وخبأته فى كمّ قميصها، لا بغرض السرقة أو الصلاة، لكن كعلامة وأثر من المكان

المحبوسة فيه . قامت بعد ذلك بغلق النافذة ثم عادت إلى السرير فى انتظار ما ستسفر عنه الواقعة التى بدأت بداية محزنة .

لم يكد يمر– حسب تقديرها – نصف ساعة حتى أحست بفتح الباب ودخول شخص ما، اقترب منها ذلك الشخص ، ودون النطق بكلمة عصب عينيها بمنديل واقتادها من ذراعها إلى خارج الغرفة التى عاد لغلقها من جديد . لم يكن هذا الشخص سوى "رودلفو" الذى عدل عن فكرة مقابلة زملائه للتشاور معهم حتى لا يكونوا شهوداً على ما اقترفه من إثم فى حق الفتاة، ولذا فقد عاد من منتصف الطريق – نادماً ومتأثراً ببكائها – وفى نيته الإسراع بتنفيذ طلبها (تَرْكها إلى جوار الكنيسة الكبيرة) قبل أن يطلع النهار ويضطره ضوءه إلى الإبقاء عليها حبيسة حتى مجىء الليلة التالية، لا سيما أنه لم يكن يرغب فى تكرار محاولة مراودتها عن نفسها أو إعطائها الفرصة للتعرف عليه .اقتادها إلى ميدان البلدية، وهناك أخبرها – بصوت مستعار ولكْنة ما بين برتغالية وإسبانية – بإمكانية العودة إلى منزلها دون خوف من اقتفاء أحد أثرها، وقبل أن تهم بخلع العصابة من على عينيها كان قد اختفى فى أحد الأركان البعيدة عن مجال رؤيتها .

عندما أحست أنها وحيدة أزاحت العصابة من على عينيها وتعرفت على المكان ، نظرت فى جميع الاتجاهات ولم تشاهد أحداً، ومع هذا فقد حملتها الريبة على التوقف من حين لآخر للنظر خلفها قبل معاودة السير . وبهدف تضليل الجاسوس المحتمل دخلت بوابة إحدى الدور المفتوحة ثم خرجت منها لتنطلق صوب بيتها القريب حيث وجدت أبويها – ومعهما الخادمة – ساهرين وعلى وجوههم أمارات الذهول، ولم يخلعوا ثيابهم لينالوا قسطاً – ولو ضئيلاً – من الراحة .

عندما شاهدوها جروا نحوها فاتحين الأذرع، وبالدموع فى المآقى استقبلوها . طلبت من أبويها– وهى تنتفض رعباً– الانتحاء بها فى إحدى الغرف، ولما انفردا بها قصت عليهما تفاصيل نكبتها، وأخبرتهما بعدم تعرفها على الجانى. عددت لهما ما رأته على المسرح المفجع للأحداث: النافذة الكبيرة المسيجة والحديقة و السرير والمناضد والطنافس الدمشقية و اللوحات، ثم أخرجت الصليب الفضى المخبوء فى كمّها، وأمامه هطلت الدموع من جديد و اتجهوا إلى الرب بالصلاة ،طالبين القصاص

والانتقام المروّع من الجانى. قالت لهما: إنها وإن كانت لا تود معرفة شيء عن العابث الذى تحجر قلبه وفتك بها إلا أنه بإمكانها- إذا ارتأيا صواب ذلك- الاستدلال عليه بواسطة الصليب، وذلك بتسليمه- أى الصليب- لقسيس يختارانه ويطلبان منه تكليف بقية زملائه فى المدينة بالإعلان عنه من على منابر كنائسهم مع التنبيه بضرورة توجه الشخص الذى فقده لاستلامه من القسيس الفلانى، وعندما يتقدم صاحبه لاستلامه سيعرفان من هو وأين يقيم.

رد أبوها قائلاً :

- فكرتك جيدة يا بنتى، لكن لؤم الآخرين وسوء طويتهم يفسدانها ويقفان حجر عثرة فى طريق تحقيقها . لاشك أن الصليب شيء غير عادى وأن صاحبه سيكتشف على الفور ضياعه؛ لكنه سيدرك أن الفتاة التى كانت معه فى الغرفة هى التى أخذته، وعندما يعلم أنه وصل إلى يد أحد القساوسة سيتحرى بطريقة ما عن الشخص الذى أعطاه للقسيس دون الإفصاح عن هويته؛ ومن جهة أخرى فإنه لن يعجز عن تكليف زميل له باستلامه بدلاً منه بعد أن يعطيه أوصاف الصليب كاملة . وإذا تمت المسألة على هذا النحو سيختلط علينا الأمر ولن تتضح الحقيقة مطلقاً، ومن ثمّ أرى أنه من الأفضل الاحتفاظ بالصليب بمثابة شاهد على محنتك وبرهان دائم للقاضى العدْل (الرب) على حقك فى القصاص وإظهار الحقيقة. اعلمى، يا بنتى، أن أوقية من العار الظاهر توجع وتضر بأكثر من ربع "قفيز" [1] من الخزى المطمور. ومن هنا يمكنك العيش شريفة أمام الله والناس: فالعار الحقيقى يكمن فى اقتراف الإثم طواعية، بينما يكمن الشرف الحقيقى فى طهارة القلب ونقاء السريرة. يمكن للإنسان معصية الرب وإغضابه بالنية أو القول أو العمل أو بهذا كله ، وأنت لم تعصه بأىٍّ من الثلاثة، ولذلك أنت حقًا شريفة، ولا بد أن تعتبرى نفسك هكذا ، ومن جهتى فلن أنظر إليكِ إلا بعينىَّ الأب الحقيقى ، ولن أعاملك إلا من خلال هذا المنظور .

---

(١) القفيز: مكيال أندلسى يعادل ٦٠ رطلاً وزناً، وربع القفيز يسمى "فنيقة" وهى تعادل ١٨ رطلاً وزناً . (المترجم)

خفّف عنها والدها بتلك الكلمات الرزينة الحصيفة، وعانقتها أمها من جديد محاولة التسرية عنها. عادت "ليوكاديا" للبكاء والنحيب، ومن بعدها لزمت البيت لتعيش منزوية بلباسها المحتشم المتواضع تحت كنف أبويها وفى رعايتهما.

اكتشف "رُودلفو" اختفاء الصليب الفضىّ فور عودته، لكنه لم يحفل- لغناه - بضياعه ، ولكى لا يميط اللثام عن جرمه الشنيع، كما أن أبويه لم يسألاه عنه بعد ثلاثة أيام عند رحيله إلى إيطاليا لأنه كان قد سلّم الغرفة بمحتوياتها إلى وصيفة والدته.

كان "رودلفو" قد اتخذ، منذ أسابيع عديدة، قرار السفر إلى إيطاليا التى خدم بها والده من قبل والذى أقنعه بأن الرجال فى حاجة لإثبات رجولتهم الحقّة بعيداً عن الأوطان . ولهذا السبب- فضلاً عن أسباب أخرى - التقت رغبته مع رغبة والده الذى أعطاه صكوكًا بأموال وافرة لكى يصرفها من برشلونة وجنوة وروما ونابولى . رحل بصحبة زميلين من زملائه ، مدفوعاً بما سمعه من بعض الجنود عن وفرة الأطعمة وجودتها فى خانات فرنسا وإيطاليا ، وعن حياة الحرية والانطلاق التى يتمتع بها الجندى الإسبانى على طول الطريق . سافر وهو يحلم بالدجاج اللذيذ ولحم الخنزير المقدد الشهى والسجق الممتاز والحمام المحشو، إلى ما عدا ذلك من أصناف الطعام الأخرى التى يتذكرها الجنود ولا يملّون من المقارنة بين وفرتها وجودتها بتلك الأماكن وبين شحتها وسوئها فى الخانات والنزل الإسبانية غير المريحة. المهم أنه رحل فى النهاية وهو خالى الذهن تماماً، لا يكاد يذكر شيئاً عن فعلته مع "ليوكاديا" ، وكأنها لم تقع.

خلال تلك الفترة كانت "ليوكاديا" تعيش فى عزلة: لا تخالط أحداً ولا تغادر البيت حتى لا يشى ما على جبينها من كدر بمحنتها القاسية؛ لكن هذه العزلة الاختيارية سرعان ما أصبحت ضرورية حينما انتفخت بطنها وشعرت بتحرك الجنين داخل أحشائها. عادت إلى البكاء حينئذ ، ولم تفلح محاولات التسرية من الأم الطيبة فى الحدّ من زفراتها الحارقة ودموعها المريرة. مرت الأيام سِراعاً وحانت ساعة الولادة، فلم يجرؤوا على الاستعانة بالقابلة ولعبت الأم دورها لتخرِج إلى الوجود طفلاً جميلاً أبدع الخالق تصويره. وفى تكتم شديد حمله الجد إلى إحدى القرى ليتربى فيها، وبعد

مضى أربع سنوات أحضره إلى طليطلة مدعياً أنه ابن أخيه، وهكذا نشأ الصبى فى وسط لا تعوزه الفضيلة أو السّتر وإن كان مفتقراً إلى الغنى.

كان الطفل الذى أسموه "لويس" - على اسم جده - جميل الخلقة، هادئ الطباع، حاد الذكاء، وتوحى تصرفاته بأنه ابن أحد النبلاء، ولهذه المزايا استولى على قلب جدّيه اللذين أحبّاه حباً جمّاً، وأحسا أن المصيبة التى جرت لابنتهما قد تحولت إلى منّة عظيمة بهذا الحفيد. حينما كان يخرج معهما إلى الشارع كانت تنهال عليه عبارات المديح والثناء؛ فهذا يشيد بجماله، وذاك يثنى على الأم التى ولدته، وهؤلاء يمجدون الأب الذى أخرجه من صلبه، وأولئك يكيلون الثناء على الذى تعهده بالتربية والرعاية. ووسط هذا المديح ممن يعرفونهم أو لا يعرفونهم ترعرع الصبى وأكمل السابعة من العمر، وعندها كان يقرأ اللاتينية والإسبانية ويكتب بهما بخط رائع ومنسق؛ ذلك لأن جدّيْه كان يتوقان لجعله عالماً خلوقًا ما داما لن يستطيعا توريثه الغنى والجاه [وكأن العلم والفضيلة لا يبزّان ما عداهما من ثروات حتى لو كانت متمثلة فى الغنى والسلطان والجاه !] .

وذات يوم، بينما كان الصبى فى طريقه إلى بيت إحدى قريبات جدته ،حاملاً إليها رسالة ، مرّ بشارع تجرى به وقائع مسابقة للخيول. وقف ليشاهد، ولما كانت الفرْجة متعذرة حيث يقف فقد قرر الانتقال إلى مكان آخر تحسن فيه الرؤية؛ لكنه لم يكد يتقدم بضع خطوات حتى دهمه جواد من المشاركين فى المسابقة ، ولم يتمكن صاحبه من تفادى الاصطدام. تركه الجواد طريحًا على الأرض بين الحياة والموت، ورأسه يتفجر منها الدم. نزل رجل عجوز كان يشاهد المسابقة ، من على صهوة جواده واتجه بسرعة إلى الصبى وحمله بين ذراعيه ؛ ودون مراعاة منه لشيبته ولا لمكانته الرفيعة جرى راكضاً بالصبى نحو بيته، وفور دخوله أمر الخدم باستدعاء الجرّاح على عجل. كانت الأصوات قد تعالت بعد الحادثة معلنة أن الصبى المصدوم هو «لويسيكو» [٢] ابن أخى فلان، ولذلك فقد تَبِع الرجلَ العجوزَ الكثيرون وهم حزانى لما جرى للصبى الجميل. انتقل الصوت من فم إلى فم حتى وصل إلى الجدّيْن والأم

(٢) "لويسيكو" Luisico تصغير للاسم العلم "لويس". (المترجم)

المعتكفة، فما كان منهم إلا أن وثبوا من مكمنهم مسلوبى الرشد، يجرون خبالى لإدراك صبيِّهم العزيز. ولأن الرجل الذى أخذه كان من وجهاء المدينة المعروفين فلم يجدوا عنتاً فى الوصول إلى داره التى دلَّهم عليها كل من صادفوه فى الطريق.

طلب صاحبا البيت ممن ظناهما أبويه الكفّ عن البكاء وعدم رفع الصوت بالنواح لأن هذا ليس فى مصلحة الصبى. مارس الجراح الشهير عمله بكفاءة واقتدار، وأخبرهم بأن الجرح ليس مميتًا كما خشى فى البداية.وفى أثناء عمل الجراح ثاب "لويس" إلى رشده وتألقت أساريره عندما شاهد من يحسبهما عمه وعمته واللذين بادرا بسؤاله – باكيين – عن حاله وصحته. أخبرهما أنه بخير وإن كان يشعر بألم شديد فى رأسه وجسده كله. أمر الطبيب بعدم التحدث مع المريض وتركه ليستريح. امتثلوا لأوامره، واتجه الجد إلى صاحب البيت يشكره على حسن صنيعه ورقة قلبه. رد عليه الرجل قائلاً: إنه لا داعى للشكر لأنه عندما نظر إلى وجه الصبى المطروح على الأرض رأى فيه وجه ابنه الغائب الذى يحبه كثيراً، وعندئذ وجد نفسه مدفوعاً بقوة خفية لأخذه بين ذراعيه والهرولة به إلى بيته الذى سيمكث فيه حتى يتماثل للشفاء، ولن يغادره إلا محمّلاً بالهدايا. ويمثل قول الزوج تحدثت الزوجة – وهى سيدة نبيلة فاضلة – بكلام يفيض حرارة ووداً، واعدة الجريح بالمزيد من الهدايا والأعطيات.

أُعجب الجدّان بصدق مسيحية صاحبى البيت وكرم أخلاقهما؛ لكن الأم كانت أشد منهما تعجبًا ودهشة، ذلك لأنها بعد الاطمئنان على ابنها وزوال توترها أخذت تتفحص المكان فعثرت فيه على العديد من العلامات الواضحة التى تشير إلى أنه المكان الذى شهد نهاية شرفها وبداية محنتها. ومع أن الغرفة لم تكن مزينة بالطنافس الدمشقية إلا أنها أحست بالمكان ورأت النافذة المسيّجة التى أطلّت منها حينذاك على الحديقة، ولما كانت النافذة مغلقة لوجود الجريح بالحجرة فقد سألت من وجدته من الخدم عما إذا كانت تلك النافذة تفْضى إلى حديقة ما، وعندئذ أكدت لها الإجابة صدق حدسها. تعرفت أيضًا على السرير الذى قُبرت فيه، كما تعرفت على المنضدة التى أخذت من فوقها الصليب وكانت ما تزال قابعة فى مكانها السابق.

وأخيراً، أخرجتها من ظلمة الشك إلى نور اليقين الدرجات التى تفصل بين الغرفة والشارع وقامت بعدّها حينما أخرجها المعتدى معصوبة العينين. لقد قامت بعدّها الآن

وهى عائدة إلى بيتها – بعد تركها لابنها لحين استرداده لعافيته – ووجدتها مطابقة للرقم المختزن فى ذاكرتها .. روت كل هذا، وبالتفصيل، لوالدتها التى سارعت بالبحث والتقصى – فى حيطة وحذر – عن أبناء الرجل الذى تركت حفيدها عنده. عرفت أن لديه ابناً وحيداً يدعى "رودلفو" وأنه موجود فى إيطاليا . وعندما قامت بحساب مدة غيابه عن إسبانيا وجدتها تزيد عن عمر الحفيد (سبع سنوات) بالأشهر التسعة الخاصة بفترة الحمل .

روت الجدة لزوجها الحقائق كاملة، وبعد التشاور اتفقا مع الابنة على انتظار ما سيسفر عنه قضاء الله فى الجريح الذى تجاوز – بعد أسبوعين – مرحلة الخطر لكى ينهض بعد ثلاثين يومًا من الفراش . وخلال تلك المدة لم تنقطع أمه وجدته عن زيارته، ولم يتوقف سيل الهدايا المنهمر عليه من صاحبىّ البيت وكأنه ابن لهما. كانت "دونيا إستيفانيا" – صاحبة البيت – تقول لليوكاديا كل مرة تلتقى بها: إن الصبى يشبه كثيراً ابنها الموجود فى إيطاليا، وإنها حينما تنظر إليه يخيل لها أنها أمام صورة ابنها الغائب . عندما أخبرتها بهذا فى إحدى المرات، انتهزت ليوكاديا فرصة الانفراد بها وقصت عليها ما سبق واتفقت عليه مع والديها . قالت لها:

– سيدتى الكريمة، عندما تلقّى والداى خبر إصابة "لويس" انهار على كاهليهما حزن العالم بأكمله ، وتصوروا أن أبواب السماء قد أوصدت فى وجهيهما. إنهما يحبانه حبًا يفوق بكثير ما اعتاد أن يكنّه الآباء لفلذات أكبادهم، ولذا فقد أحسا ساعتها بفقدان نور عيونهما وذخيرة شيخوختهما. ولأن الله يقرن – حسبما يقال – الفرج بالشدة ويجعل فى العسر يسراً، فقد وجد الصبى اليسر فى هذه الدار، كما التقيت أنا فيها بذكريات لن تفارق مخيلتى مادمت على قيد الحياة. أنا، يا سيدتى، أصيلة نسيبة لأن أبوىّ كذلك، وقد ورثنا النبل والفضيلة كابراً عن كابر. صحيح أننا من متوسطى الحال والثروة؛ لكن أسلافنا استطاعوا، جيلاً بعد جيل، الحفاظ بتلك الثروة المتوسطة على كرامتهم وشرفهم فى أىّ مكان حلّوا به أو استقر بهم المقام فيه .

كانت "دونيا إستيفانيًا" تنصت باهتمام وإعجاب شديدين، غير مصدقة بإمكانية انطواء السنوات المعدودات – التى تقارب العشرين، كما حسبتها – على مثل هذا القدر

الكبير من الحصافة والحكمة. لم تقاطعها وانتظرت لحين فراغها من الحديث الذى تناول عبث الابن وتفاصيل عملية الاختطاف وعصب العينين والحَمْل قسراً إلى تلك الحجرة التى استدلت عليها من بعض العلامات المميزة. وكدليل على صدقها أخرجت من بين طيات ملابسها الصليب وراحت تناجيه بالكلمات الآتية:

– بما أنك كنت شاهداً، يا إلهى، على اغتصابه لى عنوة، إليك أعهد بالقضاء فى أمرى على النحو الذى ترضاه. من فوق هذه المنضدة أخذتك، لا لطلب الانتقام بل لأذكِّرك على الدوام بمحنتى وللتوسل إليك كى تلهمنى الصبر والسلوان عليها.

"هذا الصبى الذى أوليتموه، يا سيدتى، العناية الفائقة وشملتموه بعظيم العطف لبس إلا حفيدكم الحقيقى. لقد شاءت إرادة السماء أن يحدث له ما حدث لكى تحملوه إلى بيتكم ويتسنى لى زيارته لأجد فيه: إن لم يكن العلاج الناجع لنكبتى، فعلى الأقل ما يعيننى على تحملها" .

قالت هذا وهى تضم الصليب إلى صدرها ثم سقطت بين ذراعىّ "دونيا إستيفانيا" مغشياً عليها. قامت صاحبة الدار – لأنها امرأة نبيلة من طبعها الرحمة والشفقة، على خلاف ذويها من الرجال الذين يتسمون بالقسوة والغلظة – بإمالة رأسها على وجه "ليوكاديا" وذرفت فوقه دموعاً كانت من الكثرة لدرجة أنها لم تكن بحاجة لصبّ مياه أخرى عليه حتى تفيق من الغيبوبة التى راحت فيها.

دخل عليهما صاحب الدار وبيده "لويسيكو" ، وعندما شاهد بكاء زوجته وإغماءة "ليوكاديا" بادر بالسؤال عن السبب. عانق الصبى أمه (التى يحسبها ابنة عمه) كما عانق جدته (التى يظنها محسِنته) وسأل هو الآخر عن الداعى لكل ذلك.

– أمور جليلة يا سيدى – أجابت إستيفانيا على زوجها – ،خلاصة فحواها تتمثل فى إخبارك بأن المغشى عليها هى كنتك وأن الصبى الذى تمسكه بيدك هو حفيدك. أطلعتنى على هذه الحقيقة تلك الفتاة وأكدتها لى ببراهين متعددة مثلما يؤكدها وجه هذا الصبى الذى رأينا فيه سوياً وجه "رودلفو".

– إذا لم تفصحى أكثر سيظل الأمر مستغلقاً علىّ – قال لها الزوج .

في تلك اللحظة ثابت "ليوكاديا" إلى رشدها وبدت - وهى معانقة للصليب - كأنها قد تحولت إلى بحر من الدموع. زادت حيرة الرجل، فما كان من زوجته إلا أن صحبته خارج الغرفة وقصت عليه ما سبق وأخبرتها به "ليوكاديا" . شاءت العناية الإلهية ألا ينكر الرجل شيئًا مما سمعه ، بل آمن به كأن إثباته قد تم أمامه على يد جمع من الشهود العدول .. واسى "ليوكاديا" وضمّها إلى صدره ثم قبّل الصبى . قام فى اليوم نفسه بالكتابة لابنه فى نابولى طالبًا منه التعجيل بالعودة لأنه بصدد عقد قرانه على فتاة رائعة الجمال لا تقل عنه جاها ولا ثروة .ارتأى الرجل وزوجته أنه من الأفضل الإبقاء على "ليوكاديا" وابنها فى بيتهما انتظاراً لقدوم الابن .عندما أبلغا والديها بذلك لم يمانعا واستبشرا بالخاتمة السعيدة للمحنة الطويلة التى عاشتها ابنتهما، ولم يفتهما التوجه للخالق بالشكر العميم على فضله ونعمائه .

فور وصول الرسالة إلى نابولى تهيأ "رودلفو" للسفر تدفعه الرغبة فى رؤية العروس الجميلة التى حدثه عنها والده . وبعد يومين فقط كان بصحبة زميليه على متن واحدة من السفن الأربع المتجهة إلى إسبانيا . وفى ظل ظروف ملاحية مواتية رست السفن بعد اثنى عشر يومًا فى ميناء برشلونة، وعن طريق البرّ استأنفوا الرحلة إلى طليطلة فوصلوها بعد سبعة أيام . تهادى "رودلفو" إلى بيت أسرته بقدّه الرشيق المزدان بالملابس الزاهية الملونة .

ابتهج الوالدان لرؤيته سليما مُعافى، وتملكت الدهشة "ليوكاديا" (التى كانت ترمقه من المخبأ الذى تتوارى فيه تنفيذاً للخطة التى دبرتها "دونيا إستيفانيًا") من جمال طلعته . حاول زميلاه الاستئذان للعودة إلى بيتيهما، لكن "دونيا إستيفانيا" أصرّت - لشيء فى صدرها - على بقائهما لبعض الوقت . كان الليل قد أرخى سدوله عندما وصل "رودلفو" إيذاناً بتقديم العشاء، وفى أثناء إعداده نادت الأم على صاحبى ابنها (لاعتقادها أنهما كانا ضمن الأربعة الذين رافقوه ليلة اختطاف ليوكاديا) وانتحت بهما جانبًا. توسلت إليهما بأن يعملا الذاكرة جيداً ليحدثاها بما جرى فى تلك الليلة البعيدة لأن المسألة فى غاية الأهمية وتتعلق بشرف فتاة بريئة وسمعة أهلها .طمأنتهما بأنه لن يلحقهما أى أذى لو أماطا اللثام عن واقعة الاختطاف التى شاركا فيها "رودلفو" مع زميلين آخرين، كماحثتهما على قول الحقيقة ببيان ما للاعتراف من فضل وأهمية فى حياة المسيحىّ. سألتهما إذا كان "رودلفو" قد قام

بحمل الفتاة عنْوة إلى بيته بينما تولى أربعتهم مهمة التصدى بالسيوف لأبويها ومنعهما من طلب النجدة.

أزال اعترافهما كافة الشكوك، ومن ثمّ فقد عزمت على المضى قدمًا فى خطتها: قبل جلوسهم إلى مائدة العشاء نادت على ابنها، وعندما انفردت به فى إحدى الغرف قدمت له صورة فتاة وقالت له:

- يطيب لى فتح شهيتك للعشاء بصورة الزوجة التى اخترناها لك: أنا وأبوك، هذه هى صورتها الحقيقية، وضع فى اعتبارك أن ما ينقصها من جمال تقابله زيادة فى الفضل: فهى نبيلة، حصيفة وغنية. تأكد من مناسبتها لك.

تأمل "رودلفو" الصورة ثم قال:

- بما أن المصورين يجتهدون- عادة - فى تحسين وجوه من يقومون بتصويرهم، فلاشك عندى أن أصل هذه الصورة هو و القبح سواء. إذا كان، يا أمى العزيزة، من واجب الأبناء طاعة آبائهم فى كل ما يأمرون به، فينبغى على الآباء عدم تكليفهم بما لا يطيقون ، وأن يقدموا لهم ما يسعدهم ولا يكدرهم، وإذا كانت عقدة الزواج لا تنفصم إلا بالموت، فمن البديهى أن تكون أربطتها متساوية ومصنوعة من الخامة نفسها، لا شك أن الزوج يسعد بالزوجة التى تتمتع بالفضيلة والنبالة و الحصافة و الغنى، أما أن يبهج القبح عين الزوج فهذا شيء مستحيل . صحيح أننى ما زلت فى شرخ الشباب، لكننى أدرك أن المرء يقبل مسئولية الزواج مدفوعاً بوازعين: وازع الامتثال لأوامر الدين المقدسة ، ولداعى المتعة المستحقة والبهجة المنشودة، ومن المستحيل أن يستمد المرء المتعة و البهجة من الوجه القبيح الماثل أمامه على مدار الساعة (سواء كان فى غرف البيت أو فى السرير أو على مائدة الطعام) . أستحلفك بحياتك، يا أماه، أن تقدمى لى رفيقة تسلينى ولا تحزننى حتى نتمكن سوياً من حمل نير الزواج الذى وضعته السماء فوق عنقينا و السير به فى الطريق المستقيم دون الانحراف به يميناً أو يساراً.إذا كانت تلك الفتاة نبيلة وحصيفة و غنية -كما تقولين - فلن تعدم من يقدر

فيها هذه الأشياء و يتخذها زوجة، لكن هذه الصفات ليست منتهى أملي:
يوجد من يبحث عن النبالة، ومن يفتش عن الحصافة، ومن يستهويه المال،
ومن يأسره الجمال، وأنا من الصنف الأخير. لا أبحث عن النبالة لأنني -
بفضل الله - ورثتها عن آبائي وأجدادي، ولا عن المال لأن غنى أبويَّ قد
كفاني شر الخوف من الفقر، ومن الحصافة يكفيني ألا تكون حمقاء أو غبية
أو بلهاء .. غايتي الجمال ، والجمال أريد، لا مهر معه سوى العفة والأخلاق
الحميدة والعادات الحسنة، لو كانت زوجتي تتحلى بهذه الخصال سأعيش
سعيداً لأرعى والديَّ في شيخوختهما ولأحمد ربي و أشكر فضله.

أثلج صدر الأم كلام ابنها لأنه يسير في الاتجاه الذي خططت له، أخبرته عندئذ
أنها ستحاول تزويجه طبقًا لرغبته، كما طالبته بالخروج من حالة الهم والكدر التي
استولت عليه لأنه من السهل التملص من الوعود التي منوا بها صاحبة الصورة.

شكرها "رودلفو" ، ولما كان الخدم قد انتهوا من إعداد المائدة للعشاء فقد اتجها إليها
للانضمام إلى الآخرين.

أخذ الأب مكانه في صدارة المائدة وإلى يمينه جلست الأم، وعلى الجانب الآخر
جلس "رودلفو" وزميلاه. بعد استوائهم جميعاً على مقاعدهم قالت "دونيا إستيفانيا"
في نبرة توحي بنسيانها لأمر هام:

- ويْحًا لي، لقد نسيت ضيفتي! أخبر "دونيا ليوكاديا" - مُوَجِّهة كلامها
لواحد من الخدم - أن بإمكانها الانضمام إلينا دونما خجل لأن الموجودين
بالقاعة هم أولادي ومن يتولون خدمتهم.

كان الجو بارداً، ولذلك حضرت " ليوكاديا" مرتدية ثوباً سميكاً طويلاً من المخمل
الأسود الذي تتناثر فوقه- كالمطر - أزرار من الذهب و اللؤلؤ، وحول جيدها وخصرها
يلتف عقد وحزام ما سيَّان. أما شعورها الضاربة للشقرة فقد كانت لها بمثابة الزينة
والطرحة، كانت مصففة في جدائل تعلوها حبّات الماس المتلألئة التي يعشي بريقها
عيون الناظرين إليها، جاءت تخطر، ممسكة بيد ابنها، وأمامها فتاتان تحمل كل منهما
شمعداناً فضياً عليه شمعة كبيرة، وضوء الشمعتين ينعكس على قدّها الممشوق
ونضارتها اليانعة .

نهضوا جميعاً، إكباراً لها وإجلالاً، كأنهم أمام ملاك هبط عليهم فجأة من السماء . وقفوا مشدوهين يتطلعون إليها، ولم يسعف أحدهم لسانه ولو بكلمة . انحنت أمام كل منهم انحناءة تنم عن تربية سامية وملاحة منقطعة النظير . أخذتها "دونيا إستيفانيا" من يدها وأجلستها إلى جوارها فى مواجهة رودلفو، وجلس الصبى قريباً من جده .

عندما شاهد رودلفو عن قرب جمال ليوكاديا الفتّان قال لنفسه: "لو أن التى اختارتها أمى زوجة لى تملك نصف هذا الجمال لكنت أسعد إنسان فى الوجود . عونك يا إلهى، ما هذا الذى أراه ! أملاك من البشر هذا الذى أشاهد ؟" .

فى الوقت الذى أخذت فيه صورة "ليوكاديا" الجميلة تنفذ من عينى " رودلفو" لتستقر فى قلبه، كانت صورته هو الآخر تتبوأ مكانها من نفس "ليوكاديا" التى كانت تسترق النظر إليه أثناء تقديم العشاء ، لكن مخيلتها سرعان ما عادت بها إلى الوراء لتذكرها بما فعله بها ، وعندئذ بدأت تخفت بداخلها الآمال وطغى عليها الشعور بأن حظها القليل سيقف حجر عثرة فى طريق تحقيق "دونيا إستيفانيا" لوعودها بتزويجها له .أحست أنها قريبة جداً من أن تكون محظوظة أو تعيسة إلى الأبد . تناوشتها جملة منِ الأحاسيس المتناقضة والأفكارِ المتباينة التى أطبقت على قلبها فامتقع لونها فجأة وتفصّد جبينها بالعرق ثم داهمها دوار أجبرها على إمالة رأسها على "دونيا إستيفانيا" التى تلقفتها – فى غير قليل من الارتباك – بين ذراعيها .

قفز الجميع من أماكنهم مفزوعين وهبّوا لنجدتها، لكن "رودلفو" كان أشدهم تأثراً بما حدث لأنه عثر وسقط على الأرض مرتين نتيجة تسرعه فى الوصول إليها، لم تفلح التهوية ولا الماء المصبوب فى إعادتها لرشدها، وزاد الطين بلّة بتوقف نبضها وسكون صدرها مما جعلهم يتصورون أنها فارقت الحياة . لم يتريث الخدم وأطلقوا الصرخات الموجعة معلنين نبأ وفاتها، وصلت الصرخات المريرة إلى أسماع والديها المختبئين – بصحبة قسيس الكنيسة الكبيرة – فى أحد أركان البيت تنفيذاً لتعليمات "دونيا إستيفانيا" فخرجوا من مكمنهم مفسدين بذلك تدبير صاحبة الدار .

تقدمهم القسيس ليرى ما إذا كان بالطريحة أَرْضًا بِقيةٌ من حياة تسمح لها بالاعتراف بذنوبها كى يعفيها منها، لكنه وجد جسدين ممدّدين بدلاً من واحد : ذلك لأن "رودلفو" – الذى أفسحت له أمه مكاناً حتى يقترب ممن ستصبح زوجته – كان

قد سقط هو الآخر مغشياً عليه ورأسه فوق صدر "ليوكاديا" . حين أدركت الأم فقدانه للحس كانت على وشك فقدان اتزانها أيضاً لو لم تلاحظ على الفور دبيب الوعى العائد إلى جسده . نهض "رودلفو" خزيان ؛ لأن رد فعله الغريب قد تكفل بفضح مشاعره على الملأ .

قالت له أمه التى أحست بما يعتمل فى صدره:

– هوّن عليك يا بنى، وادخر انفعالاتك لما ستسمعه منى الآن وكنت أخفيه ولن أفصح عنه إلا فى اللحظة المناسبة: إن الممددة بين ذراعى هى زوجتك الحقيقية، وأقول حقيقية لأنها التى اخترناها لك؛ أما صاحبة الصورة فهى مزيفة .

أزاحت كلمة "زوجة" التى سمعها "رودلفو" كافة العوائق التى تُمليها العفة وهيبة المكان ووقاره، ومدفوعاً بحبه العارم وأشواقه المتأججة رفع رأس "ليوكاديا" ووضع شفتيه على فيها، كأنه ينتظر خروج روحها لتستقر فى فؤاده .. عندما تعاظمت دموع الحاضرين وتعالت صرخاتهم المتألمة، وازداد تناقص شعور جدائل أم "ليوكاديا" وذقن أبيها من جراء النتف، وهتكت صيحات ابنها أستار السماء، ثابت الممددة إلى رشدها، وبعودة الوعى إليها عادت البهجة لتخفق بجناحيها فى الصدور .

وجدت "ليوكاديا" نفسها بين ذراعى "رودلفو" فحاولت التملص منهما بما فَضُل لها من طاقة، وعندئذ قال لها:

– لا تُراعى يامليكة فؤادى، ولا داعى للتخلص ممن يحملك فى سويداء قلبه .

حين سمعت هذا منه تبددت مخاوفها ولم تجد "دونيا إستيفانيّا" داعياً للاستمرار فى خطتها حتى النهاية، ومن ثمّ فقد بادرت بطلب عقد قرانهما من القسيس .وإلى هنا يقف قلمى المتواضع عاجزاً عن وصف السعادة التى حلّقت فوق رؤوس الحاضرين، والمشاعر الحارة المتبادلة بين أهل العروسين ، وكلمات الشكر والثناء التى وجهها والدا "ليوكاديا" إلى الخالق ثم إلى أبوى العريس أو الأحضان التى تلقاها الأخير منهما ، والدهشة التى استولت على زميلى "رودلفو" وهما يشاهدان بأعينهما – على غير المتوقع – إتمام عقد قران صاحبهما ليلة وصولهم على الفتاة التى ساعداه

من قبل (طبقًا لما روته " دونيا إستيفانيًا " لهما) فى اختطافها . لم يكن "رودلفو" أقل منهما دهشة ، ولكى يتأكد من هذه الحقيقة ويطمئن قلبه لما سبق وآمن به أبواه طلب من "ليوكاديا" أن تخبره بعلامة من العلامات ، فقالت له :

– حين أفقت من غيبوبتى قبل بضع سنوات وجدت نفسى بين ذراعيك مسلوبة الشرف، ومع هذا فقد غفرت لك ما تقدم لأننى استرددت شرفى ثانية حينما أفقت بين ذراعيك أيضاً من إغماءتى الحالية . وإذا لم تكن هذه العلامة كافية، فما رأيك فى الصليب الفضى الذى لم يأخذه من غرفتك سواى، إنه الآن فى حيازة والدتك . أنت قطعة منى وستظل كذلك طوال السنوات الباقية من عمرى .

تعانقا من جديد، ومن جديد انهالت عليهما آلاف التبريكات .

قُدِّم العشاء، وبصحبته حضر الموسيقيون المدعوون سلفًا . فى وجه الابن رأى "رودلفو" صورته، كأنه ينظر فى مرآة . ومن شدة الفرح بكى أجداده الأربعة، واهتزت أعطاف البيت بهجة وحبوراً . ومع أن الليل كان يطير بأجنحته السوداء الرشيقة إلا أنه بدا لرودلفو وكأنه يمشى على عكازين: لقد كانت رغبته عارمة فى الانفراد بزوجته .

وبما أن لكل شيء نهاية، فقد حانت أخيراً الساعة المأمولة: انصرف الجميع طلباً للنوم وبقيت الدار غارقة فى الصمت . صمت ينافى حقيقة هذه الحكاية، ولا يسمح به الأبناء الكثيرون ولا السلالة الشريفة التى خلّفاها فى طليطلة ..وإلى يومنا هذا ما زال هذان الزوجان المحظوظان ينعمان بالدفء فى عشهما السعيد وبعدد وافر من الأبناء والأحفاد، والفضل فى كل ما تقدم يرجع إلى عناية السماء ، ثم إلى الدم الذى رآه مراقاً على الأرض المسيحىّ المِقْدام والكريم الأصيل: جدّ "لويسيكو" .

***

غيور (إكستريما دورا) (١)

---

(١) يقع إقليم "إكستريما دورا" Extremadura فى غرب إسبانيا ، وهو متاخم للبرتغال. (المترجم)

منذ أعوام ليست بالكثيرة غادر موطنه بإقليم "إكستريما دورا" رجل شريف من أوساط الناس ينتمى لأبوين نبيلين . ومثل أول بشر شهدته الخليقة أخذ يضرب فى الأرض على غير هدى مبدداً زهرةعمره وماله فى الطواف بأنحاء إسبانيا وإيطاليا وفلاندس . وفى نهاية تطوافه المستمر الذى أتى على ثروته بالكامل، وبعد موت والديه جاء إلى زهرة المدائن "إشبيلية" قاصداً الاستقرار فيها وتمضية البقية الباقية من حياته . ولما وجد نفسه مفتقراً إلى المال ولا يتمتع بعدد وافر من الأصدقاء هداه تفكيره- مثل غالبية الضائعين بتلك المدينة- إلى شدّ الرحال إلى العالم الجديد: ملجأ وملاذ اليائسين من الإسبان، ودار العفو عن المفلسين الذين تطاردهم الديون، ووثيقة البراءة للقتلة وعتاة المجرمين، وغطاء وستْر المحتالين فى فن اللعب ويطلق عليهم البعض خبراءً، ومرتع النساء المتحررات، والسراب الخادع للكثيرين والبلسم الشافى للقليلين .

ومن ميناء " قادس" ، وعلى متن إحدى سفنِ الأسطول المتجه إلى مملكة " بيرو" صعد الرجل حاملاً الزّاد وحشيّة من الحلْفاء.. تليت الصلوات إيذاناً بالرحيل، ووسط مظاهر البهجة المعتادة نشرت القلوع لتصافح الرياح اللدنة المواتية، وفى غضون ساعات قلائل توارت اليابسة وسدّت الأفق السهول المنبسطة العريضة لملك المياه: البحر المحيط (٢) .

مضى صاحبنا وهو مستغرق فى التفكير، يقلب فى ذاكرته الأخطار المتنوعة التى واجهها فى سنىّ ترحاله، ومنهاجه الخاطئ فى تدبير أموره، اقتنع بصواب القرار الذى اتخذه لتغيير مجرى حياته، وعاهد نفسه على التصرف بشكل مختلف حتى يحافظ على ما يمن به الله عليه من خيرات، وعلى الحد من تهالكه على النساء والاستسلام لغوايتهن، وفى أثناء تقليب "فيليب دى كاريثالس" [وهذا هو اسم ولقب صاحبنا: بطل الحكاية] لفكره واسترجاعه لشريط حياته المنصرمة وتخطيطه

(٢) البحر المحيط هو ما يعرف الآن بالمحيط الأطلنطى أو الأطلسى . (المترجم)

للمستقبل كانت سفن الأسطول تشق عباب الماء آمنة مطمئنة؛ لكن الريح سرعان ما نشطت من عقالها فأرجحت السفن بقوة وقلقلت المسافرين من أماكنهم. وهكذا وجد "كاريثالس" نفسه مضطراً إلى قطع حواره الذاتي والانشغال بما يتأتى فى الرحلة التى تمت بخير وسلام إلى أن ألقت السفن بمراسيها – دون أية معوقات – فى ميناء قرطاجنة (٣) .. ولتفادى الدخول فى التفاصيل التى لا تعنينا فى هذه الحكاية نقول إن "كاريثالس" كان يبلغ الثمانية والأربعين من العمر حين وصل إلى العالم الجديد، وإنه فى العشرين عاماً التى قضاها فيه قد جمع – بفضل مهارته وحسن تدبيره – ما يزيد عن مائة وخمسين ألف "بيزو" من الفضة النقية المدموغة (٤) .

حين ألفى نفسه غنيًا واتته الرغبة – مثل غيره – فى العودة إلى الوطن، وبعد تحويل أمواله إلى سبائك من الذهب والفضة وقيامه بتسجيلها – تفادياً للمصادرة بعد ذلك – غادر مملكة بيرو فى طريقه إلى إسبانيا. نزل من ميناء "شلوقة" (San Lucar)، ثم اتجه إلى إشبيلية مثقلاً بالأموال والسنوات. ولما بحث عن أصدقائه ولم يجد منهم أحداً على قيد الحياة قرر الرحيل إلى مسقط رأسه فى "إكستريما دورا" رغم علمه بأن الموت لم يبق له على قريب فيها.. ومع اختلاف الأسباب، فإن الأفكار والهموم التى لازمته حين رحل فقيراً محتاجاً إلى العالم الجديد لم تنفكّ عنه لحظة بعد عودته، ذلك لأن المال– مثل الفقر المستديم– يعتبر حمولة ثقيلة لمَنْ لم يعتد امتلاكه وتصريفه فى أوجه الإنفاق العديدة، ولأن النّضار يجلب الهم والحذر مثلما يجلبهما الافتقار إليه. وإذا كانت الثروات المعقولة تشفى من الدّاءين المذكورين فإن الضخمة منها تزيدهما وتذكى أوارهما.

أخذ "كاريثالس" يتأمل سبائكه: لا من منطلق الحرص والافتتان– لأن سنوات الجندية الطويلةعلمته التبذير والاستخفاف بالمال– لكنه كان ينعم التفكير فيما عساه أن

---

(٣) أطلق المكتشفون الإسبان كثيراً من أعلامهم الجغرافية على مدن العالم الجديد، ومنها قرطاجنة التى كانت فى عصر ثربانتس إحدى المدن الكولومبية الهامة. (المترجم).

(٤) كان يوجد فى العالم الجديد موظفون إسبان يقومون بفحص ودمغ النقود المعدنية(المسكوكة من الذهب والفضة... إلخ). والمال الذى عاد به "كاريثالس" كان– طبقاً لآراء النقاد والمؤرخين– يمثل ثروة هائلة بمقاييس ذلك الزمان لأن المائة والخمسين ألف بيزو الفضية كانت تساوى مليوناً ومائتى ألف ريال، والنجار كان يتقاضى فى إشبيلية عام ١٦٠٣ م ثمانية ريالات مقابل عمله اليومى. (المترجم)

يصنع بها: أيتركها هكذا ويحتفظ بها فى البيت فتصبح بمثابة الطعم للصوص ، والموقظ لشهية الطامعين ؟ !

كانت قد ماتت بداخله الرغبة فى العودة إلى قلق الاشتغال بالتجارة لأن ما يملكه من ثروة يفيض عن تلبية حوائجه فى سنوات عمره الباقية، وكذا راودته فكرة التزكية عنها بحملها إلى موطنه لينفقها هناك ويمضى شيخوخته فى دعة واطمئنان ، متفرغاً - ما وسعه - لعبادة الرب ولأعمال البر لأنه قدّم لدنياه أكثر مما ينبغى .لم يسترح تماماً لهذا الخاطر لمعرفته أن إقليم "إكستريما دورا " من أشد الأقاليم فقراً، وأن سكانه فى غاية البؤس والشقاء، وإقامته بينهم ستجعل منه هدفًا لكل أنواع اللجاجة التى اعتاد أن يوليها الفقراء للأغنياء القريبين منهم، لا سيما إذا لم يكن ثمة ملاذ آخر يلجأون إليه بتعاستهم وشقائهم. تمنى أن يكون له وريث تؤول إليه ثروته بعد مماته، ومدفوعاً بهذه الأمنية كان يسارع بجس نبض قوته فيعتريه الإحساس بأنه ما زال بمقدوره تحمُّل تبِعات الزواج والنهوض بمسئولياته، كما كان يعتريه- فى الوقت نفسه- خوف كبير يفتّ فى عضده ويفكك أوصاله مثلما تفعل الريح بالضباب: لقد كان غيوراً بطبعه، بل أشد رجال العالم غيرة- حتى وهو أعزب- ولذا كانت توهنه الشكوك وتفزعه التخيلات من مجرد التفكير فى الزواج ، ولهذا السبب استقر رأيه فى النهاية على ضرورة التخلى عن الفكرة.

بعد ائتناسه بالرأى الأخير فى مسألة الزواج وقبل اتخاذه لآخر بشأن مستقبله شاء القدر أن ينظر إلى أعلى- أثناء مروره ذات يوم بأحد شوارع المدينة- ليشاهد فى إحدى الشرفات وجهاً مقمراً لفتاة تبدو فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشِرة من العمر. لم يقو "كاريثالس" الطيب على مقاومة الجمال الطاغى، واستسلم وهن سنواته المديدة لفتوة سنوات "ليونورا " القِصار. ودون أن يتروى دخل مع نفسه فى جملة من الحوارات :

- هذه فتاة جميلة، وحال بيتها لا ينمّ عن الغنى؛ إنها ما تزال فى مرحلة الصبا، وعمرها الغضّ لا يسمح بالشكوك و الأوهام .لو تزوجتها وأغلقت عليها بابى سأشكلها على هواى وأصنعها على عينى.أنا لست طاعناً فى السن حتى أفقد الأمل فى إنجاب ذرية ترثنى.لا يعنينى امتلاكها لمهر أو

افتقارها إليه لأن السماء قد كفتنى التفكير فى هذا أو ذاك، ومن جهة أخرى لا يجدر بالأغنياء مثلى طلب الثروات من وراء زيجاتهم ، بل البحث عن السكينة والمتعة فحسب: فالسكِينة والمتعة بين الأزواج تطيل الحياة بينما تقصفها المكدرات و الأحزان. قَضى الأمر: لا معاندة للقدر ولا مردّ لقضاء السماء .

وعلى مدى بضعة أيام أدار الحوار السابق مع نفسه مئات المرات، وفى نهايتها ذهب إلى أبوى "ليونورا" - وهما رغم فقرهما من الأشراف- وبعد تقديم نفسه وبيان وضعه المالى والاجتماعى طلب يد ابنتهما. أخبراه بحاجتهما إلى مهلة للتحقق من شخصه وصفته ولكى يتمكن هو الآخر من التثبت من سلامة ما يدعياه بشأن أصلهما النبيل. افترقا على وعدٍ باللقاء، وبعد إجراء التحريات اللازمة واتضاح مصداقية الطرفين أصبحت "ليونورا" زوجة لـ "كاريثالس" الذى أمهرها عشرين ألف " دوكادوس" . لم يكد يِصبح زوجًا حتى داهمته شتى صفوف الغيرة العمياء، أخذ- دونما سبب- يرتعد فرقًا وشرع فى اتخاذ كافة الاحتياطات التى لم تخطر له من قبل على بال، وأولها قراره بعدم السماح للخياط بأخذ مقاسات عروسه من أجل حياكة الكمّ الهائل من الأقمشة الفاخرة التى اشتراها لها. بحث عن امرأة فقيرة تشبه زوجته فى القدّ والطول، وعلى مقاسها حاك الخياط ثوباً، ولما جربته "ليونورا" ووجدته مضبوطاً عليها حيكت على منواله الملابس والفساتين الأخرى. كان أبواها فى غاية البهجة لاعتقادهما أن الحظ السعيد قد أتحفهما بصهر ممتاز، كما كانت الابنة شديدة الانبهار بالهدايا النفيسة والثيابِ الفاخرة: إذ لم يسبق لها أن ارتدت شيئًا يزيد عن تنّورة متواضعة وقميص من التفْتَاه.

ومن أمارات غيرة " فيليب" القاتلة إصراره على عدم الدخول بزوجته إلا بعد تجهيز المسكن المناسب لها، ومن أجل هذا قام بعمل الآتى: أنفق اثنى عشر ألف "دوكادوس" فى شراء بيت بأحد الأحياء الرئيسية، مزوداً بعين جارية وبحديقة مترعة بأشجار البرتقال. قام بعد ذلك بسدّ النوافذ- سواء الداخلية أو المطلّة على الشارع- وبناء حظيرة خلف باب البيت للبغلة ، وفوقها مخزن للقش والتبن وغرفة للحبشى الخصىّ المسنّ الذى سيتعهد الدابة بالرعاية، كما أحاط البيت بسور عالٍ لا

يسمح لمن يدخله برؤية شيء سوى صفحة السماء، وفى المنطقة المؤدية إلى الفناء أقام صينية خشبية دوّارة (٥) .

اشترى أثاثاً فاخراً يليق بعظيم لتزيين البيت (مثل السجاجيد والبُسُط والطنافس والكراسى والزرابىّ والوسائد..إلخ)، كما ابتاع- فضلاً عن جاريتين زنجيتين مجلوبتين حديثاً- أربع جوارى بيضاوات وكوى وجوههن بالنار.

تعاقد مع متعهد لإمداد البيت بما يحتاجه من مؤن واشترط عليه ألا يتجاوز الصينية الدوّارة التى سيترك عِندها ما يحضره .. شارك بجزء من ثروته فى عدد من المشروعات المضمونة التى تَدر عائداً سنويا، وأودع جزءاً آخر فى البنك، واحتفظ بالباقى للإنفاق على متطلباته المعيشية. استخرج مفتاحاً عمومياً لكافة أبواب البيت، وبعد قِيامِه بتخزين كمية ضخمة من السلع والمؤن الجافة تكفي سنة على الأقل، ذهب إلى حمويْه مطالباً بزوجته فأعطياها له – مهموميْن باكييْن – لأنهما يعرفان أن ابنتهما ستعيش فى بيت لا يختلف كثيراً عن المقبرة .لم تكن "ليونورا" الصغيرة مدركة لأبعاد ما هى مقبلة عليه، وهكذا فقد طلبت من أبويها – وهى تشاركهما البكاء – مباركتها، وبعد وداعهما اتجهت إلى بيت الزوجية، يدها فى يد زوجها ومحاطة بالجوارى والخادمات، وفور دخول البيت ألقى "كاريثالس" عليهن بتعليماته وتوصياته مكلفاً إياهن بحراسة زوجته ومنع أى فرد من عبور البوابة الداخلية حتى ولو كان العبد المسنّ المخصى، كما كانت تعليماته بهذا الخصوص واضحة وقاطعة بالنسبة للقهرمانة المتجهمة والخبيرة التى اتخذها مربية لزوجته وجعلها رئيسة على الجوارى والوصيفتين اللتين استأجرهما لتسلية "ليونورا" واختارهما من سنّها .

أبدى لهن استعداده لإغراقهن بالهدايا وتلبية طلباتهن جميعاً لتبديد إحساسهن بالعزلة، كما أخبرهن باستعداده لإخراجهن قبل بزوغ النهار – حتى لايراهن أحد – لسماع القدّاس أيام الأحد، عاهدته الجوارى والخادمات عندئذ على تنفيذ أوامره كلها عن طيب خاطر، دونما ضيق أو كدر . أما الزوجة الشابة فقد اكتفت بهزّ كتفيها والقول وهى مطرقة الرأس: إنها ستكون دائماً رهن إشارته وطوْع بنانه .

---

(٥) "تورنو" : Torno صينية خشبية دوارة تستخدم فى أبواب أديرة الراهبات لتوصيل الأغراض من الداخل إلى الخارج أو العكس ، دون السماح للراهبات برؤية الزوار ولا لهؤلاء برؤيتهن . (المترجم)

بعد هذه السلسلة الطويلة من التحفظات والاحتياطات قبع "كاريثالس" الطبيب فى بيته ليتذوق - قدر استطاعته - عسيلات الزواج ، التى كانت بالنسبة لليونورا - لانتفاء خبرتها - ليست بسائغة أو لذيذة، وهكذا كانت تمضى الوقت فى معيّة القهرمانة والوصيفتين والجوارى والخادمات اللاتى استبقن فى طلب كل ما يشتهين، وكان صاحب الدار يلبيه على الفور ظناً منه أن ذلك كافٍ لتسليتهن وشغلهن عن التفكير فى السجن الذى يتقلبن بين جنباته .انهمكت " ليونورا" فى مثل ما انهمكت فيه خادماتها وتسلّت بما يتسلين به، وزادت عليهن بانشغالها بعمل الدُمى والعرائس واللُعب الأخرى التى إن دلّت على شىء فإنما تدل على بساطتها وسطحية تفكيرها وحداثة سنها، لكن مسلكها هذا أسعد زوجها الغيور إذ اعتقد أنه وُفّق فى اختيار أفضل حياة يمكن تخيلها ولا يستطيع الخبث والدهاء البشريّان أن ينالا منها أو يعكرا صفوها. وهكذا اقتصر همّه كله على إحضار الهدايا لزوجته وحثّها على طلب المزيد .

وفى الأيام التى كانت تذهب فيها إلى القدّاس - قبل بزوغ النهار، كما ذكرنا - كانت تلتقى بأبويها فى الكنيسة وتتبادل معهما أطراف الحديث أمام زوجها الذى تكفلت عطاياه وهباته الكثيرة بتبديد حزن حمويه على السجن الذى تعيش فيه قرة أعينهما.

كان "كاريثالس" ينهض مبكراً فى انتظار متعهد المؤن الذى يحضر الحاجيات التى تسلّم قائمة بها فى الليلة الماضية، وفور إفراغ المتعهد لحمولته فى الصينية الدوّارة وانصرافه يغادر " كاريثالس" البيت - على قدميه، فى معظم الأحيان - بعد غلْقه للبوابة الداخلية والخارجية، وبين البوابتين يبقى المسنّ الحبشى .

كان يذهب لتفقد مشروعاته التجارية المعدودة وينثنى عائداً - على جناح السرعة - محملاً بالهدايا . وبعد عودته يمضى الوقت فى مداعبة زوجته وجواريه وخادماته اللاتى تعلقن به وأحببنه لأنه كان مع الجميع ودوداً ومتواضعاً، وعلى وجه الخصوص سخياً وكريماً .

مر عام سعيد على هذه الحياة، وكان من الممكن أن تظل هكذا حتى آخر العمر لو لم تفسدها وتمزقها أشلاءً - كما ستعرفون الآن - مثالب البشر ونقائصهم . أخبرونى- بالله عليكم - إن كان يوجد إنسان آخر أشد حذراً وحيطة من العجوز " فيليب" الذى

وصل تحوّطه إلى حد عدم السماح بوجود حيوان ذكر داخل البيت: ذلك البيت الذى لا يتعقب فيه قط الفئران ولا يتردد بين جنباته نباح كلب . لقد كان دائم التفكير نهاراً، ساهداً ليلاً، لا يزور النوم مرْقَده، وهو الحارس الخاص لداره والأمين عليها .لم يحدث أن تجاوز رجل عتبة داره، وكان يتخذ الشارع مقرّاً للتباحث مع الأصدقاء فى المهام التجارية أو فى شئون الحياة، وكانت المناظر على فرش البيت ولوحاته لا تضم سوى صور لإناث أو أزهار أو غابات . كانت جنبات البيت تتضوع عفة وعزلة وخفرا: حتى الحكايات التى تقصها الخادمات والجوارى حول المدفأة فى ليالى الشتاء الطويلة لم تكن بها – لأنها تُقص أمامه – ما يشى بخلاعة أو يذكى أُوار غريزة . لقد كان اللون الفضى للشعر الأشيب للعجوز يبدو فى عينى "ليونورا" ذهبياً خالصاً، ولا غرْو فى هذا إن علمنا أن الحب الأول للآنسات العذراوات ينطبع على مهجهن كأثر الخاتم على قطعة لدنة من الشمع. كانت الحراسة المشددة تبدو لها أمراً طبيعياً لتوخى العفة، وأن المتزوجات حديثًا يتعرضن لمثل ما تتعرض له. لم تسوّل لها نفسها تخطى عتبة البيت، ولم يستعدها هواها لفعل ما يخالف هوى زوجها. إذا كانت ترى الشوارع أيام القدّاس، فهى تراها فقط عند العودة من الكنيسة لانعدام الضوء فى رحلة الذهاب.

لم يرَ دير محكم الإغلاق مثل هذا البيت، ولا راهبات أشد عزلة من نسائه؛ ومع هذا لم يستطع تفادى السقوط– لو سلمنا أنه سقط بالفعل– فيما يتخوف منه ويبتعد عنه.

فى إشبيلية صنف من الشباب الكسالى الفارغين يطلق عليهم الناس المسمى الشائع: شباب الحى. وقوام هؤلاء يتألف من أولاد الأغنياء بالمدينة، وهم شباب فاسد متنطع، يجيد الكلام العذب المعسول، ويرتدى الثياب الفاخرة الأنيقة. وبالرغم من أن لدينا الكثير مما يمكن قوله عن طبائعهم ولباسهم ومنهاج حياتهم والقوانين التى سنّوها للتعامل فيما بينهم إلا أننا سنمسك – احتراماً لعائلاتهم– عن الخوض فى هذا الجانب.

حين لاحظ واحد من هؤلاء المتأنقين الفاسدين [وهو شاب أعزب يطلقون عليه فيما بينهم لقب "بيروتى" (٦)] الانطواء والعزلة التى تعيش فيهما دار "كاريثالس"،

---

(٦) "بيروتى" : Virote : هو الإنسان المخادع المتظاهر بالوقار؛ لكن "شباب الحى" كان يطلقونه على الأعزب منهم، أما المتزوج منهم فيطلقون عليه "مانتون" Mantón. (المترجم)

ورآها موصدة الأبواب على الدوام صعد إلى رأسه هوَس التعرف على المقيمين بداخلها، ومن أجل ذلك قام بسلسلة واسعة من التحريات استشف منها زملاؤه حقيقة ما يرمى إليه .

قاده بحثه إلى التعرف على حال العجوز وجمال زوجته الشابة و الاحتياطات التى اتخذها الزوج لصوْنها والحفاظ عليها، اتقدت فيه عندئذ الرغبة فى اختراق تلك الحواجز الأمنية: سواء عن طريق القوة أو إعمال الحيلة. أطلع ثلاثة من طائفته على ما يدور برأسه فأشاروا عليه بالبدء فى العمل (ومثل هذه الأمور لا ينقصها الناصحون والمساعدون) .

اجتمعت زمرة الشر عدة مرات للبحث عن حيلة تقوّض الاستحكامات الجمّة التى تواجههم، وفى النهاية قام "لوأيسا" [وهذا هو اسم "البيروتى"] بتنفيذ ما اهتدى إليه مجلس شوراه ويتلخص فى الآتى: أشاع أنه سيترك المدينة للقيام برحلة تستغرق عدة أيام واختفى عن عيون معارفه، ارتدى قميصاً وسروالاً جديدين من الكتان ولبس فوقهما ثياباً قديمة مهلهلة ومرقّعة، قصّر لحيته وغطى عينيه بقطعة قماش سوداء ثم لفَّ إحدى ساقيه بلفائف من الشّاش، وبعد اتكائه على عكازين أصبح لا يدانيه- فى الهيئة- أقبح المعاقين فى طول إشبيلية وعرضها.

وعلى هذه الهيئة الزريّة كان "لوأيسا" يقف كل ليلة- ساعة الصلاة- أمام دار"كاريثالس" ويخرج من مخلاته عوداً ملطخاً بالشحوم تنقصه بعض الأوتار، وبما أنه كان موهوبًا بعض الشيء فقد كان يعزف ألحاناً عذبة سارة ويغنى بصوت مستعار- حتى لا يتعرف عليه أحد- مقطوعات من التراث الأندلسى فيتجمع حوله المارّون بالشارع وأغلبهم من الفتيان. أما "لويس" (الحبشى المسنّ) الذى يقع سكنه بين بابى الدار، والمولع بالموسيقى والطرب- على شاكلة أقرانه من الزنوج- فكان يصيخ السمع متمنيًا ولوج الباب الخارجى للاستمتاع عن قرب بما يذوب فيه عشقاً. لم يكن "لوأيسا" يجد وسيلة أخرى لتفريق المتجمعين حوله سوى الإمساك عن الغناء والعزف والرحيل متأبطاً عكازيه.

كانت موسيقى "لوأيسا" موجهة أساسًا- فى المرات الأربع أو الخمس التى عزف فيها- إلى العبد الحبشى لأنه ظن أن التغلب على استحكامات الدار لن يتم إلا عن

طريقه، ولم يخب ظن لوأيسا فى ذلك لأنه بعد مداعبة أوتار عوده ذات ليلة وإحساسه بإرهاف الحبشى للسمع اقترب من خصاص الباب ونادى عليه بصوت خفيض:

- لويس، لقد جفّ حلْقى ولم أعد أقوى على الغناء، فهلا أعطيتنى شربة ماء !

- لا أستطيع، الباب موصد وليس معى مفتاح، ولا توجد فُرجة ولو ضيقة لأقدم لك منها الماء.

- مع من، إذن؟

- يحتفظ به صاحب البيت الغيور الذى لو تناهى إلى علمه أننى أتحدث الآن مع شخص غريب سيكون هذا اليوم هو آخر أيام حياتى، لكن من أنت يا هذا؟

- "لوأيسا" ، وأنا فقير بساق موجوعة، أستعين على لقمة العيش بصدقات المحسنين وبتدريس الموسيقى والغناء لبعض الزنوج وفقراء آخرين . لقد علّمت ثلاثة زنوج- عبيد لثلاثة نواب فى البلدية- كيفية الغناء والعزف فى الحفلات والحانات، ولم يبخلوا علىّ بالمكافآت السخية.

- لن أكون أقصر منهم باعًا لو تلقيت مثل هذه الدروس، لكن ما إلى ذلك من سبيل لأن سيدى يغلق الباب المؤدى إلى الشارع عند خروجه صباحاً، وبعد عودته يفعل الشيء نفسه، تاركاً إيّاى محصوراً بين بابين.

- لا تدع اليأس يتسرب إلى نفسك يا أخى ، وثق تمامًا أنك لو اهتديت إلى حيلة تمكننى من الدخول سأجعلك - فى خمسة عشر يومًا فقط- عازفًا ممتازاً لا يخجل من مداعبة أوتار عوده على أية ناصية ، وهذا لمقدرتى الفائقة فى مجال التعليم ، ولما يتمتع به أمثالك من موهبة واستعداد فطرى، ولن تصدق لو أخبرتك- من سابق خبرتى- أننى سأجعل منك مغنياً رائعًا أيضاً لأن النغمات النديّة الرقراقة لصوتك توحى بذلك.

- صدقت يا "لوأيسا" ، فأنا بالفعل أستحسن صوتى؛ لكن ينقصنى التدريب والممارسة لأن كل ما أعرفه من الأغانى لا يزيد عن اثنتين قديمتين وهما :

"نجمة فينوس" و "المرج الأخضر" ، فضلاً عن ثالثة يُتغنى بها حالياً ويقول مطلعها:

بالقضبان الحديدية لنافذة

تتشبث يد مشوشة حائرة.

- كل هذا لا قيمة له بالقياس لما يمكنني تعليمه لك ، فأنا أحفظ عن ظهر قلب جميع أغاني "ابن دراز" المسلم وزوجته ظريفة، بالإضافة إلى أشعار المتصوفة وأجمل ما في الأغاني القديمة التي تفحم البرتغاليين أنفسهم.. وأنا أنتهج طريقة سهلة ميسرة تتيح لتلميذي- حتى لو كان بطيء الفهم- تشرب أصول العزف على العود والنبوغ فيه خلال مدة وجيزة قد لا تتجاوز الوقت الذي يمضيه في ازدراد بعض اللقيمات .

- وما السبيل إلى الاستفادة من علمك وخبرتك وليس بوسعي لقاؤك داخل البيت ؟ !

- الأمر جدّ يسير ، يا أخي "لويس" : ما عليك إلا اختلاس المفاتيح من سيدك دون أن يشعر والقيامِ بطبعها على قطعة الشمع التي سأعطيها لك ، وبعدها سأكلف صديقًا لي قَفّالاً باستخراج نسخ منها ؛ وثق تمامًا أنني أتجشم هذا العناء لأن محبتك قد انطبعت على شغاف قلبي قبل التشرف برؤيتك . وحين أتمكن من الجلوس إليك في جنح الظلام سأعلمك ما لم يتعلمه النجاشي ملك الحبشة ، إذ يعز عليّ فقدْ صوت مثل صوتك لسبب تافه مثل عدم إجادة العزف على العود ، ولا أذيع سراً ، يا أخي ، لو أخبرتك أن أجمل الأصوات في العالم سيفقد الكثير من عذوبته لو لم يكن مصحوباً بآلة موسيقية : سواء كانت قيثارة أو عوداً أو أُرْغناً أو جُنْكاً ، وصوتك يناسبه العود لأنه الأسهل في العزف والأقل تكلفة .

- كل هذا جميل ؛ لكن لا سبيل إلى تحقيقه لأن المفاتيح لم يسبق لها تشريفي ، ولأنها لا تفارق يد سيدي نهاراً ، وتنام ليلاً تحت وسادته .

- علينا - إذن - اللجوء إلى حيلة أخرى ، هذا إذا كانت لديك رغبة فى أن تصبح موسيقيًا يشار إليه بالبنان أما إذا انتفت هذه الرغبة لديك فلا داعى لتجشمى عناء نصحك وإرشادك .

- وكيف لا تكون لدى رغبة ، يا أخى "لوأيسا" ! إنها تملأ كيانى وتستنهضنى للقيام بأى عمل فى سبيل تحقيقها .

- ما دام الأمر هكذا ، سأعطيك من تحت عقب الباب - بعد إزالتك لبعض التراب- كماشة ومطرقة لتنتزع بهما ليلاً مسامير "الكالون" ، وبعد دخولى سأرده إلى مكانه بطريقة لا تسترعى الانتباه. سأختفى عندك فى مخزن القش أو حيث تنام لأبادر بإنجاز المهمة التى دخلت من أجلها ، وسترى أنها - حال حضورى - تفوق ما سمعته منى شفاهة. أما الطعام والزاد فلا تلْق لهما بالاً لأننى سأحضر مؤونة تكفى كلينا ما يزيد عن ثمانية أيام، فأنا لدىَّ هنا أصدقاء ومريدون لا يرضيهم أن تلمّ بى ضائقة.

- لا داعى للقلق بشأن الطعام- ردّ الحبشى- لأن الحصّة المفروضة لى منه والبقايا التى تحضرها الجوارى تكفيان لإطعام شخصين آخرين غيرنا. أسعفنى بالمطرقة والكماشة لأننى سأصنع تحت عقب الباب حفرة تسمح بتمريرهما وسأغطيها بالطين بعد ذلك ، ولن يسمع سيدى من مكان نومه البعيد- إلا إذا حدثت معجزة أو صادفنا سوء حظ غريب- الضربات التى سأسددها لانتزاع "الكالون" .

- بمشيئة الله سيكون عندك بعد يومين من الآن كافة ما يلزم للبدء فى مشروعنا الجليل، وتجنّب من الآن فصاعداً أكْل الحرّيفات لأنها تحدث بالصوت أضراراً بالغة.

- لا يوجد شىء يبحّ صوتى أكثر من النبيذ، ورغم هذا لن أُقلع عنه ولو فى مقابل ملء الأرض أصواتاً.

- لا تقل هذا ، يا بنى ، لأن رب الأرباب لا يسمح به ولا يُقرّه . اشرب ، يا "لويس" ، اشرب بالهناء والشفاء، فالنبيذ إذا تناوله المرء دون إفراط لا يتسبب فى أىّ أذى.

- أنا أحتسيه بقَدَر، لديّ هنا جرّة تتسع للترين تملؤها لى الجوارى دون علم سيدى، والمتعهد- بدوره- يحضر لى خِفْيِة قِنّينة تحتوى على أربع ليترات لتعويض المنتقص من الجرّة.

- لا أختلف عنك فى هذا لأنى من المؤمنين بالمثل القائل: جفاف الحنجرة، لا يساعد على الغناء أو الهمهمة .

- امضِ على بركة الله -قال الحبشى - وأرجوك ألا تقلع عن الغناء أمام الدار خلال المهلة التى ضربتها لحين عودتك بالأدوات اللازمة لفتح الباب لأن أصابعى تأكلنى من شدة الشوق للعزف على العود.

- سأعود إليك محملاً بألحان جديدة.

- هذا ما أرجوه، والآن لا تتركنى قبل أن تغنى لى شيئًا حتى أنام قرير العين، وليعلم السيد الفقير أننى سأجزل له العطاء.

- أنا لا أحفل بمثل هذه الأمور، لن آخذ منك شيئاً إلا بعد تعليمك ، والآن اسمع منى هذا اللحن واعتبرْه بمثابة مقدمة للروائع التى ستسمعها بالداخل وأنا إلى جوارك.

- فى القريب العاجل بإذن الله.

وبعد هذا الحوار الطويل الذى دار بينهما غنى "لوأيسا" أغنية رقيقة أسعدت الحبشى وجعلته يحلم بالساعة التى سينفتح فيها الباب.

التقط "لوأيسا" عكازيه فور ابتعاده عن الباب واتجه ليقص على مستشاريه البداية الحميدة التى تبشر بخاتمة سعيدة لمساعيه . التقى بهم وأخبرهم بما جرى مع المسنّ الحبشى، وفى اليوم التالى زوّدوه بالأدوات الكفيلة بانتزاع أطول المسامير وأعتاها.

لم يُخلف "لوأيسا" موعده مع الحبشى وعاد خلال المهلة المضروبة ليعزف له أمام الدار، ولم يهمل العبد الخصى ما اتفق عليه مع لوأيسا وأحدث حفرة تحت عقِب الباب وغطّاها بطريقة ذكية لا تفطن إليها العيون المتشككة الخبيرة.

وبعد مضىّ ليلتين أحضر "لوأيسا" أدوات النجارة اللازمة ليشرع لويس فى اختبار قوته، ودون أن يجهد نفسه تقريبًا وجد "الكالون" والمسامير فى يده ففتح الباب

واستقبل معلّمه وموسيقيّه الفذّ (٧) ، ولما شاهده على عكازين، رثّ الثياب، ملفوف الساقين بالضمادات اعترته الدهشة. لم يكن "لوأيسا" يضع العصابة على عينيه لعدم أهميتها؛ وهكذا- وهو على تلك الهيئة- قام فور دخوله بمعانقة تلميذه النجيب وطبع قبلة على وجهه ثم أعطاه قربة صغيرة من النبيذ وعلبة من الأغذية المحفوظة وحلوى وأشياء أخرى مما يحتفظ به داخل خرجه الحافل بشتى ألوان الأطعمة. ترك العكازين بعد ذلك، وكما لو كان خاليًا من كافة الأسقام والعلل قام ببعض الألعاب البهلوانية التى زادت من عجب الحبشى ودهشته، وعندئذ قاله له "لوأيسا" :

- اعلم، يا أخى لويس، أن عرجى وسقمى ليس نابعًا من علّة أو مرض، إنما هو مجرد حيلة أستعين بها على استثارة شفقة المتصدقين، وبالعائد من الصدقات والموسيقى أتمتع بأفضل حياة فى هذا العالم الذى لو لم يلجأ فيه المحتاجون لمثل هذه الألاعيب والحيل لقضوا نحبهم جوعاً.
- لا شك أنك أدرى بهذا؛ لكن هيا بنا نُعيد "الكالون" إلى مكانه السابق وبطريقة لا توشى بانتزاعه منه.
- بكل سرور.

أخرج "لوأيسا" مسامير من رحلْه وأعاد "الكالون" إلى وضعه السابق ثم صعد إلى غرفة الحبشى المجاورة لمخزن القش وأعد لنفسه-قدر المستطاع-مكاناً مناسباً يأوى إليه.

لم يكد "لويس" يضىء شمعة حتى التقط "لوأيسا" العود وراح يداعب أوتاره بنعومة وخفة فاستولى على لبّ الحبشى وروحه. بعد قليل من العزف أخرج "لوأيسا" وجبة خفيفة من الحلوى وأعطاها لتلميذه فالتهمها على الفور وشرب بنهم من قربة النبيذ، وعندئذ أحس بانتشاء يفوق تأثير الموسيقى عليه. أمره "لوأيسا" بعد ذلك بالاستعداد لتلقى الدرس الأول لكن إفراطه فى الشراب لم يمكنه من التعامل الجيد مع العود، ورغم هذا أفهمه معلمه أنه يجيد- على الأقل - لحنين من الألحان. الغريب فى الأمر أن الزنجىّ صدّق هذه الفرية وانكبّ طيلة الليل على العود عازفاً ألحانه النّشاز.

(٧) الكلمة الموجودة فى النص الأصلى هى Orfeo : شخصية أسطورية، ويُقال إن صاحب هذه الشخصية كان شاعراً وموسيقاراً عبقرياً، وإنه ورث قيثارة أبيه (أبوللو)، وإنه عندما كان يعزف عليها كانت الأشجار والصخور تتمايل طرباً، وإن الوحوش الكواسر كانت تتوقف لسماعه، وكذلك المياه الجارية فى الأنهار. (المترجم)

نام الاثنان البقية الباقية من الليل، وفي حوالى السادسة صباحاً نزل "كارٌ يثالس" وفتح الباب الأوسط ثم الخارجي وانتظر في الشارع قدوم متعهد المؤن الذي حضر بعد قليل وألقى في الصينية الدوّارة بحاجيات البيت ثم مضى إلى حال سبيله . نادى "كارٌ يثالس" العجوز على الحبشي ليأخذ حصته من الطعام وعلف البغلة ، ثم غادر المنزل بعد إحكامه غلْق البابيْن ، دون أن يفطن لما حدث تحت عقب الباب الخارجي، ولهذا تألقت أسارير التلميذ ومعلّمه المختبئ .

فور مغادرة العجوز للبيت خطف الحبشي العود وراح يعزف عليه بصوت عالٍ سمعته الجوارى والخادمات اللاتى بادرنه بالسؤال التالى:

– ما هذا، يا "لويس" ؟ منذ متى وعندك عود؟ من الذى أعطاه لك؟

– أعطاه لى أفضل موسيقى فى العالم أجمع ، وهو الذى سيعلمنى فى أقل من ستة أيام ما يزيد عن ستة آلاف لحن.

– وأين هذا الموسيقى؟ – سألته القهرمانة(المربية ورئيسة الخدم) .

– إنه ليس ببعيد من هنا، ولو لم يتملكنى الخوف والخجل من سيدى فلربما قدمته إليكن ذات يوم، وأنا على يقين من إعجابكن به عند رؤيته.

– وأين يمكن رؤيته– ردت القهرمانة– وعتبة هذه الدار لم يتخطاها جنس مخلوق سوى صاحبها!

– لن أفصح عن شيء حتى تسمعن ما علّمه لى فى وقت شديد القصر .

– لا بد أن الشيطان نفسه هو الذى علمك ما تدعى معرفته – قالت القهرمانة – فأنا لا أعرف أحداً يمكنه تعليمك الموسيقى فى مدة وجيزة غيره .

– سيأتى اليوم الذى ترينه وتستمعن إلى غنائه وموسيقاه .

– هذا ضرب من المحال – تدخلت إحدى الوصيفات – لأنه لا توجد نوافذ على الشارع نستطيع من خلالها رؤية خيال بشر .

– حسنًا، لا توجد مشكلة تستعصى على الحل فيما عدا الموت، وعلى وجه الخصوص إن عرفتن التزام الصمت .

– ستـرى كـيف يكون صـمـتنا يا أخـى "لويس" – قـالت إحـدى الجـوارى – سنصمت كما لو كنا جميعًا خرساوات، ولا أذيع سراً إن أخبرتك أننى على استعداد لتقبل الموت طائعة مختارة مقابل سماع صوت عذب، فنحن منذ الحكم علينا بالعيش خلف هذه الجدران الصماء لم نعد نسمع ولا حتى زقزقة العصافير .

كان "لوأيسا" يستمع لهذه الحوارات بكثير من الغبطة إذ بدا له أنها جميعاً تفضى إلى الظفر ببغيته وأن الحظ السعيد مدّ يد العون لحملهن إلى الطريق المنشود .

ودّعت الجوارى الحبشى الذى وعدهن بعودته للنداء عليهن فى وقت قريب قد لا يخطر لهن على بال لسماع الصوت العذب ، ولشدة خوفه من رجوع سيده ورؤيته يتجاذب أطراف الحديث معهن انسحب إلى غرفته ومنتهى أمله .كانت لديه رغبة عارمة فى أخذ درس جديد ، لكنه لم يجرؤ على العزف نهاراً حتى لا يسمعه سيده الذى عاد بعد قليل لينزوى فى بيته بعد إحكام غلْق البوابتين . حين عادت إحدى الإماء الزنجيات لتسليم الحبشى المسنّ طعامه طلب منها التنبيه على الأخريات بالنزول ليلاً بعد نوم سيدهن إلى الصينية الدوارة لسماع الصوت الذى وعدهن به .. حقيقة أن الحبشى كان قدر رجا معلّمه وتوسل إليه قبل هذا بالعزف تلك الليلة عند الصينية لكى يفى بالوعد الذى قطعه على نفسه أمام الجوارى . تركه "لوأيسا" يكثر من التوسل، لكنه أعلن فى النهاية موافقته ، موضحاً أنه نزل على رغبة تلميذه الطيب فقط بقصد إرضائه دون أية اعتبارات أخرى .

ولإعراب الحبشى عن سروره بتلبية رغبته عانق "لوأيسا" وطبع قبلة على خدّه، وفى ذلك اليوم أعد له غداءً فاخراً شهيا .

جاء الليل، وفى منتصفه تقريباً سُمعت همهمات الجوارى وصفيرهن عند الصينية الدوّارة، ولما أحس "لويس" بوصول القافلة نادى على معلّمه ونزلا من مخزن القش ومعهما العود ، جيد الإعداد والمشدود الأوتار . سأل "لويس" المتربصات خلف الصينية عن صفتهن وعددهن فأجبنه قائلات: إنهن جميعًا حاضرات باستثناء سيدتهن التى ظلت نائمة إلى جوار زوجها . حزن "لوأيسا" ؛ لكنه أراد أن يبدأ بداية

طيبة ويسعد تلميذه، ومن ثم فقد شرع فى ملاطفة عوده بألحان عذبة استولت على لبّ الحبشى وألباب القطيع المتصنت .

لا أجد من الكلمات ما يعيننى على وصف مشاعرهن حين استمعن إلى أغنية "سلوى الحبيب" أو إلى اللحن المتشيطن "لاثارابانذا" ، الجديد وقتها فى إسبانيا .. لم تبق هناك عجوز لم ترقص ولا شابة لم تتأود، وإن كان كل هذا فى صمت ودون جلبة خوفاً من إيقاظ صاحب البيت الذى كانت تراقبه وتتجسس عليه واحدة منهن . غنى "لوأيسا" أيضاً مقطوعات شعبية أتخمت ذائقة المستمعات اللاتى سألن الحبشى عن هويّة هذا الموسيقى المعجزة . أخبرهن أنه شحاذ فقير، لكنه ألطف وأظرف فقراء إشبيلية.

سألن الحبشى عما يمكن عمله لرؤية الموسيقى، وطلبن منه الإبقاء عليه داخل البيت خمسة عشر يوماً على الأقل، كما سألنه عن الطريقة التى دخل بها البيت .لم يجب عن السؤال الأخير بكلمة، وأشار عليهن بإحداث ثقب صغير فى الصينية الدوّارة لرؤيته والعمل على سدّه بعد ذلك بقطعة من الشمع ، أما بالنسبة لمسألة الإبقاء عليه فى البيت فقد أخبرهن أنه لن يدخر وسعاً فى سبيل تحقيق هذه الرغبة المشتركة.

تحدث إليهن أيضاً"لوأيسا " عارضاً خدماته بكياسة ولباقة لا تصدران من شحاذ فقير، وعندئذ طلبن منه الحضور الليلة القادمة إلى المكان ذاته لأنهن سيحاولن إقناع سيدتهن بالنزول لسماعه رغم خفّة نوم زوجها النابعة من شدة غيرته لا من تقدمه فى السنّ. أبدى لهن "لوأيسا" استعداده- إذا كن راغبات فى سماعه دون خوف من استيقاظ سيدهن- بتزويدهن بمسحوق لو خلط بالنبيذ سيجعله ينام نوماً عميقاً وطويلاً.

- حنانيك يا يسوع ! - قالت إحدى الوصيفات- لو كان هذا صدقًا فيا لحسن الحظ الذى اقتحم علينا الباب دون أن نشعر به أو نستحقه !لن يكون هذا المسحوق لنومه، بل إكسير الحياة لنا جميعاً وللمسكينة سيدتى التى لا تنعم بحرّ و لا زمهرير ولا تغيب لحظة عن ناظريه. آه، يا سيدى، أحضر هذا المسحوق وسيجزيك الله عنا خير الجزاء. اذهب ولا تتأخر، أحضره وسأتولى بنفسى إضافته للنبيذ وتقديمه له، وإنى لأضرع إلى العلىّ القدير أن ينيمه ثلاثة أيام بلياليها لأنها ستكون لنا بمثابة النعيم المقيم .

– سأحضره إذن– قال "لوأيسا" – وهو مسحوق يقتصر مفعوله على جلْب النوم العميق ولا يلحق أضراراً أخرى بمن يتعاطاه.

رجونه جميعًا بسرعة إحضاره ثم انصرفن على وعد باللقاء الليلة التالية التى سيحدثن فيها– ببريمة– ثقباً فى الصينية ويحضرن سيدتهن لكى تراه وتسمعه . ومع أن الفجر كان على وشك الطلوع إلا أن الحبشى أصرّ على تلقى درسٍ جديدٍ فأعطاه له "لوأيسا" وأفهمه بأنه يتمتع بأذن موسيقية تفوق فى حساسيتها كافة تلاميذه السابقين: مع أن المسكين لم يكن يفقه ما يوازى خردلة فى أولويات العزف والغناء!

كان "لوأيسا" قد اتفق مع زمرة الشر على المرور كل ليلة بباب الدار للتصنت والنظر فيما إذا كان صديقهم يعوزه شىء ، ومن الإشارة المتفق عليها أدرك "لوأيسا" أنهم بالباب فأسرع نحوهم وأبلغهم– من خصاص الباب– بالتطورات الجديدة وطلب منهم البحث عن منوِّم لإعطائه لصاحب الدار لأنه سمع عن اختراع مسحوق يحتوى على هذه الخاصية. أخبروه أن لهم صديقاً طبيباً وسيزودهم– إن كان هناك حقاً عقار بهذه المواصفات – بأحدث ما توصل إليه الطب فى هذا المجال؛ وبعد حثه على المضى قدما فى مشروعه وطمأنته على عودتهم المؤكدة الليلة التالية انصرفوا مسرعين.

عندما أرخى الليل سدوله تساقط سرب الحمائم على شَرَك العود، ومعه جاءت "ليونورا" الساذجة وهى ترتعد خوفاً من استيقاظ زوجها. منعها هذا الخوف فى البداية من تلبية طلبهن، لكن الجوارى والخادمات استطعن بما سردنه على مسامعها من عذوبة الموسيقى ولطافة العازف الفقير [الذى لم تره القهرمانة ومع ذلك بالغت فى إطرائه والثناء عليه لدرجة أنها رفعته إلى مكانة عالية لا يرقى إليها "أبسالون" ولا حتى "أورفيو" (٨)] إجبارها على فعل ما يخالف إرادتها وما لم يخطر لها يوماً على بال . بادرن أولاً باستخدام البريمة لإحداث ثقب فى الصينية يرين من خلاله الموسيقىّ الذى لم يكن يرتدى ساعتها ملابسه الرثّة، بل سروالاً فضفاضاً من التفتاه–

(٨) "أبسالون" Absalón و "أورفى" Orfeo : شخصيتان أسطوريتان، تتمتع الأولى بالجمال الطاغى والرجولة المكتملة، والثانية بعذوبة الموسيقى التى تؤثر فى الحيوان والجماد فضلاً عن الإنسان . (المترجم)

على شاكلة البحارة– وصديرياً من القماش نفسه مُضفَّرا بشُرط مذهبة، وقميصًا بياقة مُنشّاة من الساتان الأسود المشغول بالدانتيلا؛ وكل هذا كان يحتفظ به "لوأيسا" فى مخلاته متوقعاً رؤية من تستحق أن يُغيِّر ملابسه من أجلها.

كان "لوأيسا" فتى رشيق القدّ، جميل الطلعة؛ وبما أنهن ظللن فترة طويلة لا يشاهدن فيها غير سحنة سيدهن العجوز فقد بدالهن وكأنه ملاك هبط من السماء. اصطففن لرؤيته– واحدة بعد أخرى–، ولكى يرينه بشكل أفضل من الثقب كان الحبشى يحرك الشمعة التى فى يده ، صعوداً وهبوطاً ، أمام جسد معلّمه. بعد فراغهن من المشاهدة أخذ "لوأيسا" العود وراح يغنى– بمزاج عالٍ– ألحانًا رائعة أسكرتهن جميعًا. ناشدن "لويس" بعد ذلك باستخراج ما فى جعبته من حيل لإدخال معلمه إليهن حتى يستطعن إخفاءه فى مكان أمين والاستماع إليه ورؤيته عن قرب، وبهذا الشكل يتخففن من حالة الفزع التى تسيطر عليهن نتيجة لابتعادهن عن سيدهن واحتمال نزوله المفاجىء وضبطهن متلبسات.

اعترضت "ليونورا" بكل ما أوتيت من قوة، وقالت إنه يكفيهن سماعه ورؤيته حيث يوجد توخياً للسلامة ولعدم المساس بشرفهن .

– عن أىّ شرف تتحدثين؟ – قالت القهرمانة– الملك لديه منه ما يفيض ويغطى حاجة الجميع . احبسى نفسك مع بعلك ودعينا نله كما يحلو لنا، خاصة وأن هذا السيد يبدو فى غاية الدماثة والشرف ولن يطمع فى شىء نَضِنُّ به عليه.

– سيداتى الفضليات– تدخل " لوأيسا"قائلاً – ما قَدمت إلى هنا إلا لخدمتكن بروحى ودمى، وما دفعنى إلى المجىء إلا شدة تألمى لعزلتكن وضياع وقتكن سدى بين جدران هذه الحياة المغلقة. أقسم بحياة أبى على أننى رجل طيب وديع، مؤدب ومطيع، ولن أقدم على عمل شىء زائد عما تأمرننى به، إذا قالت إحداكن: "أيها المعلّم، اجلس هنا، أو انتقل إلى هناك، أو ابتعد بضع خطوات" سألبى طلبها مثل كلب مُدرَّب على الطاعة: يأتمر بإشارة واحدة من صاحبه.

- ما دام الأمر كذلك - قالت الساذجة "ليونورا" -، فما هى الطريقة المثلى لإدخال المعلم؟

-حسناً - ردّ "لوأيسا" -، ما عليكن إلا طبْع مفتاح الباب الأوسط الفاصل بيننا على قطعة من الشمع، وسأتكفل باستخراج نسخة منه ستكون معنا الليلة القادمة.

- اصطناع نسخة من مفتاح الباب الأوسط- قالت إحداهن- يعنى فتح الأبواب جميعها لأنه مفتاح عمومى.

- لن يكون هذا- على ما أظن- سيئاً!- قال لوأيسا.

- هذه حقيقة لا شية فيها- قالت ليونورا - لكن على المعلم أن يحلف أولاً على أنه لن يفعل شيئًا هنا بالداخل سوى العزف والغناء حين يطلبان منه، وأنه سيظل حبيساً صامتاً فى المكان الذى سنخبئه فيه .

- أحلف على هذا - قال "لوأيسا" .

- هذا الحلف لا قيمة له - ردت ليونورا - أريد أن يحلف بحياة والده وبالصليب ، وأن يقوم بتقبيل الصليب أمامنا جميعاً .

- أحلف بحياة والدى- انبرى "لوأيسا" قائلاً - وبعلامة الصليب هذه التى أقبلها بفمى المتسخ (٩) .

قام عندئذ باستخدام إصبعين من يده فى رسم علامة الصليب وقبلها ثلاث مرات. قالت إحدى الوصيفات بعد فراغه من المشهد السابق .

- لا تنسَ ذلك المسحوق الهام لأننا فى أشد الحاجة إليه.

توقف الحوار عند هذا الحد فى تلك الليلة التى سعد فيها الجميع بالحفل الموسيقى، ومن أمارات تجاوب الحظ السعيد مع "لوأيسا" أنه وجد أصدقاءه منتظرين فى تلك الساعة المتأخرة التى جاوزت الثانية بعد منتصف الليل ، سحين سمع الإشارة المتفق

---

(٩) تقبيل الصليب بالفم المتسخ، تعبير دارج وشائع يقصد به إظهار التواضع؛ لكنه يمكن أن يُحمل هنا على النقيض من معناه السابق نظراً لنبرة التهكم والسخرية التى تغلف العبارة . (المترجم)

عليها [وكانت الصفير على آلة موسيقية صغيرة من المعدن] هرع إليهم وسألهم عن المسحوق المنوم الذى طلبه الليلة السابقة، كما سألهم عن إمكانية اصطناع مفتاح من قطعة شمع عليها أثره.

أخبروه أنهم سيحضرون المنوّم الليلة التالية وأنه سيكون دهانا ذا فعالية شديدة ، إذا مسح به صدغا شخص ما وشرايينه، فإنه لا يفيق من نومه قبل يومين إلا إذا غسلت مواضع الدهان بالخلّ، كما طالبوه بإحضار قطعة الشمع المطبوع عليها المفتاح لأن استخراج نسخة عليها يعد أمراً بسيطاً وسهلاً. انصرفوا بعد ذلك وتركوا "لوأيسا" لينام- مع تلميذه- ما بقى من الليل وليتحمل بمفرده- شأنه فى ذلك شأن جميع المترقبين المنتظرين- بطء مرور الوقت وثقله.

ولما جنّ الليل وحانت الساعة المعتادة للقاء عند الصينية الدوّارة توافدت الجوارى كلهن - الصغيرات قبل الكبيرات، والزنجيات قبل البيضاوات - يحدوهن الشوق لرؤية الموسيقىّ . لم تكن معهن "ليونورا" ، ولما سأل عن السبب أجبنه قائلات: إنها محبوسة مع زوجها الذى يغلق غرفة نومه بالمفتاح ويضعه تحت الوسادة ، كما أخبرنه أنها ستحاول فى تلك الليلة الحصول على المفتاح العمومى لكى تطبعه على قطعة الشمع التى أعدتها لهذا الغرض، وأنهن سيذهبن بعد قليل لاستلام قطعة الشمع من فتحة صغيرة موجودة تحت عقب باب غرفة النوم .

تعاظمت دهشة "لوأيسا" من شدة حرص العجوز، لكن عزيمته لم تفتر، وقبل أن يفيق من دهشته سمع صوت الآلة الموسيقية الصغيرة فولّى وجهه شطر الباب الخارجى الذى يقف أصدقاؤه خلفه، أخذ منهم الدهان المنوم وطلب منهم الانتظار لبعض الوقت لكى يعطيهم قطعة الشمع، ثم عاد إلى الصينية وطلب من القهرمانة [التى كانت تنتظر بفارغ الصبر - أكثر من غيرها - لحظة دخوله عليهن] حمْل الدهان إلى سيدتها وشرح كيفية استخدامه لها . امتثلت القهرمانة للأمر، وعندما وصلت إلى حيث تنتظر سيدتها وجدتها متمددة بكاملها على الأرض ووجهها ملاصق للفتحة الموجودة تحت عقب الباب ، تمددت القهرمانة مثلها لتتمكن من وضع فمها على أذن سيدتها، وبصوت خفيض شرحت لها كيفية استخدام الدهان ثم سلمته لها ، أخذته ليونورا وأخبرتها بفشلها فى سحب المفتاح لأن زوجها لم يضعه - كما جرت

العادة - تحت الوسادة بل بين الحشيتين وتحت منتصف جسده تقريباً، لكنها قالت لها: لو كان للدهان هذا الأثر الفعال الذى أشار إليه الموسيقىّ فإنها ستتمكن من أخذ المفتاح كلما أرادت ولن يكون هناك داع - بالتالى - لطبعه على الشمع واصطناع نسخة منه، كما طلبت منها إخبار الموسيقىّ بما سمعته والعودة إليها ثانية للتعرف على مدى تأثير الدهان على الزوج الغيور .

حين سمع "لوأيسا" ما أخبرته به القهرمانة صرف أصدقاءه الذين كانوا ينتظرون قطعة الشمع .. أما "ليونورا" فقد اقتربت بخطوات وئيدة مرتجفة، حابسة أنفاسها، من زوجها لتدهن مواضع شرايينه، وكذلك فتحتى أنفه اللتين ارتعشتا فأصابها من جرّاء ذلك ذعر قاتل ، لكنها تمكنت من دهن كافة الأماكن الضرورية وكأنه تحنطه تمهيداً لدفنه.

احتاج السائل المخدِّر وقتاً قصيراً ليعلن عن فضائله .ذلك لأن العجوز شرع على الفور فى إرسال شخير عال تصل أصداؤه إلى عرض الشارع ، لكنه كان يرنّ فى أذنىّ زوجته مثل لحن أشد تناغماً وعذوبة من ألحان معلم طواشيها الحبشى. وحتى تتأكد من حقيقة ما تراه وتسمعه أخذت تهزه -بلطف فى البداية، وبعنف بعد ذلك - بل أنها تجاسرت وراحت تقلّبه على الجانبين.ولما أيقنت من صدق مفعول الدهان اتجهت نحو الفتحة الموجودة تحت عقب الباب وبصوت - أعلى بكثير من المرة السابقة - نادت على القهرمانة المنتظرة على الجانب الآخر وقالت لها:

- هنئينى يا أختاه لأن "كارثيالس" ينام بلا حراك مثل ميت.

- ما يمنعك، إذن، من أخذ المفتاح ؟ هلمى، الموسيقىّ ينتظر منذ أكثر من ساعة.

- على رِسْلك، يا أختاه، أنا ذاهبة للبحث عنه.

اتجهت إلى الفراش ودسّت يدها بين الحشيتين وأخرجت المفتاح، وحين رأته فى يدها أخذت تثب من الفرحة. فتحت الباب وأعطت المفتاح للقهرمانة فتلقفته بسعادة غامرة.

أمرتها "ليونورا" بإدخال الموسيقىّ إلى الردهة لأنها ما زالت لا تجرؤ على مبارحة المكان خوفاً مما قد يحدث، كما أوصتها بعدم السماح له بالدخول قبل أن يقسم أمامهن من جديد على ألا يفعل شيئاً لم يطلب منه.

- كونى مطمئنة يا سيدتى لأننى لن أدعه يدخل قبل أن يحلف على هذا مرة واثنتين، ويقبل علامة الصليب ست مرات.

- لا تفرضى عليه رقماً معيناً ودعيه يقبّله المرات التى تروق له ، لكن المهم هو قسمه بحياة والديه وبأغلى وأعز شىء لديه حتى نكون فى مأمن ونستمع دون منغصات إلى عزفه وغنائه لحد التخمة ، هيا ، لا تضيعى الليلة فى الكلام .

رفعت القهرمانة تنّورتها واتجهت إلى الصينية حيث تنتظر الأخريات، وعندما لوّحت لهن بالمفتاح حملنها على الأعناق- مثل أستاذ الجامعة فور نيْله لدرجة الأستاذية- وهتفن فى صوت واحد: "يعيش، يعيش" وزاد هتافهن عندما عرفن أنهن لم يعدن بحاجة لاصطناع نسخة من المفتاح لأن تأثير الدهان المدهش سيتيح لهن الحصول عليه كلما أردن.

- هيا- قالت إحدى الوصيفات- افتحى الباب لهذا السيد الذى طال انتظاره لكى يروينا ويشبعنا بألحانه .

- سنجعله- ردت القهرمانة- يُقسم قبل دخوله كما فعلنا الليلة السابقة.

- ألا ترين أنه وادع مِثل الحمائم- تدخلت إحدى الجوارى - ولن يستنكف عن الحلف بأى شىء يطلب منه !

فتحت القهرمانة الباب وجعلته موارباً ثم نادت على "لوأيسا" الذى استمع إلى الحوار السابق بأكمله، وعندما حاول اقتحام الباب أوقفته القهرمانة بقبضة يدها وقالت له :

- اعلم أيها السيد، والله على ما أقول شهيد، أن جميع من بالدار - فيما عدا سيدتى- عذراوات كما خرجن من بطون أمهاتهن، وهذا التعميم ينسحب على الزنجية جيومار وعلى شخص المتحدثة أمامكم، فأنا قد أبدو- لكثرة ما تعرضت له من أهوال ومصاعب- على مشارف الأربعين، لكننى لم أكمل الثلاثين بعد وما زلت- لسوء حظى- عذراء مثلهن، ومن ثمّ لن أسمح بأن تتسبب أغنيتان أو ثلاثة أو حتى أربعة فى الإطاحة بعذريات كثيرة تضمها أسوار هذا البيت، ولن أسمح لك- بالتالى- يا أمير قلبى بالدخول إلى مملكتنا قبل أن تقسم أمامنا ثانية على ألا تأتى بشىء يخالف رغبتنا، وإذا

كنت ترى أن طلبى هذا زائد عن الحدّ فعليك أن تعلم أن ما نراهن عليه أكبر وأعز، لو كانت نواياك الحسنة هى التى اقتادتك إلى هنا فلن يضيرك الحلف فى شيء ، وعلى رأى المثل: فمن يطلب الحسناء لم يغلها المهر .

– لا فُضّ فوك يا سيدة "ماريا لونسو" – قالت إحدى الوصيفات للقهرمانة– وأنا كامرأة متعقلة تزن الأمور بميزانها الصحيح أضم إليك صوتى وأقول إن دخول هذا السيد مرهون بقسمه.

تدخلت حينئذ الزنجية " جيومار" التى تلم بطرف من اللغة القشتالية لقضائها بعض الوقت بين متحدثيها وقالت:

– أما أنا فأعلن موافقتى على دخوله ولو بدون حلف، لأن حلفه مهما عَظُم سيتبخر فور اجتيازه هذه البوابة.

كان " لوأيسا" يستمع فى هدوء لخطبة السيدة "ماريا لونسو" ، ولما انتهت انبرى قائلاً برصانة ورباطة جأش:

– أخواتى وزميلاتى، لم أقصد بمجيئى إلى هنا سوى إمتاعكن وتسليتكن قدر استطاعتى، ولما كان هذا القصد لم يتبدل من جانبى ولن يعتريه تغيير فلا أجد أدنى حرج فى الحلف على أى شيء يرد بأذها نكن ، بيْد أنى كنت أتمنى أن تثقن بعض الشيء بكلمتى لأنها حين تصدر من شخص مثلى تكون لها مصداقية ونفاذ العقود المبرمة، وأن تعرِفن أن الأسمال البالية و العباءات المتواضعة كثيراً ما تضم بين طيّاتها مهجًا شريفة مهذبة ، ولكى أزيل ما علق بنفوسكن من أوهام وخوف أحلف أمامكن– كرجل وكمسيحى كاثوليكى– بكل الأيمان المغلظة التى تشمل كافة القديسين، وبدخول وخروج القديس" ليبانو"، وبكل ما يحويه تاريخ شارلمان من حقائق، وبموت العملاق، " فييرابراس" ألا أخالف قيد شعرة ما يصدر عنكن من أوامر وتعليمات، وكل ما يناقض بنود هذا القسم– سواء بالنية أو القول أو العمل – يعتبر باطلاً ولاغياً (١٠) .

---

(١٠) الجملة الأخيرة كانت ترد– خلال تلك الفترة من عصر المؤلف– بنماذج العقود والمحررات الرسمية . (المترجم)

صاحت إحدى الجوارى التى كانت تتابع باهتمام قسم "لوأيسا" قائلة:

- هذا القسم يلين أشد الصخور صلابة . سأكون غاية فى السوء لو طالبته بالمزيد لأن ما حلف به حتى الآن يخوّل له اجتياز بوابة حصن "كابرا" ذاته.

قالت هذا ثم أمسكت به من الصديرى وأدخلته، وعندئذ التفت حوله الأخريات. ذهبت بعد ذلك لتزف البشرى لسيدتها التى كانت منهمكة فى مراقبة زوجها النائم، وحين أخبرتها أن الموسيقى فى طريقه إلى الصعود ابتهجت فى قليل من الارتباك وسألتها إن كان قد حلف قبل دخوله فقالت لها: نعم وبطريقة لم تسمعها من قبل.

- ما دام قد حلف - قالت ليونورا- فقد أمِنا جانبه، لا أدرى كيف واتتنى هذه الفكرة المدهشة !

لم تكد تنتهى من عبارتها السابقة حتى فوجئت بظهور الفرقة بكاملها يتوسطها الموسيقىّ ويضيىء الحبشى المسنّ والزنجية "جيومار" حواشيها. حين رأى "لوأيسا" "ليونورا" همّ بالركوع لتقبيل يديها، لكنها أشارت إليه - وهى صامتة -بالنهوض . حين لاحظ "لوأيسا" صمتهن وعزوفهن عن الكلام خوفاً من استيقاظ سيدهن أخبرهن أن باستطاعتهن الحديث وبصوت عالٍ لأن الدهان وإن كانت فضائله لا تتضمن خاصية انتزاع الحياة إلا أنه يجعل المدهون به مثل الميت.

- هذا ما أعتقده- قالت"ليونورا" - لأنه لو لم يكن له هذا الأثر لكان زوجى قد استيقظ أكثر من عشرين مرة كما هى العادة؛ لكنه مستغرق الآن فى النوم وشخيره لا ينقطع مثل حيوان.

- مادام الأمر هكذا- أردفت القهرمانة- فهيا بنا إلى الصالة المجاورة حيث يمكننا سماع الموسيقىّ والابتهاج قليلاً.

- هيا بنا- قالت ليونورا - وعلى جيومار البقاء هنا للحراسة وإبلاغنا بالتطورات.

ردت الزنجية قائلة:

- لأننى زنجية أُكلّف بالحراسة والبيضاوات يذهبن، ليغفر الله للجميع !

انتقل الحشد– باستثناء الزنجية – إلى الصالة حيث تتناثر الزرابى والوسائد المريحة وجلسن على شكل حلقة يتوسطها الموسيقىّ. تناولت " ماريالونسو" شمعة مضاءة وراحت تتأمل "لوأيسا" من أعلاه إلى أسفله، قالت واحدة منهن: "يا لروعة خصلات شعره المسترسلة !" وأردفت أخرى: "يا لنصاعة أسنانه وشدة بياضها وتناسقها !" ، بينما قالت ثالثة: يالهما من عينين أخّاذتين، إنهما خضراوان مثل الزمرد ! ، وهكذا انهمر سيل تعليقاتهن: فهذه تثنى على فمه، وتلك تمتدح قدميه... كانت "ليونورا" هى الوحيدة التى تأملته فى صمت، ولا شك أنها أدركت الفارق بين عوده النضر وبين عود سجّانها اليابس. لم يتوقف استرسالهن فى تشريح أعضائه والتعجب من ملاحته إلا بعد انتزاع القهرمانة للعود من الحبشىّ وتقديمه للموسيقىّ راجية إيّاه بعزف لحن الأغنية التى يقول مطلعها:

أُمّاه، يا أمى
لا تضعى علىّ حرّاسا،

لبى "لوأيسا" طلبها، وعندئذ نهضن وشرعن فى التمايل والرقص. كانت القهرمانة تحفظ كلمات الأغنية عن ظهر قلب وأخذت تغنى بمزاج عالٍ يفوق إمكانياتها الصوتية. تقول كلمات الأغنية ، الشهيرة آنذاك فى إشبيلية:

أماه، يا أمى
لا تضعى علىّ حرّاسا،
إذا لم أحرص على نفسى،
لن يمنعنى سجّانى.

يقولون إنه قدر،
لا ريب فى ذلك،
إيقاظ الحرمان
لشهية الجوعان؛
والنمو بلا حدود
للحب خلف القضبان؛
لهذا من الأحرى

تحطيم أغلالى؛
إذا لم أحرص على نفسى،
لن يمنعنى سجانى.

إذا لم تكن الإرادة
كافية وحدها للصيانة،
فلن يكفلها حارس
ولا خوف ولا زنزانة:
ستتحطم- دون شك- تلك القيود
ولو بفعل الموت ذاته،
لكى يستوفى النصيب
الذى يغيب عن بالك؛
إذا لم أحرص على نفسى،
لن يمنعنى سجانى.

من يسكن الغرام
حشاشة قلبها،
ستطير كالفراشة
فى إثر لهيبها،
ولن يمنعها من الطيران
كتيبة من الحراس،
رغم اجتهادها
فى تنفيذ تعليماتك؛
إذا لم أحرص على نفسى،
لن يمنعنى سجّانى.

إنها على هذا النحو
تباريح الغرام،
تحيل أرقّ الفاتنات
إلى حيوان خرافى له ذنب أفعوان:

بصدر من الشمع
ورغبة تتأججِ فيها النيران،
بيدين من الزغب
وقدمين من اللّبد؛
إذا لم أحرص على نفسى،
لن يمنعنى سجّانى.

* * *

لم يكد سرب القَطاَ – الذى تقوده القهرمانة – ينتهى من الغناء والرقص حتى ظهرت "جيومار" وهى تهتز من شدة الاضطراب وتخدش يديها ورجليها كمن أصابها جرب، ومن بين لهاثها قالت بصوت مبحوح خفيض:

– سيدتى، لقد استيقظ سيدى، هلمى يا سيدتى، أسرعى.

ومثل سرب الحمائم الذى يلتقط فى سكون ودعة ما بذرته الأيادى الغريبة على أديم الأرض وفاجأته طلقة مدفعٍ مدويّة فطار علىِ إثرِها فى الفضاء مشوشًا مذعوراً ومتناسياً ما بين مناقيره من حبّ، فقد انفرط عقد لمّة الراقصات حين ألقت على وجهه " جيومار" بهذا الخبر المفاجئ، وفى شغلهن بالنجاة بأنفسهن بحثت كل واحدة بين أرجاء البيت عن مكان تأوى إليه وتركن الموسيقىَ – الذى رمى العود وكفَّ عن الغناء– مضطرباً حائراً لا يدرى أين المفر.

كانت "ليونورا" تولول بيديها الجِميلتين والقهرمانة تلطم– بلطف– خديها، خلاصة القول إن الفوضى والبلبلة عمّتا المكان. ولأن القهرمانة تتمتع برباطة جأش وبالكثير من المكر والدهاء فقد أمرت " لوأيسا" بالاختباء فى حجرتها واختارت البقاء – مع سيدتها– فى الصالة لثقتها فى قدرتها على اختراع سبب يمكن تقديمه للزوج إذا اقتحم عليهما المكان.

اختبأ "لوأيسا" وظلت القهرمانة متسمرة فى مكانها تتصنت قدوم الزوج، ولما طال انتظارها ولم تحس بشىء زالت رهبتها وتشجعت، وخطوة أمام خطوة حتى أدركت فراش سيدها ووجدته سيرته الأولى: يرسل بشخيره المتقطع الرتيب، ولما أيقنت من سباته العميق رفعت تنّورتها وعادت أدراجها مسرعة لتزف إلى سيدتها البشرى.

لم تتردد القهرمانة فى اهتبال الفرصة التى لاحت لها على غير المتوقع وتتمناها قبل الجميع: ألا وهى الاستمتاع بالمفاتن التى خالتها فى الموسيقىّ، ولهذا طلبت من "ليونورا" الانتظار فى الصالة لحين ذهابها للنداء عليه . كانت الحيرة و الأفكار تتناوش "لِوأيسا" فى أثناء انتظاره لما سيسفر عنه استيقاظ العجوز. كان يلعن الدهان المزيف وينْحى باللائمة على أصدقائه ويتهم نفسه بالتقصير لأنه لم يجربه أولا على شخص آخر قبل "كاريثالسٍ" . كان يقلب فكره فى مثل هذه الأشياء عندما دخلت عليه القهرمانة وزفت إليه بشرى نوم العجوز. سكنت جوانحه وأخذ يتابع باهتمام كلمات الهوى والعشق التى تشنف بها "ماريالونسو" أذنيه، ولما أدرك نواياها الخبيثة فكر فى استخدامها بمثابة طعْم لاصطياد سيدتها.

وبينما كان الاثنان مشغولَيْن بحديثهما اجتمعت الجوارى والخادمات المتفرقات فى أنحاء الدار وعدن أدراجهن للتحقق من صدق الخبر الذى فرّق شملهن، ولما وجدن البيت صامتاً صمت القبور اتجهن إلى الصالة التى تركن فيها سيدتهن، ومنها عرفن أن "كاريثالس" ما زال مستغرقاً فى نومه. سألنها عن الموسيقىّ والقهرمانة فأشارت إلى غرفة الأخيرة ، وبالصمت الذى قدمن به اتجهن على أطراف أصابعهن إلى باب الحجرة ووقفن للتصنت على ما يدور خلفه من حديث.

كانت معهن الزنجية "جيومار"، أما الحبشى فكان فى مخزن القش متمدداً على سريره البائس وفوقه الغطاء، يتصبب عرقًا من شدة الخوف، ورغم هذا لم يكف عن مداعبة أوتار العود الذى احتضنه وفرّ به بعد سقوطه من يد "لوأيسا" : لقد كان شغفه بالموسيقى لا يقاوم، وكأن شيطان النّغم يتلبسه . بعد سماعهن إلى مغازلات القهرمانة الجريئة رحن ينعتنها بأسوأ الصفات، مثل: ساقطة وقوادة وشمطاء ومقززة ... إلى غير ذلك من النعوت التى نمسك عنها احترامًا، لكن أقذع الشتائم وأكثرها إثارة للضحك- نظراً للكنتها البرتغالية- جاءت على لسان الزنجية "جيومار" . المهم أنهما اتفقا فى نهاية الحوار على أن يلبى "لوأيسا" رغبتها شريطة أن تمكنه أولاً من سيدتها.

وضعها الموسيقى فى موقف صعب بطلبه هذا، لكنها فى سبيل إشباع النزوة التى أَلَمّت بها وملكت عليها الروح والجسد وعدته بعمل المستحيل وما لا يخطر له على بال. عند خروجها للتحدث مع سيدتها وجدت بابها محوطا بالجوارى فأمرتهن

بالانصراف إلى غرفهن والانتظار حتى الليلة القادمة لسماع الموسيقى لأن الفزع الذى انتابهن الليلة أنضب معين الرغبة فى اللهو و المرح.

فهمت الجوارى أن القهرمانة تريد التخلص منهن والبقاء بمفردها، ومع هذا لم يفعلن – لما لها عليهن من سلطة ونفوذ– أكثر من الانصياع لأمرها. ذهبت القهرمانة، فور انصرافهن، إلى الصالة لتقنع ليونورا– من خلال خطبة طويلة عصماء، كأنها تدربت أياماً عديدة على صياغتها– بالنزول على رغبة "لوأيسا" . تمادت فى الإشادة بمفاتنه وملاحته وشبابه، وصوّرت لها البوْن الشاسع بين أحضانه العفيّة الوالهة وبين الأحضان الفاترة للزوج المسنّ، كما تفننت فى تزيين المتعة المتوقعة، وأعانها الشيطان بفيض من المبررات البليغة والأسباب الوجيهة التى لا تلين قلب "ليونورا " الغضّ الساذج فحسب، بل الرخام الأشد صلابة.

آه منكن، أيتها القهرمانات اللاتى جئن إلى العالم للفتك بالخفرات والإطاحة بآلاف النوايا الطاهرة !... آه منكن، أيتها الدّواهى المسلّطات على تدنيس صالات وزرابى السادة الشرفاء بألاعيبكن القذرة !

خلاصة القول إن القهرمانة أخرجت ما فى جعبتها من حجج وكلام معسول من أجل خداع "ليونورا" وسوْقها إلى الاستسلام والضياع، محبطة بذلك كافة احتياطيات الحذِر "كاريثالس" الذى ينام غافلاً عن احتضار شرفه .

أمسكت "ليونورا" –المغرورقة العينين بالدموع – من يدها، واقتادتها – تقريبا بالقوة – إلى حيث ينتظر "لوأيسا" ، باركتهما بضحكة شيطانية مزيفة ثم أغلقت الباب عليهما وذهبت لتنام على الزرابى والوسائد، أو – بمعنى أصح – لتنتظر اللحظة الموعودة للوفاء بدينها .

لو لم يكن "كاريثالس" نائمًا لسألناه حينئذ عن جدوى تحوّطه وحذره، وبنائه الأسوار العالية لداره التى لم يتخطَ عتبتها خيال ذكر، وعن الصينية الدوّارة، والحوائط السميكة، والنوافذ المسدودة، والعزلة التامة، وعن المهر الكبير الذى قدمه لزوجته وهداياه المتواصلة لها، وعن حسن معاملته لجواريه وخادماته وتلبيته لكافة طلباتهن وما يرد على خواطرهن.. لكننا– للأسف– لا نستطيع التوجه إليه بهذا السؤال لأنه –

كما نعلم – مستغرق فى نوم لم يألفه.. ولو افترضنا جدلاً وصول صوتنا إليه وقدرته على الرد فلن يفعل أكثر من هزّ كتفيه وعقْد ما بين حاجبيه والتلعثم قائلاً: " ذهب كل هذا أدراج الرياح، إذ أطاح بِهِ مكر شاب متنطع أثيم، وغدر قهرمانة مزيفة، وغفلة فتاة التقمت الطعم دونما تبصُّر" .. خلّصنا يا إله السماوات والأرض من هؤلاء الأعداء الذين لا يحمينا منهم تِرْس الحصافة والحذر، ولا يؤثر فيهم سيف العفة والحياء!

ورغم ما تقدم ذكره فقد أبانت "ليونورا" عن معدنها الأصيل حين دقّت ساعة الجد، إذ هبّت تدافع عن نفسها ضد الهجمات الشرسة لمخادعها الماكر الذى لم يستطع التغلب عليها وخارت قواه بعد إفراغه لما لديها من طاقة لينتهى الصدام بسقوط الاثنين– من شدة الإعياء – على أرضية الحجرة واستسلامهما للنوم.. شاءت إرادة السماء أن يستفيق "كاريثالس" من دهانه ليقوم – كعادته – بتحسس أرجاء السرير، ولما لم يجد زوجته الأثيرة إلى جواره قفز منتفضًا، برشاقة وبسالة غريبتين على سنوات عمره المديد. حين وجد باب الغرفة مفتوحًا ولم يعثر على المفتاح بين الحشيتين طار منه صوابه، لكنه بعد استرداد بعض توازنه خرج إلى الممر، ومنه وصل– على أطراف أصابعه– إلى الصالة حيث تنام القهرمانة، ولما رآها بمفردها اتجه إلى غرفتها ليفتح الباب ويشاهد ما لم يخطر له من قبل على بال: رأى "ليونورا" بين ذراعىّ رجل غريب، وكلاهما مستغرق فى النوم وكأن مفعول الدهان قد انتقل إليهما من المسنّ الغيور.

امتقع لون "كاريثالس" من مرارة المنظر الذى شاهده، والتصقت الصرخة الخارجة من أعماقه بحنجرته، تهدلت ذراعاه وبقى مثل تمثال بارد من الرخام ، وبالرغم من إيقاظ الغضب لحواسه شبه الميتة إلا أن الألم تغلّب عليه وضيّق مجرى تنفسه. ومع هذا فقد كان بوسعه الانتقام للوصمة الكبرى لو كان بيده سلاح ، ولهذا قرر العودة إلى غرفته لإحضار خنجر ليغسل عاره بدم عدويه ودماء ساكنى الدار. وبهذا القصد الشريف والضرورى عاد فى صمت وحذر– مثلما جاء– إلى مخدعه، لكن الألم والضيق أطبقا على قلبه فانكفأ على وجهه غائباً عن الوعى.

مضى الجزء الباقى من الليل والحال هكذا، وانبلج الصباح ليضبط بذوره العاشقين متلبسين بتشابك الأذرع. استيقظت "ماريالونسو" يحدوها الأمل فى الظفر بما توهمته

دورها، ولما وجدت ضوء النهار يغمر المكان لم تجد بُداً من إرجائه إلى ظلام الليلة التالية.. أما "ليونورا" فقد هبّت فزعة من نومها وراحت تلعن تقصيرها وتهاون القهرمانة الملعونة، اتجهت الاثنتان - وثْبًا - إلى غرفة الزوج وهماً تدعوان السماء من بين أسنانهما أن تجداه مستغرقاً فى النوم، وحين أبصرتاه هامداً فوق السرير حسبتا أن مفعول الدهان ما زال سارياً، وعندئذ شرعتا فى تبادل الأحضان. أمسكت "ليونورا" ذراع زوجها وراحت تقلّبه ذات اليمين وذات الشمال علّه يستيقظ دون حاجة إلى غسل مواضع الدهان بالخلّ. أثمرت دفعاتها فى إفاقة "كاريثالس" الذى أرسل تنهيدة عميقة وقال بصوت واهن حزين:

- ياالشقوتى، ومرارة العاقبة التى جلبتْها ثروتى !

لم تفهم "ليونورا" شيئًا مما نطق به زوجها، لكنها عندما وجدته "مستيقظاً" اقتربت منه وعانقته عناقًا حاراً- ملصقة وجهها بوجهه- ثم سألته:

- يبدو أنك تشتكى، يا سيدى، ماذا بك؟

حين سمع العجوز المنكوب صوت عدوته الرقيقة فتح عينيه فى مشقة، وكالملتاث رمقها بنظرة طويلة ملحّة دون أن يحرك أهدابه وقال لها فى النهاية:

- أرسلى فى طلب والديك لأننى أحس بشىء ثقيل يُطبق على صدرى وأخشى مفارقة الحياة قبل رؤيتهما.

لا ريب أن "ليونورا" صدقت كلامه معتقدة أن هذا من تأثير المفعول القوى للدهان، لكنها لبّت طلبه على الفور وأمرت الحبشىّ باستدعاء والديها على جناح السرعة. عادت بعد ذلك لعناقه وملاطفته بشكل غير مسبوق: كانت تسأله بكلمات حنونة عذبة عما يحس به، وهو ينظر إليها مبهوتاً وكأن كل كلمة أو ملاطفة تصدر عنها ليست إلا طعنة رمح تخترق مهجته.

تطوعت القهرمانة بإخبار أهل الدار و "لوأيسا" بمرض سيدها العُضال، وفى غمرة التوتر تناسى الجميع غلْق بوابتى الدار بعد خروج الحبشىّ لاستدعاء والدىّ "ليونورا" اللذين اعترتهما الدهشة للطلب الغريب : إذ لم يسبق لأحدهما دخول تلك الدار بعد زفاف الابنة .

خيّم الصمت المشبع بالقلق والتوتر على ساكنى الدار نتيجة لجهلهم بأبعاد مرض " كاريثالس" الذى كان يرسل- بين الفينة والفينة- بتنهيدة عميقة متألمة بدت وكأنها تقتلع روحه من جذورها.

كانت "ليونورا" تبكى لرؤيته على تلك الحالة، بينما يضحك الزوج ضحكات واهنة ملتاثة معتقداً زيف دموعها.

ولما حضر والدا "ليونورا" ووجدا الباب الخارجى وباب الفناء مفتوحيْن على مصراعيهما والدار غارقة فى الصمت اعترتهما الدهشة المشوبة بالفزع . اتجها إلى غرفة صهريهما فوجداه- كما ذكرنا آنفاً- يحدّق فى وجه زوجته الممسكة بيده، وكلاهما يبكى: هى تبكى لمرضه، بينما يبكيه اعتقاده فى زيف دمعها المسفوح.

دعاهما للجلوس فور دخولهما عليه وأمر الباقين بمغادرة المكان مستثنيا منهم "ماريالونسو"، ودون انتظار منه لتدخل أحدهم بالحديث مسح عينيه وقال بصوت هادىء :

- صهراى العزيزان، لقد أرسلت فى طلبكما لتكونا شاهديْن على ما يصدر منى الآن. تعرفان أنه قد مضى على زواجى من ابنتكما سنة وشهر وخمسة أيام وتسع ساعات، وأننى أمهرتها ما يزيد عن ثلاثة أضعاف ما يقدم لأمثالها من فتيات أغنى البيوتات. لا شك أنكما لم تنسيا كذلك مدى حيطتى فى تفصيل ملابسها ومدى امتثالى لتلبية كافة رغباتها، وعاينتما شدة حرصى - نظراً لطبيعتى الغيورة ولكثرة ما ورد علىّ من غرائب و حادثات خلال سنوات عمرى المديد- فى حفظ هذه الجوهرة وصيانتها قدر استطاعتى: رفعت جدران هذه الدار إلى عنان السماء، وسددت نوافذها، وأحكمت غلْق أبوابها، وبنيت صينية دوارة مثل الموجودات فى الأديرة، وحرمت اجتياز عتبتها على كل من يتمتع بصفة الذكورة- حيواناً كان أو إنساناً- وجلبت الجوارى والخادمات لخدمتها والسهر على راحتها، ولم أبخل عليهن - أو عليها - بشىء يطلبنه، وجعلتها صنواً لى وأسررت إليها بمكنون صدرى، وأطلقت يدها فى ثروتى.. لقد فعلت كل هذا لكى أعيش آمنا فى كنفها، ولتسهيل مهمتها فى تفادى كل ما من شأنه إثارة غيرتى. ولأن حذر

الإنسان مهما تعاظم لا يقيه من عقاب الرب الذى لم يُفَوِّض إليه أمره، فلا غرابة فى أن يلحق العطب بالقواعد التى أسستها أو فى تجرعى للسم الذى صنعته بيدىَ . ولأننى أرى الوجوم عليكم مسيطراً، وأبصاركم معلقة بما يصدر من فمى، سأختم هذه المقدمة المطوّلة بجملة ما حسبت يومًا أنها يمكن أن تصدر فى آلاف من الحالات المشابهة . أقول إن كل ما فعلته واجتهدت فى الحذر منه قد تهاوى فجر هذا اليوم حين شاهدت هذه (مشيراً إلى زوجته)- التى لم تولد إلا لهدف واحد، وهو تبديد راحتى والقضاء على حياتى- بين ذراعى شاب أنيق داخل غرفة هذه القهرمانة الخبيثة الكريهة.

لم يكد ينتهى من عبارته الأخيرة حتى دارت الغرفة بليونورا وانكفأت فوق قدميه مغشيًا عليها. امتقع لون " ماريالونسو"، وفى حنجرة كلا الأبوين تشكلت غصّة عاقتهما عن التفوه ولو بكلمة.لم يعبأ "كاريثالس"بما جرى حوله وواصل حديثه قائلاً:

– الانتقام الذى أفكر فيه يتجاوز حدود المألوف فى مثل هذه الحالة لأننى أتحمل وحدى القسط الأعظم من الذنب نتيجة لمسلكى المتطرف الذى يتناقض مع خبرة سنواتى المديدة المشرفة على الثمانين، ومن هنا سيكون الانتقام موجهًا إلى شخصى. لقد كنت مثل دودة القز التى تصنع قبرها بيدها، أما هذه الصبية التى غرّرت بها ناصحة السوء فلا ذنب لها (انحنى عندئذ على زوجته المغمى عليها وطبع قبلة على جبينها) . أنا لا أحمّلها قدراً ولو ضئيلاً من الذنب لأن سنوات عمرها القصار بما تحويه من قليل خبرة لا تقوى على الصمود أمام مبررات عجوز داهية ومغازلات شاب عاشق. أتمنى أن يكون ما سأُقدم عليه وأنا فى الرمق الأخير من حياتى عبرة لمن يعتبر لأنه لم يرَ من قبل ولم يخطر على قلب بشر . أحضروا محاميًا لكى أعدّل وصيتى وأضاعف مهر "ليونورا" التى أرجوها – إن مت، وأظن أننى هالك لا محالة –أن تتزوج من الفتى الذى لم يرْعَ حرْمةَ لهذا المسنّ الأشيب المكروب، ولو قدر لى العيش لن أنقض ما تعهدت به الآن وسأتمنى لهما السعادة من صميم قلبى . وبالنسبة لبقية ثروتى فأهبها لمؤسسات البرّ، ولكما – يا صهراى العزيزان – أوصى بما يكفيكما للعيش

في هناءة ما بقى لكما من العمر . ليأت المحامى بسرعة لأن معاناتى فى سبيلها لقطع شريان الحياة .

قال هذا وداهمته إغماءة قوية طرحته إلى جوار زوجته . ياله من مشهد محزن وغريب، هذا الذى رأى فيه الأبوان ابنتهما الغالية وصهرهما الحبيب ! لم تنتظر القهرمانة الخبيثة إفاقة "ليونورا" ومواجهتها للوم أبويها، بل تسللت من الحجرة وجرت إلى "لوأيسا" لتخبره بما سمعت، نصحته بعد ذلك بمغادرة الدار على عجل لأنها ستتكفل بإطلاعه أولا بأول – عن طريق الحبشىّ – بما يستجد من أمور، لاسيما وأنه لم تعد هناك أقفال ولا أبواب تمنع الدخول أو الخروج . استولت الدهشة على "لوأيسا" ، لكنه عمل بالنصيحة وارتدى الأسمال البالية وخرج من الدار ميمما شطر زملائه ليقص عليهم الأحداث الغريبة .

أرسل والد " ليونورا" فى طلب محام صديق له، وفور حضوره كان "كاريثالس" وزوجته قد ثابا إلى رشدهما . أملى "كاريثالس" وصيته على النحو السابق دون أن يشير إلى الجرم الذى اقترفته " ليونورا" ، لكنه مال على أذنها ليطلب منها الزواج – حال موته – من ذلك الفتى، ولم يدون هذا الطلب فى الوصية احتراما لذكراه . حين سمعت هذا منه ارتمت على قدميه وقالت له وقلبها ينتفض:

– عش ما شئت من السنوات يا سيدى ومنتهى أملى، ورغم أنك لست مُجبراً على تصديقى أقول لك: إننى لم أخدعك قطّ ولم أخنك ولا حتى بمجرد التفكير أو النية .

حين همّت بالاعتذار وقص حقيقة ما جرى لم تستطع تحريك لسانها وسقطت من جديد مغشياً عليها . عانقها العجوز المكروب وهى طريحة على الفراش وكذلك أبواها . بكى ثلاثتهم بمرارة أجبرت المحامِى على الانخراط مثلهم فى النحيب .. تضمنت الوصية أيضاً معاشاً للخادمات ونصّاً بعتق الجوارى والحبشىّ ، ولم تُصبْ منها القهرمانة المزيفة سوى راتبها الشهرى . خلاصة القول إن الألم أودى فى النهاية بحياة " كاريثالس " وأنهم حملوه إلى مثواه الأخير بعد سبعين يوماً من تلك الواقعة الأليمة .

أصبحت "ليونورا" أرملة غنية وباكية، وفى الوقت الذى كان يراود فيه الأمل "لوأيسا" بزواجها منه تنفيذاً لوصية المتوفى، قامت هى - بعد أسبوع واحد من الوفاة - بالترهبن والالتحاق بأحد الأديرة الأشد عزلة فى المدينة . تملكه الغيظ حينئذ واستبدّ به اليأس ولم يجد بدّاً من اتخاذ قراره المتسرع بالرحيل إلى العالم الجديد ..

حزن والدا "ليونورا" حزناً شديداً لالتحاق ابنتهما بالدير؛ لكنهما وجدا غير قليل من العزاء والسلوى فيما تركه لهما صهرهما فى وصيته، كما تسلّت الخادمات بالمعاش المفروض لهن، وأيضاً الجوارى و الحبشىّ بالحرية المستردة.

أما القهرمانة الخبيثة فقد خرجت صفْر اليدين جزاءً وفاقاً على سوء صنيعها .

أما أنا، فلم تبق لدى سوى الرغبة فى الوصول إلى نهاية هذه الحكاية المحزنة التى ترشدنا إلى عدم الركون إلى المفاتيح و الأقفال أو الصّوانى الدوّارة أو الأسوار العالية طالما ظلت الإرادة حرة طليقة وإلى أن السنوات الخضْر القصار ليست أهلاً للثقة وعلى وجه الخصوص إذا كانت هدفاً لتحريضات القهرمانات المتشحات بالعباءات الطويلة السوداء ، وبالأخمرة البيضاء المسْبَلة ..ما يحيرنى فى هذا الأمر هو أننى لا أجد سبباً لإحجام "ليونورا" عن الاعتذار والدفاع عن نفسها بقوة أمام زوجها الغيور، وإفهامه أنها خرجت من تلك المحنة طاهرة الذيل ونقية كالثلج .. لعل الاضطراب هو الذى ألجم لسانها، وأن موت زوجها السريع هو الذى حال بينها وبين الاعتذار وتبرئة الساحة .

***

صاحبة السيادة : الخادمة [1]

(١) اختار الكاتب لقباً وصفة - تخالفه فى المعنى - لإطلاقهما على بطلة القصة : فكلمة fregona عبارة عن لقب تحقيرى يطلق على الخادمة التى تعمل بالتنظيف وغسيل الأوانى ، أما النعت ilustre فيشير إلى جملة من المدلولات السامية (مثل: صاحبة السيادة ، كريمة الأصل ، الشريفة ، الشهيرة ... إلخ) التى تتناسب مع شخصية البطلة . (المترجم)

منذ سنوات ليست ببعيدة كان يعيش فى مدينة "برغش" (Burgos) ، الشهيرة المحترمة ، رجلان شريفان من ذوى الثراء والجاه : أحدهما يسمى "دون [٢] دييجو دى كارّياثو" بينما يدعى الآخر "دون خوان دى أبيندانيو" . كان لكل منهما ولد فى معيّة الشباب : يحمل الأول اسم أبيه (دييجو) ،أما ابن الثانى فيحمل اسم "توماس دى أبيندانيو" . ومن أجل اختصار أسماء الشخصيات الرئيسية الواردة بهذه القصة – توفيراً للوقت والجهد – فإننا سنكتفى عند الإشارة إلى هذين الفتيين بذكر لقبيهما فقط، وهما : "كارّياثو" للأول ، و "أبيندانيو" للثانى .

كان "كارّياثو" يناهز الثالثة عشرة من العمر ، أو أكثر قليلاً ، حين ظهرت عليه – نتيجة لميوله الفطرية ، ودون تأثير من أحد – أمارات الوله الشديد بحياة الصعلكة . دفعه هيامه بتلك الحياة الحرة الطليقة إلى ترك بيت والده – على ما فيه من رغد العيش – والخروج سائحاً فى بلاد الله الواسعة ، غير عابئ بما يكتنف حياة التشرد من بؤس وكدر. لم يكن المشى على القدمين يتعبه ، ولا تغضبه الحرارة الشديدة ، ولا تزعجه البرودة القارصة لأن فصول السنة كلها أصبحت – بالنسبة له – ربيعاً عذباً حنوناً . كان ينام ملء جفنيه مستمتعاً على بقايا الحصاد فى البيادر وكأنه ينام على الحشايا الوثيرة ، ويندس بين كومات التبن فى مخازن الخانات وكأنه ملفوف بالملاءات الهولندية . خلاصة القول أنه تأقلم مع حياة الصعلكة وأصبح من عمدائها وكأنه قد تخرج من جامعة "ألفاراتشى" [٣] .

فى السنوات الثلاث التى قضاها بعيداً عن بيته تعلم لعبة "التابا" فى مدريد، ولعبة الورق المسماه Rentoy فى خانات طليطلة ، ونوعاً آخر من ألعاب الورق يسمى Parar

---

(٢) "دون" لقب بمعنى سيد ، وهو أشد خصوصية ورفعة من لقب "سنيور" (بمعنى سيد أيضاً) لأنه يسبق دائماً أسماء الشخصيات ذات المكانة الاجتماعية والثقافية المرموقة . (المترجم)

(٣) يشير الكاتب إلى بطل قصة "جوثمان دى ألفاراتشى" (للمؤلف :ماتيو أليمان) ، وهى من أشهر قصص الصعاليك الإسبانية ، وقد صدر الجزء الأول منها عام ١٥٩٩ والجزء الثانى فى ١٦٠٤ . (المترجم)

عند أسوار إشبيلية الواطئة المتاخمة للخندق . وبالرغم من شظف العيش والعوز اللذين يكتنفان هذه الحياة إلا أن "كارّياثو" كان يتصرف مثل الأمراء : لم يكن يدانيه أحد في الرماية بالبندقية ، ويوشى نبل تعامله وسخاؤه مع زملائه بأصالة معدنه . لم يكن يزور صوامع "باكو" (٤) إلا لماماً ، ولا يشرب النبيذ إلا بقدر ، ولهذا لا يمكن إدخاله في عداد من يطلق عليهم "الأشقياء المزعجون" الذين يسرفون في تعاطى الخمور حتى تتحول وجوههم إلى اللون الأحمر القرمزى وتصبح مثل المغراة . خلاصة القول إن عالم الصعلكة وجد فى "كارياثو" أنموذجاً للصعلوك الفاضل ، النظيف ، الخلوق المؤدب ، والفطن بنسبة تزيد عن المتوسط . مرّ بجميع مراحل حياة الصعلكة إلى أن حصل على شهادة التخرج برتبة معلم من "مضارب الزّهرة" (٥) ، وهى قمة مدارسها.

يا صعانيك إسبانيا وشذّاذ آفاقها من الأقذار المترهلين أو متصنعى الفقر أو مدعى الكساح ، يا من تشقون الجيوب فى سوق الدواب بطليطلة أو فى ميدان مدريد الكبير، يا من تقرأون الصلوات على أبواب البيوت أو تحملون السلال فى إشبيلية أو تخدمون الأوغاد والبغايا وحثالة المجتمع ... إلى آخر هذا السجل الطويل الحافل بأنشطتكم ، لا تتعالوا ، وخففوا من غلوائكم لأنكم لا تستحقون هذا اللقب المهيب ما لم تكونوا قد مررتم أولا على أكاديمية "مضارب الزهرة" ومكثتم سنتين على الأقل فى قاعات دروسها. أنها المركز الوحيد الذى يتآخى فيه النشاط الدائب مع البوهيمية والتنطع ، وفيه – دون غيره – تغدو القذارة نظافة والترهّل اكتنازاً. هناك فقط نجد : الجوع بلا حساب ، والشبع بلا حدود والرذيلة بلا قناع ، ولعب الورق موصول ليله بالنهار ، والشجار فى كل لحظة ، والقتلى فى كل آن ، وفحش القول مع كل خطوة ، والرقص على قدم وساق ، والألحان والأغانى الشعبية فى الرّكاب وتحت الأقدام ، والشعر يتفجر شؤبباً من جميع الأركان .هناك : يصدح الغناء من جانب ، ومن آخر يتعالى السُباب؛ هذه جهة مشغولة بالعراك ، وتلك أخرى بلعب الأوراق ، وفى جميع الاتجاهات

---

(٤) "باكو" Baco : هو إله الخمر . (المترجم)

(٥) "مضارب الزهرة" Zahara : هى إحدى المصايد الشهيرة لسمك التونة وتقع على ساحل البحر المتوسط بالقرب من مضيق جبل طارق • وطبقًا لما ذكره المؤرخون والنقّاد فقد شهدت تلك المنطقة – خلال عصر المؤلف – حضور العديد من أبناء النبلاء الذين استهوتهم حياة التشرد والصعلكة. (المترجم)

والجوانب تعلن عن نفسها السرقات . هناك تتبختر الحرية مزهوّة ويتألق النشاط ، وإلى هنالك يذهب الآباء المحترمون من علِّية القوم – أو يرسلون نوّاباً عنهم – للبحث عن أولادهم ولا يخرجونهم من المضارب إلا بشق الأنفس وكأنهم يسوقونهم إلى الموت سوْقاً.

لكن الصورة المشوقة اللذيذة التى قمنا برسمها آنفًا لا تخلو من مرارة تفسد حلاوتها، ألا وهى المتمثلة فى فقدان النوم المريح المطمئن ، وذلك لامتزاجه بالخوف من ترك المضارب بغتة والانتقال – قسراً – إلى بلاد البربر على العَدْوة الأخرى ، ولهذا السبب كان الصعاليك يقضون الليل فى عدد من الأبراج البحرية ويتخذون العسس والمراقبين حتى يتمكنوا من إطباق جفونهم اعتماداً على يقظة عيون حراسهم، ورغم هذه الاحتياطات فكثيراً ما أمست تلك الجموع المشوشة المضطربة – بما فيها الحرّاس والعسس – فى"مضارب الزهرة" وأشرق عليها صباح اليوم التالى وهى بين أحضان مدينة "تطوان".. لكن هذا الخوف المقيم لم يمنع صاحبنا "كارّياثو" من الاصطياف ثلاثة مواسم متتالية بتلك المضارب وقضاء وقت ممتع بها .فى الصيف الأخير من الثلاثة حالفه الحظ وربح من لعب الورق ما يقرب من سبعمائة ريال فكّر فى استخدامها لشراء ثياب لائقة والعودة إلى "برغش" ليكفكف دموع والدته التى سالت عليه مدراراً . استأذن أصدقاءه– وله منهم الكثيرون ، والأوفياء أيضًا – فى الرحيل بعدما وعدهم بالحضور فى الصيف القادم ما لم يفسد عليه تدبيره موت أو مرض . أودع عندهم نصف مهجته ، وعهد بأشواقه ورغباته إلى تلك الرمال الجافة التى تبدو لناظريه أشد خضرة ونضارة من جنة الفردوس . ولأنه كان معتاداً على المشيِ فقد استلم ناصية الطريق مغتبطاً ، وعلى نعلين من الحلّفاء وصل – دونما تعب أو نصب – إلى "بلد الوليد" التى أمضى فيها خمسة عشر يومًا لكى يبدّل الوجه الخلاسىّ بوجهه الأسيل المتورد ، ولينفض عن كاهله غبار حياة الصعلكة إيذاناً بالدخول فى سمْت الشاب النظيف المحترم .

من خمسمائة ريال التى وصل بها إلى "بلد الوليد" أنفق على العملية السابقة أربعمائة ، وبمائة الريال الباقية استأجر بغلة وغلاماً ليدخل بهما على أبويه محفوفًا بالاحترام والبهجة . استقبله أبواه بفرحة غامرة ، ولم يكد خبر عودته ينتشر فى

المدينة حتى توافد الأهل والخلان لتهنئة الوالد بالعَوْد الحميد لولده . تجدر الإشارة إلى أن "دون دييجو دى كارّياثو" (الابن) كان قد استعار لنفسه خلال السنوات الثلاث اسم "أورديالس" ليناديه به الذين لا يعرفون اسمه الحقيقى ، وأن "دون خوان دى أبيندانيو" وابنه "توماس" كانا ضمن القادمين للسلام عليه ، وأن صداقة حميمة جمعت بين "توماس" و"كارّياثو" لتقاربهما فى السن.

حكى "كارّياثو" لأبويه وزائريه آلاف الأكاذيب المدهشة عن وقائع ملفقة جرت له فى سنوات غربته ، لكنه لم يتطرق أبداً إلى المضارب التى كانت تسيطر بصفة دائمة على مخيلته ويتعاظم تمكنها منه كلما اقترب الموعد الذى حدده مع أصدقائه للعودة إليها . لم تكن مسابقات الصيد التى يشغله بها والده تسليه، ولم تكن الولائم والحفلات الباذخة العفيفة التى تعمر بها المدينة تطربه وترضيه . كانت جميع وسائل اللهو تضجره وتتعبه لأنها تبدو له أقل بكثير مما مارسه وشاهده فى المضارب.

حين رآه صديقه "أبيندانيو" مكتئباً وغارقاً على الدوام فى التفكير دفعه رصيد الصداقة بينهما إلى التجرؤ بسؤاله عن السبب ، مبدياً له استعداده لبذل الغالى والنفيس لإخراجه من تلك الحالة . لم يعمد كارّياثو لإخفاء الحقيقة حتى لا يودى بأواصر الصداقة التى تُنْبئ عن رسوخ ومتانة جذور ، وهكذا أخذ يقص عليه دقائق وتفاصيل حياة الصعلكة ويعترف له بأن الرغبة المستبدة فى العودة إليها هى السبب فى أحزانه وهمومه . ومن الطريقة الشائقة التى صور بها تلك الحياة لم يكد يفرغ من كلامه حتى لهج لسان صديقه بالثناء على ذوقه ومسلكه .

المهم أن كلام "كارّياثو" أثمر فى النهاية عن استمالة "أبيندانيو" ، كما أدى الى اتخاذه القرار بتخصيص الصيف القادم للتمتع بتلك الحياة الحرّة السعيدة التى تفنن صاحبه فى تصويرها .سرّ "كارّياثو" بقرار صديقه الذى وجد فيه نعم المعين على المضى قدماً فى عبثه واستكمال مشروعه المزْرى الذى يتنافى مع واقعه الاجتماعى. اتفقا على ادخار ما يصل إلى أيديهما من أموال ، وبحثا عن حيلة لا تسترعى الانتباه لخروجهما سوياً ، وبعد الكثير من البحث والتفكير عثرا على ضالتهما فى الرحلة التى سيقوم بها "أبيندانيو" بعد شهرين : كان الأخير قد أمضى من قبل ثلاث سنوات فى "شلمنقة" لدراسة اللغتين : اليونانية واللاتينية ، وبعد عودته أقنعه أبوه بضرورة

استكمال الدراسة بإحدى كليات تلك المدينة ووعده بتحمّل كافة المصروفات من أجل تحقيق هذا الهدف ، ولما كانت الدراسة ستبدأ فى "شلمنقة" بعد شهرين فقد اتفقا على اتخاذ خروج "أبيندانيو" إليها غطاءً لوجهتهما الحقيقية .

فى خلال تلك الفترة أعرب "كارِّياثو" لوالده عن رغبته فى مرافقة " أبيندانيو" للدراسة فى جامعة شلمنقة .لم يخْفِ الوالد سروره بهذا الطلب واتفق مع "دون خوان دى أبيندانيو" على استئجار دار تليق بنجليهما وتزويدها بكل وسائل الراحة .

ولما دنا موعد الرحيل استأجر الأبوان مُؤدِّباً – تفوق أخلاقه الحميدة كياسته وفطنته – للإشراف على ولديهما وأعطياه المال الكافى للإنفاق على متطلبات الدراسة. لم ينسيا أيضًا توصية الطالبيْن قبيل رحلتهما العلمية بتوخى الجدية والاستقامة حتى يحققا الغاية التى يسعى إليها كل دارس – لا سيما أولاد الأصول – ولا سبيل للاستعانة عليها إلا بالمثابرة وبذل الجهد وسهر الليالى . أبدى الطالبان انصياعهما للتوجيهات والنصائح ، وبعد هطول الدموع الغزيرة من عيون والدتيهما ، وتلقيهما مباركة الأهل والصحاب ، رحلا بصحبة خادميْن ، فضلاً عن المؤدب الذى سارع بإعفاء لحيته لكى يضفى الأهليّة والمهابة على سلطته .

حين وصل الرَّكْب إلى مدينة "بلد الوليد" طلبا من المؤدِّب قضاء يومين فيها لزيارة معالمها ، فما كان منه إلا أن قام بتوبيخهما وتسفيه أحلامهما قائلاً : إن من يريد اللحاق على جناح السرعة ببداية الدراسة لا ينبغى أن يخالجه التفكير فى التوقف ولو ساعةً ، فما بال التفكير فى يومين ! هددهما بعد ذلك بإبلاغ أبويهما لو عادا لمثلها ثانية وفكّرا فى التلكؤ ولو لدقيقة واحدة .

توقفت ألمعيّة ومهارة السيد المؤدِّب – أو القهرمان ، كما يحلو لنا تسميته – عند هذا الحد . أما الفتيان اللذان يعرفان طريقهما جيداً ، فبعد سرقتهما لأربعمائه الإسكودو التى يحتفظ بها كبيرهم طلبا منه التصريح لهما بذلك اليوم فقط لرؤية عيون "أرجالس" التى تحمل القناطر الشاهقة العريضة مياهها إلى "بلد الوليد" . ولما كان المؤدب مشغولاً بالبحث عن مبرر للمبيت فى " بالدياستياس" (٦) وتقسيم مسافة

(٦) تقع Valdeastillas على نهر Adaja جنوب بلد الوليد . (المترجم)

الثمانية عشر فرسخاً الواقعة بينها وبين "شلمنقة" فقد أذن لهما والألم يهتصر مهجته ، لكن الأمر انتهى إلى خلاف ما يشتهى ، وكما يقول المثل : "أفكار الجواد تمضى فى وادٍ وفكر من يسرجه فى وادٍ آخر" .

انتقى الفتيان أفضل بغلتين ، وعلى متنيهما وبصحبة خادم اتجهوا صوب مجرى عيون "أرجالس" الذى يفوق فى الشهرة والقدم مجارى عيون : "كانيو دورادو" و"بريورا " و"كاستيّانا" فى مدريد ، و"كوريا" و"بيثارا" فى إقليم لامنتشا. حين وصلوا إلى "أرجالس" أدخل "أبيندانيو" يده فى رحله فظن الخادم أنه سيخرج آنية يشربون بها ، لكنه بسطها إليه بخطاب مغلق وطلب منه تسليمه للمؤدب وانتظارهما عند بوّابة "الكامبو" (٧) .

لم يكد الخادم يتسلم الخطاب ويتجه به صوب المدينة (بلد الوليد) حتى لويا الأعنة وأخذا الاتجاه المضاد ، وفى تلك الليلة ناما فى "موخادوس" (٨) ، وبعد يومين وصلا إلى مدريد التى أمضيا فيها أربعة أيام أخرى باعا خلالها البغلتين بمبلغ كبير. اشتريا لكل واحد منهما - على شاكلة الفلاحين والقرويين - معطفاً قصيراً من الخيش وسروالاً ردىء الصنع ونعلين واسعين وجورباً داكناً من الكتان ، وبعد قيامهما ببيع ملابسهما الأصلية وارتدائهما للجديدة أصبح من المتعذر التعرف عليهما حتى ولومن أقرب الناس إليهما .

بعد التخفف مما كان معهما - حتى من السيفين اللذين باعاهما أيضًا لصاحب محل الملابس - استلما الطريق إلى طليطلة ،لا يلويان على شىء .

لندعهما - مؤقتاً - يمضيان هانئين وننتقل إلى المؤدب للتعرف على رد فعله حين فضّ الرسالة التى سلمها له الخادم وقرأ فيها ما يلى :

"تكون قد أديت ما عليك من واجب ، يا سيد "بدرو ألونسو" ، لو تحلّيت بالصبر ورجعت إلى "برغش" لتخبر أبوينا أننا بعد إعمال الفكر فضلنا السلاح وحياة الجندية

---

(٧) بوابة El Campo هى إحدى بوّابات بلد الوليد الأربع • ويقال إن ثربانتس كان يعيش بالقرب من هذه البوابة عندما عثر على رجل مقتول أمام بيته. ومن المعروف أنه دخل السجن لهذا السبب ، ولم يغادره إلا بعد سلسلة طويلة من التحقيقات أثبتت براءته. (المترجم)

٨ - تقع Mojados على نهر Cega ، ويفصل بينها وبين جنوب بلد الوليد حوالى ٢١كم ، كما تبعد عن بالدياستياس بحوالى ١٠كم . (المترجم)

على الكتاب وطلب العلم ، ولذا فقد قررنا استبدال شلمنقة ببروكسل وإسبانيا بفلاندس. لا تفتش عن أربعمائة الإسكودو لأنها معنا ، ولا عن البغلتين لأننا نفكر في بيعهما. لا ريب أن غايتنا النبيلة ومشوارنا الطويل الصعب هما خير اعتذار لما أقدمنا عليه ولايجرؤ على نعته بالحمق والغلط إلا كل رعديد جبان . ساعتنا هذه هي موعد الرحيل ، أما العودة فمتوقفة على الانتهاء من خدمة الرب الذي ندعوه – نحن تلميذيك الصغيرين – بأن يحفظك قدر المستطاع .من أمام مجرى عيون "أرجالس" والأرجل في الرّكاب ، ميممة شطر فلاندس نكتب إليك :

"كاريّاثو" و "أبيندانيو" ".

بُهت "بدرو ألونسو" من فحوى الرسالة ، ولما تبين له صدق ما جاء فيها (بعد قيامه بتفتيش حقيبته واتضاح خلوّها من أربعمائة الإسكودو) ركب البغلة الباقية وغذّ السير إلى "برغش" ليبلغ الوالدين قبل فوات الأوان حتى يتمكنا من تدارك الموقف ، لكن مؤلف القصة أمسك عن تتبع ما حدث في هذا الاتجاه إذ اكتفى بوضع "بدرو ألونسو" على سرج البغلة وانطلق خلف "أبيندانيو" و" كاريّاثو" ليحدثنا بما جرى لهما قائلاً : إنهما وجدا بعد دخولهما من بوابة "إيبيسكاس" بغّالين أندلسيين يرتدي كل منهما سروالاً فضفاضاً من الكتان الخشن وسترة ضيقة وقصيرة من الجلد ويعلق في حزامه حساماً وخنجراً مدبباً ، كان أحدهما – على ما يبدو – قادماً من إشبيلية والآخر ذاهباً إليها ، والمتجه إليها يقول للعائد منها :

– لو لم يكن مخدومي سبقني بكثير لتوقفت وقتاً أطول للاستفسار عن آلاف الأشياء التي أود معرفتها لأنك شوّقتني بما حكيته لي عن الكونت الذي بادر بشنق "ألونسوخينيس" و"ريبيرا" دون تمكينهما من طلب الاستئناف.

– لقد نصب لهما الكونت فخّاً – قال الإشبيلي – واستدرجهما برجلين من أعوانه إلى دائرة اختصاصه ، ولم يسمح بعد ذلك للمحكمة الإقليمية باستردادهما. أتعلم ، يا صديقي ، أن الكونت "بونيونروسترو" هذا شعلة من النشاط الدائب ، وأن أصابع كفّيه تمتد إلى حلوقنا وتهدد أرواحنا التي ترفرف بين ضلوعنا ؟ لقد تمكن من تطهير إشبيلية والفراسخ العشرة المحيطة بها من متصنعي الأناقة والشجاعة ، ومن بثّ الرعب في نفوس

اللصوص والمجرمين لدرجة أنهم لا يفكرون فى مجرد المرور على مقربة من المدينة .ورغم أن الكل يخشاه مثل النار الحارقة فقد أُشيع مؤخراً أنه يعتزم الاستقالة من منصب "صاحب المدينة" [٩] تفادياً للصدام المستمر مع سادة المحكمة الإقليمية .

– ليعش لنا سادة المحكمة الإقليمية ومن هم على شاكلتهم من رجال القضاء آلاف السنين – قال المتجه إلى إشبيلية – فهم ملاذ البؤساء أمثالنا ، ومستودع آمال المنكوبين . كم من التعساء قد دفن تحت الثرى بسبب قاض متسلط أو مأمور قضائى حانق يصدّق كل ما يصل إليه من بلاغات كاذبة الا شك أن العيون الكثيرة تتمتع برؤية أفضل مما تراه عينان اثنتان ؛ فسمُّ العدالة الناقع لا يسرى فى القلوب المتعددة مثل سريانه الفورى فى القلب الواحد [١٠] .

– أرى أنك تحولت إلى واعظ – قال القادم من إشبيلية – وبما أنك حادى القطيع هنا ، ولن تنتهى سريعاً وليس بوسعى الانتظار أكثر من ذلك ، أُسرُّ فى أذنيك قبيل رحيلى بما يلى : إنك لن تنام هذه الليلة فى مكان مشابه لأماكن نومك السابقة ، بل فى "خان الإشبيلى" الذى تعمل فيه أجمل خادمة على وجه البسيطة ، "مارينيا" خادمة نزل " تيخادا" [١١] هى والقبح سواء إذا ما قورنت بها ؛ يكفى أن أخبرك بأن ابن المأمور القضائى

---

(٩) يقول المؤرخون إن كونت " بونيونروسترو" Punonrostro هذا كان يتولى – فى عصر المؤلف – منصب "صاحب المدينة" بإشبيلية ، وإسبانيا أخذت هذا المنصب من النظام الإدارى والقضائى الأندلسى ، وكان صاحبه يتولى الإشراف على إدارة المدينة وقيادة الشرطة المدنية بها ٠ وطبقاً لما رواه المؤرخون فقد كان هذا الكونت أفضل من ولى خطة "صاحب المدينة" فى إشبيلية؛ لأنه كان فى غاية اليقظة والحزم ولا يقبل الرشوة أو الوساطة ، وقد استطاع تطهير المدينة ونواحيها من الشباب المتنطع الفاسد (مثل "لوأيسا" فى قصة "غيورإكستريمادورا") ومن اللصوص والمجرمين (ومن عتاتهم "ألونسوخينيس" و "ريبيرا" المذكورين آنفا) . (المترجم)

(١٠) لا يخفى ما بهذه الفقرة من تعريض بسلوكيات رجال القضاء وبتأثير الرشوة والمحسوبية على أحكامهم، وتعاطف الخارجين على القانون معهم – كما توحى العبارة – خير شاهد على فسادهم. (المترجم)

(١١) نُزل يقع بالقرب من "المدور" بمحافظة "ثيوداد ريال" (أو المدينة الملكية) . (المترجم)

لطليطلة مـهـووس بهـا . ولست أذيع سـراً إن قلت لـك إن واحـداً من سـادتـي أقـسم بأغلظ الأيمان على أنه سـيـمكث - في طـريق عـودته للأندلس - شـهرين كـاملين في ذلك الخـان لكي يشـبع لحد التـخـمة من النظر إليهـا . سأترك لك نفحة يسيرة من أوصافها لأمضي- في المقابل - محملاً بصفعة هائلة . إنها صلبة كالرخام ، وحْشية مثل فلاحات "ساياجو" ، وخشنة مثل نبات النار ، لكنها تنعم بوجه ملائكي صبوح ، على إحدى صفحتيه تشرق الشمس ، وعلى الأخرى يسطع القمر ، لها خدّ مصنوع من الورد والآخر من القرنفل ، وفي كليهما يمرح الياسمين والسوسن . لن أخبرك بالمزيد حتى تراها ، وستدرك ساعتها مدى قِصر باعي في الإدلاء بأوصافها . لن أتردد لحظة - لو قبلوني زوجًا - في تقديم بغلتي الشهباويْن مـهراً لها ، لكنني أعرف مسبقًا أنهم سيضنون عليّ بهذه الجوهرة النفيسة التي لا تليق إلا بتاج كونت أو رئيسٍ للكهنة . ستراها هنالك ، ومع السلامة لأني راحل .

افترق البغّالان ، لكن وقْع حوارهما السابق كان كافيًا لإخراس الصديقيْن المرهفين للسمع ، لاسيما "أبيندانيو" الذي أيقظ فيه وصف البغّال لجمال الخادمة رغبة عارمة لرؤيتـها . تولدت الرغبـة أيضًا في نفس "كـاريّاثو" ، لكنهـا لم تصل إلى الحـد الذي يحول بينه وبين مواصلة رحلته إلى المضارب ، إذ لا يستحق هذا - في نظره - سوى أهرامات مصر أو عجيبة أخرى من عجائب الدنيا السبع أو كليهما معاً .

تَسلّيا في الطريق إلى طليطلة بإعادة حديث البغّالين وتقليد إيماءاتهما ، ولما وصلا إلى المدينة لعب "كاريّاثو" دور المرشد - لزيارته السابقة لها - واقتاد صديقه إلى شارع "سانجري دي كريستو" الذي عثرا في نهايته على "خان الإشبيلي" (١٢) ؛ لكنهما لم يجرؤا على طلب المبيت فيه لأن الملابس التي يرتديانها لا تؤهلهما لذلك . كـان الليل قد أرخى سدوله ، وبالرغم من أن "كـاريـاثو" حـاول بشـتى الطرق إقناع "أبيندانيو" بالذهاب إلى مكان آخر للبحث عن نزل يقضيان فيه الليلة إلا أنه لم

(١٢) أشار "رفائيل راميريث دي أريّانو" عام ١٩١٩ إلى أن "خان الإشبيلي" يقع في نهاية الجانب الأيسر لشارع "سانجري دي كريستو" وأنه يفصله عن دير "دل كارمن" منحدر يؤدي إلى شارع متسع يحمل اسم الدير، وإلى بوابة "القنطرة" . وقد أتى حريق هائل على هذا الخان عام ١٩٣٦ . (المترجم)

يستطع زحزحته من أمام "خان الإشبيلى" . ولما أطبق الظلام ولم تظهر الخادمة انتاب "كارياثو" اليأس ، لكن صديقه ظل رابضاً – دون حراك – فى موضعه. ولكى يحقق "أبيندانيو" الهدف الذى جاء من أجله اجتاز بوابة الخان ووصل إلى فنائه بدعوى السؤال عن بضعة رجال من "برغش" فى طريقهم إلى إشبيلية ، لم يكد يدخل حتى شاهد فى أحد أبهاء الفناء فتاةً فى الخامسة عشرة من العمر تقريباً ترتدى ثوباً ريفياً وبيدها شمعدان عليه شمعة مضاءة .

لم تدقق عينا "أبيندانيو" فى ثوب الفتاة بل اتجهتا إلى وجهها الذى بدا له مثل إحدى الأيقونات التى اعتاد الفنانون رسمها للملائكة . أبهته جمالها وأخرس لسانه فلم يقْو على النطق بكلمة ، ولما رأته الفتاة واجمًا سألته:

– أتبحث عن شيء يا أخى ؟ هل أنت خادم لأحد نزلاء الخان؟

– لست خادماً لأحد سواكم – أجاب بصوت مشوب بالتوتر والانفعال .

نادت على سيدها حينئذ وقالت له:

– هلا تكرمت بالنظر فيما يريده هذا الفتى!

خرج صاحب الخان وسأله عن حاجته .أجابه أبيندانيو قائلاً : إنه يبحث عن بضعة رجال من "برغش" متجهين إلى إشبيلية ، ومن بينهم سيده الذى كلَّفه بالسفر قبلهم إلى "قلعة هنارس" لقضاء شأن من شئونه وانتظاره بعد الفراغ من المهمة فى "خان الإشبيلي" الذى سيصلون إليه الليلة أو غداً على أكثر تقدير .أجاد " أبيندانيو" سبك الحكاية المختلَقة لأن صاحب الخان صدَّقها وعرض عليه الآتى :

– يمكنك الإقامة فى الخان لحين وصول سيدك .

– شكراً جزيلاً ، وليتكرم صاحب الخان بإعطاء أوامره بحجز غرفة مزدوجة لأن لى زميلاً ينتظر بالخارج وسنسدد له أجرتها مثل الآخرين وزيادة .

– مرحباً بكما .

ثم التفت صاحب الخان إلى الفتاة وقال لها :

– "كوستانثا" ، اطلبى من "أرجويّو" اصطحاب هذين الوسيمين إلى الغرفة المتطرفة وفرْش ملاءات جديدة لهما .

أدت الفتاة التحية لصاحب الخان ، ولما انصرفت من أمامهما خُيِّل لأبيندانيو أن الظلمة المدلهمة قد أطبقت على المكان بعد انسحاب الشمس الساطعة منه .خرج بعد ذلك ليخبر "كارّياثو" بما رأى وليطلعه على نتيجة مداولاته مع صاحب الخان . أحس صديقه – من آلاف الأمارات البادية عليه–أن سهم الحب المميت قد أصابه فى مقتل ، لكنه آثر السكوت لحين رؤية الفتاة والنظر فيما إذا كان جمالها يستحق كل هذه الضجة .

اقتادتهما "لاأرجويّو "(المشرفة على ترتيب الحجرات والأسرّة ، وهى امرأة فى منتصف العقد الخامس من عمرها) إلى غرفة متوسطة المستوى : لاهى من المخصصات للسادة ولا من المفروضات على الخدم ، ولما طلبا منها العشاء قالت لهما إن الخان لا يقدم الوجبات وإنما يقتصر دوره على طهى وإعداد ما يحضره النزلاء معهم ، ومن ثمّ يمكنهما – دون أدنى تأنيب للضمير – الذهاب إلى أىّ مطعم شعبى من المطاعم المنتشرة بالمنطقة وسيجدان فيه ما يشتهيان ، عملا بنصيحتها ، وفى المطعم ازدرد كارّياثو ما قدموه له بينما اكتفى أبيندانيو باجترار ما يحمله من هموم وأفكار.

احتار "كارّياثو" فى تفسير عزوف صديقه عن الطعام ، ولكى يقف على حقيقة ما يدور بدخيلته قال له فى طريق العودة إلى الخان:

– يناسبنا الاستيقاظ المبكر لكى نصل إلى Orgaz قبل ارتفاع درجة الحرارة .

– لا تعتمد علىّ فى هذا لأنى لا أفكر فى الرحيل من المدينة قبل رؤية معالمها الشهيرة مثل : "بيت القربان المقدس" ، ورافعات الماء التى اخترعها " خوانيلو" [(١٣)] ومناظر "سان أجوستين" الطبيعية [(١٤)] ، وبساتين الملك [(١٥)] والغوطة الطليطلية .

---

(١٣) استطاع أحد المهندسين ويدعى " خوانيلو" اختراع مجموعة من الآلات لرفع مياه نهر " التاجه" إلى مدينة طليطلة الشاهقة الارتفاع ، وفى حملها فى قنوات ومواسير إلى دير "دل كارمن" وإلى منطقة "القصر" Alcázar . (المترجم)

(١٤) تشرف منطقة دير "سان أجوستين"على مناظر طبيعية خلابة تشمل النهر والغوطة والبساتين الممتدة ، وقد اعتاد الناس زيارة هذه المنطقة للاسترواح والاستمتاع بمناظرها ولاستنشاق هوائها الرطب – صيفاً – أو التنعم بأشعة شمسها شتاءً . (المترجم)

(١٥) شهرة هذه البساتين لا تكمن فقط فى امتدادها العريض وخضرتها اليانعة بل فى قنوات الرى العجيبة التى تخترق أجزاءها المختلفة . (المترجم)

– حسناً ، رؤية هذا لاتحتاج لأكثر من يومين .

– فيم العجلة ؟ أتحسبنا ذاهبين إلى روما لشغل وظيفة شاغرة بها!

– (تا ، تا) (١٦) ، أدعو على نفسي بالويل والثبور إن لم تكن رغبتك في البقاء بطليطلة قد طغت ، يا صديقي، على الرغبة في مواصلة الرحلة التي بدأناها سوياً .

– للأسف ، هذه هي الحقيقة ، أتدرى لماذا ؟ لأن الحرمان من مشاهدة وجه تلك الفتاة يشبه صعود الروح إلى بارئها وهي خاوية الوفاض من صالح الأعمال ، وكلا الأمرين لا يحتمل .

– يا للهول ! لا أكاد أصدق . "دون توماس دي أبيندانيو" ، ابن "دون خوان دي أبيندانيو" ، كريم الأصل والنسب ، الشاب الثريّ جميل الطلعة ، الطموح الحصيف ، يقع في غرام خادمة خان الإشبيلي ! !

– الشيء نفسه أقوله لك :" دون دييجو دي كارّياثو" ، ابن "دون دييجو دي كارّياثو" فارس رهبانية "القنطرة" المغوار ، سليل المجد والشرف ، والمؤهّل جسداً وروحاً لاحتلال مكانة والده العظيمة يسقط مثخناً بجراح الهوى ، لكن، أتدرون بمن؟ إنها ليست ملكة جنيف كما تظنون ، بل "مضارب الزهرة" التي يفوق قبحها – على ما أعتقد – رصيد الخوف من القديس أنطونيوس.

– نحن متعادلان ، إذن – قال "كارّياثو" – ، لقد قتلتني بحد اللسان الذي جرحتك به ، ومن ثمّ فلندع التلاوم جانباً وهيا بنا إلى النوم فمن يدري ! ربما تتحسن الأمور غداً .

– اسمع يا "كارّياثو" ، إنك لم تشاهد "كوستانثا" إلى الآن ، ولذا سأصرح لك بعد رؤيتها بكل ما يرد على لسانك من لوم وتوبيخ .

---

(١٦) "تا،تا" Ta, ta محاكاة للصوت الذي يحدثه الباب عند الفتح أو الغلق ، كما تعني أيضاً : حذار أو إياك . (المترجم)

– كأنى أنظر ، يا صديقى ، إلى خاتمة هذا الأمر .

– وما هى ؟ – سأل "أبيندانيو" .

– سأذهب وحدى إلى المضارب ، وستبقى أنت هنا ، إلى جوار خادمتك .

– لن يتملكنى الشطط إلى هذا الحد .

– ولن تتملكنى الحماقة لأترك متعتى الأثيرة من أجل اتباع ذوقك الردىء .

كانا قد وصلا إلى الخان مع نهاية حوارهما السابق الذى امتد بعد ذلك – داخل غرفتهما – حتى منتصف الليل . لم يكادا ينعمان بالنوم لأقل من ساعة حتى استيقظا على صوت موسيقى تصدح فى الشارع .جلسا على سريرهما وأرهفا السمع ، قال "كارّياثو" بعد هنيهة:

– أراهن على أن النهار قد طلع وأن ثَمّة احتفالاً بدير "نويسترا سنيورا دل كارمن" القريب من هنا .

– لا أعتقد هذا لأننا لم ننم سوى قدر ضئيل لا يكفى لإدخالنا فى ضوء النهار.

لم يكد يتم "أبيندانيو" عبارته السابقة حتى سمعا طرقات خفيفة على باب الحجرة، ولما سأل من الطارق أجابه الصوت القادم من الخارج :

– إذا كنتما تريدان سماع الموسيقى بوضوح فعليكما بالنهوض والنظر من النافذة المسيّجة الموجودة فى الصالة المجاورة .

نهضا من فراشيهما ، ولما فتحا الباب لم يشاهدا أحداً أمامه ولم يتعرفا – بالتالى – على صاحب البلاغ ، لكنهما سمعا صوت الآلات الموسيقية وتحققا من صدق الخبر ، اتجها من فورهما – دون استكمال ملابسهما – إلى الصالة فوجدا فيها ثلاثة أو أربعة من النزلاء يتفرجون من بين قضبان النافذة ، وبعد قليل من انضمامهما إلى جوقة المتفرجين تناهى إلى آذانهم صوت عذب رقيق يشدو – على أنغام قيثارة وجنك – بـ"سونيت" وعته ذاكرة "أبيندانيو" جيداً وكأنه حفر فيها بمسمار .تقول كلمات "السونيت" :

أيها الكائن الغريب المتواضع

المتربع فوق قمة الجمال السامقة

التى تجاوزت فيها الطبيعة حدودها
ورفعتك إلى مصاف الملائكة

إذا تحدثت أو ضحكت أو غنّيت ،
إذا أبديت الرقة الأصيلة أو اصطنعت الخشونة
(النابعة من موروث أدبك الجمّ) ،
تفتن منّا الألباب وتخطفها .

لكى يصبح أشد تقديراً وصَوْنا
ما تحويه من حسن فريد
ومن عفّة تعتز بها وتفخر ،

دع الخدمة لغيرك لأن خدمتك واجبة
على الذين يرون تألق يديك وخدّيك
فوق صولجانات وتيجان العالم أجمع .

لم يكونا بحاجة إلى من يخبرهما بأن الموسيقى موُجهة إلى "كوستانثا" لأن كلمات " السونيت" واضحة تمام الوضوح ، تلك الكلمات التى تمنى " أبيندانيو" إصابته بالصمم حتى لا تسمعها أذناه ، ذلك لأن رمح الغيرة الصلب شرع بعدها فى افتراس حشاشة قلبه . وما زاد الطين بلّة أنه لم يكن يدرى ممن يغار أو على من . أفاق من هذه الهواجس الكئيبة على صوت واحد من المتشبثين بقضبان النافذة :

– غريب على فتى مثل ابن المأمور القضائى ملاحقة خادمة بموسيقاه .. ! صحيح أنها أجمل ما رأت عينى من فتيات – وقد شاهدت منهن الكثيرات– ورغم هذا ما كان ينبغى طلب ودّها بهذه الطريقة وعلى رؤوس الأشهاد .

أضاف شخص آخر من الممسكين بقضبان النافذة :

– انطلاقًا مما سمعته – ولا أشك فى صدقه – عن عدم اكتراثها بهذا الشاب وبما يبديه نحوها من مشاعر ، أراهن على أنها الآن نائمة ملء جفنيها فى المكان المخصص لها خلف سرير سيدتها – حسبما يدّعون – ولا تدرى شيئاً عن الموسيقى الصاخبة أو الأغانى التى تتردد بين جنبات الشارع .

– ما تقوله حق لا مراء فيه – أضاف رجل ثالث – لأن عفة الفتاة واستقامتها منزهتان عن الشُبهات. ومن المدهش والعجيب – فى آن واحد – أنها تعيش فى خان يموج بالحركة وتؤمه كل يوم أصناف متعددة من البشر، ورغم هذا لا يجرؤ فرد واحد على أن يرميها بنقيصة أو ينسب إليها هفوة ولو يسيرة.

أجرى الكلام السابق الدم فى عروق "أبيندانيو" وجعله يسترد أنفاسه لمواصلة استماع الأغانى العديدة التى يشدو بها الموسيقيون وكلها موجهة إلى "كوستانثا" التى تنام – طبقاً لقول أحد النزلاء – ملء جفنيها ، غافلة عما يجرى فى الشارع.

وقبيل الفجر ودّع العازفون المكان بإسكاتهم الآلات الموسيقية ، دخل عندئذ "كارّياثو" و "أبيندانيو" ليستريحا حتى انبلاج الصباح ، وفور إشراقه نهض الاثنان تحدوهما الرغبة فى رؤية "كوستانثا" : كانت رغبة الأول نابعة من حب الاستطلاع، أما رغبة الثانى فكانت وليدة العشق والهيام .أشبعت "كوستانثا" كلتا الرغبتين حين طلعت عليهما بجمالهما الأخّاذ من صالة سيدها ، وعندئذ بدت لهما مدائح البغّال وكأنها قطرة ضئيلة لا تشى بما وراءها من بحر زاخر .

كانت ترتدى تنّورة خضراء من الكتان وصديرياً مزركش الحواشى ، وفوق الصديرى قميص طويل الرقبة تحوط أعلاه لفافة من الحرير الأسود مثبتة بدبوس على شكل نجمة تعلو عموداً من الرخام الأبيض ، وحول وسطها يلتف حبل غليظ تتدلى من جانبه الأيمن سلسلة بها مجموعة من المفاتيح ، وفى قدميها تلبس حذاء ملوناً بنعل مكوّن من طبقتين .كان شعرها الكستنائى الضارب إلى الشُقْرة مضفراً بشرائط بيضاء وينساب خلف ظهرها فى جدائل طويلة تغطى الحزام . كان شعرها – الذى يفوق خيوط الذهب جمالاً – جيد التسوية والتمشيط ونظيفًا للغاية ، ومن يشاهده من بعيدٍ يحسب أن صاحبته ترتدى خماراً وغطاء شبكيًا للرأس .كما كان يتدلى من أذنيها قُرْط من الزجاج – على شكل ثمرة القرع – لكنه يلمع مثل اللؤلؤ.

اتجهت فور خروجها من الصالة إلى صورة للعذراء معلقة على جدار بالفناء ، وقفت أمامها وأشارت على نفسها بعلامة الصليب ثم صلت فى خشوع ، ولما رفعت رأسها وشاهدت الاثنين ينظران إليها انسحبت وعادت مسرعة إلى الصالة لتوقظ "أرجويُو" .

مازالت تنقصنا الإشارة إلى وقْع جمال "كوستانثا" على "كاريّاثو" لأننا تحدثنا من قبل عن تأثيره على "أبيندانيو" حين رآها أول مرة . وفى هذا المقام لن نصرح بأكثر من أن جمالها بدا له رائعًا ؛ لكن تأثيره عليه كان أقل بكثير من تأثيره على صاحبه ، ذلك لأنه قرر مواصلة الرحلة إلى المضارب ونبذ فكرة المبيت ليلة ثانية فى الخان .

نعود مرة أخرى إلى"كوستانثا" لنقول إن "لاأرجويُو" استيقظت على نداءاتها وخرجت إلى الدهليز بصحبة فتاتين أخريين من "جليقية" تعملان أيضاً بالخدمة ، ووجود مثل هذا العدد الكبير – نسبيا – من الخادمات أمر لاغنى عنه فى خان مثل "خان الإشبيلى" الذى يؤمه الكثير من النزلاء لشهرته، ولكونه واحداً من أفضل الخانات بطليطلة. فى تلك الأثناء توافد غلمان النزلاء (الكلاّفون) لطلب الشعير لدوابهم ، ولما اكتمل عددهم خرج عليهم صاحب الخان وهو يلعن الخادمات اللاتى تسببن فى (تطفيش) عامله على تلك الوظيفة التى كان يؤديها بكفاءة واقتدار ولا يفرط فى حبّة شعير واحدة . عرض عليه "أبيندانيو" ما يلى بعد سماعه لشكواه :

– لاتتعب نفسك يا سيدى ، سلمنى دفتر الحسابات وسأتولى هذه المهمة طيلة أيام انتظارى ، ولن تندم على هذا وسترى كيف أنسيك الغلام الذى هجر العمل .

– أشكرك على هذه المبادرة يا فتى لأن أشغالى الكثيرة خارج الدار وداخلها لا تترك لى وقتاً للقيام بهذا العمل. انزل لتسلم دفتر الحسابات، وخذ حذرك من هؤلاء البغالين لأنهم والشيطان سواء : فهم قادرون على خداع الغير– وجهاً لوجه– وسرقة مكيال من الشعير [17] دون أدنى تأنيب للضمير وكأنه حفنة تبن.

نزل "أبيندانيو" إلى الفناء وتسلّم الدفتر ثم أجلس البغالين بالترتيب وشرع فى توزيع العلف عليهم بحنكة وبراعة أثارتا البهجة فى نفس صاحب الخان الذى كان يراقبه . كانت فرحة الأخير عظيمة لدرجة أنه قال له بعد فراغه من العمل :

– أتضرع إلى الله ألا يأتى سيدك وأن تُداخلك رغبة البقاء فى الخان وألا تستجيب إلى أىّ نداءمن خارجه مهما كان مصدره ، هذا لأن الفتى الذى

(١٧) المكيال المشار إليه يسمى Celemin، وهو يعادل فى السعة ٤,٦٢ لتر. (المترجم)

تركنى جاء منذ ثمانية أشهر نحيفاً ممزق الثياب ، لكنه غادر الخان سميناً مثل جذع شجرة جميز وبيده طاقمان من الملابس الجديدة .أتعرف يا بنى أن فى هذه الدار فوائد كثيرة بالإضافة إلى الراتب ؟

– لو قُدِّر لى البقاء فى الخان فلن يكون من أجل ما يدره من عائد ، فأنا لست طمّاعًا والقليل يرضينى ما دمت سأظل فى طليطلة التى يعتبرها الناس أفضل مدينة فى إسبانيا.

– إنها – على الأقل – واحدة من أفضل المدن بها وأعمرها بالخيرات ، لكن ما زال ينقصنا فتى آخر لجلب الماء من النهر لأن الذى كان عندى تركنى أيضًا ، وأشهد أنه كان – بحمارى الشهير – يملأ الأحواض عن آخرها ويحوّل الدار إلى ما يُشبه حمام السباحة . إن أحد الأسباب الرئيسية لتفضيل البغّالين لدارى وإحضارهم مستأجرى بغالهم إليها يكمن فى وفرة الماء بها على مدار الساعة ، ومن ثمّ فهم يوفرون على أنفسهم عناء الذهاب إلى النهر لسقى دوابهم .

كان "كارّياثو" يستمع للحوار السابق ، ولما رأى أن "أبيندانيو" قد استقر فى عمل يشغله وأن الفرصة سانحة لإدخال السرور على صديقه بمشاركته المزحة لم يتردد فى عرض الآتى على صاحب الخان :

– هات الحمار ، فأنا أستطيع أيضًا إسراجه وتحميله بمهارة لا تقل عن حسن تصرف زميلى مع دفتر البضائع .

– نعم – تَدَخّل أبيندانيو قائلاً – زميلى "لوبى أستوريانو" قادر على أداء هذا العمل بإتقان وأنا أضمنه فى ذلك .

كانت "أرجويّو" على مقربة ، ولما سمعت "أبيندانيو" يتعهد بضمان صديقه تدخلت قائلة :

– أخبرنى أيها الشاب الأنيق ، من يضمن من ؟ لا ريب أنك فى أشد الحاجة لأن تكون مضموناً لا ضامناً .

- اصمتى ، يا "أرجويّو" - قال لها صاحب الخان - ولا تتدخلى فيما لايعنيك، أنا أضمن الاثنين ، ومن الآن فصاعداً أحذركن من التحرّش بالفتيان العاملين فى الخان لأنهم يتركونه بسببكن .

- هل يعنى ما تقدم - قالت خادمة أخرى - بقاء هذين الفتيين بالدار ؟ وحق الصليب لو حدث وجمعنى بهما طريق ما آمنتهما على فردة حذاء .

- كُفّى عن ترديد البذاءات أيتها الجليقية - ردّ عليها صاحب الخان - اقتصرى على ما يخصك من عمل ولا تتعرضى لهما لأنك لو خالفت أمرى سأطحن عظامك بالهراوة .

- ولمَ لا ! - ردت الجليقية - ربما نكون طامعات فى الجواهر التى تقتنيها ! أنا لا شأن لى بفتيان الدار ولا بغيرهم ، ورغم هذا يضعنى سيدى فى بؤرة ظنه السيىء ، كان الأَوْلى صبّ جام غضبك عليهم لا علينا لأنهم أوغاد ويتركون الدار دون ذنب منّا أو جريرة .جميل أمر هؤلاء الناس الذين يستجيبون لشطحات أمزجتهم فيتسللون مبكراً تاركين مخدوميهم فى حيْص بيْص وفى وقت لا يخطر لهم على بال !

- تتكلمين كثيراً ، ياأختاه - قال صاحب الخان - اغلقى فمك وانظرى فقط فيما يتطلبه عملك .

فى تلك الأثناء كان "كارّياثو" قد أسرج الحمار ووثب على ظهره بقفزة واحدة وشق طريقه إلى النهر تاركًا "أبيندانيو" سعيداً بالقرار الودود المتآلف الذى اتخذه الصديق من أجله .

والآن - وبعد أن وصلنا إلى هذا الجزء من القصة والذى تحوّل فيه "أبيندانيو" إلى عامل بالخان تحت الاسم المستعار : "توماس بدرو" ، و" كارّياثو" إلى سقاء يدعى "لوبى أستوريانو" - نقول إن "لا أرجويّو" اعتبرت ، منذ اللحظة التى تأكدت فيها من بقاء الاثنين بالدار ، أن "الأستوريانو" يخصها وحدها ، وأنها عزمت على اصطياده وإيقاعه فى حبائلها حتى ولو كان ذا طبيعة انطوائية نافرة .

لم تكن الجليقيّة المتصنعة أقل منها باعًا لأنها فكرت فى الشيء نفسه بالنسبة لتوماس ، ولما كانت الاثنتان صديقتين حميمتين - بحكم تعاملهما معاً ونومهما سوياً-

فقد أفضت كل منهما للأخرى بمكنون صدرها وعقدت العزم على أخذ زمام المبادرة لإثارة حماس الحبيبين الغافلين المتقاعسين .اتفقتا أيضاً على ضرورة التنبيه عليهما من البداية بنبذ الغيرة لأن الخادمات لا يستطعن تقديم شيء ذى قيمة لمن هم بداخل الدار ما لم تكنّ ملتزمات بدفع الجزية لمن هم بخارجها . "لا تخوضان فيما لا تعرفانه – كانتا تقولان وكأن الفتيين أمامهما وقد أصبحا بالفعل معشوقيهما – اصمتا واغمضا عيونكما ، اتركا الدفّ لمن يحسن قَرْعه وقيادة الرقصة لمن يجيدها ، وسيكون حظكما من الصمت أوفر من معاش زوج من الكهنة القانونيين العاملين بهذه المدينة" .

بينما كانت "لا أرجويَو" والجليقية منهمكتين فى هذه التعليقات وما شابهها كان صاحبنا "لو پـى أستوريانو" يشق طريقه إلى النهر من فوق منحدر "دل كارمن" وهو مشغول البال بمضاربه وبما اعترى رحلته إليها من تغيير مفاجئ. ولهذا السبب – وربما استجابة لما خطّه القدر – تقابل لدى هبوطه المنحدر من صراط ضيق مع حمار سقاء آخر محملاً بالدنان المترعة بالماء ، وبما أن حماره القوى والخفيف كان يهبط مسرعًا (لكونه فى بداية العمل) فقد اصطدم بالنحيف الكل المثقل صدمة قوية هوت به إلى الأرض وهشّمت ما على ظهره من دنان ، ومن سوء الطالع أن السقاء القديم بادر – مغتاظاً حانقاً – بالهجوم على المستجد (الذى لم يكن قد نسى بعد صفته النبيلة) وسدد إليه بالعصا – قبل أن يفيق من الصدمة ويلملم شعثه – اثنتى عشرة ضربة أخّرته لبعض الوقت عن النزول من على ظهر حماره .

المهم أنه تمكن أخيراً من الترجُل والدماء تغلى فى عروقه ، هجم على غريمه وأطبق بكلتا يديه على رقبته ثم دفعه على الأرض فاصطدمت رأسه بحجر شجّها نصفين ، ولما رأى الدماء تتدفق بغزارة من رأس عدوه ظنّه فارق الحياة .

كان هنالك سقاءون آخرون قادمون ، وحين وجدوا زميلهم فى تلك الحالة السيئة قبضوا على "لو پـى" وصاحوا مستغيثين :

– العدالة ! العدالة ! لقد قتل هذا السقّاء رجلاً .

لم يمنعهم طلب النجدة من طحن عظامه باللكمات وضربات العصىّ . خفّ فريق منهم لإسعاف المصاب فوجدوه على شفا الموت .انتقلت الاستغاثات من فم إلى فم

وصعدت المنحدر حتى وصلت إلى أسماع شرطيّ بميدان "دل كارمن" فهرول مسرعاً – وكأنه يطير بجناحين – بصحبة خفيرين إلى مكان الحادث ، وفيه شاهدوا المُصاب مستلقياً بالعرْض على ظهر حماره ، وحمار "لو پي" معتقلاً ، وأكثر من عشرين سقاءً يحيطون بصاحبه الذى تنبئ حالته – نتيجة لما تلقاه من عصيّ ولكَمات هؤلاء الموتورين المنتقمين لضرّ الغير – بأنه أقرب إلى الهلاك من مشجوج الرأس .

قام الشرطيّ بتفريق المتجمهرين ثم سلّم "الأستوريانو" لخفير وكلف الثانى باقتياد الحمارين (وعلى ظهر أحدهما يرقد الجريح) .شقوا طريقهم بصعوبة بالغة إلى السجن وسط الجموع الغفيرة المتبوعة بحشد من الصبية .

وعلى الصّياح والحفيف المنبعثين من الجموع السائرة خرج "توماس بدرو" وصاحب الخان ليستطلعا الأمر، شاهدا "لو پي" بين خفيريْن ووجهه وفمه ملطخان بالدم ، نظر صاحب الخان إلى حماره الذى يمسك بمقْوده خفير ثالث ، ولما سأل عن سبب الاعتقال وأخبروه بتفاصيل الحادث ركبه الهمُّ للمصير الذى ينتظر حماره ، ولن يخرج بحال عن أحد أمرين (وكلاهما مر) : إما المصادرة – وبالتالى الضياع – أو إمكانية الاسترداد لكن بتكلفة تفوق ثمنه الحقيقى .

تبع "توماس پدرو" زميله ، لكنه لم يستطع – لشدة الزحام ويقظة الشرطى والخفراء – تبادل كلمة واحدة معه . ظل فى إثره حتى شاهده يدخل السجن وينزوى داخل زنزانة مطبقة ، اتجه بعد ذلك إلى المستوصف الطبى الملحق بالسجن ليتعرف على حالة الجريح فوجدها غاية فى الخطورة ، ولم يكن هذا رأيه وحده بل رأى الجرّاح أيضاً .

اقتاد الشرطى الحمارين إلى داره ، كما احتفظ لنفسه بالخمسة ريالات التى استولى عليها الخفراء من "لو پي" .

رجع "توماس پدرو" كاسف البال ومشوشًا إلى الخان حيث ألفى صاحبه لا يقل عنه حزناً ، أخبره بسوء حالة المُصاب وبحبس زميله وبمصير الحمار . قال له أيضاً : إن مصيبته قد تفاقمت بأخرى لم تكن فى الحسبان ، ذلك لأنه تقابل – مصادفة – فى طريق عودته مع صديق حميم لمخدومه يحمل منه رسالة شفهية مفادها : تعديل

سيده لخط سيره إلى إشبيلية لأنه فى عجَلة من أمره ويريد اختصار المسافة ، ومن ثمّ فإنه لن يمرّ على طليطلة – حسب الاتفاق السابق – وسيأخذ الطريق من مدريد إلى "باركا دى أثيكا " لكى يبيت الليلة فى Orgaz ، وإزاء هذا التعديل فعلى "توماس" اللحاق به فى إشبيلية والاستعانة على الرحلة بالاثنى عشر إسكودو المرسلة إليه مع حامل الرسالة .

– لكننى لا أستطيع الآن تلبية هذا الطلب – أضاف توماس – لأنه من غير المعقول ترك صديقى وزميلى وحيداً فى هذا المأزق الخطير . سيتفهم سيدى الوضْع ويغفر لى تأخرى لأنه رجل طيب وشريف ، ولأن عذرى يستند إلى مبرر قوى .. مد يدك وخذ الاثنى عشر إسكودو لتساعدنى فى تجاوز تلك المحنة ، وفى خلال الوقت الذى يستغرقه صرف هذا المبلغ أكون قد كتبت لسيدى أخبره بما حدث ، وأنا واثق من أنه سيسارع بإرسال المال الكافى للخروج من أعتى الأزمات .

اتسعت حدقتا صاحب الخان ابتهاجاً بتعويض القسط الأعظم من خسائره والمتمثل فى فقدان الحمار. أخذ النقود وانبرى فى مواساة "توماس" بقوله : إنه على صلة بأشخاص مهمين فى طليطلة وكلمتهم مسموعة فى أوساط العدالة ، وإنه يخص بالذكر راهبة قريبة للمأمور القضائى وتحركه بالإصبع الصغير من قدمها : فهو يعرف غسّالة تعمل فى دير تلك الراهبة ولها ابنة تتردد – لغسيل الملابس والأوانى أيضًا – على بيت أخت راهب مشهور تصل أصداء شهرته إلى متلقى اعترافات الراهبة المذكورة .

– ومن السهولة بمكان – أضاف صاحب الخان – جعل الغسّالة (الأم) تكلم ابنتها فى الموضوع وتطلب منها نقله إلى أخت الراهب لكى تتحدث فيه مع أخيها وتطلب منه رفعه إلى متلقى الاعترافات بكنيسة الدير والذى سينقله – بدوره – إلى الراهبة التى لن تستنكف عن توصية قريبها المأمور القضائى بالنظر بعين العطف فى التماس "توماس" ، وأنا على يقين من إتيان الوصية لثمارها المرجوّة .هذا بشرط ألا يموت السقاء وألا يعوزنا الشّحْم اللازم لدهن كافة وكلاء العدالة ونوّابها ، لأنهم لو لم يكونوا مشحّمين بالقدر

الكافى يدمدمون بشكل يفوق بكثير الثيران التى تجر عربة عتيقة ولم تمتد إلى أسطواناتها ومحاورها يد الزيّات [١٨].

أخذ "توماس" عرض صاحب الخان - الذى لا يعرف له رأسًا من رجلين - على محمل الدعابة، وبالرغم من أنه فطن إلى أن السخرية فيه تسبق سلامة النية إلا أنه شكره على تقديم العون ووعده بالمزيد من النقود لأنه - كما سبق وأخبره - يثق تمام الثقة فى كرم مخدومه ونبله.

أما "لا أرجويّو" فإنها لم تكد تعرف ما جرى لحبيبها المُنْتَظر حتى سارعت بالذهاب إلى السجن حاملة ألواناً شتى من الطعام، وبرغم أنهم منعوها تلك المرة من زيارته ورجوعها كاسفة البال إلا أنها لم تستسلم وعاودت الرحلة إلى السجن مراتٍ ومرات.

ما يهمنا هو أن الجريح اجتاز مرحلة الخطر بعد خمسة عشر يوماً ، وبعد العشرين منها أعلن الجراح تعافيه الكامل . تظاهر توماس خلال تلك الفترة بأن سيده (المزعوم) أرسل إليه من إشبيلية - بالإضافة إلى سند مالى وعدد من الخطابات - خمسين إسكودو ذهبية ، وبما أن صاحب الخان لم يكن يعنيه فى كثير صدْق الرسائل من زيفها مادام بريق الذهب ساطعاً فإنه استلم - مفعماً بالسرور - الخمسين إسكودو ضارباً صفحاً عن التدقيق فى سلامة الخطابات.

احتاج المصاب لستة دوكادوس لكى يتنازل عن الدعوى القضائية ، وتطلب الإفراج عن "الأستوريانو" عشرة أخرى ، فضلاً عن الحمار الذى صادره الشرطى لحسابه الخاص. خرج من السجن عازماً على عدم العودة إلى حيث يوجد صديقه لأن "أرجويّو " - كما ساق فى تبريره - كشفت له خلال زياراتها المتكررة عن افتتانها به وشدة تهالكها عليه ، وهذا أمر لا قِبَل له به ، لأن الموت أهون عليه من الرضوخ لرغبة أنثى مثلها. ولهذا فقد عقد العزم - بعد كثير من التفكير - على شراء حمار

---

(١٨) المقصود من العبارة : ضرورة وجود المال الكافى لرشوة رجالِ العدالة عن بكرة أبيهم؛ وهناك مثل إسبانى قديم يقول : "من يعنى بتشحيم عربته خفف مهمة الجر على ثيرانه" ، والمثل يضرب عادةً على إنفاق المال من أجل تذليل العقبات وقضاء المصالح الشخصية حتى ولو كانت مخالفة للأعراف والقوانين . (المترجم)

والعمل سقّاءً طوال المدة التى سيقضيها فى طليطلة ، لأنه - كما قال - سيتفادى تحت هذا الغطاء الاعتقال والسجن بتهمة التشرد ، ويستطيع - من جهة أخرى - التجوّل على هواه طيلة النهار فى المدينة والفرجة على نسائها البلهاوات.

- لو أنصفت لقلت الحسناوات لا البلهاوات - رد توماس - فهذه المدينة تتيه على المدن الإسبانية الأخرى بجمال وعفة نسائها ، وها هى ذى "كوستانثا" خير شاهد لأن فائض جمالها يكفى لإضفاء الرونق والبهاء على نساء العالمين.

- لا تتمادَ ياسيد " توماس" فى إطرائك لصاحبة السيادة: الخادمة ، حتى لا يتحول اتهامى لك بالجنون إلى رمْى بالزندقة والإلحاد.

- أيطاوعك لسانك ، ياأخى "لو پى"، على نعتها بالخادمة ؟ سامحك الله وأعادك إلى جادة الحق والصواب.

- أليست خادمة حقاً ؟

- لم أرَها حتى الآن تغسل الطبق الأول.

- وما الفارق إذا كنتَ لم ترها تغسل الطبق الأول وبين رؤيتكَ لها وهى تغسل الثانى أو العاشر ؟

- ما قصدت بقولى سوى أنها لا تغسل ولا تفهم شيئاً زيادة عن عملها الذى يقتصر على صيانة وحفظ الأوانى والأدوات الفضية التى تغصّ بها الدار .

- كيف يعرفونها فى جميع أنحاء المدينة بصاحبة السيادة غسالة الأطباق إن لم تكن تؤدى هذا العمل؟ لا شك أنها متخصصة فى غسيل الأوانى الفضية لا الخزفية ، ولذا استحقت لقب "صاحبة السيادة" . لكن دعنا من هذا ياتوماس وأخبرنى بحقيقة شعورها نحوك وبما تعقده عليها من آمال.

- وكيف يتسنى لى معرفة ذلك وأنا لم أوجه إليها كلمة واحدة طيلة الأيام التى لبثتها فى السجن ، وهى - كما يجمع النزلاء - لا ترد على أحد سوى بطأطأة الرأس والصمت المطبق ! إن الإعجاب بصونها وعفافها لا يقل درجة عن الافتتان بجمالها. يقضّ مضجعى رؤية ابن المأمور القضائى -

وهو فتى لحوح وجرىء بعض الشىء - يغازلها علانية بالقصائد التى تفيض شوقًا ولوعة، إذ لا تكاد تمر ليلة دون أن تصدح الموسيقى ويعلو الغناء . ومع أنها لا تسمع كل هذا ولا تغادر حجرة سيدتها - من غروب الشمس حتى صبيحة اليوم التالى - إلا أن ما يفعله الصبّ العاشق يمزق نياط قلبى بسيف الغيرة البتّار .

- وماذا أنت فاعل لاحتلال قلب الفتاة التى تحبها فى صورة خادمة وتجبن عن اقتحام عالمها وكأنها Porcia أو مينرفا أو Penélope [١٩] .

- اسخر منى كما تشاء ياصديقى "لوبى" لأننى أحببت أجمل وجه سوّته الطبيعة وأنقى عفة عرفها العالم. إنها تدعى "كوستانثا" وليس "بورثيا" أو مينرفا أو "بينلوب" . لا أنكر أنها تعمل فى خان ، لكن ما ذنبى فى ذلك والقدر العاتى يجذبنى إليها بقوة خفيّة ، وخلاصة الفكر والتدبر تدفعنى دفعاً للتبتل فى محرابها ؟ إن غمامة الحب تحجب عن عينى ضعة مرتبتها الاجتماعية: فكلما حاولت التفكير فى صفتها تلك صرفتنى عنها مناقبها الجمّة - مثل الجمال والعفة والملاحة والرّزانة والاحتجاب - وجعلتنى أعتقد أن هذا اللّحاء الخشن المتواضع يخفى تحته كنزاً ثمينًا ومنجمًا عظيم القيمة. وبغض النظر عن هذا أو ذاك فأنا أحبها بصدق حبًا طاهراً منزهاً عن الدنس يختلف كلية عن تجاربى السابقة مع الأخريات ، حب لا غاية له سوى جعلها - بالوسائل الشريفة - تبادلنى الشعور نفسه .

هتف "لو پـى أستوريانو" بصوتٍ عالٍ متعجباً :

- آه ، وألف آه من الحب الأفلاطونى ! آه أيتها الخادمة الشهيرة ! يالهذا الزمن السعيد الذى أصبحنا نرى فيه الجمال معشوقًا لذاته ومنزهاً عن الأغراض الخبيثة ، والعفة إكليلاً وتاجًا ، والملاحة مصدراً للإعجاب الخالى من الإثارة ، وقلة الشأن موجهة لدقة الحظ ! رحماكِ يامصايد الأتون المسكينة ،

(١٩) Penélope يضرب بها المثل فى الوفاء للزوج الغائب ، فقد استطاعت - رغم ملاحقة الكثير من المعجبين التواقين للبناء بها - انتظار زوجها عشرين سنة لحين عودته من حرب طروادة التى شارك فيها بعد قليل من زواجه . (المترجم)

سينقضى هذا العام دون تحقيق زيارتى المأمولة ، لكن الأحداث العجيبة المتوقعة ستكون خير شفيع لى عند كبرائك.

وعندئذٍ رد عليه "توماس" قائلاً :

- أراك تسخر منى صراحة يا "أستوريانو" . بوسعك الذهاب - مصحوباً بالسلامة - إلى مصايد أسماكك لأننى سأظل مشغولاً بصيدى لحين عودتك. لو شئت حمل نصيبك مما معنا من مالٍ سأعطيه لك عن طيب خاطر، وعلى كل واحدٍ منّا السير فى الطريق المقدّر له.

- كنتُ أحسبكَ أذكى من هذا يا "توماس" ، أتعتبر كلامى السابق سخرية منكَ ؟ اعلم إذن أننى بعد ملاحظتى لنبرة الجدية فى حديثك قررت ملازمتك وبذل كل ما فى وسعى لخدمتك. شيىء واحد أطلبه منك فى مقابل بقائى إلى جوارك وهو ألا تضطرنى إلى موقف يتيح لأرجويُو الانفراد بى ومراودتى عن نفسى لأننى قبل التعرض لمثل هذا الخطر سأكون على أتم الاستعداد لطىِّ صفحة صداقتك إلى الأبد. أعوذ بالله من ثرثرتها التى تفوق لسان خطيب مِفوَه ، ومن رائحتها الكريهة التى تزكم الأنوف على بعْد فرسخ ، ومن قُبح طاقم أسنان فكّها العلوىّ ، ومن شعرها الملتصق فى ضفيرة على شكل ذنب ، لقد هداها تفكيرها السقيم - بعد تصريحها لى بولهها المقيت - إلى استخدام كافة أنواع الزينة الرخيصة لستر عيوبها ، والآن تلطخ وجهها بالمساحيق فيبدو مثل قِناعٍ من الجصّ الخالص.

- هذا صحيح ، وإن كانت الجليقية لا تقل عنها سوءاً. يمكنك قضاء الليلة فحسب بالخان ، وفى صبيحة الغد تشترى الحمار الذى تنتويه ثم تبحث عن ملاذ آخر ، وهكذا تصبح بمنأى عن "لا أرجويّو" ، أما أنا فقد كتب علىَّ أن أظل هنا ، رهين المحبسين : لسخافات الجليقية ولأشعة شمس "كوستانثا" التى ليس لها دواء .

توجه الصديقان بعد هذا الحوار الطويل إلى الخان حيث استقبلت "أرجويّو" "الأستوريانو" بحفاوة بالغة تنم عن حب دفين.. فى تلك الليلة أقام البغّالون المقيمون

بالخان والخانات المجاورة حفلاً أمام باب "خان الإشبيلى" ، شارك فيه "الأستوريانو" بالعزف على العود ، ورقصت فيه - بالإضافة إلى أرجويّو والجليقيتين - ثلاث خادمات تعملن فى نزل قريب. توافد أيضاً على المكان عدد لا بأس به من المُلَثَّمين يحدوهم الأمل فى رؤية "كوستانثا" التى خيبت مسعاهم بعدم خروجها للفرجة.

كان "الأستوريانو" يعزف على العود بمهارة فائقة لدرجة أنه - كما يُقال - يكاد أن يستنطقه. طلب البغّالون من أرجويّو غناء إحدى المقطوعات الشعبية ، لكنها ردت عليهم قائلة : بما أنهن يتتبعن النغمات الموسيقية لتأدية الحركات الراقصة تأدية صحيحة ، وأن موهبة الجمع بين العملين لا تتوفر إلا فى ممثلات المسرحيات الهزلية فإنها ستكتفى بالرقص تجنباً للوقوع فى أخطاء.

كان من بين متعهدى البغال والخادمات راقصون - أيضًا - وراقصات. تنحنح "الأستوريانو" وتفل مرتين إيذاناً بالاستعداد للغناء ، وفى أثناء ذلك فكر فيما سيغنيه ، ولأنه كان حاضر البديهة ويتمتع بقدر معقول من العبقرية فقد ارتجل المقطوعات الآتية وشرع فى غنائها على النحو التالى:

لتتقدم "أرجويُّو" الجميلة
لمرة واحدة لا أكثر ،
وعند إلقائها بالتحية ،
تخطو خطوتين إلى الوراء .

ليتلقّف يدها الآن
منْ يسمونه "بارّاباس" ،
بغّال أندلسى أصيل
بقواعد الرقص عليم.

من الفتاتين الجلّيقيتين
الموجودتين بهذا الخان ،
تتقدم سمينة الوجه والقوام
بعد خلعها المريلة.

ليمسك "توروتى" يدها ،
هكذا يصبح العدد أربعة ،
بأدائهم - متبخترين - لبعض الحركات
يفتتحون رقصة "كونترباس" .

نفّذ الراقصان والراقصتان ما قاله "الأستوريانو" بالحرف الواحد ؛ لكنه حين وصل إلى البيت الأخير الذى يقول : "يفتتحون رقصة كونترباس" ردّ عليه الراقص المدعو "بارّاباس" منفعلاً وقال له :

- اعتنِ باختيار كلماتكَ أيها الموسيقى ، ولا داعى للتعريض بسوء حال ملابس أحد الموجودين ، فلا يوجد بيننا منْ يرتدى الأسمال ، وكل إنسان يلبس ما يعينه عليه الربّ.

حين لاحظ صاحب الخان جهل البغّال وفهمه الخاطىء للكلمة الأخيرة من البيت تدخل موضحاً:

- ياأخى ، إن "كونترباس" كلمة واحدة وليست كلمتين ، وهى تطلق على نوع من الرقصات الأجنبية ولا علاقة بينها وبين قُبح الملابس [٢٠].
- مادام الأمر كذلك - ردّ البغّال - فليس هناك ما يستوجب الغضب ، هيا اعزفوا لنا ما عنّ لكم من الرقصات سواء كانت "ثارابندا" أو "تشاكونا" أو "فوليا" [٢١] فالمكان لا يخلو ممنْ يستطيعون أداءها جميعًا بإتقان ومهارة.

---

(٢٠) الكلمة التى نطقها المغنى هى : contrapás وهى اسم لإحدى الرقصات غير الإسبانية ، لكن البغّال سمعها على هذا النحو: con trapos وهاتان الكلمتان تعنيان بالفعل ارتداء الأسمال البالية. ومن هنا يتضح الخلط الذى وقع فيه البغال واستدعى تدخل صاحب الخان لتداركه. (المترجم)

(٢١) (ثارابندا) Zarabanda : رقصة شعبية إسبانية ، كما تُطلق أيضاً على مقطوعة شعرية تتألف من أربعة أبيات أو سبعة .

(تشاكونا) chacona : اسم رقصة شعبية إسبانية أيضاً ، لكنها مثيرة للغرائز الحسية لاعتمادها على حركات وإيماءات موحية مثل الغمز بالعين ، والتنهيدات الحارة ، وهزّ الأرداف والصدور ، وكشف السيقان نتيجة للقفزات العالية ... إلخ .

أما (فوليا) Folia فهى رقصة برتغالية تعتمد على الصخب المنبعث من الآلات الموسيقية المتنوعة ذات الإيقاع السريع . (المترجم)

لم يعلق "الأستوريانو " بكلمة على ما سبق وواصل غناءه قائلاً :

فليتقدم ، إذن ، كل من يريد
من الحوريات وعاشقى اللذات ،
فرقصة "لا تشاكونا"
أشد اتساعاً من المحيط.

استعدوا للنَّقْر بالأصابع
واهبطوا لفرْك الأيادى
بهذه الرمال
أو بتراب المزابل.

أحسنتم صنعَ ما به أمرتكم
ولست بحاجة إلى لفت الانتباه ،
أشيروا بعلامة الصليب ، وقدموا للشيطان
حبتى تين من ثمار بساتينكم .

اتفلوا على ابن الداعـرة
كى يتركنا وشأننا للاسترواح ،
لأنه برقصة لا تشاكونا
كلِفٌ ، لا يطيق البعاد.

"أرجويّو" البارعة ، انتبهى سأغير اللحن ،
أنت أجمل من دار ضيافة رائعة الحسنْ ،
بما أنك مصدر إلهامى الجديد فى الشعـر
فلنْ تبخَلى علىّ بما لديكِ من فضلْ.

رِقصة "لا تشاكونا" الساحرة
وصْفة للحياة الحلوة العامرة .

تجدون فى هذا التدريب
ما تتطلبه الصحة ويناسبها،

يزيح عنِ الأعضاء – بلا تثريب –
الكسل العضال الذى يطوقها .

تموج الضحكات وتفور
فى صدر الراقص وعازف الأرغول ،
فى صدر المتفرج على الرقصة
والسامع لرنين موسيقاها العذبة.

يتفصد الزئبق من الأرجل الملتاثة
وفى منقوعه يتحلل الأشخاص ويذوبون ،
بسعادة أصحابها وبكل أريحيّة
تنفصل عن الأحذية نعالها الفلّينية.

النشاط والخفة
فى العجائز يتجددان ،
يتعاظمان لدى الفتيان
ويزكيان الألحان.

إن رقصة "لا تشاكونا" الساحرة
هى خير وصفة للحياة الحلوة العامرة.

كم من المرات حاولت
تلك السيدة النبيلة ،
مع رقصة "ثارابندا" السعيدة ،
وكذلك "البيسامى" و "بيرّامورا" الأصيلة ، (٢٢)

اللاتى تسللن إليها
من فجوات دور العبادة

(٢٢) perra mora . El Pesame من الرقصات الإسبانية القديمة ، ولم يستطع النقاد والمؤرخون التعرف على أوصاف هاتين الرقصتين ولا كيفيتهما. (المترجم)

لتفتكن بالعفة والحصانة
الهاجعتين فى الصوامع المقدسة !

كم منهن أصبحن معطوبات
بأيدى المتبتلين فى محرابهن !
الداعـر الشبِق يتخيلهن
كما تهفو نفس الأُخرق إليهن.

إن رقصة "لا تشاكونا" الساحرة
هى خير وصفة للحياة الحلوة العامرة

هذه الخِلاسية التى تُشبه البفْتة ،
قالت عنها الشُهرة وأفصحت :
إنها انتهكت المقدسات وجدّفت
أكثر مما روته الأخبار عن "أروبا" وحدثت ؛

إنها رافد لا ينضب
لعموم الخادمات ،
لشرازم الغلمان
ولتابعى القوّات ،

إنها تثرثر ، تحنث ولا تنفجر ،
ورغم أنف مصمم رقصة
"زمبابالو" المتعـجـرفـة ،
فهى زهرة الدرْدور المورفة ،

رقصة "تشاكونا" وحدها القادرة
على إضفاء الحياة الحلوة العامرة.

* * *

كان يرقـص منتشـيًا عـلـى عـزف "لوبـي" وغنائـه ما يقرب مـن اثنـى عشـر بغـالاً وخـادمـة ، وفـيـم كـان يتـهـيـأ للمـضى قـدماً بغنـاء مـقطوعـات أخـرى أطول

وأفضل من سابقتها تدخل واحد من الملثمين الذين كانوا يشاهدون الرّقصة وقال بصوتٍ عالٍ :

– صه ، أيها المخمور. اسكت ، أيها الزّق . اصمت أيها الأحمق المتشاعر والموسيقيّ المزيف.

لم يكد ينتهى الملثم حتى تبعه آخرون بصيحات الاستنكار والسُّباب والإيماءات البذيئة التى أحسن "لو پى" صنعاً بالتغاضى عنها ، لكن البغّالين لم يبتلعوا الإهانة ، ولولا تدخل صاحب الخان ومحاولته - بشتى الطرق - تهدئتهم لحدث مالا يحمد عقباه ، لكنهم واصلوا - رغم هذا - التلويح بأيديهم حتى ظهرت الشرطة التى عملت على تفريقهم وإخلاء المكان.

لم يكادوا يُتمون انسحابهم حتى وصل إلى كافة المستيقظين بالحىّ صوت - لشابٍ جالسٍ على حجر فى مواجهة "خان الإشبيلى" - يصدح بغناء رقراق استولى على أفئدتهم وأجبرهم على الإنصات حتى النهاية . كان "توماس پدرو" أشدهم انتباها ؛ لكنه لم يكن مهتماً بالموسيقى قدر اهتمامه بكلمات الأغنية التى أضنت روحه وكأنها منشور تجريم كنسى موجه إليه وحده ، ذلك لأن كلمات الأغنية كانت تقول :

أين أنتِ ؟ ولِمَ الاحتجاب
يانبع الجمال الصافى
الذى يضفى على الحياة البشرية
هالة قدسية ؟
ياسماءً علوية ، للحب فيها
مقام راسخ معلوم ،
تتعلق برياشه ، وفى كنفه تدور
عجلة الأقدار والحظوظ ؛
يامكاناً بللورياً شفافاً ،
فيه المياه الصافية النقية
تُخضِّل بالحب الحرائق
وتجعلها برداً وسلاماً ؛

ياقبة زرقاء ، جديدة رائعة ،
تضيء فيها نجمتان
دون معونة خارجية
أديم الأرض ووجه السماء ؛
يابهجة تتناقضِ وتختلف
مع الأحزان المبهمة
لأبٍ يحفر لأبنائه
ضريحاً فى صدره ؛
ياتواضعاً يتحدى
من القمة التى يعتليها
ما أُودع فى "خوبى" العظيم
من رفقٍ وحلمٍ ووداعة.
شباك دقيقة غير مرئية
تحبس كل محارب زانٍ
يتباهى بفتوحاته الحربية
فى زنازين سجنها العصيةِ ؛
سماء رابعة وشمس ثانية ،
يحيق بالأولى الكسوف
لو صادفها الحدث الفريد
ونعمنا بحظ تراءى الثانية ؛
سفير مهيب ، يتحدث
بحكمة جد غريبة ،
يقنع صامتاً
بأكثر مما يود أن يقوله
لديك من السماء الثانية
الجمال على الأقل ،

ومن صفحة الأولى
لمعان القمر
أنتِ يا "كوستانثا" ، كل هذا وأكثر ،
ورغم أن قلّة البخت قد ألقت بمرساتكِ
فى مرفأ بائس غيرِ مستحق
إلا أن نوركِ عليهِ يعشى البصر
اغزلى خيوطَ قدركِ
بمسحة من التجاوب
تنزل بالتعالى إلى المعاملة الأليفة
وبالنفور إلى دركْ الطراوة.
سترين ، حينئذٍ ، ياسيدتى
كيف تحسدكِ على نصيبكِ
متعجرفات الحسبِ والنسبِ
ومن يخالطهن نزق الجمال الصارخ.
إن شئت اختصار الطريق ،
سأقدم لكِ عن طيب خاطر
ما لم يردْ على قلب بشر
من حبٍ عفيفٍ طاهرٍ.

تزامن مع نطق البيت الأخير طيران نصفى قالب آجرٍّ باتجاه المُغنّى ، وبدلاً من سقوطهما علِى قدميه ارتطما - لسوء الحظ - بمنتصف رأسه فأخرجاه دون عناء من حالة الوجْد المضمخة بالشعر والألحان. ارتبك لبرهة ؛ لكنه استجمع قوته وأطلق ساقيه للريح صاعداً المنحدر ، ولو كان هنالك كلبِ صيد أصيل ما لحقه .. تعساء أيها الموسيقيون لأنكم كالخفافيش والهامات : عرضة على الدوام لمثل هذه الأمطار ولأعمال عنفٍ مشابهةٍ !

استحسن السامعون موسيقى المرجوم لاسيما "توماس پدرو" الذى أُعجبَ كثيراً بالصوت والأغنية وتمنى فى قرارة نفسه تأثر "كوستانثا" بهذا الكمّ الهائل من

الموسيقى والأشعار الموجهة إليها بهدف إعدادها النفسى للتجاوب مع أشعاره الخاصة التى يفكر فى إرسالها - ذات يوم - إليها ، لكنه كان يعلم استحالة تحقق هذه الأمنية لعدم وصول شيء من الموسيقى والقصائد إلى أذنىّ صاحبة السيادة .

كان للبغّال المدعو "بارّاباس" رأى مخالف فى الغناء الذى تابعه مثل الآخرين ، إذ طفق يقول فور هروب الموسيقى :

- إلى سقَر أيها الأحمق ، ياشاعر يهوذا ، جعل الله من عينيكَ طعاماً للحشرات والهوام . منْ هو الشيطان الذى علّمك الغناء لخادمة بكلام عن السماوات والأفلاك والنجوم والأقمار وآلهة الحرب وعجلة الأقدار ؟ لو أحسنت لنفسك ولمستمعيك لقلت : إنها متخشبة مثل هلْيون ، بيضاء كاللبن الحليب ، عفيفة مثل راهب مستجد ، منفوشة مثل ريش الطائر ، متكلفة وغير مستأنسة مثل بغلة مؤجرة ، وأشد صلابة من قطعة ملاط ، لو قلت شيئًا من هذا فلربما فهمته وابتهجت ؛ أما الحديث عن السُفراء والشّباك والرّياش والهالات القدسية والارتفاع والانخفاض فمكانه قاعات الدرس ولا يليق بخادمة فى خان. أنا على الأقل - رغم كونى بارّاباس - لم أستطع فضّ مغاليق القصيدة العصماء التى صدح بها الموسيقى ، فما بالكم بواحدة مثل "كوستانثا" ! لقد أحسنت صنعاً وغلبتنا جميعاً لأنها تغط فى نومها ساخرة من الشعر والشعراء . لا مراء فى أن هذا الموسيقىّ ليس واحداً من أبناء المأمور القضائى ، فهم - على كثرتهم - يتركون لنا ما نفهمه فى بعض الأحيان ، أما هذا الأبله ، فلا غاية له إلا إصابة مرهفى الحسّ أمثالى بالغم والهمّ والكدر.

استحسن الحاضرون تعليق "بارّاباس" واستصوبوا انتقاده اللاذع.

انفض السّامر ، ولم يكد يهجع الساهرون فى مراقدهم حتى أحسّ "لو پى" بطرقات خفيفة على باب الحجرة ، سأل منْ الطارق فأجابه الصوت القادم من الخارج:

- "لا أرجويُو" و الجلّيقية ، افتحا الباب ، نكاد نموت من البرد.

- صحيح ، لأننا فى (عز) الصيف .

- لا داعى للاستظراف يا "لو پى" - قالت الجيليقية - ، افتح الباب لأننا (على سِنْجة عشرة).

- (على سنجة عشرة) فى هذه الساعة من الليل ؛ لابد أنكما من الساحرات أو العاهرات الأشد قحة ، عودا من حيث جئتما ، ماذا وإلا : أقسم بـ ... أن أنهض وبإبزيم حزامى أجعل مؤخرتيكما مثل شقائق النعمان.

حين سمعتاه يتحدث بانفعال غاضب لا يمت بصلة لما تخيلتاه فى البداية تملكهما الرعب من نتائج ثورته وخمدت فى صدريهما الرغبة المتقدة ؛ انسحبتا حزينتين ، تجرجران أذيال الخيبة إلى مخدعيهما، هذا وإن كانت "لا أرجويّو" قد ألصقت - قبل ابتعادها عن الباب - خطمها بثقب المفتاح وقالت :

- من الطبيعى ألا يستسيغ فم الحمار طعم العسل.

بهذه العبارة التى أودعت فيها جامّ غضبها واعتبرتها بمثابة الانتقام العادل ، شيّعت - كما ذكرنا -الباب وتوجهت إلى فراشها الحزين.

ولما أحسّ "لو پى" بابتعادهما عن الباب قال لتوماس :

- اسمع يا "توماس" : أنا على استعداد - فى سبيل نصرتك - لنزال عملاقين أو مصارعة ثلاثة أزواج من الأسود إن لَزِم الأمر ، ورغم أن هذا أسهل عندى من احتساء قدح من النبيذ إلا أننى أجبن عن مواجهة "لا أرجويّو" حتى ولو مزقوا جسدى بالرماح. أرأيت الجميلتين الدنمركيتين اللتين هبطتا علينا من السماء ! عما قريب سيطلع النهار لنفكر ساعتها فى حلّ.

- قلت لك من قبل ياصديقى إن لك مطلق الحرية فى فعل ما تريده : إما مواصلة الرحلة إلى مضاربك أو شراء الحمار والعمل سقاءً كما اقترحت.

- مازلتِ متمسكاً بفكرة السقّاء هذه ؛ لكن هيا بنا إلى النوم لأن رأسى ثقيلة مثل سطْل ولست قادراً ولا مهيئاً للدخول معك فى نقاش .

ناما ، طلع النهار ، استيقظا ، باشر "توماس" عمله فى صرف الأعلاف وذهب "لوپى" إلى سوق الدواب القريب لشراء الحمار.

حدث بعد ذلك أن "توماس" قام - مدفوعًا بأفكاره وبما تفيض به القيلولة من هدوء وعزلة - بتأليف قصيدة غزل وتدوينها فى دفتر الأعلاف قاصداً تنقيحها بعد ذلك ونقلها فى ورقة أخرى ثم محو ما دونه فى الدفتر أو تمزيقه ، لكنه قبل أن يفعل كل هذا خرج لقضاء شأنٍ من شئونه ونسى الدفتر على خزانة الأعلاف ، ولما دخل صاحب الخان وفتح الدفتر لمعرفة الحساب قرأ القصيدة التى أصابه محتواها بالهلع والفزع الشديدين.

حمل الدفتر إلى زوجته ، وقبل قراءة الأبيات عليها استدعى "كوستانثا" ، وبصوتٍ عالٍ ممزوجٍ بالتهديد سألها إذا كان "توماس بدرو" - المكلّف بصرف الأعلاف - قد غازلها أو وجّه إليها كلمة خادشة للحياء. حلفت الفتاة أنها لم تسمع منه كلمة : لا من هذا الصنف أو ذاك ، وأنها لم تتعرض ولو لنظرة عابرة منه تنطوى على شرّ.

صدّقها سيداها لاعتيادهما على سماع كلمة الحق منها. أمراها بالانصراف ، ولما خلا المكان قال صاحب الخان لزوجته :

- لا أدرى ما قولك فى هذا ، لقد كتب توماس فى دفتر الأعلاف أبياتاً من الشعر تنمّ عن حبه للفتاة.

- أطلعنى أولاً على القصيدة لكى أخبرك برأيى فى محتواها.

- بالطبع -ردّ الزوج -، وأنا متأكد من قدرتك على كشف مستورها لأنكِ شاعرة.

- لستُ بشاعرة ؛ لكنى - كما تعرف - أجيد اللاتينية وأصلى بها الصلوات الأربع .

- ليتكِ تصلّينها بالإسبانية لأن عمك الراهب قال إنك تتفوهين فى صلاتكِ اللاتينية بكلمات ما أنزل الله بها سلطان ، وهذا يعنى أنكِ لا تصلين شيئاً.

- ذلك الرمح السمهرى تأكله الغيرة حينٍ يرانى أتناول "كتاب الأوقات" وأقرأ فيه بسهولة تفوق جمع عناقيد كرمة تم قطافها من قبل.

- افعلى ما يحلو لكِ - قال الزوج - ؛ والآن انتبهى لسماع القصيدة التى تقول كلماتها:

من ذا الذى يقدر على مواجهة سطوة الحب ؟

الذى يُحسن الصمت.
كيف يمكن التغلّب على وعورته ؟
بالثبات والعزم.
وما هو الطريق المفضى إلى بهجتـه ؟
الإلـحـاح.
يمكننى – إذن – تمنية النفس
بالتنعم فى ظل واحتـه
إذا تسلّحت بالثبات والعزم
ومداوِمة الإلحاح.
علام يقتات الحب ؟
على المعروف والإحسان.
وبم تخمد سوْرته ؟
بالظلم والإهانة .
هل ينمو بالازدراء ويكبر ؟
بل يضمحل.
لهذا سيظل حبى ،
على ما يبدو ، خالداً ،
إذ تخلو كافة أسبابه
من الإحسان والإهانة.
منْ يتملكه اليأس ، ماذا ينتظر ؟
الموت المحقق.
أىّ موت يستطيع العذاب دفعه ؟
الأوسط.
والاستسلام للموت ، ما الرأى فيه ؟
المعاناة أفضل.
لقد جرت العادة ،

وتحتها تندرج هذه الحالة ،
أنه بعد العاصفة الهوجاء
يعم السكون وينتشر الصفاء.
متى أميط اللثام عن حبى ؟
حين تواتيك الفرصة.
وإذا لم تطرق بابى ؟
ستأتى ذات يوم.
سيدهمنى بجحافله الموت
خلال ما أنتظره من وقت.
آمالك الطاهرة ونواياك الحسنة
حين تدرى بهما "كوستانثا"
سيتحول بكاؤك إلى بسْمة .

– ألا يوجد المزيد ؟ – سألت الزوجة .

– لا ؛ لكن ما قولك فيما سمعته ؟

– ينبغى التحقق أولاً من أن "توماس" هو الذى كتبه.

– لا شك عندى فى ذلك لأن الخط الذى كُتِبت به القصيدة مطابقٌ تماماً لخط "توماس" فى دفتر حساب الأعلاف.

– اسمع يازوجى ، صحيح أن ذكْر اسم " كوستانثا " يوحى بأن القصيدة موجهة إليها ؛ لكننا لا نستطيع الجزم بأن هذه هى الحقيقة لأن العالم يغصّ بأسماء مماثلة ، وعلاوة علي ما تقدم فكلمات القصيدة لا تطلب شيئًا من الفتاة ، ولا تحتوى على ما يشين أو يخجل . ما يجب علينا عمله هو توخى الحذر والمراقبة وإبلاغ الفتاة حتى تكون على بينة لأن "توماس" لو كان متيمًا بها سيعاود – بالتأكيد – تأليف مقطوعات أخرى ، وسيحاول إيصالها إليها.

– أليس من الأفضل إراحة أنفسنا من هذا العناء بطرده من الخان ؟

– هذا – بالطبع – في يدك ، لكن الفتى يمارس عمله – حسب قولك – بمهارة ودقة ، وربما يعاودنا الندم على طرده لسبب تافه لا يقوم على أساس.

– حسناً ، علينا – إذن – توخي الحذر والمراقبة كما تقولين ، ومرور الأيام كفيل بإرشادنا إلى ما ينبغي عمله.

بعد اتفاقهما على الرأى السابق حمل صاحب الخان الدفتر وأعاده إلى مكانه. رجع "توماس" قلقًا وسارع بنقل القصيدة في ورقة أخرى ، وحتى لا يصاب بنوبة هلع ثانية قام بطمس المسوّدة . في تلك اللحظة قرر المغامرة بالكشف عن مشاعره لكوستانثا في أقرب فرصة ، وإن كانت الصعوبات الجمّة التي تكتنف هذا الأمر (والمتمثلة في امتطاء الفتاة الدائم لصهوة العفة والخفر ، وعدم إتاحتها الفرصة ولو لمجرد النظر إليها ، واكتظاظ الخان بالزائرين وكثرة العيون) قد أشاعت الجزع في قلب العاشق المسكين.

خرجت "كوستانثا" ذلك اليوم وهي تلفّ صدغيها بطرف الخمار ، ولما سُئلت عن السبب أجابت بقولها : إنها تعاني من ألم شديد بضروسها . حين سمعها "توماس" شرع على الفور في قدح زناد فكره الذي تمخض عن العرض التالي:

– لديّ تعويذة لهذا الغرض يا "كوستانثا" ؛ قراءتها مرتين كافٍ لإزالة الألم نهائياً.

– حسناً ! هاتِها ، فأنا – لحُسن الحظ – أجيد القراءة.

– لكي تؤتي التعويذة ثمارها المرجوّة – قال توماس – يجب ألا يطلع عليها أحد غيرك لأن التداول يفقدها قيمتها ويقضي على مفعولها.

– أعدك بألا يراها أحد ؛ من فضلك هاتِها لأن الألم يزلزل كياني.

– أنا أحفظها في الذاكرة ، سأدونها لك في الحال.

كانت هذه هي الكلمات الأولى التي يتبادلها "توماس" مع "كوستانثا" طوال الفترة التي قضاها بالخان وتزيد عن أربعة وعشرين يوماً . انسحبت "كوستانثا" ، ولما فرغ "توماس" من كتابة التعويذة عمل على إيصالها – دون إبطاء ، ودون رؤية أحد –

إلى الفتاة التى تسلمتها فى خشوع ثم أغلقت على نفسها باب إحدى الغرف لتطالع فيها ما يلى :

"أميرة روحى : أنا شاب نبيل من برغش ، وقد خصّنى والدى فى وصيته بأملاك يقدر عائدها السنوى بما لا يقل عن ستة آلاف دوكادوس. شهرة جمالك التى تتناقلها الألسن جعلتنى أترك مسقط رأسى وأخلع ملابسى الأصلية وأرتدى ما ترينه لخدمة سيدك. لو شئت أن تكونى لى بالطريقة التى تتناسب مع عفافك يمكنك التحقق بوسائل شتى من هذه المعلومات ، وبعد تحققك منها سأكون أسعد إنسان فى هذا العالم لو قبلتنى زوجاً. أرجو ألا تنشرى مشاعرى الفياضة المحبة على الملأ لأنها لو تناهت إلى علم سيدك سيعاقبنى بالطرد من حضرتك البهية ، وهذا مثل إصدار الحكم بإعدامى. دعينى أنعم برؤياك حتى يأتيك الخبر اليقين عنى : إذ لا يستحق العقاب الصارم بالحرمان من إشراقة وجهك ذلك الشخص الذى يتبتل فى محرابك. بنظرة واحدة من عينيك – فى غفلة من العيون الكثيرة المسلطة عليك – تستطيعين الإجابة على استفساراتى : غضبها يعنى الموت ، وودّها يعادل البعث من الأجداث" .

فى أثناء قراءة "كوستانثا" للورقة كان "توماس" ينتظر – خائفاً يترقب – : إما صدور الحكم بالموت أو بالبعث والنشور. خرجت الفتاة من الغرفة تتألق جمالاً – رغم اللثام –، ويمكن القول إن أىّ انفعال آخر مهما عظم لن يزيد من مدّ الجمال مثلما زانه الانفعال البادى الآن على وجهها. كانت الورقة بين يديها نتفًا صغيرة ، قالت لتوماس قبل استوائه على قدميه :

– لا حاجة لى بما فى تعويذتك من شعوذة وخداع ، لقد مزقتها إرباً كما ترى حتى لا يراها سواى . تعلّم – ياأخى – صلوات أخرى أجدى وأيسر لأن هذه لن تفيدك فى شىء .

دخلت بعد ذلك حجرة سيدتها وتركت "توماس" نهبًا للحيرة المشوبة ببعض العزاء، ذلك لأنه اعتقد أن السرّ ما دام سيظل مخبوءاً فى صدر "كوستانثا" فلن يدرى به صاحب الخان ، ولن يتعرض – بالتالى – إلى الطرد . كما بدا له أن الاصطدام فى الخطوة الأولى من المشوار الصعب بتلال لا حصر لها من المشاكل لا يعنى نهاية المطاف لأن العقبات الكئود عادة ما تتصدر المهام الجسام ، بعيدة المنال.

بينما كان هذا يجرى بالخان كان "الأستوريانو" يتجول فى سوق الدواب بحثاً عن حمار مناسب ، ورغم أنه عاين كثيراً من الحمير إلا إنه لم يقتنع بواحدٍ منها ، كان هناك غجرى يلاحقه محاولاً إقناعه بشراء حمار لديه ، ولم يكفّ عن التغنى بخفة حركته ورشاقة خطوته. صحيح أن الحمار كان سريع العدْو ، لكن صغر حجمه لم يعجب "لوبى" الذي يرغب في شراء حمار ضخم ليتحمل الطواف المستمر دونما كلل : سواء كانت الدنان التى على ظهره مملوءة أو فارغةً.

اقترب منه سقّاء وأسرّ فى أذنيه بما يلى :

– إذا كنتَ تبحث عن حمار مُريح ومناسب للعمل فلدىّ بمرجٍ قريبٍ من هنا واحد لا يوجد له مثيل فى كافة أنحاء المعمورة. أنصحك بنبذ التعامل مع الغجر لأن دوابهم تخفى من العيوب أكثر مما تظهر ، لو كنتَ حريصًا على شراء ما يناسبك اتبعنى والزم الصمت.

ذهب معه "الأستوريانو" لمعاينة الحمار نادر الأوصاف. مشيا سوياً حتى وصلا إلى بساتين الملك ، وهناك وجدا حشداً من السقائين جالسين فى ظلّ خزّان مياه وحميرهم ترعى فى مرجٍ قريب . أشاد الحاضرون بمتانة بنيان الحمار وباعتياده على المسافات الطويلة وبإقباله على تناول كل ما يقدم له. وبالطبع ، فقد بالغ السماسرة فى وصف مزايا الحمار الذى دفع فيه "لو پى" – دون أية ضمانات – ستة عشر دوكادوس ، شاملة الثمن وأتعاب الوسطاء .

تلقى "لو پى" – بعد سداده الثمن عداً ونقداً – التهانى على إتمام الصفقة ، وعلى الانضمام إلى طائفة السقّائين . أخبروه أنه اشترى حماراً محظوظاً ومباركًا لأن صاحبه استطاع فى أقل من سنة من العمل عليه – دون أن يضطر إلى قتله أو إحداث عاهة مستديمة به – تغطية نفقاته هو والحمار وإدخار ما يكفى لشراء طاقمين من الثياب ؛ هذا بالإضافة إلى الستة عشر دوكادوس المقبوضة فيه الآن والتى سيعود بها إلى موطنه للزواج من إحدى قريباته.

كان يوجد بالمكان – فضلاً عن السماسرة – أربعة سقائين يفترشون الأرض للعب الورق . وقف "الأستوريانو" يتفرج عليهم وعندئذٍ لاحظ أنهم يقامرون ولا يلعبون للتسلية لأن كل واحدٍ منهم كان يضع أمامه عملات ورقية وفضية يصل

مجموعها إلى مائة ريال. كانت قواعد اللعبة تتمثل فى أن يتقدم كل فرد من الأربعة بمبلغ معين ، وفى نهاية الدور يفوز به واحد فقط. استمر اللعب هكذا لبعض الوقت إلى أن أفلس اثنان منهم وأخليا مكانهما. حينئذٍ أبدى بائع الحمار استعداده للمشاركة لكن بشرط اكتمال العدد السابق للاعبين ، لأنه - حسب زعمه - يتشاءم من اللعبة الثلاثية. ولأن الأشتوريشي - كما يقول المثل الإيطالى - يبادر على الفور بالانضمام إلى الجماعة دون تفكير فى العواقب ، فقد أعرب "الأستوريانو" عن رغبته فى أن يكون رابعهم. لم يمض سوى وقت قصير حتى فرغ كيسه من ستة الدوكادوس التى كانت باقية معه بعد شراء الحمار ، ولما وجد نفسه خاوى الوفاض عرض عليهم اللعب على الحمار بعد تقسيمه إلى أرباع بحيث يخصص لكل دور ربعاً .. لم يمانعوا ، وفى أربعة أدوار متتالية كسب منه الحمار الرجل الذى باعه له من قبل. ولما همّ الرجل باسترداد حماره استوقفه الأستوريانو قائلاً : إنه لعب فقط على أربعة أرباع الحمار وهى لا تشمل الذيل ، ولذا فإنه على استعداد لتسليم ما خسره لكن بدون الذيل .

ضجّ المكان بالضحك وانهالت التعليقات ، ولم يكتف الكثيرون بذلك وإنما نصّبوا أنفسهم محامين ومشرّعين وتباروا فى تسفيه ادعائه بقولهم : حين يباع كبش أو أىّ حيوان آخر لا يقتطع منه الذيل لأنه يتبع - رضينا أم كرهنا - أحد الربعين الخلفيين. عندئذٍ ردّ "لوبى" قائلاً : إن الأغنام فى بلاد البربر تقسم إلى خمسة أجزاء ، أحدها الذيل الذى لا تقل قيمته عن باقى الأجزاء [٢٣] ، وإنه - أى الذيل - يكون تابعاً للماشية فى حالة بيعها كاملة وليست على أرباع ، ومادام الحمار قد خسر على مائدة القمار [٢٤] ولم يبع ، ولم يفكر صاحبه فى اللعب على ذيله فإنهم ملزمون برده إليه مع ملحقاته التى تمتد من منتصف أعلى الدماغ - مروراً بالعمود الفقّارى - حتى آخر شعرة فى طرفه.

---

(٢٣)تختلف رءوس الضأن فى إسبانيا عن بلاد البربر (وعن الأغنام المصرية أيضاً) فى أن ذيول الأولى قصيرة ورفيعة ؛ أما أغنام المغرب العربى (التى يقصدها المؤلف) فتتمتع بذيول مستديرة وطويلة لا تقل قيمتها - بالفعل - عن باقى الأجزاء . (المترجم)

(٢٤)لا يخفى ما فى كلمة "مائدة" (مائدة القمار) من تهكم وسخرية لأن السقائين كانوا قد افترشوا دثار أحدهم على الأرض للعب الورق عليه . (المترجم)

- وماذا يبقى من الحمار إذا أعطيناك ما تُطالب به ؟ - سأل أحدهم.

- لا شأن لى بذلك - ردّ "لوپى" - ، أريد الذيل بالطريقة الموضحة آنفًا ، وليس على أقساط ، وفيما عدا ذلك لن تنتزعوا الحمار من يدى حتى ولو استعنتم بسقّائى العالم أجمع ، لا تظنوا أن كثرتكم تخيفنى لأنى أعرف كيف أصل إلى أحدكم وأُحدث فى بطنه مقدار شبرين بطعنتين من خنجرى دون أن يدرى من أين جاءتا ولا من الذى تطوع بتسديدهما.

اتضح للفائز وللحاضرين استحالة فض النزاع عن طريق القوة لأن حماس "الأستوريانو" وهياجه لن يسمحا بذلك ، وبما أن الأخير كان قد تلقى التدريب الكافى فى "مضارب الزهرة" حيث تمرح كافة صنوف الشر مُطلقة العنان فقد ألقى بقبعته على الأرض واستل خنجراً من بين طيّات ثيابه ووقف متأهبًا للنزال فأشاعت هيئته الرعب فى جماعة السقائين. تدخل حينئذٍ رجل تبدو على محيّاه أمارات الحكمة والاتزان وعرض عليهم فكرة اللعب على الذيل مقابل ربع الحمار. راقتهم الفكرة ، ولم يمانع "لو پى" الذى فاز بالجولة الأولى من المباراة . تكهرب الخاسر ولعب على ثلاثة الارباع الباقية فخسرها أيضاً. حاول بعد ذلك أن يلاعبه على المبلغ الذى قبضه من بيع الحمار ويفكر فى الاستعانة به على إتمام مشروع الزواج فلم يلق استجابة من الفائز ، لكن "لو پى" اضطر فيما بعد إلى الرضوخ أمام إلحاح المتفرجين لتنتهى المباراة بفقدان السقاء لآخر فلس كان معه. حين أيقن الخاسر من ضياع أمله فى الزواج اعتلته الكآبة وألجمته الحسرة فسقط على الأرض متلويًا وراح يتمرغ فى التراب . ولأن "لو پى" من أصل كريم فقد أخذته الشفقة بالرجل، اقترب منه وأنهضه ثم ردّ عليه الستة عشر دوكادوس التى كسبها منه ، بل إنه لم يكتف بذلك وقام بتوزيع ما معه من نقود على الحاضرين. أثار كرمه وسخاؤه - الغريبان على طائفة السقّائين - العجب والدهشة فى نفوسهم جميعًا وأحيا فى ذاكرتهم سيرة تيمورلنك التترى ، ومن ثمّ فقد تعالت هتافاتهم بتنصيبه ملكاً عليهم.

رجع "لو پى" إلى المدينة مُحاطاً بموكبٍ كبير ، وفى الخان شرح لتوماس ما حدث وتلقى منه تقريراً مُفَصّلاً عن التطورات السعيدة فى موضوعه مع "كوستانثا".

طارت قصة الحمار - بما فيها الذيل وذكاء وشجاعة وكرم لوپى - إلى جميع الحانات والقهاوى وأوكار الصعاليك وشذاذ الآفاق ، وبما أن الذاكرة الجمْعية للرعاع والدهماء سيئة على الدوام وملعونة فإنها لم تعر اهتمامًا لما فى القصة من ذكاء وشجاعة وكرم بطلها واختزنت منها ما يخص الذيل فقط ، وعلى هذا فلم يكد "لوپى" يقضى يومين فى ممارسة عمله الجديد حتى لاحظ أن الناس تشير إليه بأصابعها فور رؤيته قائلة : "هذا هو السقَّاء صاحب الذيل" . زاد الطين بلة انتشار الخبر بين الصبية ، ونتيجة لذلك فلم يكن "لوپى" يظهر فى مدخل أىّ شارع حتى تقابله صيحاتهم من هنا وهناك : "هاتِ الذيل ، ياأستوريانو ! ياأستوريانو هاتِ الذيل !" .

ولما وجد نفسه هدفًا لألسنة كثيرة تَذرّع بالصمت ،معتقداً أن بئره السحيق كفيل بابتلاع هذا الكمّ الهائل من البذاءات ، لكن مرورِ الأيام كشف له عن مجافاة اعتقاده للصواب لأن هتافات الصبية كانت تزداد علوّاً كلما تمادى فى الصمت ؛ حاول استبدال الحلم بالغضب فترجّل عن حِماره وطارد الصبية بالعصا فكان مثل منْ قَرّب النار من البارود ، إذ إنه بدلاً من أن يُسكت صوتاً واحداً بضرب مصدره قد أهاج عش الزنابير لتخرج منه سبعمِائة صوت مطالبة بالذيل فى حماسة وإصرار. أحسن صنعاً فى النهاية بانزوائه فى نزل بعيد عن خان صديقه : للفرار من مطاردة "أرجويّو" ولحين انقشاع الغمّة بانمحاء المطالبة اللعينة بذيل الحمار من ذاكرة الصبية.

مضت ستة أيام على "لو پى" وهو قابع فى منفاه الاختيارى ، لا يغادره إلا ليلاً ولزيارة صديقه ، فى المرة الأخيرة أخبره توماس بعدم تمكنه من مخاطبة "كوستانثا" بكلمة منذ واقعة التعويذة التى أصبحت بعدها أشد حرصاً وخفراً من المعتاد لأنه رآها ذات مرة فقالت له قبل وصوله إليها : "توماس" ، أنا لا أشكو من شىء ، ولست بحاجة إلى نصائحك وصلواتك ، احمد ربنا لأننى لم أبلغ عنك مندوبى محاكم التفتيش ، لكنها قالت ما قالته دون أن يرى الغضب فى عينيها أو أية أمارة أخرى تشى بكراهيةٍ أو نفور .. ومن جهته ، فقد حكى له "لوپى" عن ملاحقة الصبية له فى أى مكان يقصده بالعبارة البذيئة المتعلقة بذيل الحمار ، وعندئذٍ نصحه صديقه بعدم الخروج من النُزل - على متن الحمار ، على الأقل - وإذا لم يجد بدًّا من ذلك فعليه بالسير فى الشوارع المعزولة الخالية من الناس ، أما إذا لم تفلح هذه الاحتياطات فلن

يكون أمامه سوى ترْك المهنة سدّاً للذرائع. سأله "لو پـى" عن الجلَيقية وآخر أخبارها معه فقال له : إنها لم تعاود الكرَّة منذ تلك الليلة التى اصطحبت فيها "أرجويّو" ، ورغم هذا فهى لا تكف عن محاولة استمالته بالهدايا وببقايا الطعام التى تختلسها مما يحضره النزلاِء معهم لإعداده فى المطبخ .. انسحب "لو پـى" بعد انتهاء الحوار بينها ميمماً شطر نزله وعاقداً العزم على ألا يغادره - على متن الحمار - لمدة ستة أيام أخرى.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة مساءً حين اقتحم الخان فجأة وعلى غير المتوقع مندوبو العدالة المتبوعون بالمأمور القضائى. اضطرب صاحب الخان - والنزلاء أيضاً - فور رؤيتهم؛ هذا لأن النيازك والشُّهب حين تعلن عن نفسها تكون نذير شؤم ومقدمة لحدوث المصائب والكوارث ، والعدالة لا تختلف ملليمتراً واحداً عن النيازك ، لاسيما إذا دخلت - هكذا فجأة وبأعداد كثيفة - بيتاً من البيوت فإنها تثير الرعب فى نفوس قاطنيه حتى ولو كانوا من ذوى الضمائر البريئة . دلف المأمور القضائى إلى إحدى الصالات ونادى على صاحب الخان الذى هرول إليه منتفضاً من شدة الخوف. سأله المأمور بصوت متجهم :

- هل أنتَ صاحب الخان ؟

- نعم ياسيدى. أنا طوْع أمرك.

أمر المأمور بإخلاء الصالة وتركه بمفرده مع صاحب الخان. ولما أصبحا وجهاً لوجه سأله المأمور:

- ما هو طاقم الخدمة الذى يعمل فى خانك ؟

- لدىّ ، ياسيدى ، فتاتان جلِيقيتان وقهرمانة وفتى مختصٌ بحساب الأعلاف.

- لا أحد غيرهم ؟

- لا ، ياسيدى .

- أين هى ، إذن ، الفتاة الجميلة التى تخدم فى الخان ويُطلق عليها الناس "صاحبة السيادة" ، والتى أخبرونى أيضاً أن ابنى "دون بيريكيتو" متيم بها ، ولا تكاد تمر ليلة دون أن يسمعها موسيقاه ؟

- سيدى ، الفتاة التى يتحدث عنها فخامتكم موجودة - حقاً - فى الخان ، لكنها ليست خادمة رغم أنها تبدو كذلك .

- أفزّورة تلك ؟ خادمة وغير خادمة فى الوقت نفسه !

- لم أنطق بغير الحق ، ولو يصرح لى سيدى بتفسير هذا التناقُض سأطلعه على سرّ لم أبح به لأحدٍ من قبل.

- قبل معرفة الحكاية أريد أولاً رؤية الخادمة. استدعها.

نظر صاحب الخان من فُرجة باب الصالة ونادى على زوجته :

- هيا ، يالمرأة ، آتنى بـ "كوستانثا" .

اضطربت الزوجة وولولت بيديها قائلة :

- ياويلتى ! المأمور يريد رؤية "كوستانثا" على انفراد ! لابد أن أمراً خطيراً قد حدث ، أو أن جمالها قد أذهب عقول الرجال .

سمعتها "كوستانثا" فقالت :

- لا داعى للقلق ياسيدتى ، أنا ذاهبة لمعرفة ما يريده المأمور ، وثقى تماماً فى أنه لو كان يستدعينى لخطأ ما فأنا بريئة منه براءةً لا تشوبها شائبة.

لم تتلكأ حتى لا يستدعى تأخرها النداء ثانية عليها ، تناولت شمعداناً من الفضة عليه شمعة مضاءة وسارعت بالذهاب - مضطربة بفعل الخجل أكثر من الخوف - إلى حيث ينتظر المأمور.

طلب المأمور من صاحب الخان غلْق باب الصالة ، وبعد امتثال الأخير للأمر نهض المأمور من مقعده وأخذ الشمعدان من يدها ، وعلى ضوئه تفحصها بعينيه من أعلاها إلى أدناها ، تنامى خجلها عندئذ وانعكس على وجهها فتوهج لونه وبدت أكثر جمالاً وخفراً لدرجة أن المأمور تخيل أنّه ينظر إلى ملاك لا إلى كائن بشرى . قال بعد إنعامه النظر فيها :

- هذه دُرّة ثمينة لا تصلح أركان خان متواضع لحفظها وصيانتها ، لقد بدأت من الآن أثق فى رجاحة عقل ابنى "دون بيريكيتو" وقدرته على إعمال

الفكر. إنهم غمطوك حقك يافتاة حين لقّبوك بـ "صاحبة السيادة" لأنك تستحقين ما هو أرفعَ وأجلّ ، لكن هذه الألقابَ لا تتناغم أبداً مع لفظ خادمةَ بل دوقة.

– ليست خادمة ياسيدى ، إنها لا تفعل شيئاً سوى صيانة المفاتيح الفضية التى منّ الله علىّ ببعضها ويستخدمها النزلاء من علية القوم.

– ورغم هذا مازلت متمسكاً برأيى فى أنه من غير المناسب أو المعقول ارتباط هذه الفتاة بالخان ، أهى – على سبيل المصادفة – قريبتك ؟

– ليست قريبتى ولا خادمتى ، ولو رغب صاحب السعادة فى معرفة منْ تكون سيسمع منى – فى غيابها – ما يلبى رغبته ويثير عجبه فى الوقت ذاته.

– نعم أرغب ، أخرجى يا "كوستانثا" ، وإذا احتجت لأى شيء وفى أية ساعة اعتبرينى مثل والدك تماماً : إن جمالها وخفرها يجبران الجميع على التفانى فى خدمتها وتلبية رغباتها.

أدّت – برزانة وتجلّة – التحية للمأمور القضائى ثم خرجت من الصالة فألفت سيدتها لدى الباب، منتظرة على أحرّ من الجمر لمعرفة ما يجرى بالداخل. أخبرتها بما حدث وببقاء سيدها مع المأمور ليقص عليه أشياء لا يود أن تسمعها منه. لم تهدأ الزوجة وظلت تصلى حتى شاهدت المأمور خارجاً وخلفه زوجها سليماً معافى ومحرراً من القيود. أما بالنسبة لما قصّه صاحب الخان على المأمور خلال الفترة التى أمضياها سوياً فكان كالتالى :

– "منذ خمسة عشر عاماً وشهر وأربعة أيام – طبقاً لحساباتى – وصلت إلى خانى سيدة محترمة فى ملابس الحجاج. كانت راقدة على محفّة فى هودج تم نصبه على عربة ، وإلى جوارها تجلس وصيفة وقهرمانتان ، بينما يحيط بالعربة أربعة من الخدم على ظهور الجياد ، هذا بالإضافة إلى بغلتين محملتين بسرير فاخر وأدوات مطبخ ؛ خلاصة القول إن الموكب كان يوحى بالثراء والعظمة وبأن سيدته من علية القوم ، ومع أنهاكانت تناهز الأربعين من العمر أو ما يزيد قليلاً إلا إنها بدت رائعة الجمال . جاءت مريضة ، شاحبة اللون ، ولذا فقد أمرت خدمها بسرعة إعداد

سريرها ، امتثلوا للأمر وقاموا بنصبه فى الصالة التى نجلس فيها الآن. سألونى عن أشهر طبيب فى المدينة فذكرت لهم اسم الدكتور "دى لافوينتى" [(٢٥)] ؛ ذهبوا إليه وأحضروه ، تحدثت معه على انفراد وأخبرته بعلّتها ، تمخض الحوار بينهما عن أمر الطبيب بنقلها إلى مكان هادئ لا يصله ضجيج ، نقلوها إلى غرفة معزولة بالطابق العلوى تتوافر فيها وسائل الراحة الموصى بها. لم يحدث أن دخل عليها واحد من الخدم إذ كانت شئون خدمتها ورعايتها منوطة بالقهرمانتين والوصيفة .. سألنا الخدم - أنا وزوجتى - عن هوية السيدة واسمها ، من أين تأتى وإلى أين هى ذاهبة، إذا كانت متزوجة أو أرملة أو آنسة ، ولماذا ترتدى ملابس الحجيج . على كل هذه الأسئلة لم يجيبوا بأكثر من أنها سيدة نبيلة غنية من إقليم قشتالة القديمة ، وأنها أرملة وليس لها أولاد يرثونها ، وأنها تعانى منذ عدة أشهر من مرض الاستسقاء ، ولذا فقد نذرت الحج إلى عذراء "جوادالو پى" وارتدت الملابس الخاصة بتلك الشعيرة . أما بالنسبة لاسمها فإنه لم يرد على ألسنتهم مطلقاً لأنهم كانوا يستعيضون عنه بلقب "السيدة الحاجة" . هذا كل ما عرفناه عنها وقتئذٍ إلى أن أرسلت فى طلبنا - أنا وزوجتى - بعد مضى ثلاثة أيام من ملازمتها للفراش ، ذهبنا لمعرفة ما تريد، أمرت بغلْق الباب، وأمام القهرمانتين والوصيفة والدموع تتلألأ فى مقلتيها قالت لنا - على ما أذكر - هذه الكلمات : "يعلم الله أنه لا ذنب لى ولا جريرة فى المحنة القاسية التى أواجهها وأود إبلاغ شخصيكما الكريمين بملابساتها. أنا حامل وعلى وشك المخاض لأننى أحس ببوادر آلامه المبرحة. لا أحد من الخدم الذين جاءوا معى يعرف شيئاً عن محنتى التى لم أستطع - فى المقابل - إخفاءها عن هؤلاء الخادمات. لقد خرجت من موطنى لزيارة عذراء "جوادالو پى" فراراً من العيون المتطفلة الخبيثة ، ويبدو أن العذراء قبلت نذرى لأنها ألهمتنى النزول فى داركما ، إننى ألجأ إليكما لتساعدانى

(٢٥) تعرف الباحثون على شخصية هذا الطبيب De la Fuente ، وقالوا إنه كان يعمل أستاذاً بجامعة طليطلة فى القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر. (المترجم)

فى هذه الأزمة بالسرية التى يقتضيها وضع شرفى أمانة فى عنقيكما ، وإذا كان ما أنتظره منكما من معروف لا يكافأ بمال ، فحسبكما منى أننى سأظل مدينة لكما بالشكر والعرفان طيلة أيام عمرى الباقية ، وكمقدمة للإعراب عن خالص امتنانى ، هذا كيس يحتوى على مائتى إسكودو من الذهب" .
قالت هذا ثم سحبت من تحت الوسادة كيسًا من القطيفة الخضراء المشغولة بخيوط ذهبية ووضعته بين يدىّ زوجتى ، ولأن الأخيرة تتسم بالبساطة ولا تعقل ما تفعل - أو ربما لشغلها بما تقوله الحاجة وتشتت ذهنها - فقد أخذت الكيس دون الرد بكلمة شكر أو إيماءة مهذبة. أذكر أننى قلت لها: إنه لا داعى لذلك لأننا لسنا ممنْ تحركهم المنفعة الشخصية ، بل الواجب والشفقة ، وإننا على استعداد للقيام بأىّ عمل فى سبيل خدمتها دون مقابل.
المهم أنها واصلت حديثها على النحو التالى : "من الضرورى البحث أولاً عن مكان مناسب بطليطلة لحمل المولود إليه واختلاق المبررات لمنْ سيتسلمه ويعنى به ، ثم البحث بعد ذلك عن مكانٍ آخر فى أية قرية قريبة لنقله إليه. أما بالنسبة لما يجب عمله فيما بعد فأرجئه إلى حين عودتى من "جوادالو پى" لكى يكون لدىّ متسع من الوقت للتفكير واختيار الأفضل ، وأنا واثقة من أن الله سيمن علىّ بالاختيار السليم بعد وفائى لنذرى، لا حاجة لى بقابلة ولا أريدها : فحالات الوضع الشريفة الأخرى التى مررت بها من قبل تجعلنى متأكدة من القدرة على تسهيل مهمة خادماتى الصعبة، وستعفينى ، بالتالى ، من جلْب شاهدة عيان أخرى" .

توقفت الحاجة المحزونة عند هذا الحد ثم شرعت فى بكاء غزير مسترسل وعندئذ تدخلت زوجتى محاولة التسرية عنها ببعض كلمات العزاء. تركتهما وخرجت للبحث عن مكان يتلقى المولود فور ولادته. وبين منتصف الليل والواحدة صباحًا، حين أطبق السكون على الخان واستسلم نزلاؤه للنوم ، وضعت السيدة طفلة رائعة الجمال، وهى الشابة التى رآها سيدى منذ قليل. لم تشك السيدة من المخاض ولم تصرخ الطفلة بعد ولادتها ، وكأن كلتيهما قد تعاهدتا على الصمت لإخفاء سرهما العجيب. لزمت السيدة الفراش ستة أيام لم تنقطع خلالها زيارات الطبيب ، لكنها لم تفصح له أبداً عن سبب

مرضها ، ولم تتناول العقاقير التى يصفها. لقد كانت تريد فقط - طبقاً لما أخبرتنى به بعد تعافيها - خداع الخدم بالزيارات المتكررة للطبيب. وفى اليوم الثامن نهضت من السرير على هيئتها السابقة ، أو - على الأصح - بنتوء مماثل لما أنزلته من بطنها.

غادرت الخان ميممة شطر "جوادالو پى" ورجعت بعد عشرين يومًا متظاهرة بتحسن صحتها، ذلك لأنها بدأت تخفف شيئًا فشيئًا من حجم النتوء على بطنها وكأن العذراء قد استجابت وشفتها من مرض الاستسقاء .. حين عادت من الحج كانت الطفلة تتربى - علىّ أنها ابنة أختى - فى إحدى القرى التى تبعد فرسخين عن المدينة. سرّت الأم لا متثالى لأمرها وتسمية الطفلة عند تعميدها "كوستانثا" . أعطتنى عقداً ذهبياً منتزعًا منه ست حبات ، ثم قامت بقص رقاع أبيض (مطوياً بعناية طيّات حلزونية متتالية مثل المجدول على أصابع اليدين ، وعلى كل طيّة حرف من الحروف) إلى نصفين بحيث يتضمن نصفه الأول الطيّات العلوية ويشتمل الثانى على الطيّات السفلى ، وبهذا الشكل لا يمكن بأى حال - إلا إذا كان الأمر محض مصادفة أو مجرد تخمين - قراءة الكلمات المكوّنة من تلك الحروف إلا بعد دمج النصفين كما كانا قبل القصّ. أعطتنى أحدهما - بالإضافة إلى العقد - قائلة : إن الشخص الذى سترسله لأخذ ابنتها خلال سنتين سيكون معه النصف الثانى من الرقاع والحبّات الست المنزوعة من العقد. أمرتنى أيضًا بتنشئة الطفلة كالقرويات ، وبأنه فى حالة عدم استطاعتها - لأى سبب من الأسباب - إرسال ذلك الشخص بالعلامتين المذكورتين قبل السنتين ينبغى ألا أخبر الفتاة عندما تكبر بأى شى ء عن ظروف وملابسات ولادتها. تأسفت لى واعتذرت عن عدم البوْح باسمها أو الإفصاح عن شخصيتها لأنها تفضل إرجاء هذا إلى الوقت المناسب. أعطتنى، بالإضافة إلى مائتى الإسكودو السابقة ، أربعمائة أخرى ثم عانقت - والدموع تطفر من عينيها - زوجتى ورحلت تاركة إيّانا فى حيرة من سرها الغامض وجمالها الرائع وعقلها الراجح وتحفظها المبالغ فيه وكرمها الزائد. بعد أن أمضت "كوستانثا" سنتين بالقرية أحضرتها إلى الخان

وحرصت دائماً – تنفيذاً لرغبة والدتها – على ارتدائها لملابس الفلاحات وبنات الريف. لقد انتظرت حتى يومنا هذا خمسة عشر عاماً وشهراً وأربعة أيام وصول ذلك الشخص المجهول لاستلامها ، لكن طول المدة وأد الأمل فى الزيارة المرتقبة ، وإذا لم يظهر ذلك الشخص خلال هذا العام فسوف أتبنى الفتاة ،وأوصى لها بثروتى التى تقدر بما يزيد عن ستة آلاف دوكادوس ، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

بقى أن أذكر لسعادتكم – لو أسعفتنى الكلمات – طرفًا من شمائلها وفضائلها. إنها – وقبل كل شيء – تقية ورعة : إذ لا يمر عليها شهر دون الاعتراف وتناول القربان المقدس ، تقرأ وتكتب ، لا يدانيها مخلوق بطليطلة فى شغل الإبرة أو العمل على المغزل ، صوتها فى إنشاد الترانيم الدينية – حين تنفرد بنفسها – ملائكى ، لا توجد فتاة أخرى تضارعها فى العفة والخفر ، أما عن الجمال فلست بحاجة إلى الإشادة به لأنكم عاينتموه. السيد "دون پدرو" – ابن سعادتكم – لم يتبادل معها كلمة واحدة ، صحيح أنه من وقت لآخر يعزف لها ، لكنها لا تستمع مطلقًا لموسيقاه. أناس لا حصر لهم من السادة وأصحاب المقامات الرفيعة نزلوا بخانى المتواضع ، وأراهن على أنهم جميعًا أخّروا رحيلهم منه بضعة أيام ليتخموا أعينهم من النظر إليها، ورغم هذا فأنا متأكد أنه لا يوجد من بينهم فرد واحد يستطيع التباهى بمخاطبتها بكلمة : سواء كانت على انفراد أو أمام الغير. هذه ياسيدى – دون تحريف أو زيغ – القصة الحقيقية لصاحبة السيادة : الخادمة التى لا تخدم.

أمسك صاحب الخان عن الكلام منتظراً تعقيب المأمور الذى اعترته الدهشة ، لكنه ما لبث أن خرج عن صمته بطلب العقد والرقاع. امتثل الرجل للأمر، ولما رآهما المأمور تحقق من مصداقية ما سمعه ، فالعقد الثمين تنقصه فعلاً بعض الحبّات ، ونصف الرقاع الذى دونت عليه الحروف التالية (حرفًا تحت آخر ، وبين كل حرف والتالى له فراغ) ETELSNVDDR لا يمكن قراءته إلا إذا أدمج فى النصف الآخر. أقر المأمور بذكاء هذه العلامة واستنتج ثراء السيدة الحاجة من نفاسة العقد الذى تركته مع صاحب الخان. وبدلاً من انتزاع الفتاة من الخان – كما كان ينتوى – وإدخالها أحد الأديرة فقد اكتفى بحمل الرقاع والتنبيه على صاحب الخان بضرورة الاتصال به

حين يأتى ذلك الشخص لاستلام الفتاة ، وألا يُظهر للقادم العقد (الذى تركه لصاحب الخان) قبل حضوره شخصياً . قال هذا ثم غادر الخان وهو فى أشد العجب من أحداث القصة العجيبة ومن الجمال الفريد لصاحبتها.

كادت تنتاب "توماس" لوثة خلال الوقت الذى أمضاه صاحب الخان مع المأمور القضائى ، ولما استدعى الأخير "كوستانثا" زلزلت روحه آلاف الأفكار ، لكنه تنفس الصعداء وأحس بسريان الدم فى عروقه حين ذهب المأمور مُخلّفاً "كوستانثا" وراءه. لم يجرؤ على سؤال صاحب الخان عما جرى بينه وبين المأمور خلال الجلسة المغلقة ، ولم يخبر صاحب الخان أحداً بما جرى سوى زوجته التى ثابت إلى رشدها وشكرت الرب على مرور العاصفة بسلام.

فى حوالى الواحدة من ظهر اليوم التالى شهد الخان قدوم رجلين مُسنّيْن مهيبين بصحبة أربعة رجال آخرين وخادمين ، كانوا جميعًا يمتطون الجياد فيما عدا الخادمين، سأل خادم عما إذا كان هذا هو "خان الإشبيلى" ، ولما أجابوه بنعم دلفوا إلى الفناء. ترجّل الرجال الأربعة ثم عاونوا المسنّيْن على النزول مما يعنى أنهما سيدا الستة الآخرين. خرجت "كوستانثا" بأدبها المعتاد لرؤية النزلاء الجدد ، ولما رآها أحد الرجلين المسنّيْن قال لصاحبه :

– أعتقد أننا عثرنا – يا "دون خوان" – على ضالتنا المنشودة .

تعرف "توماس" – فور اقترابه لتدوين حاجة الدواب من الأعلاف – على خادمىّ أبيه ، كما شاهد والده ووالد "كارّياثو" (وهما السيدان اللذان يعاملهما الآخرون باحترام) ، تملكته الدهشة وخيّل إليه أنهما فى طريقهما إلى "مضارب الزهرة" للبحث عن ولديهما بعدما وصلتهما أخبار تفيد برحيلهما إليها وليس إلى فلاندس كما ادعيا فى الخطاب الذى أرسلاه إلى المؤدب. لم يجرؤ على الظهور أمامهما بالملابس التى يرتديها ، ولذا فقد أخفى وجهه بين يديه ومرّ من أمامهما قاصداً "كوستانثا" التى وجدها – لحسن الحظ – بمفردها ، ومن شدة الخوف بألا يسعفه الوقت لإطلاعها على ما يريد قال لها فى عجلة وبلسان متلعثم :

– "كوستانثا" ، والدى هو أحد الرجلين المسنّيْن اللذين وصلا الآن ، إنه الذى ينادونه بدون خوان دى أبيندانيو ، يمكنك سؤال الخادمين عن ابنه الوحيد

" توماس" ، وبوسعك أيضًا التحرى عن حقيقة ما أخبرتك به عن صفتى وعما يخصنى فى وصية أبى من ثروة. أستودعك الله لأننى لا أفكر فى العودة إلى الخان قبل رحيلهما.

لم تعلق "كوستانثا" بكلمة ، ولم ينتظرِ هو تعليقها لأنه سارع بالخروج مخفياً وجهه بالطريقة التى جاء بها واتجه إلى حيث يقيم صاحبه ليخبره بنزول أبويهما فى "خان الإشبيلى" ، لكنه لم يعثر عليه. رفع صاحب الخان صوته منادياً على "توماس" ليصرف الأعلاف للخيول ، ولما أعياه النداء وجد نفسه مضطراً للقيام بالمهمة. نادى رجل من المسنّيْن على إحدى الجلّيقتين وسألها عن اسم الفتاة الجميلة التى رآها ، وهل هى نزيلة بالخان أم ابنة صاحبه ، فأجابته الجليقية بما يلى :

- الفتاة تُدعى " كوستانثا" ، وهى ليست نزيلة بالخان ولا ابنة صاحبه ، ولا علم لى بمنْ تكون ، أعرف فقط أنها - عليها اللعنة - تتمتع بشيء أجهله زيادة عن فتيات الخان اللاتى لا ذنب لهن فى الظهور بوجوههن التى قدّرها لهن الخالق. لا يكاد يدخل نزيل إلا ويبادر بالسؤال عن تلك الفتاة ويغمغم بمثل هذه العبارات : "إنها بديعة التكوين ، جمالها يسر الناظرين ، لتذهب المتجملات والمتصنعات إلى الجحيم ، لقد أسعدنى الحظ برؤيتها، إنها للجمال أميرة متوّجة" ، أما نحن ، فلا يوجد منْ يُعيرنا التفاتاً حتى ولو لمجرد إبداء الامتعاض.

- مادام الحال هكذا - قال الرجل - فلابد أن تلك الفتاة تسمح بغزل النزلاء وامتداد أيديهم إليها.

- ماذا تقول ؟! - ردت الجلّيقية - منْ هو المجنون الذى يقامر بوضع قدمه فى القيد الحديدى ! ما للفتاة ومثل هذه الأمور ! إن تفجر الينابيع بالذهب بدلاً من الماء لهو أقرب إلى التصديق من سماحها للعيون بمجرد التطلّع فيها ، إنها خشنة مثل قنفذ ، ماكينة ورع وتقوى ، تمضى النهارِ بطوله متقلبة بين الصلوات وشغْل الإبرة. سأكون فى غايةِ الرضا لو حفلَ سجلّ أعمالى يوم الفزع الأكبر بمثل صفحة واحدة من سجلّها. يقول مخدومى إنها تغذت فى بطن أمها على الصمت ورضعته لبناً بعد ولادتها.

أثلجت كلمات الجليقية صدر الرجل المسنّ ، ودون انتظار منه لكي يقوم معاونوه بخلع المهمازين من قدميه نادى على صاحب الخان ثم انتحى به ركناً قصيًا من الصالة وقال له:

- أتيتُ لأسترد أمانة ظلت فى حوزتك سنوات طويلة ، سأعطيك فى المقابل ألف إسكودو ذهبية وبضع حبّات من عقد ونصف رقاع.

أخرج الحبّات ونصف الرقاع. تعرف عليهما صاحب الخان ثم قال وأمارات السرور بألف الإسكودو بادية عليه :

- سيدى ، عاريتك التى تود استردادها موجودة فى الخان ، أما بالنسبة للعقد والنصف الثانى من الرقاع فأرجو الانتظار قليلاً لحين عودتى بهما من خارج الدار.

وعلى الفور أرسل صاحب الخان إلى المأمور القضائى من يبلغه بحضور رجلين مسنّين لأخذ "كوستانثا" .

كان المأمور قد فرغ من تناول غدائه ، ولرغبته العارمة فى الوقوف على خاتمة القصة العجيبة امتطى - على الفور - صهوة جواده واتجه إلى "خان الإشبيلى" حاملًا معه نصف الرقاع. لم يكد يرى الرجلين حتى اتجه - فاتحًا ذراعيه - صوب أحدهما وقال له:

- ياإله العالمين ! فيم هذه الزيارة المباركة يابن عمى وسيدى "دون خوان دى أبيندانيو" ؟

تلقاه الرجل بذراعيه المفتوحين أيضاً قائلاً له:

- لاشك أن سعادتى برؤيتك لا توصف . هيا، يابن العم، عانق هذا الرجل العظيم وصديقى الحميم "دون دييجو دى كارّياثو" .

- ومن ذا الذى يجهل "دون دييجو" ؟ طليطلة وأنا على رأسها فى خدمته.

بعد تبادل التحيات الحارة وعبارات الودّ ، دخلوا - ومعهم صاحب الخان - إحدى الصالات وأغلقوا الباب دونهم. كان صاحب الخان هو المتحدث أولاً :

- سعادة المأمور يعرف ما أتيت من أجله ياسيد "دون دييجو دى كارّياثو" ، هاتِ الحبات الناقصة من هذا العقد ، وليتفضل المأمور بإخراج

نصف الرقاع الذى معه لكى نُجرى التجربة التى أنتظرها منذ سنوات عديدة.

– لا داعى إذن – قال "دون دييجو" – لقصّ الحكاية ثانية على المأمور مادام قد عرفها منك.

– لقد أخبرنى بما لديه من المعلومات – ردّ المأمور – ، لكن الحكاية مازالت حافلة بالكثير مما أجهله. هذا هو نصف الرقاع.

قام على الفور ببسط النصف الأول من الرقاع الذى يحتوى على الحروف التالية: ETELSNVDDR كما بسط "دون دييجو" النصف الثانى فظهرت عليه هذه الحروف : SASAEALERAEA ، وبعد دمج النصفين تمكنوا من قراءة الكلمات الآتية : ESTA ES LA SENAL VERDADERA (أى: هذه هى العلامة الحقيقية). تعرفوا أيضًا على انتماء الحبات الست للعقد الخالى منها.

– بعد إجراء المعاينة والتحققِ من سلامة العلامتين – قال المأمور – مازال ينقصنا التعرف على والدى هذه الفتاة الجميلة.

– أنا أبوها – قال "دون دييجو" – أما الأم فقد انتقلت إلى جوار ربها منذ عدة سنوات ، إنها امرأة نبيلة واسعة الثراء ، ولا أبالغ إن قلت إن الفارق بينها وبينى – رغم جاهى وثروتى – مثل الفارق بين الخادم ومخدومه. شهرتها كانت السبب فى عدم البوْح باسمها ، لقد كانت زوجة لرجل عظيم، ولما ترمّلت آثرت العزلة والاحتجاب فانتقلت من المدينة إلى إحدى ضياعها الكبيرة حيث عاشت – خِفرة عفيفة – عيشة وادعة مطمئنة بين خدمها وحشمها وأتباعها .. كنتُ أمَارس ذات يوم هواية الصيد ، وشاءت الأقدار أن أطارد صيداً داخل حدودِ ممتلكاتها ، ولما اقتربت من قصرِها دفعنى الفضول لزيارتها. وصلت إلى مقر سكنها ساعة القيلولة ، تركتُ جوادىِ مع خادمى على مقربة من القصر الذى دخلته دون اعتراض من أحد ، طفْت بداخله ووجدت الخدم والحرّاس يغطون فى النوم ، تسللت على أطراف أصابعى إلى مخدعها فألفيتها نائمة على أريكة سوداء. بدت رائعة الجمال ، أيقظت الفرصة المواتية رغباتى الآثمة ، وأزكت أوارها الوحدة والسكون،

ودون أن تخطر ببالي فكرة مراودتها عن نفسها بعبارات الغزل المنمقة أغلقت الباب ورائي ، اقتربت منها وأمسكتها بقوة فاستيقظت فزعة ، قلت لها : "لا داعي للصراخ طلبًا للنجدة لأن صراخكِ سيكون بمثابة إعلان لخبر فضيحتكِ على الملأ : لقد وصلت إلى مخدعكِ ولم يشاهدني أحد، وكأن حظي السعيد قد تجاوب مع رغباتي بإثقال جفون الخدم والحرّاس ، ولو افترضنا جدلاً تلبيتهم لصراخك وحضورهم لنجدتك فلن يتمكنوا من انتزاعك من بين ذراعيّ إلا وأنا جثة هامدة ، وموتي على هذا النحو لن يمنع الألسن من تدنيس سمعتك" . المهم أنني تمكنت منها في النهاية ، وهي - من هول الصدمة وشدة الاضطراب - لم توجه إليّ كلمة واحدة ، تركتها ذهلة مشوشة وخرجت مثلما دخلتِ (على أطراف أصابعي) ثم انطلقت بجوادي إلى ضيعة صديقٍ لي على بعد فرسخين. عرفت بعد ذلك أنها انتقلت للعيش في مكانٍ آخر ، لم أشاهدها ، ولم أحاول رؤيتها ثانية ، وبعد مرور سنتين تقريبًا على تلك الحادثة علمت بموتها .. منذ عشرين يومًا فقط وصلني خطاب من قهرمانها يطلب مني - في حرارة وتوسل - الحضور لأمرٍ هام وعاجل يتعلق بشرفي وبمصير إنسانٍ يهمني. ذهبتِ وأنا خالي الذهن تمامًا فوجدت القهرمان على فراش الموت ، وحتى لا يطيل الكلام أخبرني بإيجاز أن سيدته قصّت عليه قبيل وفاتها تفاصيل واقعة الاغتصاب ، وأنها حملت مني بعدها ، ولكي تداري انتفاخ بطنها ادعت الإصابة بمرض الاستسقاء ، ولما اقترب موعد الولادة رحلت - بقصد الحج - إلى عذراء "جوادالو بي" ، وفي الطريق عرّجت على طليطلة لتلد في "خان الإشبيلي" طفلة اسمها "كوستانثا" . سلمني العلامتين اللازمتين لاستردادها ، وهما - كما رأيتم - حبات العقد ونصف الرقاع ، كما أعطاني ثلاثين ألف إسكودو كانت سيدته قد تركتهم مع العلامتين المذكورتين لزواج ابنتها. قال لي إنه تأخر كل هذه السنوات ولم يبلغني في حينه لأن الطمع أعماه وسوّلت له نفسه الاستيلاء على ذلك المبلغ الكبير ، لكن ضميره صحا من غفوته وهو على أبواب الآخرة ، ومن ثمّ فقد حاول إصلاح ما أفسده حبه للدنيا وطمعه في عرضها الزائل من أجل التكفير عن

ذنبه وقبول توبته. أخذت منه تلك الأشياء وعُدْتُ مُسرعًا لبرغش لأخبر صديقي "دون خوان دى أبيندانيو" بما حدث ، وها نحن أولاء فى معيتكم وعلى أرض طليطلة الشامخة.

لم يكد "دون دييجو" يخلص من حكايته السابقة حتى سمعوا صوتاً عاليًا ينادى من أمام باب الخان:

- أخبروا "توماس بدرو" المكلّف بحساب الأعلاف ، أن زميله "الأستوريانو" مقبوض عليه وفى طريقه إلى السجن.

حين سمع المأمور صرخة الاستغاثة أمر بإحضار الشرطى والمقبوض عليه. أبلغ الموجودون الشرطى بالأمر فامتثل على الفور.

دخل "الأستوريانو" وهو مطوّق بالأغلال وأسنانه ملطخة بالدم والشرطى يقبض عليه بيدٍ من حديد، اعتراه الاضطراب حين شاهد والده ووالد "أبيندانيو" بصحبة المأمور وصاحب الخان ، وحتى لا يراه أحد منهما أخرج منديلاً من جيبه ، وبدلاً من مسح الدم العالق بأسنانه - حسبما تظاهر - قام بتغطية وجهه .. سأل المأمور عما اقترفه الفتى ، وعن السبب فى سوقه هكذا مقيداً بالأغلال فأجاب الشرطى بما يلى : الفتى سقّاء ويسمى "الأستوريانو" ، والصبية يطاردونه بهذا النداء أينما حلّ: "هات الذيل يا "أستوريانو" ! يا "أستوريانو" هات الذيل"! ، ثم قص عليهم بإيجاز واقعة الذيل الشهيرة فضحكوا ملء أشداقهم. أضاف الشرطى قائلاً : وفى أثناء عبوره اليوم جسر "القنطرة" قابله الصبية بصيحاتهم المعهودة فما كان منه إلا أنه ترجّل عن حماره وجرى خلفهم بعصاه فأدرك واحداً منهم ليتركه ما بين الحياة والموت من شدة الضرب ، وعندما جرى الخفراء للقبض عليه قاومهم بعنفٍ ، ولهذا السبب طوّقوه بالأغلال. أمره المأمور القضائى بكشف وجهه فلم يمتثل ، بادر الشرطى بانتزاع المنديل وعندئذٍ رآه والده الذى تغيّر وجهه من هول الصدمة ، لكنه تماسك وقال له :

- "دون دييجو" ، ابنى ، ما هذه الهيئة التى أنتَ عليها ؟ وما هذه الثياب التى ترتديها ؟ ألم تنس بعد حياة التشرد والصعلكة ؟

جثا الابن على ركبتيه محاولًا تقبيل قدمى والده ، لكن الأخير أنهضه وعانقه عناقًا طويلاً والدموع تطفر من عينيه. سأل "دون خوان دى أبيندانيو" الفتى "دون

دييجو" عن ابنه " توماس" فقال له إنه الفتى الذى يقدم التبن والأعلاف فى الخان. استولت الدهشة على الحاضرين ، طلب المأمور من صاحب الخان إحضار توماس فقال له :

- لا أعتقد أننى سأجده الآن فى الخان ، ومع هذا سأفتش عنه .

خرج صاحب الخان للبحث عن "توماس" .

سأل "دون دييجو " " كارّياثو"عن سر هذا التغيير فى هيئته ، وعن الدافع لاشتغاله سقّاءً ولعمل ابنه بالخان. أبدى "كارّياثو" حرجه فى الردّ على تلك الأسئلة أمام الناس ورجاه الانتظار حتى يصبحا بمفرديهما.

كان "توماس پدرو" مختبئاً فى حجرته ، يتلصص منها - دون أن يراه أحد - على ما يفعله والده ووالد "كارّياثو" فى الخان . انتابه الذهول من انضمام المأمور إليهما ومن الجلبة التى عمّت المكان. لم يعدم صاحب الخان شخصًا يدلّه على مكان توماس ، صعد إليه وحاول - مستخدمًا القوة أكثر من الإقناع - إنزاله ، ورغم هذا فقد كان على وشك الفشل لولا تدخل المأمور الذى خرج إلى الفناء ونادى بصوتٍ جهورى :

- انزل يا "دون توماس دى أبيندانيو" ، انزل ياقريبى ولا تخف ، فليس من بيننا أسود ولا دببة.

نزل "توماس" مطأطئ الرأس ، وفى خشوع وأدب جمٍّ ركع أمام والدهِ الذى أنهضه واحتضنه بفرحة غامرة تعادل فرحة الأب الذى استرد ابنه الوحيد بعد فقدان الأمل فيه.

كانت عربة المأمور قد وصلت فى تلك الأثناء لتقلّه إلى البيت لأن الجموع الغفيرة التى تجمعت هناك أصبحت تشكل عائقاً أمام عودته بالجواد. طلب من صاحب الخان استدعاء "كوستانثا" ، ولما حضرت أمسكها من يدها وقدّمها لأبيها قائلا :

- استلم يا "دون دييجو" هذه الجوهرة النفيسة وقدرها حق قَدْرها . وأنتِ ، أيتها الفتاة ، هيا قبّلى يد والدكِ ، واشكرى الرب الذى أعلى منزلتكِ بعد ضعة ، وأغناكِ بعد فقرٍ ، وأكرمكِ بالحب والجاه بعد هوانٍ.

لم تكن "كوستانثا" تدرى شيئاً مما يدور حولها ، لم تجد ما تفعله - وهى مذهولة وترتجف بكاملها - سوى الجثوّ على ركبتيها أمام والدها ، تناولت يده بعد ذلك وأخذت تقبلها بحنانٍ وتغمرها بالدموع المنهمرة من عينيها الجميلتين.

فى أثناء ذلك كان المأمور يحاول إقناع ابن عمه (دون خوان) بذهابهم جميعاً معه إلى البيت ، وبالرغم من رفض "دون خوان" المهذب للدعوة إلا إن إلحاح المأمور جعله يرضخ فى النهاية ، وهكذا استقلوا جميعاً العربة. حين طلب المأمور من "كوستانثا" مرافقتهم ساخت قدماها وتعلقت بزوجة صاحب الخان وشرعتا فى فاصل طويل من البكاء المرّ الذى مزّق نياط قلوب المشاهدين. قالت زوجة صاحب الخان :

- أيمكن ، ياحبة الفؤاد ، أن تذهبى وتتركينى ؟ كيف يطاوعكِ قلبكِ على تركْ أمكِ التى ربتكِ وأحبتكِ حباً جماً ؟

بكت "كوستانثا" وتجاوبت معها الأخرى ببكاءٍ لا يقل حرارة. وأمام هذا المشهد المؤثر لان قلب المأمور وسمح لزوجة صاحب الخان بالركوب معها وملازمتها طيلة الوقت الذى ستقضيه فى طليطلة. حملتهم العربة إلى بيت المأمور حيث استقبلتهم زوجته - وهى امرأة نبيلة - استقبالاً حافلاً. تناولوا الطعام الفاخر الشهى الذى حفلت به مائدة العشاء ، وبعد الأكل حكى "كارّياثو" لوالده قصة حب "توماس" لكوستانثا وكيف دفعه هيامه الشديد بها إلى العمل خادماً فى الخان ، وجعله يصر - دون معرفته بأصلها النبيل - على الابتناء بها مهما كانت العقبات. ألبست زوجة المأمور "كوستانثا" فستان ابنة لها تماثلها فى العمر والقوام ، وإذا كان جمالها فى ملابس الفلاحاتِ ليس له نظير فقد تحولت فى الثوب الجديد الفاخر إلى حورية من السماء : كان تناغم الثوب معها يعطى الانطباع بأنها من علِّية القوم منذ اليوم الأول لولادتها ، وأنها ترتدى شيئاً معتاداً ومكرراً .

ولأن لمّة السعداء لا تخلو عادة من واحدٍ حزين ، فمن بين أفراد جماعتنا التى ترفرف عليها البهجة كان "دون پدرو" (ابن المأمور) مهموماً نكداً لتصوره بأن التطورات الأخيرة ستحول بينه وبين الزواج من "كوستانثا" ، ومن جهتنا نقول إن شكوكه كانت فى محلّها لأن المأمور و "دون دييجو دى كارياثو" (الأب) و "دون خوان دى أبيندانيو" اتفقوا فيما بينهم على زواج "توماس" من "كوستانثا" وفوزه

بالثلاثين ألف إسكودو التى تركتهم أمها لزواجها ، وعلى زواج السقّاء "دون دييجو دى كارّياثو" من ابنة المأمور ، وزواج "دون پدرو" من قريبته : ابنة "دون خوان دى أبيندانيو" .

وهكذا أصبحوا جميعاً هانئين مغتبطين ، طارت أخبار الزيجات الجديدة وحكاية "كوستانثا" العجيبة إلى كافة أرجاء المدينة فتوافد الناس – زرافات وفرادى – لمشاهدة "صاحبة السيادة : الخادمة" فى ثيابها الفاخرة التى كانت تتألق فيها – كما ذكرنا – وتبدو مثل حورية من السماء ، ولرؤية فتى الأعلاف "توماس" فى ملابس السادة بعد تحوله إلى "دون توماس دى أبيندانيو" . لاحظ الفضوليون أيضاً أن "لو پى الأستوريانو" قد تحول إلى سيدٍ كريم بعد تغييره لملابسهِ وتطليقه للحمار ومهنة السقّائين ، ورغم هذا فلم يكن يمشى بالشارع إلا ويعلو صوت من أحد الأركان – مع ما هو عليه من أبهة وفخامة – مطالباً إيّاه بذيل الحمار.

أمضوا شهراً كاملاً فى طليطلة ، وفى نهايته عاد إلى "برغش" كل من : "دون دييجو دى كارّياثو" وزوجته وأبوه ، "دون توماس" وزوجته "كوستانثا" وأبوه ، بالإضافة إلى ابن المأمور الذى رحل معهم لرؤية العروس قريبته .

بقى الإشبيلى (صاحب الخان) مسروراً وغنيا بألف الإسكودو وبما قدمته "كوستانثا" لزوجته من جواهر .. استلهم شعراء نهر "التاجه" المذهب قصة "صاحبة السيادة : الخادمة" فى تأليف القصائد الرائعة التى تتغنى بجمال صاحبتها وعفافها .. وإلى الآن مازالت تعيش "كوستانثا" هانئة قريرة العين فى كنف فتى أعلاف "خان الإشبيلى" ؛ أما "كارّياثو" فلديه – بالتمام والكمال – ثلاثة أبناء يدرسون بشلمنقة ، وليس من بينهم واحد تستهويه حياة الصعلكة أو لديه أدنى فكرة عن مكان "مضارب الزهرة" ، ورغم هذا فمازالت ذكريات طليطلة تداهم والدهم فور وقوع عينيه على حمار سقّاء وتجعله يرتعد فرَقًا من احتمال قيام أحد الخبثاء بمفاجأته ذات يوم بهذه المطالبة الساخرة : "هاتِ الذيل ، يا "أستوريانو" ! يا "أستوريانو" ، هاتِ الذيل ! " .

***

الفتاتان

على جواد ربْعَة ، وفى ساعة الأصيل ، أوى مسافرٌ إلى أحد الخانات المنتشرة فى " كاستيلبلانكو" [1] الواقعة على بعد خمسة فراسخ من مدينة إشبيلية . لم يكن معه خادم ، ودون انتظار منه حتى يمسكوا له الركاب قفز من على السرْج بخفة ومهارة .

حضر صاحب الخان ، وكان رجلاً دائب الحركة يقظاً ؛ لكن يقظته لم تسعفه للحاق بالقادم الذى جلس فور نزوله على مصطبة فى مدخل الخان وفك الأزرار العلوية لقميصه ثم تهدلت ذراعاه إلى جواره إيذاناً بالدخول فى إغماءة . أدركته زوجة صاحب الخان – وهى امرأة رقيقة القلب – بسكب الماء على وجهه فأذهبت عنه بوادر الدُوار . بدت أمارات الضيق على القادم لرؤيتهم له على تلك الحالة ، ولذا فقد سارع بغلق أزرار القميص وطلب غرفة مستقلة يأوى إليها دون شريك .

قالت له زوجة صاحب الخان : إنه لا توجد سوى غرفة واحدة مزدوجة ، وإنها لا تستطيع منعها عمن يقْدم طالباً المبيت . أبدى القادم استعداده لدفع أجرة السريرين سواء قدم آخر أو لم يقدم ، ثم مد يده للمرأة بإسكودو ذهبى مشترطاً عليها عدم تأجير السرير الخالى .

حدقت المرأة فى النفحة الكريمة وأخبرته أنها ستلبى رغبته ، ولن تعطى السرير لأى إنسان آخر حتى لو كان مطران إشبيلية ذاته . سألته إذا كان يريد تناول العشاء فأجابها بالنفى ، بيد أنه أوصى بحسن رعاية الجواد قصير القوائم . حمل بعد ذلك عدة أكياس كبيرة من الجلد ، وصعد إلى الغرفة التى أحكم غلق بابها بالمفتاح ، وإن كان لم يكتف بذلك لأنه – على ما يبدو – استعان بكرسيين أسندهما إلى الباب من الداخل .

لم يكد يغلق باب الحجرة وراءه حتى انعقد مجلس (مكون من صاحب الخان وزوجته والفتى المختص بالأعلاف وجارين آخرين تصادف وجودهما بالمكان .

---

(١) تبعد قرية "كاستيلبلانكو" (المسماة حالياً : كاستيلبلانكو دى لوس ريوس) بحوالى ٣٥ كم عن شمال إشبيلية ، وتقع على الطريق المتجه إلى "وادى القنال" المشهورة بطيب نبيذها . (المترجم)

دارت التعليقات فيه حول بهاء النزيل الجديد وحسن هيئته ورقته ، واتفق المجتمعون فى النهاية على أنهم لم يروا فى حياتهم مثل هذا الجمال.

اجتهد المجتمعون فى تقدير عمر الوافد الجديد ، وخلصوا إلى أنه يتراوح بين السادسة عشرة والسابعة عشرة . ضربوا أخماساً فى أسداس للوقوف على سبب إغماءته ، ولما أعياهم البحث توقفوا عند حد الإعجاب بوسامته.

انفض السامر بعودة الجارين إلى بيتيهما وذهاب صاحب الخان لإطعام الجواد ودخول زوجته المطبخ لإعداد شيء تحسباً لقدوم نزلاء آخرين يكونون فى حاجة لتناول العشاء. صدق حدْس الزوجة لأنه لم يكد يمضى سوى وقت قصير حتى حضر آخر لا يقلّ بهاءً عن الأول وإن كان يصغره بقليل. لم تتمالك زوجة صاحب الخان نفسها وصاحت متعجبة :

– ما هذا ، بحق السماء ! هل تواعدت الملائكة على المبيت بخانى هذه الليلة ؟

– لِمَ تقولين هذا ، ياسيدتى ؟ سأل الشاب.

– لا تشغل بالك – ردت عليه – ما قصدت سوى رجائك بعدم الترجل لأنه لا توجد عندى أسِرّة خالية. كان لدىَّ اثنان منها حجزهما نزيل ودفع أجرتهما حتى لا يُفسد عليه أحد خلْوته، لابد أنه يهوى العزلة ، ولست أدرى لماذا ؛ لأن وسامته وجمال وجهه جديران بالتباهى أمام الخلق جميعاً لا بالتخفى والانزواء.

– أهو جميل إلى هذه الدرجة ؟

– جميل فقط ! إنه والجمال صنوان.

– أقبل أيها الغلام – نادى الشاب على البغّال المرافق له – إننى جد راغب فى رؤية هذا النزيل حتى لو نمت على الأرض.

اقترب منه البغّال وأمسك بالركاب ، هبط من على ظهر الدّابة وسارع بطلب العشاء. وفى أثناء تناوله للطعام حضر المكلّف بالأمن فى القرية ، وكما هى العادة فى القرى فقد جلس مع المسافر ليتجاذب معه أطراف الحديث الذى تلقّى فيه جوفه – على حساب النزيل الشاب – ثلاثة كئوس مترعة بالنبيذ ، علاوة على نصف حجْل.

دفع رجل الأمن ثمن طعامه وشرابه أسئلة واستفسارات عن الأحوال فى العاصمة وحروب فلاندس وهزيمة الأتراك ، وعن الأحداث التى جرت لأمير "ترانسيلبانو" – حفظه الله – .

كان النزيل الشاب يتناول طعامه صامتاً ، غير عابئ باستفسارات رجل الأمن لعدم إثارتها لاهتمامه. انضم إليهما صاحب الخان – بعد فراغه من العناية بالجواد الرَّبْعة – وشارك فى الحديث وفى ابتلاع جرعات من نبيذ خانه لا تقل عدداً عما صبَّه رجل الأمن فى حلقه ، وبعد كل جرعة كان يرتد إلى الخلف ويميل رأسه على كتفه الأيمن ويثنى على النبيذ الذى يجعله يحلق فوق السحب رغم أنه لا يجرؤ على المكوث طويلا هناك حتى لا ينقلب فرحه إلى مأتم. ومن موضوع لآخر ، إلى أن اتجهت دفة الحديث فى النهاية نحو الثناء على النزيل والعجب من إيثاره الاعتكاف وعدم تناوله العشاء حتى يكون بمنأى عن الاختلاط بالآخرين. كما تطرق الحديث إلى نوعية الأكياس الغالية التى يحملها والجواد الرَّبْعة الرائع وإلى ملابس السفر الزاهية التى يرتديها وإلى عدم إتيانه – رغم كل هذا – بغلام يخدمه. جددت تلك المبالغات الرغبة لدى الشاب فى رؤية ذلك النزيل ، ومن ثمَّ فقد رجا صاحب الخان بالبحث عن وسيلة تمكنه من شغْل السرير المحجوز لأنه سيعطيه فى المقابل إسكودو صحيحاً. وبرغم إيقاظ العرض السخى لشهوة الطمع لدى صاحب الخان ، فإنه أعرب عن استحالة تحقيق هذا الطلب لأن باب حجرة النزيل مغلق من الداخل وليس من الإنصاف إيقاظه من نومه ، لاسيما وأنه أجزل العطاء فى أجرة السريرين. تدخل عندئذٍ رجل الأمن بقوله :

– سأنادى من على باب الخان بصوت عالٍ معلناً أننى ممثل العدالة فى القرية ولدىَّ أوامر من العمدة بتسكين الشاب المرافق لى بهذا الخان ، وعندما أسمع ردَّ صاحب الخان بعدم وجود أسِرَّة خالية بل سرير واحد محجوز سأقول له : مادام الأمر كذلك فلا مفر من مصادرة ذلك السرير. ولكى يعفى صاحب الخان نفسه من المسئولية يجب عليه أن يصيح عندئذ معلناً تبرمه وسخطه من انتزاع سرير مدفوع الأجرة ، وبهذا الشكل تستطيع سيادتك الحصول على ما تريد.

بدت فكرة رجل الأمن جيدة ،ومن ثَمّ فقد تلقى من الشاب – في مقابلها – أربعة الريالات المبتغاة .

خلاصة القول أن الفكرة نُفِذت فوراً وفتح النزيل الأول باب الحجرة لممثل العدالة ليدلف منه النزيل الثاني وهو يبدى أسفه على الإزعاج الذى تسبب فيه. لم يرد عليه النزيل الأول بكلمة ، ولم يعطه فرصة لرؤية وجهه لأنه سارع بالاستلقاء على السرير واستدار تجاه الحائط متظاهراً بالنوم. لم يجد الثانى بدّاً من التمدد على السرير الشاغر وإرجاء الأمل فى تحقيق رغبته إلى الصباح.

كانت الليلة هى إحدى الليالى الطويلة والكسولة لشهر ديسمبر وفيها يتطلب البرد ووعثاء السفر الخلود إلى الراحة ، ولما كان النزيل الأول يفتقدها (أى الراحة) فقد شرع بعد منتصف الليل بقليل فى فاصل من التنهيدات المريرة التى تبدو كل واحدة منها وكأنها تنتزع روحه انتزاعاً. كانت حدّة التأوهات والتنهيدات كافية لإيقاظ النزيل الثانى من سباته العميق. أخذ يتصنت إلى همهمات الشاكى المصحوبة بالنحيب. ورغم ظلام الحجرة الدامس ، وتباعد السريرين فقد استطاعت أذناه تمييز ما يردده المتوجع بصوته الواهن وسماع ما يلى من بين أشياء أخرى:

– يالنكبتى وسوء حظى ! إلى أين تحملنى أيها القدر العاتى ؟ لا أكاد أتبين طريقى ، ولا أجد مخرجًا لتلك المتاهة التى دخلتها بقدمىّ. يالسنوات عمرى القصار الخالية من التجارب ، العاجزة عن إسداء النصح والمشورة ! ما نهاية تطوافى هكذا ، على غير هدى ؟ يااللشرف المزدرى ، والحب المتنكر له ، وكرامة الأبوين والأهل المهدرة ! يالشقوتى – مرة وألف مرة – لانسياقى وراء رغباتى وإطلاقى لها العنان! تبّاً لكِ أيتها الكلمات الجوفاء التى سارعت بتصديقها ! لكن ، ممنْ أشكو ؟ ألستُ أنا التى ابتلعت الطُعْم ، وتناولت السكين بيدىّ هاتين لأهرق على الأرض سمعتى وشرف والدىّ الطاعنين فى السنّ ؟ ويحك ، يا "ماركو أنطونيو" ، تبًا لك أيها المخادع ! كيف استطعت مزج كلماتك المعسولة بالسم الزعاف ! أين أنتَ أيها الجاحد ، وإلى أين ذهبت متخفيًا ؟ أجبنى لأنى أحدثك ، انتظرنى لأنى أتبعك ، أعد إلىّ الحياة التى تتفلت من بين أصابعى ، ردّ إلىّ ما تدين لى به ، وهو ليس بالقليل ، اسعفنى لأن هذا واجبك وحدك.

توقفت الهمهمة عند هذا الحد ثم أعقبتها الآهات والتنهيدات المبللة بالدموع. استنتج النزيل الثانى من الكلمات السابقة - التى كان يسمعها صامتاً - أن شريكه فى الحجرة ليس رجلاً بل امرأة ، وحينئذ راودته الرغبة فى التعرف عليه ، كما حدثته نفسه - مراراً - بالانتقال إلى سرير منْ يظنها امرأة ، وكان على وشك أن يفعل لو لم يحس بنهوض الآخر (أو الأخرى) وفتحه لباب الحجرة ثم ندائه على صاحب الخان طالبًا منه إسراج الجواد استعداداً للرحيل. مضى بعض الوقت قبل وصول رد صاحب الخان موصياً النزيل بالعودة إلى النوم لأن الليل مازال فى بداية منتصفه والظلام حالك ومن الخطورة المغامرة بارتياد الطريق فى تلك الساعة. رضخ النزيل ، وأغلق الباب من جديد ثم تهاوى - دفعة واحدة - على السرير وهو يرسل بتنهيدة عميقة حادة.

بدا للمستمع أنه آن الأوان للخروج من صمته وذلك بعرض مساعدته على المشتكى لكى يجبره على الإفصاح عن سرّ شكواه ، ولذا قال له:

- ربما تعتقد - أيها الشاب الكريم - أننى بدون إحساس أو أن مهجتى قُدَّت من صخر وأن قلبى من البرونز الصلد لو لم تكن التنهيدات والكلمات الموجعة التى سمعتها قد أثّرت فىَّ وجعلتنى أتألم لما أصابك من ضرّ ، وأظن أن اللياقة تقتضى إطلاعى على سر عذابك إذا علمت أننى رثيت لحالك وعقدت العزم على افتدائك بحياتى.

- لو لم يكن ما أشكو منه عظيمًا - ردّ المشتكى - لتنبهت إلى أننى لست وحدى بالغرفة ولعقدت عندئذ لسانى وكظمت زفراتى ، وبما أن ذاكرتى قد خانتنى فى وقتٍ أنا فى أشد الحاجة فيه لصحوها فلا مفر إذن من تلبية طلبك لكى أُفرِج عن بعض الهموم المطبقة على صدرى ، وهذا بشرط أن تعدنى - بحقّ ما أبديته نحوى من شعور طيب - بألا تغادر سريرك إلى سريرى لدى سماعك لما أقول ، وألا تسألنى عن شىء لم أبح به ، لأنك لو خالفت هذا وفكرت فى مهاجمتى سأقتل نفسى بالسيف الموجود تحت وسادتى قبل نهوضك من على السرير.

ولما كان الآخر مشتاقاً لسماع حكايته فقد قال له : أعدك باتباع ما طلبت ، وعلى هذا أحلف بآلاف الأيمان المغلظة.

- حسناً - قال النزيل الأول - انطلاقاً من هذا الضمان سأقدم على فعل ما لم أفعله حتى الآن وذلك بسرد قصتى عليك ، وها هو موجزها : عليك أن تعرف أولاً أن محدثك الذى دخل هذا الخان فى ملابس الفتيان ليس ذكراً بلِ آنسة ، أو أن هذا ما كنته على الأقل منذ ثمانية أيام قبل وقوعى فى شَرَك الكلمات المعسولة المنمقة لشاب غادر كذّاب. اسمى "تيودوسيا" ، وقريتى من الأماكن المعروفة بإقليم "أندلوثيا" ، واعذرنى فى عدم البوْح باسمها لأن أمر كِتمانه يهمنى أكثر من حاجتك لمعرفته ، أبواى من النبلاء المياسير وإن كان يسرهما يزيد بقليل عن المتوسط ، لم ينجبا سوى ابن وابنة : الابن هو قرة أعينهما ومستودع آمالهما وشرفهما ، لكن الابنة على خلاف ذلك. اختارا للابن الدراسة فى شلمنقة ، وارتأيا للابنة الاستقرار فى البيت حيث ربيانى على الفضيلة والشرف ومكارم الأخلاق ، كنت - عن اقتناع ودون كدر أو تململ - ممتثلة لأوامرهما وتوجيهاتهما ، ولم أخالفهما قط ولو فى أمر يسير إلى أن شاء حظى العاثر - وإن شئت قل عبثى الزائد عن الحد - أن تقع علىّ عينا ابن جار لنا (أبوه أغنى من والدى ، لكنه يماثله فى الأصل والشرف الرفيع) . حين رأيته أول مرة لم أحس بشىء زائد عن السعادة والرضا ، وإيّاك والاعتقاد بأن فى هذا شططاً منى لأن القرية بأكملها تتغنى بجمال هذا الشاب وأناقته ، ناهيك عن فطنته وتهذيبه. لكن ، ما جدوى الثناء على عدوّى أو الإفاضة فى شرح ملابسات نكبتى أو - بتعبير أدق - بوادر تهالكى وجنونى ؟ المهم أنه رآنى من نافذة بيته المواجهة لنافذتى مرات أخرى كثيرة بدا لى فيها أنه يرسل إلىّ - مع كل نظرة - بروحه مما جعلنى أشعر فى المرات التالية بإحساس مخالف للسرور والرضا اللذين شعرت بهما فى النظرة الأولى ، وقد ساقنى هذا الإحساس لتصديق إيماءاته وما قرأته من التعابير على وجهه. كانت النظرة هى الوسيطة لتبادل الكلمات ، والأحاديث هى الوسيلة للإعراب عن رغبته التى صادفت هوى فى نفسى. جاء بعد ذلك دور الوعود والأيمان المغلظة والدموع والزفرات وكل ما من شأنه إثبات إخلاص المحب ونزاهته. أما بالنسبة لى - أنا التعيسة الغرّة التى لم تمر بمواقف مشابهة - فقد كانت كل

كلمة بمثابة طلقة مدفع تقوض ركناً من أركان قلعة شرفى ، وكل دمعة بمثابة نار تحترق فى لهيبها عفتى ، وكل زفرة بمثابة ريح عاتية تؤجج النيران لكى تلتهم وتقضى على الشرف الذى لم يمس من قبل . وفى النهاية ، وعلى وعد منه باتخاذى زوجة (مخالفًا بذلك رغبة والديه بتزويجه من أخرى) أهرقت صونى وعفافى. لا أعرف كيف استسلمت لرغبات "ماركو أنطونيو" (وهذا هو اسم مبدد سكينتى) فى غفلة من عيون أبوىَ ودون شاهد آخر سوى غلام له. لم يكد يقضى منى وطره حتى اختفى بعد يومين من القرية دون أن يهتدى أحد - ولا حتى أبواه - إلى المكان الذى ذهب إليه. أما عن حالى بعدها فلا سبيل إلى وصفه لأنه أكبر من الكلمات : تكفى الإشارة إلى أننى عمدت إلى نتف شعرى وكأنه المسئول عن سقطتى، وإلى تشويه وجهى لأنى خِلْته السبب فى مصيبتى ، ولَعْن حظى وذَرْف الدمع مدراراً. خلاصة القولَ أننى غرقت فى بحر من الدموع والتنهيدات الصادرة عن قلبى الموجوع ، ولبثت أشكو - صامتة - للسماء عذابى ، واستسلمت للأفكار وطفت معها بحثاً عن طوق نجاة إلى أن اهتديت أخيراً لفكرة ارتداء ملابس الرجال والهروب من البيت لمطاردة صنْو Eneas المحتال وقرين Bireno القاسى [٢] . وهكذا ، دون إنعام كافٍ للنظر فيما عقدت عليه العزم ، ارتديت ملابس أخى الخاصة بالسفر وأسرجت جواد أبى الربْعة ، وفى ليلة حالكة الظلام غادرت المنزل متجهة إلى شلمنقة لأنه قد تردد مؤخراً احتمال ذهاب "ماركو أنطونيو" إليها ، نسيت إخبارك أن "ماركو أنطونيو" هذا صديق لأخى وزميل دراسة له بجامعة شلمنقة. وقبل خروجى من البيت حِملت ما وصلت إليه يدى من نقود تحسباً للطوارئ فى رحلتى المفاجئة. ما يُقلقنى ويشغل بالى هو إمكانية إدراك والدى لى لأن الجواد المميز والملابس التى أرتديها سيسهلان عليه

(٢) Bireno ، إحدى شخصيات "أورلاندو الغضوب" لـ Ariosto ، وكان متزوجاً من "أوليمبيا" ابنة كونت هولندا ، لكنه أحب ابنة ملك Frisia بعد ذلك وحاول التخلص من زوجته بتركها وحيدة على شاطئ مهجور .. أما Eneas فكان ملكاً على الطرواديين ، وهو إحدى الشخصيات المهمة فى ملحمة "الإنيادة" . (المترجم)

مهمة اقتفاء أثرى ، وعلى هذا فلو نجوت من مطاردة أبى لن أسلم من مقابلة أخى فى شلمنقة واحتمال تلقى الموت على يديه لأنه سيلبى داعى الشرف ، ولن يلتفت لأعذارى مهما كانت وجاهتها ، ومع هذا ، ورغم خطر الموت الذى يترصدنى فلن أتردد فى استكمال ما خرجت من أجله ، ألا وهو العثور على زوجى متحجر القلب ، وحين أجده لن يستطيع الفكاك من الدليل الدامغ الذى تركه فى حوزتى وهو عبارة عن أسورة من الماس مدونة عليها هذه الكلمات بحروف واضحة: "ماركو أنطونيو ، زوج تيودوسيا" . حين أعثر عليه سأسأله أولا عن سر إعراضه عني بعد إقباله ثم أجبره على الوفاء بوعده ، وإذا لم يمتثل سأقتله بسيفي ، وسأكون متسرعة فى القضاء عليه مثلما كنت متسرعة فى إيذاء نفسى لأن النبالة التى ورثتها عن أبوىّ ستعيننى على إجباره وستمدنى بالحميّة اللازمة للانتقام لشرفى. هذه ، أيها الشاب ، هى تفاصيل قصتى المؤسفة الحزينة ، وأظنها بمثابة عذرٍ كافٍ للتنهيدات الحارة والكلمات المعذبة التى أيقظتك من غفوتك. إذا لم تستطع تقديم الحل المناسب لنكبتى فكل ما أرجوه منك وآمله هو إسداء النصح لتفادى المخاطر التى تكتنف طريقى، ومدّ يد العون حتى أتمكن من بلوغ هدفى.

لاذ المستمع لقصة " تيودوسيا" بالصمت لفترة طويلة فاعتقدت أنه نام ولم يستمع لشيء منها ، ولكى تتحقق من صدق ظنونها سألته :

– هل غلبك النُعاس ؟ نومك ليس بغريب لأن النوائب التى يقصها قليل البَخْت على من لا يحس بمرارتها تؤدى فى النهاية إلى استغراقه فى النوم بدلاً من إيلامه.

– لستُ نائمًا – ردّ الشاب – بل متأثراً وفى غاية الأسف ، ولا أدرى هل ستصدقيننى لو قلت إنه آلمنى مثلما يؤلمك ، ولهذا السبب لن أتوقف عند حد إسداء النصح – كما تطلبين – بل سأبذل قصارى جهدى لإخراجك من هذه الورطة ، ومع أنك تحملين نفسك – من خلال سردك للحكايةَ – الذنب كله إلا إنى أعتقد أن سنوات عمرِك الغض الخالية من التَجارب هى التى أوقعتك فى حبائل الرجال ولم تذب عنكِ مكرهم. اهدئى ، وحاولى

النوم - إن استطعت - ما بقى من الليل، وعندما يشرق الصباح سنعمل سوياً على التوصل إلى حلّ مناسب لمشكلتك.

شكرته وحاولت السيطرة على قلقها لتمكنه من النوم ، لكنه لم يركن لحظة إلى الدّعة وظل يتقلب فى السرير وهو يرسل الزفرات الحارة مما جعل "تيودوسيا" تسأله عما يضنيه ، مبدية استعدادها لشد أزره مثلما تطوع لمساعدتها. وعندئذ أجابها الشاب قائلاً :

- بما أنك ، أيتها الفتاة ، سبب ما أنا فيه منْ همّ وضيق فلن يكون بمقدورك التخفيف عنى وإبرائى من علّتى.

لم تفهم المقصود بهذا الكلام المبهم ، وحملتها الريبة إلى الظن بأن الإفصاح عن شخصيتها وهدأة المكان وظلمته قد حركت فى الشاب نازع الشر نحوها. ولشدة خوفها من هذا الهاجس سارعت بارتداء ملابسها فى صمت ثم أمسكت بسيفها وخنجرها ، وجلست على السرير منتظرة طلوع النهار الذى أسفر عن وجهه بعد قليل من خلال الضوء المتسلل عبر الفتحات الكثيرة التى تغص بها حجرات النزل والخانات. لم يكن الشاب قد غمض له جفن أيضاً، ولم يكد يرى الحجرة مرصعة بنجيمات ضوء الصباح حتى نهض من فراشه قائلاً :

- هلمى ، ياآنسة "تيودوسيا" ، فأنا على أهبة الاستعداد لمرافقتك ولن أدعك حتى تعثرى على "ماركو أنطونيو" ويعترف أمامى بأنكِ زوجته الشرعية لأنه لو لم يفعل سيكون مصير أحدنا الموت بسيف الآخر.

قال هذا وهو يفتح نوافذ الحجرة .

كانت " تيودوسيا" متعطشة للضوء حتى ترى وجه ذلك الشخص الذى ظل يحادثها طوال الليل ، لكنها عندما رأته تمنت من سويداء قلبها لو أن الظلمة كانت قد امتدت إلى الأبد ، ذلك لأن محدثها لم يكن سوى أخيها الذى تخشى لقاءه ، ولذا فقد غامت عيناها وشحب وجهها وغرقت فى بحر من الصمت والحيرة ، ورغم هذا فقد استمدت من الخوف شجاعة ، ومن الخطر حصافة ، وأمسكت بطرف خنجرها ثم ركعت أمام أخيها ، وبصوتٍ متلعثم مضطرب قالت له :

- تناول الخنجر ، ياأخى العزيز ، واقتلنى لكى تُشفى غليلك ، فالجرم الشنيع الذى اقترفته لا تسعه الرحمة. أعترف بذنبى ، ولا أريد اتخاذ الندم عذراً

لفعلتي ، كل ما أرجوه منك هو ألا تمتد العقوبة بالموت إلى تلويث الشرف ، وأن يظل ما أخبرتك به مخبوءاً في صدرك.

نظر إليها أخوها متحيراً ، وبالرغم من أن فِعْلتها الحمقاء كانت تستحثه على الانتقام إلا إن الكلمات الحنونة المفعمة بالندم والتي عبرت بها عن ذنبها ألانت قلبه ، قام عندئذ - في هيئة مسالمة وتعابير محايدة على الوجه - بإنهاضها من على الأرض ، وشرع في مواساتها قدر استطاعته ، ومن بين ماجرى على لسانه قوله لها : إنه لا يجد عقاباً مساوياً لتصرفها الأهوج ، ولذا فإنه سيرجئ أمر محاسبتها عليه ، وإن الأمل مازال يراوده في إيجاد مخرج لاسيما وأن القدر لم يوصد - إلى الآن - كافة أبوابه ، وحريّ به التمسك بأهداب جميع السبل الممكنة قبل الاستجابة لداعي الانتقام.

حين سمعت هذا من أخيها استردت بعض قواها الخائرة وزال عن وجهها الشحوب وانتعشت فيها الآمال شبه الميتة . آثر "دون رفائيل" (اسم أخيها الشاب) عدم الخوض فيما مضى أو سماع المزيد من ملابسات الحادث ، ولم يطلب منها سوى تغيير اسمها إلى "تيودورو" [٣] والاستعداد للرحيل معه إلى شلمنقة للبحث عن "ماركو أنطونيو" وإن كان يتشكك في إمكانية ذهابه إليها. دخل عليهما صاحب الخان فطلبا منه تجهيز الغداء لأنهما سيرحلان فور تناولهما الطعام.

وبينما كان البِغَال منُهمَكاً في إسراج الدابتين ، وقبل الفراغ من إعداد الطعام ، دخل الخان شاب عليه غبار السفر ، لم يكد يراه "دون رفائيل" حتى عرفه ، كما عرفته "تيودوسيا" أيضاً لكنها لم تجرؤ على مبارحة الغرفة حتى لا تقع عيناه عليها. عانق "دون رفائيل" المسافر وسأله عما وراءه فأخبره بقدومه من ميناء "سانتا ماريا" حيث تستعد أربع سفن للإقلاع إلى "نا پولي" ، وبمشاهدته لماركو أنطونيو أدورنو، ابن "دون ليوناردو أدورنو" ، على متن إحداها. سرّ "دون رفائيل" بالخبر لأنه تلقاه قبل رحيله مباشرة واعتبره بمثابة الفأل الحسن على نجاح مساعيه. طلب "دون رفائيل" من صديقه المسافر استبدال البغلة القادم عليها بالجواد الرَّبْعة لأنه ذاهب إلى شلمنقة والطريق طويل عليه. ابتهج صاحبه بالمقايضة ووعده بتسليم الجواد سليماً

(٣)"تيودورو" Teodoro : اسم علم لمذكر . (المترجم)

إلى والده. تناولا الغداء سوياً ، بينما تناولته "تيودوسيا" بمفردها فى الغرفة ، ولما حانت ساعة الرحيل أخذ الصديق طريق "كاثيًا" الذى يمتلك فيه ضيعة كبيرة.

بعد رحيل الصديق وتجهيز الركائب ودفع الحساب وإلقاء تحية الوداع خرج "دون رفائيل" بصحبة أخته (التى كانت فى ملابس الرجال) من الخان وسط إعجاب الحاضرين بجمالهما ورشاقتهما.

أخبر "دون رفائيل" أخته - فور خروجهما - بما سمعه عن "ماركو أنطونيو" واقترح عليها الذهاب على جناح السرعة إلى برشلونة لأن السفن المتجهة من إسبانيا إلى إيطاليا - أو العكس - اعتادت الرسوّ ليوم أو لبضعة أيام فى مينائها ، ومن ثمّ فإنهما لو وصلاها قبل دخول السفن سيعثران على ضالتهما المنشودة . ردت عليه أخته قائلة إنها طوع أمره ، وإن عليه فعل ما يراه مناسباً.

أخبر "دون رفائيل" البغّال المرافق له - وكان واحداً من أبهج وأظرف المشتغلين بهذا العمل - بعزمه على تغيير خط سير الرحلة من شلمنقة إلى برشلونة ، وطلب منه التحلى بالصبر ، وأبدى له استعداده بتعويضه عن الوقت الزائد الذى سيمضيه معه. ولما كان الغلام قد خبِر "دون رفائيل" وعرف ما يتمتع به من أريحية وكرم فلم يتردد فى الموافقة وقال له : إنه متمسك بخدمته حتى لو ذهب إلى نهاية العالم .. انحنى "دون رفائيل" على أخته وسألها عما تحمله من أموال فقالت له : إنها لم تجد وقتًا لعدّها لأنها فى لهفتها لمغادرة البيت أدخلت يدها سبع مرات أو ثمان فى خزينة والدها وأخرجتها مملوءة فى كل مرة. قام "دون رفائيل" بإجراء عملية حسابية فى رأسه وقدّر على أساسها المال الموجود مع أخته بحوالى خمسمائة إسكودو ، ثم أضافها إلى مائتى الإسكودو الموجودة معه وإلى قيمة السلسلة الذهبية التى يحملها وقال لنفسه : إن هذا المبلغ يكفى وزيادة لتأمين الرحلة إلى برشلونة ولتغطية نفقات البحث عن "ماركو أنطونيو" مهما طالت مدّته.

مضوا فى طريقهم لا يلوون على شيء حتى وصلوا - بعد عدة أيام من السير المتواصل - إلى منطقة "إجوالادا" التى تبعد عن برشلونة بحوالى عشرة فراسخ. وحين عرفوا - فى الطريق - أن سفير إسبانيا المعيّن فى روما مازال ينتظر فى برشلونة مرور السفن التى ستقله إلى مقر عمله ازداد حماسهم وتفاؤلهم. تابعوا السير

مؤتنسين بتلك الغبطة ، وعند اجتيازهم لغابة صغيرة على جانبى الطريق شاهدوا رجلاً يخرج منها راكضاً وهو يتلفت وراءه من شدة الخوف. استوقفه "دون رفائيل" وسأله :

- ماذا يخيفك ، أيها الرجل الطيب ، وما الداعى لركضك على هذا النحو ؟

- ألا تريدنى أن أجرى خائفاً ، وقد نجوت بأعجوبة من قبضة عصابة من قطّاع الطرق ؟

- ياللهول - قال البغّال - سترك يارب ! قُطّاع طُرقٍ فى هذه الساعة من النهار ! وايم الله إنهم سيجردوننا من كل ما نملك.

- هوِّن عليك ياأخى - قال الخارج من الغابة - لقد انصرف اللصوص وخلفوا وراءهم أكثر من ثلاثين مسافراً شبه عرايا ومقيدين فى جذوع الأشجار. تركوا رجلاً واحداً محرراً من القيد ليتولى فك الباقين بعد رحيلهم وعندما تصله إشارتهم من فوق جبل صغير على مقربة من هذا المكان.

- ما دام الأمر كذلك - قال "كالبيتى" البغّال - يمكننا المرور آمنين لأن قطّاع الطريق لا يعودون إلى المكان الذى هاجموه إلا بعد عدة أيام ، أنا متأكد من هذه الحقيقة لوقوعى فى أيديهم مرتين من قبل ، ولدىّ - بالتالى - خبرة لا تنكر بأحوالهم وعاداتهم.

- صدقت يا هذا - ردّ الرجل.

اطمأن "دون رفائيل" وقرر استئناف السير فشاهدوا بعد قليل ما يزيد عن الأربعين مسافراً مقيدين فى جذوع الأشجار ، ورجلاً طليقاً يحاول فك إسارهم. كان المشهد مؤثراً للغاية: البعض عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، والبعض الآخر يستر جسده بالملابس المهلهلة التى كانت على اللصوص ، هؤلاء يبكون لسرقة أموالهم ، وأولئك لا يتمالكون أنفسهم من الضحك على المرتدين للملابس الممزقة ، هذا يعدد بالتفصيل ما سرق منه، وذاك يولول على الصندوق العامر بالخيرات الذى أحضره من روما وتعب فى حمله. خلاصة القول أن المكان كان أشبه بمأتم يتعالى فيه نواح وأنين المنهوبين البؤساء. أبدى الأخ وأخته أسفهما العميق على ما جرى وحمدا الرب على نجاتهما من الخطر الذى كان وشيكاً ، لكن المنظر الذى أثر فيهما بشدة كان لفتى جميل الخلْقة لا

يتعدى الستة عشر ربيعًا ولا يستر جسده سوى قميص وسروال باليين من الكتان الخشن. ترجل " تيودورو" (٤) لفك وثاقه فشكره الشاب الوسيم بكلمات رقيقة. طلب " تيودورو" من " كالبيتِي" البغال - بلهجة آمرة - أن يعيره عباءته إلى أن يقوم بشراء أخرى من أول محلّة تصادفهما على الطريق. أعطاها " كالبيتى" له فقام على الفور بتغطية الشاب ثم سأله عن موطنه والمكان القادم منه والذاهب إليه.

أجابه الشاب قائلاً : إنه من إقليم "أندلوثيا" ، ومن بلدة كذا (وهى تبعد فرسخين فقط عن قرية "دون رفائيل" وأخته) ، وإنه قادم من إشبيلية ، وكان متجهًا إلى إيطاليا لتجربة حظه فى الجندية وحمل السلاح مثلما يفعل غيره من الشبان الإسبان ، لكن طالعه النحس جعله يصطدم بقطاع الطرق الذين سلبوه مبلغًا كبيراً من المال، فضلاً عن ملابس فاخرة لا يقل ثمنها عن ثلاثمائة إسكودو ، وبرغم كل هذا فإنه مصرٌ على مواصلة الرحلة: إذ لا يليق بذوى المعدن الأصيل تجمد حرارة حماستهم عند أول نازلة يتعرضون لها.

التقت رغبة الأخوين فى بذل ما فى وسعيهما لمساعدة الشاب ، وقد حركت فيهما هذه الرغبة كلماته الرصينة وقرب موطنه من موطنيهما ، هذا بالإضافة إلى خطاب التوصية الذى يحمله ويتمثل فى وسامته وجمال خلقته. وبعد قيامهما بتوزيع بعض المال على أشد المنهوبين حاجة - ومن بينهم ما يزيد عن ثمانية رهبان - أركبا الشاب بغلة " كالبيتى" ، ودون إبطاء استلم أربعتهم الطريق ليصلوا - خلال فترة وجيزة - إلى "إجوالادا" التى تلقوا فيها خبر دخول السفن ميناء برشلونة اليوم السابق وموعد مغادرتها له بعد يومين آخرين ، هذا إذالم تجبرها فوضى الأمن على الساحل إلى التعجيل بالرحيل.

جعلتهم هذه الأخبار يبكرون قبل بزوغ شمس اليوم التالى ، لاسيما وأنهم لم يقضوا تلك الليلة بكاملها فى النوم بل فى أمور أخرى سنقص عليكم طرفًا منها، فى أثناء تناول العشاء كان "تيودورو" جالسًا على مقربة من الشاب ، ولما أنعم فيه النظر واكتشف وجود ثقبين فى أذنيه ولاحظ انكسار نظراته من شدة الخجل اعتراه الشك فى

(٤) ننوه ثانية إلى أن اسم "تيودورو" علم لمذكر ، وأن "دون رفائيل" هو الذى اختار لأخته هذا الاسم وأشار عليها بمواصلة التنكر فى زىّ الرجال . (المترجم)

نوعه وتمنى إنهاء العشاء بسرعة لكى ينفرد به ويتعرف على حقيقته. ومن جهة أخرى ، ففى أثناء العشاء أيضًا سأل "دون رفائيل" الشاب عن أبيه بعدما أخبره بمعرفته للرجال المهمين المنتمين لمنطقتهم. ولما ردّ الشاب قائلاً : إنه ابن "دون إنريكى كارديناس" نبهه "دون رفائيل" إلى أن "دون إنريكى" ليس له أبناء وإلى أنه إذا كان قد ذكر هذا الاسم بقصد التهرب من الكشف عن هوية أبيه فإنه لن يكرر السؤال لعدم أهمية الإجابة بالنسبة له.

– صدقت – ردّ الشاب –، "دون إنريكى كارديناس" ليس لديه أبناء ، لكن أخاه "دون سانتشو" لديه العديد منهم.

– ولا هذا أيضاً لديه أبناء ذكور – قال "دون رفائيل" –، بل ابنة وحيدة يُشاع عنها أنها أجمل فتاة فى إقليم "أندلوثيا" كله ، وإن كنتُ لا أستطيع الجزم بصدق ما يقولون لأننى لم أرها ولو مرة رغم زياراتى المتكررة لبيتهم.

– فى هذا أيضًا معك حق – رد الشاب – ، بالفعل "دون سانتشو" ليس لديه سوى ابنة وحيدة ، لكنها ليست رائعة الحسن كما يدعون ، ومادمت قد ضيّقت علىّ الخناق فلا مفر من الاعتراف بأن أبى هو قهرمان "دون سانتشو" ويعمل لديه منذ سنوات طويلة تسبق مولدى ، وإذا كنت قد ادعيت فى البداية نسبتى إلى "دون إنريكى" فمن قبيل الفخر والبحث عن مندوحة لرفع قدرى فى عيونكما ، وقد حدثت أبى بشأن السفر إلى إيطاليا والانخراط فى سلك الجندية لعلّى أحظى بالمجد الذى ناله غيرى من أصحاب الأصول المتواضعة ، لكنه لم يوافق واختلفنا ، فما كان منى إلا أن غافلته واستوليت على كمية كبيرة من النقود وهربت من أجل تحقيق حلمى فى الشهرة والمجد.

تأكدت شكوك "تيودورو" بعد سماعه للإجابات الملفقة للشاب وملاحظته للطريقة التى كان يتحدث بها.

انتهى العشاء ، ورُفعت المائدة ، وبينما كان "دون رفائيل" يغير ملابسه استعداداً للنوم أفضت له أخته بشكوكها واستأذنته فى الانفراد بالشاب للتحقق من أمره. وفى

الشُرفة الواسعة المُطلة على الشارع دار بينهما هذا الحوار الذى استهله "تيودورو" بقوله :

- بالرغم من المدة القصيرة التى مضت على تعارفنا ياسيد "فرانثيسكو" (وهذا هو الاسم الذى ادعاه الشاب لنفسه) إلا إن شعورى الطيب نحوك وما أسديته لك من معروف يمليان عليك الاستجابة لما أطلبه منك. لا تظن أن امتناعك عن تلبية رغبتى بالبوح لى بما أود معرفته سيجعلنى أغضب منك أو أتخلى عنك. قد لا تصدق بأننى - رغم سنوات عمرى القصار - أتمتع بخبرة عريضة فى أمور الحياة وشئونها المختلفة ، ومن منطلق هذه الخبرة أكاد أجزم بأنك - رغم الملابس التى ترتديها - لست رجلاً بل امرأة وطيبة المنبت كما يشهد بذلك جمالك ، وأن ظروفاً قهرية هى التى أجبرتك على اتخاذ ملابس الرجال ، فمن غير المعقول لجوء المرء إلى مثل هذا التصرف فى ظل الظروف العادية. لو كان ظنى فى محلّه لا تخْفِ عنى الحقيقة ، وأعدك بشرفى على الاستمرار فى مساعدتكِ وبذل ما فى وسعى لخدمتك. لن تستطيع إنكار طبيعتك الأنثوية التى تعلن عن نفسها فى الأذنين المثقوبتين وأهملت سدّهما ولو بقطعة من الشمع ، ولذا فإن أمر التعرف على السر الذى لم تفلح فى إخفائه لا يفوت على محبٍ للاستطلاع مثلى.

كان الشاب يُصغى باهتمام لما يقوله "تيودورو" ، ولما أيقن من إمساكه عن الحديث تناول يديه وقرّبهما من فمه ثم راح يقبلهما - عنوة - ويمطرها بوابل من الدموع المنهمرة من عينيه الجميلتين ، تحركت مشاعر "تيودورو" وأبى ألا يشاطره البكاء (ومشاركة الغير فى مشاعره عادة متأصلة فى نساء البيوتات الكريمة) ، سحب "تيودورو" يديه بصعوبة من على فم الشاب وانتظر إجابته. أطلق الشاب آهة عميقة متبوعة بتنهيدات لا حصر لها ثم أردف قائلاً :

- لا أستطيع إنكار ما ذهبتم إليه ، أنا بالفعل امرأة ، بل أتعس امرأة فى هذا الوجود ، ولا أملك حيال ما أحطتمونى به من رعاية واهتمام إلا الاستجابة لطلبكم والبوح لكم بمكنون صدرى ، هذا إذا لم يكن يشق عليكم سماع شكوى الغير.

– المحن والنوازل ليست بغريبة عليّ ، ومن ثمّ لن يضايقنى سماع ما لديكِ منها.

حاول "تيودورو" بعد ذلك مواساتها بكلمات مناسبة فاستردت بعضاً من سكينتها وشرعت فى سرد حكايتها على النحو التالى :

– أخبرتكم بحقيقة موطنى ، أما "دون إنريكى" فهو ليس أبى بل عمى ، "دون سانتشو" هو أبى الحقيقى ، وعلى هذا فأنا الابنة التى بالغ أخوكم فى وصف جمالها.اسمى "ليوكاديا" ، أما بالنسبة للسبب فى اتخاذى لملابس الرجال فيتلخص فيما يلى: على بعد فرسخين من قريتى تقع أخرى مشهورة فى إقليم "أندلوثيا" كله بنبالة قاطنيها وشدة غناهم . فى تلك القرية يعيش رجل من علية القوم تمتد أصوله النبيلة والعريقة إلى بنى "أدورنوس دى خينوبا" ، ولهذا الرجل ابن تسبقه شهرته فى الفضائل كما تسبقنى فى الجمال يدعى "ماركو أنطونيو" . ولما كان الأخير مولعاً بالصيد مثل والدى فقد اعتاد زيارة بيتنا زيارات طويلة تمتد إلى خمسة أيام أو ستة ، كان يقضى نهارها – وأحياناً شطراً من الليل – فى ممارسة الصيد مع أبى بالنواحى القريبة من القرية. ولكثرة تردده علينا بدأت أشعر بميل نحوه – ولا أدرى إن كان هذا استجابة لأمر القدر أو لداعى الحب أو الطيش –، ودفعتنى وسامته وحنكته وعراقة أصله وثروة أبيه الطائلة إلى أن أتمناه زوجاً. ومن هذا المنطلق بدأت أهتم به فأدرك عندئذ ما أرمى إليه واستطاع التسلل إلى أعماق روحى والاستيلاء على عواطفى . لا أدرى لماذا أتوقف عند هذه التفاصيل التافهة ولا أتجه مباشرة إلى لبّ الموضوع قائلة إنه أعطانى كافة الوعود وحلف لى بكل الأيمان على اتخاذى زوجة له. ولما أعربت له عن عدم ثقتى بالوعود والأيمان التى تذهب – عادة – أدراج الرياح كتب لى بخط يده وثيقة يعترف فيها بالرباط المقدس بيننا ثم أمهرها بتوقيعه . بعد استلامى للوثيقة اتفق معى على تسلقه لسور حديقة بيتنا فى إحدى الليالى والتسلل إلى حجرتى فى جنح الظلام لقطف الثمرة الموقوفة عليه وحده. وأخيراً جاءت الليلة الموعودة التى انتظرتها بشغف...

كان "تيودورو" يُصغى صامتاً لاعتراف "ليوكاديا" ، وكانت كل كلمة تخرج من فيها تهزه بعنف ، لاسيما ما ذكرته عن "ماركو أنطونيو" ، لكنها عندما نطقت بالجملة الأخيرة التى تقول : "وأخيراً جاءت الليلة الموعودة التى انتظرتها بشغف..." كاد أن يفقد صوابه وقاطعها بوابل من الأسئلة :

– ولما جاءت الليلة الموعودة ، ماذا حدث ؟ هل أوفى بوعده ؟ هل قضى وطره ؟ هل أكد بالعمل ماخطّته يداه فى الوثيقة ؟ هل أحس بالسعادة لنيله ما تدعين أنه يخصه ؟ هل عرف أبواك ؟ وإلام انتهت إليه الأمور ؟

– انتهت إلى ما ترانى فيه من حال : لم أذق عسيلته ، ولم يذق عسيلتى لسبب بسيط وهو أنه لم يحضر الحفل المرتقب.

تنهدت " تيودوسيا" بعمق واستردت قواها التى تسربت منها شيئاً فشيئاً على وهج نيران الغيرة العمياء ، ورغم هذا لم تمنعها بوائق الغيرة من مواصلة استماعها لبقية الاعتراف المفزع :

– ليت الأمر قد اقتصر على خلفه للموعد المضروب ، بل إنه لاذ بالفرار بعد ثمانية أيام برفقة فتاة رائعة الحسن من قريته تدعى "تيودوسيا" ، ولما كان أبواها من النبلاء المعروفين فقد وصل خبر هروبهما معًا إلى قريتى ، وبالتالى إلى مسامعى ، وعندئذ أحسست برمح الغيرة الصلب يخترق حشاشة قلبى ، وبانهيار دعائم شرفى وفقدان الأمل فى الوثيقة التى كانت معى. يالحظى العاثر ! لقد أخذت "تيودوسيا" تتراءى لى فى أحلام اليقظة وبات يظهرها خيالى فى صورة أبهى من الشمس. رجعت إلى الوثيقة أقرأ بنودها وتأكدت من سلامتها ومصداقية اعترافها بحقى المشروع والمقدس ، لكننى حينما تذكرت الصحبة الجميلة التى يأتنس بها "ماركو أنطونيو" أدركت أن تلك البنود مجرد حبر على ورق. لطمت وجهى ونتفت شعورى ولعنت حظى ، وبات يحزننى عدم استطاعتى فعل هذا كله على مدار الساعة لوجود أبوىّ فى الدار. ولكى يتاح لى التعبير عن شكواى دونما عائق – أو ، على الأرجح ، تعذيب نفسى حتى الموت – فكرت فى الهروب من البيت . بدا لى أن القدر يذلل أمامى العقبات لكى يضع فكرتى السيئة موضع التنفيذ ، ذلك لأنه أمدنى بالشجاعة للاستيلاء على ملابس غلام

لأبى ولسرقة مبلغ كبير من خزانة والدى ، وفى إحدى الليالى خرجت من البيت متشحة بالظلام ومشيت على قدمىَ حتى وصلت إلى "أشونة" (Osuna) التى ركبت منها عربة أوصلتنى بعد يومين إلى إشبيلية ، وفى تلك الحاضرة الكبيرة أحسست بالأمان لعدم قدرة أهلى - مهما اجتهدوا فى البحث - على اقتفاء أثرى. اشتريت بغلة وملابس جديدة من إشبيلية ثم غادرتها فى صحبة رهط من المسافرين يغذ السير إلى برشلونة للحاق بالسفن المتجهة إلى إيطاليا ، وفى الطريق هجم علينا قطّاع الطرق وسلبونى ما أملك بما فى ذلك الوثيقة التى فكرت فى الذهاب بها إلى إيطاليا للبحث عن "ماركو أنطونيو" وإجباره على تنفيذ الوارد فى بنودها. ورغم أننى أعى جيداً أن الذى يتنصل بسهولة من الكلمات المدونة لنْ يقيم وزناً للالتزام المحفور فى أعماق الروح مادام ينعم بصحبة "تيودوسيا" التى ليس لها مثيل ، فمازلت مصرة على مواجهتها وتبديد سكينتهما. لن أدع عدوتى تستمتع هانئة البال بما يخصنى بل سأنغص عليها حياتها ، ولن أتردد فى إزهاق روحها إذا سنحت الفرصة.

- وماذنب "تيودوسيا" وقد تكون مخدوعة مثلكِ ؟

- كيف يتسنى له خداعها وهى فى معيته ؟ وإذا كانا معاً - كما يشتهيان - فأين موطن الخداع ؟ لا ريب أنهما مسروران باجتماعهما سوياً حتى لو كانا فى أقاصى الصحراء الليبية متوهجة الحرارة أو فى مجاهل القارة القطبية المتجمدة. إنها تنعم به دون شك ، ولذا ستدفع ثمن ما عانيته وما أعانيه لحين عثورى عليهما.

- ربما تكون سوْرة الغضب هى التى تدفعك للتجنى عليها، فأنا أعرف جيداً عدوتكِ ، وأعرف ما تتمتع به من عفة وحسن تربية ، ولا أظنها ترتكب حماقةَ الهروب من بيت والديها إرضاء لماركو أنطونيو ، ولو افترضنا جدلاً ارتكابها لهذه الحماقة فأغلب الظن أنها لم تكن تدرى عنكِ شيئاً ولا عن صلتك به ، وانطلاقاً من هذه الحقيقة فهى لم تقصد الإضرار بكِ ، ومادامت صفة العَمْدية قد انتفت عن الفعل فلا مبرر لداعى الانتقام.

- لا داعي للحديث عن العفة - قالت ليوكاديا - لأنني أبزّ فيها ما عداي ، ومع هذا فعلت ما قصصته عليك ، ولا داعي للتشكيك في أمر هروبها معه لأنني متأكدة منه ، أما بالنسبة لعدم إلحاقها الضرر بي فيكفيك النظر إلى حالي. إن آلام الغيرة التي أكتوى بنارها تعادل الآلام الناجمة عن استقرار السيف في الأحشاء ، وأظن أن انتزاع الحسام وتحطيمه هو أقل ما يمكن للمتألم عمله ، فمن الفطنة الابتعاد عن الأشياء التي تضرنا ، ومن البديهي أن نبغض ما نتأذى منه أو ما يحول بيننا وبين السعادة.

- أرى أن نصائحي المفيدة لنْ تُجدي معكِ في الوقت الراهن لأن الإحساس بالعذاب قد سلب عقلكِ وطغى على تفكيركِ . ومن جهتي ، فلن أتراجع عما سبق وأعلنته بشأنِ مساعدتي لكِ فيما أراه صواباً ، كما أعدكِ بأن أخي سيفعل الشيء نفسه نظراً لنبالته وحسن تربيته. إننا متجهانِ إلى إيطاليا ، وإذا اخترتِ صحبتنا فقد خبرتِ طريقتنا في التعامل. ما أرجوه منكِ حاليًا هو التصريح لي بسرد ما سمعته على أخي لكي يعاملكِ بما تستحقين كامرأة نبيلة. ومن جهة أخرى ، أعتقد أنه من الأفضل لكِ حالياً الاستمرار في ارتداء ملابس الرجال ، وفور عثوري على محل لبيع الملابس في هذه القرية سأبتاع لكِ منه أجودها وأنسبها. أما بالنسبة لما يدور في مخيلتكِ وتنوين عمله فانصحكِ بإسلام أمركِ فيه ليد الزمن لأنها وحدها الخبيرة بحل المعضلات وتقديم العلاج الناجع للحالات الميئوس منها.

شكرت "ليوكاديا" منْ تظنها "تيودورو" على حُسن صنيعه ، وصرحت له بإخبار أخيه بما يشاء ، كما توسلت إليه للوقوف بجانبها وعدم التخلي عنها لأن اكتشاف طبيعتها الأنثوية سيعرضها لأخطار جمّة.

افترقا بعد هذا الحوار الطويل ، توجهت "تيودوسيا" لغرفة أخيها وذهبت "ليوكاديا" لتنام في الحجرة المجاورة .

كان "دون رفائيل" مستيقظاً ، في انتظار أخته ليعرف منها ما جرى مع من تحسبها امرأة ، ولم تكد تدخل عليه حتى سألها فأخبرته بما قصته عليها "ليوكاديا"

(حقيقة والدها ، حبها لماركو أنطونيو ، الوثيقة التى كتبها لها ، هدفها من الرحلة ...إلخ) وعندئذ اعترته الدهشة وقال لها :

– لو كانت هى التى أقصدها ، فإنها تنتسب لعائلة عريقة وتعتبر من أنبل نساء إقليم "أندلوثيا" ، وشهرة جمالها تتفق مع ما نراه الآن على ملامح وجهها ، والهدف المعلن لرحلتها يحتم علينا توخى الحذر وعدم تمكينها من رؤية "ماركو أنطونيو" والتحدث معه قبلنا. لا ينبغى التسليم بضياع الوثيقة منها، ومن ثمّ لا داعى للتراخى من جانبنا أو نبذ الحيطة . والآن هيا للنوم وإرجاء التفكير فى هذه المسائل لأن الأمل يراودنى فى التوصل إلى الحلول المناسبة لها بعون الله وتوفيقه.

امتثلت " تيودوسيا" لأوامر أخيها بالنسبة لمحاولة النوم ، أما الركون إلى الدعة ونبذ التفكير فلم يكونا بيدها ، هذا لأن مرض الغيرة العضال كان قد تمكن من روحها. ظلت مخيلتها تعمل بجد ونشاط وتضخم لها جمال " ليوكاديا" وخيانة " ماركو أنطونيو" . كم من المرات قرأت ، أو تصورت قراءتها لتلك الوثيقة ! وكم من البنود التى أضافتها إليها بحيث تجعلها مستوفية الأركان ونافذة المفعول ! وكم من المرات تشككت فى ضياعها ، وتخيلت وفاء "ماركو أنطونيو" بوعده رغم فقدانها !

أمضت " تيودوسيا" بقية الليل فى مثل هذه الأفكار والتخيلات ، ولم تذق طعم النوم. ولم يكن أخوها بأفضل منها حالاً لأن أعراض الحب هاجمته فور سماعه لاسم "ليوكاديا" ، فسطوة الجمال قادرة على الإيقاع – فى لحظة – بمنْ يراه ويعرفه ، وحين يتكشف الطريق المفضى إلى فردوسه تتقد النيران فى الأفئدة مثلما يشتعل البارود الجاف عند اقتراب أية شرارة منه.

لم تكن "ليوكاديا" التى تتراءى له هى المربوطة فى جذع شجرة وعليها ملابس الرجال الممزقة، بل "ليوكاديا" الآنسة المحترمة الرّافلة فى ثياب الدعة والمتنعمة فى بيت أبويها الثريين الأصيلين. كان يتعجل طلوع النهار حتى يستأنف سيره للبحث عن "ماركو أنطونيو" ، لا من أجل أن يصبح صهره فحسب ، بل لإفساد مشروع زواجه من "ليوكاديا" أيضاً. ومن جرّاء الحب والغيرة ألمت به رعدة من أن ينتهى الأمر باستمرار نكبة أخته أو قتل "ماركو أنطونيو" أو فقدان الأمل فى الظفر

بليوكاديا ، وتمنى فى الوقت نفسه نهاية سعيدة للأحداث سواء عن طريق استخدام القوة أو إعمال الحيلة غير المصحوبة بالإيذاء.

حاول "دون رفائيل" تهدئة نفسه ولو قليلًا بالخاطر الأخير ، ولما لاح نور الصباح نادى على صاحب الخان ، وسأله عن متجر لشراء ملابس لغلام جرّده اللصوص من ثيابه ، فأخبره الرجل بامتلاكه لثوب مناسب. طلب منه إحضاره ، ولما جرّبته "ليوكاديا" ووجدته على مقاسها سدد "دون رفائيل" ثمنه للرجل. ارتدت "ليوكاديا" الثوب وتمنطقت بالسيف والخنجر فى خفة وبراعة فأثارت إعجاب "دون رفائيل" وغيرة "تيودوسيا" . أسرج كالبيتى الدواب ، وفى الثامنة صباحًا غادروا الخان قاصدين برشلونة . وعندما اقتربوا من دير مونسرات Monserrat فضلوا إرجاء زيارته لحين عودتهم ناعمى البال إلى ديارهم.

لا أدرى ما إذا كان بمقدورى وصف المشاعر المتناقضة للأخ وأخته تجاه "ليوكاديا" ، فبينما كان الأخ يتمنى من شدة الوجْد بقاءها ، كانت الأخت تتمنى من فرْط الغيرة موتها. كانت "تيودوسيا" مشغولة بالتفتيش فيها عن العيوب حتى لا يتقوض أملها ، و "دون رفائيل" منهمك فى البحث عن المزايا التى تزيد من حبه لها. المهم أن المشاعر المتناقضة لم تمنعهما فى النهاية من غزّ السير وحث الدواب لكى يصلوا جميعاً إلى برشلونة قبل غروب الشمس.

أعجبهم جمال المدينة وموقعها الفريد. ولِمَ لا ، وهى حصن إسبانيا الحصين وموطن فخارها ، والقلعة المنيعة التى يرهبها الطامعون والأعداء ، ومدرسة الفروسية ، والملاذ الآمن للغرباء ، والجنة الفيحاء لسكانها ، والأنموذج النادر لكل ما يتخيله المرء فى المدن الكبيرة والغنية والعريقة.

لم يكادوا يدخلون المدينة حتى سمعوا جلبة شديدة ، وشاهدوا أناسًا يجرون فى كل اتجاه ، وعندما سألوا عن السبب أخبروهم أن ركاب السفن الذين نزلوا إلى البرّ يشتبكون – كعادتهم – فى معركة حامية الوطيس مع سكان المدينة. أراد "دون رفائيل "الذهاب إلى مكان المعركة فنصحه "كالبيتى" بعدم الاقتراب من تلك العاصفة الهوجاء التى لا تبقى ولا تذر . لم يكن تحذير "كالبيتى" كافيًا لمنعه من الذهاب ، وعندئذ اضطروا إلى السير خلفه. شاهدوا حين اقترابهم سيوفًا كثيرة مُسْتَلّة

من أغمادها وتلاحمًا شرسًا بالمُدى بين حشود هائلة من البشر. لم يمنعهم المشهد المرعب من مواصلة الاقتراب ، وعندها استطاعوا التمييز بوضوح - لأن الشمس لم تكن قد غربت بعد - بين الفريقين المتناحرين.

كان الناس يتوافدون فى موجات متلاحقة من داخل المدينة، وعلى الجانب الآخر تترى من جهة السفن أيضاً أعداد لا حصر لها من المسافرين ، هذا لأن القائد العام - وهو رجل مقدام من بلنسية يُدعى "پـدرو بيكى" (٥) - كان قد وقف على مقدمة سفينة القيادة وظل يصرخ بأعلى صوته مهدداً الفارّين من ميدان المعركة والمتجهين بزوارقهم إلى السفن بالرجوع إلى اليابسة لمساعدة إخوانهم ، وعندما أحس بضياع تهديداته سدى أمر السفن بتوجيه مقدماتها إلى المدينة وإطلاق دفعة من الطلقات التحذيرية فى الهواء ، كما أمر بتجهيز المدافع بالطلقات الحيّة فى الدفعة الثانية ، وضرب الفارّين الذين لم يستجيبوا لنداءاته.

بينما كان "دون رفائيل" يتابع باهتمام أحداث الشغب الدامية لمح شابًا يناهز الثانية والعشرين من العمر - أو يتعداها بقليل - يقاتل بضراوة فى صفوف ركاب السفن. كان يرتدى لباساً أخضراً وقبعة من اللون نفسه تتدلى تحتها ضفيرة تلمع كالماس. أثارت مهارة الشاب القتالية وفخامة ملبسه انتباه المجتمعين للفرجة ، ومن بينهم "ليوكاديا" و "تيودوسيا" اللتين هتفتا فى صوت واحد لدى رؤيته :

- ياإله السماوات ! إذا لم تكن عيناى تخدعانى فماركو أنطونيو هو صاحب الرداء الأخضر.

قالتا هذا ثم ترجلتا بخفة من على ظهر البغلتين ، وأمسكت كل واحدة منهما بسيفها وخنجرها ، ودونما رهبة أو خوف شقتا الصفوف ووقفت إحداهما عن يمينه والأخرى عن شماله.

- لا تخف ياسيد "ماركو أنطونيو" - قالت "ليوكاديا" - وعلى يمينك منْ لا يبالى بجعل حياته ترساً للدفاع عن حياتك.

- وهل فى ذلك شك - أردفت تيودوسيا - وأنا هنا على يسارك ؟

---

(٥) پدروبيكى Pedro Vique شخصية حقيقية ، وهو ينتمى بالفعل إلى إقليم بلنسية ، إذ أشار المؤرخون إلى مولده عام ١٥٣٧ بمدينة "طورية Turia" التابعة لهذا الإقليم . (المترجم)

لم يتأخر "دون رفائيل" فى اللحاق بهما ، أما "ماركو أنطونيو" - الذى كان يصول ويجول غارقًا حتى أذنيه فى المعركة - فلم يسمع شيئًا مما قيل ، ولم ينتبه لما يدور حوله. أدى تنامى أعداد صفوف مقاتلى المدينة إلى إجبار الفريق الآخر على التقهقر والخوض فى مياه البحر. تراجع معهم "ماركو أنطونيو" على مضض ، كما ارتدت على وقع خطواته المحاربتان الشجاعتان ، وإن شئت قل : "برادامانتى" و"مارفيسا" (٦) .

كانت المعركة على وشك الدخول فى أبعاد أكثر درامية لو لم يظهر على جواد هائل نبيل قطلونى من عائلة "لوس كاردوناس" (٧) الشهيرة ويلقى بنفسه بين الفريقين المتناحرين ، محاولاً الفصل بينهما وإيقاف الزحف القادم من المدينة. ونظراً للمهابة والمكانة الرفيعة التى يتمتع بها الرجل بين سكان المدينة فقد انصاعوا لأمره ، لكن هذا لم يمنع بعضهم من الاستمرار فى إلقاء الحجارة - من بعيد - على الخانضين فى الماء . ويشاء الحظ العاثر أن يرتطم حجر كبير بصدغ "ماركو أنطونيو" فخر على وجهه فى الماء الذى كان يصل إلى ركبتيه حال وقوفه. سارعت "ليوكاديا" - ومعها تيودورو - بالإمساك به وانتشاله من الماء حتى لا يموت غرقاً . أُشكل على "دون رفائيل" وأصبح مشتتاً بين محاولة تفادى الحجارة المنهمرة عليه كالمطر وبين اللحاق بحبيبته وأخته وصهره. اقترب منه النبيل القطلونى وقال له :

- تماسك أيها الشاب الشجاع وهدئ من روعك ، تعال إلى جانبى وسأذبُّ عنك اعتداءات وسفالة الدهماء التى ليس لها ضابط.

- آه ، ياسيدى ! بل دعنى - بربك - أمرّ لإنقاذ أحبابى من براثن الخطر.

تركه الفارس يمر ، لكنه قبل أن يصل كانوا قد حملوا فى زورق من زوارق سفينة القيادة كل من "ماركو أنطونيو" و "ليوكاديا" المتشبثة به. أما "تيودوسيا" فلم تسعفها قواها الخائرة للحاق بالزورق (وربما يكون هذا بسبب تعبها أو لشدة تأثرها بإصابة

---

(٦) برادامانتى Bradamonte ، ومارفيسا Marfisa , : شخصيتان من شخصيات "أورلاندو الغضوب" (للكاتب Ariosto) تتسمان بالجرأة والجسارة . (المترجم)

٧ - فى مطلع القرن الخامس عشر كان لعائلة "كاردونا" مكانة هامة فى البلاط القطلونى ، وكانت تخضع لإشراف وحماية "دوقاتها" أماكن عديدة ، منها: مدينة "كاردونا" ، ومدينة سولسونة ، وما يقرب من ٢٧٢ قرية وضيعة ، وأربعة موانئ بحرية ، وما يزيد عن ٢٥ قلعة حصينة . (المترجم)

"ماركو أنطونيو" أو لرؤية غريمتها راكبة معه) وكانت على وشك السقوط فى الماء لو لم يصل أخـوها في الوقت المناسب. نادى عليـهـمـا الفـارس القطلونى من على الشاطئ ورجاهما بمغادرة المكان فى صحبته ، ولما كان الاثنان خائفين من التعرض لأذى الجموع التى لم تهدأ ثائرتها بعد فقد اضطرا إلى الموافقة.

ترجل الفارس وأخذهما إلى جواره ، وبسيفه الممشوق اخترق بهما الصفوف التى كانت تفسح له الطريق ، احتراماً ومهابة. طافت عينا "دون رفائيل" بأرجاء المكان بحثاً عن كالبيتى والبغال فلم يعثر لهما على أثر ، هذا لأن داعى الخوف كان قد استبد بالبغّال الشاب وأجبره على الفرار بدوابه من أرض المعركة واللجوء إلى خان اعتاد النزول فيه من قبل.

حين وصل النبيل القطلوني إلى بيته – وهو من البيوت المعروفة بالمدينة – سأل "دون رفائيل" عن سفينته فأخبره بأنه ليس من ركاب السفن ، وأنه دخلِ المدينة عن طريق البر ساعة اندلاع المعركة ، ولما رآهم يحملون فى الزورق شاباً مصاباً بحجر حاول إدراكه فلم يفلح ووجد نفسه محاطاً بذلك الخطر. توسل إليه "دون رفائيل" بعد ذلك لكى يعطى أوامره بإنزال الجريح إلى اليابسة ، وأبدى له استعداده لبذل حياته فداءً له مقابل هذا المعروف.

– سأفعل هذا عن طيب خاطر – أجاب الرجل – وأنا على يقين من تلبية قائد السفن لطلبى نظراً لصلة القرابة التى تربطنى به.

لم يتلكأ القطلونى وعاد مُسرعًا إلى الميناء حيث صعد إلى سفينة القيادة ، وهناك وجد الجراح يباشر عمله فى تطبيب "ماركو أنطونيو" الذى كان يعانى من إصابة بالغة نتيجة لارتطام الحجر بصدغه الأيسر. تحدث مع القائد العام للأسطول بشأن حمل الجريح لاستكمال علاجه على اليابسة فأذن له. أنزلوا "ماركو أنطونيو" و"ليوكاديا" – الملازمة له كظله – إلى أحد الزوارق، وعلى رصيف الميناء أمر الرجل بإحضار محفّة لوضع الجريح عليها. فى أثناء ذلك كان "دون رفائيل" قد أرسل رسولاً للبحث عن كالبيتى فى الخان الذى اعتاد إنزال المسافرين فيه. سُر البغّال الشاب بسلامة مرافقيه واتجه مع الرسول إلى بيت النبيل القطلونى.

وصل صاحب الدار مصطحباً "ماركو أنطونيو" و"ليوكاديا" ، ولم يتوانَ فى إكرام وفادة الجميع والترحيب بهم فى بيته. أمر بعد ذلك باستدعاء أشهر جراح فى المدينة ،

ولما حضر وأجرى الكشف على الجريح فضل إرجاء تدخله إلى اليوم التالى معللاً ذلك بكفاءة جراحى الجيش والأسطول لممارستهم المهنة على مدار الساعة ، لكنه أوصى بإعداد غرفة محكمة للمريض وتهيئة الجو المناسب لراحته.

وقبل مغادرة جراح المدينة للبيت قَدم جراح الأسطول وأطلعه على حالة المريض وعلى الخطر الذى يتهدد حياته من جرّاء الإصابة. ومن جهة أخرى ، فقد كشف التقرير الطبى الذى استمع إليه جرّاح المدينة عما تلقاه الجريح على ظهر السفينة من عناية فائقة ، وإن كان الأخير لم يبد موافقته على ما جاء بالتقرير بشأن خطورة الجرح على حياة المريض.

كانت "ليوكاديا" و"تيودوسيا" تستمعان للحوار بين الجرّاحَيْن بأسى المحكوم عليه بالإعدام ، لكنهما حاولتا جاهدتين كظم هلعهما حتى لا تفتضح حقيقة مشاعرهما ، وفى الوقت نفسه كانت "ليوكاديا" قد حزمت أمرها وقررت فعل ما ظنته إنقاذاً لشرفها ، وعلى هذا فقد بادرت بدخول الغرفة فور خروج الجراحَيْن منها ، وأمام صاحب الدار و "دون رفائيل" و "تيودوسيا" وآخرين غيرهم اقتربت من المريض وأمسكته من يده ثم قالت له :

– أعرف أن صحتك لا تتحمل الكلام الكثير ياسيد "ماركو أنطونيو أدورنو" ولذا سأقتصرعلى المفيد منه ،وإذا كنت لم أتسبب لك من قبل فى أىَّ ألم مذ عرفتك فليس فى نيتى الآن أن أكون سبباً فى إيلامك.

فتح عينيه ، ونظر إلى وجهها ، لكنه لم يتعرف عليها من التحديق فيها بل من صوتها ، وعندئذ ردّ عليها بصوت واهن قائلاً :

– هاتِ ما عندك أيها الشاب ، فلست فى النزع الأخير حتى لا تلتقط أذناى ما تتفوه به ، ومن جهة أخرى فسماع صوتك العذب لا يبعث الضيق ولا يسبب الألم.

كانت "تيودوسيا" تصغى باهتمام بالغ لحديث "ليوكاديا" التى كانت كل كلمة فيه بمثابة نصل حاد يخترق حشاشة قلبها ونياط قلب أخيها. تابعت "ليوكاديا" حديثها قائلة:

إذا كانت الضربة التى سددوها إلى رأسك – أو بمعنى أصح ، التى أصابونى بها فى مقتل – لم تمح من ذاكرتك صورة الفتاة التى اعترفت لها بحبك

ووعدتها بالزواج فى وثيقة كتبتها بخط يدك ، ولم تُنسك كذلك نبالة أبويها أو خفر فتاتك وعفافها وواجبك المقدس نحوها لأنها طاوعتك ولبّت رغبتك. إذا كنت لم تنس ما تقدم ستعرف - رغم الزىّ الغريب الذى أرتديه - أننى "ليوكاديا" التى عانت الكثير من الأهوال فى خروجها للبحث عنك واللحاق بك لكى توفيها حقها. لن تنتابك الدهشة مما فعلت لو أدركت مدى القوة التى يمنحها الحب الحقيقى للمرأة المخدوعة. لقد تلاشت مرارة المتاعب الجمّة التى تجشمتها فور رؤيتك ، والآن أتوسل إليك - وفاءً لحق الرب وللنبالة التى تنتمى إليها ولحقى عليكِ - بقبولى زوجة شرعية لك ، وبعدم السماح للعدالة بإجبارك على فعل ما يمليه العقل والمنطق.

لم تقل "ليوكاديا" أكثر من هذا ، وانتظر الحاضرون ردّ "ماركو أنطونيو" الذى جاء على النحو التالى:

- كيف يتسنى لى إنكاركِ وصوتك ووجهك ينفيان الجهالة بكِ ! لا يمكننى أيضًا إنكار دينك الكبير فى عنقى ولا مكانة والديك أو عفافك وصونك . لا تعتقدى أن قَدْرك عندى قد تناقص لمجيئك خلفى فى هذه الثياب المستعارة، بل إنه زاد فى نظرى . وبما أن حظى العاثر قد ألقى بى فى أتون هذه المحنة التى ستودى بحياتى ، ولأن المحن والنوازل الجسيمة تستدعى الصراحة ولا مجال فيها للكذب والمداراة فإنى سأطلعك على حقيقة لن تروقك حاليًا لكنها ستكون لك ذات نفع فى المستقبل. أعترف - أيتها الجميلة ليوكاديا - أننى أحببتكَ ، وأنكِ بادلتنى الشعور نفسه ، كما أعترف بأن الوثيقة التى كتبتها لك كانت لمجرد إرضائك ، ولم تكن نابعة عن اقتناع منى ، هذا لأننى قبل كتابتها بعدة أيام كنتُ قد أسلمت إرادتى وروحى لفتاة أخرى من قريتى تدعى "تيودوسيا" ، وهى ابنة أبوين كريمين مثل والديك ، وإذا كنت قد أعطيتك وثيقة فإننى وهبتها نفسى ، وارتبطت معها برباطَ مقدس لا تنفصم عراه لأى سبب من الأسباب. حبى لك كان مجرد طيش شباب ، ولم يتجاوز الحد الذى يهينك أو يسى ء إلى سمعتك ، أما حبى لتيودوسيا فقد تضمن اقتطاف الثمرة التى أردتها ووهبتها لى بعد وعدى لها بالزواج ، وأنا بالفعل زوجها. وإذا كنت قد تركتك

مخدوعة ، وتركتها خائفة مسلوبة الشرف - كما تظن - فقد كان هذا نابعاً من تهورى وقلة خبرتى وقصر عقلى الذى زيّن لى تفاهة هذه الأمور الجليلة والخطيرة ودفعنى إلى الهروب إلى إيطاليا لتمضية بضع سنوات من شبابى فى سلك الجندية غير عابئ بمصيرك ، ولا بمصير من أصبحت زوجتى. لكن الله يمهل ولا يهمل ، وقد عاقبنى على ما اقترفته من آثام بما ترينني فيه ، ولكى لا أستمر فى خداعك أقول لك أنت حرة ، ولا يربطنى بك أىّ قيد. لتشهدى ، ويشهد الحاضرون أننى أوفيت لتيودوسيا قبل موتى بما قطعته على نفسى حال حياتى . أنا على استعداد فى الوقت القليل المتبقى لى على ظهر الدنيا لتلبية كافة ما تريدين فيما عدا أمر الزواج لأنه خارج عن إرادتى .

كانت رأس "ماركو أنطونيو" مستندة على ذراعه فى أثناء حديثه ، لكنه عندما فرغ منه سقطت رأسه على الوسادة ، وظهرت عليه أمارات الدخول فى إغماءة ، وعندئذ هرع إليه "دون رفائيل" واحتضنه ثم قال له :

- أفِق وضمّ إلى صدرك صديقك وأخيك إذا أردت أن تكونه. افتح عينيك لترى رفيقك الذى سيكون بمثابة الشاهد الحقيقى على رغبتك ، وعلى الفضل الذى أردت أن تخص به أخته.

ثاب "ماركو أنطونيو" إلى رشده وعانق دون رفائيل بحرارة ثم طبع قُبلة على جبينه ، وقال له:

- إن الفرحة الغامرة لرؤيتك قد جرجرت خلفها حزناً دفيناً ، وعلى هذا يصدق قول القائل: تأتى السعادة وخلفها الحزن قابع ، لكننى أقول : أهلًا بالحزن الذى يعترينى مادام تالياً للسرور برؤياك.

- ولكى أكمل سرورك وأجعله متصلاً دون أحزان سأقدم لك الجوهرة التى تتمناها : زوجتك الحبيبة.

فتش "دون رفائيل" عن أخته فوجدها تبكى بحرقة فى ركن من الغرفة ، مشوشة وحائرة بين الحزن لما ترى أو البهجة لما تسمع. أمسكها من يدها ، ودون مقاومة منها

تركته يسحبها إلى حيث يريد (أى إلى سرير "ماركو أنطونيو") ، تعانق الحبيبان وهما يذرفان الدموع الحنونة الولهانة .

تعجب الحاضرون من المشهد العجيب ، ونظروا إلى بعضهم صامتين فى انتظار ما ستسفر عنه الأحداث الغريبة. أما سيئة الحظ والمخدوعة "ليوكاديا" فإنها عندما رأت بعينيها ما فعله "ماركو أنطونيو" وشاهدت من ظنته أخًا لدون رفائيل بين ذراعى منْ كانت تأمله زوجًا ، غافلت الحاضرين – المشدوهين بعناق المريض للشاب الجميل – وتسللت من الغرفة وخرجت إلى الشارع بنية الهيام على وجهها فى أرجاء المعمورة أو الذهاب إلى مكان يخلو من البشر ؛ لكنها لم تكد تفارق الحجرة حتى افتقدها "دون رفائيل" ، ولما سأل عنها الموجودين ، ولم يتلق خبراً انطلق مسرعًا للبحث عنها : اتجه أولاً إلى الخان الذى كان فيه "كالبيتى" لظنه بأنها قد تكون هناك لإحضار دابة من الدواب فلم يعثر لها على أثر ، وعندئذ جرى كالملتاث فى الشوارع يفتش عنها ، لكن دون جدوى. هداه تفكيره فى النهاية إلى احتمال عودتها إلى الميناء فذهب إلى هناك وسمعها تنادى على زورق سفينة القيادة ، اقترب منها، وعندما أحست بوقع خطوات خلفها استلت سيفها ووقفت متأهبة. اعتراها الهم والكدر حين رأته : لا من رؤيته فى حد ذاتها بل لعثوره عليها واحتمال إفساده لما أضمرته. لم تتوقع شراً من مجيئه لأن معاملته الودودة السابقة واحتفاءها المستمر بها تعتبر مؤشرات واضحة لحرصه عليها واهتمامه بها.

يعجز شقّ قلمى عن نقل الحديث الطويل الذى دار فى هذا اللقاء الودى بين "دون رفائيل" و"ليوكاديا" ، ومع هذا أجد نفسى مضطراً لسوْق بعضه نظراً لأهميته :

– آه ، أيتها الجميلة "ليوكاديا" ! لو تخلّت عنى الجرأة – كما تخلى عنى الحظ

– لن أستطيع الكشف عن مكنون صدرى وستظل دفينة إلى الأبد فى زوايا النسيان أطهر عاطفة يمكن أن ترفرف بين جنبى عاشق. وحتى لا أكون السبب فى إلحاق الأذى برغبتى المشروعة أود لفت نظرك – لو أفسح لى عقلك المسلوب مكاناً فيه – إلى أن "ماركو أنطونيو" لا يفضلنى فى شىء اللهم إلا فى حبك له : أنا كريم الأصل مثله ، وفى الممتلكات التى يسمونها ثروة لا يزيد عنى بالكثير ، أما بالنسبة للشكل والهيئة فلا يليق بالمرء الثناء

على نفسه خاصة إذا كانت عينا المحبوب غافلتين عنه. ما أردت بالديباجة السابقة سوى توجيه نظرك إلى يد الحظ الممدودة لانتشالك من وهدة الكارثة العاتية. ها أنتِ ترين استحالة الظفر بماركو أنطونيو لأن إرادة السماء اختصت به أختى ، لكن تلك الإرادة التى انتزعته منك اليوم هى نفسها التى تقدم إليكِ البديل ، فأنا لا أتوق إلى خير فى هذه الحياة أفضل من كونك سيدتى وزوجتى إلى الأبد. لو تدبرت الأمر مليًا لرأيت أن حدثاً سعيداً يطرق أبواب المعاناة التى تجشمتها حتى الآن ، ولا تحسبى أن جسارتك فى الخروج للبحث عن "ماركو أنطونيو" ستنزل من قدرك فى عينىّ أو ستكون عائقًا فى نيلك ما تستحقين ، هذا لأننى تناسيت كل ما عرفته ورأيته فى اللحظة التى أحببتك فيها وتمنيتك زوجة لى ، وبالإضافة إلى ذلك فأنا أدرك تمام الإدراك أن القوة القاهرة التى حملتنى فجأة على التبتل فى محرابك هى نفسها التى أدت بكِ إلى ما أنت فيه من حال ، ومن ثمّ لا داعى للبحث عن أعذار حيث لا توجدَ أخطاء من أى نوع.

كانت "ليوكاديا" تسمع صامتة ، وبين الفينة والفينة ترسل بتنهيدة حارة وعميقة. كانت لدى "دون رفائيل" الشجاعة لأخذ يدها وتقبيلها عدة مرات ، قال لها بعد ذلك :

– أرجو ألا تخذلينى ، ياأميرة قلبى ، فيما عرضته عليكِ تحت هذه السماء الصافية المرصعة بالنجوم وأمام هذا البحر الوادع المسالم وفوق هذه الرمال المخضلة بالماء. قولى نعم ، ردا لاعتبارك ولإسعادى. أذكرك ثانية بأننى شاب نبيل وغنى – كما تعرفين – وفوق هذا وذاك أحبك بجنون. أنت الآن وحيدة ، فى ملابس غريبة ، بعيدة عن الأهل والأقارب ، دون معين أو بارقة أمل لبلوغ هدفك. لو قلتها ستعودين مكرمة مبجلة إلى ديارك ، وممتدحة ممن تصلهم وقائع قصتك. إذا كانت هذه هى الحقيقة فلا أرى سببًا واحداً لترددك ، هيا – وأصرح بها ثانية – ارفعينى من حضيض بؤسى إلى سماء استحقاقك لأنك بهذا تكونين قد أوفيت بأعراف قومك وأبنت عن فطنتك وتهذيبك وأصبحت جديرة بالشكر والثناء.

ما دامت هذه هي إرادة السماء (قالت المتشككة ليوكاديا) فلا أملك حيالها - لا أنا ولا غيري من الأحياء - ردا ، ولا مفر إذن من الانصياع لأوامرها وتلبية رغبتك ، والله وحده يعلم مدى خجلي وترددي غير النابع من سوء فهمي للفوائد العميمة التي ستعود عليّ من وراء طاعتك ، بل من الخوف من تغير نظرتك تجاهي بعد تحقيقي لما تصبو إليه ، ورغم هذا يكفيني أنني سأظفر في النهاية بصفة الزوجة الشرعية لـ "دون رفائيل دي بيابيثنثيو" وهذا في حد ذاته كافٍ لعيشي سعيدة طيلة حياتي. لو تمكنت الخصال والفضائل التي ستجدها لديّ بعد الزواج من كسب رضاك عني وتقديرك لي سأخر ساعتها ساجدة للسماء تعبيراً عن شكري لها بزواجي منِك بعد المشوار الطويل والغريب الذي قطعته وتجرعت فيه المرارة كئوساً مترعة. أعطني يدِك لتعاهدني بأن تكون لي مثلما أمدّ لك يدي معاهدة إياك بأن أكون لك ، وخير شهود على هذا العهد - كما سبق وأعلنت - ما نراه حولنا من سماء ونجوم وبحر ورمال ، هذا بالإضافة إلى الصمت الذي لم تتخلله سوى زفراتي الحارة وتوسلاتك المتكررة.

تعانق المتحاوران ، واحتفلا بسفح دموع الفرح التي أعقبت سلسلة طويلة من الأحزان. شقّا بعد ذلك طريقهما إلى بيت النبيل القطلوني الذي أصابه الحزن لدى اكتشافه غياب "دون رفائيل" . وقبل وصولهما كان القسيس - الذي أحضره صاحب البيت - قد عقد قران "ماركو أنطونيو" على "تيودوسيا". وهكذا ، فعندما وصل "دون رفائيل" بصحبة "ليوكاديا" وأخبر الحاضرين بنبأ تعاهدهما على الزواج زادت فرحتهم كما لو كانوا من أقرب الأقرباء ، وهذا شيء مألوف وطبيعي في النبالة القطلونية التي تغيث الملهوف وتعين المحتاج وتشارك الأصدقاء - حتى لو كانوا غرباء - أفراحهم وأتراحهم.

طلب القسيس من "ليوكاديا" ارتداء الملابس النسوية حتى يتمكن من عقد قرانها ، وعندئذ سارعت زوجة النبيل القطلوني (وهي سيدة كريمة تنتسب لعائلة "جرانوييكس" المشهورة بتلك المملكة) بإلباسها ثوباً من ثيابها الفاخرة . أما "ماركو أنطونيو" فقد عاودته الآلام المبرحة نتيجة لحديثه الطويل وعدم نيله ولو قسطاً ضئيلاً من الراحة ، ولذا قام صاحب الدار باستدعاء الجراح من جديد ، ولما حضر الأخير

أخبرهم أن علاج المريض يتوقف على الراحة التامة والنوم الهادئ المطمئن .. وعلى خلاف كافة التوقعات والمقاييس البشرية فقد شاءت حكمة الرب وقدرته العظيمة أن يكون المجهود الذى بذله المريض سببًا فى تحسن صحته ، ذلك لأنهم عندما طببوه فى اليوم التالى وجدوه – نتيجة للجهد الذى بذله وللفرحة التى انتابته – قد تجاوز مرحلة الخطر ، وبعد أربعة عشر يومًا فقط نهض من فراشه سليماً معافى ، قادراً على تحمل وعثاء السفر دون أية مخاوف.

تجدر الإشارة إلى أن "ماركو أنطونيو" كان قد نذر – فى أثناء تلك المدة التى أمضاها على سرير المرض – الذهاب على قدميه حاجاً إلى "شانت ياقب" (جليقية) إذا منّ الله عليه بالشفاء ، وقد شاركه فى النذر كل من "دون رفائيل" و "ليوكاديا" و" تيودوسيا" ، علاوة على البغّال الشاب "كالبيتى" [وهذا الأمر غير مألوف ، بل غريب على منْ يمارسون تلك المهنة أو المهن المشابهة ، لكن كرم دون رفائيل وأريحيته فى التعامل أجبرتاه على ملازمة مخدومه حتى النهاية] ، ولما تحسنت صحة الجريح أدرك "كالبيتى" عدم حاجتهم إلى البغال لأنهم سيحجون سيراً على الأقدام ، ومن ثمّ فقد عهد بهم إلى زميل له متجه إلى شلمنقة ، وطلب منه توصيلهم إلى هذه المدينة التى سيعود إليها بصحبة "دون رفائيل" .

جاء يوم الرحيل ، وبعد تزودهم بكل ما هو ضرورى للرحلة وبملابس التلبية والإحرام ودّعوا "دون سانتشو دى كاردونا" ، وهو الرجل السخى الشهم – ذو الأصل العريق والشخصية المرموقة – الذى تفانى فى خدمتهم . قالوا له عند الوداع: إنهم لنْ ينسوا – لا هم ولا منْ يولدون من أصلابهم – مكرمته العظيمة التى لا تتسع لها كلمات الشكر ولا توفيها كنوز الأرض بعضِ حقها. عانقهم "دون سانتشو" فرداً فرداً قائلًا لهم : إنه لم يفعل غير الواجب وما تمليه عليه صفته النبيلة تجاه من يعرفهم أو يتوسم فيهم أمارات الأصالة القشتالية.

تكرر مشهد العناق ، وبفرحة ممزوجة بمسحة من الحزن تم الوداع ، وبعد ثلاثة أيام من السير الهادئ المطمئن – على وقع الخطوات الرقيقة للحاجتين – وصلوا إلى دير "مونسرّات" الذى أمضوا فيه ثلاثة أيام أخرى متقلبين بين العبادة والتبتل (شأنهم فى ذلك شأن كافة المسيحيين الكاثوليك) . عادوا أدراجهم بعد ذلك ، واستلموا

الطريق إلى "شانت ياقب" التى وصلوها دون أية منغصات وناعمى البال. وبعد الوفاء بالنذر فى تلك المدينة المقدسة قرروا مواصلة ارتداء ملابس الحج لحين عودتهم إلى ديارهم ، وعند اقترابهم - متعبين وسعداء - من قرية " ليوكاديا " (وهى تبعد - كما أسلفنا القول - بمقدار فرسخين عن قرية " تيودوسيا ") ارتقوا منحدراً يشرف على القريتين ، وعلى قمة المنحدر ترقرقت أعينهم بدموع الفرح ، لا سيما عيون الزوجتين اللتين أهاجت فيهما رؤية الديار ذكرى الأحداث المريرة الماضية.

كان المنحدر يُشرف على وادٍ فسيح يفصل بين القريتين ، ومن مكانهم هناك ، شاهدوا - تحت ظل شجرة زيتون - فارساً مهيباً على ظهر جواد قوى يحمل فى يده اليسرى ترساً ناصع البياض ، وفى يده اليمنى رمحاً طويلاً وغليظاً. شاهدوا بعد ذلك فارسيْن آخرين قادمين من بين أشجار الزيتون وبأيديهما ما بيدى الأول من سلاح. اجتمع الفرسان الثلاثة ، وبعد وقت قصير انسلّ اثنان - بينما وقف الثالث منتظراً - وهجم كل منهما على الآخر وكأنه عدوه اللدود.

من خلال سير المعركة كان يبدو للعيان تمرس كل منهما وخبرته العريضة فى الحرب والنزال. لم يطق "دون رفائيل" صبراً على مشاهدة المبارزة الفريدة من مكانه البعيد ، ومن ثمّ فقد سارع بهبوط المنحدر وخلفه الآخرون. حين اقتربوا من الفارسيْن وجدوهما ينزفان من جراء بعض الجراح السطحية. تعرف "دون رفائيل" على والده حين سقطت من على رأسه ووجهه الخوذة والمغْفر ، كما اتضح لماركو أنطونيو أن المبارز الثانى هو والده. وقف الابنان بينهما وصاحا قائلين :

- يكفى ما تقدم ، هدئا من سورة غضبكما ، وألقيا السلاح فلستما عدوين بل أخوين حميمين من هذه الساعة .

كانت "ليوكاديا" قد اقتربت هى الأخرى من الفارس الثالث وعرفت أنه أبوها ، وعندئذ رجته بإيقاف المعركة لأنها تزوجت "دون رفائيل" ، كما أصبحت "تيودوسيا" زوجة "ماركو أنطونيو" .

ترجل "دون سانتشو" واحتضن ابنته "ليوكاديا" ثم تركها واتجه مُسرعًا ليفصل بين المتبارزين اللذين كانا قد نزلا من على صهوة جواديهما ويتبادلان الأحضان مع

ولديهما ودموع الحب والبهجة الوليدة تتدفق من عينيهما. كانا يتحسسان جسدىّ ابنيهما غير مصدقين ظهورهما المباغت ، وللتأكد من أنهما ليسا شبحين ، ولما زالت عنهما صدمة اللقاء غير المتوقع عادا لذرف الدموع وتبادل الأحضان.

وفى أثناء ذلك ظهر فى الوادى أناس كثيرون حاملين السلاح ، بعضهم يمشى على قدميه والبعض الآخر على ظهور الخيل. كانوا مقسمين إلى طائفتين ، وكل طائفة تريد نصرة الفارس المنتمى لقريتها ، وعندما وصلوا ووجدوهما فى تلك الحالة وقفوا مشدوهين حائرين ، وعندئذ قص عليهم "دون سانتشو" بإيجاز ما سبق وأخبرته به ابنته.

سُرَّ القادمون لما سمعوا ، وتعاظم سرورهم حين قص عليهم "دون رفائيل" من جديد الحكاية وكيف أنها انتهت بزواجه من "ليوكاديا" وبزواج أخته من "ماركو أنطونيو" . انتقى الأبوان خمسة جياد من الخيول التى كان يمتطيها القادمون للنجدة وأركبا عليها الحجاج ، ثم أخذ الموكب طريقه - وسط تهانى الحاضرين - إلى قرية "ماركو أنطونيو" لإقامة حفلتى الزفاف.

وفى الطريق عرف كل من "دون رفائيل" و "ماركو أنطونيو" سبب المبارزة ويتلخص فى أن أبوى "ليوكاديا" و "تيودوسيا" تحديا والد "ماركو أنطونيو" لخداع الأخير لابنتيهما ، ولما كانا حريصين على توخى العدالة فى المبارزة - تمشيًا مع قواعد الفروسية وأخلاقها - فقد اتفقا على مواجهته واحداً إثر آخر ، وعلى انتهاء المبارزة بموت أحدهما.

توجه الأبناء بالشكر للخالق على النهاية السعيدة للأحداث ، وفى اليوم التالى لوصولهم أقام والد "ماركو أنطونيو" حفل زفاف باذخ يليق بالعريسين اللذين عاشا سنوات طويلة وسعيدة فى كنف زوجتيهما، وخلفا وراءهما ذرية صالحة شريفة من الأبناء والأحفاد الذين مازالوا ينعمون حتى يومنا هذا بحياة رغدة هانئة فى هاتين القريتين اللتين تعتبران من أفضل وأعرق الأماكن بإقليم "أندلوثيا" ، وإذا كنت قد آثرت إغفال اسميهما فهذا لِشدة حرصى على كرامة ووقار هاتين الفتاتين ، ولكى لا تنال منهما ألسنة السوء أو يصبحا هدفاً للموتورين أو الذين أثروا فى غفلة من الزمن وتناسوا أصولهم الوضيعة ، وإلى هؤلاء المتأخرين أتوجه بالرجاء بعدم الاندفاع فى

انتقاد أمثال هذه المواقف ماداموا لم يتعرضوا – ولو مرة – لسهام كيوبيد الفتاكة ، القادرة على تغييب العقل وإفساح المجال للعاطفة المشبوبة.

أما "كالبيتى" البغّال الذى حضر حفلى الزفاف فقد رحل إلى شلمنقة للحاق بدوابه بعدما تلقى الهدايا والأعطيات الكثيرة من الزوجين ، ومن جهة أخرى فقد شحذت أحداث هذه القصة العجيبة قريحة شعراء تلك البقعة من أرض "أندلوثيا" فأطلقوا العنان لأقلامهم ، وراحوا يبالغون فى تصويرها وفى وصف جمال الفتاتين الجريئتين والعفيفتين.

* * *

السـيـدة "كـورنـيـلـيـا"

" دون أنطونيو دى إيسونثا" و" دون خوان دى جامْبُواَ" شابان ناضجان ، من أصل عريق وعمرٍ واحدٍ تقريباً، وتربطهما - علاوة على ما تقدم - أواصر صداقة عميقة. كانا يدرسان بشلمنقة ، ودفعتهما فورة الشباب والرغبة - كما يقال - فى رؤية الدنيا إلى قطع دراستهما والذهاب إلى "فلاندس" لحمل السلاح ، الذى وإن كان يسبغ الشرف على كل منْ يحمله إلا أنه يرسخه ويعمقه لدى حامليه من ذوى المنبت الطيب والدم الذكى النبيل.

جاء سفرهما إلى تلك الأراضى وقت حلول السلم بها نتيجة صُلح أو هُدنة ما [1] ، وفى أثناء وجودهما فى "أمبيرس" Amberes وصلهما خطابان من والديهما ينددان بتركهما للدراسة دون سابق إنذار وبرحيلهما المفاجئ الذى فوّت على الأبوين فرصة تجهيزهما بما يليق بمكانتهما. دفعهما الاستياء من جانب الوالدين فى النهاية ، علاوة على حالة الاسترخاء العسكرى التى تعيشها "فلاندس" فى تلك الآونة ، إلى اتخاذ قرارهما بالعودة إلى إسبانيا بعد الفراغ من زيارة مدن إيطاليا الرئيسية. وبعد تحقيقهما لما أرادا ، وفى أثناء وجودهما فى مدينة "بولونيا" Bolonia أعجبتهما الدراسة فى جامعتها الشهيرة [2] فقررا الالتحاق بها. كتبا إلى والديهما بذلك ففرحا فرحاً شديداً وأبديا استعدادهما لتغطية نفقات الدراسة وتزويدهما بكل ما يرغبان من أموال حتى يتسنى لهما الظهور بالمظهر اللائق بمكانتهما ومكانة أبويهما ، ومنذ اليوم الأول للدراسة أبانا للجميع عن أصلهما العريق ومنبتهما الطيب وسلوكياتهما القويمة وثرائهما العريض.

كان "دون أنطونيو" فى الرابعة والعشرين من العمر بينما لا يتجاوز صديقه "دون خوان" السادسة والعشرين. ويزدان هذا العمر الجميل بصفات رائعة (مثل الشجاعة ،

---

(١) مرت "فلاندس" بفترات هدنة كثيرة ، من بينها عام ١٥٧٩ الذى قد يكون مقصوداً من المؤلف. (المترجم)

(٢) أوضح المؤرخون أن الدراسة بالجامعات الأجنبية كانت محظورة على الإسبان فى عهد فيليب الثانى (بموجب المرسوم الصادر فى ١٥٥٩/١١/٢٢) ، ومن ثمّ فقد أشاروا إلى أن المؤلف يقصد " مدرسة سان كليمنتى" الإسبانية التى كانت موجودة فى "بولونيا" آنذاك . (المترجم)

والكرم ، والتمرس على فنون الحرب والقتال ، وعزف الموسيقى وقرض الشعر) جعلتهما يأسران قلوب معارفهما والمتعاملين معهما.

وفى فترة وجيزة أصبح لهما أصدقاء كثيرون : سواء من بين الطلاب الإسبان الذين يدرسون بالجامعة أو من أهل المدينة أو الغرباء عنها. كانا فى غاية الكرم والتهذيب مع الجميع، وبعيدين كل البعد عن العجرفة التى يوصف بها الإسبان عادةً فى تلك البلاد. وبما أنهما كانا شابين متفتحين على الحياة فلم يفتهما تتبع أخبار حسناوات تلك المدينة الحافلة بالنساء العفيفات الجميلات - سواء كنَّ آنسات أو متزوجات - وعلى رأسهن جميعًا تأتى الفاتنة "كورنيليا" ، وهى تنتمى لعائلة "بنتيبوللى" العريقة التى حكمت "بولونيا" خلال حقبة من الزمن [٣] .

كانت "كورنيليا" رائعة الجمال وتحت كنف ورعاية أخيها ، الشريف المقدام : "لورينثو بنتيبوللى" ، وقد نشأ الاثنان يتيمى الأبوين ، لكنهما ورثا عنهما ثروة طائلة، والغنى - كما هو معروف - أكبر ملطِّف للشعور باليتم.

كان خفر "كورنيليا" شديداً ، وحرص أخيها على صونها عظيمًا ، ومن هنا فلم تكن تسمح لنفسها بالظهور على أحد ، ولم يكن أخوها ليقبل بغير ذلك. أثار احتجابها رغبة الكثيرين فى رؤيتها ، ومن بينهم "دون خوان" و "دون أنطونيو" اللذين كانا يتحرقان شوقاً لرؤيتها ولو فى الكنيسة ، ولما باءت محاولاتهما بالفشل تلاشى لديهما الأمل واستسلما للهزيمة . وهكذا فقد انصرفا إلى دراستهما التى لم يكن يتخللها سوى اللهو المباح ، وعاشا حياة مفعمة بالشرف والسعادة. لم يكونا يغادران مسكنهما ليلاً إلا فى مرات قليلة ، وإذا خرجا يكونان معاً ومسلَّحين جيداً .

فى إحدى الليالى ، وقبل خروجهما قال "دون أنطونيو" لدون خوان إنه سيؤدى بعض الصلوات وسيلحق به فور انتهائه منها.

---

٣ - "لوس بنتيبوللى" : عائلة معروفة شاركت فى الأحداث الخطيرة التى مرت بها محافظة بولونيا ، إذ قام أحد أفرادها (خوان الثانى) بحكم تلك المحافظة فترة من الزمن ، ثم عاد لحكمها ثانية (عام ١٥٧١ ، وبمساعدة الفرنسيين) اثنان من أبنائه ، وهما : "هانيبال الثانى" و "إيرميتى " ، وبعد مغادرة الأخوين إيطاليا انتقلت السلطة إلى قداسة البابا .. أما بالنسبة للشخصيتين اللتين وردتا بالقصة (كورنيليا ، لورينثو) فإنهما ليستا حقيقيتين بل من نسج خيال المؤلف. (المترجم)

- الأمر لا يستحق العجلة - ردّ عليه دون خوان - سأنتظر لحين فراغك من الصلاة ، وإذا أردت ألا نخرج هذا المساء فأنا طوع بنانك.

- بل امض على بركة الله للاستمتاع بالهواء الطلق وسألحق بك بعد قليل مادمت ستتبع خط سيرنا المعتاد.

- أمرك ياصديقى ، وإذا خرجت فأنت تعرف وجْهتنا.

خرج "دون خوان" بمفرده. كانت الليلة حالكة السواد وعقارب الساعة تُشير إلى الحادية عشرة ، وبعد تجاوزه لشارعين أو ثلاثة داهمه الإحساس بالوحدة فقرر العودة. وفى أثناء مروره بشارع مشهور ذى أروقة رخامية سمع صفيراً من أحد البيوت. توقف وأرهف السمع، لكن ظلمة الليل والصدى الذى تحدثه الأروقة الرخامية لم يعيناه على الاهتداء إلى مصدر الصفير. رأى باباً موارباً فاقترب منه ، وعندئذٍ سمع صوتاً ينادى :

- هل أنت "فابيو" ؟

تردد بين النفى والإثبات ، لكنه أجاب فى النهاية بنعم.

- خُذْ هذا إذن - قال الصوت القادم من الداخل - وضعْه فى مكانٍ آمن ثم عدْ إلينا مسرعاً.

مدّ يده فاصطدمت بجرم يحتاج حمله إلى مساعدة اليد الأخرى ، وفور إمساكه اللفافة بكلتا يديه أُغلق الباب فى وجهه فألفى نفسه فى الشارع محملاً بشىء يجهله. لم تدم جهالته طويلاً لأنه سرعان ما سمع بكاء كائن بشرى - حديث العهد بالولادة، على ما يبدو -، وعندئذٍ انتابته الدهشة الممزوجة بالحيرة. لم يدرِ ماذا يصنع - لاسيما وأنه لا يعرف فى المدينة أحداً يمكنه اللجوء إليه -، ووجد الخطر قاسماً مشتركاً فى كلا الحلّيْن الماثلين أمامه: العودة إلى طرْق الباب لرد ما سلموه إليه ، أو التخلى عن هذا الكائن البشرى بتركه فى عرض الطريق. وعندما تذكرِ أنهم طلبوا منه وضعه فى مكانٍ آمنٍ والرجوع على جناح السرعة قرر حمله إلى مدبرة منزله وتكليفها بالعناية به ثم العودة إلى المكان الذى شهد الخطأ غير المقصود لمعرفة ما يستجد من أحداث.

المهم أنه عاد أخيراً إلى بيته فى الوقت الذى غادره فيه "دون أنطونيو" ، دخل إحدى الغرف ونادى على المدبرة ، فكّ الدُّثر غالية الثمن وشاهد طفلاً بديع الصورة.

– ينبغى إطعام هذا الطفل – قال للمدبرة – عليك بتغيير هذه اللفائف الغالية بأخرى متواضعة والذهاب به إلى إحدى القابلاَت لأنهن يُحْسِنَّ التصرف فى مثل هذه الأمور. قدمى لها كل ما تريده من مال ، واختارى للطفل ما شئتِ من الأبوين ولا تذكرى لها شيئاً عنى.

حين أخبرته المدبرة أنها ستفعل ما أمرها به انطلق مُسرعاً إلى مكان البيت الذى تَسلَّم منه المولود ، لكنه قبل الوصول إليه بقليل سمع جلَبة صادرة عن صليل شرس بالسيوف ، أصاخ السمع فلم تلتقط أذناه كلمة ، وعلى بريق الومضات التى ترسلها السيوف المتلاحمة استطاع تمييز معالِم المعركة الصامتة: شاهد لُمَّة من الرجال تهاجم رجلاً واحداً محاولة النَّيْل منه. وبعد تثبته من تلك الحقيقة سمع صوتاً يقول:

– آه ، أيتها الخونة ! أنتم كثيرون وأنا فرد واحد ، ورغم هذا لن تفيدكم نذالتكم.

حينِ سمع هذا "دون خوان" أخذته الحَميَّة ، وفى قفزتين لا غير كان إلى جوار المحاصر ، استل سيفه وخنجره ثم قال باللغة الإيطالية حتى لا يعرفوا أنه إسبانى :

– لا تخف ياهذا ، لقد جاءك المَدَد ، لن ينالوا منك إلا على جثتى ، استَعِدْ حماسك فالخونة رغم كثرتهم لا يظفرون إلا بالقليل التافه.

سُمِعَ عندئذٍ من جانب الفريق المهاجِم – الذى يصل عدده إلى ستة أفراد ، حسب تقدير "دون خوان" – صوت يقول :

– إنك لكاذب ، لا يوجد بيننا خائن لأن الانتقام للشرف المسلوب يُبيح كافة المحظورات.

لم يسمح الهجوم الخاطف الذى شنَّه الزميلان على الأعداء بالرد على صاحب الصوت. ضيّق المهاجمون الخناق على الزميل المجهول وتمكنوا من تسديد طعنتين إلى صدره طرحتاه أرضًا. اعتقد "دون خوانِ" أنه سقط ميتًا ، وفى خفة وشجاعة منقطعتى النظير انتصب أمامهم كالمارد وبث فى قلوبهم الرعب بضربات سيفه وخنجره المنهمرة عليهم كالمطر ، لكن مهارته فى الضرب والطِّعان لم تكن كافية

للهجوم والدفاع فى آن واحدٍ ، ولو لم يسعفه الحظ بإطلال سُكان الشارع من نوافذ بيوتهم ، وبأيديهم القناديل ، وصراخهم طلبًا للشرطة وفرار المهاجمين على إثر ذلك لما استطاع النجاة من براثن موت محقق.

فى تلك الأثناء كان المطروح أرضًا قد نهض لأن الطعنتين اللتين تلقاهما صدره اصطدمتا - على ما يبدو - بدرع من الماس يرتديه تحت القميص. كانت قبعة "دون خوان" قد سقطت على الأرض فى أثناء المعركة ، ولما بحث عنها وجد أخرى فلبسها دون أن يمعن النظر فيما إذا كانت له أو لغيره. التفت إليه الناهض من على الأرض ، وقال له :

- إننى أدين لك بحياتى ، أيها الفارس الشُجاع ، ومن ثَمَّ فأنا وما أملك مسخران من الآن لخدمتك. أخبرنى منْ أنت حتى أكون على بيِّنَة بمن أدين له بشكرى.

ردَّ عليه "دون خوان" قائلاً:

- رغم أنى لستُ مُهتماً بما فعلت سأستجيب - من باب اللياقة فقط - لطلبك وأقول لك إننى رجل إسبانى يدرس بمدينتكم هذه ، ولأنكَ قد تحتاجنى فى شىء آخر أقول لك إن اسمى هو "دون خوان دى جامبوا" .

- لقد أسديت إلىَّ خدمة جليلة ومعروفًا لا يُنْسى ، لكنى لا أستطيع حاليًا إماطة اللثام عن شخصيتى وسأوكل غيرى لإعلامكَ بها فى القريب العاجل.

كان "دون خوان" قد سأله من قبل عما إذا كان يعانى من أية إصابة لأنه شاهد الطعنتين المسددتين إلى صدره ، فأجابه الرجل قائلاً : "إن الدرع الشهير الذى أرتديه قد حفظنى - بعد عناية الله - منهما ، ورغم هذا فلو لم تكن إلى جوارى ما استطعت النجاة من سيوف أعدائى" . وبينما هما فى ذلك شاهدا كوكبة من الفرسان متجهة إليهما ، فقال له "دون خوان" :

- حذارِ ياصديقى ! فربما يكون القادمون من الأعداء ، وإن كنتُ لا أظن ذلك نظراً للطريقة التى يسيرون بها نحونا.

كان ما توقعه "دون خوان" صحيحاً لأن القادمين الثمانية التفوا حول الناهض من على الأرض وتبادلوا معه بعض الكلمات الهامسة ، وبعدها توجه الرجل إلى "دون خوان" وقال له :

- لقد أصبحت الآن في مأمن بوصول هؤلاء الأصدقاء ، ولم أعد أخشى شيئاً ، ولذا أرجو منك العودة إلى منزلك.

قال هذا وهو يتحسس رأسه ، ولما لم يجد عليها القبعة طلب من رفاقه إعارته واحدة لأن التي كانت على رأسه سقطت في خضم المعركة ، بادر عندئذٍ دون خوان بوضع القبعة التي عثر عليها في الشارع على رأس الرجل الذي تحسسها ثم قال له :

- إنها تخصك من الآن يا "دون خوان" ، خذها كنيشان للمعركة التي دارت رحاها منذ قليل ، احتفظ بها ولا تفرط فيها لأنها مشهورة في كافة أنحاء المدينة والمناطق المجاورة وستدلك على صاحبها.

امتثل "دون خوان" لرجائه ثم تركه دون أن يعرف منْ هو ، أخذ طريق العودة إلى البيت ولم يجرؤ على الاقتراب من المنزل الذي تسلم منه المولود لأن الحي كان قد استيقظ بأكمله.

التقى في منتصف الطريق مع زميله "دون أنطونيو دي إيسونثا" ، الذي قال له فور رؤيته:

- ارجع معي ، وسأقص عليك في الطريق وقائع حكاية عجيبة لم تسمع بمثلها من قبل.

- وأنا من جانبي سأخبرك بأخرى أعجب منها - رد عليه دون خوان - لكن هيا بنا إلى حيث تريد وهاتِ ما عندك أولاً .

أمسك "دون أنطونيو" بدفة الحديث قائلاً :

- بعد مغادرتك للبيت بما يزيد عن ساعة خرجت للحاق بكَ ، وعلى بُعْد حوالي ثلاثين خطوة من هذا المكان شاهدت جرْمًا أسود يتحرك مسرعًا نحوي ، ولما اقترب أدركت أنه لامرأة متشحة بعباءة سوداء طويلة ، سألتني

بصوتٍ متقطع من جرّاء البكاء والنشيج : "هل أنت ، على سبيل المصادفة ، أجنبى؟ " . "نعم، أنا إسبانى" – أجبتها – . "حمداً لله – قالت – فأنا لا أريد أن ألقى ربى دون اعتراف" . "هل أنت جريحة ياسيدتى ، أو تُعانين من داءٍ لا بُرْء منه ؟" – سألتها –. "قد يقتلنى ما أعانى منه لو لم تدركنى عناية الله ، بحق الشهامة والنخوة السائدتين فى وطنك أتوسل إليك أيها السيد الإسبانى كى تنتشلنى بسرعة من هذه المنطقة وتحملنى إلى دارك، وهناك ستعرف – لو أردت – ما أكابده ومن أكون ، رغم أن هذا سيكون على حساب سمعتى" . حين سمعت هذا منها أدركت أنها بحاجة فعلاً لما تطلبه ، لم ألحف فى السؤال عندئذ وبادرت بإمساك يدها ويممت شطر البيت متفادياً السير فى الشوارع الرئيسية. فتح لى الباب " سانيستيبان" – الخادم – أمرته بالانصراف ، ودون أن يراها أحد أخذتها إلى غرفتى، لم تكد تدخل الغرفة حتى سقطت فوق سريرى مغشيا عليها. اقتربت منها وأمطت من على وجهها النقاب فطالعنى جمال لم تقع على مثله عين بشر. بدا لى أنها فى الثامنة عشرة من العمر ، واحتمال النقصان عن هذه السن أقرب من احتمال الزيادة. أصابنى جمالها الأخاذ بالذهول ، ألقيت على وجهها بعض الماء فاستردت وعيها بتنهيدة حنونة ، سألتنى فَوْر صَحْوِها : "ألا تعرفنى أيها السيد ؟" ، "لا – أجبتها – لم أسعد من قبل بالتعرف على هذا الجمال الفتّان" . "قد يكون نقمة على منْ حَبَتْه به السماء – قالت – ، لكن دعنا من هذا لأن الوقت لا يتسع للإطراء والمديح بل يقتضى العمل لتفادى النكبات ، أرجوك أن تغلق علىّ باب هذه الغرفة وألا تدع أحداً يرانى ، عدْ إلى المكان الذى التقيتنى فيه ، وإذا وجدت هناك معركة حامية الوطيس لا تتدخل لنصرة طرف على طرف بل للفصل والمصالحة بينهما لأن الأذى الذى سيصيب أيّهما سيضاعف آلامى وأحزانى" . وها أنذا قد أتيت لأفض اشتباك الفريقين المتناحرين بعد أن تركتها حبيسة بين جدران غرفتى.

– أهذا كل ما عندك يا "دون أنطونيو" ؟

– وهل ما ذكرته لك حتى الآن يُعتبر قليلاً ؟ لقد سمعتنى أقول إن باب غرفتى مغلق على جمال لم تقع على مثله عين بشر.

– ما رويته عجيب حقاً – قال دون خوان – ومع هذا ستستمع منى إلى ما هو أغرب وأعجب.

ثم قصّ عليه ما جرى بالتفصيل ، وكيف أن المولود الذى أعطوه له قد سلّمه بدوره لمدبرة المنزل وكلفها بتغيير لفائفه الغالية بأخرى رخيصة ، وحملْه إلى إحدى المرضعات لتربيته ، أو – على الأقل – لتلبية احتياجاته الآنية . أخبره أيضاً أن المعركة التى يبحث عنها قد انتهت دون خسائر ، وأنه شارك فيها، كما كشف له عن ظنه بأن الذين خاضوا تلك المعركة كانوا من سادة المدينة وكبرائها.

تعجب الصديقان لما جرى لكليهما ، وانطلقا عائدين إلى البيت للنظر فى أمر السيدة المحبوسة. وفى الطريق قال "دون أنطونيو" لدون خوان إنه وعد تلك السيدة بألا يراها ولا يدخل عليها أحد سواه، وإنه سيظل ملتزماً بهذاالوعد ما لم تغير رأيها.

– لا داعى للقلق بهذا الشأن – ردّ عليه دون خوان –، وإن كانت مبالغتك فى وصف جمالها قد أثارت لدىّ الفضول لرؤيتها.

وصلا بعد ذلك إلى البيت ، وعلى ضوء المشاعل التى حملها الغلمان الثلاثة الذين يتولون خدمتهما شاهد "دون أنطونيو" قبعة مرصعة بالماس على رأس دون خوان. مدّ يده إليها وأخذ يتأمل حبّات الماس التى يسطع نورها من جميع الاتجاهات. عاود النظر إليها ثم أمسكاها سوياً وراحا يقلبان فيها البصر ، خلصا بعد فراغهما من التأمل إلى أن قيمة الماس الموجود عليها تصل – إن كان حقيقيّا وليس مصطنعًا – إلى اثنتى عشرة ألف "دوكادوس" . ومن هنا استنتجا علوّ مقام الذين شاركو افى المعركة، لاسيما الرجل الذى أعانه "دون خوان" . تذكر عندئذ "دون خوان" طلب الرجل منه الاحتفاظ بالقبعة لأنها مشهورة وستدلّه على صاحبها. أمرا الغلمان بالانصراف ، فتح "دون أنطونيو" باب غرفته فألفى السيدة جالسةً على السرير تبكى ورأسها بين يديها. ولما كان "دون خوان" شغوفاً برؤيتها فقد أطلّ برأسه من فتحة الباب ، وعندئذ لمحت الباكية بريق الماس الصادر من قبعته فنادت عليه :

– تفضل بالدخول ياسيدى الدوق. لِمَ التّحرّج ، ألا تريد رؤيتى ؟

- لا يوجد هنا أىّ دوق يتحرج من رؤيتك - ردّ "دون أنطونيو" .

- كيف ؟ إن الذى أطلّ الآن من فتحة الباب هو "ألفونسو دى إيستى" ، دوق فيرّارا ، قبعته الشهيرة لا تخفى على أحد.

- القبعة التى شاهدتها الآن ليست على رأس دوق ، لو أردتِ التعرف على مرتديها أعطه الإذن بالدخول.

- ادخل يا هذا ، أيّاً من تكون ، لو لم تكن من أظنه فيالشقوتى وسوء حظى !

كان "دون خوان" ينصت للحوار السابق ، وما إن سمع الإذن بالدخول حتى دخل والقبعة فى يده ، ولما وقف أمامها ورأت أنه ليس صاحب القبعة النادرة قالت بصوت متلعثم ولسانٍ متلجلج :

- يالسوء حظى ! أخبرنى ياهذا ولا تدعنى فريسة للهواجس : أتعرف صاحب هذه القبعة ؟ كيف تركته، وكيف آلت إليك ؟ هل هو حىٌ يرزق ، أم أن ما تأتينى به هو دليل موته ؟ آى ، ياحياتى ، لِمَ كل هذا؟ ها أننذا أطالع أشياءك ، وأرانى بدونك حبيسة وفى قبضة الخوف من فقدان عفتى لو لم أكن أعرف أننى فى كنف إسبانيين شريفين.

- هدئى من روعك ياسيدتى - قال دون خوان - فصاحب القبعة لم يمت ، ولست فى جانب من يخشى منه السوء ، بل فى حمى رجلين على استعداد لبذل كل ما فى وسعهما لخدمتك ، ولن يضنا بحياتهما فى سبيل صونك والذود عنك ، إذ ليس من الإنصاف أن تهتز ثقتك فى نبل الإسبان ونخوتهم ، ونحن دون شك من خيرتهم - وفى هذا المقام لا مانع من الفخر - اطمئنى إذن إلى أننا سنحافظ على ما يتطلبه وجودك من وقار وحشمة.

- أنا متأكدة من هذا ، لكن حدثنى بربك عن كيفية وقوع هذه القبعة فى حوزتك ، وأين التقيت بصاحبها وهو ليس من سواد الناس ، بل "ألفونسو دى إيستى" ، دوق فيرّارا (٤) .

---

(٤) هو ألفونسو الثانى (١٥٣٣ - ١٥٩٧) دوق فيرّارا ، وكان - طبقاً للمؤرخين - مولعاً بالأبهة والفخامة أكثر من اهتمامه بالفنون الجميلة ، وقد مات دون أن ينجب من زوجاته الثلاث ، ولذلك أوصى لابن عمه "ثيسار" (١٥٥٢- ١٦٢٨) بحكم فيرّارا من بعده. (المترجم)

عندئذ حكى لها "دون خوان" – حتى لا يدعها فريسة للهموم أكثر من ذلك – قصة المعركة التى خاضها إلى جوار فارس – لاشك أنه دوق فيرّارا ، كما تقول – وكيف فقد الفارس قبعته فى أثناءِ سير المعركة ، وعندما عثر عليها وأراد ردها إليه قال له احتفظ بها لأن شهرتها ستدلّه على صاحبها ، كما أخبرها أن المعركة انتهت دون أن يصاب أىٌ منهما بأذى ، وفور انتهائها وصل عدد من الأشخاص – وهم على ما يبدو من أصدقاء أو أتباع من يحسبه دوقًا – فطلب منه تركه "مبدياً لى شكره العميق على الخدمة الجليلة التى قدمتها له" .

– وبهذا الشكل ياسيدتى وصلت إلىَّ القبعة النادرة ، أما صاحبها – إن كان هو الدوق ، كما تقولين – فقد تركته منذ أقل من ساعة سليماً معافى ، ولعل ما أخبرتك به الآن يكون فيه بعض السلوى والعزاء لك.

– لكى تحكما على ما إذا كان معى الحق فى السؤال عنه أرجو منكما سماع حكايتى التى لا أدرى إن كانت تعيسة أو لا.

كانت مدبرة المنزل مشغولة حتى تلك اللحظة بتحنيك فم الطفل بالعسل ، وتغيير لفائفه استعداداً للخروج به إلى إحدى القابلات – تنفيذاً لأمر دون خوان – وفى أثناء مرورها من على الغرفة التى توجد بها من تهم بقص حكايتها بكى الطفل فأحست به تلك السيدة ، هبّت عندئذ واقفة وأصاخت السمع فالتقطت أذناها الصوت الباكى بوضوح ، سألت :

– ما هذا الصوت الذى يبدو وكأنه لخليقة حديثة العهد بالولادة ؟

أجاب دون خوان :

– إنه لطفل سلموه لى هذا المساء من باب أحد البيوت ، ومدبرة المنزل فى طريقها للبحث له عن مرضعة.

– بالله عليكما ائتيانى به ، سأقوم بهذه المهمة الإنسانية للأبناء الغُرباء مادامت السماء قد حرمتنى من تقديمها لمنْ هو من دمى ولحمى.

نادى "دون خوان" على المدبرة ، أخذ منها الطفل ثم دخل به الغرفة ووضعه بين ذراعى الطالبة وهو يقول :

– إليك ، ياسيدتى ، لُقَطَةَ هذا المساء ، إنها ليست المرة الأولى ، ولن تكون الأخَيرة ، إذ لا تكاد تمر بضعة أشهر حتى نعثر على مثلها فى "طاقة" الباب.

أخذته بين ذراعيها وراحت تتأمل وجهه ولفائفه الرخيصة (وإن كانت نظيفة) ، ودون أن تستطيع التحكم فى دموعها قامت على الفور بإسدال خمارها على صدرها لتتمكن من إرضاعه بما يتناسب مع حيائها وعفافها ، بعد التقام الرضيع للثدى ألصقت وجهها بوجهه وبللته بالدموع. ظلت هكذا - والصمت يخيم على أربعتهم - طيلة الوقت الذى كان يحاول فيه الطفل الرضاعة. لم يكن فم الطفل يتلقى شيئاً ، هذا لأن نزول اللبن فى صدور حديثات العهد بالولادة يتطلب وقتًا ، حين فطنت لتلك الحقيقة التفتت إلى "دون خوان" وقالت له :

- لقد ذهبت محاولتى سُدى ، يبدو أننى عديمة الخبرة فى هذا المجال ، مُرْهُم بتحنيك فمه بالعسل ، ولا تسمح لهم بحمله خارج البيت فى هذه الساعة ، انتظر طلوع النهار ، وقبل ذهابهم به أود رؤيته ثانية لأن حضوره يُخفف من أحزانى.

أعاد "دون خوان" الطفل إلى المدبرة آمراً إياها بالعناية به حتى يطلع النهار ويلفّه بالدُّثر الغالية التى كانت عليه وألا تحمله خارج البيت إلا بعد مرورها عليه. عاد بعد ذلك إلى الغرفة ، وما إن أغلق بابها على ثلاثتهم حتى قالت الحسناء :

- لو أردتما سماع حكايتى أعطيانى أولاً شيئاً أتبلّغ به لأننى على وشك الدخول فى إغماءة من فرْط الجوع.

اتجه "دون أنطونيو" إلى خزانة وأخرج منها كمية كبيرة من الأغذية المحفوظة ، تناولت السيدة بعضها وشربت إناءً من الماء البارد فزالت عنها بوادر الدُّوار. قالت فى شىء من السكينة :

- والآن اجلسا حتى تسمعانى .

امتثالا لأمرها ، جلست منكمشة على السرير ولفّت نفسها بطرف العباءة ثم أزاحت الخمار من على رأسها فانسدل على ظهرها ، وعندئذ ظهر وجه يشبه القمر ، أو - بمعنى أصح - يضارع الشمس الوضّاحة المشرقة ، تحدرت من عينيها حبات اللؤلؤ فامتدت يدها لتجففها بمنديل ناصع البياض (لم يكن باستطاعة الرائى التمييز - من شدة البياض - بين اليد الممدودة والمنديل واللؤلؤ المذاب) ، وبعد فاصل من الزفرات

والمحاولات العديدة من جانبها للسيطرة على مشاعرها قالت بصوت متلعثم يشوبه الألم :

- أنا ، أيها السيدان ، التى سمعتما - بالتأكيد - اسمها يتردد فى أنحاء المدينة لأن الإشادة بجمالى تتناقلها غالبية الألسن. أنا "كورنيليا بنتيبوللى" بشحمها ولحمها ، أخت "لورينثو بنتيبوللى"، وبما تقدم ذكره أكون قد أخبرتكما بشيئين : بأصلى العريق النبيل وبشهرتى في الجمال. مات أبواى وأنا طفلة صغيرة فكفلنى أخى الذى استعان على صوْنى بالعفة ذاتها، إذ اعتمد في رعايتى وحمايتى على صفتى الشريفة والنبيلة أكثر من اعتماده على الحراس والرُّقباء. وهكذا - وأنا حبيسة جدران البيت وبين أسوار العزلة، فى صحبة خادماتى فقط - ترعرعت وشبّت معى شهرتى فى الفطنة والعفة والجمال. لكن هذه الشهرة لم تظل حبيسة جدران البيت طويلاً بل نشرت على الملأ نتيجة لثرثرة الخادمات والأقارب ، وبفضل اللوحة التى كلّف أخى أحد الرسامين برسمها لى لتكون - على حد قوله - بمثابة ذكرى لحياتى بعد انتقالى إلى الرفيق الأعلى .. وكل ما تقدم ذكره لم يكن سيعجل بضياعى لو لم يشاهدنى دوق فيرّارا فى حفل الزواج الذى كفله لابنة عمى ، وحملنى إليه أخى بهدف التسرية عنى وتشريف قريبتى. فى الحفل شاهدتنى العيون ، وهناك - حسبما أعتقد - استوليت على القلوب وسحرت الألباب ، أحسست هناك بمدى ما يشيعه المديح فى النفس من سعادة حتى لو كان صادراً عن ألسن متملقة مداهنة ؛ المهم أننى رأيت الدوق هناك ، وأنه رآنى ، وأن ما أكابده الآن إنما هو من توابع تلك الرؤية. لا أريد الاسترسال فى بيان الوسائل والطرق التى لجأنا إليها حتى نلتقى على مدار سنتين بعدها لأننى لو شرعت فى سردها فلن أنتهى منها أبداً. يكفى القول بأن لهفة التلاقى لإطفاء جذوة الشوق المستعرة فى قلبينا كانت قادرة على تخطى كافة الحواجز وتذليل أعتى العقبات ، وأن هذا التلاقى لم يكن ليتم إلا تحت مظلّة الوعد الذى أعطاه لى بالزواج ، إذ يستحيل أن تستسلم صخرة إرادتى الشريفة الشجاعة فى غيبة هذا الوعد. طلبت منه آلاف المرات التقدم لخطبتى من أخى لأن الظروف كلها مهيأة لتكليل

مسعاه بالنجاح : فأخي لن يمانع في قبوله ، ومن جهة أخرى فإنه لن يضطر إلى البحث عن مبرر لهذه الزيجة أمام عامة شعبه لأن نبالة عائلة "بنتيبوللي" لا تقل عن عراقة عائلة "إستنسي" التي ينتمي إليها ، لكنه كان يختلق الأعذار الواهية في كل مرة. وبما أنني كنت مدلهة في حبه فقد تناسيت كل هذا وسلمت له نفسي طائعة مختارة بتدبير من إحدى خادماتي التي أعمتها هداياه الكثيرة ، وأنستها واجبها نحو أخي في الحفاظ على ورعايتي وصوني . المهم أنني شعرت بالحمل بعد عدة أسابيع ، وقبل أن تفضح الملابس أمارات طيشي ونزقي تظاهرت بالمرض والاكتئاب وجعلت أخي ينقلني لبيت ابنة عمي (التي كفل الدوق زواجها) كي أقيم عندها فترة من الزمن. ومن هناك جعلته يتعرف على حالي ، وعلى الخطر الذي يمسك بتلابيبي ويهدد حياتي لأنني لاحظت أن أخي بدأت تساوره الشكوك في تصرفاتي . اتفق معي على الانتظار ومراقبة الموقف حتى الشهر الأخير من الحمل لأنه سيأتي بصحبة مجموعة من أصدقائه خلال ذلك الشهر ويحملني إلى فيرّارا لإعلان زواجنا هناك .. وفي ليلتنا هذه جاءني رسول يخبرني بقدومه ، وفي أثناء انتظاري له شاهدت أخي مع لمة مسلحة من الرجال فاعتراني خوف شديد ، ومن الخوف جاءني المخاض فجأة فوضعت طفلاً جميلاً قامت خادمتي (وهي الوسيطة بيننا والمطلعة على أسرارنا) بلفه في دثر غالية ، لا تتشابه مع لفائف المولود الذي رأيته عندكما ، ثم خرجت به إلى الباب وسلمته – كما أخبرتني – لواحد من خدم الدوق. لملمت شعثي قدر ما استطعت ، وتحاملت على نفسي وخرجت من البيت معتقدة أنني سأجد الدوق منتظراً في الشارع. ما كان ينبغي لي فعل ذلك قبل التأكد من وجوده ، لكن سيف الخوف المسلط على رقبتي من قبل زمرة أخي المسلحة لم يترك لي خياراً آخر. وهكذا فقد خرجت شاردة اللب إلى حيث جرى لي ما تعرفان بقيته : أي دون ابن أو زوج ونهباً للمخاوف من وقوع ما هو أسوأ ، ورغم هذا أتوجه إلى السماء بالشكر؛ لأنها ألقت بي في حماكما الذي أمني فيه النفس بالتمتع بنخوة الإسبان وشهامتهم وكرم أخلاقهم ، لاسيما إذا كانوا – كما يبدو لي – من علية القوم مثلكما.

قالت هذا ثم انكفأت على السرير فظننا أنها دخلت فى إغماءة ، ولما اقتربا منها ولم يجداها كذلك ، بل تبكى بحرقة ومرارة ، قال لها دون خوان :

- إذا كُنا قد رثينا لحالكِ وأشفقنا عليكِ قبل معرفة قصتكِ لأنكِ امرأة ، فإننا بعد معرفتها ملزمون بخدمتكِ والوقوف إلى جوارك. تشجعى ولا تضعفى ، فأنتِ رغم عدم اعتيادكِ على مثل هذه المواقف قادرة على إظهار معدنكِ الأصيل بالتغلب عليها وتجاوزها. أنا واثق ، أيتها السيدة الكريمة ، من النهاية السعيدة لتلك الأحداث الغريبة ، فمن غير المعقول أن تسمح السماء بتعذيب الجمال الباهر أو بتشويه النوايا العفيفة. استريحى ، تصرفى كأنكِ فى بيتكِ تماماً ، وإن شئتِ سمحنا لخادمتنا - وهى محل ثقة - بالدخول عليكِ لتلبية حوائجكِ. إنها ستعرف كيف تحافظ جيداً على سركِ مثلما ستتفانى فى خدمتكِ والسهر على راحتكِ.

- لتدخل على منْ تريد ، فما دُمت فى كنفكما يجب ألا أخشى شيئًا ، ورغم هذا أرجو ألا يرانى أحد غيرها.

- لكِ هذا - ردّ عليها "دون أنطونيو" .

خرج الاثنان من الغرفة وتركاها وحيدة ، سأل "دون خوان" مدبرة المنزل عن تغيير اللفائف المتواضعة للطفل بلفائفه الأصلية ، ولما أجابته بنعم أمرها بالدخول على السيدة ولقّنها الإجابات التى سترد بها عليها .

حين دخلت المدبرة بالطفل ورأته "كورنيليا" قالت :

- هلمى أيتها الصديقة ، أعطنى الطفل وقرّبى هذه الشمعة.

فعلت المدبرة ما أُمرت به ، أخذت كورنيليا الطفل بين ذراعيها ، وبعد إنعامها النظر فيه ارتجفت بكاملها وسألت المدبرة :

- هل هو الطفل نفسه الذى شاهدته من قبل ؟

- نعم ياسيدتى .

- إذن ، ما هذه الدُثُر الغالية الملفوف فيها ؟ أهى له ، أم أنها لطفل آخر ؟

- كل هذا ممكن - ردت المدبرة.

- كيف يكون ممكناً ؟ سينفطر قلبى إذا لم أعرف الحقيقة. أستحلفك بكل ما تحبين بأن تعيدى إلى صوابى بحل هذا اللغز . من أين لك هذه اللفائف ؟ إنها - إن لم تخنى الذاكرة أو تخدعنى عيناى - ملكى ، وأنا صاحبتها. فى هذه الدُثر ، أو فى أخرى قريبة الشبه منها ، لفلفت حشاشة قلبى وسلمتها لخادمتى. من الذى انتزعها من على وليدى ؟ آى ، يالنكبتى ! من الذى أحضرها إلى هنا؟ آى ، يالسوء حظى !

كان "دون خوان" و "دون أنطونيو" يستمعان لهذه الشكوى المريرة ، ولما خافا على السيدة من مغبة التمادى فى خدعة اللفائف دخلا عليها الغرفة وقال لها دون خوان :

- الطفل والدُثر يخصانك ياسيدة كورنيليا.

ثم حكى لها بالتفصيل كيف أنه كان الشخص الذى استلم المولود من خادمتها ، وكيف حمله إلى البيت وأمر المدبرة بتغيير لفائفه لعلة بينها لها ، وكيف تأكد من أنه ابنها الذى تبحث عنه فور سماعه لحكايتها ، وإنه وإن كان لم يخبرها بذلك فى حينه فلكى يضاعف من سرورها لحظة العثور عليه بعد حالة الشك التى انتابتها حين رأته أول مرة.

انهمرت عندئذ - وبلا انقطاع - دموع الفرح من عينى كورنيليا ، وبلا حساب أيضًا أمطرت ابنها بسيل من القبلات ، كما وجهت كلمات لا تحصى من الشكر للرجلين ونعتتهما بصفات عظيمة سامية لا يتسع المقام لذكرها. تركاها مع مدبرة المنزل ، وأوصيا الأخيرة بتلبية كافة احتياجاتها ورعايتها لأنها امرأة مثلها وتفهم أكثر منهما فيما تحتاجه من متطلبات.

انسحبا بعد ذلك (وفى نيتهما عدم الدخول على كورنيليا ثانية إلا إذا طلبتهما أو كانت هناك ضرورة ملحة) لينعما ولو بقسط ضئيل من الراحة فى الجزء الباقى من الليل . حين أشرق الصباح أحضرت المدبرة - فى تكتم شديد - مرضعة للطفل. سألا المدبرة قبل ذهابهما إلى الجامعة عن حالة "كورنيليا" فأخبرتهما بأنها لم تسترح إلا قليلاً. وفى طريقهما إلى الجامعة تعمدا المرور بالشارع الذى حدثت فيه

المعركة وببيت كورنيليا لتلمس آخر الأخبار، لكنهما لم يحسا بشى ء غير عادى ، ولم يسمعا شيئاً عن المعركة ولا عن غياب كورنيليا . تلقيا دروسهما ثم عادا إلى البيت.

نادت عليهما كورنيليا - والمدبرة عندها - فأجاباها قائلين : إنهما عقدا العزم على ألا يضعا أقدامهما فى غرفتها مراعاة لما يتطلبه عفافها من صيانة ، لكنها توسلت إليهما وهى تذرف الدمع قائلة : إن قواعد اللياقة تقتضى فعل ما هى بحاجة إليه حتى لو كان متعلقًا بمواساتها والتسرية عنها. دخلا عندئذ فاستقبلتهما بوجه بشوش وبكلمات مهذبة ثم طلبت منهما الخروج إلى شوارع المدينة لمعرفة آخر الأخبار المتعلقة بغيابها. قالا لها : إنهما تقصيا الأمر ، ولم يسمعا شيئاً.

وما إن فرغا من إجابتهما السابقة حتى وصل إلى باب الغرفة أحد من غلمانهما الثلاثة وقال والباب موصد :

- على باب البيت رجل - برفقة خادمين - اسمه "لورينثو بنتيبوللى" يسأل عن سيدى "دون خوان دى جامبوا" .

حين سمعت هذا كورنيليا كوّرت كفيّها ووضعتهما على فيها ، ومن بينهما خرج صوت مرتجف هامس يقول :

- إنه أخى ، لقد عرف أننى هنا وجاء ليقتلنى . النجدة ، الغوث !

- هدئى من روعكِ ياسيدتى - قال دون أنطونيو - فأنتِ فى حمى منْ يستطيع صونكِ من أى أذى بهذا العالم مهما بلغ حجمه. هيا يا "دون خوان" اهبط درجات السلم وانظر فيما يريده الرجل ، أما أنا فسأبقى هنا للدفاع عن كورنيليا إذا لزم الأمر.

نزل "دون خوان" برباطة جأش يُحسد عليها، أحضر " دون أنطونيو" مسدسين محشوّيْن وأمر الغلمان الثلاثة بامتشاق سيوفهم ، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد.

كانت مدبرة المنزل ترتجف من شدة الفزع ، وكورنيليا ترتعد فرائصها خوفًا من حدوث كارثة ، أما "دون خوان" و "دون أنطونيو" فقد كانا الوحيدين اللذين ظلا

متماسكين وعلى وعيٍ تامٍ بما يجب عليهما فعله ، التقى "دون خوان" بدون لورينثو على عتبة باب البيت فقال له الأخير :

– أرجو منك اصطحابى إلى تلك الكنيسة المواجهة لبيتك لأن هناك مسألة خطيرة تتعلق بالشرف أود إطلاعك عليها.

– على الرحب والسعة ، هيا بنا إلى حيث تريد.

مشيا متجاورين باتجاه الكنيسة ، وبعد أن جلسا على مقعدٍ منزوٍ حتى لا يسمعهما أحد كان لورينثو هو الذى افتتح الحوار بقوله :

– أنا ، أيها السيد الإسبانى ، "لورينثو بنتيبوللى" ، لست من مشاهير الأغنياء بالمدينة وإن كنت من أنبل نبلائها وأشرفهم. ولما كانت هذه الحقيقة لا تخفى على أحد فى بولونيا فإنى أعتبرها بمثابة اعتذار للثناء على نفسى. لقد مات أبواى وأنا فى شرخ الصبا فأصبحت وصيًا على أختى التى حباها الله بنعمة الجمال ، ولو لم يكن الأمر يتعلق بأختى فلربما تماديت فى وصف محاسنها الفريدة إلى ما لا نهاية . دفعنى نبلى ، من جهة ، وجمالها الفتّان وسنوات عمرها الغضّ ، من جهة أخرى، إلى شدة الحرص فى الحفاظ عليها وصونها، لكن العاطفة المشبوبة والطبيعة المتهالكة لأختى كورنيليا (وهذا اسمها) أطاحتا بكل الموانع والسدود التى اجتهدت فى بنائها وتحصينها. ولتوخى الإيجاز فيما يمكن أن يكون قصة طويلة أقول إن "ألفونسو دى إيستى"، دوق فيرّارا ، استطاع – بعينيه الثاقبتين الماكرتين(٥) اللتين تفوقان عينى "أرجوس" – اختراق دفاعاتى الحصينة والاستيلاء عليها. لقد أخرجها ليلة أمس من بيت إحدى قريباتى وحملها – كما أخبرونى – بعد ولادتها لطفل جميل. لم أعلم بهذا إلا فى الليلة الماضية ، وماإن علمته حتى خرجت للبحث عنه ، وأعتقد أننى وجدته ، وأعملت فيه سيفى ، لكن السماء أنقذته بملاك حال بينى وبين تطهير شرفى بدمه. أخبرتنى قريبتى أيضاً أن الدوق خدع أختى تحت ستار الوعد بالزواج ، وأنا

---

(٥) الكلمة الواردة فى النص الأصلى هى ince وتُطلق على حيوان ثاقب النظر (وَشق)، أما " أرجوس" فهو لشخصية أسطورية يضرب بها المثل فى قوة الإبصار . (المترجم)

لا أثق فى وعده هذا لعدم التكافؤ بينهما فى الثروة والجاه ، وإن كانت لا تقل عنه نبالة وأصلاً. لقد تذرع الماكر بذريعة الأقوياء فى التلويح بعرض الزواج حينما يشتهون فتاة عفيفة غير متمرسة ، وعندما يقضون وطرهم ينكصون على أعقابهم ويتنكرون لوعودهم، إنها مجرد أباطيل يريدون إلباسها ثوب الحقائق وإن كانت نواياهم الفاسدة تكشف زيفها. وسواء كان هذا الأمر أو ذاك فالحقيقة التى لا مراء فيها أننى غدوت بلا أخت أو شرف. إننى لم أخبر إلى الآن أحداً بنكبتى حتى أتمكن من عِلاجها بأية طريقة ، فالأفضل فى قضايا الشرف أن تظل طى الكتمان ومُحاطة بالشكوك لأن الناس فى هذه الحالة ستتردد بين التصديق والإنكار وستنحاز كل طائفة لوجهة النظر التى تروقها. خلاصة القول أننى عقدت العزم على الذهاب إلى فيرّارا لمواجهة الدوق ومطالبته برد شرفى وغسل عارى ، وإذا رفض سأتحداه ، ولن يكون التحدى بإعداد كتائب الفرسان لأننى لا أستطيع تكوينها أو إعاشتها ، بل سيكون رجلاً لرجل ، ومن أجل هذا أحتاج لمؤازرتك ووقوفك إلى جوارى فى مهمتى الصعبة ، وأنا واثق من أنك لن تخيب رجائى لأنك إسبانى ، وفوق هذا - حسبما أخبرونى - رجل أصيل وفارس لا يشق له غبار. لم أبح بسرى هذا لقريبٍ أو صديق لأننى لا أنتظرِ منهما سوى النصائح ومحاولات التثبيط ، وعلى خلاف هذا أتوقع منك أعمالاً حاسمة وجليلة حتى لو واجهت فى سبيلها الأخطار ، بإمكانك أن تسدى إلىّ هذا المعروف لأن وقوف إسبانى أصيل وصنديد مثلك إلى جوارى يعادل - فى عيون الأعداء - جيش "خيرخيس" العظيم [٦] . إن ما أطلبه منك زائد عن الحد بكل المقاييس، لكنى أتعشم فيما تدين به لشهرة بلادك فى المروءة والإقدام.

- لا داعى للمزيد ياسيد لورينثو - قال "دون خوان" الذى ظل ملازمًا للصمت طيلة الكلام السابق ولم يقاطعه - اعتبرنى من الآن شريكك

---

(٦) تولى خيرخيس Jerjes حكم فارس خلال الفترة التى ثار فيها المصريون على الاحتلال الفارسى لبلادهم ، ويقال إنه مات مقتولاً (عام ٤٦٤) بأيدى أصدقاء ابنه "أرتاخيرخيس". (المترجم)

وناصحك لأن قضيتك أصبحت قضيتى ، وعلى عاتقى تقع مسئولية حلّها بما يرضيك أو الانتقام لها ، وتصرفي هذا ليس نابعًا من كونى إسبانيًا فحسب بل لأننى أيضاً رجل شريف وأصيل كما تقول ، وكما يعرف عنى العالم بأسره . اختر الوقت المناسب للرحيل ، وأتمنى أن يكون قريبًا جداً لأن السيوف البواتر تعمل بكفاءة وحديدها ساخن ، ولأن حِدة الغضب تلهب الحماس ، والإهانة الحديثة توقظ دواعى الانتقام.

نهض "لورينثو" وعانق دون خوان بحرارة ثم قال له :

- لقد أسقطت بمروءتك وشهامتك وقلبك الكريم كل ما يمكن للمرء التلويح به من فائدة أو منفعة مهما عظمتا فى مقابل هذا الموقف الشجاع ، ومن ثمّ لا أجد ما أقوله سوى أننى أدين لك بحياتى وبكل ما أملك إن خرجنا سالمين من هذا المأزق الخطير. أريد الرحيل صباح الغد لأن بقية يومنا هذا سأقضيها فى إعداد العدة اللازمة لإنجاز المهمة.

- حسناً - قال دون خوان - وأرجو أن تأذن لى ياسيد "لورينثو" فى إطلاع صديقى وزميلى على هذا الأمر ، وهو لا يقل عنى مروءة أو كتماناً للسر إن لم يكن يزيد.

- بما أنكَ قد حملت طواعية على كاهلك قضية شرفى فلك مُطلق التصرف فيها وإخبار منْ تريد بما تشاء ، لاسيما إذا كان زميلك وموضع ثقتك.

تعانقا ، وألقى كل منهما على الآخر بتحية الوداع بعد اتفاقهما على اللقاء صبيحة اليوم التالى لامتطاء جواديهما ومغادرة المدينة ملثمين حتى لا يتعرف عليهما أحد.

رجع "دون خوان" إلى البيت وأخبر "دون أنطونيو" و "كورنيليا" بما جرى فى لقائه مع " لورينثو" .

- إنا لله وإنا إليه راجعون ! - قالت "كورنيليا" - إنى لأعجب حقًا من كرمك الزائد وثقتك العمياء فى الآخرين . كيف وافقت بهذه السرعة على تحمل مسئولية محفوفة بالمخاطر ؟ أواثق أنت مما إذا كان أخى سيأخذك إلى فيرّارا أو إلى أىّ مكانٍ آخر ؟ ورغم أنى عليمة بأنك ستكون فى صحبة الوفاء ذاته أيّاً كانت وجهتكما إلا أن نكبتى الأليمة جعلتنى أتعثر فى ذرات

الشمس ، وأتوجس خيفة من كلِ خيال. ألا يحق لى الخوف أيها السيدان ومصيرى - حياة أو موتاً - معلق بإجابة الدوق ؟ ومن أين لى العلم بما ستكون عليه إجابته إذا لم يكظم أخى سوْرة غضبه ويراعى اللياقة فى مخاطبته ؟ ألا تعرفان أننى سأظل كالمعلّقة طوال الأيام التى ستقضيانها فى تلك المهمة ، خائفة ، شاردة اللب ، فى انتظار النتيجة ، سارة كانت أم مفجعة ؟ ألا تريان أن حبى الموزّع بين أخى والدوق سيجعل الشوكة التى يشاكها أحدهما تصيبنى فى القلب ؟

- تفكرين كثيراً وتخافين أكثر ياسيدة "كورنيليا" - قال دون خوان - لكن عليكِ بإفساح مكان فى مخاوفك للأمل ، ستسعدين دون شك بتحقيق رغبتك إذا وضعت ثقتك فى الله ثم فى حسن تدبيرى وصدق عزيمتى. الذهاب إلى فيرّارا لا رجعة فيه ، ولا مفر أيضاً من مساعدتى لأخيك. إننا لا نعرف حتى الآن ما يدور بخلد الدوق ، ولا بمدى علمه لغيابك ، ولابد أن نسمع الجواب عن هذا من فمه شخصياً ، ولا يوجد أحد فى هذه الأنحاء قادر على سؤاله والتحاور معه غيرى. ثقى تماماً من أننى سأحمل سلامة أخيكِ وسلامة الدوق فى إنسانى عينيّ اللتين أُبصر بهما.

- لو أعانتك السماء يا "دون خوان" على حلّ هذه القضية الشائكة بسلام سأعتبر نفسى سعيدة الحظ. الآن أنا جدُّ راغبة فى ذهابك وعودتك رغم أن روحى ستكون موزعة - حال غيابك - بين الخوف والرجاء.

أبدى "دون أنطونيو" موافقته التامة على القرار الذى اتخذه "دون خوان" ، وأثنى على موقفه الشجاع الذى جاء معادلاً لثقة "لورينثو بنتيبوللى" فيه. قال له أيضاً : إنه يريد الذهاب معهما تحسباً لأى طارئ.

- أما هذا فلا - ردّ "دون خوان" - لكى لا نترك السيدة كورنيليا دون حماية ، وحتى لا يظن "لورينثو" أننى أعتمد على مجهودات الغير.

- لا تقل هذا لأن ساعدى هو ساعدك ، ولكى أعفيك من الحرج دعنى أراقبكما من بعيد متخفياً ، لاشك أن هذا سيدخل السرور على السيدة كورنيليا التى لن تعدِم منْ يسهر على راحتها ويوفر لها الحماية .

تدخلت عندئذ كورنيليا قائلةً :

- سأكون مطمئنة أكثر لو كنتما معاً ، أو على الأقل متقاربين ليُعين أحدكما الآخر وقت الحاجة ، لا تشغلا بالكما بي لأن احتمال تعرضي للخطر ضئيل بالمقارنة بما يتهددكما من أخطار ، وأرجو منكما حمل هذين الأثرين المقدسين ليكونا لكما بمثابة رقية أو تعويذة.

قالت هذا ثم أخرجت من عبها صليبًا من الماس لا يُقدر بثمن و"أجنوساً" (٧) من الذهب الخالص. نظرا إلى التحفتين مبهورين لكنهما أعاداها إليها قائلين : إنهما لو حملا تمائم فلن تكون ثمينة هكذا. أحزنها عدم قبولهما التميمتين لكنها رضخت في النهاية لما ذهبا إليه.

لم تكن مدبرة المنزل تدخر وسعاً في العناية بكورنيليا وملاطفتها ، وبعد أن عرفت من سيديها أنهما راحلان (دون أن يذكرا لها شيئًا عن هدف الرحلة أو وجهتها) تعهدت - رغم جهلها حتى تلك اللحظة باسم السيدة وصفتها - بالتفاني في خدمتها وصونها. ومع إشراقة صباح اليوم التالي كان "لوريثو" لدى الباب و "دون خوان" متأهبًا للقائه وفوق رأسه القبعة الشهيرة التي زينها بريش أسود وأصفر ، وغطى بريق ماسها بشريط من القماش الأسود. ودّع الراحلان كورنيليا التي ألجمها الخوف - نتيجة إحساسها بقرب أخيها - فلم تنطق بكلمة.

خرج دون خوان أولاً ، وفي معية لورنيثو غادر المدينة ، حين وصلا إلى بستان بعيد بعض الشيء وجدا في انتظارهما خادمين ممسكين بجوادين رائعين. امتطيا الجوادين ثم يمما - وأمامهما الخادمان - شطر فيرارا من المسالك والدروب الجانبية. كان "دون أنطونيو" على صهوة جواده الربعة ، متخفياً في ملابس مستعارة ، يتبعهما من بعيد ، ولما أدرك أنهما أحسا به - وخاصة لوريثو - قرر السير في الطريق العمومي وانتظارهما على مشارف فيرارا.

- لم تطق كورنيليا صبراً وبادرت - بعد مغادرة الإسبانيين وأخيها للمدينة - بالكشف عن تفاصيل أزمتها لمدبرة المنزل : لم تخف عنها شيئاً يتعلق بالطفل ووالديه

---

(٧) "أجنوس" agnus : عبارة عن قطعة شمع (أو معدن) عليها صورة حَمَل ، أو صورة من صور القديسين التي باركها البابا . (المترجم)

أو برحلة الإسبانيين إلى فيرّارا لمساندة أخيها في تحديه للدوق ألفونسو. سارعت المدبرة فور سماعها للقصة - وكأن الشيطان قد تلبّسها لتعقيد المشكلة أكثر وعرقلة حلّها - بقول ما يلى :

- آه منك ياسيدتى ! أيحدث كل هذا وأنتِ هنا رافلة فى ثياب الغفلة واللامبالاة ؟ إما أنك بلا عقل أو متبلدة الحس. أتعتقدين فعلاً أن أخاك ذاهب إلى فيرّارا ؟ لو خامرك هذا الاعتقاد فما أفسد تفكيرك ! ألم يخطر ببالك أنه لجأ إلى هذه الحيلة ليُبعد سيدى عن البيت ثم يعود لإزهاق روحك؟ إنه لن يجد عنتاً فى ذلك ، وسيفعله بسهولة ويسر كما لو كان يتجرع شربة ماء ، إذ لا يوجد لحمايتنا سوى ثلاثة غلمان جبناء ، على استعداد لتلبية داعى الفرار فور سماعهم لصفير الصافر. أنا - بصراحة شديدة - لا أملك الشجاعة لانتظار ما يتهدد هذه الدار من خطر.السيد لورينثو إيطالىّ قلباً وقالباً ، ورغم هذا يثق فى إسبانيين ويطلب منهما المساعدة ! كيف ؟ أنا لا أصدق هذه المزحة السخيفة حتى لو حدثت بالفعل وأبصرتها عيناى. لو أردت النصيحة يابنتى سأقدمها لكِ ناصعة مشرقة تنير لكِ السبيل.

كانت كورنيليا تستمع - مذهولة ، شاردة اللُّب - الكلام الذى كانت تُلقيه عليها المدبرة بإصرار وخوف شديدين جعلاها تعتقد صدقه (وربما تخيلت ساعتها أن "دون خوان" و "دون أنطونيو" قد خرّا صريعين ، وأن أخاها يقتحم عليها الباب ويمزقها إرباً بالسكين) ، ولذا فقد سألتها متلهفة :

- ما تلك النصيحة التى ستنقذنى وتدرأ عنى الخطر الوشيك ؟

- أرهفى السمع جيداً كى تتلقيها : لقد خدمت منذ فترة قسيساً يعمل فى قرية تبعد فرسخين فقط عن فيرّارا ، وهو رجل صالح طيب القلب وسيفعل من أجلى كل ما أطلبه منه ، هذا لأن التزامه نحوى يتعدى كونه مخدومى [٨] .

---

(٨)لا يخفى ما تتضمنه الجملة الأخيرة (هذا لأن التزامه نحوى ...) من تعريض بالعلاقة غير السوية بين الخادمة والقسيس ، وقد ثارت الشبهات فى عصر ثربانتس وقبله حول أمثال هذه العلاقة مما أدى فى النهاية إلى منع خدمة المتزوجات للقساوسة بموجب مراسيم ملكية، ومنها المرسوم الشهير الصادر فى بداية القرن السادس عشر . (المترجم)

إذا قررنا اللجوء إليه سأتدبر على الفور عربة تُقلنا إلى هناك ، وسأحضر مرضعة فقيرة على استعداد للذهاب معنا حتى آخر العالم. وبهذا الشكل لو افترضنا سلفاً أنهم سيعثرون عليك فمن الأفضل أن يجدوك عند قسيس مسنّ يعظ الناس على أن يجدوك في حوزة إسبانيين لا تفوتهما شاردة ولا واردة. إذا كانا قد احترماك حتى الآن فلأنك عليلة ، والله وحده يعلم ماذا ستكون عليه العاقبة بعد تعافيك. إنهما لو لم يكونا ينظران إليّ بنفور واستعلاء لكانا قد مرّغا شرفي في الوحل ، إذ ليس ذهبًا كل ما يلمع فيهما. لا تظنى أننى سهلة المنال ، بل ماكرة مجربة أشم رائحة الخطر من على مسافة بعيدة ، وفوق هذا طيبة المنبت ، فأنا من عائلة "كريبيلوس" بمدينة ميلان ، وسنان رمح شرفي يعلو السحاب بما لا يقل عن عشرة فراسخ. إن الأهوال والنكبات التي مررت بها ياسيدتي هي التي أوصلتني في نهاية المطاف لأكون خادمة عند إسبانيين ، وإن كانا -- والحق يقال – لم يمساني بسوء أو يجرحا مشاعري بكلمة ، فهما طيبان إذا لم يساورهما الغضب ، شأنهما في ذلك شأن أهل "بيثكايا" التي ينتميان إليها ، لكن من يدري ؟ ربما يتحولان إلى جليقيين في تعاملهما معك ، وجليقية أمة أخرى يتسم أهلها بالتطاول وعدم الالتزام (٩) .

كان لكلام المدبرة السابق – وآخر غيره – أثر السحر في نفس كورنيليا ، وعلى هذا – ودون أن يفطن الغلمان الثلاثة – ففي أقل من أربع ساعات كانتا (ومعهما مرضعة الطفل) داخل العربة التي ستحملهن إلى قرية القسيس ، أنجزت المدبرة كل هذا في زمن قياسي وبنقودها ، هذا لأنها كانت قد تسلمت منذ أيام قليلة راتبها لعام من سيديها ، ومن ثم فلم تضطر إلى رهن الأسورة الذهبية التي أعطتها لها كورنيليا. وبما أن الأخيرة كانت تعرف أن "دون خوان" سيسير مع أخيها في الدروب الجانبية فقد قررتا استلام ناصية الطريق العمومي والسير بتمهل حتى لا تلحقان بهما ، لم يمانع الحوذي في ضبط إيقاع خيله على رغبتهما ، وهذا في مقابل سدادهما للأجرة حسب رغبته.

(٩) تقع Vizcaya في أقصى شمال إسبانيا ، بينما يحتل إقليم Galicia ، جليقية ، الطرف الشمالي الغربي منها ، وجهل المدبرة هو الذي جعلها تعتقد أنهما أمتان مختلفتان . (المترجم)

لندع هاتين المتجاسرتين تمضيان فى طريقهما الآمن الملىء بالإرشادات، وهيا بنا نتابع ما جرى لدون خوان دى جامبوا والسيد "لورينثو بنتيبوللى" : تقول آخر الأخبار إنهما عرفا فى الطريق أن الدوق فى بولونيا وليس فى فيرّارا. وهكذا فقد تخليا عن السير فى الدروب الجانبية وقصدا الطريق العمومى الذى سيسلكه الدوق دون شك لدى عودته. وبعد السير لمسافة قصيرة مدًا البصر تجاه بولونيا فشاهدا كوكبة قادمة من الفرسان ، وعندئذ طلب "دون خوان" من "لورينثو" الانتحاء جانبًا لأنه ينوى التحدث مع الدوق فى ذلك المكان قبل دخوله فيرّارا التى لم تكن تبعد كثيراً. استصوب "لورينثو" رأيه ونفّذ على الفور طلبه.

بعد ابتعاد "لورينثو" أزال دون خوان شريط القماش الأسود من على ماسات القبعة (وهذه فكرة صائبة منه ، كما سنعرف بعد قليل) .

اقتربت المجموعة المسلحة ، وفى وسطها ظهرت سيدة فى ملابس السفر على ظهر مُهْرَة شهباء وتغطى رأسها بخمار أو - على الأصح - بقناع واقٍ من الشمس والهواء. وقف" دون خوان" بجواده وسط الطريق ، مكشوف الوجه ليراه القادمون الذين شدهم طوله الفارع وحيويته الزائدة وجواده القوى وملابسه الزاهية وبريق قبعته ، وما إن رأى الدوق القبعة حتى أدرك أن الواقف ليس إلا "دون خوان دى جامْبَوا" الذى خلصه من براثن موت محقق ، ودون أن يفكر كثيراً أطلق لفرسه العنان فى اتجاه "دون خوان" ، ولما اقترب منه نادى عليه قائلاً :

- لا أجهل منْ أنت أيها الفارس لأن مِظهرك الرشيق وماسات هذه القبعة يحدثانى بأنك "دون خوان دى جامبوا" .

- هذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها ، فأنا لا أظن أننى لجأت مُطلقاً إلى إخفاء اسمى عن أحد ، لكن أخبِرنى من أنتَ أيها السيد حتى لا يقع منى - عفواً ودون قصد - شيء لا يليق.

- هذا مستحيل لأنك ودماثة الخلق صنوان ، ورغم هذا أقول لك : أنا دوق فيرّارا الملزم بخدمتك طيلة أيام حياتَك لأنك وهبتها لى منذ أربعة ليالٍ فقط.

لم يكد الدوق يفرغ من عبارته السابقة حتى قفز دون خوان - بخفة ورشاقة منقطعتى النظير - من على صهوة جواده ثم اتجه نحوه لتقبيل قدميه، لكنه عندما وصل كان الدوق قد ترجّل هو الآخر وتلقاه بين ذراعيه محتضناً إيّاه.

أما السيد "لورينثو" الذى كان يراقب الموقف من بعيد فقد حسب المراسم التشريفية الجارية بينهما ما هى إلا حركات وإيماءات نابعة من حدّة النقاش والغضب ، ولذا همز جواده واقترب راكضًا لكنه توقف فجأة فى وسط الطّريق حينما رآهما متعانقين ، شاهده الدوق من فوق كتف "دون خوان" فاعتراه الفزع للحظة وسأل "دون خوان" عما إذا كان "لورينثو بنتيبوللى" قادماً معه ، همس "دون خوان" فى أذنه قائلاً :

- لنبتعد قليلاً عن هنا ، وسأخبر سعادتكم بأمرٍ جلل.

وما إن انتحى به الدوق جانباً حتى حدثه "دون خوان" بما يلى :

- السيد "لورينثو بنتيبوللى" الذى تراه هناك يشكوك فى مسألة غير هينة. يقول إنك أخرجت منذ أربعة ليالٍ أخته - السيدة كورنيليا - من بيت ابنة عمه وأخذتها بعدما خدعتها واعتديت على شرفها ، وهو يريد معرفة ما تنوى عمله لإصلاح ذلك ورد اعتباره. لقد طلب منى الوساطة والحماية فقبلتهما لأننى استنتجت من الملابسات التى حكاها لى عن المعركة أنك صاحب هذه القبعة المتلألئة التى خلعتها علىّ كرمًا وفضلًا ، وهذا سيساعدنى دون شك - أكثر من غيرى - على مناقشتك فى الموضوع . ليتك تطلعنى على ما تعرفه وتميط لى اللثام عن الحقيقة فى شكوى لورينثو.

- آه ياصديقى ! إننى لا أجرؤ على إنكار دعواه حتى لو نازعتنى نفسى فى ذلك ، ومع هذا فأنا لم أخدع كورنيليا ، ولم أخرجها من بيت ابنة عمه رغم علمى باختفائها منه، لم أخدِعها لأنى أعتبرها زوجتى ، ولم آخذها لأنى لا أعرف لها مكاناً ، وإذا كنت لم أعقد عليها قرانى حتى الآن فلأننى كنت أنتظر انتقال والدتى المريضة بمرضٍ لا برْء منه إلى الرفيق الأعلى ، وقد كانت مصرّة على زواجى من السيدة "ليبيا" ، ابنة دوق "مانتوا" ، كما أن هناك أسباباً أخرى لا ينبغى ذكرها الآن. كنت ذاهبًا فى تلك الليلة التى أعنتنى فيها لأخذها إلى فيرارا كى تضع مولودها هناك لأنها كانت فى

الشهر الأخير من الحمل ، وصلت متأخراً إلى تلك الدار - بسبب المعركة - فوجدت خادمة كورنيليا (الوسيطة بيننا) خارجة منها ، سألتها عن سيدتها فقالت : إنها ولدت طفلاً جميل الصورة ثم غادرت البيت بعد تسليمى الطفل لخادمك " فابيو" ، والخادمة التى أحدثك عنها موجودة معنا ، وكذلك "فابيو" ، أما كورنيليا والطفل فلم أعثر لهما على أثر حتى الآن. لقد أمضيت يومين فى بولونيا أتحسس أخبارهما دون نتيجة ، وها أنذا أعود إلى فيرّارا خاوى الوفاض .

- يعنى هذا - قال دون خوان - أنك ستعترف بزواجك من كورنيليا وبأبوتك للطفل حين يظهران.

- لا جدال فى ذلك لأننى أعتز برجولتى وبمسيحيتى أكثر ، وفوق هذا وذاك فكورنيليا تستحق أن تكون ملكة متوجة. لتظهر حالاً وسأعلن على الملأ - سواء ماتت أمى أو لم تمت - إنها حبيبتى وزوجتى .

- أنت إذن على استعداد لإخبار أخيك لورينثو بما أخبرتنى به الآن ؟

- يوجعنى ألا يعرف هذا فى أقرب وقت ممكن .

وفى الحال أعطى "دون خوان" الإشارة للورينثو كى يترجل ويلحق بهما ، نفّذ ما طُلب منه دون أن يرد بخاطره أنه ذاهب لتلقى البشرى التى ينتظرها بفارغ الصبر. تقدم الدوق نحوه فاتحاً ذراعيه وناداه بكلمة أخى.

أُشكل على "لورينثو" وبالكاد استطاع ردّ التحية المهذبة ، ولما أحس دون خوان أن المفاجأةعقدت لسانه أمسك بدفة الحديث قائلاً :

- الدوق يعترف ياسيد لورينثو بعلاقته بالسيدة كورنيليا ، كما يعترف بأنها زوجته ، وهو مستعد لإعلان ذلك على الملأ. يقر أيضاً بأنه ذهب منذ أربعة ليالٍ لحملها من بيت قريبتك إلى فيرّارا لعقد قرانه الذى تأخر لظروف قهرية حكاها لى. يقول كذلك إنه بعد المواجهة الشرسة معك ذهب لأخذ كورنيليا فقابلته خادمتها - الموجودة الآن مع الرُكب المرافق للدوق - وأخبرته أن سيدتها ولدت منذ أقل من ساعة ثم غادرت المنزل - بعد قيام

الخادمة بتسليم المولود لواحدٍ من خدم الدوق - لاعتقادها أنكَ عرفت ما جرى منها وستأتى لمعاقبتها. اتضح بعد ذلك أن "سو يليثيا" (الخادمة) لم تسلم الطفل لخادم الدوق بل لشخص آخر على سبيل الخطأ . والدوق لا يعرف أين ذهبا ونادم أشد الندم على ذلك لاعتقاده أنه المتسبب فيه ، لكنه أبدى استعداده لاستقبالها كزوجة فور ظهورها. ألا ترى ياسيد لورينثو أنه لم يبق لنا شيئاً نقوله أو نفعله سوى البحث عن كورنيليا والطفل ؟

أجاب لورينثو على هذا بالانحناء على قدميّ الدوق محاولاً تقبيلهما ، لكن الأخير بادر بإنهاضه ، وبعد استوائه على قدميه واقفاً خاطب الدوق قائلًا :

- من مروءتك الجمّة وتدينك العميق ، أيها السيد المبجل وأخى بالمصاهرة ، لايمكن أن ننتظر - أنا وأختى - ما هو أفضل من ذلك : جعلها مساوية لك وجعلى من زمرة أهلك وأصفيائك.

قال هذا ثم طفرت الدموع من عينيه ، وشاركه الدوق متأثراً (أحدهما يبكى على ضياع زوجته والثانى لعثوره فجأة على صهر محترم) ، لكنهما حين تذكرا أن التعبير عن المشاعر الفياضة بالدموع يعتبر علامة ضعف كفكفاها وحبساها ثانية فى المآقى.

وفى أثناء هذا المشهد المؤثر ظهر "دون أنطونيو" ، عرفه "دون خوان" من جواده الرَّبْعة وهو قادم من بعيد ، وما إن اقترب وشاهد جوادى "دون خوان" و " لورينثو" منتحيين جانبًا وفى أيدى الخادمين حتى تسمّر فى مكانه ، حين رأى "دون خوان" و" لورينثو" واقفين مع شخص ثالث لا يعرفه تحير ، ولم يدرِ ماذا يصنع ، اتجه إلى حاشية الدوق وسأل إذا كانوا يعرفون ذلك الفارس - مشيراً إلى الدوق - ولما أجابوه زادت حيرته ، وأُسقط فى يده ، لكن "دون خوان" أخرجه من الحيرة بالنداء عليه. ترجّل عندئذ - لأنهم كانوا جميعًا كذلك - واقترب منهم ، استقبله الدوق بحفاوة بعدما عرف من دون خوان أنه زميله. وعندما نقل دون خوان لدون أنطونيو كلام الدوق انفرجت أساريره وبادر بتوجيه السؤال التالى لدون خوان :

- لماذا لا تُكمل فرحة هذين السيدين ببشرى العثور على كورنيليا وابنها ؟

- لو لم تأت الآن يا "دون أنطونيو" لكنت زففت لهما البشرى بنفسى ، لكن مادمت قد حضرت فهاتها أنت.

حين سمع لورينثو والدوق تلك الكلمات المتبادلة بين الزميلين استفسرا عما حدث لكورنيليا وابنها.

- وماذا سيحدث غير الخير كله - رد دون أنطونيو - كل ما فى الأمر أننى أود تأدية دورى فى هذه المسرحية المأساوية بالإعلان عن العثور على كورنيليا وطفلها.

ثم قص عليهما ما جرى بالتفصيل فطارا من الفرحة وعانق "لورينثو" "دون خوان" ، بينما عانق الدوق "دون أنطونيو" ، وفى غمرة نشوتهما بالخبر السعيد وعدا بالكثير من الهبات والعطايا. نادى الدوق على "سو پليثيا" - التى ارتعدت فرائصها عند رؤية لورينثو - وسألها عما إذا كانت قد تحققت من شخصية الرجل الذى سلّمته الطفل فأجابت بالنفى ثم أضافت قائلة : إننى سألته فقط إذا كان المدعو "فابيو" ، ولما أجابنى بنعم أعطيته - بسلامة نية - المولود .

- هذه هى الحقيقة - قال دون خوان - ولقد قمتِ بغلق الباب فوراً بعد توصيتى بحفظه فى مكانٍ آمن والعودة مسرعاً.

- هذا ما حدث بالضبط ياسيدى - ردت الخادمة وهى تبكى.

- لا مجال هنا للبكاء والأحزان - قال الدوق - بل للسعادة والأفراحِ ، والآن هيا بنا إلى بولونيا لأن هذه الفرحة العارمة ستظل مجرد وهْم إلى أن تحولها رؤية كورنيليا إلى حقيقة.

استصوبوا رأى الدوق ولم يعترض عليه أحد منهم ، وهكذا أخذوا طريق العودة إلى بولونيا .

سبقهم "دون أنطونيو" ليخبر كورنيليا بما حدث حتى لا يتملكها الفزع عند رؤية أخيها والدوق فجأة ، لكن غيابها عن البيت وعدم قدرة الغلمان على تزويده بشىء مفيد عنها أصاباه بالذهول والحزن العميق ، ولما كانت المدبرة مختفية أيضًا فقد خلص إلى أنها هى التى دبرت عملية الهروب. أخبره الغلمان أن المدبرة اختفت فى اليوم الذى رحلا فيه ، أما بالنسبة لكورنيليا التى يسأل عنها فلم يسبق لهم رؤيتها . وإزاء هذا الموقف الذى لم يكن فى الحسبان سيطر الوجوم على "دون أنطونيو" وخاف من اتهام الدوق لهما بالغش والخداع ، وقد يبلغ به الظن مداه فيتصور أشياء أخرى

تضير بشرفهما وسمعة كورنيليا . كانت هذه الأفكار تتناوشه حين دخل عليه الدار (قادمين من الشوارع الجانبية ومخلفين وراءهم - خارج المدينة - بقية الرّكب) كلٌ من الدوق و "لورينثو" و "دون خوان" فوجدوه جالساً على كرسى ، شاحب الوجه ويده على خدّه .

سأله "دون خوان" عما أصابه وعن كورنيليا فقال :

- وهل هناك أذى يمكن توقعه أعظم من اختفاء كورنيليا والمدبرة التى تركناها لمرافقتها ظهيرة اليوم الذى رحلنا فيه ؟

كان الدوق على وشك مفارقة الحياة ، و "لورينثو" على حافة الجنون فور سماعهما للنبأ الأليم . خلاصة القول أنهم غرقوا جميعاً فى بحرٍ من الحيرة والقلق. وبينما هم فى ذلك اقترب أحد الغلمان من "دون أنطونيو" وهمس فى أذنيه بما يلى :

- سيدى ، سانيستيبان - خادم سيدى دون خوان - يحتجز فى غرفته من يوم رحيلكما امرأة جميلة وأعتقد أنها كورنيليا التى تفتشون عنها.

هاج "دون أنطونيو" من جديد وتمنى اختفاءها ، مفضّلا إيّاه على العثور عليها فى مثل هذا المكان. لم ينطق بكلمة واتجه صامتًا إلى تلك الغرفة فوجدها مغلقة والغلام خارج البيت ، اقترب من الباب ونادى بصوتٍ خفيض :

- افتحى ياسيدة كورنيليا ، هلمى لاستقبال أخيكِ والدوق زوجكِ.

- أتسخرون منى ؟ - ردت المرأة من داخل الغرفة - أنا لست دميمة ولا فضالة حتى يعافنى "الدوقات" و " الكونتات" ، ومع هذا فقد نِلْت ما يستحقه كل منْ يتعامل مع صنف الخدم.

أدرك "دون أنطونيو" عند سماعه لهذه الكلمات أن المتحدثة ليست كورنيليا . كان " سانيستيبان" قد قدم فى تلك الأثناء مسرعًا إلى غرفته ، ولما وجدِ "دون أنطونيو" على بابها ويطلب من الآخرين إحضار مفاتيح البيت كلها عسى أن يعينه أحدها على فتح باب الغرفة جثا على ركبتيه ويده ممدودة بالمفتاح ثم قال :

- غياب حضرتكما وسفالتى - وهذا هو اللفظ الذى أستحقه - شجعانى على اصطياد امرأة وتمضية الأيام الثلاثة السابقة معها. بحق إسبانيا - التى

أتمنى أن تصلك منها أخبار طيبة - أرجوك ألا تخبر سيدى "دون خوان" بفعلتى المزرية حتى لا يطردنى من خدمته.

- وما اسم تلك المرأة ؟ - سأله دون أنطونيو.

- اسمها كورنيليا .

وما أن سمع الغلام - الذى أبلغ عن الواقعة ولم يكن على وِفاق مع سانيستيبان - اسم المرأة حتى هبط (لا أحد يدرى إن كان بسلامة نية أم بسوء طوية) إلى حيث ينتظر الدوق ولورنيثو ودون خوان وقال لهم :

- الغوث ! النجدة ! أمسكوا الغلام الذى اعترف باحتجاز السيدة كورنيليا فى غرفته ، إنه لم يكن يتمنى بالتأكيد مجى ء السادة طمعاً فى امتداد لياليه الحمراء لبضعة أيام أخرى .

- ماذا تقول أيها الغلام ؟ أين كورنيليا ؟ سأله لورنيثو .

- إنها فوق ، بإحدى غُرف الطابق الثانى.

لم يكد الدوق يسمع هذا حتى ارتقى درجات السلم كالبرق متلهفاً لرؤية كورنيليا ، وفور دخوله الغرفة التى كان بها "دون أنطونيو" سأل :

- أين أنت يا كورنيليا ؟ أين أنتِ ياحياتى ؟

- أنا هنا - ردت امرأة مستلقية على السرير وملفوفة حتى منبت شعرها بملاءة - ثم أضافت : سترك يارب ! هل عثرتم على ثور مسروق ؟ هل نوم امرأة مع خادم شىء جديد لم تسمعوا عنه من قبل فعددتموه من قبيل المعجزات ؟

تكهرب "لورينثو" ، وبضغينة وغضب شديدين جذب طرف الملاءة فظهرت امرأة شابة على قدر لا بأس به من الجمال ، اعترى المرأة الخجل فغطت وجهها بكفيها ثم سحبت ملابسها التى كانت تضعها تحت رأسها لأن السرير بلا وسادة ، وعندئذ اتضح للجميع أنها إحدى الساقطات.

سألها الدوق إذا كانت تُسمى "كورنيليا" فأجابت بنعم ، وبأن لديها أقارب محترمين فى المدينة ، وبأن الأمر لا يستدعى اللوم من أحد لأن الكل فى الهم سواء.

اشتاط الدوق غضباً ، وكان على وشك الظن بأن الإسبانيين يسخران منه ، ولكى لا يفسح المجال أمام هذا الاتهام الخطير أدار ظهره ، ودون أن ينطق بكلمة امتطى صهوة جواده ، ومتبوعاً بلورينثو غادرا المكان ، تاركين "دون خوان" و "دون أنطونيو" أشد هياجاً وغضباً منهما ومصممين على فعل المستحيل للعثور على كورنيليا لأنها ستكون بمثابة الدليل الحى على صدقهما وعلى حسن نواياهما. قاما بعد ذلك بطرد " سانيستيبان" والمتشردة، وفى تلك اللحظة تذكرا أنهما نسيا إخبار الدوق بأمر الصليب الماسى و"الأجنوس" ليتأكد من أنها كانت فى حوزتهما ، وأن اختفاءها صادف غيابهما عن الدار ولم يكن - بالتالى - لتقصير منهما. ومن أجل هذا الغرض ذهبا إلى بيت "لورينثو" ، لكن الأخير أخبرهما أن الدوق عاد مسرعاً إلى فيرّارا بعد تكليفه بالبحث عن أخته.

حدثاه عندئذ بما كانا ينويان قوله للدوق فأخبرهما بأنه رحل وهو راضٍ عنهما لأن خوف كورنيليا هو الذى دفعها للهروب ولأن الأمل مازال باقياً فى العثور عليها، فالأرض لم تنشق وتبتلعها، هى والطفل والمربية. ابتهجا لما سمعاه من "لورينثو" واتفقا معه على ضرورة البحث عنها سراً حتى لا يلوك الناس سيرتها لاسيما وأنهم لا يعرفون ملابسات الموقف ولا نيّة الدوق تجاهها ، وقطْع الطريق على الشائعات بوأدها فى المهد لا يتطلب مجهوداً يذكر بالمقارنة بما يتطلبه الرد عليها وتفنيدها بعد انتشارها.

واصل الدوق رحلته ، وقبل وصوله إلى فيرّارا ألهمه حُسن الطالع إلى التعريج على قرية القسيس الذى استضاف كورنيليا والطفل والمدبرة والمرضعة فى بيته ، وكانت كورنيليا والمدبرة قد قصتا عليه تفاصيل الأزمة وطلبتا منه المشورة والنصح.

كان القسيس صديقاً عزيزاً للدوق ، وقد اعتاد الأخير - فى رحلات صيده المتكررة - المرور بداره الفسيحة المترعة بالتحف والآثار المقدسة النادرة ، وذلك لإعجابه الشديد بظرف صاحبها ومفاجآته العجيبة السارة . لم يضطرب القسيس لرؤية الدوق لأنها لم تكن - كما أشرنا - المرة الأولى ، لكن أهمّه رؤية الدوق محزوناً على غير عادته.

حين سمعت كورنيليا صوت الدوق اعتراها الفزع نتيجة جهلها لسبب الزيارة ، راحت تولول بيديها وهى تنتقل من جهة إلى أخرى شاردة اللُب ، ألَمّت بها رغبة عارمة فى محادثة القسيس بهذا الشأن لكنه كان مشغولاً بمسامرة ضيفه.

قال الدوق للقسيس :

- أتيتك هذه المرة مهموماً حزيناً ولا رغبة لى فى دخول فيرارا ، سأكون ضيفك لهذا اليوم ، مرْ القادمين معى بمواصلة السير إلى فيرارا وألا يتركوا منهم أحداً سوى "فابيو" .

نفّذ القسيس ما طُلب منه ثم اتجه إلى خادمته يأمرها بإعداد ما يلزم لراحة الضيف وإطعامه ، انتهزت كورنيليا الفرصة لتسأله :

- ما وراء الدوق ، وما الداعى لزيارته هذه ؟ حاول - بفطنتك وذكائك - استدراجه من بعيد للخوض فى قضيتى لمعرفة نواياه حيالى.

- لقد جاءنى اليوم مهموماً - قال لها القسيس - ولم يطلعنى حتى الآن على السبب. ما عليك الآن سوى إلباس الطفل أفخر الثياب وتزيينه بكل ما لديك من حلىّ - لاسيما التى أهداها إليكِ الدوق - وترْك الباقى علىّ ، قلبى يحدثنى بأن فرج الله قريب.

قبّلَتْ كورنيليا يده ثم انسحبت لتنفيذ ما كُلّفت به. ذهب القسيس لمسامرة الدوق وتسليته انتظاراً لحلول وقت الغداء ، وفى أثناء حديثهما سأله القسيس عما إذا كان بالإمكان معرفة سبب كآبته التى لا تخطئها العيون من على مسافة فرسخ بأكمله.

- من الواضح ياأبانا أن أحزان القلب يعكسها الوجه ، كما تبوح العيون بأسرار الروح ، لكن المؤلم حقاً أننى لا أستطيع حالياً الكشف عنها لأحد.

- إذا كنتَ ياسيدى مستعداً لرؤية أشياء تسر الخاطر وتبعث البهجة فى النفوس فلدىّ هنا إحداها.

- مغفل هذا الذى يرفض مُلَطِّفاً لعلّته حين يعرضوه عليه. هات ما عندك ياأبانا لأنه لابد أن يكون طرفة من طرائفك ، وكلها بالنسبة لى رائعة وشيّقة .

نهض القسيس وذهب إلى غرفة كورنيليا فألفى الطفل على ذراعيها مرتدياً أفخر الثياب ومزيناً بالصليب الماسى و "الأجنوس" وبثلاث حلىّ أخريات (كلها من هدايا الدوق) ، حمله القسيس ورجع إلى حيث ينتظر الدوق ، طلب منه النهوض والاقتراب من الأشعة المتساقطة من إحدى النوافذ ثم أعطاه الطفل ، ذهل الدوق عندما شاهد

الحليّ التي أهداها من قبل لكورنيليا ، ولما أنعم النظر في الطفل وخُيِّل إليه أنه يرى صورته في المرآة اتجه - دهشًا متعجبًا - إلى القسيس وسأله عما إذا كان الطفل ابناً لأحد الأمراء ، هذا لأن هيئته وما عليه من ثياب وحليّ لا يرشحانه لما هو أقل من ذلك.

- لا أدرى - ردّ القسيس - كل ما أعرفه أن رجلاً من بولونيا أحضره منذ عدة ليالٍ - لا أدرى كم - وطلب مني تربيته والتفاني في رعايته لأنه ابن رجل مهم وسيدة نبيلة رائعة الحسن. كان الرجل قد أحضر معه مرضعة، ولما سألتها بعد ذلك عن أبويّ الطفل قالت إنها لا تعرف شيئاً على الإطلاق ، ولو كانت الأم في جمال المرضعة فلا شك أنها أجمل امرأة في إيطاليا.

- ألا يمكنني رؤيتها ؟ - سأله الدوق.

- بلى ، تعال معي ياسيدي ، وإذا كان جمال المولود وحُليُّه قد أثارا - حسبما أعتقد - إعجابك ودهشتك فإن رؤية المرضعة ستثيرهاً أكثر وأكثر.

همّ القسيس باسترداد الطفل من الدوق ، لكن الأخير تشبث به وأمطره بوابل من القبلات . تركه القسيس ثم دخل على كورنيليا وطلب منها الخروج دون تردد أو قلق للقاء الدوق. امتثلت لطلبه ، لكن نوبة الفزع اللاإرادية التي انتابتها لوّنت وجهها فزادته تألقًا وجمالًا. حين رآها الدوق ترتمي على قدميه محاولة تقبيلهما اعتراه الذهول ، ودون أن يتفوه بكلمة أعطى الطفل للقسيس ثم استدار وغادر الغرفة بأقصى سرعة. التفتت كورنيليا حينئذ للقسيس ووجهت إليه سيلاً من الأسئلة الحائرة :

- ياويلتي ! هل فزع الدوق من رؤيتي ؟ أيبغضني لهذا الحد ؟ هل أصبحت في نظره دميمة ؟ هل تناسى التزامه المقدس نحوى ؟ أيضن عليّ ولو بكلمة ؟ هل أتعبه كثيراً حملُ ابنه ليلقى به هكذا من فوق ذراعيه ؟

أُلجم لسان القسيس عجبًا من الفرار المباغت للدوق ، لقد حسبه فراراً ولا شيء غيره ، ولم يتصور أنه خرج لينادى على "فابيو" ويأمره بما يلي:

- هيا يا "فابيو" ، سابق الريح عائداً إلى بولونيا لتُخبِر "لورينثو بنتيبوللي" والسيدين الإسبانيين : "دون خوان دى جامبوا" و "دون أنطونيو دى

إيسونثا" ، بضرورة تَرْك ما بأيديهم والمجيء فوراً إلى هذه القرية. لا ترجع بدونهم فالأمر جد خطير ولا يحتمل التأخير.

لم يكن "فابيو" بالغلام الكسول ، ومن ثمَّ فقد بادر بتنفيذ أمر سيده في الحال.

رجع الدوق فوجد كورنيليا تذرف الدموع، ضمها إلى صدره وشاركها البكاء، عقدت الفرحة لسانى العاشقين السعيدين والزوجين الحقيقيين فاكتفيا بالآهات والزفرات .

كانت مُرضعة الطفل والمدبرة "كريبيلا" - وهو حقًا اسم على مُسَمى (١٠) - تتلصصان من خِصَاص باب الغرفة المجاورة على مشهد الحب العفيف بين الدوق وكورنيليا ، ومن فَرْط البهجة لم تتمالكا نفسيهما وراحتا تضربان رأسيهما فى الحائط كأن بهما مسّاً من جنون. أما القسيس فكان منهمكًا فى تقبيل الطفل الموجود على ذراعه الأيسر وفى توزيع البركات على الحبيبين المتعانقين بيده اليمنى. الوحيدة التى فاتها مشاهدة الحدث العظيم كانت خادمة القسيس لانشغالها بإعداد الغداء ، ولما فرغت منه دخلت للنداء عليهم فقطعت بدخولها الفاصل الطويل من العناق الحار. أخذ الدوق الطفل من القسيس ليظل فى حجره طيلة الوقت الذى استغرقه تناول الغداء الشهى والنظيف وإن كان عارياً عن الفخامة ، وفى أثناء تناولهم للطعام حكت كورنيليا قصتها من بدايتها حتى مجيئها إلى دار القسيس بناءً على نصيحة "كريبيلا" التى تعمل عند الرجلين الإسبانيين اللذين لم يدخرا وسعًا فى خدمتها وصونها وحمايتها بشرف ونزاهة لا يتخيلهما إنسان . كما حكى الدوق ما جرى له حتى لحظة اللقاء التى عاينوها. تلقت المرضعة والمدبرة الكثير من الهدايا والأعطيات ووعدهما الدوق بالمزيد بعد عودته إلى فيرّارا. تجددت فرحة الجميع بالنهاية السعيدة للأحداث التى لم يكن ينقص لاكتمالها سوى حضور "لورينثو" و "دون خوان" و"دون أنطونيو" وقد وصلوا بعد ثلاثة أيام تحدوهم الرغبة لمعرفة آخر معلومات الدوق عن "كورنيليا" ، ولم يكن "فابيو" قد أفادهم بشيء لدى استدعائهم لسبب بسيط: وهو أنَّ فاقد الشى ء لا يعطيه.

---

(١٠) كريبيلا cribela يعنى فى اللغة الإسبانية : ناسجة العنكبوت ، ولما كانت المدبرة هى التى عقّدت المشكلة وتسببت فى تأخير حلّها فقد أشار المؤلف إلى أنها تستحق هذا الاسم (اسم على مسمى) . (المترجم)

خرج الدوق لاستقبالهم فى الصالة المجاورة دون أن تظهر عليه أية علامة للسرور فأشاع بهيئته تلك الحزن فى نفوس الواصلين حديثاً. طلب منهم الجلوس ، وبعد جلوسه مثلهم خاطب لورينثو قائلاً :

– تعلم جيداً ياسيد "لورينثو" أننى لم أسعَ مُطلقًا لخداعِ أختك ، وخير شاهد على هذا الله ثم ضميرى. تعرف أيضًا أننى بذلت قصارى جهدى بغية العثور عليها والزواج منها كما وعدتك ، لكنها لم تظهر حتى الآن ووعدى لن يظل – بالتالى – أبديًا . أنا فى عنفوان الشباب ، ولست زاهداً فى الدنيا حتى أنبذ متعها المتاحة لى فى كل مكان. وهذا يقودنى إلى الاعتراف بأن الرغبة التى حملتنى على وعد أختك بالزواج هى نفسها التى حملتنى من قبل على وعد إحدى فلاحات هذه القرية بالزواج أيضًا . القروية هى حبى الأول ، وإذا كنت قد تركتها معلّقة – رغم عدم ارتياح ضميرى لذلك – فمن أجل الظفر بما هو أشهى وأثمن : أى بحب كورنيليا. وبما أن أحداً لا يتزوج بامرأة غير موجودة ، وأنه من غير المعقول بحث المرء عن امرأة هربت منه حتى لا يعثر على ما يرمز لكراهيته ، أرجو منك تقدير ما تريد من مال فى مقابل الخسارة التى منيت بها ، ولم أكن المتسبب فيها لأنها لم ترد على خاطرى إطلاقًا ، والسماح لى بالوفاء بوعدى الأول ، أى فى الزواج من تلك القروية وهى موجودة الآن بإحدى غرف هذه الدار.

تلّون وجه لورينثو بآلاف الألوان ولم يهدأ ويستقر فى جلسته طوال الحديث السابق للدوق ، وهذه علامات واضحة على تملك الغضب لحواسه جميعًا. الشىء نفسه حدث "لدون خوان" و "دون أنطونيو" اللذين عقدا العزم على عدم تمكين الدوق من تحقيق رغبته حتى لو تطلّب الأمر قتله. حين قرأ الدوق نواياهم المسطّرة على وجوههم أردف قائلاً :

– هدئ من روعك ياسيد "لورينثو" ، قبل أن تجيبنى بكلمة عليك أولاً رؤية الفتاة ، وأنا واثق من أن طلْعتها البهيّة ستجبرك على الإذن لى بالزواج منها : فمن المعروف أن الجمال الصارخ هو خير شفيع للأخطاء الجسام.

نهض دون أن ينتظر منهم تعليقًا ثم دخل إلى حيث تنتظر كورنيليا فوجدها فى أبهى صورة بعدما تزينت بكل ما لديها من حلىً ومجوهرات ، وما إن استدار الدوق حتى نهض دون خوان ، ومتكئًا بكلتا يديه على حافتى الكرسى الجالس عليه "لورينثو" همس فى أذنيه بما يلى :

– أحلف بسنتياجو جليقية وبالمسيحية التى أدين بها وبشرفى كرجل على ألا أدع الدوق يظفر ببغيته حتى لو جعلونى مسلمًا. سأقتله بيدىّ هاتين إن لم يفِ بوعده لأختك كورنيليا أو إذا لم يمهلنا – على الأقل – الوقت الكافى للبحث عنها. لن يتزوج بغيرها طالما لم نتأكد من موتها.

– وأنا أيضاً على هذا الرأى – قال لورينثو .

وما إن فرغا من حوارهما السابق حتى دخلت عليهم كورنيليا : كان القسيس على يسارها والدوق على يمينها ممسكاً بيدها ، وخلفها فى صفٍ تأتى كل منٍ سو پليثيا (التى أمر الدوق بإحضارها من فيرّارا) والمرضعة و"كريبيلا" ، مدبرة منزل السيدين الإسبانيين.

حين رأى "لورنيثو" أخته تَصوَّرها – من هول الصدمة – شبحاً ، وبعد استعادته لتوازنه وتأكده من أنها ليست كذلك هرول متعثراً فى قدميه للانحناء على قدمى الدوق ، لكن الأخير أنهضه وألقى به فى حضن أخته (وإن كان الأصوب القول : إن أخته عانقته بكل أمارات البهجة الممكنة) . قال "دون خوان" للدوق : إن ما شاهدوه الآن يُعد أذكى وأطيب مزحة فى العالم أجمع. كان الطفل على يدى "سو پليثيا" فالتقطه الدوق وقدّمه للورنيثو قائلاً :

– مد يدك ياأخى لتتلقى ابنى وابن أختك ، وانظر فيما إذا كنتَ ستوافق على زواجى من هذه الفلاحة التى وعدتها أولاً بالزواج.

لن أنتهى أبداً لو شرعت فى سرد ما أجاب به "لورنيثو" ، أو بيان مشاعر وأحاسيس "دون خوان" و "دون أنطونيو" ، أو وصف فرحة القسيس، أو بهجة "سو پليثيا" ، أو حبور المدبرة ، أو غبطة المرضعة، أو إعجاب "فابيو" ، وأخيراً السعادة العارمة التى رفرفت بجناحيها على الجميع.

عقد القسيس قرانهما الذى تولى "دون خوان" وكالته ، اتفقوا بعد ذلك على أن يظل الزواج فى طى الكتمان حتى نفاذ قضاء الله فى والدة الدوق التى كانت فى مرحلة متأخرة من المرض ، وعلى هذا فقد عادت كورنيليا بصحبة أخيها إلى بولونيا. أما ما حدث بعد ذلك فنلخصه فيما يلى :

ماتت والدة الدوق ، دخلت كورنيليا فيرّارا فسحرت الألباب بجمالها الطاغى ، وحوّلت المآتم إلى أفراح ، اغتنت المدبرة والوسيطة والمرضعة ، تزوج "فابيو" "سو يليثيا" (الوسيطة) ، سعد الإسبانيان سعادة غامرة لمساهمتهما فى حل المشكلة، عرض عليهما الدوق الزواج بابنتى عمٍ له ، لكنهما اعتذرا عن قبول هذا العرض السخى والمغرى قائلين : إن أهل "بيثكايا" لا يتزوجون عادةً إلا من بنات قومهم ، وإن والديهما لابد أن يكونا قد اختارا لهما العروسين المناسبتين ، وعلى هذا فإن رفضهما ليس نابعاً من الازدراء للآخرين بل من منطلق الحرص على الوفاء بالعادات والتقاليد واحترام إرادة الأبوين.

قَبِلَ الدوق اعتذارهما المسبب والرقيق ، وبطريقة محترمة لا تخدش الكرامة كان ينتهز فرصة المناسبات المختلفة ويرسل إليهما فى بولونيا بالعديد من الهدايا ، ورغم أنهما كانا يستطيعان ردّها حتى لا يبدوان كمنْ يتلقى المقابل على ما أسدياه من صنيع إلا إن مرور الزمن كان كفيلاً بإزالة هذه الحساسية ، وآخر تلك المناسبات مناسبة زيارتهما لفيرّارا لوداع الدوق قُبيل عودتهما لإسبانيا. وفى تلك الزيارة وجدا الدوق متيماً بزوجته أكثر مما مضى رغم إنجابه لابنتين أخريين ، وفيها أيضاً أهدت الدوقة (كورنيليا) الصليب الماسى لدون خوان و "الأجنوس" لدون أنطونيو ، ولما لم يكن باستطاعتهما الرفض فقد قبلا الهديتين شاكرين.

سافرا إلى وطنهما إسبانيا حيث تزوجا بفتاتين جميلتين تتمتعان بالثراء العريض والأصل العريق ، ولم تنقطع الرسائل بينهما وبين الدوق والدوقة و" لورينثو" ، حاملة أسمى معانى التقدير والعرفان من كلا الطرفين.

* * *

زواج المصلحة

من مستشفى المواساة الواقعة خارج أسوار بلد الوليد ، وعلى مَقْرُبة من بوّابة "الكامپو" (١) كان ملازم ثانٍ خارجاً ، من نحول ساقيه واصفرار وجهه واتكائه على سيفه مثل عكّاز كان يبدو للعيان أن جسده قد تخلّص في ساعة - رغم اعتدال الحرارة - من مخزون عرق أيام طويلة. كان يبدو كالناقه في مشيته المتعثرة التي تشبه الحَبْو ، وعند دخوله من بوابة "الكامپو" شاهد صديقًا له - لم يكن التقى به منذ أكثر من ستة أشهر - يتجه نحوه ، وما إن اقترب منه هذا الصديق حتى أشار على نفسه بعلامة الصليب كمن يستعيذ من طائف رجيم ثم بادر بسؤاله :

- ما هذا أيها الملازم "كامپوثانو" ؟ أأنت معنا في هذه الديار ؟ كنتُ أحسبك في فِلاندس تصول وتجول ، فما بالي أراك هنا مجرجراً سيفك ! ما كل هذا الشحوب ؟ وعلام هذا الهزال ؟

ردّ عليه "كامپوثانو" قائلاً :

- كوْني في هذه الديار من عدمه تجيبك عليه - ياسيد " پيرالتا" المحامي - رؤيتك لي فيها ، أما بالنسبة للإجابة على بقيّة الأسئلة فلا أجد ما أقوله سوى أنني خارج للتوّ من هذه المصحّة بعد جلسات مكثفة في المَعْرَقَة (٢) ابتلتني بها امرأة اخترتها شريكة لحياتي ، وما كان ينبغي التفكير في مثل هذه الحماقة .

- تزوجت إذن ؟ - سأل "پيرالتا" .

---

(١) بالقرب من هذه البوابة El Campo كان يسكن ثربانتس خلال الفترة التي أمضاها في مدينة بلد الوليد . (المترجم)

(٢) المَعْرَقَة في مستشفيات ذلك العصر كانت عبارة عن غرفة ضيقة مُحكمة ، بلا نوافذ ، أرضيتها من الخشب المغطى بالسجاد ، بداخلها موقد مشتعل ومضاءة بقنديل يعمل بالزيت. كان المريض يرقد فيها على سرير مفروش بألحفة صلبة وهو ملفوف بملاءات ساخنة ، كما كان يتناول دواءً يساعد على إفراز العرق. والعلاج الأمثل يتطلب مكوث المريض ثلاثين يوماً متصلة في تلك الغرفة . (المترجم)

- نعم تزوجت - ردَ "كامپوثانو" .

- إذا كان عن حب فالندم يأتى عادةً مُصاحباً له.

- لا أزعم أنه كان عن حب ، وفى المقابل أستطيع التأكيد على أنه صدَر عن جملة من الأوجاع ، هذا لأننى بزواجى أو بكلالى (٣) جلبت كثيراً منها للروح والجسد : تباريح الجسد كلفنى ترويضها أربعين جلْسة فى المعْرقة ، أما آلام الروح فلا أجد حتى علاجاً يخفف منها. وبما أن قواى المنهكة لا تتحمل نقاشًا مُطوّلاً فى الشارع أستأذنك فى الانصراف ، وفى يوم آخر سأقص عليك - بعد استردادى لبعض العافية - حكايتى العجيبة التى لم تسمع قط بمثلها.

- مادام الأمر هكذا - قال المحامى - تعال معى إلى خانى ، وهناك سنجد متسعاً من الوقت للتكفير سوياً عن خطايانا ، ورغم أن قِدْرى لا يتسع إلا لإطعام شخصين فلابد أن يفْضُل شيء من نصيب خادمى ، وإذا لم يكن هذا كافيًا فإن بعض شرائح لحم الخنزير المقدّد ستسد النقص لاسيما إذا كانت مقدمة عن طيب خاطر ، لا لهذه المرة فقط بل لما شئت من المرات.

لبى "كامپوثانو" الدعوة شاكراً. اصطحبه صديقه إلى كنيسة "سان لورينثو" لسماع القدّاس ، أخذه بعد ذلك إلى سكنه حيث قدّم له ما وعده به وزيادة ، ثم طلب منه قصّ ما جرى له بعد فراغه من الطعام لأنه متلهف لسماعه. لم يجعله "كامپوثانو" يلحف فى الطلب وشرع فى سرد حكايته على النحو التالى :

- تذكر جيداً أننى كنتُ رفيقًا فى السلاح للنقيب "پدرو إيريرا" الموجود حاليًا فى فلاندس.

- نعم أذكر - رد "پيرالتا" .

---

(٣) بين كلمتى casamiento (بمعنى زواج) و cansamiento (بمعنى تعب أو كلال) جناس ناقص ، وقد استعان الكاتب هنا بخاصية الجناس (المتمثلة فى إبراز التناقض بين معنى الكلمتين) لإضفاء مسحة التهكم والسخرية على النص . (المترجم)

– وفى أحد الأيام – تابع "كامپوثانو" حديثه – وبعد فراغنا من تناول الغداء بخان "لا سولانا" [٤] حيث نقيم دخلت امرأتان حسنتا المظهر بصحبة خادمتين : اتجهت إحداهما إلى النقيب ثم انتحت به جانباً لتحدثه فى أمرٍ ما ، وجلست الأخرى على كرسى قريب منى. كان وجه الجالسة إلى جوارى مغطى بوشاح شفاف ، ولما رجوتها بالكشف عنه ولم تستجب تنامت لدىَّ الرغبة فى رؤيته. أضاءت النار بين جوانحى حين أخرجت – والاحتمال الأرجح أنه كان متعمداً – يدها البيضاء المطوَّقة بالأساور الذهبية من تحت العباءة. كنتُ ساعتها فى أبهى صورة : مرتدياً الزى العسكرى الملوَّن ، وحول عنقى القلادة الكبيرة – وأنت تعرفها دون شك – وعلى رأسى القبعة المزينة والشريط الحريرى البرَّاق ، ولذا تخيلت أن مظهرى الرائع حرِىٌّ بلفت أنظار النساء ووقوعهن فى حبائلى. ومن منطلق هذه الثقة التى كانت تغمرنى رجوتها بالكشف عن وجهها فأجابتنى بقولها :

– لكل مقامٍ مقال ، لدىَّ بيت يمكن لغلامك معرفته إذا تبعنى ، ورغم أن شرفى أشد صوْناً مما قد توحى به هذه الإجابة فإن رغبتى فى معرفة ما إذا كانت فطنتك تطاول حسن مظهرك تضطرنى لتقديم بعض التنازلات.

قَبَّلت يدها امتناناً على المَكْرُمة التى حبَتنى بها، ووعدتها فى المقابل بالقناطير المقنطرة من الذهب. وبعد فراغ النقيب من حديثه الجانبى غادرت المرأتان الخان فأمرت خادمى بتقفى أثرهما. أخبرنى النقيب أن السيدة التى تحدثت معه كانت تريد إرسال عدة خطابات لزميل له فى فلاندس مدعية أنه ابن عمها ، وهو يعرف أنه ليس كذلك بل مجرد طالب متعة .. بقيت أنا متلظياً بنار اليد العاجية التى عاينتها ، ومدلَّها بالوجه الذى أتمنى رؤيته ، وعلى هذا فقد أرشدنى الخادم فى اليوم التالى إلى مكان بيتها. دخلت البيت دون عوائق فوجدته منمَّقاً فاخر الأثاث ووجدت امرأة فى الثلاثين من العمر ، لى بيدها سابق معرفة. لم تكن فائقة الجمال ، لكن نغمة صوتها الحالم الناعم كانت تنساب من الأذنين إلى الروح وتشيع جواً معبقاً بالألفة .. امتد

(٤) يقع خان "لا سولانا" فى شرق بلد الوليد ، ويشير النقاد إلى أن صاحبته فى عصر ثربانتس كانت تدعى "خوانا رويث" ، وأنها كانت من صنف القوادة "لا ثيليستينا". (المترجم)

معها الحوار لساعات طويلة ، وفيه تباهيت وازدهيت ، صلْت وجُلْت ، ووعدت ، وأخرجت كلٍ ما فى جعبتي كِي أتجمل فى نظرها وأخطب ودّها. لكنها لم تلتقط طُعْماً واحداً من طعومى وكأنها محصّنة بجرعة من الأمصال المضادة لمثل تلك المداهنات والوعود أو لما هو أشد منها فتْكاً. خلاصة القول أن محاولاتى المتكررة التى استمرت على مدار زياراتى الأربع لها ذهبت أدراج الرياح ولم أنعم فى النهاية باقتطاف الثمرة المرجوة.

لفت انتباهى خلال زياراتى الأربع أن البيت بلا رقيب وخالٍ من القيود: لم أرَ فيه صديقة لها ولا حتى قريباً مزيفاً. كانت تقوم على خدمتها فتاة أقرب إلى الدهاء منها إلى السذاجة . ولأننى جندى على أهبة الاستعداد الدائم للرحيل حين ينادى المنادى فقد حثثت "دونيا استيفانيّا" (وهذا هو اسم تلك السيدة) كى تعجل بالمراد ، لكنها قالت لى : "أيها الملازم "كامبوثانو" ، من البلاهة الادعاء بأننى قديسة . كانت لى زلأتى دون شك ، ومازلت متلبسة بإحداها معك ، لكنها لم تصل إلى الحد الذى تلوك فيه ألسن الجيران سيرتى أو يلاحظها البعيدون عنى. لم أرِث قطْميراً من أب أو قريب ، ورغم هذا فأثاث دارى ومتاعها يقدران - إن حسن التقدير - بألفين وخمسمائة إسكودو ، لا يستغرق تحويلها إلى نقود سائلة سوى الوقت اللازم لعرض تلك المنقولات للبيع. بهذه الثروة أبحث عن زوج أكون طوْع بنانه ، أخدمه بعينيّ وألبى كافة طلباته ، إذ لا يوجد فى طول البلاد وعرضها طبّاخ - حتى لو كان لأمير - يمكنه الطهى وإعداد الوجبات اللذيذة والشهية مثلى. أنا فى البيت قهرمانة ، وفى المطبخ خادمة ماهرة ، وفى الصالون إحدى الهوانم ، هذا لأنى أعرف حقاً كيف ألقى بالأوامر وأجعل الآخرين يطيعونها. لا أزدرى القليل ، ومن الكثير أدخر ، والريال فى يدى ذو قيمة لاسيما إذا أُنفق بمعرفتى ، ملابسى البيضاء لا تحصى ولا تعد وذات جودة عالية ، لم ابتاعها من حانوت أو نسّاج لأن أناملى هى التى غزلتها بمعاونة خادماتى. أمّا عن الحياكة فحدّث ولا حرج لأننى خير منْ تقوم بهذه المهمة. لقد أثنيت على نفسى بهذه الأشياء حتى لا يكون هناك داعٍ للذم حين تضطرنى الظروف لقولها. أنا - باختصار - أبحث عن زوجٍ يحمينى ويسترنى ، يأمرنى ويصون شرفى ، ولست بحاجة لمغازل يغمرنى فى البداية بخدماته ثم يتركنى ملومة

محسورة. لو أردت قبول هذا العرض فأنا رهن الإشارة ، أنا لست للبيع، ولن أهب نفسى إلا لمن يختارنى زوجة ، ومنْ يفعل هذا لنْ يندم عليه مادام مستعداً لتقدير مواهبى ولانقيادى التام له" .

لم يكن عقلى وقتئذٍ فى رأسى بل فى عَقِبى ، والسبب فى ذلك نشوة المتعة المتخيلة وأثاث البيت المتحول فى ذاكرتى إلى نقود سائلة ، ولأمور أخرى تثير الشهية. كل هذا شوّش إدراكى وأفقدنى السيطرة على لسانى فقلت لها : أنا المحظوظ الذى أنعمت عليه السماء - فيما يشبه المعجزة - بتلك الرفيقة كى أملّكها زمامى وثروتى ، وهى ليست بالشيء الهين حتى لا تساوى - بالقلادة المتدلية من عنقى والتحف والحلىّ المخزونة بصندوقى ، والحلل العسكرية التى يمكن الاستغناء عنها - ألفى إسكودو ، وهما بالإضافة إلى الألفين وخمسمائة الإسكودو خاصتها يعتبران مبلغًا لا بأس به للعيش فى إحدى القرى حيث نشأت وترعرعت وتمتد جذورى ، إذ إننا بالترشيد فى الإنفاق وبمزاولة التجارة فى الفواكه الموسمية يمكننا أن ننعم بحياة رغدة مطمئنة. المهم أننا اتفقنا فى الزيارة الأخيرة على الزواج ، تم إشهار رغبتنا فى الكنيسة لمدة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع تزوجنا فى حضور صديقين لى وشاب ادّعت أنه ابن عمها توددت إليه بكلمات معسولة مهذبة - وإن كانت عارية عن الإخلاص - مثلما كنت أفعل فى كل تعاملاتى مع زوجتى الجديدة ، ولا أجدنى مضطراً لإماطة اللثام عن مضمون سوء النية لأنى لست على كرسى الاعتراف حتى أبوح بما فى صدرى كله .

نقل الخادم صندوقى من الخان إلى بيت زوجتى ، وقبل غلْقه أمامها على قلادتى الرائعة أريتها ثلاث أو أربع حلىّ أصغر حجماً لكنها فائقة الصُنْع ، هذا بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة شرائط حريرية مزدانة بفصوص برّاقة ، كما أظهرت لها الحلل العسكرية وريش القبعة الملون ، سلّمتها بعد ذلك أربعمائة ريال التى كانت معى للإنفاق على البيت. تذوقت عسل الزواج وطعمته لمدة ستة أيام عشت فيها متوسعاً غير مبالٍ كأننى الصهر البخيل الدنيء فى بيت حمويه الغنيين (٥) .

---

(٥) يُطلق هذا المثل (مثل الصهر البخيل الدنيء ...) على كل من يُسرف فى مال الغير وينفق منه بلا حساب غير مبالٍ بالعواقب . (المترجم)

دُست على البُسط الوثيرة ، وأتلفت الملاءات الهولندية ، ولم أقنع فى الإضاءة لنفسى بغير الشمعدانات الفضية. كنت أصحو من النوم فى الحادية عشرة ، أتناول فطورى فى السرير ، وفى الثانية عشرة يحين موعد الغداء ، وفى الثانية بعد الظهر أمضى القيلولة مستلقياً على زرابى ووسائد قاعة الاستقبال. كانت زوجتى والخادمة تستبقان لتلبية طلباتى ، وتعملان بجدٍ واجتهادٍ من أجل راحتى . أما غلامى الذى عهدته أخرق كسولاً فقد تحول إلى شعلة من النشاط. حين أتلمّس "استيفانيا" ولا أجدها إلى جوارى تكون فى المطبخ منهمكة فى إعداد الأطعمة اللذيذة الشهية. ملابسى - بما فيها القمصان والياقات والمناديل - كانت فى عبقها مثل روضة من الزهور ، هذا لأنها كانت تغسل بالماء المعطّر وترش بالرياحين.

مرّت هذه الأيام سراعاً مثلما تمر السنوات الخاضعة لقانون الزمن ، وفيها - نتيجة للراحة المطلقة والخدمة الممتازة - أخذت تتحول النوايا الخبيثة التى بدأت بها هذا المشروع إلى أخرى طاهرة نبيلة . وفى اليوم السادس والأخير ، وكنا ما نزال فى السرير ، سمعت طرقات عنيفة على باب البيت. أطلّت الخادمة من النافذة ثم انسحبت على الفور وهى تقول:

- رباه ، إنها هى ! لمَ عادت قبل الموعد المحدد فى رسالتها الأخيرة ؟

- منْ الذى جاء ، أيتها الفتاة ؟ - سألتها .

- ومن سيكون غيرها ؟ - ردت الخادمة - إنها سيدتى "دونيا كليمنتا بويسو" ومعها "دون لو پى ميليندث" وخادمان والقهرمانة "أورتيجوسا" .

- هلمى يافتاة وافتحى لهم الباب - قالت إستيفانيا -، وأنتَ ياسيدى - موجهة كلامها لى - أستحلفك بحبى أن تلزم الهدوء ولا تنفعل إذا سمعت شيئاً ضدى ولا ترد عليه بدلاً منى.

- منْ هذا الذى يجرؤ على التطاول عليكِ فى حضرتى ؟ أخبرينى : من هؤلاء القوم الذين أقلقكِ مجيئهم حسبما أرى ؟

- الوقت لا يتسع للرد على تساؤلاتك ، ومع هذا أقول لك إن ما سيحدث الآن مجرد تمثيلية متفق عليها من قبل ، سأشرح لك تفاصيلها فيما بعد .

ورغم أنى كنت متحفزاً للرد عليها إلا إن دخول "دونيا كليمنتا" الصالة ألقمنى حجراً. كانت ترتدى فستاناً أخضر من الحرير الأملس المصقول وموشّى بقياطين مذهبة ، ومعطفاً من قماشة الفستان ومزخرفاً مثله ، وقبعة مرصعة بفصوص ذهبية برّاقة ومتوّجة بريش متعدد الألوان ، وطرْحة رقيقة متدلية حتى منتصف وجهها. دخل معها "دون لو پى ميليندث دى ألميندارس" وكان لا يقل عنها وجاهة و"شياكة" فى لباس السفر المزركش . كانت القهرمانة "أورتيجوسا" هى البادئة بالحديث :

- سترك يارب ! فراش سيدتى "دونيا كليمنتا" مشغول ، وبرجل ؟ شىء لا يحتمل التصديق ! أراهن على أن السيدة "إستيفانيا" أحسنت الاستفادة من صداقة سيدتى لها.

- الذنب ذنبى يا "أورتيجوسا" - قالت "دونيا كليمنتا" - أعدك بألا أعذب نفسى من اليوم باتخاذ صديقات لا يعرفن من معانى الصداقة سوى ما يتفق مع مصالحهن.

على كل ما تقدم لم ترد "إستيفانيا" إلا بما يلى :

- هوّنى عليكِ يا "دونيا كليمنتا" ، ولا تحملى ما رأيته الآن فى دارك على محمل سوء لأنك عندما تعرفين منى حيثياته ستلتمسين لى العذر بالتأكيد وسيزول باعث الشكوى لديك.

فى تلك الأثناء كنت قد ارتديت على عجل السروال والقميص فأخذتنى "إستيفانيا" من يدى وجرجرتنى إلى غرفة مجاورة ، وهناك أخبرتنى أن صديقتها تلك تريد - من خلال كذبة بيضاء - الزواج من "دون لو پى" القادم معها ، وتكمن الكذبة فى أنها تحاول إفهامه أن الدار وما فيها من متاع يخصّانها وسيكونان - بالتالى - مهرها المقدّم إليه ، وبما أنها واثقة من شدة هيامه بها فلن يفكر فى طلاقها عند اكتشاف الخدعة .

- سَتردّ إلىّ بعد الزواج مباشرة ممتلكاتى كلها، ولن يعيبها بعد ذلك - لا هى ولا أية امرأة أخرى - استعانتها بأية وسيلة من وسائل الخداع من أجل الظفر بزوج محترم.

أخبرتها عندئذ بأن ما تنوى عمله لا يندرج تحت أى بند من بنود الصداقة ، وأن عليها التفكير جيداً فيما هى مقدمة عليه لأنها ربما تحتاج بعد ذلك للشرطة والقضاء لاسترداد ما سلب منها ، لكنها ردت علىّ بآلاف التعلات وأفاضت فى تعداد مناقب "دونيا كليمنتا" وفضائلها. لم أجد بداً فى النهاية - رغم استيائى وكدرى - من الرضوخ لـ "استيفانيا" التى حاولت جبر خاطرى بقولها إن الخدعة لن تزيد مدتها عن ثمانية أيام سنحل فيها ضيوفاً على بيت صديقة أخرى لها. أكملنا ارتداء ملابسنا، وفى أثناء دخولها لوداع "دونيا كليمنتا بويسو" و" دون لو پى ميليندث دى ألميندارس" أمرت خادمى بشحن الصندوق والسير خلف "إستيفانيا" التى تبعتها أيضاً دون وداع أحد.

حين وصلنا إلى بيت صديقتها دخلتْ بمفردها وتركتنا - أنا والخادم - أمام الباب، انتظرنا وقتاً طويلاً وفى نهايته خرجت إلينا خادمة وأذنت لنا بالدخول ثم اصطحبتنا إلى غرفة ضيقة بها سريران يبدوان - من شدة تجاورهما وتلامس ملاءتيهما - وكأنهما سرير واحد.

أمضينا بالفعل ستة أيام فى ذلك البيت (٦) ، لكنها كانت مشحونة بالشّجار المستمر: إذ لم تكن تمر ساعة دون أن ألقى على مسامعها باللّوْم ووصف ما أقدمت عليه - حتى لو كان لأمها - بالحمق.

ولما كنت أعيد هذا الكلام وأكرره فى الرواح والمجيء فقد انتهزت صاحبة البيت فرصة خروج "إستيفانيا" (للنظر - حسبما أخبرتنى - فيما انتهى إليه أمر صفقتها) وأرادت الوقوف على سبب الشّجار المستمر معها ، ومعرفة الخطأ الذى ارتكبته حتى أصفه بالحمق. شرعت فى قص الحكاية كاملة عليها، وما إن وصلت إلى الحديث عن زواجى من "دونيا إستيفانيا" والمهر الذى قدمته لى ، وعن سذاجتها فى ترْك دارها لدونيا كليمنتا حتى لو كان من أجل غاية سامية مثل الزواج من "دون لو پى" حتى

(٦) يبدو أن المؤلف قد أخطأ فى تقدير عدد الأيام التى أمضتها "دونيا استيفانيا" وزوجها فى بيت صديقتها الثانية : ففى الفقرة السابقة ورد ما يفيد بأنهما سيتركان البيت الذى تزوجا فيه لمدة ثمانية أيام فقط ، ورغم هذا يقول المؤلف هنا على لسان بطله : "أمضينا بالفعل ستة أيام فى ذلك البيت (أى بيت الصديقة الثانية)" ، والمفروض أن يقول : "أمضينا بالفعل ثمانية أيام ..." (المترجم)

أخذت تشير على نفسها بعلامة الصليب مرات عديدة وهى تقول : "أعوذ بالله من شر تلك الأنثى وخبثها" ، وعندئذ تملكنى الفزع. قالت لى بعد ذلك :

- سيدى الملازم ، لستُ متيقنة مما إذا كان مُخالفاً للضمير التصدى بالكشف عما يبدو أن السكوت عنه خطيئة ، ومهما تباينت وجهات النظر فى هذا الشأن فليس أمامى من خيار سوى الانحياز للمبدأ القائل : فلتحيَ الحقيقة ، والموت للكذب والخداع ! وانطلاقاً من هذه القاعدة أقول إن "دونيا كليمنتا" هى المالكة الحقيقية للبيت ، ولما يضم من أثاث : أى لما قدم لك على أنه مهر ، أما ما أخبرتك به "دونيا إستيفانيا" فهو الكذب بعينه إذ إنها لا تملك داراً ولا متاعاً ولا لباساً غير الذى عليها. عندما أزمعت "دونيا كليمنتا" القيام برحلة طويلة لزيارة أقاربها فى "پالنثيا" والحج إلى "نويسترا سنيورا دى جوادالو پى" وفاءً لما عليها من نذر أوصت "دونيا إستيفانيا" - لأنهما حقًا صديقتان حميمتان - بالعناية بدارها فى أثناء غيابها ؛ وإذا كانت "دونيا إستيفانيا" قد استغلت الفرصة للزواج بشخص محترم مثل السيد الملازم فلا تثريب عليها فى ذلك لأن الغاية كانت شريفة.

وما إن فرغت من كلامها هذا حتى بدأتُ أشعر بسريان القنوط فى أوصالى ، ولو لم يدركنى ملاكى الحارس بإثارة عاطفتى الدينية والإيحاء لى بأن اليأس معصية مغلظة لما يحويه من شر مستطير لكنت فى عداد الهالكين دون شك . لقد خفّف هذا الهاجس المحمود من قنوطى بعض الشىء وإن كان لم يصل إلى الحد الذى يمنعنى من التقاط عباءتى وسيفى والخروج للبحث عن "إستيفانيا" بنيّة جعلها عبرة لمنْ لا يعتبر. شاءت الأقدار - ولا أدرى إن كان من قبيل حسن الطالع أم سوء الحظ - ألا أعثر على "إستيفانيا" فى أى مكان حسبتها فيه ، ولما أعيانى البحث حملتنى قدماى إلى كنيسة "سان لورينثو" ، وأمام صورة العذراء جلست على مقعد لأشكو لها همَى ، ومن شدة الكآبة استغرقت فى نوم لم أكن سأفيق منه فى القريب العاجل لو لم يوقظونى.

ذهبت مثقلا بالأفكار والهموم إلى "دونيا كليمنتا" فوجدتها متربعة على عرش بيتها ، لم يطاوعنى لسانى على مفاتحتها فى الموضوع و "دون لو پى"جالسًا إلى

جوارها ، عُدت أدراجي إلى بيت مضيفتى فأخبرتنى أن "إستيفانيا" رجعت أثناء غيابى وعرفت منها أننى اكتشفت الخدعة ، وأنها سألتهاعن حالتى بعدها فحكت لها عن اكفهرار وجهى وخروجى المنذر بالشر - حسبما اعتقدتْ - للبحث عنها. قالت لى فى النهاية إن "دونيا إستيفانيا" حين سمعت هذا منها أخذت محتويات الصندوق ولم تترك لى غير لباس السفر ثم فرّت هاربة.

- وهكذا أصبحت "على الحديدة" . اقتربت من الصندوق فوجدته مفتوحاً مثل حفرة تنتظر جثة ميت، كنتُ أنا صاحبها على الأرجح لو كنت متمتعًا بإدراك قادر على الإحساس بحجم المصيبة وتقدير أبعادها.

- إنها بلا شك عظيمة - تكلم عندئذ المحامى" پيرالتا" - لو أخذنا فى الحسبان كمّ الحلىّ و "الإكسسوارات" التى هربت بها "دونيا إستيفانيا" ، وقد كانت - كما يقال - كل ما يحويه الجِراب.

- لم يحزننى إطلاقاً ضياع هذه الأشياء التى ينطبق عليها المثل القائل : "ماذا ستأخذ الريح من البلاط ؟ !" .

- ماذا تقصد بهذا المثل ؟ سأل "پيرالتا" .

- أقصد أن الكمّ الهائل من الحلىّ و"الإكسسوارات" لا يساوى أكثر من عشرة إسكودو أو اثنى عشر على أقصى تقدير.

- هذا مستحيل لأن ما كان السيد الملازم يحمله على عنقه فقط يزن - فى عين الرائى - ما لا يقل عن مائتى دوكادوس .

- ما حسبته قد يكون صحيحاً لو أن الحقائق تأتى عادة مطابقة للظواهر ، وبما أنه ليس ذهباً كل ما يلمع فإن القلادة الضخمة والشرائط البراقة وسائر الحلى الأخرى لم يشكون يومًا من معدنهن المصطنع ، لقد كانت محكمة التقليد بحيث لا تبوح بأسرارها إلا للمسة خبير أو لوهج النيران.

- لقد خرجتما متعادين إذن فى سباق الخداع الذى اشتركتما فيه.

- بل ومتعادلين بجدارة لأن النتيجة لم تكن ستتغير مهما وُزِّعت الأدوار بيننا من جديد ، ورغم هذا فإن مصدر تعاستى يكمن فى أنها تستطيع التخلص

فى أى وقت تشاء من حاجياتى المغشوشة بينما لا أستطيع - فى المقابل - التخلص مطلقًا من زيف نواياها ، وما يلتصق بجسد الإنسان كالرداء يؤذى حقاً.

- احمد ربنا ياسيد "كامپوثانو" أنها كانت رداءً برجلين ، انقشعت عنك ، ولست مضطراً للبحث عنها.

- معك حق ، لكنى رغم هذا ودون البحث عنها أجدها معششة فى خيالى أينما حللت ، ومن ثمّ فالإهانة ماثلة دوماً أمامى.

- لا أجد ما أرد به عليك سوى هذين البيتين للشاعر "بترارك" :

إذا كنتَ مُولعاً بإيذاء الآخرين وخداعهم
فلا تضج بالشكوى إن أصابتك بعض سهامهم.

- أنا لا أشكو ، بل أتوجع لأن عدم اعتراف المذنب بذنبه لا يستوجب فقدانه الإحساس بألم العقاب. أعرف أننى أردت الخداع فصرت مخدوعًا ، وأننى جرحت نفسى بحد السيف الذى سللته لطعن غيرى ، لكن معرفتى تلك لا تفيد فى تحييد إحساسى بالمرارة. ولكى أضع اللمسات الأخيرة على النهاية المفجعة لقصتى أقول إننى عرفت أن "إستيفانيا" هربت مع الشاب الذى حضر حفل زفافنا على أنه ابن عمها ، وإن كان قد تبين أنه عشيقها منذ أمد بعيد ، وبالطبع فقد أقعدنى الاكتشاف الأخير عن البحث عنها حتى لا أعثر على خزى جديد أُثقل به همّى. بدّلت بعدها خانى القديم ، ومعه تبدلت أيضاً سحنتى بسقوط الأهداب والحاجبين ، وشيئاً فشيئاً أخذ يتساقط شعر رأسى لأصبح أصلعَ قبل الأوان (وهذا النوع من المرض يطلقون عليه "لوپيثيا") . وهكذا وجدتنى حليقًا من كل شىء : لا لحية أمشطها ، ولا مالاً أنفقه. كان المرض يتسارع على إيقاع خطوات عوزى ، ولما كان الفقر يدهس الشرف ويحمل أصحابه إما إلى حبل المشنقة أو إلى عنابر المستشفيات أو إلى الاستجداء فى مذلة وهوان على أبواب الأعداء ، فإنه يعتبر من أقسى أنواع العذاب التى يمكن أن تصيب تعساء الحظ. ولكى لا أنفق فى العلاج الملابس التى ستستر جسدى حال الصحة فقد انتهزت

فرصة فتح مستشفى المواساة لأبوابها ودخلت لأتلقى أربعين جلسة فى المعْرقة. يقولون إننى سأسترد العافية لو حافظت على نفسى ، لم يعد أمامى غير السيف الذى أملكه ، أما الباقى فأمره موكول إلى ربّ العزّة.

أبدى المحامى عجبه من جديد ، وأخذ يضرب كفاً بكفٍ .

- هوّن عليك ياسيد "پيرالتا" وادخر عجبك لما هو آتٍ ، فمازالت جعبتى تحوى أموراً تفوق كل تصورٍ لأنها تتجاوز المألوف وتتعدى نواميس الطبيعة، وإذا كانوا يقولون "ربَّ ضارة نافعة" فإن أحداثى البائسة قد أفادتنى فى دخول المستشفى لأرى ما سأقصه عليك ، ولن تصدقه ، لا أنت ، ولا غيرك.

حين سمع "پيرالتا" هذه المقدمة الملتهبة تأججت رغبته فى معرفة الأمور المدهشة التى رآها الملازم ، ومن ثمّ فقد طلب منه - بحرارة مماثلة - قصّها عليه فى الحال.

- أظنك قد رأيتِ الكلبين اللذين يحملان فانوسين ويسيران ليلاً مع الأخوين "كا پاتشا" ليضيئا لهما الطريق وهما يتسولان.

- نعم رأيتهما - أجاب "پيرالتا" .

- ورأيت أيضاً أو سمعت أنهما يبحثان فى ضوء الفانوسين عن الصدقات التى يلقيها الناس من النوافذ على الأرض ، وأنهما يقفان - دون أمر - أمام البيوت التى اعتاد قاطنوها التصدّق على الأخوين ، وأنهما وديعان مثل حملين فى رحلات التسوّل ؛ لكنهما ينقلبان إلى وحشين كاسرين فى حراسة المستشفى.

- سمعت هذا أيضاً ، لكنه لا يدعو إلى الدهشة ولاينتمى لخوارق العادات.

- لكن ما سأرويه عنهما الآن أكثر من كافٍ لإثارة عجبك ، ودون اللجوء إلى الإشارة بعلامة الصليب أو فقدان الاتزان أرجو منك تهيئة النفس لقبوله : لقد رأيت بعينى رأسى هاتين - فى ليلتى قبل الأخيرة بالمستشفى - الكلبين (وأحدهما يسمى "ثيپيون" والآخر "بيرجانثا") مستلقيين خلف

سريرى فى سلتين قديمتين ، وفى منتصف تلك الليلة - بينما كنتُ مستيقظاً فى الظلام أفكر فى أرزائى الماضية ونكبتى الحاضرة - سمعت كلاماً على مقربة منى ، أرهفت السمع لالتقاط الكلام ومعرفة مصدره ، وما هى إلا لحظات معدودات حتى تأكدت من أن المتحدثيْن هما "ثيپيون" و "بيرجانثا" .

وما إن فرغ "كامپوثانو" من كلامه السابق حتى نهض المحامى "پيرالتا" ثم أخذ يضرب كفاً بكفٍ وهو يقول :

- تصبح على خير ياسيد "كامپوثانو" ، لقد كنت حتى هذه اللحظة متردداً بين تصديق وإنكار ما قصصته على بشأنِ زواجك ، لكن ما تأتينى به الآن يضطرنى لعدم الاعتقاد فى كلمة واحدة تفوهت بها. بالله عليك لا تقصص هذه الترهات على أى شخص إلا إذا كان صديقاً حميماً لك ، مثلى .

- أتظننى جاهلاً أحمق حتى لا أعرف أن الحيوانات لا تتكلم إلا إذا كان الأمر يتعلق بمعجزة من المعجزات ، صحيح أن الببغاوات والعقاعق تردد بعض الكلمات لكن دون وعىٍ أو فهْم ، أمّا ما حدث أمامى فيختلف تماماً لأنه صدر عن إدراك وفهم عميقين. أنا نفسى لم أصدق فى البداية وتصورت أننى أحلم رغم استيقاظى التام وصحْوة الحواس الخمس التى أنعم بها الخالق علىّ.لقد أنصت كثيراً وسمعت وتأملت، وفى النهاية دونت حديثهما بالحرف الواحد ، وهذه كلها مؤشرات ودلائل كافية لحملك على الاقتناع بصدق ما أقول. وعلاوة على ما تقدم فإن الموضوعات التى خاض فيها الكلبان متنوعة وخطيرة ولا تجرى إلا على ألسنة الفلاسفة والراسخين فى العلم ، وأنا بالطبع لست منهم ، ولذا أجدنى مرغماً على الاعتراف بأننى لم أكن أحلم ، وأن الكلام الذى سمعته من الكلبين حقيقة لاشية فيها.

- ياللهول ! هل عاد إلينا من جديد زمن "ماريكا ستانيا" الذى تكلم فيه القرْع، أو زمن "إيسوب" الذى تحدث فيه - فضلاً عن حيوانات أخرى - الديك مع الثعلبة ؟

- سأكونِ بالفعل أحمق لو اعتقدت فى عودة تلك الأزمان الغابرة ، ولن أكون أقل حمقًا لو أنكرت ما رأته عيناى ، وسمعته أذناى ، وما أنا على استعداد للحلف عليه بأيمان تُعيد الكافر إلى حظيرة الإيمان. وعلى فرضِ أننى خُدعت ، وأن حقيقتى مجرد وهْم ، وأن إلحاحى عليها ضرب من الشطط ، فما قولك أيها المحامى إذا رأيت حديث الكلبين مدوناً بخط يدى ؟

- بما أنك مُصرّ على إقناعى فلا مناص من الاستماع عن طيب خاطر لهذا الحديث الذى أتوقع جودته طالما كان صادراً عن عبقرية السيد الملازم ومُدَوّنًا بيَرَاعه .

- ثمة شىء آخر جدير بالتنويه - قال الملازم - وهو أن الكلام الذى ستقرؤه يُعتبر تسجيلاً حرفيا لما تفوّه به الكلبان ، ولذا ستجده عارياً عن الزخارف اللفظية والصور البيانية ، هذا لأننى كنتُ صافى الذاكرة منتبه العقل (نتيجة لما أكلته من زبيب ولوز) وتمكنت من نقل كلماتهما دون زيادة أو نقصان ، ولم أعمد بعد ذلك إلى توشيتها بالألوان البلاغية لإضفاء مِسحة الجمال على الأسلوب. لقد استمر حديث الكلبين ليلتين متتابعتين ، ورغم أنى لم أسجل سوى ما دار بينهما فى الليلة الأولى والخاص بحياة "بيرجانثا" فمازالت تراودنى فكرة تسجيل قصة حياة " ثيبيون" (التى كانت موضوع حديث الليلة الثانية) . أمّا ما كتبته فهو مخبوء فى عبّى ، وقد وضعته فى شكل حوار بهدف التخلص من تكرارِ : قال ثيبيون وأجاب بيرجانثا لأن هذا التكرار يُطيل الوقت ويزيد من عدد الصفحات .

وقبل إكماله لعبارته السابقة أخرج من عبّه دفتراً وناوله للمحامى فالتقطه الأخير ضاحكاً ، كأنه يسخر من كل ما سمعه ومما هو مُقْبل على قراءته.

- سأضطجع على هذا الكرسى - قال الملازم - لحين فراغك من هذه التُرّهات أو أحلام اليقظة التى لا تحوى بين جنبيها سوى ميزة القدرة على التحرر منها حينما تثير غضبك.

– افعلْ ما يحلو لك – ردَّ "پيرالتا" – لأننى سأنتهى منها قبل أن يرتد إليكَ طَرْفُك.

اضطجع الملازم ، فتح المحامى الدفتر لتطالع عيناه العنوان التالى على الصفحة الأولى :

***

حوار الكلبين

الحوار الذى دار بين ثيـپيون وبيرجانثا،
كلبى حراسة مستشفى المواساة، الواقعة
خارج أسوار بلد الوليد، بالقرب من بوّابة
الكامپو ، وهما المعروفان بالمسمى الشائع:
كلبا "ما هو ديس" .

ثيـپيون : لندع المستشفى هذه الليلة فى حراسة العناية الإلهية، وهيا بنا يا صديقى بيرجانثا ننتحى جانباً بين هذه السّلال للتمتع بنعمة الكلام التى أكرمتنا بها السماء .

بيرجانثا : لا أصدق يا أخى ثيـپيون ما يدور الآن بيننا لأنه يتنافى مع النواميس الكونية .

ثيـپيون : صدقت يا بيرجانثا، ومما يُعلي من شأن هذا الإعجاز أننا نتحدث بوعى كأننا مزودان بنعمة العقل التى تعتبر الفارق الأساسى بين الإنسان والبهائم.

بيرجانثا : رغم سماعى فيما انصرم من حياتى عن ميزاتنا العديدة، ومنها قدرتنا على نوع من الفهم والإدراك المحدودين، فإن حديثك الحالى وفهمى لما تقول يثير دهشتى واستغرابى.

ثيـپيون : جل ما سمعته فى الثناء علينا يتمثل فى الإشادة بذاكرتنا القوية ووفائنا وامتناننا لما يسدى إلينا من معروف، وهم يبالغون فى ذلك لدرجة أنهم يجعلوننا رمزاً للصداقة الحقة ، وهكذا فربما شاهدت - ولو مرة - أنهم حين يدفنون رجلاً وزوجته فى نعشٍ من الرخام الأبيض لا ينسون وضع تمثال كلب بينهما، رمزاً إلى ما كان بينهما فى الحياة من وفاء وإخلاص شديدين.

بيرجانثا : لا يغيبِ عنِ بالى أن هناك كلاباً فى غاية الوفاء والامتنان لأصحابها، إذ يوجد منْ يلقى بنفسه إلى جوار جثة سيده فى النعش، ومن يظل رابضاً

أمام قبره، لا يفارقه حتى يقضى نحبه جوعاً . ولست أجهل أن الفيل يتمتع بأكبر قسط من الفهم بين سائر الحيوانات ، ومن بعده يأتى الكلب ثم الحصان، وأخيراً القرد .

ثيپيون : ورغم هذا لا تملك سوى الاعتراف بأن الحيوانات التى ذكرتها لم يسبق لها الحديث ، ومن ثَمّ فإن كلامنا الحالى يندرج تحت بند المعجزة التى يشير ظهورها – كما أثبتت التجارب – إلى قرب وقوع كارثة .

بيرجانثا : كلامك هذا يجعلنى أسترجع ما سمعته منذ عدة أيام من طالب علم بجامعة "قلعة هنارس" .

ثيپيون : وماذا سمعت منه ؟

بيرجانثا : إنه من بين خمسة آسلاف طالب الذين يدرسون هذا العام بالجامعة المذكورة يوجد ألفان متخصصان فى الطب .

ثيپيون : وما دلالة ذلك ؟

بيرجانثا : إن هؤلاء الطلاب سيجدون بعد تخرجهم مرضى يداوونهم (ولن يتأتى هذا إلا فى حالة التعرض لوباء عام) أو إنهم سيقضون نحبهم جوعاً، ومما لاشك فيه أن كلا الأمرين يعتبر كارثة بكل المقاييس .

ثيپيون : سواء كان أمر حديثنا من قبيل المعجزة أو لا فإنه واقع ملموس، وإذا كان قضاء السماء لا يمكن تفاديه ولا حيلة لمخلوق فيه فلا داعى إذن للدخول فى نقاش حول كيفيته وأسبابه، بل انتهاز الفرصة وقضاء هذه الليلة المباركة بطولها – دون نوم – فى تجاذب أطراف الحديث الذى حلمت به خلال ردح طويل من الزمن .

بيرجانثا : وأنا أيضاً تملكتنى – منذ أن دبّت فى أوصالى القدرة على قرض العظام – الرغبة فى الكلام لإماطة اللثام عن الأشياء المختزنة فى ذاكرتى قبل أن يعلوها الصدأ أو يطويها النسيان . وبما أننى مزوّد الآن بهذه المنّة الإلهية فأنا جدّ راغب فى الاستمتاع بها واهتبال الفرصة قدر المستطاع

للإفصاح بسرعة عما أتذكره حتى لو كان مشوشاً ودون ترتيب لأننى لا أعلم متى ستنفك عنى هذه الخاصية المستعارة .

ثيـپيون : ما دام الأمر هكذا فهيا أخبرنى بقصة حياتك وما تعرضت له من أحداث حتى هذه اللحظة ، وفى الليلة المقبلة أعدك - إن ظللنا هكذا قادرين على الكلام - بسرد حكايتى عليك، فمن الأفضل تمضية الوقت مشغولين بحياتنا الخاصة بدلاً من التلصص على حيوات الآخرين .

بيرجانثا : لقد اعتبرتك دائماً صديقاً عزيزاً وقدرت فيك ذكاءك وفطنتك، وها أنت كصديق تريد أن تخبرنى بسيرتك الذاتية وتسمع منى حكايتى، وقد هدتك فطنتك إلى تقسيم الوقت اللازم لذلك مناصفة بيننا، لكنى أرجوك بالنظر- قبل البدء - فيما حولك للتأكد من خلوّ المكان من غريب يسترق إلينا السمع .

ثيـپيون: المكان خالٍ، اللهم إلا من ذلك الملازم الذى أخذ جلسة فى المَعْرقة وأظن أن حاجته إلى النوم أظهر من قدرته على الاستيقاظ لسماع ما يدور حوله.

بيرجانثا : ما دمت متأكداً من ذلك تهيأ إذن لسماعى، وإذا سئمت ما أقول فما عليك إلا أن تنهرنى أو تأمرنى بالكف عن الكلام .

ثيـپيون : أنا جدّ مشتاق لسماعك، ولن أقاطعك إلا إذا دعت الضرورة لذلك، فهيًا أتحفنى بما طاب لك إلى أن تشرق الشمس أو ينتبه لوجودنا أحد .

بيرجانثا : يُخيّل إلىّ أننى رأيت الشمس لأول مرة فى مجزر إشبيلية الواقع خارج بوّابة "لاكارنى" (١) ، ولذا أظن أن أبوىّ كانا من كلاب الدرْواس الكبيرة الموجودة لدى جزارى تلك المنطقة . أول واحد خدمت عنده كان يدعى "نيقولاس الرُومو" ، وهو فتى ربْعة متين البنيان ، غضوب مثل زملائه

(١) أشار المؤرخون إلى وجود هذه البوابة فى إشبيلية ، وقد أطلق عليها هذا المسمى (لاكارنى: La Carne بمعنى اللحم) لأن لحوم المجزر جميعها كانت تنقل عن طريقها للتوزيع على الملاحم الموجودة داخل المدينة . (المترجم)

فى المهنة . دربنى "نيقولاس" هذا ، مع جِراء آخرين ، لمساعدة الكلاب المسنّة فى تطويق الثيران والقبض عليها من آذانها ، وبعد فترة وجيزة أصبحت كالعقاب فى هذا المضمار .

ثيبيون : لا يدهشنى نبوغك فى هذا المجال لأن كل كائن حى لا يلد إلا شبيهه .

بيرجانثا : لا أدرى من أين أبدأ لأقص عليك يا أخى ثيبيون الوقائع المثيرة التى عاينتها فى ذلك المجزر: وأول ما يسترعى الانتباه أن العاملين فيه – من الصغير إلى الكبير – أصحاب ذمم واسعة وقلوب متحجرة، فهم لا يخشون ملكًا ولا عدالة، وأغلبهم يعاشر امرأة فى الحرام ، إنهم مثل الطيور الجارحة فى السلب والنهب، معيشتهم – هم وخليلاتهم – تعتمد بصفة أساسية على حصيلِة ما يسرقون . أصبحتهم كلها لحم فى لحم، لا يكاد يبزغ النهار حتى يفِد عدد كبير من النِّسْوة والفتيانِ إلى المجزر بأوعية فارغة لكى يعودوا منه وهى مكتظة بقطع اللحم ومتونٍ شبه كاملة . لا تُذبح رأس دون أن يسطوا على عُشر ما لذّ وطاب من لحمها . ولأن إشبيلية تخلو من جهاز للرقابة على الذبح فكل واحد يمكنه إحضار ما يريد من الماشية – سليمة كانت أو مريضة – وبهذا الشكل توجد دائماً وفرة فى اللحوم . وبالطبع فإن أصحاب المواشى يعهدون بها إلى هؤلاء الجزارين لذبحها وسلخها وتقطيعها شرائحَ وتشذيبها، لا لسرقتها كما يحدث . ما أثار حقاً عجبى واشمئزازى من هؤلاء الجزارين هو عدم تفرقتهم فى القتل بين الإنسان والحيوان، فهم لا يتورعون – ولأتفه الأسباب – عن إغماد سكينهم الطويل الحاد فى بطن أىّ شخص وكأنهم يجهزون على ثور . لا يكاد يمر يوم دون عراك وجروح ، وربما سقوط قتلى؛ يتقمصون أدوار الشجاعة رغم أنهم مجردِ أوغاد وقوّادين، ومن ميدان " سان فرانثيسكو " لا يعدم الواحد منهم الظِّفر بخليلة مقابل ما يقدمه من متون الحيوانات وألسنة البقر . لقد سمعت ذات مرة رجلاً حكيماً يقول: لكى يبسط الملك نفوذه على إشبيلية بكاملها يتعين عليه السيطرة على ثلاث مناطق : شارع "لا كاثيّا" وميدان "كوستانيا" والمذبح .

ثيبيون : إذا كنت ستُعرِّج فى حديثك - مثل هذه المرة - على طبائع مخدوميك ومثالبهم فى المهن المختلفة ، يلزمنا إذن التوجه إلى السماء بالدعاء كى لا تحرمنا من نعمة الكلام لمدة سنة على الأقل ، وإن كنت أخشى مع ذلك - لبطء إيقاعك حتى الآن - ألاّ تصل لنصف حكايتك . وبهذه المناسبة أود لفت نظرك لأمر هام سأفيد منه حتمًا عند قصٍ أحداث حياتى عليك ، إن جمال القصص يكمن أحياناً فى كونها مبتورة، وأحياناً أخرى فى طريقة السرد ، بمعنى أن بعض الحكايات تثير الغبطة حين تخلو من المقدمات والزينة اللفظية ، وأن البعض الآخر يعتمد فى ملاحته على جمال الأسلوب والإيماءات المصاحبة لعملية السّرد (سواء كانت بالوجه أو اليدين) وعلى نغمة الصوت . أوصيك فى النهاية بوضع هذه الملاحظة نصب عينيك وبمحاولة الاستفادة منها فيما بقى لك من حديث.

بيرجانثا : أعدك بالالتزام - قدر استطاعتى وبما تسمح به رغبتى العارمة فى الكلام- بتلك النصيحة الصعبة .

ثيبيون : حاول كبح جماح لسانك لأنه المسئول الأول عن معظم المصائب التى تحل بالبشر .

بيرجانثا : واتباعاً منى لنصيحتك أقول إن مخدومى علمنى كيفية حمل السّلال بفمى والدفاع عنها ضد من يحاول انتزاعها، كما أرشدنى أيضًا إلى بيت صديقته، ومن ثمّ فقد أعفى خادمتها من الذهاب إلى المجزر لأننى أصبحت المسئول، مع طلعة كل فجر، عن حمل ما أخفته يداه طيلة الليل. ومع الضوء الأول لنهار أحد الأيام كنت مُحمَّلاً كالعادة بالحصة المسروقة ومتوجها بأقصى سرعة إلى خليلته عندما سمعت صوتاً ينادى علىّ من نافذة، رفعت رأسى وشاهدت فتاةً رائعة الجمال، تلكأت قليلاً فسمعت نداءها ثانية من على باب بيتها الذى نزلت إليه . اقتربت منها لمعرفة ما تريد، ولم يكن ما تريد شيئاً آخر سوى الاستيلاء على محتوى السلّة ووضْع قبقاب نسائى قديم مكانه . قلت لنفسى حينئذ : "لا ضيْر فى أن يذهب لحم الحيوان إلى اللحم الآدمى البضّ" . قالت لى فى أثناء

عملية التبديل: "هيّا، أيها الباشق، أو أيّاً ما يكون اسمك، ارجع لصاحبك "نيقولاسِ الرُّومو" وقل له لا تثق بعد اليوم فى حيوان حتى لو كان ذئباً، ولا تنْسَ تسليمه السلّة" . لم يكن يشق علىّ استرداد ما سلب منى، لكننى أحجمت حتى لا أضع فمى الجزّارى القذر على اليدين البيضاوين النظيفتين .

ثيپيون : أحسنت صنعاً باحترامك للجمال .

بيرجانثا : هذا ما فعلته لأننى رجعت إلى مخدومى بالقبقاب بدلاً من اللحم . أدهشته عودتى السريعة ، ولما رأى القبقاب وفهم المزحة الثقيلة استل خنجراً ووجّه إلىّ ضربة لو لم يسعدنى الحظ بتفاديها لما سمعت مطلقاً ما أقصه عليكِ الآن . أطلقت ساقىّ للريح، ومن خلف حى "سان برناردو" (٢) همْتُ على وجهى فى أرض الله الواسعة ، مسلماً قِيادى لتصاريف القدر . نَمت تلك الليلة فى العراء ، وفى اليوم التالى أتحفنى الحظ بقطيع من الخراف والنِعاج . حين رأيته اعتقدت أننى وجدت ضالتى المنشودة ، هذا لأنَ المهمة الطبيعية للكلاب تتمثل – على ما أظن – فى حراسة القطعان التى تعتبر عملاً سامياً لما فيه من فضيلة الذَوْد عن الضعفاء وحمايتهم من الأشرار المتغطرسين . وما إن شاهدنى راعٍ من الثلاثة المكلفين برعاية القطيع حتى نادانى قائلاً "تو ، تو !" (٣) ، ولما كنت متيمًا بهذا العمل فقد اقتربت منه مطأطئًا رأسِي ومحركًا ذيلى. مسح بيده على ظهرى ثم فتح فمى وتفل فيه ، تفرّس فى أنيابى وحدّد على أساسها عمرى ، قال لزميليه : "إن علامات السلالة الأصلية تتوافر جميعها فى هذا الكلب" . اقترب على الفور صاحب القطيع [الذى كان يمتطى كخيّال صهوةِ مُهرة شهباء ويمسك برمح ودرَقة ، كأنه جندى فى حرس السواحل لا مربى أغنام] وسأل الراعى: "ما الذى يحملك على الادعاء

---

(٢) فى أطراف إشبيلية ، بين مرْج سان سبتيان ونهرتاجاريتى، يقع حى سان برناردو . أما المجزر فكان متاخمًا لهذا الحى الذى كان معظم سكانه من الجزارين ، ومن بينهم بالطبع نيقولاس الرومو . (المترجم)

(٣) "تو" TO : صوت للنداء على الكلاب . (المترجم)

بتوافر علامات السلالة الأصيلة فى هذا الكلب" ؟ . "يمكنك الوثوق فيما ذهبت إليه – أجاب الراعى – لأننى قلّبت فيه جيداً وشاهدت بنفسى هذه العلامات . لا أعرف من أين جاء، لكنه لا ينتمى بكل تأكيد لأى قطيع من قطعان هذه الناحية" . "ما دام الأمر كذلك – ردّ صاحب القطيع – ضع فى رقبته طوْق ليونثيو ، الكلب المتوفى، واعطه حصته من الطعام مثل الآخرين، لاطفْه حتى يألف القطيع ولا يلوذ بالفرار" . قال هذا ثم رحل، وعندئذ قام الراعى بوضع طوْق مملوء بنتوءات من الصلب حول رقبتى بعد أن قدّم لى قصعة كبيرة من اللبن الزاخر بقطع الخبز . أطلق علىّ اسم "بارثينو" ، وفى كنف مخدومى وعملى الجديدين أحسست بالسعادة وشعرت بالامتلاء، ولذا كنت مطيعاً وأحرس القطيع بهمة ونشاط ولا أنفكّ عنه إلا وقت القيلولة التى كنت أقضيها تحت ظل شجرة أو صخرة أو عشب أو على ضفة جدول من الجداول الكثيرة التى تجرى هنالك.حتى ساعات راحتى لم أكن أقضيها فارغ البال متعطلاً ، بل فى تذكر ما مررت به من أحداث، لاسيما تلك التى جرت لى مع سيدى الأول وزملائه المسخّرين لتحقيق الرغبات السفيهة لصديقاتهم ... كم من الأشياء التى تعلمتها فى مدرسة الجزارة وبوسعى قصها عليك الآن ! ومع هذا سأحجم عنها مضطراً حتى لا تتهمنى بالإطناب الفارغ أو الاغتياب.

ثيـپيون : بما أننى سمعت أبياتاً شعرية لأحد القدماء يشير فيها إلى صعوبة التخلى عن السخرية والغيبة فى الإبداع الفنى والأدبى فلن أعترض على المقبول منهما: أى ما يعتمد على التلميح لا التجريح. تباً للسخرية التى تصيب فرداً واحداً فى مقتل رغم إضحاكها للكثيرين! ولو كنت قادراً على إضفاء البهجة بدونها سأعتبرك فى غاية الفطنة والذكاء.

بيرجانثا : لن أتردد فى الأخذ بنصحك وسأنتظر بفارغ الصبر حلول دوْرك فى سرْد حكايتك لأن من يدرك أخطائى ومواطن اعوجاجى فى القصّ لن يصدر عنه إلا ما يبهج الخاطر ويؤنس الأريب ويعلّم المبتدئ الساذج. ولوصْل حبل حديثى المنقطع أقول إننى كنت أمضى فترات راحتى فى تأمل كثير من الأشياء، ومن بينها زيف ما سمعته عن حياة الرُّعاة، لا سيما ما كانت

تقرؤه زوجة سيدى الجديد من كتب لا تضم بين دفتيها سوى الترويج لمثالية حياة الرعاة التى تكاد تكون موقوفة على الغناء والعزف بالآلات الموسيقية المختلفة مثل المزمار والنّاى والكمان . كنت أنتحى جانبًا – حين ذهابى إلى بيتها – لسماع ما تقرؤه فتلتقط أذناى حكايات ما أنزل الله بها من سلطان مثل قضاء الراعِي "أنفريسو" للوقت من طلوع الشمس حتى مغيبها – وأحياناً إلى ما بعد نشْر الليل الحالك لأجنحته السوداء فوق أديم الأرض – فى التنقل بين جذوع أشجار جبل "أركاديا" وهو يشدو بصوتٍ ملائكى عذب أحلى قصائد الغزل فى "بيليساردا الجميلة" (٤) . لم تنْسَ أسطر كتبها أيضاً إبراز سيرة العاشق الخجول إليثيو (٥) الذى أهمل قطيعه ولم يظفر فى النهاية ببغيته ، أو سيرة الراعى الأكبر "فيليدا" (٦) بحظه العاثر وثقته الزائدة ، أو إغماءات "سيرينو" المتكررة وندم "ديانا" الموجع للقلوب ، أو العلم اللدنى للراعية "فيليثيا" (٧) التى استطاعت بمائها المسحور فك طلاسم آلة التيه العويصة والانتصار على أعتى العقبات . وثمة حكايات أخرى لا تحصى سمعتها منها ، لكن ذاكرتى لم تختزنها لقلة شأنها .

ثيبيون : أراك قد عملت بمشورتى، وعلى هذا فلا ضيْر فى أن تلدغ ساخراً وتمضى قدمًا إلى الأمام ما دمت حريصًا على سلامة النية وإن نطق اللسان بما يخالفها .

بيرجانثا : ألا تدرى أن ما توصينى به لا يعلق باللسان قبل تَخلُّقه أولاً فى بوْتقة النية، ورغم هذا فلو اغتبت وسخرت دونما قصد أو بسوء طويّة سأسارع بالرد على من يلومنى بمثل ما أجاب به "موْليون" [وهو شاعر أحمق متعالم

---

(٤) بيليساردا الجميلة Belisarda ، Anfrio : شخصيتان من شخصيات "لا أركاديا" التى كتبها لوبى دى بيجا عام ١٥٩٩ . (المترجم)

(٥) إليثيو Elicio : إحدى شخصيات "لاجالاتيا" التى كتبها ثربانتس عام ١٥٨٥ . (المترجم)

(٦) فيليدا Filida بطل قصة "راعى فيليدا" للكاتب الإسبانى "لويس جالبيس دى مونتالبو" والتى ظهرت عام١٥٨٢ . (المترجم)

(٧) سيرينو Sireno ، وديانا Diana، وفيليثيا Felicia : ثلاث شخصيات فى القصة التى كتبها "خورخى مونتيمايور" عام ١٥٥٩ والتى ظهرت تحت عنوان "كتب ديانا السبعة" ، وتعتبر من أشهر قصص الرعاة الإسبانية . (المترجم)

ينتمى إلى مدرسة المقلدين [8]] على الذى سأله عن معنى هذه العبارة اللاتينية Deum de Deo فقال له: ماذا تعنى بها أولاً لكى أجيبك ؟

ثيـپيون : هذه إجابة ساذجة تناسب رجلاً بسيطاً، أمَا وأنك فطن - أو تتوخى الفطنة، على الأقل - فما أظنك ستجيب بشىء يتعين عليك الاعتذار عنه فيما بعد ، لكن دعنا من هذا لتكمل لنا ما بدأته .

بيرجانثا : أقول إذن إن إعمالى للفكر فى الأشياء التى ذكرتها آنفا وفى كثير غيرهـــا جـعلنـى أدرك البوْن الشاسع بين ما يفعله ويمارسه هؤلاء الرعاة وأمثالهم على أرض الواقع وبين ما سمعتـه من الكتب التى تخوض فى سيرتهم ، فالرعاة الذين أعرفهم إذا كانوا يرفعون عقيرتهم بالغناء فإنهم لا يشدون بالقصائد العصماء المدبجة بل بمقطوعات شعبية دارجة مثل التى يقول مطلعها "حذارِ من الذئب ياخوانيكا ، وراقبى وجْهته" ، وهم لا يتغنون بهذه السفاسف على أنغام الناى أو المزمار أو الكمان بل على الإيقاع الصادر من ضرب محْجن بآخر أو من الصنّاجات المشدودة إلى الأصابع، كما أنهم لا يؤدونهـا بأصوات عذبة رقيقة بل بما يشبه الصياح أو الدمدمة. أما بالنسبة للباقى من يومهم فإنهم يقضونه فى تنقية أجسادهم من الحشرات والهوام وفى خصف نعالهم الممزقة ، ومن جهة أخرى فلا توجد بين الراعيات واحدة تدعى "أماريلى" أو "فيليدا" أو "جالاتيا" أو " ديانا" ، ولا بين الرُعاة من يسمى "ليساردو" أو "لوْسو" أو "خاثينتو" أو "ريسيلو" [9] ، بل إن أسماء رجالهم لا تكاد تخرج عن "أنتون" و"دومينجو" و" پابلو" و" يورنتى" ، ومما تقدم ذكره يتضح صدق ما ذهبت إليه وهو أن ما تحويه هذه الكتب عنهم مجرد خيالات جامحة هدفها تزجية أوقات فراغ القراء بحلو الكلام الذى لا يمت إلى أرض

---

(8) " موْليون" (Mauleon) : شخصية تاريخية ، وقد أثبت الباحثون أيضًا وجود مدارس أو أكاديميات المقلدين فى العصر الذهبى للأدب الإسبانى [أى فى القرنين : السادس عشر والسابع عشر] . (المترجم)

(9) دأب مؤلفو قصص الرعاة على خلع هذه الأسماء الجميلة على أبطال وبطلات قصصهم المضمخة بالمثالية ، وهى مخالفة تمامًا لأسماء الرعاة الحقيقية والتى ذكر الكاتب بعضها فى الجملة التالية (مثل : أنتون ، دومينجو ، بابلو ... إلخ) . (المترجم)

الواقع بصلة ، ولو كان الأمر على خلاف ما ذكرت لأدركنى - خلال صحبتى للرعاة سادتى - قبس من حياتهم السعيدة ومروجهم الناضرة وغاباتهم المترامية وجبالهم المقدسة وحدائقهم الغنّاء وجداولهم الرقراقة وينابيعهم الصافية ، وما فاتنى شرف الاستماع إلى غزلهم العفيف أو الوقوف على إغماءاتهم المتكررة من فرْط تباريح الهوى أو الاستمتاع بالألحان العذبة الصادرة عن ناى هذا أو كمان ذاك .

ثيپيون : كفى يا بيرجانثا، استقم على الطريق وامضِ إلى الأمام .

بيرجانثا : أشكر لك يا صديقى لفتَ انتباهى فى الوقت المناسب لأن لسانى لو سخن فلن يتوقف حتى يفرغ من عرض محتوى كتاب كامل من تلك الكتب التى تذهب عقل الحليم، وإن كنت على ثقة من سنوح الفرصة فى القريب العاجل لأنقل لك هذا المحتوى بفكر أعمق ولسان أبلغ مما أنا عليه الآن .

ثيپيون : كفاك تبجحًا يا بيرجانثا وانظر إلى موطئ قدميك، وفى كلمات أخرى أقول: لا تنسَ أنك حيوان غير عاقل، وأن ما أنت فيه الآن - كما أثبتنا سلفاً - ينتمى إلى خوارق العادات .

بيرجانثا : إذا كنت أتباهى فذلك دليل على أننى ما زلت سادراً فى غفلتى الأولى، لكن عذرى فى ذلك يكمن فى تذكرى الآن لما سبق لى قوله فى بداية حوارنا وهو أن الدهشة التى تتملكنى من القدرة على التلفظ لا تدانى الفزع الذى ينتابنى عند التفكير فيما يمكن أن أتركه دون قص لو اختفت هذه الملكة على حين غِرة .

ثيپيون : ما دام الأمر كذلك، لم لا تخبرنى الآن بما تتذكره وتخشى ألا تواتيك الفرصة للبوح به لاحقاً؟

بيرجانثا : الأمر يتعلق بما جرى لى مع ساحرة مُخضرمة تتلمذت على يد "كامتشا دى مونتيا" .

ثيپيون : إلىّ به قبل انهماكك فى الأحداث المتشعبة لحياتك .

بيرجانثا : لن أُقدم على شيء لم يحنِ وقته بعد . إصطبر، واستمع للأحداث مرتبة حتى لا تفقد متعتها، هذا إن كان لا يرهقك معرفة أولاها قبل وسطاها.

ثيـپيون: توَخَّ الإيجاز، واحكِ ما تريد وبالطريقة التى تحبها .

بيرجانثا : أقول إذن إننى كنت مستمتعاً بعملى فى حراسة القطيع، فهو – من جهة – يعصمنى مـن التعطل والفراغ (وهما أصل ورأس البلايا والرذائل)، ومن جهة أخرى يجعلنى أشعر بلذة الأكل من كدّى وعرق جبينى، هذا لأننى إذا كنت أستريح نهارًا فلكى أقضى الليل بطوله فى الجرى هنا وهناك بحثاً عن الذئاب، فما إن ينادى الرُّعاة "عليك بالذئب، يا "بارثينو" "حتى أهرع بصحبة باقى الكلاب إلى حيث يشيرون . كنت أمسح الوديان جيئة وذهاباً، وأمشط الجبال، وأخترق الأدغال، قافزاً الوهدات ومجتازاً الطرق، ومع إشراقة الصباح أعود خاوى الوفاض – متعبًا، لاهثًا، ممزقًا، دامى اليدين والرجلين – إلى مكان القطيع لأجد نعجة ميتة أو خروفاً مذبوحاً قد اختفى نصفه، فينتابنى اليأس حينئذ من عدم جدوى يقظتى ونشاطى . وفور ظهور صاحب القطيع كان الرُّعاة يستقبلونه بفروة الضأن المأكول فيصمهم بالتهاون ويأمر بعقاب الكلاب على تكاسلهم، ثم يتبع هذا فاصل من انهمار العصىّ علينا ومن السُّباب الموجه إلى الرُّعاة . ولما وجدتنى ذات يوم معاقَباً دون ذنب أو جريرة، وبعد تأكدى من عدم نفع حرصى وشجاعتى واجتهادى فى القبض على الذئب المزعوم قررت تعديل أسلوبى فى البحث ، فبدلاً من الذهاب بعيداً جداً للبحث والتنقيب – كما جرت العادة – رأيت أنه من الأجدى التوارى فى مكان قريب من القطيع، لأن الذئب إذا كان لا يخلف موعده فى مهاجمته والفتك بإحدى رءوسه فإننى سأظفر به دون شك من موقعى الجديد . وهكذا فعندما دق ناقوس الخطر الأسبوعى ، ذات ليلة حالكة السواد تصعب فيها الحراسة ، اختبأت خلف شجيرة قريبة وتركت زملائى يمرون من حولى متجهين إلى المهمة المحكوم عليها مسبقًا بالفشل، ومن موقعى هنالك شاهدت راعيين يمسكان بخروف من أفضل الرءوس بالقطيع ويذبحانه بطريقة بدت فى الصباح كأنها من عمل الذئب . اعترتنى الدهشة وأصابنى الذهول حين اكتشفت أن الرعاة هم الذئاب، وأن الذين يمزقون القطيع

إرباً هم أنفسهم المكلفون بحمايته . كانوا لا يتوانون صباحاً فى عرض الفريسة على صاحب القطيع، مقدمين له جلدها وما فضل من لحمها بعد التهامهم ليلاً لأطيبه . وعندئذ يتكرر المشهد المحفوظ عن ظهر قلب، يعود الرجل لتوبيخهم، وينْصِبُ العقاب من جديد على الكلاب .

لم تكن هنالك ذئاب، ورغم هذا فالتناقص الدرامى فى أعداد القطيع لم يكن يتوقف . أردت فضحهم وكشف ألاعيبهم فوجدتنى أخرسً غير قادر على الكلام . ملأنى هذا العجز بأسى عميم وكرب عظيم .

"سترك يارب !- كنت أقول لنفسى - . من الذى يمكنه كشف هذه الغمّة ؟ منْ باستطاعته الصياح بأعلى صوته معلناً أن حرية المدافع هى مصدر الأذى، وأن الرُقباء هم المقتحمون، وأن الثقة هى الأداة المستخدمة فى السرقة، وأن المكلّف بالحراسة هو نفسه القاتل ؟ !" .

ثيبيون : لا فُضَّ فوك يا بيرجانثا، فاللص مهما بلغ دهاؤه لن يكون أذكى من الذى تضمه جدران البيت، ولذلك تجد أن المجنْدلين من الواثقين غير المحترسين أكثر عدداً من المتشككين الحذرين . لكن المأساة تكمن فى استحالة تمتع الإنسان على ظهر الأرض بحياة سويّة إذا انتفى منها الوفاء وانعدمت الثقة . ومن الأفضل ترك المسألة عند هذا الحدّ حتى لا أُقَلِّب المواجع، ومن ثَمَّ يتعين عليك مواصلة سرد حكايتك .

بيرجانثا: سأمضى قُدُماً كما تريد وأقول إننى قررت - بعد ما حكيته لك - تطليق هذا العمل رغم تعلقى الشديد به والبحث عن عمل آخر لا يتسبب فى عقابى ولو كان أقل أجراً ، وعلى هذا فقد قفلت عائدًا إلى إشبيلية لألتحق بخدمة تاجر واسع الثراء .

ثيبيون : على رِسْلك يا صديقى، أخبرنى أولاً كيف التحقت هكذا سريعاً بخدمة التاجر والناس فى أيامنا هذه لا يعثرون على مخدوم محترم إلا بشِقَّ الأنفس ! شتّان فى هذا الأمر ما بين سادة الأرض وسيد السماء ! فبينما يقوم الأولون بالتدقيق فى أصل وحسب ونسب المتقدم لخدمتهم، وباختبار مهاراته وقدراته، وبإخضاعه لكشف هيئة صارم، وربما يتمادون فى

شروطهم ليدرجوا فيها حصر ما لديه من ثياب، نجد فى الالتحاق بخدمة الرب أن الفقير المعدم قد يفضل الغنى واسع الثراء، وأن الأشد تواضعاً هو الأعلى حسباً ونسباً، وأن طهارة القلب وحدها كافية لتسجيله فى الكشف الربانى للنعم والعطايا التى يفيض مخزونها عن حاجة الخلق جميعاً ، مهما عظمت .

بيرجانثا : ما ذكرته الآن يا صديقى يندرج تحت بند الوعظ والإرشاد .

ثيـپيون : أظن أنه كذلك، ولذا سأمسك لسانى وألتزم الصمت .

بيرجانثا : بالنسبة لاستفسارك عن النهج الذى اتبعته للالتحاق سريعاً بعملى الجديد أقول إن التواضع هو منبع الفضائل وسر وجودها، فهو يذلل العقبات ويقضى على العراقيل ويفضى دائماً إلى الخواتيم السعيدة، إنه يجعل الأعداء أصدقاءً ، ويلطف غضب الموتورين، ويفتت عنجهية المتعجرفين، إنه الأب الشرعى للبساطة، والأخ الشقيق للاعتدال، وحائط الصدّ المنيع الذى لا تقهره الخبائث لأن أسنّة رماح الخطايا تثلم وتتكسر عند اصطدامها بطراوته ووداعته . لقد كنت أتخذ التواضع عدتى عندما أريد الالتحاق بخدمة بيت من البيوت، وهذا بعد تأكدى أولاًمن قدرة البيت المنشود على كفالة كلب كبير مثلى والوفاء بمتطلباته . كنت أقترب من بوّابة البيت الرئيسية، وعندما أشاهد شخصاً غريباً يتجه نحوها أنبح عليه، وما إن يخرج صاحب الدار حتى أطأطئ رأسى وأهز ذيلى مقترباً منه، وبلسانى ألعق حذاءه . وإذا ردونى ضرباً بالهراوة أتحمل، ثم أعود – بالوداعة نفسها – لمداهنة ضاربى . لم يحدث أن عاود أحدهم الكرّة بعد رؤيته لإلحاحى وتصميمى المزدوج . وبهذه الطريقة التى يتخللها الإلحاح مرتين أكون قد قدمت أوراق اعتمادى للبقاء فى البيت المختار . كنت أتفانى بعد ذلك فى الخدمة فأجبر قاطنيه على حبى والتعلق بى . لم يحدث أن قام أحد بطردى، بل إننى كنت الذى أبادر بالرحيل متى عن لى ذلك، ولن تصدق إن أخبرتك أننى كنت – فى غيبة الحظ المعاكس – أترك بيتاً لألتحق فى اليوم نفسه بخدمة بيت آخر .

ثيـپيون : لقد كنت ألتحق بخدمة سادتى بالطريقة التى تحدثت عنها، يبدو أن بيننـا تراسـلاً فى الأفكار .

بيرجانثا : سأميط لك اللثام فى حينه – إن حالفنى الصواب – عن سر هذا التوافـق بيننـا، والآن اسمع ما حدث لى بعد تركى القطيع فى يد تلك الفئة الضّالة من الرعـاة . لقد رجعت – كما أشرت آنفا – إلى إشبيلية، وهى ستْر وغطاء الفقراء المعدمين، وملجأ وملاذ المنبوذين، فكِبَر حجمها لا يتسع فقط لصغار الناس، بل يبتلع أيضاً هالة الأغنياء ويحولُ بينهم وبين التميز والظهور . اقتربتِ من بيتٍ كبير لأحد التجار، ثم قمت بمحاولاتى المعتادة، وبعد حرج يسير ظفرت بالبقاء فيه . كانوا يربطوننى خلف البـاب نهاراً ويطلقون سراحى ليـلاً . كنت أخدم بعناية وهمّة ولا أنام طيلة الليل لأننى كنت أقضيه بين الاختلاف إلى الحظائر والصعود إلى السطح لمراقبة بيتنا والبيوت المجاورة وكأننى ديدبان عمومى . أُعجب سيدى بإخلاصى ونشاطى، ولذا أمر أهل البيت بإحسان معاملتى وزيادة حصتى من بقايا الخبز والعظام وفضالة المطبخ، أعربت عن شكرى وامتنانى لذلك بالقفزات المتكررة التى كنت أقوم بها حال رؤيته، لا سيما إذا كـان قـادمًا من الخـارج ، وإزاء مـا كنت أبديه من عـلامـات الشكر والعرفان أمر مخدومى بعتقى من القيد ليلاً ونهاراً . وما إن وجدتنى حراً طليقاً حتى جريت نحوه وطفت حوله متمسحًا فى جسده كله، فيما عدا اليدين لأننى تذكرت وقتئذ إحدى خرافات "إيسوب" [١٠] التى يشير فيها إلى الحمار المغفّل الذى أراد مداعبة صاحبه بمثل مداعبات قطيطته الناعمة الأثيرة فما كان جزاؤه إلا طحن العظام بالهراوة . يبدو لى أن الدرس المستفاد من هذه الخرافة يكمن فى أن خفة الظل والظرف يكونان مقبولين من البعض بينما يفقدان بريقهما – وربما ينقلبان إلى الضدّ – إذا صدرا عن البعض الآخر: فمن المقبول تلقب الوغد بالألقاب المزْرية، وشقلبة البهلوان، ونهيق الصعلوك، وتقليد أصوات العصافير وحركات

---

(١٠) الخرافة المذكورة هى الثامنة فى حكايات "إيسوب" التى جرت على ألسنة بعض الحيوانات. (المترجم)

وإيماءات الحيوانات والأشخاص من جانب فرد وضيع مهيأ لذلك؛ لكن هذه المهارات إذا صدرت عن سيد عظيم فإنها تتلف سمعته وتلطخ شرفه.

ثيـپيون : كفى يا بيرجانثا، عُد إلى موضوعك لأننى فهمت جيداً ما ترمى إليه .

بيرجانثا : ليت الذين أقصدهم بحديثى هذا يفهمـــوننى مثلك ! لا أدرى ما سرّ هذه الحساسية المفرطة التى تجعلنى أستاء للغاية عند رؤية سيد عظيم مزدهياً بتقمصه لشخصية لاعب ورق محتال أو بمعرفته لأحابيل لعبة أكواب الزهْر أو بإجادته لرقصة "لا تشاكونا" الفجّة. أعرف نبيلاً من هؤلاء كان يتباهى بصنعه – نزولاً على رغبة أحد السَّدنة – لأكثر من اثنتين وثلاثين من الأزاهير الورقية، ولصْقه إيّاها على قماشة سوداء لتزيين جدار بالكنيسة، وكان من شدة اعتزازه بما صنع يصطحب أصدقاءه للفرجة عليها وكأنها البيارق والأسلاب التى غنمها من الأعداء ووضعها كنياشين على مدافن آبائه وأجداده .. وعوْدة إلى موضوعى أقول إن التاجر الذى أحدثك عنه كان له ولدان (أحدهما فى الثانية عشرة من العمر، والآخر فى الرابعة عشرة) يدرسان قواعد اللغة الإسبانية فى مدرسة الرهبانية اليسوعية . كانا يذهبان إلى مدرستهما فى مهابة وتجلّة بصحبة مؤدب وخدم وحشم يحملون عنهما الكتب والدفاتر وما يسمى بالمعجم اللغوى .
رؤيتهما وهما ذاهبان على محفّتين إذا كانت الشمس طالعة، وفى عربة فاخرة إذا كان المطر يتساقط، جعلتنى أتعجب من البساطة التى يذهب بها والدهما إلى الغرفة التجارية لإبرام صفقاته، إذ لم يكن يأخذ معه سوى زنجى، ويسير على قدميه، ضارباً صفحًا عن امتطاء ركوبة متواضعة حتى ولو كانت رديئة السرْج .

ثيـپيون : اعلم يا بيرجانثا أن من عــادة تجار إشبيلية – والمدن الأخرى أيضًا – الإفصاح عن نفوذهم ومكانتهم وغناهم من خلال أبنائهم لا عن طريق ذواتهم ، وعلى هذا فعظمتهم لا تتجلى فى شخوصهم بل فى

امتداداتهم .إنهم مشغولون دوماً بتعاقداتهم وصفقاتهم التى يبرمونها فى بساطة وتواضع ، ولما كان الطموح والثروة يموتان حباً فى الظهور فإنهما يلمعان كالبرق الخاطف على أولادهم، ولذا نجدهم لا يدخرون وسعًا فى تدليلهم والإغداق عليهم كما لو كانوا أمراء متوجين، بل إن البعض يكترى لهم ألقاباً ويضع الشارات على صدورهم لتمييزهم عن أبناء الدهماء والمغمورين .

بيرجانثا : لا شك أنه مُكلِّف وباهظ ذلك الطموح الكَلِفُ بالارتقاء دون إلحاق الضرر بالآخرين .

ثيپيون : قليلاً ما يتحقق الطموح، وإن شئت قل إنه لا يتحقق مطلقاً إلا من خلال الإضرار بالغير .

بيرجانثا : ألم نتفق من قبل على ترك الغيبة والنميمة ؟

ثيپيون : بلى، لكننى لا أغتاب ولا أُنُمّ .

بيرجانثا : لقد تأكدت الآن من صدق ما سمعته مرات عديدة بشأن المغتاب الشرس الذى لم يكد لسانه يبرد من تقطيع أوصال عشر ذرارى بأكملها والتفوّه بافتراءات لا تحصى عدداً، وإذا انتهره أحد على ما صدر منه فى التوّ يدعى أنه لم يقل شيئاً، أو أنه لم يتفوه إلا بالقليل التافه، ولو كان يتصور أنه سيؤذى مخلوقًا ما تحركت به شفتاه . عليك أن تعى جيداً يا ثيپيون وتدرك تمام الإدراك أنه لا يمكن لحديث الامتداد ساعتين أو أكثر دون التمسح بأهداب الغيبة ، فأنا مثلاً - رغم كونى حيواناً - لا أكاد أنطق بعبارات أربع حتى تتساقط عليها كلمات الغيبة المقيتة مثلما يتساقط الذباب على دنان الخمر، ومن ثمّ أعود للتأكيد على ما خطر لى من قبل وهو أن فحش القول أو العمل نرثه كابراً عن كابر ونرضعه من أثداء أمهاتنا، ألا ترى أن الطفل الرضيع يخرج يده من القماط لأول مرة لكى يلوّح بها - بطريقة تشى برغبته فى الانتقام - فى وجه من يتوهم أنه يهينه، وأن أول كلمة ينطق بها تكون للتعريض بمربيته أو بأمه نفسها !

ثيـپيون : أعترف بخطئى ، وأرجو أن تغفره لى كما غفـرت الكثير قبله، ما فـات مـات - كما يقول الصبية - وعلينا من الآن فصاعداً الإقلاع عن الغيبة والنميمة . أكمل حديثك الذى توقف عند ذهاب ولدىّ التاجر إلى مدرسة الرهبانية اليسوعية محاطيْن بشتى مظاهر الأبهة والفخامة .

بيرجانثا : لله الأمر من قبل ومن بعد، يهدى من يشاء إلى سواء السبيل ، ولما كان أمر الإقلاع عن الغيبة تكتنفه - بالنسبة لى - صعوبات جمّة فإنى أفكر فى الاستعانة عليه بالعلاج الذى اهتدى إليه حلاّف مطبوع ، لقد قام الرجل بإعلان ندمه على هذه العادة المستقبحة وعاهد نفسه بقرْص ذراعه أو تقبيل الأرض - تكفيراً عن ذنبه - كلما حلف بعد توبته المعْلَنة ، ومع هذا فلم يقْلع مطلقًا عن عادته ، وهكذا فإننى سأبادر فى كل مرة أخالف فيها - مضطراً - ما اتفقنا عليه بعضّ لسانى عضّة موجعة تذكرنى بذنبى حتى لا أقترفه ثانية .

ثيـپيون : إذا تعاطيت هذا العلاج ستُعْطِب لسانك كله من كثرة العضّ، وستصبح عندئذ عاجزاً -كما آمل - عن الاغتياب .

بيرجانثا : أعدك بألا أدخر وسعًا من جانبى فى سبيل ذلك ، أما ما يفوق الطاقة فلن تحاسبنى عليه السماء . وعودة إلى موضوعى أقول إن ولدىّ التاجر نسيا ذات يوم المعجم فى فناء البيت، ولما كنت مدرّباً من قبل على حمل سلّة الجزار فقد التقطت المعجم وذهبت فى إثرهما عاقداً العزم على عدم التخلى عنه إلا فى داخل الفصل، وقد كان، لأن سيدىّ حين شاهدانى ممسكاً بالشريط الملفوف حول المعجم أمرا واحداً من خدمهما بانتزاعه منى، لكننى أبيت ولم أتركه من فمى حتى دخلت به الفصل وسط ضحكات التلاميذ . اقترب الولد الأكبر فوضعته بين يديه فى كثير من التجلّة والاحترام ثم أَقْعَيْت لدى الباب لأختلس النظرات إلى المعلّم الواقف على المنصّة .لا أدرى سبباً لما بين الفضيلة وبينى من جفاء حتى لا يلحقنى من قَبَسها سوى النذر اليسير أو لا شىء البتّة، ورغم هذا فقد استمتعت وتلذذت بأسلوب هؤلاء الآباء المباركين (الجامع بين الحب

والغرام، والتفانى و المهارة) فى تعليم أولئك الصبية، وبالطريقة التى ينتهجونها لتقويم أعوادهم الغضّة حتى لا تلتوى أو يصيبها العطب فى مشوار الفضيلة الصعب . رأيت كيف ينهرونهم فى لين، ويعاقبونهم فى رحمة، ويتحملونهم فى سماحة، ويشجعونهم بالأمثلة والنماذج، ويستحثونهم بالجوائز، وكيف يقبحون لهم الرذائل، ويزينون لهم الفضائل ليتمكنوا فى النهاية من تنشئتهم النشأة الصالحة .

ثيبيون : أحسنت قولاً يا بيرجانثا لأنه لا يوجد فى أرجاء المعمورة أناس مثل هؤلاء الآباء المباركين فى الفهم وحسن التقدير، وفى الإرشاد إلى الطريق القويم . إنهم المرايا التى تنعكس على صفحاتها العفة، والعقيدة الكاثوليكية الحقّة، وأخيراً التواضع الجمّ، وهو الأساس المتين لصرح السعادة الشاهق .

بيرجانثا : ما ذكرته حق لا مراء فيه، ولمواصلة حكايتى أقول إن سيدىّ راقت لهما فكرة تكليفى بحمل المعجم يوميًا . لم أمانع وامتثلت عن طيب خاطر لرغبتهما، وعندئذ وجدتنى أعيش مثل ملك – وربما أفضل – هذا لأن التلاميذ تباروا فى ممازحتى فلَنْت لهم وجاريتهم فيما يفعلون حتى إننى كنت أتركهم يضعون أيديهم فى فمى، وأسمح لصغارهم بامتطاء ظهرى. كانوا يلقون بقبعاتهم بعيداً فأعيدها لهم طافحًا بالبشر والسرور، ولذا لم يبخلوا علىّ بما فى حوزتهم من طعام، وكان يعجبهم منظرى وأنا أكسر– مثل القردة – حبّات البندق وعين الجمل وألتهم ما بداخلها .حاول أحدهم ذات مرة اختبار مهارتى بتقديم كمية كبيرة من السلْطة على منديل فتناولتها مثل شخص عاقل . كنا فى فصل الشتاء حيث تنشط فى إشبيلية صناعة الفطائر الساخنة والشطائر اللذيذة التى يصيبنى منها حظ وافر ولو كان على حساب رَهْن أو بيع كتابين من كتب القواعد. لقد كنت – باختصار – أعيش مثل طالب علم، لكن دون مسغبة أو جرب، وهذا أقصى ما يمكن قوله للمبالغة فى وصف رغد تلك الحياة وهناءتها، فحياة الطالب إذا خلت من الجوع والحكّة لا تدانيها حياة أخرى فى النعيم والتسلية، لأنها – فى الحالة الأخيرة – تكاد تكون مقصورة على الفضيلة

والمتعة المتمثلتين فى التعليم واللهو المباح . من هذا النعيم المقيم وتلك الراحة المطلقة حرمنى قانون، الوفاء به يتطلب التنكيل برغبات كثيرة . ولمزيد من الإيضاح أقول إن المعلمين عندما عرفوا أن فترة الاستراحة التالية لكل حصة ، ومقدراها نصف ساعة ، لا يقضيها التلاميذ فى مراجعة الدرس بل فى اللهو معى أمرا سيدى بعدم اصطحابى إلى المدرسة ثانية ، وهكذا فقد أعادانى إلى موقعى القديم فى حراسة بوّابة البيت دون أن يتذكرا منّة سيدى الكبير بتركى حراً طليقاً آناء الليل وأطراف النهار، وعلى هذا فقد أسلمت خانعاً رقبتى للطوْق وجسدى لحصير وضعاه لى خلف البوابة .. آه، يا صديقى ثيپيون ، لو علمت مدى قسوة تبدل الحال فجأة من السعادة إلى الحزن والضيق ! اعلم أن الأمد حين يطول بالبؤس والشقاء المتصلين فمصيرهما لن يتعدى أحد أمرين: إما الانعتاق منهما بالموت ، أو أن تتحول المعاناة منهما إلى عادة، وعندئذ يخفت وقْع الإحساس بها . أما إذا انتقل المرء – فجأة ودون سابق إنذار – من وضع فاجِعٍ منحوس إلى آخر مشرق باسم ، ثم عاد بعد قليل إلى وضعه الأول المتردى فإن عذابه يتضاعف عندئذ ويحيل حياته إلى جحيم ، لا فكاك منه إلا بالموت .. أقول بعد هذا الاستطراد إننى عدت فى النهاية إلى طعامى السالخ الخشن وإلى ما كانت تلقيه حولى خادمة زنجية من عظام ، وما زاد الطين بلّة أن العظام لم تكن خالصة لى ، لأن قطين أسودين مطلقى السّراح كانا يسلبانى ما لم يقع منها داخل الحرم الدائرى للسلسلة المشدودة إلى عنقى .. أتوجه إلى السماء بالدعاء كى تحقق آمالك يا أخى ثيپيون، وفي المقابل أرجو ألا تغضب وأن تدعنى أتفلسف قليلاً ، لأننى لو ضربت صفْحاً عن الأشياء التى رأيتها آنذاك وما زالت محفورة فى الذاكرة فلن تكون لحكايتى أية ثمرة ولأصبحت عقيماً .

ثيپيون : تأكد أولاً أن رغبتك الحالية في التفلسف ليست غـوايـة من الشيطان، فليس ثمة غطاء للغيبة وستْر لشرورها أفضل من ادعاء المغتاب بأنه يتفوّه بِحِكَم الفلاسفة، وأن قولَه الخبيث ما هو إلا زجر، وأن فضح مثالب الغير يندرج تحت الحماسة المحمودة . إنك لو فكرت ملِيّاً فى حياة المغتاب

وأنعمت فيها النظر ستجدها مُترعة بالرذائل والسفاهات . والآن، وبعد معرفتك لوجهة نظرى، تفلسف كما يحلو لك .

بيرجانثا : يبدو أنك واثق من ركونى إلى الخوض فى الغيبة، وهذا بالفعل ما انتويته . لقد كنت أمضى اليوم بطوله فى فراغ تام، وبما أن الفراغ هو الأب الشرعى لتعاطى الأفكار فقد تسليت خلاله باسترجاع الكمّ الهائل من اللاتينى الذى سمعته فى أثناء اختلافى إلى قاعة الدرس بصحبة ولدىّ التاجر، ولما أيقنت من تحسن مستواى فيه عزمت على الإفادة منه فى أول فرصة أتمكن فيها من النطق ، لكن استفادتى منه ستكون مختلفة عمّا يفعله بعض الجهلاء الذين لا يتورعون عن تزيين أحاديثهم – بين الفينة والفينة – بعبارات لاتينية موجزة لإفهام مستمعيهم أنهم أحبار فى تلك اللغة، علمًا بأنهم لا يقدرون على اشتقاق كلمة أو تصريف فعل من الأفعال .

ثيپيون : لا يقلّ عن هذا سوءاً ما يفعله العُرفاء بتلك اللغة حين يقوم بعض الحمقى منهم بإمطار صانع أحذية أو خياط بسيط بوابل من اللاتينية الصِّرْفة .

بيرجانثا : يمكن أن نستنتج من هذا أن الذى يتحدث باللاتينية أمام من لا يعرفها لا يقلّ سفاهة عن الذى يلوك لسانه بها وهو لا يدرى عنها شيئاً .

ثيپيون : أود إضافة شيء آخر إلى الملاحظة السابقة وهو أن الحديث باللاتينية لا يعنى فى حد ذاته علم المتحدث لأنه قد يكون والحمار سواء .

بيرجانثا : وهل فى ذلك شك ؟! وأوضح دليل على ما تقول أن العصر الرومانى الذى كان الجميع فيه يتحدث اللاتينية – باعتبارها اللغة الأم – لم يكن يخلو أيضاً من الأغبياء الذين لم تشفع لاتينيتهم فى إبرائهم من تلك العلّة .

ثيپيون : لا شك أن الفطنة لازمة لمعرفة الوقت المناسب للحديث باللاتينية أو الرومانثية (الإسبانية القديمة) ، لأن لكل مقام مقالاً .

بيرجانثا : معك حق، لأن السفاهة تجرى سواءً بسواء على لسان المتحدث باللاتينية أو الرومانثية، وكثيراً ما رأيت متعلمين أغبياء، ونحويين بلهاء،

ومتخصصين فى اللاتينية يخلطون بينها وبين الرومانثية بطريقة استفزازية تثير حنق العالم بأسره: لا لمرة واحدة، بل آلاف المرات .

ثيـپيون : لندع هذا جانباً كى تشنف آذاننا بفلسفتك .

بيرجانثا : لقد فرغت منها .

ثيـپيون : وأين هى الفلسفة ؟

بيرجانثا : ما ذكرته عن اللاتينية والرومانثية، أى ما قمت أنا بافتتاحه وتطوعت أنت بإنهائه.

ثيـپيون : أتسمى الغيبة فلسفة ؟ فلتقنن آفة الغيبة الملعونة كما يحلو لك، ولتعطها الاسم الذى تريد ، لكن تحايلك هذا لن يعفينا من وصمة الاستهتار وخلْع العِذار. اصمت بالله عليك وأكمل حكايتك .

بيرجانثا : كيف يتسنى لى إكمالها وأنا صامت ؟!

ثيـپيون : ما أقصده هو التركيز فيها وعدم الخروج عنها حتى لا تجعلها مثل الأخطبوط لكثرة ما تضيف إليها من أذناب .

بيرجانثا : توخَّ الدقة فيما تقول لأن زوائد الأخطبوط لا تسمى أذناباً، بل رُجيلات .

ثيـپيون : إن خطئى فى هذا مثل خطأ الذى لا يرى فى تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية قبحاً ولا بذاءة، وإن كان الأفضل فى مثل هذه الحالة اللجوء إلى اللف والدوران من أجل تخفيف قبح الكلمات المثيرة للاشمئزاز، وهذا ما فعلته، انطلاقاً من أن الكلمات العفيفة هى خير برهان على عفة ناطقها أو كاتبها .

بيرجانثا : ليتنى أصدقك ! وعودة إلى أحداث حكايتى أقول إن الحظ العاثر الذى حرمنى من الدراسة والحياة الوادعة الهانئة، ورمانى خلف البوابة مكبلاً بالقيود، وأبدلنى بسماحة الطلاب وكرمهم ذلّ الزنجية وشحّها، هو نفسه الذى أطلق العنان لفزعى ورعبى من الوضع الجديد . عليك أن تقتنع وتسلِّم مثلى بأن المصائب تفتش عن التعيس وتعثر عليه حتى لو كان مختبئاً فى جحر ضبّ بأقاصى المعمورة . والديباجة السابقة لا غنى عنها

لاستيعاب ما يلى من الحكاية: لقد اكتشفت أن الزنجية تحب زنجياً آخر من خدم البيت، ولما كان الزنجى ينام فى الدهليز الكائن بين البوّابة الرئيسية والبوّابة الوسطى التى أقبع خلفها ولا سبيل إلى اللقاء المحرّم إلا بفتحها فقد سرق العاشقان مفتاحها الأصلى واصطنعا منه نسخة، وعلى هذا فقد كانت الزنجية تهبط معظم الليالى وتسد فمى بقطعة لحم أو جبن- مما تختلسه من خزانة الطعام - ثم تفتح البوّابة الوسطى لحبيبها ويقضيان وقتًا سعيداً ، معتمدين على صمتى المشترى .أتلفت هبات الزنجية ضميرى لعدة أيام، إذ تصوّرت أن خصرىَّ بدون تلك العطايا سينكمشان وأتحول من دِرْواس ضخم إلى سلُوقى هزيل . لكن أصلْى الطيّب ما لبث أن استحثنى على الوفاء بواجبى نحو صاحب البيت الذى أطعم خبزه وأتمرغ فى خيره، وهذا ما يجب أن يفعله كل العاملين بالخدمة، لا الكلاب الشرفاء وحدهم .

ثيبيون : صدقت، وأعتقد أن هذه الحقيقة لا يخالطها شيء من الفلسفة، والآن استمر فى حكايتك ولا تضف إليها إيضاحات حتى لا أقول أذناباً .

بيرجانثا : قبل نزولى على رغبتك أرجو أن تخبرنى أولا - إذا كنت تعرف - بمعنى الفلسفة، فأنا - رغم ورودها المتكرر على لسانى - لا أدرك ماهيتها، ومبلغ علمى عنها أنها شيء محمود .

ثيبيون : سأرضى فضولك فى إيجاز شديد، مصطلح "فلسفة" مُركب من كلمتين يونانيتين : Filos بمعنى "حب" ، sofia بمعنى "معرفة" وعلى هذا فإنه يعنى "حب المعرفة" ، أما "الفيلسوف" فهو محب المعرفة .

بيرجانثا : كلما حادثتنى يا ثيبيون كلما زادت قناعتى بعلمك الغزير، من ذا الذى علمك المصطلحات اليونانية ؟

ثيبيون : حقاً إنك لساذج يا بيرجانثا لانبهارك بمثل هذه المعلومات الأولية التى لا تغيب عن صبية المدارس، وبهذه المناسبة يوجد أيضًا - كما هو الحال بالنسبة للاتينية - من يدعى معرفته للغة اليونانية رغم جهله التام بها.

بيرجانثا : أتمنى أن يوضع هؤلاء الأدعياء (مثلما يفعل البرتغاليون مع زنوج مستعمرتهم فى غينيا) فى معصرة، وأن يستخرج حجرها الدوار عصارة معارفهم السطحية حتى لا يتمادوا بعد ذلك فى خداع العالم ببهرج يونانيتهم الممزقة ولاتينيتهم المزيفة .

ثيبيون : لا عليك إذا بادرت الآن بعض لسانك أو إذا حذوت حذوك فى العضّ لأن ما نقوله يندرج كله تحت بند الغيبة .

بيرجانثا : أما أنا فلست مضطراً للإتيان بمثل ما فعله اليونانى القديم "شاروندااس" حين سنّ قانوناً يُحرّم دخول مجلس بلدية مدينة "ثوريوس" بالسلاح، وجعل الإعدام عقوبة لمنْ يخالف، لكنه نسى قانونه ودخل ذات يوم المجلس متمنطقاً سيفه، ولما نبهه أحد الحاضرين إلى المخالفة التى ارتكبها استلّ سيفه وأغمده على الفور فى صدره، فكان بذلك أول المخالفين للقانون الذى سنّه وأول ضحاياه . أمّا ما قلته عن عضّ اللسان زجراً للاغتياب فلا يعتبر قانوناً بل مجرد وعد، ومن جهة أخرى فإن الأمور لا تسير فى أيامنا هذه بمثل ما كانت عليه فى الأزمنة الغابرة من حيث الصرامة والشدة، ولذلك تجد أن القوانين تسنّ اليوم لكى يتم إبطالها غداً . ألا ترى أن الواحد فى أيامنا هذه لا يكاد ينتهى من الوعود بإصلاح عيوبه السابقة حتى يسقط بعد لحظات فيما هو أفدح! الثناء على النظام والطاعة شىء والالتزام بهما شىء آخر، وفى هذا تصْدق الحكمة القائلة: "ثمّة بوْن شاسع بين القول والعمل" . ليعض الشيطان لسانه أنّى شاء، أما أنا فلست بحاجة إلى العضّ ، ولا إلى التظاهر بنقاوة الضمير ورقة الحاشية وأنا هنا خلف هذه السّلال المهملة حيث لا يرانى من يمكنه الإشادة بمسلكى الشريف .

ثيبيون : لو كنت إنساناً يا بيرجانثا لما برئت من تهمة النفاق، ولَمَا سلمت أعمالك من الزيف والتظاهر لأنك تعْمد - مثل باقى المنافقين - إلى تغطيتها بعباءة الفضيلة قاصداً الفوز بعبارات المديح والإطراء .

بيرجانثا : لقد حيرتنى يا صديقى، ألا ترى أن امتناعى عن عضّ اللسان سببه شدة خوفى من طلوع الشمس وفقدان ملَكة الكلام قبل الانتهاء من سرد الأحداث الكثيرة الباقية من حياتى !

ثيپيون : وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، استمر فى حكايتك ولا تنحرف عن جادة الطريق باستطراداتك الوقحة، وبهذا الشكل ستنتهى منها سريعاً مهما بلغت من طول .

بيرجانثا : أقول إذن إننى بعد المعاينة المتكررة لجريمة العاشقين البشعة قررت – مثل أىّ خادم أمين – منعها بشتى الوسائل الممكنة والفعّالة . كانت الزنجية تهبط – كما سبق وأخبرتك – للاستمتاع بلقاء حبيبها معتمدة على شرائها لصمتى بقطع اللحم أو الجبن أو الخبز التى تتحفنى بها ... يا لكثرة الأشياء التى تستطيع الهدايا فعلها !

ثيپيون: أعرف جيداً أنها كثيرة؛ لكن لا تَشْرُد وامض قُدُما إلى الأمام .

بيرجانثا : أتذكر أننى عندما كنت أختلف إلى قاعات الدرس سمعت من أحد المعلمين مثلاً شعبياً لاتينيا يقول: "النَضار خير قيد للسان" .

ثيپيون : أية ساعة نحس تلك التى هبط فيها اللاتينى عليك ! . أنسيت ، هكذا سريعاً، ما قلناه عن الذين يقحمون اللاتينى على حديثهم باللغة الرومانثية؟

بيرجانثا : إنه لم يأت على سبيل الإقحام بل لمناسبته للمقام ، ألا تعلم أن الأثينيين كانوا يتداولون فيما بينهم إحدى العملات المنقوش عليها صورة ثور، وعندما كان أحد القضاة يستنكف – لداعى الرشوة – عن قبول أو فعل ما تقتضيه العدالة فإنهم كانوا يصرخون بعالى الصوت قائلين: "الثور جاثم على لسان هذا" .

ثيپيون : الاستشهاد هنا فى غير مَحلّه لعدم وضوح التطابق .

بيرجانثا: كيف لا يكون واضحاً وعطايا الزنجية أصابتنى بالخرس أياماً عديدة لم أجرؤ فيها على النباح عند رؤيتها تهبط درجات السلم للقاء عشيقها؟! لا مفرّ إذن من العودة إلى التأكيد على أن العطايا تسوى الأهاويل .

ثيبيون : وافقتك من قبل على القدرة الخارقة للعطايـــا، ولـو لـم أكن حريصاً على عـدم الاستطراد لسقت لك الآن ألف مثال على ما يمكن أن تفعله، ومع هذا فربما سردتها عليك كاملة فيما بعد إذا لم تحرمنى السماء من نعمة الكلام وأكرمتنى بالوقت والمكان اللازمين لقص حكايتى .

بيرجانثا : أتمنى أن تحقق السماء ما تصبو إليه، والآن اسمع منى بقية الحكاية ، لقد استيقظ ضميرى فى النهاية وتغلب على إغراءات هدايا الزنجية، وذات ليلة حالكة السواد حينما شاهدتها قادمة لتمضية سهرتها الحمراء المعتادة انقضضت عليها، وفى لحظات مزقت ثوبها إرباً وانتزعت قطعة لحم من فخذها أجبرتها على ملازِمة الفراش ثمانية أيام تعللت فيها أمام أصحاب البيت بإصابتها بمرض عضال . عاودت الكرّة بعد اندمال جرحها لينشب العراك بيننا من جديد، لم أعضّها هذه المرة بل أحدثت خدوشاً بجسدها كله وتركتها مثل بطّانية مندوفة . كانت معاركنا تتم فى صمت مطْبق، وأخرج منها منتصراً دائماً بينما ترجع الزنجية مقهورة كاسفة البال، لكن مقتها الشديد كان يظهر بصورة واضحة على صحتى وشعورى المتساقطة، إذ عمدت إلى حجب حصتى من الطعام وبقايا العظام لكى تبدأ عظامى فى الإشارة – شيئاً فشيئاً – إلى فقرات صلبى . ورغم قواى الخائرة فإنها لم تستطع إخماد نباحِي . هدتها قريحتها إلى تدبير مكيدة للخلاص منى دفعة واحدة، ومن ثم فقد قدمت لى إسفنجة مقلية فى الدُّهن، اكتشفت الوصْفة النكراء التى تعتبر أشد سوءاً من عجينة الزجاج المطحون لأن من يتناولها تتورم معدته ولا يفارق علّته قبل مغادرته للحياة .. ولما بدا لى استحالة الحفاظ على نفسى من مكائد العدوين الحانقين قررت اتخاذ البعد المكانى حائلاً بينى وبينهما والاختفاء من أمام عيونهما .وعلى هذا فما إن وجدتنى ذات يوم مطلق العنان حتى خرجت إلى الشارع دون وداع أحد . لم أكد أقطع مائة خطوة على الطريق حتى أسعدنى الحظ بلقاء شرطى تربطه بمخدومى الأول – نيقولاس الرُّومو – أواصر صداقة حميمة، عرفنى فور رؤيتى ونادانى باسمى، تعرفت عليه أيضاً، ولذا لبّيْتُ نداءه واقتربت منه بملاطفاتى ومماحكاتى المعتادة .

أمسكنى من عنقى وقال لخفيرين تابعين له: "هذا الكلب مشهور بذكائه وتعاونه، لقد كان لأحد أصدقائى المقربين، خذاه إلى البيت" . سُرّ الخفيران وانبرا قائلين: "لو كان كما تصف فسيصيب من تعاونه الجميع" .أرادا ربطى بحبل، لكن الشرطى قال لهما لا داعى لذلك لأنه يعرفنى وسيذهب معكما طائعًا مختاراً . نسيت إخبارك أن غجريًا يعمل بأحد الخانات هو الذى خلّصنى قبل ذلك من الطوق الحديدى المدبب الذى كان ملتفًا حول عنقى إبّان هجْرى لقطيع الأغنام، ولما كنت أسير فى إشبيلية بدونه فقد وضع الشرطى حول رقبتى قلادة موريسكية من النحاس الأصفر المزين بمسامير مفضضة . أدعوك يا صديقى ثيبيون للنظر والتأمل فى عجلة حظى الدوّارة: بالأمس كنت طالبًا، واليوم مساعداً لشرطى .

ثيبيون : هذا هو حال الدنيا، فلا داعى إذن للمبالغة فى لوم الحظ وكأن ثمة فارقًا كبيراً بين خدمتك لجزار وبين كونك مساعداً لشرطى. لن أرهق نفسى ولن أصطبر على سماع شكاوى أناسٍ غاية همهم الوصول إلى مهنة " وصيف" (١١) ، فكم من اللعنات يصبُّها هؤلاء على الحظ، وكم من البذاءات التى يلوثون بها سمعته، لا لشىء إلا لإقناع مستمعيهم بفداحة ما منوا به من خسائر رغم تفاهة أحلامهم.

بيرجانثا : معك حق ياثيبيون، وعودة إلى حكايتى أقول إن هذا الشرطى كان لا يتحرك إلا فى صحبة صديقه كاتب العدل، وأن الاثنين كانا يعاشران بدون زواج امرأتين مشبوهتين ومنحطتين فى كل شىء . صحيح أنهما كانتا تتمتعان بشىء من ملاحة الوجه، لكن هذا فى مقابل فيض من الوقاحة والعهر الماكر. كانتا ترتديان الملابس الخليعة التى تنم عن شخصيتهما ، ولا يخطئ الرائى من على مرمى حجر أنهما من بائعات الهوى . أما الشرطى وكاتب العدل فكانا يستخدمانهما طعمًا وشصًا

---

(١١) "الوصيف" Escudero : "تابع" الفارس الذى يحمل عنه لوازمه وعدته الحربية ، ويساعده فى المعركة ، ويوقف نفسه على خدمته فى مقابل أجر معين . (المترجم)

لاصطياد الغرباء عن المدينة، لا سيما أولئك التجار الذين رست سفنهم في ميناء قادش وتوجهوا إلى إشبيلية لإبرام عدد من الصفقات التجارية .لم تكن المرأتان تتركان غريبًا دون الاحتكاك به، وعندما يسقط الطير المريش [١٢] في حبائل إحداهما تسارع بإبلاغ الشرطي وكاتب العدل بالمكان والموعد المضروبين للقاء الغرامي حتى يضبطاهما متلبسين، لكن عملية الضبط لم تكن تسفر بتاتًا عن عقوبة السجن بتهمة الزنا، وهذا لاستعانة الغريب بالنقود التي يحملها على تبرئة ساحته .

حدث في إحدى المرات أن اصطادت " لاكوليندريس" - صديقة الشرطي- غريباً مترهلًا زريّ الهيئة، لكن حافظته عامرة بالنقود ، وبعد اتفاقها على تمضية السهرة معه في الخان الذي ينزل فيه أبلغت صديقها ، وما إن تعريا حتى اقتحم عليهما الغرفة كلٌّ من الشرطي وكاتب العدل وخفيران ، وأنا في أعقابهم ، اضطرب العاشقان وأُشكل عليهما ، بالغ الشرطيّ في تضخيم حجم الجريمة ثم أمرهما بارتداء ملابسهما على وجه السرعة لكي يودعهما السجن . اغتمّ التاجر الغريب ، وإزاء إلحافه في التوسل والرجاء لأن قلب كاتب العدل وخفّض العقوبة إلى مائة ريال حالّة الأجل . طلب منهم الرجل أن يناولوه الصديرى الشمواه الذي خلعه على الكرسي المجاور للسرير لكي يدفع الكفالة . فتّشوا عنه ولم يعثروا له على أثر . وللكشف عن سرّ اختفاء الصديرى أقول إنني شممت فور دخولنا الغرفة رائحة لحم ، ولما تتبعت مصدرها اكتشفت وجود قطعة من لحم الخنزير المجفف والشهير بأحد جيوب الصديرى ، لم أفكر طويلاً وحملت الصديرى إلى الشارع حتى أتمكن من إخراج القطعة دون جَلَبة والاستمتاع بها على هواي ، وعندما رجعت بعد فراغي من الوجبة الدسمة اللذيذة كان الغريب يصيح بصوت زانٍ متهتك - وإن كان مفهومًا - طالبًا أن يردوا إليه الصديرى الذي يحتوى على خمسين إسكودو من الذهب الخالص . ساور الشرطي وكاتب العدل الشك في

(١٢) الطير المريش ، كناية عن الزبون الغنى أو الصيد الثمين . (المترجم)

" كوليندريس" والخفيرين ، ولما انتحيا بهم جانباً لاستجوابهم ولم يظفرا باعتراف ثارت ثائرة الجميع ، حين شاهدت ما يجرى أمامى من فوضى وبلبلة رجعت إلى الشارع حيث تركت الصديرى ناوياً إعادته - إذ لا حاجة لى بما فيه من نقود - ، لكننى لم أجد ولا حتى ريحه ، كأنه تبخر، أو أنه - بمعنى أصح - كان على موعد مع أحد المارّة المحظوظين . ولما اكتشف الشرطى إفلاس الغريب تملكه القنوط واتجه تفكيره إلى صاحبة الخان لتعويضه عن النقود التى لم تدخل جيبه . نادى عليها فحضرت نصف عارية ، كاد أن يغشى عليها حين سمعت الأصوات العالية و الشكوى المرّة للغريب وبكاء " كوليندريس " العارية تمامًا ، ووجدت الشرطى حانقاً وكاتب العدل ساخطاً والخفيرين منهمكين فى سلب ما تقع عليه أيديهما من محتويات الغرفة . أمرها الشرطى باستكمال ملابسها لأنه سيودعهما السجن بسبب إيوائها للرجال العابثين والنسوة الساقطات . تعالت عندئذ الأصوات وزادت البلبلة لأن صاحبة الخان انبرت بلسانها الحاد قائلة : "على رِسْلك أيها الشرطىّ ويا كاتب العدل الموقر، لا داعى لمثل هذه الألاعيب معى، فأنا أعرف خبايا التمثيلية الهزلية وأدرك أبعادها، اصمتا ومع السلامة، وإلا فلن أتورع - بحق الصليب - عن نشر غسيلكما القذر على رءوس الأشهاد، أنا أعرف جيداً من تكون المبجّلة "كوليندريس " ، ولست أجهل صداقتها الحميمة للشرطى منذ عدة أشهر، لا تجبرانى على الإيضاح أكثر من ذلك، وعليكما برد ما أخذتماه من هذا الرجل المسكين لتنتهى الأزمة بسلام، ويا دارما دخلك شر. أنا امرأة شريفة، ولدىّ زوج لا تنقصه - ولله الحمد - شهادة بشرف النسب ، ولا حلْية بدلايات مباركة من البابا شخصيًا، وأمارس مهنتى بنزاهة ودون الإضرار بجنس مخلوق . قائمة الأسعار معلّقة حيث يراها الجميع ، فلا داعى إذن للمماحكة مع من تعرف كيف تنفض الغبار من فوق ثيابها . هل تأخذ النساء أوامرهن منى للدخول مع النزلاء ؟! كل واحد معه مفتاح حجرته ، ولست وشقاً حتى أرى ما يدور خلف سبعة حوائط" .

اعترى سيديّ الذهول بعد الخطبة العصماء التى تلت فيها صاحبة الخان قصة حياتهما، لكنهما عندما أيقنا من استحالة الحصول على المال من أحد سواها تشبثا بقرار إيداعها السجن . ارتفعت عندئذ صيحاتها إلى عنان السماء معلنة تبرمها من الظلم الواقع عليها فى غياب زوجها الشريف، كما حفل المكان بجؤار الغريب لفقدانه الخمسين إسكودو، وبأيمان الخفيرين المغلظة لتبرئة ساحتهما من سرقة الصديرى المزعوم أو حتى رؤيته .لم يكف كاتب العدل فى تلك الأثناء عن التنبيه على الشرطى بضرورة تفتيش ملابس "لاكوليندريس" لاعتيادها على العبث بمتعلقات زبائنها ، أما هى فكانت ترد قائلة : إن الغريب كان سكراناً ولا ينبغى أَخْذ كلامه عن النقود على محمل الجدّ . حقّا، لقد كان مشهداً حيًا للبلبلة والصراخ والحلف، ولم يكن هنالك من سبيل لإخماد ثورته، بل إنه لم يكن سيخمد فى القريب العاجل لو لم يقتحم عليهم الغرفة "صاحب الشرطة" (المأمور) [١٣] الذى كان فى جولة تفتيشية على الخانات وحمله الزعيق إلى بؤرة الأحداث . سأل عن سبب تلك الأصوات التى قابلته من آخر الشارع، لم تتوان صاحبة الخان وقصت عليه الحكاية بالتفصيل المملّ : أخبرته من تكون الحورية "كوليندريس" (التى انتهت من ارتداء ملابسها) ، وأفشت سر علاقتها الحميمة بالشرطى، وأماطت اللثام عن أساليبها فى النصب والاحتيال، كما أبرزت حرصها الشخصى على منع أية امرأة سيئة السمعة من تخطى عتبة خانها، وتحدثت عن نفسها كقديسة ، وعن زوجها كولىّ من أولياء الله الصالحين، ثم نادت على خادمة لها وأمرتها بإحضار شهادة شرف نسب زوجها من الصندوق حتى يطلع عليها المأمور ويتأكد بنفسه من أن زوجة رجل شريف مثلها لا يسعها الإتيان بما يشين، ولم تكتف بهذا، بل شنّفت أذنيه أيضًا بالأسباب المطوّلة لقيامها بهذا العمل الذى تعافه واضطرت إليه اضطراراً من أجل الكسب الحلال للقمة العيش، واتقاءً لذلّ السؤال . أما

(١٣) "صاحب الشرطة" (المأمور) أو "صاحب المدينة" : هو رئيس جهاز الشرطة فى مدينة ما ، والمسميان مأخوذان من النظام الإدارى الأندلسى . (المترجم)

المأمور الذى أغضبته ثرثرتها ومباهاتها بشهادة شرف زوجها فلم يتمالك نفسه وخاطبها قائلاً : "لاشك عندى فى حيازة زوجك لتلك الشهادة التى تقاعست عن حمْله إلى أبعد من إدارة خان متواضع" . "وهل توجد عراقة أصل فى العالم أجمع خالية، مهما كان مبلغها، من بعض الهنات ؟ - سألت مستنكرة " . "خلاصة القول يا أختاه - رد المأمور - أنَ عليك ارتداء ملابسك كاملة لأنك ذاهبة إلى السجن" . ما سمعته كان كافيًا لطرحها أرضاً وَجَعَلْها تصرخ بأعلى الصوت وتخدش بحميّة وجهها ، لكن هذا لم يفلح فى تخفيف الصرامة الشديدة للمأمور الذى أمر بترحيلهم جميعاً إلى السِجن ، ونقصد بجميعًا : التاجر ، و"لاكوليندريس" وصاحبة الخان . علمتُ بعد ذلك أن استرداد الغريب لحريته كلّفه عشرة إسكودو - علاوة على الخمسين الضائعة ، كما دفعت صاحبة الخان مثلها ، أما "لاكو ليندريس" فقد خرجت مزهوّة من بوابة السجن الرئيسية دون ضمان أو كفالة ، وفى يوم خروجها اصطادت - بالخدعة نفسها - بحّاراً تحمّل ما كان على التاجر الغريب دفعه ، أرأيت ياثيپيون الأضرار البالغة التى لحقت بالكثيرين من جرّاء شراهتى وشدة تهالكى على الطعام الفاخر !

ثيبيون : بل الأحْرى أن تقول بسبب دناءة وخِسّة سيدى .

بيرجانثا : لقد قلت ما قلته لأنه يحزننى الإساءة إلى رجال الشرطة وكتبة العدل .

ثيپيون : إن اتهام أحدهم لا يعنى إلصاق التهمة بالجميع، إذ يوجد الكثيرون من كتبة العدل الأمناء المخلصين والمحبين للمتعة لكن دون إلحاق الضرر بالآخرين ، كما أنهم ليسوا جميعاً ممنْ يعطل سير الدعاوى القضائية ، أو يتصل بأحد طرفيها ، أو يتجاوز حدوده ، أو يتتبع عورات الناس لإثارة الشبهات حولهم ، أو ممن يبرم الاتفاقات مع القضاة لسلب حق هذا وإعطائه لذاك ، ورجال الشرطة أيضًا ليسوا جميعًا من المتواطئين مع المجرمين و المحتالين والغشاشين، أو ممن يتخذون الصديقات لتدبير المكائد والمؤامرات، بل إن منهم الكثيرين من ذوى الأصول الشريفة الذين

يتحلون بالصفات الكريمة . وليسوا جميعاً متهالكين ولا عُتاة ولا لصوصاً ولا سيئى التربية مثل الذين يجوبون الخانات بحثاً عن الغرباء ليقيسوا لهم أطوال سيوفهم ، وإذا وجدوها تزيد شعرة عن الحدّ القانونيِ ينكّلون بأصحابها ، ولا ممن يعتقلون ويطلقون السّراح أنّى شاءوا أو ممن ينصبون أنفسهم قضاة ومحامين كلما أرادوا .

بيرجانثا : أما سيدى فلم يكن يمت بصلة إلى تلك الفئة الشريفة، بل يتنكب طريقًا مغايراً لطريقها، فالشجاعة التى كان يتباهى بها فى القبض على عتاة المجرمين مزيفة وغير حقيقية لأنها لم تكن تعتمد على الجسارة والمخاطرة بالنفس ، بل على ما تجود به حافظة نقوده . ولإيضاح ما تقدم أقول إنه اشتبك بمفرده ذات مرة عند بوابة "شريش" مع ستة مجرمين معروفين فى كل بقاع الأندلس ، ولم يكن بوسعى يومئذ مساعدته بشيء لأن المعركة جرت نهاراً والكمامة التى يضعها على فمى لا ينتزعها إلا ليلاً . المهم أننى وقفت أرقب بانبهار جرأته وحماسته ومهارته ، إذ كان يدلف بين السيوف وينسلّ من بينها وكأنها أعواد من الصفصاف .استولى على إعجاب الجميع بخفته فى الانقضاض ، وبالضربات الخاطفة التى يسددها، وبحركاته الدفاعية ، ويقظته التامة لسيوف الأعداء . خلاصة القول إننى وجمهور الحاضرين عددناه "رودا مونتى" [١٤] جديداً حين شاهدناه يجْبر "البلطجية" على التقهقر من بوابة "شريش" حتى العتبات الرخامية لمدرسة "ماسى رود ريجو" [١٥]، أى لأكثر من مائة خطوة . ولما احتموا بالمدرسة تركهم وعاد لجمع الأسلاب التى وصلت إلى ثلاثة سيوف وأغمادها ، حمل الغنيمة ليعرضها على "صاحب الشرطة" وكان وقتها - إن لم تخنى الذاكرة -

---

(١٤) Rodamonte : إحدى شخصيات "أورلاندو الغضوب" للكاتب "أوريوستو" ، وهى ترمز إلى البسالة والإقدام. (المترجم)

(١٥) عند بوابة "شريش" - بين "القصر" وسور مدينة إشبيلية - كانت ترتفع مدرسة "سانتا ماريا العليا" ؛ ولما كان المعلم "رودريجو فرناندث دى سانتيا" هو الذى أسسها فقد كانت العامة تطلق عليها "مدرسة ماسى" (أى المعلم) "رودريجو" . (المترجم)

"سارمينتودى بيّادارس" ، المشهور بهدمه لحى "لاسوثيدا" (١٦) الذى يقطنه الخارجون على القانون . كانت الجماهير تتأمله وهو يسير في الشارع متبخترا ويشيرون إليه بأصابعهم وكأنهم يقولون : "هذا هو الشجاع الذى تجاسر ودخل معركة حامية الوطيس مع زهرة أبطال الأندلس" . أمضي بقية النهار فى الطواف بشوارع المدينة حتى يراه الجميع ، ولما جن الليل اتجهنا إلى " طريانة" ، وفى شارع قريب من طاحونة "لا پولپورا" التفت حوله للتأكد من خلوّ المكان من المارّة ثم دلف - وأنا من ورائه - إلى أحد البيوت ، وما إن وصلنا إلى فناء الدار حتى وجدنا جبّاري المعركة مجتمعين عن بكرة أبيهم ومنهمكين فى شرب أنخاب "أخويتهم" بينما يمسك أحدهم - صاحب الدار ، على ما يبدو - زقًا من النبيذ بيد ، وبالأخرى كأسًا مترعة يعلوها الزبد . استقبلوه بالأحضان فور رؤيتهم له ، تبادل معهم الأنخاب ، ولو كان هناك غيرهم لما تردد فى التودد إليهم ، هذا لأنه لين العريكة وحريص على ألا يغضب أحداً لأسباب تافهة .

لو تركت لنفسى العنان لنقل ما رأيته هناك وسمعته [من العشاء الفاخر الذى تناولوه إلى الحكايات المطوّلة التى قصّوها عن مشاجراتهم وسرقاتهم، ومغامراتهم النسائية، والمدائح التى كالها البعض فى البعض الآخر، والأسماء التى ذكروها لصناديد "أخويتهم" الغائبين، أو مهارتهم الفائقة فى تمثيل الحيل التى ترد على خواطرهم وتجعلهم يقطعون العشاء لأدائها عمليًا وهم يتسايفون بالأيدى، أو الكلمات العذبة والتعبيرات الأخاذة التى يستخدمونها، وأخيراً القوام الفارغ الضخم لصاحب الدار - المدعو "مونيبوديو" - الذى يحترمه الجميع كأنه سيدهم أو والدهم]

(١٦) باشر "خوان سارمينتو دى بيّادارس" وظيفة "صاحب الشرطة" (المأمور) فى مدينة إشبيلية عام ١٥٨٩ وظل فيها لمدة عامين ، ويقال إن ثربانتس كان يقيم آنذاك فى إشبيلية أثناء تأديته لوظيفته فى جمع الغلال والمؤن للأسطول الإسبانى . ويرى بعض المؤرخين أن "صاحب الشرطة" هذا لم يهدم - على خلاف ما ذكره ثربانتس هنا - حى "لا سوثيدا" لأن الملك كان قد أصدر عفواً عاماً عن المجرمين المقيمين فيه . (المترجم)

سأدخل فى متاهة يتعذر علىّ الخروج منها حينما أريد . لقد تأكدت فى النهاية من أن المعركة الأسطورية التى خاضها سيدى معهم كان متفقاً عليها من قبل (بما فى ذلك الانسحاب وترك السيوف والأغماد) ، وعلى هذا فقد دفع لهم سيدى - نقداً - قيمة تلك الأسلاب ، بالإضافة إلى التكلفة التى حددها صاحب الدار للعشاء . أما طبق التحلية فكان عبارة عن إرشاد سيدى إلى "بلطجى" غريب دخل المدينة حديثًا ، ويبدو أنه يتفوق عليهم فى الإجرام ولذا فقد دفعهم الحقد إلى الوشاية به .وفى تلك الليلة تمكن سيدى من القبض عليه وهو عارٍ فى الفراش إلى جوار " لاكوليندريس" ، لأنه لو كان مرتدياً ملابسه ساعتها فما أظن - لما هو عليه من ضخامة وقوة - أن مسألة القبض عليه كانت ستمر بسلام ودون خسائر لا يعلم مداها إلا الله. وبالقبض على المغامر الغريب ، وبالمعركة التى سبقته ، تعاظمت شهرة الأشد جبنًامن أرنب برى ، وأعنى به مخدومى الذى تتغذى شجاعته على الولائم وكئوس الخمر ونقدية حافظته ، وعلى هذا فقد كانت المشاكل والعقبات التى تعترضه فى عمله تتحلل طواعية وتنساب - متلاشية - فى مصْرف الشجاعة .

اصبر ولا تتململ لتسمع منى وقائع حكاية أخرى وسأقصها عليك كما جرت لسيدى دون زيادة أو نقصان: سرق لصان جواداً رائعًا من بلدة "أنْتقيرة" وأحضراه إلى إشبيلية بقصد بيعه فيها .ولتفادى المخاطر فى بيعه استخدما حيلة لا ترد - حسب تقديرى - على بال الشيطان نفسه، إذ نزل كل منهما فى خان بعيداً عن الآخر ، ثم ذهب أحدهما إلى مَخْفر الشرطة وقدّم بلاغًا يطالب فيه "پدرو دى لوسادا" (زميله) بردّ الأربعمائة ريال التى استدانها منه . بعد اطّلاع الضابط على الإيصال الموقّع بالمبلغ المذكور أمر كاتب العدل وسيدى بالبحث عن "لوسادا" هذا ومواجهته بالدعوى ، وإذا اعترف يطبقان عليه القانون : إما الدفع أو الحبس . اقتادهما اللص إلى خان زميله ، أقرّ المدّعى عليه بالدّيْن ولم ينكر توقيعه على الإيصال ، ولما خيّراه بين الأمرين السابقين أبدى رغبته فى بيع الجواد لسداد ما عليه . حين شاهد سيدى الجواد خرجت

عيناه من محجريهما وأضمر النيّة على الظّفر به ، وعلى هذا فقد كلّف واحداً من معارفه بشراء الجواد لحسابه. عرض المشترى خمسمائة ريال ، ورغم أن الجواد كان يساوى أضعاف هذا المبلغ إلا إن البائع الشاطر - الحريص على إنجاز المهمة فى أقصر وقت - وافق على الثمن . استلم اللص الأول الدّيْن الذى ليس له ، وتسلم الثانى الإيصال الذى لا حاجة له به ، وانتقل إلى حوزة سيدى الجواد الذى كان نذير شؤم عليه . اختفى اللصان فور انتهاء الصفقة ، وبعد يومين لا غير ظهر سيدى فى ميدان "سان فرانثيسكو" على متن الجواد - بعد إصلاح سرْجه واستكمال طاقمه - مزدهيًا منتفخ الأوداج كقروىّ ساذج فى ملابس العيد. كان كل من يقابله - وهو منهمك فى تدوير الفرس وإرجاعه إلى الخلف و الوثْب به إلى الأمام ، وكأنه يمثل مأساته على مسرح الميدان المذكور - يبارك له ويثنى على الصفقة الرابحة التى لا تقل عن مائة وخمسين إسكودو من الذهب الخالص. وفى أثناء استعراضه بالجواد اقترب منه رجلان رشيقا القدّ ، حسنا الهندام ، ثم زعق أحدهما قائلاً : "رباه ! هذا هو "بيدرو إيرّيرو" ، جوادى الذى سرقه اللصوص من "أنتقيرة" منذ بضعة أيام" . صدّق المرافقون للرجل - وكانوا أربعة من الخدم - على كلامه . صعق سيدى، طالب بالجواد صاحبه، امتلأ الميدان بالناس، اتجه الحشد إلى مقر الشرطة للفصل فى القضية، وبعد التحقق من البراهين القاطعة والأدلة الدامغة التى قدمها صاحب الجواد صدر الحكم لصالحه واسترد ما سرق منه . فهم سيدى المزْحة وأدرك أبعاد الحيلة التى لجأ إليها اللصان واستطاعا من خلالها بيع الجواد المسروق على يد العدالة نفسها، كما اتضح لجمهور الحاضرين أن طمع سيدى هو المتسبب فى تمزيق جنبات جواله.

لم تقف مصيبته يومها عند هذا الحد لأن المأمور وصلته قبل انتصاف الليل أخبار تفيد بتسلل بعض اللصوص إلى حى "سان خوليان" ، ومن ثمّ فقد بادر - ونحن معه - بالطواف فى المنطقة المذكورة، وعند المرور بتقاطع شارعين شاهدوا رجلاً يجرى بأقصى سرعة فأمسكنى المأمور من

الطَّوْق واستحثنى بنداءاته المتكررة: "عليك باللص، أيها الباشق ! هيا يابنىّ، عليك باللص، آتنى به" .ولما كانت كأسى مترعة بشرور سيدى وآثامه ، وتنفيذاً منى للأمر الصادر بِالحرف الواحد فقد هجمت على سيدى فجأة، ودون إمهاله لاستخدام قُواه طرحته أرضاً، ولو لم يخلصوه منى لمزقته إرباً، لكنهم أزاحونى من عليه والأسى يعتصر كلينا . تحرش بى الخفراء وأرادوا قتلى ضرباً بالهروات، وكان باستطاعتهم فعل ذلك لو لم يتدخل المأمور فى الوقت المناسب – لإدراكه مغزى ماقمت به – ويقول لهم: "اتركوه، لا يلمسه أحد منكم، لقد التزم الكلب بما أمرته به دون تحريف أو زيغ" .

أما أنا، فلم أتوقف لوداع أحد، ومن فتحة بسور المدينة خرجت إلى الفضاء الشاسع ، وقبل طلوع الفجر كنت فى "مايرينادل ألكور" (١٧) . شاء طالعى السعيد أن أعثر فيها على فرقة من الجنود كانت على وشك الرحيل إلى "قرطاجنة" ، التقيت فيها بأربعة صعاليك من أصدقاء سيدى الشرطى، بالإضافة إلى طبَّال كان خفيراً من قبل ومشهوراً – مثل فئة الطبَّالين – بالغش فى لعب الورق . عرفونى جميعاً وكلمونى، وهكذا فقد بادروا – كأننى قادر على الإجابة – بسؤالى عن الشرطى، ولما كان الطبّال أكثرهم تدليلاً لى فقد عقدت العزم على الالتحاق بخدمته – إن وافق – للضرب معهم فى أرض الله الواسعة حتى لو كانت إيطاليا أو فلاندس، فأنا – وأظنك مثلى فى هذا – من المؤمنين بِالمثل القائل : "يظل أحمق المدينة على ما كان عليه من حماقة فى المحلّة القريبة" ، ولأن كثرة الترحال والاتصال بالشعوب المختلفة تصقل مواهب الرجال وتزيدهم خبرة وحِنْكة.

ثيپيون : ما تقوله هو عين الصواب لأننى سمعت من رجل عاقل خدمته أن سياحة الإغريقى الأشهر" أوليس" فى أرجاء المعمورة واتصاله بالأمم والشعوب

(١٧) تقع Mairena del Alcor على الطريق المؤدى إلى مالقة، وتبعد عن إشبيلية – من جهة الشرق – بحوالى ٢١ كم . (المترجم)

المختلفة هما السبب الرئيسى فى نعته بالفطنة والتعقل ، ومن ثم أجدنى مضطراً للثناء على قرارك بمرافقتهم إلى حيث شاءت الأقدار .

بيرجانثا : أعود إلى الطبّال وأقول إنه وجد فى شخصى المتواضع ضالته المنشودة القادرة على إماطة اللثام عن منجم شطارته وأحابيله، ومن ثمّ فقد أخذ يعلمنى الرقص على أنغام الطبلة والقيام بأعاجيب أخرى لا يمكن لكلب غيرى - كما سيتضح لكِ - استيعابها . كانت الفرقة [التى تضم جنوداً معظمهم من العصاة وشذّاذ الآفاق، وقائداً فى شرخ الشباب - وإن كان فارساً صنديداً ومسيحياً صادقاً - وملازماً لم يفارق العاصمة وحضن أبويه إلا منذ بضعة أشهر، وجاويشاً داهية] تتحرك ببطء شديد وعلى هواها من منطقة لأخرى، وذلك لعدم وجود مندوب عام مكلف بتحديد خط السير ومراحله الزمنية، ولم يكن الكثيرون من أفرادها يتورعون عن ارتكاب الأعمال الإجرامية على طول الطريق ، متسببين بذلك فى توجيه لعنات المضارين إلى من لا يستحقها، ولا يستطيع تفاديها أو دفعها ، هذا لأن الحروب تحمل عادة فى ركابها الفظاظة و القسوة وموت الضمير [يا لشقوة الأمير الطيب الذى يتسبب ظلم بعض رعيته للبعض الآخر فى إثارة السخط عليه والتبرم منه !] . المهم أننى تعلمت فى خمسة عشر يوماً فقط - لعبقريتى وشطارة من اتخذته سيداً - الامتثال للتعليمات الصادرة منه وعدم الالتفات لأحد سواه . علمنى المشى على القائمتين الخلفيتين مثل جواد إيطالى، والطواف الدائرى مثل بغل الطاحونة، هذا بالإضافة إلى عجائب أخرى تنطق جميعها بشيطانية القائم بها، ولو لا خوفى من الاستطراد وفوات الوقت لأخبرتك بها جميعًا . أطلق علىّ "الكلب الحكيم" ، ولم نكن نصل إلى محلّة سنعسكر فيها إلا ويتلقف طبلته ويمشى منادياً فى أرجاء المنطقة على سكانها لرؤية أعاجيب "الكلب الحكيم" التى ستعرض ساعة كذا وفى المكان الفلانى مقابل ثمانية فلوس أو أربعة (وتحديد قيمة التذكرة كان متوقفاً على أعداد القادمين للفرجة) . كانت بلاغته الفذة فى الإعلان عن مهارتى تدفع الناس دفعاً للذهاب عن بكرة أبيهم لمشاهدة العرض الذى سيخرجون منه مفعمين بالسرور

والإعجاب . كان يكسب المال الوفير وينفق منه بسخاء - كملك - على ستة من زملائه . أيقظ الطمع والحقد رغبة الأوغاد فى تَحَيُّن الفرصة المناسبة لاختطافى ، هذا لأن كسب لقمة العيش دون عناء أو تعب له أنصار ومريدون يفوقون الحصر ، وإسبانيا تعج بالبهلوانات المتنطعين من أمثال الذين يسرحون بالصور والأيقونات أو مشابك الغسيل والإبر والفلايات ...إلخ ، ومع أن بضاعة الواحد منهم لا تفى - فى حالة بيعها كاملة - بإعاشة صاحبها يومًا واحداً إلا إننا نجدهم لا يغادرون الحانات والمواخير طوال العام ، وهذا ما يجعلنى أعتقد فى اعتمادهم على مصادر أخرى مشبوهة لتغطية نفقات سكرهم وعربدتهم . إنهم جميعًا ليسوا إلا متشردين ، عديمى الفائدة والنفع ، سوساً للخبز وإسفنجاً للنبيذ .

ثيبيون : لا تضطرنى لتكرار تنبيهى بعدم الاستطراد حتى لاتفاجئنا الشمس وأنت لم تفرغ بعد من سرد قصة حياتك.

بيرجانثا : سمعًا وطاعة ، والآن أقول إن سيدى عندما أحس بقدرتى على تعلُّم المزيد من فنونه ، وشاهد تقليدِي المتقن للجواد الإيطالى ، اتخذ لى لباساً مزركشًا ووضع على ظهرى سرْجًا صغيراً تعلوه صورة ساذجة لرجل ممسك بحربة صغيرة (رمزاً للعبة الحلْقة) ثم علمنى الجرى من بعيد فى اتجاه عصاتين منتصبتين لالتقاط حلْقة معدنية مثبتة فى طرفيهما . وفور تعلمى لهذه اللعبة الجديدة سارع بالنداء على الناس لمشاهدتها فلم أخيب ظنه ولم أخذله حتى لا يصموه بالكذب. ولما وصلت الفرقة إلى "مونتيًا" (مدينة المسيحى الصادق والشهير: ماركيز دى بريبجو) وعسكرت فيها، أنزلوا سيدى - بناءً على رغبته - فى دار الضيافة والرعاية الصحية [١٨] ، قام بعد ذلك بدعايته المعتادة، ولما كانت شهرتى قد سبقتنى إلى تلك المدينة قبل وصولنا إليها فقد امتلأ فناء الدار فى أقل من ساعة بجمهور المشاهدين . انفرجت أسارير سيدى للمحصول

---

(١٨) فى عصر ثربانتس كانت توجد بكل مدينة إسبانية دار - أو أكثر - للضيافة والرعاية الصحية تستقبل الفقراء من أبناء السبيل والحجاج وتستضيفهم مجانًا لفترة محدودة ، كما كانت تعالجهم ، ومنها هذه الدار التى يشير إليها المؤلف . (المترجم)

الوفير وأخرج ما فى جعبته من "تفانين" . بدأ الحفل بفقرة القفز من إطار معدنى يبدو أنه لبرميل: كان سيدى يستحثنى ويثير انتباهى عادة بديباجة تناسب الفقرة المقدمة وذوق الجمهور ، كما كان يمسك فى يده بعصا من السفر جل ، وإنزالها إلى أسفل يعنى القفز ، أما رفعها إلى أعلى
فمعناه التوقف . فى ديباجته لذلك اليوم – الذى لن أنساه ما حييت – قال لى: "هيا يا صديقى، اقفز من أجل ذلك العجوز المتصابى المشغول بصبغ لحيته، وإذا كان لا يعجبك فاقفز من أجل أبهة وفخامة السيدة "بيمبينيلا دى بلافاجونيا" التى كانت زميلة للخادمة الجليقية فى "بلديا ستياس" .
ألا يروقك شىء مما ذكرت ؟ اقفز إذن حبًا فى " باسيّاس" الذى يوقع بحامل إجازة الليسانس رغم خُلُوّ جِرابه من أية شهادة دراسية. ياللك من كسول ! لماذالا تقفز ؟ آه، الآن فهمت ما تحب أن أتملقك به: اقفز من أجل خمر "إسكيبياس" الذى يضارع فى الشهرة نبيذ "ثيوداد ريال" و "سان مارتين" و "ريبادابيا" " . ولما فرغ من ديباجته السابقة أنزل عصاه فقفزت على الفور • توجه إلى الجمهور بعد ذلك وخاطبه قائلاً:
"على مجلس الشيوخ الموقر ألا يستهين بما يعرفه الكلب الحكيم: لقد علمته أربعًا وعشرين أعجوبة يطير العقاب من أجل رؤية أصغرها، أى إن أقل أعجوبة فيها تستحق أن يقطع المرء ثلاثين فرسخاً من أجل مشاهدتها . إنه يعرف رقصة "لاثارابندا" و "لاتشاكونا" أفضل من مخترعتهما، وشُرْب زِقّ من النبيذ دون أن تفر منه قطرة واحدة، وقراءة النوتة الموسيقية مثل سادن الكنيسة ، سترون هذه الأشياء وأخريات غيرها خلال الأيام التى ستقضيها الفرقة هنا، والآن انتبهوا معى لرؤيته وهو يقفز ثانية كى نتفرغ بعد ذلك لما هو أهم وأعجب فى برنامجنا الحافل" . أثار بكلامه السابق شوق الجمهور (الذى خاطبه بمجلس الشيوخ) وأشعل رغبته فى رؤية ما أعرفه . اتجه إلىّ قائلاً: "هيا، أعد بخفة ورشاقة القفزات السابقة، وعليك أن تفعل هذا إكراماً وتبجيلاً للساحرة المشهورة التى كانت تقيم فى هذه البقعة المباركة"، ولم يكد ينتهى من جملته الأخيرة حتى ارتفع صوت المشرفة على الدار (وهى امرأة مسنّة

تجاوزت – على ما يبدو – السبعين عامًا) بما يلى من الشتائم: "أيها الوغد الثرثار، يا بن الزانية، لا توجد هنا أية ساحرة . إن كنت تقصد "لاكامتشا" فقد انتقلت إلى الدار الآخرة بعد تكفيرهاعن ذنبها، وإذاكنت تقصدنى – أيها القرداتى – فأنا لست بساحرة ولم أشتغل بالسحر فيما مضى من حياتى ، أما عن ذيوع شهرتى فى هذا المجال فمرجعه إلى الشهود المزيفين والقانون المختلق والقاضى المتهالك الذى يستمد معلوماته من مصادر مضللة . الناس جميعًا يعلمون أننى أقضى ما بقى لى من عمر فى التوبة والندم، لكن ليس على السحر الذى لم أمارسه بل للتكفير عن ذنوب أخرى اقترفتها .ولذا آمرك، أيها المطبلاتى سليط اللسان، بالخروج من الدار، وإلا، فبحق قديستى لنِ أجعلك تخرج منها على قدميك" . وفور فراغها من هذا الموشح دوت فى أرجاء الفناء صرخاتها الهستيرية المختلطة بالسُباب المقذع لسيدى الذى أُسقط فى يده واعتراه الفزع والاضطراب، وفى النهاية لم تقبل بأى حال استكمال الحفل . لم يبتئس سيدى لما حدث من هرج ومرج لأنه احتفظ بما حصَّله من نقود وأرجأ عرض الفقرات الباقية إلى يوم ومكان آخرين . خرج الناس وهم يلعنون العجوز، مضيفين إلى نعتها بالساحرة لقب الحيزبون الملتحية . ورغم ما حدث فقد أمضينا – أنا وسيدى – تلك الليلة فى الدار. بحثت عنى العجوز، ولما وجدتنى وحيداً فى الحظيرة توجهت إلىّ بهذه الأسئلة : "هل أنت مونتييل ؟ ألست ابنى الذى أفتش عنه منذ سنين؟ ألا تعرف أنك آدمى ولست حيواناً ؟" .

رفعت رأسي ونظرت إليها مليّـاً، اقتربت منى عندئذ والدموع تنهمر من عينيها ثم أمسكت عنقى بكلتا يديها ، ولو تركتها لطبعت قبلة عريضة على فمى ، لكننى تقززت ولم أسمح لها بذلك .

ثيبيون : حسناً ما فعلت لأن تقبيل العجائز لا يعتبر منّة بل بلاءً وكرباً عظيمين .

بيرجانثا : والآن استعد لتسمع منى حكاية تلميذة الساحرة "لا كامتشا" التى أشرت إليها فى بداية حديثى . لقد اقتربت منى العجوز وأسرّت فى أذنى بما

يلى: "تعال معى لتعرف مكان حجرتى ، وعندما يَجِنّ الليل سأنتظرك فيها لأحدثك فى مسألة هامة تتعلق بحياتك" . طأطأت رأسى ، إشارة منى بالطاعة ، وعندئذ دخل فى روْع العجوز – كما عرفت بعد ذلك – أننى الكلب "مونتيبل" الذى تبحث عنه . انتظرت قدوم الليل مشوشًا حائراً ، متلهفًا لمعرفة حقيقة المعجزة التى أشارت إليها ، وبما أننى سمعتهم يلقبونها بالساحرة فقد كنت أمنِّى النفس بالكثير من وراء لقائها . المهم أننى وجدت نفسى أخيراً داخل حجرتها الضيقة الواطئة التى لا يبدد وحشة ظلامها سوى ضوء خافت لقنديل من الطين ، جلستْ على مقربة منى ، ودون أن تنطق بكلمة عانقتنى من جديد ، ومن جديد حاولت ألا أمكنها من تقبيلى . قالت لى بعد ذلك :

"كثيراً ما دعوت السماء كى تمنّ علىّ بلقائك قبل أن تنام عيناى نومتهما الأبدية، والآن وبعد أن تحققت أمنيتى فأهلاً ومرحبًا بالموت لينتشلنى من كبد هذه الحياة . اعلم يا بنى أنه كانت تعيش فى مدينتنا هذه أعظم ساحرة عرفها العالم وتدعى "لاكامتشا دى مونتيّا" [(١٩)] ، وقد كانت بارعة ومتفردة فى مجالها بحيث لا يدانيها غيرها من الساحرات والسَّحرة أمثال "لاس إريتوس" و"لاس ثيريث" و"لاس ميدياس" . كان باستطاعتها – أنى شاءت – تجميد السحب وإيقافها ، حاجبة وجه الشمس ، وإعادة الصفاء والسكينة للسماء الأشد هياجًا ، والإتيان بأى إنسان من أقاصى المعمورة فى طرفة عين ، وإعادة البكارة للفتيات اللاتى تهاونّ فى الحفاظ على عفتهن ، وتمكين الأرامل من إهراق شرفهن فى خفر واحتشام ، وتطليق المتزوجات وتزويج من تريد. فى شهر ديسمبر كانت حديقتها تعج بالورود اليانعة ، وفى يناير يحين موعد حصاد قمحها . أما نموّ النباتات على صفحة الماء أو عدم رؤية الشخص لصورته فى المرآة فيعتبران من أقل ما كانت تفعله. اشْتهرتْ بتحويل الإنسان إلى حيوان ، ويعلم الجميع هنا أنها حوّلت سادن كنيسة إلى حمار

---

(١٩) فى منتصف القرن السادس عشر كانت توجد ساحرتان بهذا الاسم فى المدينة المذكورة (مونتيًا)، ولاشك أن ثربانتس قد علم بخبر هاتين الساحرتين عندما كان يعمل بتلك المنطقة عام ١٥٩٢ .(المترجم)

حقيقى ظلت تستخدمه لست سنوات كاملة . ورغم أن القدماء يقولون إن أقصى ما يستطيع السحرة عمله فى هذا المجال هو جعل الشىء يبدو وكأنه شىء آخر (على طريق التخييل) إلا إن ما حدث معك يابنى مختلف بكل المقاييس : فأنا أعرف أنك شخص عاقل ومع ذلك أراك فى صورة كلب . ومهما كانت الحقيقة فما يحزننى ويوجعنى فى الصميم هو عدم وصولنا - لا أنا ولا أمك ،وكنا تلميذتين نجيبتين لكامتشا- إلى مستوى تلك الساحرة الداهية ، وهذا ليس نابعًا من تقصير أو تراجع فى العبقرية والمهارة أو خمول فى الهمّة من جانبنا ، بل لخبثها الشديد الذى جعلها تحتفظ لنفسها بالأسرار الكبيرة والضنّ بها على تلميذتيها الوفيتين .

أمك ، يا بنى ، كانت تدعى "مونتييلا" وتعتبر خليفة "لاكامتشا" ، أما أنا فاسمى "كانيثاريس" ولست ضليعة مثلهما وإن كنت لا أقل عنهما رغبة فى المعرفة . كانت لدى أمك - مثل "لاكامتشا" - القدرة على تحضير فيلق من الجن والتحاور معه ثم صرْفه ، أما أنا فأكتفى - لقناعتى - بنصف فيلق منهم ، وإن كنت أبزّ الجميع فى إعداد المراهم التى يدهن بها السحرة أجسادهم. اعلم ، يا بنى ، أننى حين رأيت الحياة تتفلت سريعًا من بين يدى وتمضى منطلقة على جناحى الزمن الرشيقين قررت ترْك وحْل السحر الذى تمرغت فيه لسنوات طويلة والاقتصار على الأعمال القبيحة للشعوذة لأنها تحوّلت إلى عادة يصعب الإقلاع عنها . لقد فعلت والدتك الشىء نفسه : تخلّت عن كثير من الرذائل ، وقدمت العديد من أعمال الخير ، لكنها ماتت فى النهاية مشعوذة ، ولم يكن موتها نتيجة مرض أو سقم ، بل حسرة على ما فعلته "لاكامتشا" معها بدافع الغيرة والحقد من تسلقها لدرج المهارة بقوة. ولإيضاح الأمر الأخير أقول إن أمك كانت حبلى، ولما دنت ساعة الولادة قامت "لاكامتشا" بدور القابلة، لكن يديها بدلاً من أن تستخرجا الطفلين اللذين كانا فى بطن أمك تلقيتا جروين صغيرين. عقدت الدهشة لسانينا - أنا وأمك - وانبرت "لاكامتشا" قائلة : "يا لها من فضيحة ! ما هذا الإفك المبين ؟ لا

تحزنى يا "مونتيبيلا" لأننى صديقتك ولن أحدث أحداً بما شاهدته ، اهتمى بصحتك ولا تلقى بالاً لهذه الحادثة البشعة لأنها ستقبر بين ركام الصمت ، هوّنى عليك يا أختاه لأنى أعرف جيداً أنك لم تعاشرى مخلوقاً آخر غير صديقك "رود ريجيث" الحمّال ، ومن ثمّ فإن هذا الوضع الشاذ يكتنفه الإبهام والغموض" . قالت هذا ثم تركتنا وحملت الجروين إلى خارج البيت . وقبل إسلام " لاكامتشا" الروح لبارئها استدعت والدتك واعترفت لها بأن الغيرة وحدها هى التى دفعتها لسحر ولديها كلبين، كما أخبرتها أنهما سيعودان إلى صورتهما الآدمية بعد وقت قصير من سماعهما – أو سماع أحدهما – للتعويذة التالية :

ستعودان حتماً إلى هيئتكما الأصلية
حين تريان المتعجرفين من أصحاب الثراء
يتساقطون سراعاً من عليائهم،
وارتقاء المنحطين الوضعاء
لاحتلال مكانهم.

دوّنت والدتك التعويذة واختزنتها ذاكرتها ، كما حفظتها عن ظهر قلب أملاً فى ملاقاة أحدكما ذات يوم ، وكلما رأيت كلبًا من لونكما وعليه مخايل الذكاء أنتحى به جانبًا وأقرأ عليه التعويذة ، وعندما شاهدت الأعاجيب التى قدمتها هذا المساء ، وسمعتهم ينادونك بالكلب الحكيم ، ورأيتك ترفع رأسك منصتًا لحديثى فى الحظيرة ، اعتقدت أنك ابن " مونتيبيلا" الذى أبحث عنه لأخبره بماضيه وألقى عليه التعويذة طمعًا فى عودته إلى هيئته الأصلية. اتجه ، يا بنى ، إلى الله بالدعاء لكى تتحقق نبوءة "لاكامتشا" وتعود أنت وأخوك – إن كان حيًا – إلى الصورة المبتغاة فى القريب العاجل .

ما يوجعنى ويحزننى هو أن أيامى القليلة الباقية لن تمهلنى لرؤية هذا الحدث الفريد ، لقد حدثتنى نفسى مراراً بسؤال شيطانى الأكبر عن مصيركما ، لكننى كنت أتراجع فى اللحظة الأخيرة لعلمى أنه لا يجيب على أسئلتنا مباشرة ، بل يرد بكلام ملتوٍ يحتمل الكثير من التأويلات ،

وعلى هذا فهو يخلط النذر اليسير من الحقيقة بآلاف التُرّهات . ومن تجاربى الكثيرة معه خرجت بنتيجة مفادها : أنه لا يعرف على وجه اليقين شيئاً عن المستقبل ، ولا يقدم سوى التكهنات والتخمينات . ومن العجب العجاب أننا لا ننفضُ من حوله رغم علمنا بخداعه المستمر وسخرياته المتكررة . إننا نقابله – نحن معاشر السحرة والساحرات – فى فضاء بعيد عن المدينة ،وهنالك يقدم لنا طعاماً ممجوجاً مقززاً، ويجبرنا على الإتيان بأفعال بذيئة مستقبحة يعف لسانى عن تلويث أذنيك بها . لقد اختلفت الآراء حول كيفية حضورنا لولائم الشيطان : فبينما يرى البعض أنها تتم فى الخيال فقط، يدعى آخرون أنها تتم بالروح والجسد معاً، ومن جهتى أعتقد أن كلا الرأيين صحيح لأن حالة الوجْد التى تنتابنا لا تجعلنا نفرق بين هذا الأمر أو ذاك ، ولأن ما يجرى فى الخيال يكون مكثفاً للغاية بحيث لا يمكن فصله عن الواقع .ولا شك أن وجهة نظرى هذه لاغبار عليها إذا ما أخذنا فى الاعتبار نتائج التحقيقات التى أجراها أعضاء محاكم التفتيش مع زملائنا وزميلاتنا فى السجون .

لقد عقدت العزم يابنى – كما سبق وأخبرتك – على الابتعاد عن الآثام وعملت جاهدة من أجل ذلك : التحقت بدار الرعاية الصحية للمشاركة فى علاج الفقراء ، وأستعين على الحياة بما يقدمه المرضى من توافه الأشياء أو بما يتركه الموتى مخبوءاً فى ملابسهم . أصلى قليلاً ، لكن على مرأى من الناس . أغتاب وأنمّ كثيراً ، لكن فى الخفاء ، فوصمة المراءاة خير لى من وصمة العصيان الصريح ، ومن ثمار هذا السلوك أن المظاهر الطيبة لأعمالى الحالية أخذت تمحو من ذاكرة الذين يعرفوننى الصورة السيئة لحياتى الماضية ، لا شك أن القداسة الظاهرية المفتعلة لا تلحق الأذى بالغير بل بمن يمارسها فقط . استمع يابنى لهذه النصيحة : كن طيباً قدر ما تستطيع ، ولو كتب عليك أن تكون سيئاً حاول ألا تقترف كل ما تقدر عليه من سوء . لا أنكر أننى مشعوذة ولا أنكر أيضاً أن والدتك كانت ساحرة ومشعوذة ، ورغم هذا فإن المظهر الخارجى لكلتينا كان بمثابة رخصة لكسب ثقة الجميع . قبل موت والدتك بأيام ثلاثة ذهبنا سوياً فى

لمّة من الصديقات إلى وادٍ بجبال البرانس حيث لهونا وأكلنا وسعدنا ، لقد ماتت أمك فى اطمئنان وسكينة ولم يلحق وجهها أىّ تغيير سوى تعويجة طفيفة قبيل خروج الروح بربع ساعة ، لقد رحلت عن عالمنا وقلبها مكتوٍ بنار ضياع ولديها ، ولم تغفر – وهى فى النزع الأخير – لكامتشا فعلتها النكراء ، وهكذا كانت أمك دومًا : ماضية كحد السيف ، وعلى قناعة تامة بما تفعل . أنا التى أغلقت عينيها ، ورافقتها حتى مثواها الأخير ، وتركتها هنالك حيث لا عودة إلى اللقاء ، ورغم هذا فما زال الأمل يراودنى فى رؤيتها ثانية قبل موتى لأن الأخبار تتردد فى المدينة عن رؤية بعض الأشخاص لها ، هائمة على وجهها بين المقابر وعلى مفارق الطرق ، وربما أعثر عليها ذات يوم لأسألها عن أىّ شىء يكون قد فاتها فى الدنيا وتريد منى عمله حتى يستريح ضميرها" .

كان كل شىء من الأشياء التى تثنى بها العجوز على التى تعتقد أنها أمى بمثابة رمح يخترق أحشائى ، وكثيراً ما حدثت نفسى بالانقضاض عليها وتمزيقها إرباً بأسنانى ، ولم يمنعنى من التنفيذ سوى إشفاقى من إدراك الموت لها وهىٍ فى حالة أسوأ مما هى عليها . المهم أنها أخبرتنى أخيراً بعزمها على دهْن نفسها تلك الليلة للاجتماع بالشيطان ، وإنها تفكر هذه المرة فى سؤاله عن مصيرى ، أردت سؤالها عن تركيبة هذا الدهان ونوعيته ومفعوله ، ويبدو أنها قرأت ما يعتمل فى صدرى لأنها بادرت بالإجابة على مالم أتلفظ به قائلة :

"لا تظن أننا نستعين فى تحضير هذه المراهم بدماء الأطفال – كما تعتقد الدّهْماء – بل بخلاصة أعشاب بريّة شديدة البرودة ، ولو كنت تَعِى وتفكر جيداً لسألت نفسك هذا السؤال ، ما الذى سيجنيه الشيطان من قَتْل الأطفال حديثى العهد بالولادة ؟ لو حاولت الإجابة لأدركت أن هذا الأمر مخالف تمامًا لمهمة الشيطان على الأرض ، فمن المعروف أن هؤلاء الأطفال يرتقون حال موتهم إلى جنة الخلد مباشرة لأنهم أبرياء ولم يرتكبوا ذنوباً أو معاصى ، والشيطان لا يحزنه شىء أكثر من فرار نفس مسيحية من بين براثنه ، وفى هذا يصدق المثل القائل : "ما الفائدة التى

ستعود عليّ من فقأ عينيّ ما دام عدوى سيفقأ عيناً واحدة ؟!" .. ما يهم الشيطان هو اقترافنا لكبائر الذنوب فى كل خطوة نخطوها، وبالطبع فإن كافة ألوان الذنوب والمعاصى من خلق الله تعالى ومسطرة فى اللوح المحفوظ ، ولو لم يقدرها علينا ما استطعنا إهانة الشيطان ولو بأقل القليل . ومن واقع خبرتى الشخصية أستطيع التأكيد على صدق ما ذهبت إليه : لقد رجوت الشيطان مرة وتوسلت إليه لكى يدمر كرْمة عدوٍّ لى ، فقال لى إنه لا يستطيع أن يمسّ ورقة واحدة منها لأن الله لم يرد ذلك ولم يقدره . حين يشتد عودك وتبلغ مبلغ الرجال ستدرك أن كل ما يحيق بالأفراد والأمم والمدن والممالك من كوارث ومحن (مثل الموت المفاجئ أو الغرق أو الأوبئة أو تبدل الأحوال ... إلى آخر قائمة الأضرار التى نعرفها) خاضع لمشيئة الله وقضائه ، أما الأضرار الناجمة عن ارتكاب الذنوب والمعاصي – نتيجة التعدى على حدود الله – فمن صنع أيدينا . الله سبحانه منزّه عن الأخطاء ، خلق الذنب والمعصية ولم يأمر بهما ، ولذا يحاسب على اقترافهما سواء كان ذلك بالنية أو القول أو العمل . لو كنت تفهمنى لتساءلت الآن عن علاقة المرأة التى تحدثك باللاهوت وبالخوض فى المسائل العقائدية المحضة ، وربما تماديت إلى ما هو أبعد من ذلك وتساءلت متعجباً : "يالك من حيزبون خالعة العذار ! تعرفين كل هذا وما زالت متشبثة بمستنقع الشعوذة الآسن ! لم لا تَعودين إلى مملكة الرب ، غافر الذنب وقابل التوْب ؟!" . وكما لو كنت قد وجهت إليّ بالفعل هذه الاستفسارات سأجيبك عنها قائلة : إن الممارسة المستمرة للرذيلة تتحول إلى عادة وجبلّة ، والاعتياد على السحر والشعوذة يستعبد الجسد ويلقى على الروح غشاوة تباعد بينها وبين الإيمان الصادق ،وحين يصل الأمر إلى هذا الحد تتناسى الروح نفسها ولا تتذكر النار التى أُعدت للكافرين ولا الجنة التى وعد بها المؤمنون ، إن معاصى الجسد المصحوبة باللذة شديدة الوطأة والإغراء بحيث تستولى على الحواس وتجعلها متبلدة ذاهلة ، وسرعان ما ينعكس تبلد الحواس على الروح فتصبح واهنة سقيمة ، غير قادرة على إعمال الفكر الصحيح ، وبهذا الشكل تغرق النفس البشرية فى

خضم بؤسها وشقائها ولا تلتفت ليد الرب المبسوطة – رحمة وشفقة – لانتشالها من وهدتها .وروحي من هذا الصنف الذى صورته لك : فمع أنى أرى بوضوح كل شيء وأفهمه إلا إن اللذة تكبل إرادتى بأغلال من حديد . ولهذا السبب كنت دائماً سيئة وسأظل هكذا ما حييت.

لندع هذه الاستطرادات جانباً وهيا بنا نستكمل ما بدأناه من حديث عن المراهم والدهانات ، وعودة منى إلى نقطة البداية أقول إن المراهم تكون شديدة البرودة بحيث تفقدنا الحواس وتجعلنا نتمدد على الأرض عرايا، وعندئذ نرى – كما يقولون – بعين الخيال ما يبدو أنه يحدث في الواقع. في بعض الأحيان ، وبعد فراغنا من عملية الدهان يخيل إلينا أن أشكالنا تحولت إلى غربان أو ديوك أو هامات ... إلخ لكى تسارع بالذهاب إلى مكان اللقاء بالشيطان ، وهناك نستعيد صورنا الحقيقة لنستمتع باللذات التى لم أمط اللثام عنها لأنها شديدة القبح بحيث تستهجن الذاكرة استحضارها ويعف اللسان عن ذكرها ، ورغم هذا فمازلت مشعوذة وأستعين بعباءة النفاق علي مداراة خطاياى الكثيرة .صحيح أن البعض يحترمنى ، لكن الأغلبية تلقى على وجهى بأقذع الشتائم ، وهذا بسبب الصورة الشائهة التى ارتسمت – لى ولأمك – فى أذهان الكثيرين بعد محاكمة حانقة أجراها لنا منذ زمن بعيد قاضٍ غضوب ثم سلمنا بعدها ليد جلأد نفذت الحكم بصرامة – لأن صاحبها لم يرتشِ – وصبّت جام غضبها على ظهرينا . لكن هذه الواقعة قد طوتها الأيام كما تطوى أشياء أخرى كثيرة : فالذاكرة يجف نبعها ، والحيوات لا تعود ، والألسن ينالها التعب ، والأحداث الجديدة تغطى على القديمة . عملى فى دار الرعاية الصحية يكفل لى الاحترام الخارجى ، ودهانتى تنعم علىّ بالأوقات الهنيئة ، ومع أننى لا أقوى على الصوم لكبر سنى (الذى يناهز الخامسة و السبعين) ، ولا أستطيع الصلاة لغيابى عن الوعى فترات طويلة ، ولا تأدية فريضة الحج لوهن ساقىّ ، ولا تقديم الصدقات لفقرى المدقع ، ولا التفكير فى أعمال الخير لأنى صديقة للنفاق والغيبة والنميمة ، إلا إننى لم أفقد الأمل فى عفو الغفور الرحيم ، الذى خلق الصالح والطالح ويعلم أزلاً

من أكون . يكفينى الخوض فى هذا الحديث المؤلم المثير للشجون ، ومن ثمّ أدعوك لترى بنفسك كيف أستخدم الدهان ، فمن غير المستحب البحث عن مواطن الآلام أو استعداء اليوم الباسم بالبكاء ، ولإيضاح ما أعنيه أقول: إن المتعة المتخيلة تفوق فى اللذة – رغم مخالفة هذا للعقل والمنطق– المتعة المحسوسة" .

نهضت بعض فراغها من هذه الخطبة الطويلة ثم أخذت القنديل ودخلت غرفة أخرى أشد ضيقاً . تبعتها وآلاف الأفكار تتناوشنى من كل اتجاه ، مفتوناً بما سمعت وبما أنا مقدم على رؤيته . علّقت القنديل على جدار ، تعرّت حتى القميص ، تناولت من أحد الأركان إبريقاً زجاجيًا ، أدخلت فيه إحدى يديها ، دمدمت من بين أسنانها ببعض الكلمات ثم راحت تدهن جسدها من أخمص القدمين إلى أعلى الرأس . قالت لى أثناء عملها : لا تفزع إذا شاهدت جسدى ممدداً دون حس أو إذا اختفى من أمامك ، ولا تبرح المكان قبل انبلاج الصباح لتعرف ماذا سيحدث لك حتى تعود إلى هيئتك الأصيلة . ولما أحنيت رأسى – إشارة منى بالطاعة – كانت قد انتهت من عملها . تمددت بعد ذلك على الأرض مثل الموتى. اقتربت من فيها ولم أعثر للتنفس على أثر .

أعترف لك يا صديقى ثيپيون بأن خوفاً شديداً قد اعترانى حين وجدتنى محبوسًا فى الغرفة الضيقة مع تلك الشخصية التى سأحاول قدر استطاعتى وصفها لك : جسد فارع يزيد طوله عن سبعة أقدام ، عبارة عن هيكل عظمى مغطى بجلد مشعر مدبوغ ومغبّر ، بطن مثل بطن بدنة تغطى موطن العفة وتتدلى حتى منتصف الفخذين ، نهدان مثل ضرعين جافين متغضنين لبقرة ، شفتان ضاربتان إلى السواد ، أسنان مطبقة ، أنف أقنى ، عينان متباعدتان ، رأس أشعث ، وجنتان غائرتان ، عنق قصير وصدر واطئ . إن جسدها باختصار لم يكن إلا أنموذجًا ماديًا لصورة الشيطان القبيحة المختزنة فى الأذهان .وقفت أتأملها وسرعان ما تملكنى ذعر مزدوج : من هيئتها القبيحة الماثلة أمامى ، ومن روحها الخبيثة الهائمة فى عوالم الشر . أردت عضّها لمعرفة ما إذا كانت ستثوب

إلى رشدها ولم أعثر على موضع لا يعوقني فيه القَرَف ؛ ورغم هذا تحاملت على نفسي وأمسكت بأحد أطرافها المكلّسة ثم أخرجتها – جرجرة– إلى الفناء ، ومع هذا لم تصدرعنها إيماءة توحي باسترداد ها للوعي ، وهناك ، في الفضاء الواسع وتحت السماء المكشوفة ، ذهب عني الخوف ، وإن شئت قل خفتت حدّته بحيث واتتني الشجاعة لانتظار ما سيسفر عنه الموقف ، ولمعرفة ما ستخبرني به عن حالي بعد عودتها من الرحلة الشيطانية . كانت الأفكار تتناوشني وأنا واقف إلى جوارها وأتساءل : "كيف أصبحت هذه العجوز حصيفة و سيئة في آن واحد ؟ مالها ومعرفة الفارق بين الأضرار الناجمة عن الكوارث والمحن وبين المتمخضة عن الذنوب والمعاصي ؟ كيف يتفق فهمها العميق للعقيدة وأحاديثها المطوّلة عن الرب مع استسلامها المطلق للشيطان ؟ كيف يتسنى لها اقتراف الإثم عامدة وهي عليمة بعواقبه الوخيمة ؟" .

مضت الليلة في مثل هذه التساؤلات إلى أن طلع علينا النهار ونحن في وسط الفناء : هي سادرة في غيبوبتها ، وأنا مقعٍ إلى جوارها ، ناظر إلى هيئتها القبيحة . توافد نزلاء الدار ، وحين رأوا ذلك المشهد انبرى بعضهم قائلاً : "إنا لله و إنا إليه راجعون ، لقد ماتت كانيثاريس المباركة، انظروا إلى ما فعلته التوبة الصادقة في جسدها من تشويه ونحافة" ، بينما قام أفراد آخرون أكثر تعقلاً بتحسس نبضاتها ولما وجدوها ما زالت تنبض بالحياة عرفوا أنها في حالة وجد ، غائبة عن الوعي .لم يعدم مسرح الأحداث وجود فريق ثالث أخذ يعلق على ما يراه قائلاً : "لا شك أن هذه العاهرة العجوز تمارس الشعوذة والسحر وفي غيبوبة من أثر الدهان ، القديسون لا تنتابهم مطلقاً حالات النشوى الفاضحة المتهتكة ، المطلعون منّا على سيرة هذه المرأة يعرفون أن شهرتها في السحر تفوق حتى الآن شهرتها في القداسة" . تجرأ محبو الاستطلاع وقاموا برشق جسدها كله بالدبابيس ، ورغم هذا لم تثب الذّاهلة إلى رشدها إلا في السابعة صباحاً. حين أحست بوخز الدبابيس وبأثر العضّات والكدمات والرضوض ، وشاهدت عيوناً كثيرة مسلّطة عليها اعتقدت – وكانت محقة فيما ذهبت

إليه – أننى المتسبب الأوحد فى فضيحتها ، وعلى هذا فقد اقتربت منى وأطبقت بكلتا يديها على عنقى – محاولة خنقى – وهى تقول : "أيها السافل ، النذل ، البائس ، الخبيث ! أهذا جزاء ما أسديته لأمك من معروف وما قدمته لها من خدمات ، وما كنت بصدد تقديمه لك ؟!" . ولما وجدتنى على وشك الهلاك اجتهدت فى التملص منها ثم أمسكتها من طيّات بطنها المتدلية ورحت أمسح بها أرجاء الفناء ، بينما كانت تصرخ طالبة النجدة لتخليصها من بين براثن الروح الشريرة .

من كلمات العجوز اعتقد معظم الحاضرين أننى أحد الشياطين الذين يكنّون العداوة والبغضاء للمسيحيين الأتقياء .كان البعض منهمكاً فى رشّ الماء المقدس تجاهى ، لم يجرؤ آخرون على الاقتراب منى ، بينما انخرط فريق ثالث فى تلاوة التعاويذ بنية "صرْفى" من المكان .كانت العجوز تدمدم وأسنانى تزداد تشبثاً بها ، تعالت الفوضى و عمّت البلبلة ، وسيدى الذى وصل على الجلبة والصياح تملكه القنوط إزاء رميهم لى بالشيطنة . أما الذين لا يعرفون الرُقى والتعاويذ فقد بادروا بإحضار ثلاث عصىّ غليظة أو أربع وأخذوا يرسمون بها علامات متكررة للصليب على ظهرى ، آلمتنى المزْحة السخيفة واحْمرّ لها جلدى ، تركت العجوز ، وفى ثلاث قفزات لا غير كنت فى الشارع ، وبعدد لا يزيد كثيراً عن القفزات السابقة خرجت من المدينة متبوعاً بجموع غفيرة من الصبية، بعضهم ينادى صارخاً : "ابتعدوا عن الكلب الحكيم الذى أصابه السُعار" ، فترد أصوات أخرى مُفنّدة : "لا ، لم يُصبْه السُعار ، إنه شيطان فى صورة كلب" . وهكذا خرجت مسرعًا وسط هدير الهتافات المحمومة ، والكثيرون يلاحقوننى معتقدين – بسبب ما شاهدوه من أعاجيبى أو لما تَقَوّلته على العجوز بعد إفاقتها من حلمها الملعون – إننى بالفعل شيطان . لم أدّخر وسعًا فى الهرب والاختفاء من أمام عيونهم (وربما أعان هذا على ترسيخ اعتقادتهم) ، وفى ست ساعات قطعت اثنى عشر فرسخًا وصلت فى نهايتها إلى مخيمٍ للغجر على مقربة من غرناطة . تلكّأت قليلاً حين سمعت بعضهم ينادينى بالكلب الحكيم ، استقبلونى بحفاوة بالغة وخبّأونى

في مغارة حتى لا يجدني من يفكر في البحث عني ، عرفت بعد ذلك أنهم أخذوني ليتريحوا من ورائي مثلما كان يفعل الطبّال . قضيت في كنفهم عشرين يوماً تعرفت فيها على حياتهم المثيرة وعاداتهم الغريبة ، ومن ثمّ أراني مضطرا لسرد بعضها عليك .

ثيبيون : قبل المضى قُدُماً في حكايتك دعنا نتوقف قليلاً لاجتلاء وجه الحقيقة فيما قالته الساحرة، ولتفنيد فرْيتها الكبرى التي صادفت هوى في نفسك .من العتَه يابيرجانثا الاعتقاد أن "لاكامتشا" كانت لديها القدرة على تحويل الإنسان إلى حيوان، وأن سادناً لكنيسة ظل يخدمها السنوات التي ذكرتها في صورة حمار . إن هذه الأمور وما شابهها مجرد أباطيل وتخييلات من عمل الشيطان ، أما بالنسبة لما يخصنا حاليًا فإذا كنا نشعر بنوع من الإدراك والفهم ونتحدث رغم أننا كلبان أو في صورة الكلاب ، فهذا يندرج – كما اتفقنا آنفاً – تحت بند الإعجاز الحقيقي ولا يعتبر أمراً طبيعياً قابلاً للحدوث في كل وقت .ولمزيد من الإيضاح أقول : إذا تدبرت مليّاً فيما ساقته "لاكامتشا" كشرط لعودتنا إلى الصورة الآدمية ستجد أنه مجرد لغو فارغ وتلاعب بالألفاظ ، فالتعويذة التي بدت لك وكأنها نبوءة ما هي إلا كلمات للوعظ والإرشاد ، أو من قبيل الحكايات والنوادر التي تتسلى بها العجائز أمام موقد النار في ليالي الشتاء الطويلة (مثل قصة الجواد مجدوع الرأس أو عصا الساحر الزاخرة بشتى ألوان الفضائل)، وعلى هذا فمثل هذه الكلمات لا يُراد بها المعنى الحرفي وينبغي حملها – كما سمعتهم يقولون – على معناها المجازي . وفي ضوء هذا الفهم دعني أفسر لك هذه الأبيات التي سمعتها منك على أنها تعويذة:

ستعودان حتماً إلى هيئتكما الأصلية
حين تريا المتعجرفين من أصحاب الثراء
يتساقطون سِراعاً من عِليائهم ،
وارتقاء المنحطين الوضعاء
لاحتلال مكانهم.

إن الكلمات تشيرهنا إلى أننا سنسترد الصورة الآدمية حين نرى الذين كانوا يعتلون بالأمس قِمة عجلة الحظ مدعوسين اليوم بأقدام البؤس والشقاء، وحين نشاهد نكِرات الأمس يمتطون الآن ظهر الطالع السعيد ولا سبيل لنا إلى اللحاق بمنزلتهم العالية الرفيعة . وإذا كانت عودتنا إلى الصورة التى تقول عنها مرهونة برؤية تلك الأمور فقد رأيناها مراراً وتكراراً ، وها نحن أولاء نشاهدها فى كل لحظة ، ورغم هذا فما زلنا كلابا وأولاد كلاب كما ترى ، ومن ثَمّ لا أجد مانعًا من وصف "لا كامتشا" بالسحر والتزييف ، و "كانيثاريس" بالنفاق والرياء ، و "مونتييلا" – مع خالص اعتذارى لو كانت والدتنا ، أو أمك وحدك لتنازلى عن شرف الانتساب إليها– بالحمق والخبث والقذارة. إن أحوال الناس فى الدنيا مثل أحوال اللاعبين فى مضمار "البولو" حيث يتهاوى الواقفون على أقدامهم بِخفة وسرعة ، وينهض المتساقطون فى لمح البصر ، أما الذى يُحرك كرات "البولو" الحديدية فى لعبة الحياة فهو القادر على كل شيء . أتستطيع إحصاء عدد المرات التى شاهدنا فيها لعبة "البولو" تلك ؟ وهل شفع لنا ذلك فى العودة إلى الصورة الآدمية ؟ هذا إذا كُنا – أصلاً – من بنى البشر .

بيرجانثا : لا فُضّ فوك يا ثيبيون ، إنك أكثر ذكاءً مما كنت أتصور ، وبناءً على تحليلك المنطقى الرشيد لم يعد يخالجنى أدنى شك فى أننا من فصيلة الكلاب ، وأن ما يجرى لنا حتى الآن مجرد حلم ، ومع هذا لا ينبغِى نبذ الاستمتاع بمنّة الكلام ونعمة العقل طوال الوقت المقدّر لنا ، ومن ثَمّ أهيب بك كى تتحلى بالصبر وألا يعتورك الفتور لسماع ما حدث لى مع الغجر الذين أخفونى داخل مغارة.

ثيبيون : سأُقبل مسروراً علِى حديثك كى أجبرك فيما بعد على سماع حكايتى إن أمهلتنى السماء لِقصِّها عليك.

بيرجانثا : فى الفترة الوجيزة التى قضيتها مع الغجر تعرفت على خصالهم وأساليب مكرهم وخداعهم ، ولاحظت جريان داء السرقة فى دمائهم من المهد إلى

اللحد. ألا ترى جماعاتهم المنتشرة فى طول إسبانيا وعرضها ؟! ورغم شتاتهم هذا فما من جماعة إلا وهى على صلة مستمرة بالجماعات الأخرى ، ولهذا السبب لا تستقر مسروقاتهم فى مكان لأنها دائمة التجوال فيما بينهم. ولكل جماعة زعيم تقدم له - كالملوك أو أكثر - فروض الطاعة والولاء ، ويطلقون على الزعيم والمنحدرين من صلبه لقب " مالدونادو" ، وبالطبع فإن اللقب لا يمتّ بصلة إلى عائلة " مالدونادو" العريقة والشهيرة، بل لفتى كان تابعًا لأحد الفرسان ووقع فى غرام غجرية لم توافق على الزواج منه إلا بعد انخراطه فى جماعتها . ولما تزوجها الشاب- المدعو " مالدونادو" - وعاش معهم أحبوه وأعجبوا بمهاراته ، وعندئذ نصّبوه زعيمًا عليهم ، وكانوا يقدمون له - كبرهان على الطاعة والولاء - جزءاً من سرقاتهم الثمينة. والغجر كما تعرف لا عمل لهم سوى النصب والاحتيال ، وأوقات فراغهم الطويلة يقضونها فى صنع المشغولات الحديدية بهدف التغطية على أنشطتهم الحقيقية ، ولذا تراهم فى الشوارع يبيعون الكماشات والمطارق والمثاقب وحمّالات القدور. ونساء الغجر جميعهن يتفوقن على قابلاتنا المتخصصات ؛ إذ لا تستعين الواحدة منهن بأية أدوات لإخراج المولود من بطن أمه ، وفور ولادته يبادرن بصب الماء البارد عليه ، ولهذا السبب تتحمل جلودهم المدبوغة الظروف القاسية للمناخ وتجعلهم مؤهلين للعيش فى كافة الأجواء ، كما تحولهم إلى عدّائين وراقصين مهرة ولاعبى أكروبات. ولا يتزوج الغجر إلا من محيطهم الاجتماعى حتى لا تتسرب أسرارهم وعاداتهم السيئة خارج نطاق العشيرة ، وزوجاتهم يحافظن على شرفهن ، وقلما تخون الغجرية زوجها مع إنسان آخر. إذا طلبن صدقة فإنهن يحصلن عليها نتيجة للتزلف والمراوغة لا من أجل المظهر البائس أو الورع أو لما يحفظن من آيات الإنجيل ، ولا يوجد منْ يثق فيهن أو يكلفهن بعمل فى مقابل أجر لأنهن والتنطع سواء ، وإذا لم تخنى الذاكرة فلم أقابل فى المرات الكثيرة التى دخلت فيها الكنائس غجرية واحدة تتناول القربان المقدس أمام المذبح، هذا لأن عقول الغجر تكاد تكون مبرمجة على التفكير فى

النصب والاحـتـيـال ورسم الخطط للإيقـاع بـهـذا أو ذاك، ولتـصـريف حصيلتهن من المسروقات. لقد سمعت أحدهم يقص على زملائه كيف باع حماره مرتين لفلاح ساذج ، ولكى أشبع فضولك ياأخى ثـيـپـيون فها أنذا أعيد عليك تفاصيل الحيلة الشيطانية كما سمعتها : كان لدى ذلك الغجرى حمار مقطوع الذيل فصنع له آخر مشعراً وأوصله بفضالة الذيل الأصلى بحيث يبدو لكل من يراه أنه حقيقى وغير مصطنع . ذهب إلى السوق فابتاعه منه فلاح بعشرة دوكادوس ، بعد أن قبض الغجرى الثمن أخبر الفلاح بوجود حمار مشابه فى مضاربه القريبة معروض أيضاً للبيع وبثمن مغرٍ فأبدى الفلاح استعداده لشراء الحمار التوءم ، وطلب منه إحضاره إلى السوق وانتظاره لحين عودته من إيداع الحمار الأول فى حظيرة الخان الذى ينزل فيه ، تبعه الغجرى دون أن يشعر به واستطاع سرقة الحمار من الخان ، ولما ابتعد به بادر بنزع الذيل المستعار وتغيير البرذعة والشكيمة ، ثم واتته الجرأة للذهاب به ثانية إلى السوق ومقابلة الفلاح المنتظر ، وافق الأخير على الشراء وطلب من الغجرى اصطحابه إلى الخان لاستلام النقود ، ولما وصل الفلاح إلى الخان واكتشف ضياع حماره الأول ساورته الشكوك فى الغجرى وأبى تسليمه ثمن الصفقة الثانية، أحضر الغجرى موظفى الضرائب الذين حصّلوا منه رسوم بيع الحمار الأول وشهوداً آخرين لم يتوانوا جميعاً فى الحلف على أن الحمار الأول كان بذيل طويل مشعر ومخالف تماماً للحمار الثانى ، أما الشرطىّ الذى تصادف وجوده بالخان فقد أصدر حكمه - بعد سماع الشهود - لصالح الغجرىّ ، ومن ثمّ فقد سدد الفلاح ثمن الحمار مرتين .. لقد سمعت منهم أيضًا حكايات أخرى كثيرة يدور معظمها حول سرقة المواشى التى برعوا فيها وتخرجوا من معاهدها العليا بأرفع التقديرات . ودون داعٍ لقص المزيد منها عليك أقول باختصار إن هؤلاء الغجر من أسوأ خلق الله ، وإنه رغم وجود عدد لا بأس به من القضاة الشرفاء الذين لا يدخرون وسعاً فى التنكيل بهم وإنزال أقسى العقوبات عليهم إلا أنهم لا ينصلحون ولا يرتدعون.

قضيت معهم عشرين يوماً قبل اتخاذهم القرار بالرحيل إلى مرسية ، مررنا فى الطريق إليها بغرناطة حيث وجدنا معسكر الفرقة التى ينتمى إليها سيدى السابق (الطبّال) ، ولما عرف الغجر ذلك حبسونى فى غرفة بالخان الذى نزلوا فيه ، لم أشأ مواصلة الرحلة إلى مرسية ، وعلى هذا فعندما لاحت لى الفرصة خرجت مسرعًا من غرناطة واختبأت فى بستان موريسكىّ هشّ لى وبشّ فلم أصدّه ، إذ بدا لى ساعتها أنه لن يطلب منى شيئاً غير حراسة البستان ، وهى بالطبع أفضل من حراسة القطعان.

وبما أن التعاقد لم يكن بحاجة إلى اللجاجة والتمادى فى المساومة فسرعان ما عثر الموريسكىّ على خادم يأمره ، ووجدتُ - فى المقابل - سيداً أطيعه. أمضيت فى كنفه شهراً كاملاً ، لا حبًّا فى شخصه أو فى نظام حياته ، بل لإشباع فضولى فى معرفة سلوكياته والاطلاع على خباياه ، وبالتالى فهْم طبيعة الحياة المعزولة التى يحياها الموريسكيون الموجودون على الأراضى الإسبانية .آه ، ياصديقى ثيـپيون ، من الكمّ الهائل من المعلومات التى كنت ستسمعها منى لو لم أكن خائفًا من عدم الفراغ منها قبل أسبوعين ، أو شهرين على أقل تقدير إذا تطرقت إليها بالتفصيل ، ورغم هذا فالواجب يستدعى ذكر جانب ولو يسير مما شاهدته ولاحظته فى حياة تلك الطائفة الصالحة المبجلة (٢٠) .

سأعتبرك سعيد الحظ لو صادفت من بينهم واحداً يؤمن إيماناً صادقًا بالمسيحية الغرّاء. إن شغلهم الشاغل يكمن فى جمع المسكوكات الذهبية وادخارها ، وهم من أجل ذلك يعملون ولا يأكلون ، وإذا وقع ريال صحيح فى حوزتهم يحكمون عليه بالسجن المؤبد فى غياهب الظلمات ، وبما أنهم يكسبون باستمرار ولا ينفقون البتّة فهم يضعون أيديهم على القسط الأعظم من النقد المتداول فى وطننا. إنهم حصّالة إسبانيا وعثّتها وعقاعقها وبنات

---

(٢٠) من الخصائص الأسلوبية لثربانتس استخدام النعت (مثل : صالح ،طيب ، مبجل ، محترم ... إلخ) فى غير ما وضع له على سبيل التهكم والسخرية ، إذ يطلق عادة ويراد به المعنى المضاد .. وفى هذا المقام تجدر الإشارة إلى أن الموريسكيين قد تم طردهم من إسبانيا عام ١٦٠٩ . (المترجم)

عرْسها ، وكل شيء فيها يذهب إليهم لكي يتم إخفاؤه وابتلاعه. لو أنعمت النظر في كثرتهم وكنْزهم الدائم لما يكسبون - حتى لو كان ضئيلاً - لعرفت أنهم مثل الحمى البطيئة التي تفتك بصحة الأمة ، ولا يقل خطرها - على الأمد البعيد - عن الطاعون. إن تكاثرهم اللامحدود يعني الزيادة المطردة في مخابيء الأموال . لا مكان بينهم للعفة والطهارة ، ولا يدينون - رجالاً ونساءً - بأية ديانة . لا تتوقف عجلة الزواج عندهم ولا التكاثر لأن حياة الكفاف التي يعيشونها تغْري بالتناسل. لا تفنيهم حرب ، ولا يعوقهم عائق ، وهم يسرقوننا في صمت ، ومن ثمار وخيرات أراضينا التي يبيعونها لنا بغتنون . لا يتخذون خدمًا أو أجراء لاعتمادهم الدائم على سواعدهم، ولا ينفقون درهمًا من أجل تعليم أولادهم لأن الدراسة عندهم تقتصر على التفقه في كيفية سرقتنا. نحن نعرف أنه قد خرج من أصلاب أبناء يعقوب الاثني عشر - الذين دخلوا مصر بعد إنقاذهم على يد موسى من السبْي - ما يزيد عن ستمائة ألف ذكر ، ومع هذا فلا يمكن مقارنتهم في هذا المجال بالموريسكيين.

ثيبيون : لابد من البحث عن علاج ناجع لتلك الأضرار التي أشرت إليها إجمالاً : فأنا أعرف أن ما سكتّ عنه أكثر بكثير مما ذكرته ولم توفق في عرضه العرض المناسب ، لكن جمهوريتنا لا تخلو من الحرّاس الغيورين عليها والمهتمين بمصالحها ، ولاشك أنهم لن يسمحوا بأن تظل تلك الأفاعي الموريسكية التي لا حصر لها جاثمة على صدر إسبانيا، وبعون الله سيجدون حلاً سريعاً وحاسماً للخطر الداهم الوشيك ، وعلى هذا فلا تشغل بالك والتفت لاستكمال حكايتك.

بيرجانثا : لما كان سيدي شديد البُخل والتقتير - مثل بني قومه - فقد كان يطعمني من طعامهم الشائع المتمثل في العصائد بأنواعها والخبز المصنوع من الدخْن ، لكن هذا الشحّ كان سببًا في تحليقي - على النحو الغريب الذي ستسمعه مني الآن - بوادي عبقر والارتقاء إلى عنان السماء . كان الفجر يطلع يوميًا فيضبط بنوره الخافت شاباً - يبدو أنه طالب - في لباس صوفيّ خشن حائل اللون ، جالسًا تحت جذع شجرة من أشجار

الرمان التى يغص بها البستان ، منهمكاً فى الكتابة فى أحد الدفاتر ، ومن حين لآخر كان يضرب جبهته براحته أو يعض أنامله وهو ناظر إلى صفحة السماء، وأحياناً أخرى كان يستغرق فى التفكير بحيث لا يحرك ساكناً - ولا حتى هدْباً - كأن به خبَل . اقتربت منه ذات مرة دون أن يشعر بى فسمعته يدمدم من بين أسنانه ، وبعد مضى وقت ليس بالقصير صاح بصوتٍ عالٍ : "المجد لرب الأرباب ! وجدتها ، ستكون هذه أفضل مقطوعة شعرية كتبتها فى حياتى" ، وفى أثناء كتابته المتسرعة كانت تبدو عليه أمارات السعادة العارمة. فهمت من القرائن السابقة أن البائس هو أحد الشعراء. قمت على الفور بملاطفاتى المعتادة لأثبت له وداعتى ثم تمددت تحت قدميه ، ولما اطمأن إلىّ واصل التفكير، ثم عاد لهرش رأسه من جديد وإلى تهويماته ، وتسجيل ما يخطر بباله.

وبينما نحن فى ذلك دخل علينا البستان شاب آخر حسَن الهيئة ويرتدى ملابس فاخرة . كانت فى يده أوراق ينظر إليها بين الفينة والفينة ، ولما اقترب من المكان الذى يجلس فيه الشاعر سأله : "هل انتهيت من الفصل الأول ؟" . "إننى أضع لمساته الأخيرة - أجاب الشاعر - وسيكون أجمل مما تتصور" . "فى ماذا ؟" - سأل الوافد الجديد. "فى هذا الفصل - أجاب الشاعر - يظهر قداسة البابا مرتدياً ثوبه الاحتفالى ، ومحاطاً باثنى عشر "كاردينالاً" عليهم الحلل البنفسجية المناسبة للزمن الذى تجرى فيه أحداث المسرحية ، هذا لأننى قرأت كل ما يتعلق بالاحتفالات الدينية الرومانية ووجدت أن حلل الكاردينالات لم تكن حمراء مثل وقتنا الحالى بل بنفسجية ، ومن ثمّ فإن ظهورهم فى اللون البنفسجى أمر لاغنى عنه ، توخيًا للمصداقية" . "ومن أين لمنتج المسرحية الإتيان بحلل من هذا اللون لاثنى عشر كاردينالاً ؟" - سأل الشاب الثانى . "لو استغنيت عن واحد منهم - أجاب الشاعر - ستتهاوى أركان المسرحية وسيفسد المشهد العظيم. تخيل من موقعك هنا ماذا ستكون عليه خشبة المسرح حين يظهر قداسة البابا مصحوباً باثنى عشر كاردينالاً ، وحولهم جميعاً يلتف المساعدون وبقية الحاشية. سيكون مشهداً

غير مسبوق ، ولن تضاهيه فى الروعة مشاهد مسرحية "باقة زهور داراخا" [٢١] .

من الحوار السابق أدركت أن الشاعر يتحدث مع ممثل مسرحى ، نصحه الأخير بتقليص عدد الكاردينالات حتى لا يصعب الأمر على المنتج فقال له إنه يستحق الشكر على عدم وضعه لمجمع الكرادلة بكامل هيئته فى هذا المشهد لكى يظل عالقًا بذاكرة الجمهور. ضحك الممثل ثم تركه وانصرف لحفظ دوره الجديد فى إحدى المسرحيات. بعد فراغ الشاعر من كتابة بعض القصائد فى مسرحيته العظيمة أخرج من جيبه الطويل - بتؤدة وبطء شديدين - عدة لقيمات من الخبز الجاف وحوالى عشرين حبة زبيب (هذا إن لم أكن أخطأت فى عدها بسبب التصاقها بفتات الخبز) ، ثم نفخ فيها مبعداً الفتات وشرع فى ازدرادها - حبة حبة - دون أن يلقى بأية بذرة على الأرض (وهذا يعنى أنه كان يبتلعها بما تحويه من بذور) . كان يتبع حبة الزبيب بعدد من اللقيمات التى احمرَّ لونها وأصبحت كالصدئة من جراء التصاقها ببطانة الجيب ، وعلى ما يبدو فقد كانت كسر الخبز شديدة الصلابة لأنه كان يحاول تطريتها ، مقلبًا إياها فى فمه مرات كثيرة ، فتذهب محاولاته أدراج الرياح ولا يستطيع النيْل من عنادها وشموسها، المهم أن إخفاقاته المتكررة اتجهت لصالحى فى النهاية لأنه كان يلقيها إلىَّ قائلاً : "خذْ تناول هذا بالهناء والشفاء" . "لقد عشت يابيرجانثا - كنت أقول لنفسى - لتتناول الطعام السماوى الخاص بالآلهة وبكبيرهم أبوللو" . لم يقلع الشاعر عن زياراته للبستان طيلة الوقت الذى أمضاه فى تأليف المسرحية، ولم تنقطع عنى - بالتالى - كسر خبزه التى كان يتقاسمها معى فى أريحية وسخاء ، وبعد فراغنا من ازدرادها كيفما اتفق ، كنا نذهب إلى الساقية حيث نطفئ ظمأنا - هو من القادوس ، وأنا مستلقيًا على بطنى - مثل ملكين

---

(٢١) "باقة زهور داراخا" : مسرحية مشهورة تتناول موضوعاً موريسكياً ، وقد ضاعت المسرحية ولم يصل إلينا نصها ، ومن ثمَّ فقد أشار إليها كتاب آخرون (من العصر الذهبى) بعناوين مختلفة عن العنوان الذى ذكره ثربانتس. (المترجم)

مُتَوَّجين . ولما انقطعت زياراته للبستان برّح بى الجوع فقررت ترك الموريسكى إلى غير رجعة والتوجه إلى المدينة للبحث عن مغامرة جديدة، وهى لا تتأتى - كما تعرف - إلا لمنْ يسعى إليها. دخلت المدينة فشاهدت شاعرى خارجاً من دير "سان خيرونيمو" الشهير ، وما إن رآنى حتى أقبل نحوى فاتحاً ذراعيه فاستقبلته بكثير من الحبور. أتحفنى ببضع لقيمات أكثر ليونة من تلك التى كان يحملها معه إلى البستان ، أسكتت اللقيمات نداء الجوع بداخلى ، واستمتعت بها استمتاعاً خاصاً لأن أسنانه لم تعبث بها قبل ولوجها فمى. استنتجت من طراوة اللقيمات ومن خروج شاعرى من الدّير المذكور أن موهبته متواضعة مثل كثيرين غيره.

انطلق فى شوارع المدينة ، وأنا فى إثره ، عاقداً العزم على اتخاذه سيداً إن أراد ، لأننى تصورت ساعتها أن بإمكانه سد خلّتى من فضالة ما يتلقاه من الآخرين ، إذ لا توجد مخلاة أفضل ولا أوسع من مخلاة الإحسان التى تستدر عطف الأيادى الرحيمة ، وفى هذا يصدق المثل القائل : "المتسول الجواد خير وأبقى من الغنى البخيل" . المهم أننا غززنا السير ، ومن شارع إلى آخر حتى وصلنا لبيت المنتج المسرحى الذى يدعى - حسبما أذكر - "أنجولو ألمالو" ، وهو شخص آخر غير "أنجولو" الممثل الكوميدى البارع الذى طبقت شهرته الآفاق. اجتمعت الفرقة بكامل أعضائها لسماع المسرحية من فم الذى اتخذته سيداً ، لكنه لم يكد يصل إلى منتصف الفصل الأول حتى انفضّ الحاضرون من حوله - فرادى وأزواجاً - ولم يبق لسماعه سوى المنتج وشخصى المتواضع. ومع أننى لا أفقه كثيراً فى الشعر إلا أن ما بلغته المسرحية من سوء جعلنى أجزم بأن الشيطان ذاته هو الذى أوحى بها للشاعر قاصداً إيراده موارد الهلاك ، وخير شاهد على هذا حالته المتردية وبلْعه المستمر لريقه حين وجد نفسه وحيداً بلا مستمعين ، ولم تكن مصيبته بالهيّنة لأن الممثلين - الذين يزيد عددهم عن اثنى عشر - عادوا جميعاً ، ودون التفوه بكلمة أمسكوا بشاعرى ، ولولا تدخل المنتج بالصياح

والتوسلات لكانوا - على وجه اليقين - قد وضعوه فوق بطانية وأشبعوه أرجحة وطيراناً فى الهواء . أصابنى الموقف بالذهول ، والمنتج بالغمّ ، والممثلين بالبهجة ، والشاعر بالحزن العميم ، وفى النهاية تحامل الأخير على نفسه - وإن كان بوجهه أثر اعوجاج - ولملم أوراقه ثم خبّأها فى صدره وهو يغمغم قائلاً: "ليس من المستحسن تقديم الإقحوانات طعاماً للخنازير" ، انصرف بعد ذلك راضياً. أما أنا ، الغارق فى بحر من الحيرة ، فلم أستطع ولم أرد اللحاق به ، وحسناً فعلت لأن ملاطفات المنتج المتكررة أجبرتنى على البقاء معه ، وفى أقل من شهر أصبحت ممثلاً كوميدياً قديراً للأدوار الصامتة فى المقطوعات المسرحية المسماة Entremeses [٢٢] . أوثقونى بكنار وعلمونى كيفية الاقتراب على حشبة المسرح من شخص بعينه ، وبما أن تلك المقطوعات الشعبية تنتهى عادة بمشهد الضرب بالنبابيت ، فقد كانت المقطوعات التى تمثلها فرقة سيدى تنتهى بزجرى وضربى وهرولتى واصطدامى بالديكورات والممثلين ، وعندئذ كانت تتعالى ضحكات الجهلاء (المتفرجين) ، وضحكاتهم تعنى زيادة دخل سيدى . آه ، يا ثيپيون ! كم كان بودى أن أسرد على مسامعك جميع ما رأيته فى فرقة سيدى المسرحية وفى فرقتين أخريين عملت معهما ، لكن الحديث عنهن متشعب وطويل ولا يمكن اختصاره ، ومن ثَمّ فلا مفرّ من إرجائه إلى يوم آخر ، هذا إن كان تواصلنا سيمتد إلى أبعد من هذه الليلة. ألا يثير عجبك طول حديثى ، وتنوّع الأحداث التى مررت بها ، وكثرة المخدومين الذين عملت فى كنفهم ؟ . إن كان ما تقدم يثير عجبك حقًا فاعلم إذن أن ما قصصته عليك حتى الآن ضئيل جداً بالمقارنة بما يمكن أن أحكيه لك عما شاهدته ولاحظته فى معايش هؤلاء الناس وأساليب حياتهم وعاداتهم وأعمالهم وأوقات فراغهم ، هذا بالإضافة إلى أشياء أخرى

(٢٢) Entremes : مسرحية قصيرة ذات موضوع فكاهى ساخر ، ينتقد فيه المؤلف أحد الأوضاع الاجتماعية السائدة ، ويتم خلال فترة الاستراحة بين فصول المسرحية الطويلة . (المترجم)

تفوق الحصر: بعضها لا يُجْهَر به، والبعض الآخر يستحق الفضح على الملأ من أجل استخلاص العِبر وكشف الأدعياء المزيفين المتشحين بعباءة التقوى والصلاح .

ثيپيون : أرى أن النظرة النقدية التحليلية للمواقف التى مررت بها وللأشخاص الذين عايشتهم لا تتناسب مع خوفنا الحالى من فوات الوقت وتحتاج لجلسة خاصة ، هادئة ومطمئنة ، ومن ثمّ فإن سرْد ما تبقى من قصة حياتك هو الأولى بحديثك الآن.

بيرجانثا : اقتناعاً منى بوجهة نظرك أقول إننى قدمت مع إحدى الفرق المسرحية إلى هذه المدينة (بلد الوليد) ، وفى أحد العروض تعرضت لضرب مبرح كاد يفقدنى حياتى ، لم أستطع الانتقام فى حينه للقيد الملتف حول عنقى ، ولما واتتنى الفرصة بعد ذلك تراجعت : هذا لأن الانتقام المبيَّت المقصود ينم عن القسوة وسوء الطويَّة. أنهكنى هذا العمل ، لا لصعوبة فيه أو مشقة، بل لما يحوى من أمور تستوجب التقويم والعقاب فى آن واحد ، ولما كنت أكتوى بنارها ولا أستطيع دفعها فقد عزمت على ألا أراها ، وهكذا اتشحت بوشاح القداسة مثل أولئك الذين يبتعدون عن المعاصى والمنكرات لعجزهم عن اقترافها ، وعندما رأيتك ذات ليلة حاملاً المصباح للمسيحى الصالح "ماهوديس" أكبرتك وأثنيت على عملك المقدس الجاد وتمنيت الاقتداء بك ، ومدفوعًا بهذا الوازع المحمود عرضت نفسى على "ماهوديس" فاختارنى لصحبتك وأحضرنى إلى هذه المَصَحَّة ، وما جرى لى فيها ليس بالقليل حتى ليستحق تخصيص بعض الوقت لحكايته، وأخص بالذكر ما سمعته من أربعة مرضى رماهم الحظ وأفضت بهم الحاجة لدخول هذه المستشفى واحتلال أربعة أسِرَّة متجاورة. وقبل أن أقص عليك ما سمعته منهم أطلب منك المعذرة لأن الحكاية قصيرة وتستعصى على الإطالة.

ثيپيون : عذرك معك ، هاتِ ما عندك لأن ضوء النهار يقترب.

بيرجانثا : على الأسرّة الأربعة الموجودة فى نهـايـة هـذا العنبر كان يرقـد المرضى الأربـعـة : الأول كـيميائى ، والثانى شاعر ، والثالث عالم رياضيات ، والرابع مستشار مالى (٢٣) .

ثيـپيون : مازلت أذكر أننى رأيت هؤلاء الرجال.

بيرجانثا : إليك إذن ما سمعته منهم : كنتُ متمدداً فى قيلولة يـوم من أيام الصيف الماضى تحت سرير أحدهم عندما أخذ الشاعر ينحى باللائمة على حظه العاثر ، سأله عالم الرياضيات عن سبب شكواه فأجاب قائلاً : "ولِمَ لا أشكو ، وقد نفذت بالحرف الواحد تعليمات "بويطيقا" هوراثيو التى تقضى بضرورة مرور عشر سنوات على تأليف العمل المسرحى قبل عرضه على الجمهور ! ولإيضاح ما تقدم أقول إننى أفنيت عشرين سنة من عمرى فى تأليف عمل مسرحى ضخم ، به كثير من الابتكارات ، وتتسم أبياته بالرصانة والوقار وجزالة الألفاظ ، كما يمتاز بحسْن التقسيم لأن بدايته تتفق مع وسطه ونهايته ، إنه باختصار ملحمة شعرية منقطعة النظير ، ومع هذا فلم أعثر حتى الآن على منتج يحمله إلى خشبة المسرح رغم مرور اثنتى عشرة سنة على تأليفه . إن ضخامة العمل وأهميته يتطلبان منتجاً جريئاً وسخياً ، ذكياً ورحب الأفق . يالتعاسة عصرنا وشقْوته !" . "وما هو موضوع العمل ؟" – سأل الكيميائى. "إنه يتناولَ – أجاب الشاعر – ما نسى أن يذكره أسقف "توربين" عن آرثر ، ملك انجلترا ، كما أن به ملحقاً يشتمل على قصة الالتماس الذى تقدم به القديس "بريال" ، وقد جاء كل هذا فى شعر ملحمى رصين ، بعضه عبارة عن مقطوعات ثمانية الأبيات ، والبعض الآخر عبارة عن شعر مرسل خالٍ من الأفعال ويعتمد اعتماداً كلياً على الأسماء" . "أنا فى الشعر قصير الباع – تحدث الكيميائى – ولا أستطيع بالتالى تقدير حجم المصيبة التى تشكو منها ، وإن كنت أظن أنها مهما بلغت من جسامة لن تضارع بأى حال أبعاد نكبتى : فأنا لا أنضح الآن ذهباً ولا فضة بسبب النقص الفادح

---

(٢٣) الكلمة الموجودة فى النص الأصلى (الإسبانى) هى arbitrista ، وتُطلق على كل من يضع خططاً غير واقعية لحل المشاكل المالية أو غيرها . (المترجم)

فى الأجهزة والمعدات ، ولخلوّ الساحة من مموّل أو راعٍ يمد لى يده بلوازم الكيمياء" . "هل لديك الخبرة ياسعادة الكيميائى – سأل عالم الرياضيات – فى استخلاص الفضة من المعادن الأخرى ؟" . "لم أقم حتى الآن بهذه التجربة – أجاب الكيميائى –، لكننى أعرف أنها تستخلص بالفعل ، أمامى أقل من شهرين للانتهاء من المعادلة التى ستؤدى إلى استخلاص الذهب والفضة من الحجارة ذاتها" .

"لاشك أنكما تُبالغان فى تصوير أبعاد محنتيكما – تحدث عندئذ عالِم الرياضيات – لأنكما فى نهاية المطاف لم تخسرا الكثير ، هناك مسرحيةٌ بيد أحدكما ومازال يراوده الأمل فى عرضها ، والآخر فى طريقه – عاجلاً أو آجلاً – لصياغةِ معادلته المبتغاة ، لكن ما قولكما فى مصيبتى التى ليس لها شبيه ؟ وتفردها نابع من افتقارها إلى سند مادى تركن إليه : لقد أمضيت اثنين وعشرين عاماً فى مطاردة "النقطة الراسخة" وكأنها سراب بقيعة ، حين يبدو لى أننى ظفرت بها ، وأنها لن تفلت من يدى بأى حال أكتشف فجأة أنها جد بعيدة . الشيء نفسه حدث لى مع "تربيع الدائرة" ، كلما ظننت أنه أصبح فى جيبى يتضح أن بوْناً شاسعاً مازال يفصل بينى وبينه . إننى فى عذابى هذا مثل "تانتالو" [٢٤] : يموت جوعاً، وهو فى جِنة فيحاء دانية الثمار ، ويحترق عطشاً وفمه يلامس الماء الزُلال . يخيّل إلىّ للحظات أننى أصبت كبد الحقيقة ، وبعد هنيهةٍ أكتشف أنها مازالت بعيدةِ المنال ، وهكذا أعود لتسلق الجبل الذى هبطْتُ من عليه منذ قليل وحطام جهدى جاثماً على ظهرى وكأننى "سيسيفو"[٢٥] جديد" .

(٢٤) قام تانتالو Tántalo – طبقاً للأساطير اليونانية – بارتكاب العديد من الجرائم ، وقد عاقبته الآلهة بوضعه فى بحيرة يصل ماؤها إلى عنقه ، كما أنبتت حوله أشجاراً مليئة بالثمار المتدلية فوق رأسه ، ورغم هذا فقد كان محروماً من الماء والطعام لأنه كلما حاول الشرب ابتلعت الأرض الماء ، وكلما حاول قطف ثمرة من الثمار أبعدتها الرياح فجأة . (المترجم)

(٢٥) عاقبت الآلهة – طبقاً للأسطورة – سيسفو Sísifo بعذاب سرمدى فى الجحيم يتمثل فى حمل صخرة ثقيلة إلى قمة جبل ، وكلما رفعها إليه سقطت فيعود لرفعها من جديد ، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية .(المترجم)

كان المستشار المالى صامتًا حتى تلك اللحظة ، لكنه ما لبث أن انفجر قائلاً : "مرحى ، مرحى ، أربعة شكّائين جديرين بندب حظ السلطان التركى جمعتهم الأقدار فى هذا المستشفى البائس ، وبادئ ذى بدء أقول إننى ضد المهن والأعمال الخالية من التسلية والمتعة ولا توفر حاجة أصحابها من الطعام والشراب. أنا ، أيها السادة ، مستشار مالى وإدارى ، وقد قدمت لصاحب الجلالة – على فترات غير متباعدة – العديد من الاستشارات الفنية النافعة التى تصب جميعها فى مصلحة الوطن ، وتحت يدى الآن دراسة قيمة لا أجد منْ أتوجه إليه بها لفكّ رهونه وإصلاح شئونه ، ولذا أعتقد أن مصيرها لن يختلف عن مصير أخواتها السابقات : أى الاستقرار فى حانوت قصّاب ليغلف بها بضاعته. وحتى لا تتهموننى بالجعجعة الفارغة سأكشف لكم – مضطراً – عن مضمون هذه الدراسة التى تعتبر سرية حتى الآن ، وأقول بإيجاز إنها تتمثل فيما يلى : يفرض– بموجب مرسوم ملكى – على رعايا صاحب الجلالة الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والستين الصوم يوماً واحداً فى الشهر ولمدة عشرين عامًا. وفى ذلك اليوم يمتنع الصائم عن اللحوم والأسماك والبيض والنبيذ والفاكهة والبقوليات – إلى آخر قائمة الطعام المعروفة – ولا يتناول سوى الخبز والماء ، ويتم تحويل قيمة ما أقلع عنه الصائم إلى نقود سائلة غير قابلة للحجز أو الرهن ، ثم تسلم كاملة غير منقوصة – بالحيلولة بينها وبين عبث محصلى الضرائب – لخزينة صاحب الجلالة. ومن خلال عملية حسابية بسيطة يتضح أن إسبانيا تضم – دون عد المرضى والعجائز والصبية – ما يزيد عن ثلاثة ملايين نسمة فى تلك المرحلة السنّية ، وأن متوسط الإنفاق اليومى لكل فرد من هؤلاء لا يقل بأى حال – حتى لو كان يأكل من خشاش الأرض – عن ريال ونصف، وحتى لو اعتبرناه ريالاً واحداً ، ألستم معى فى أن ثلاثة ملايين شهرية أكثر من كافية لسدّ أوجه الخلل العديدة ؟ ! وبالطبع فإن الصائمين لن يكونوا ملزمين بصوم يوم معين بل ستترك لكل واحد حرية اختيار اليوم الذى يناسبه ، وما من شك فى أن منافع الصيام هنا أوضح من مضاره

لأن ما نتحدث عنه يحقق هدفين فى وقتٍ واحدٍ : طاعة الرب وخدمة الملك.

ولضمان التطبيق النزيه لهذه الدراسة النقيّة الخالية من الشوائب أرى ضرورة تكليف الأبرشيات والكنائس بتنفيذها دون تدخل من الوكلاء المفسدين لجمهوريتنا والمكلفين بالإشراف على براءة الإعفاء من الصيام. ضحك الثلاثة من الدراسة والدّارس ، بينما ضحك هو من حماقتهم ، أما أنا فقد اعترتنى الدهشة لما سمعت ، وتملكنى العجب من لجوء معظم أصحاب الدعابة والعقول النيّرة إلى المستشفيات الفقيرة كى يقضوا نحبهم فيها.

ثيـپيون : معك حق يابيرجانثا ، والآن انظر فيما إذا كان لديك شىء تريد إضافته .

بيرجانثا : لم يبق سوى أمرين أود أن أختم بهما حديثى لأن ضـوء النهـار يقترب . فى جولة من الجولات التى يقوم بها "ماهوديس" لجمع التبرعات ، ساقتنا أقدامنا ذات ليلة إلى بيت المأمور القضائى لمدينتنا هذه ، وهو - كما تعرف - رجل عظيم ومسيحى ورع ، حين وجدناه بمفرده بدا لى أن الفرصة سانحة لأخبره بالنصائح التى سمعتها من أحد النزلاء المسنّين فى مشفانا بشأن التصدى لظاهرة الفتيات المتشردات اللاتى تتمادين - نتيجة للبطالة وقلّة الطلب على الخادمات - فى الفسق والفجور ، وأصبحن يمثلن السبب الرئيسى فى اكتظاظ المستشفيات كل صيف بطالبى المتعة الحرام ، إنهن مثل الآفات التى لا يمكن السكوت عليها ، وتتطلب العلاج الناجع السريع. ولما رفعت صوتى - ظناً منى بقدرتى على الكلام - لكى أحدثه بهذا كله وجدتنى أنبح نباحًا عاليًا بدلاً من الكلمات ، وعندئذ اشتاط المأمور غضبًا ونادى على غلمانه آمراً إياهم بطردى من الصالة ضرباً بالهراوات ، لبّى أحدهم النداء - وليته كان أصمّ ولم يسمع - وأمسك بسحّاحة نحاسية وجدها فى متناول يده ثم طفق يعنف بها ضلوعى التى مازالت تحتفظ بالآثار المقدسة لتلك الضربات.

ثيـپيون : هل توجعت من هذا يابيرجانثا ؟

بيرجانثا : كيف لا أتوجع والآلام لم تنفك عنى حتى الآن ، وكيف لا أضج بالشكوى ونيتى الحسنة لم تكن تستحق هذا العقاب ؟ !

ثيبيون : اسمع يابيرجانثا ، لا يحق للمرء التدخل بأى حال فيما لا يعنيه أو إقحام نفسه فى شأن من شئون الغير. ومن جهة أخرى يجب أن تعلم أن نصيحة الفقير لا تحظى مطلقًا بالقبول مهما كانت سديدة ، وأن على الفقير المتواضع ألا يكابر بتقديم المشورة لعلية القوم أو لمن يتوهمون تمتعهم بنفاذ البصيرة . الحكمة لدى الفقير تكتنفها العتمة وتغشاها الظلال، أى أنها محجوبة بالتعاسة ورقة الحال ، وإذا اكتشفت على سبيل المصادفة ينعتونها بالحماقة ولا يعيرونها التفاتاً.

بيرجانثا : صدقت يا ثيبيون ، ومن الآن فصاعداً سأعمل جاهداً على اقتفاء أثرك واتباع نصحك ، وعودة منى إلى استكمال بقية حديثى أقول إننى دخلت ليلة أخرى بيت سيدة أرستقراطية وكانت بين يديها قطيطة من اللواتى يطلقون عليهن فضالة الثوب ، كانت القطة متناهية الصغر بحيث يمكن لصاحبتها إخفاؤها - دون عناء - فى صدرها ، حين رأتنى قفزت من على ذراعىّ السيدة واقتربت منى مزمجرة ، ولم يهدأ لها بال حتى انقضت بخفّة على ساقى وطبعت عليها آثار أسنانها ، رمقتها فى غيظ واحترام وقلت لنفسى : "لو قابلتك فى الشارع ، أيها الحيوان التافه اللعين ، فلن يكون هناك سوى احتمالين لا ثالث لهما : إما أن أمزقك إرباً بين أسنانى أو لا أعيرك أدنى اهتمام" . ومن هذه الحادثة خرجت بنتيجة مفادها : عادة ما يتشح الجبناء قليلو الحيلة - حال تمتعهم بالحماية - برداء الجسارة والوقاحة ، ولا يتورعون عندئذ عن إهانة من يفوقونهم قيمة وشجاعة.

ثيبيون : وخير شاهد على ما تقول ما نراه من سفالة وتطاول الأقزام المتسترين بدروع ساداتهم ومخدوميهم ، وما إن يجتز الموت أو الريح العاصف للشجرة التى يستظلون بها حتى تنكشف سوءاتهم ، هذا لأنهم لا يتمتعون بأية مقومات غير تلك المستمدة من رعاتهم وحماتهم. الفضيلة ورجحان

العقل وجهان لعملة واحدة : عارية كانت أو مكسُوّة ، وحيدة أو فى جيش عرمرم. قد يختلف الناس مع شخص نفيس المعدن ويتسببون بذلك فى معاناته ، لكنهم لا يستطيعون فى النهاية إنكار قيمته وقَدْره ... وبهذا نختم حوارنا الذى طال لأن شذرات الضوء المتسللة من فجوات الحجرة تنبئ باستواء عود النهار ، وإذا لم تسلب منا نعمة الكلام العظيمة فموعدنا الليلة القادمة لأسرد لك قصة حياتى وما جرى لى من أهوال .

بيرجانتا : اتفقنا ، وستجدنى منتظراً فى هذا المكان .

استيقظ الملازم فور انتهاء المحامى من قراءة الحوار السابق ، وعندئذ قال له الأخير :

- رغم أن هذا الحوار مُختلق ولم يحدث على أرض الواقع إلا إنه بديع التكوين، ومن ثمّ فعلى السيد الملازم إتحافنا بقِسْمه الثانى.

- لاشك أن هذا الإطراء من جانبك - رد الملازم - سيدفعنى دفعًا لكتابة الجزء الثانى من الحوار دونما حاجة لمزيد من النقاش حول إمكانية حديث الكلبين من عدمها.

- سيدى الملازم ، لا داعىِ لإثارة الجدل ثانية حول هذا الموضوع ، يكفى أنه أمتعنى وهدهدنى وبثّ إلىّ شفراته . والآن هيا بنا إلى ميدان "إسپولون" (٢٦) لإمتاع عينىّ الجسد بعد أن شرِقت بالمتعة عينا الفؤاد.

- هيا بنا - ردّ عليه الملازم .

قالا هذا ثم انطلقا سوياً صوب الميدان المذكور آنفاً ...

(النهاية)

***

(٢٦) فى عصر المؤلف كان هذا الميدان يقع فى فضاء شاسع على مقربة من "سان لورينثو" ، ومن على مقاعده الرخامية يطلّ الجالس على مشاهد خلابة : بساتين ، نافورات ، أديرة ، غوطات مكتظة بأشجار الحور .... إلخ. (المترجم)

المؤلف في سطور :

- هو الكاتب الإسباني الأشهر : ميجيل دى ثربانتس سابدرا ، المولود عام ١٥٤٧ في «قلعة هنارس» والمتوفى عام ١٦١٦م .
- إبداع ثربانتس موزع على الأجناس الأدبية المعروفة في عصره : القصة والمسرح والشعر ، لكن شهرته العالمية كقصّاص طغت على الجانبين الآخرين .
- من أهم مؤلفاته القصصية : دون كيخوته ، وقصص مثالية ، ولاجالاتيا ، وبيرسيليس ، وسيخيسموندا . ومن أهم مسرحياته : معاهدة الجزائر ، ورحلة إلى نومانثيا ، وتاجر الأعراض المحظوظ ، وقاضي الطلاق ، ولوحة المعجزات ، وكهف شلمنقة ، ... إلخ . ويعتبر ديوانه «رحلة إلى البرناس» أهم مولفاته الشعرية .
- أعمال ثربانتس مُترجمة إلى كل لغات العالم تقريباً ، ومكانته في الأدب الإسباني مثل مكانة شكسبير في الأدب الإنجليزي ؛ وهو واحد من أفضل المبدعين على مرّ الأزمان والعصور .

المترجم في سطور:

- علي عبد الرءوف علي البمبي (أستاذ فقه اللغة الإسبانية وآدابها بكلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر) .
- حصل في ١٩٧٠/٦٩ على الثانوية الأزهرية ، وكان ضمن العشرة الأوائل على جمهورية مصر العربية في الدفعة المزدوجة لذلك العام .
- حصل في ١٩٧٤ على الإجازة العالية (الليسانس) من كلية اللغات والترجمة (قسم اللغة الإسبانية) بتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف ، وكان ترتيبه الأول على الدفعة .
- حصل في يناير ١٩٨٧ على الدكتوراه في فقه اللغة الإسبانية وآدابها من جامعة SALAMANCA (إسبانيا) .
- ترقى إلى درجة أستاذ مساعد عام ١٩٩٣ ، وإلى درجة أستاذ عام ١٩٩٩م .
- له العديد من الأبحاث (باللغة الإسبانية والعربية) والمؤلفات العلمية والترجمات المنشورة في مصر وبلدان عربية أخرى .
- شارك في العديد من المؤتمرات ، وناقش الكثير من الرسائل الجامعية ، وهو مُحَكّم في اللجنة العلمية الدائمة المنوطة بترقية أعضاء هيئة تدريس اللغة الإسبانية وآدابها.

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	نخبة
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روس	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى .
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	رمسيس عوض .
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢- السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣- نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوامريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل ألكسندر وفنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروت	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	الفين كرنان	بدر الديب

١٨٩- العمى والبصيرة	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧- ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	على إبراهيم منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البريرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردیا دیف بورکی	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستينر	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال	أرثر هومان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل تود	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	الانكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١- فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	على عبدالرءوف اليمبى
٢٤٤- الغليان	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤- الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	إبراهيم سلامة
٢٧٣- الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	محمود على مكى
٢٧٥- ت. س إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	فرانك جوتيران	عبد القادر التلمسانى
٢٧٧- الجينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات	إسحق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠- من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد
٢٨١- الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق	خوان رولفو	على البمبى
٢٨٤- هرقل مجنونًا	يوريبيدس	أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	سمير عبد الحميد
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢- المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روجر ألن	نخبة من المترجمين
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت صالح
٢٩٥- سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦- مكبث	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- الشعور	ديفيد بابينو	محمود محمد أحمد
٣٠٨- علم الوراثة	ستيف جونز	ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩- الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى	جمال الجزيرى
٣١٠- يونج	ناجى هيد	محيى الدين محمد حسن
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية	خايير بيان	عبدالله الجعيدى
٣١٤- الفن كعدم	جينس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	نخبة من المترجمين
٣٢٢- وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم سليمان
٣٢٤- اللعب بالنار	أشرف أسدى	محمود سلامة علاوى
٣٢٥- عالم الآثار	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر.س كلارك	مصطفى فهمى
٣٣٥- عصر الشك	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	فخرى لبيب

٣٤١- قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمن	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧- الصبية الطائشون	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	محمود سلامة علاوى
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هيرميس	نصوص قديمة	عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورات بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنبيرج	هاينرش شبورال	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرىء	نخبة	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤- اليوم السادس	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين	نخبة	إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٢٧٩- ملك فى الحديقة	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٢٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٢٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٢٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٢٨٣- هدية الحجاز	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٢٨٥- مشترى العشق	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٢٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٢٨٧- أغنيات وسوناتات	چون دن	بهاء چاهين
٢٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٢٨٩- من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	عثمان مصطفى عثمان
٢٩١- الحافلة الليلكية	مايف بينشى	منى الدروبى
٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٢٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٢٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٢٩٥- آلام سياوش	إسماعيل فصيح	سليم حمدان
٢٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود سلامة علاوى
٢٩٧- نيتشه	لورانس جين	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٨- سارتر	فيليب تودى	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٩- كامى	ديفيد ميروفتس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو	مشيائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- الرياضيات	زيادون ساردر	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	نخبة
٤١٣- أغنيات المنفى	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مايو	نسيم مجلي
٤٢٠-	مكرو ميجاس	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة	روى متحدة	أشرف محمد كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعي	محمودد سلامة علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ثريا شلبي
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك	محمد أمان صافي
٤٢٩-	هيجل	ليود سبنسر وأندرزجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	كانط	كرستوفر وانت وأندزجي كليموفسكي	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	ماكياڤللي	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	الرومانسية	دونكان هيث وچودن بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجي رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى في بلاد الشرق	شبلي النعماني	جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابي	صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة	أرونداتي روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ماهر جويجاتي
٤٤٣-	اللغة العربية	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علماني
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	الحركة النسائية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيدس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة محمود
٤٦٧-	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	محمد السيد النتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	عباءة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة محمود
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤- كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥- اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	نخبة
٤٩٧- العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	مصطفى رياض
٤٩٨- النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريود	أحمد على بدوى
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	فيصل بن خضراء
٥٠٠- فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١- تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢- أصوات بديلة	هدى الصدّة	هالة كمال
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤- كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥- كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦- ربما كان قديساً	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧- سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩- الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠- الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١- كوكب مرقّع	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢- كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣- العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون وودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨- استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩- محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠- الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢- إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣- الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤- الملك لير	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥- موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	نادية رفعت
٥٢٦- علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧- كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كر مب	جمال الجزيرى
٥٢٨- تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩- بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذي حَدَثَ في «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢- المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد الشرقاوى
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	شوقى جلال
٥٣٧- للحب والحرية	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨- النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير روناك ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- ميلاني كلاين	نخبة	حمدى الجابرى
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- بارت	فيليب ثودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨- علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩- علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠- شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى

رقم الإيداع ٢٠٠٥/٨٥٩١
I. S. B. N.
977 - 305 -819 - 0
مطابع المجلس الأعلى للآثار